

الفهرس

صفحة

مقدمة الكتاب (ح)

الباب الأول

العرب قبل الإسلام

١ - تاريخ الجاهلية السيامي

جزيرة العرب مهد الساميين	١٧
العصر الجاهلي	٢٢
العرب	٢٤
القحطانية والمدنانية	٢٧
الممالك العربية في الجاهلية :	

١ - مملكة معين	٣١
٢ - مملكة سبأ	٣٣
٣ - مملكة حمير	٤٩
الغزو الاجنبي لجنوب بلاد العرب	٤٤
الممالك العربية على التخوم :	

١ - إمارة الحيرة	٥٥
البيت اللخمي	٦٢
٢ - مملكة تدمر	٧٩

صفحة

٣ — مملكة غسان ٨٢

مدن الحجاز :

١ — مكة ٩٠

علاقة قريش بقبائل العرب في الحجاز ١٠١

٢ — يثرب ١١٣

٣ — الطائف ١٢٠

الديانات السائدة :

١ — الديانة الوثنية :

مظاهر الديانة الوثنية ١٢٥

(أ) الأصنام ١٣٣

هبل ١٣٧

اللات والعزى ١٣٩

أصنام أخرى ١٥٢

(ب) عبادة الحيوان ١٥٢

(ح) عبادة الأشجار ١٥٤

٢ — الديانة المسيحية ١٥٥

٣ — الديانة اليهودية ١٥٧

٤ — الصابئة ، والمجوسية ، والزندقة ١٦٠

البَابُ الثَّانِي

الدولة العربية

من ظهور الإسلام إلى سقوط الأمويين

البعثة النبوية - الخلفاء الراشدون - الدولة الأموية

أولاً - البعثة النبوية

صفحة	
١٦٤	نشأة الرسول
١٦٦	البعثة
١٧١	الهجرة إلى الحبشة
١٧٣	مقاطعة قريش لبني هاشم
١٧٦	بيعة العقبة
١٧٨	الهجرة
١٨٠	الرسول في المدينة
١٨٣	الغزوات والسرايا :
١٨٦	١ - غزوة بدر
١٨٨	٢ - غزوة أحد
١٩٠	٣ - غزو الأحزاب (الخندق)
١٩٢	صلح الحديبية
١٩٥	بين الرسول واليهود
١٩٩	٤ - غزو خيبر
٢٠١	رسل محمد عليه السلام إلى الملوك
٢٠٢	عمرة القضاء

صفحة

- ٥ - غزوة مؤتة ٢٠٣
- ٦ - غزوة الفتح (فتح مكة) ٢٠٤
- ٧ - غزوة حنين ٢٠٥
- ٨ - غزوة تبوك ٢٠٧
- حجة الوداع و وفاة الرسول ٢٠٧

ثانياً - الخلفاء الراشدون

- بدء ونهاية حكم الخلفاء الراشدين ٢١٠
- أزمة الحكم بعد وفاة النبي ٢١٠
- ١ - أبو بكر الصديق
 - بيعة السقيفة ٢١١
 - حركة المرتدين ٢١٤
 - المنبشون ٢١٥
 - حركة التوسع والفتح ٢١٧
- ٢ - عمر بن الخطاب
 - بيعة عمر ٢٢٢
 - الفتوح الإسلامية
 - (أ) فتح فارس ٢٢٣
 - (ب) فتح الشام وفلسطين ٢٢٧
 - (ح) فتح مصر ٢٢٨
 - العوامل التي سهلت انتصار العرب على الفرس والروم ٢٣٠
 - منشآت عمر ٢٣٣
 - مصرع عمر ٢٣٤

صفحة

شخصية عمر ٢٣٥

٣ — عثمان بن عفان

انتخابه ٢٣٨

اتساع الدولة العربية زمن عثمان ٢٤٠

مقتل عثمان والاحداث التي أدت إليه :

(ا) سياسة عثمان في تولية الولاة ٢٤٥

(ب) سياسة عثمان المالية ٢٤٦

(ح) تصرفات عثمان في الامور الدينية ٢٤٧

(و) حركة عبد الله بن سبأ ضد عثمان ٢٤٧

(هـ) اعتراض الصحابة على سياسة عثمان ٢٤٨

الحالة في الأمصار

(ا) في المدينة (ب) في الكوفة والبصرة (ح) في القسطنطينية ٢٤٩

الدور العملي في الفتنة ٢٥١

شخصية عثمان ٢٥٤

٤ — علي بن أبي طالب

انتخابه ٢٥٦

بين علي وطلحة والزبير ٢٥٧

بين علي ومعاوية ٢٥٩

التحكيم ٢٦١

الخوارج في عهد علي ٢٦٢

مقتل علي ، شخصيته ٢٦٣

الحسن بن علي ٢٦٤

ثالثا - الخلافة الأموية

صفحة

٢٦٥ الخلفاء الأمويون
	١ - معاوية بن أبي سفيان
٢٦٧ انتقال الخلافة إلى معاوية
٢٦٨ أشهر الولاية في خلافة معاوية
٢٦٩ تولية يزيد العهد
٢٧٤ الفتوح في عهد معاوية
٢٧٥ موقف معاوية لإزاء الخوارج والشيعة
	٢ - يزيد بن معاوية
٢٧٧ تولية الخلافة
٢٧٨ بين يزيد والحسين بن علي
٢٨١ بين يزيد وعبد الله بن الزبير
٢٨٣ ٣ - معاوية الثاني
	٤ - مروان بن الحكم
٢٨٥ انتقال الملك إلى الفرع المرواني
٢٨٦ سياسة مروان لإزاء الأمصار ، نهاية حكمه
	٥ - عبد الملك مروان
	الصعوبات التي واجهته
٢٨٨ (أ) ظهور التوابين
٢٨٨ (ب) ثورة المختار
٢٩٠ (ح) بين عبد الملك وابن الزبير
٢٩٤ (د) القضاء على فتن العراق
٢٩٥ (هـ) القضاء على ثورات الخوارج
٢٩٧ (و) فتنة عبد الرحمن بن الأشعث

صفحة

٢٩٨	(ز) استرداد إفريقية
٢٩٩	تقدير عبد الملك
	٦ — الوليد بن عبد الملك
	الفتوح في عهده
٣٠١	(ا) إقليم ما وراء النهر
٣٠٢	(ب) إقليم السند
٣٠٤	(ح) فتح شمال إفريقية
٣٠٥	(و) فتح الأندلس
٣٠٨	تقدير الوليد
	٧ — سليمان بن عبد الملك
٣٠٩	سياسته
٣١٠	حصار القسطنطينية
	٨ — عمر بن عبد العزيز
٣١٢	بيعته ، سياسته
٣١٣	إصلاحاته
٣١٥	وفاته
	٩ — يزيد بن عبد الملك
٣١٥	الفن الداخلية والخارجية
	١٠ — هشام بن عبد الملك
٣١٧	سياسته إزاء القبائل
٣١٨	التوسع والغزو ، الفن والثورات
٣٢١	١١ — الوليد بن يزيد بن عبد الملك
٣٢١	١٢ — يزيد بن الوليد بن عبد الملك
٣٢٢	١٣ — مروان بن محمد
٣٢٣	سقوط الأمويين

الباب الثالث الدولة العباسية

العصر العباسي الاول - العصر العباسي الثاني

أولا - العصر العباسي الأول

منحة

انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين ... ٣٢٦

بدء ونهاية حكم الخلفاء العباسيين الأول ... ٣٣٠

١ - أبو العباس السفاح :

ماذا يقصد بلفظ « السفاح » ؟ ... ٣٣٢

اتخاذ الأنبار عاصمة ... ٣٣٣

اضطهاد الأمويين ... ٣٣٤

عدم احترام اليهود والقدر بالانصار ... ٣٣٦

الثورات ضد حكم السفاح ... ٣٣٧

تقدير السفاح ... ٣٣٨

٢ - أبو جعفر المنصور :

شخصيته ... ٣٣٩

قضاء المنصور على المعارضة :

(أ) موقفه من عمه عبد الله بن علي ... ٣٤٠

(ب) موقفه من أبي مسلم الخراساني ... ٣٤١

النحل الدينية ... ٣٤٣

موقفه من العلويين ... ٣٤٥

منحة

تأسيس مدينة بغداد ٣٥٢
سياسته الخارجية :

(١) بين العباسيين والبيزنطيين ، (ب) سياسته إزاء الأندلس ٣٥٨

(ح) بين المنصور والفرنجية ٣٦١

٣ — المهدي :

أعماله ٣٦٢

الحركات الدينية في عهده ٣٦٣

صفاته ٣٦٤

السياسة الخارجية :

(١) مع بلاد الأندلس ٣٦٥

(ب) بين العباسيين والبيزنطيين ٣٦٥

٤ — الهادي :

سياسته إزاء العلويين ٣٦٧

اضطراب نظام ولاية العهد ٣٦٩

تدخل النساء في شئون الدولة ٣٦٩

٥ — هارون الرشيد :

عوامل شهرة الرشيد ٣٧١

الثورات ضد حكم هارون :

(١) ثورات العرب ٣٧٢

(ب) فتنة الخوارج ٣٧٢

(ح) ثورات العلويين ٣٧٣

(د) ثورات في المغرب والمشرق ٣٧٥

صفحة

البرامكة	٣٧٦
نكبة البرامكة	٣٧٨
العلاقات الدولية في عهد الرشيد :	

١ — علاقته بدولة بني أمية في الأندلس	٣٨١
ب — علاقته بالدولة البيزنطية	٣٨١
ح — علاقته بشارلمان	٣٨٢

تقدير الرشيد :

١ — بدء ظاهرة التجزؤ	٣٨٣
ب — عقد الخلافة من بعده لأولاده الثلاثة	٣٨٤
ح — انصافه بالغدر والقسوة	٣٨٥

٦ — الأمين :

الفتنة بين الأمين والمأمون	٣٨٦
حصار بغداد	٣٨٨
تقدير الأمين	٣٩٠
زبيدة أم الأمين	٣٩١

٧ — المأمون .

سياسته إزاء العلويين	٣٩٣
المأمون في العراق	٣٩٦
ثورات العرب ضد المأمون	٣٩٨
علاقة للمأمون بالبيزنطيين ، بوران زوجة المأمون	٤٠٠
النهضة العلمية في عهد المأمون	٤٠٢

صفحة

تقدير المأمون ٤٠٦
٨ - المعتصم :

سياسته إزاء العلويين ٤٠٨
اعتماده على الأتراك ٤٠٩
سامرا ٤١١
النحل الدينية : البابكية والمجوسية ٤١٢
علاقته بالدول البيزنطية ٤١٤
اعتماده على الأتراك . تقدير المعتصم ٤١٥

٩ - الواثق :

سياسته إزاء مسألة خلق القرآن ٤١٦
تقدير الواثق ٤١٨

ثانياً - العصر العباسي الثاني

خلفاء العصر العباسي الثاني ٤١٩
١ - الخلافة العباسية منذ وفاة الواثق إلى أن استولى بنو بويه على بغداد
(عهد سيطرة الأتراك) :

تدخل النساء في أمور الدولة ٤٢١
الخليفة العويبة في يد الأتراك ٤٢٤
تقسيم أملاك الدولة ٤٢٥
الخليفة يستجير بولائه ٤٢٦
ازدياد خطر التجزؤ ٤٢٨

صفحة

٤٣٤ ظهور أم المقتدر على المسرح السياسى
٤٣٦ ازدياد شوكة الأتراك
٤٤٠ إمرة الأمراء

٢ — الخلافة العباسية فى عهد بنى بويه :

٤٤٥ سلاطين بنى بويه فى العراق
٤٤٨ الشروع فى إقامة خلافة فاطمية فى بغداد
٤٥٢ تشهير الخلفاء العباسيين بنسب الفاطميين

٣ — الخلافة العباسية فى عهد سلاطين السلاجقة :

٤٥٤ ذكر اسم الخليفة الفاطمى على منابر بغداد
٤٥٨ حالة الخلفاء العباسيين
٤٥٩ تحسن العلاقات بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة
٤٦٠ النزاع بين العباسيين والسلاجقة
٤٦١ محاولة الخلفاء العباسيين استعادة نفوذهم
٤٦٥ سقوط بغداد وزوال الخلافة العباسية
٤٧٠ الخلافة العباسية فى القاهرة والقسطنطينية

البَابُ الْإِثْنَانُ

نظم الحكم والحياة الاجتماعية

في الجاهلية - في الدولة العربية - في الدول العباسية
أولا - عند العرب قبل الإسلام

صفحة

١ - نظم الحكم :

٤٨٤	حكومة القبيلة
٤٨٥	نظام القضاء
٤٨٦	سلطان شيوخ العشائر
٤٨٨	واجبات رؤساء العشائر

٢ - الحالة الاقتصادية :

٤٩٠	التجارة في جزيرة العرب
٤٩٥	معاملات العرب التجارية
٤٩٧	الأسواق

٣ - الحياة الاجتماعية :

٤٩٨	أفراد القبيلة . مكانة المرأة في الجاهلية
٥٠٤	زواج الجاهلية
٥٠٧	وأد البنات في الجاهلية
	أنواع التسلية عند العرب :
٥١٠	الصيد وسباق الخيل
٥٢٠	لعبة الكرة
٥١١	الآل والجراح
٥١٢	المدحاة والأرجوحة
٥١٢	الحذروف ووضاح
٥١٣	لعبة الميسر

صفحة

ثانيا - من ظهور الإسلام إلى سقوط الأمويين

١ - النظام السياسي

٥١٤	حكومة الرسول
٥١٥	انتخاب الخلفاء الراشدين
٥١٦	مميزات الخلافة الأموية

٢ - النظام الإداري :

٥١٨	الدواوين
٥٢٠	الكتابة
٥٢١	الحماية
٥٢٢	البريد

٣ - النظام القضائي

١ - القضاء

٥٢٣	في عهد الرسول . في عهد الخلفاء الراشدين
٥٢٤	في عهد بني أمية
٥٢٥	مرتبات القضاة
٥٢٦	ب - ديوان المظالم
٥٢٨	ح - الشرطة . و - الحسبة

٤ - النظام الحربي :

١ - الجيش :

٥٣٠	نظام الجيش
٥٣١	أسلحة الجيش
٥٣٢	إمرة الجيش
٥٣٣	ب - البحرية
٥٣٤	إمرة الأسطول

٥ - النظام المالي :

مؤارث بيت المال :

٥٣٥	١ - الخراج
-----	------------

صفحة	
ب — الجزية	٥٣٨
ح — العشور والزكاة	٥٤٠
و — الفداء والغنيمة	٥٤١
نظام الضرائب في عهد الأمويين	٥٤٣
مصارف بيت المال	٥٤٤
٦ — الحياة الاجتماعية :	
طبقات الشعب	٥٤٦
المرأة	٥٤٨
الفناء والموسيقى	٥٥٠
الطعام	٥٥١
أنواع التسلية	٥٥٢

ثالثاً — في العصر العباسي

١ — النظام السياسي	٥٥٣
٢ — النظام الإداري	
الإمارة على البلدان	٥٥٦
الوزارة	٥٥٨
الدواوين	٥٦٢
الكتابة	٥٦٣
الحجابة	٥٦٥
البريد	٥٦٦
٣ — النظام القضائي	٥٦٧
٤ — النظام الحربي .	
عناصر الجند	٥٧٠
أشهر القواد	٥٧٢
تنظيم الجيش	٥٧٣

صفحة

٥	النظام المالي	٥٧٥
٦	الحياة الاجتماعية :	
٥٧٨	طوائف السكان	
٥٨٠	المرأة	
٥٨٢	الملابس	
٥٨٤	الطعام والشراب ، والألعاب	
٥٨٥	الأعياد والمواسم والمواكب	
٥٩٢-٥٨٦	مجالس الغناء والموسيقى في بغداد	

المصادر

٦١٢ — ٥٩٣	مصادر الكتاب
-----------	--------------

الخرائط

٥٣	١ — الدولة الرومانية الشرقية
٥٦	٢ — دولة الفرس
٥٩	٣ — الحرب بين الفرس والروم
٨٧	٤ — قبائل العرب والإمارات العربية قبل الإسلام
٨٩	٥ — خريطة بلاد العرب
١٨٣	٦ — الغزوات
٢٢٥	٧ — فتح فارس
٢٢٩	٨ — فتح الشام وفلسطين
٢٣١	٩ — فتح العرب لمصر
٢٤٣	١٠ — واقعة ذات الصواري
٣٠٣	١١ — فتوح العرب في شبه جزيرة أيبيريا
٣٥٦	١٢ — بغداد في عهد المنصور
٤٤٦	١٣ — الحمدانيون والبيهيون والسلاجقة

الباب الأول

العرب قبل الإسلام

١ - تاريخ الجاهلية السياسي

جزيرة العرب ممر السابيين :

بلاد العرب قطر فسيح تبلغ مساحته حوالي مليون ميل مربع ، وهي تقع في الجنوب الغربي من آسيا ، ويحدها الخليج العربي وبحر عمان شرقا ، والمحيط الهندي جنوبا ، والبحر الأحمر غربا ، وبادية الشام شمالا . ويبدأ حدها الشمالي بنقطة الواقعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط الشرق ، ويمر جنوب البحر الميت حتى شرق الأردن ، ثم يمر من دمشق إلى الفرات متتبعا مجراه ليختفي عند الخليج العربي .

ومنذ العصر الجوراسي كان المحيط الهندي والخليج الفارسي يفصلان الجزيرة العربية عن الهند وفارس ، اللتين لا يزال تركيبهما الجيولوجي يارزا في منطقة عمان ، وفي العصر الثالث فصلت بلاد العرب عن شمال إفريقيا بظهور البحر الأحمر ، وبذلك صارت بلاد العرب محاطة بالمياه إلا من الشمال ، ومن هنا جاءت تسميتها بشبه جزيرة العرب أو بالجزيرة العربية ، كما يدعوا سكانها أنفسهم .

ولم يكن داخل بلاد العرب معروفا عند الجغرافيين القدماء ، وإنما اكتفوا بتقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

١ - بلاد الحجاز العربية .

٢ — بلاد العرب الصحراوية .

٣ — بلاد العرب السعيدة .

أما جغرافيو العرب فلم يعدوا بلاد الحجر من أقسام الجزيرة العربية ، مع أن الناحية الجغرافية والناحية الإثنوغرافية تجعلان بلاد الحجر قسما من أقسام الجزيرة^(١) . وتتألف بلاد الحجر العربية من جزيرة طور سيناء الممتدة من حدود فلسطين إلى البحر الأحمر ، ويتوسطها طود من حجر الصوان يحيط به بقاع صخرية قليلة النبات .

أما بلاد العرب الصحراوية ، فهي البادية الكبرى التي تمتد من حدود سورية والعراق إلى المحيط الهندي محاذية الخليج العربي . وليست طبيعة هذه الصحراء متشابهة ، بل تختلف إلى أنواع ثلاثة :

١ — النوع الأول : الصحراء التي يطلق عليها العرب « بادية السماوة » وتقع في الشمال بين الكوفة والشام وهي أرض مستوية لا حجر بها^(٢) وليس بها إلا قليل من آبار وعميون . ويقع جنوبي بادية السماوة جبلا أجا وسلمى ، ويعرفان اليوم بجبل شمر وهما تنوءان بارزان من جبال السراة الغربية ويتجهان نحو الشرق وينفذان إلى السهول الواقعة شمالي المدينة^(٣) .

٣ — النوع الثاني من الصحراء هي السماة « بالرُّبع الخالي » وهي تقع في الجنوب ، وتتصل ببادية السماوة في الشمال وتمتد شرقا حتى الخليج العربي ، وهي صحراء رملية كبيرة يغلب عليها الجذب والفقر . وقد اخترقها برترام توماس Bertram Thomas لأول مرة سنة ١٩٣١ م ثم تبعه فيليبي St. John Philby فاخرقها سنة ١٩٣٢ م ، وفي قليل من بقاع هذه البادية أشجار ونخيل ، وليس

(١) Le Bon, Gustave : La Civilisation des Arabes, p. 12.

(٢) ياقوت : معجم البلدان مادة سماوة .

(٣) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, 1

بها من الأودية ذات المياه إلا عدد قليل مثل وادي سرحان في الشمال ووادي الرمة ووادي الدواسر في الجنوب ، وهي تعمل جميعها على تنويع مظاهر السطح في هذه الصحراء . وقد تسقط بها بعض الأمطار فتمتلئ الأودية بالمياه ثم لا تلبث أن تجف بعد أن تفضي شيئاً من الخصب على بعض هذه البقاع^(١) . وقد أطلقت العرب على هذه الصحراء جملة أسماء : فالجزء الذي بين شرقي اليمن وحضرموت يسمى صنيهدا ، والذي بين شمالي حضرموت وشرقيها يسمى الأحقاف ، والذي في شمالي مهرة يسمى الدهناء^(٢) .

٣ - النوع الثالث من الصحراء هي الحرار التي أحدثتها البراكين . والحرار « جمع حرة وهي كل أرض فيها حجارة سود ورمل »^(٣) ، وذكر ياقوت أن الحرة « أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار »^(٤) . وتكثر الحرار في بلاد العرب ولا سيما حول المدينة ، وعد منها ياقوت في معجمه نحواً من ١٩ حرة أشهرها : تبوك ، حرة سليم ، حرة ليلي ، حرة أوطاس ، حرة غلاس ، وحرة واقم^(٥) .

أما بلاد العرب السعيدة فتشتمل على نجد والحجاز واليمن وعمان . وتقع نجد في جنوب بادية الشام وتشتمل على وسط جزيرة العرب بين الحجاز والأحساء مع إقليم اليمامة أو العروض حيث كانت مدينة هجر ، ويفصل نجداً عن آكام عمان الجبلية صحراء الربع الخالي .

ويقع الحجاز في جنوب جزيرة سيناء ، ويمتد على طول البحر الأحمر من أيلة - وهي المعروفة اليوم بالعقبة - إلى اليمن . وسمى حجازاً لأنه يفصل

(١) كما ترى في تيماء وخيبر على طرف المناطق الحارارية الواقعة في الشمال الغربي .

(٢) أحمد أمين : نجر الإسلام ص ٢ .

(٣) ياقوت : مرصد الاطلاع ج ١ ص ٢٩٣ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان . « مادة حرة » .

(٥) إحدى حرق المدينة وهي الشرقية ، وفيها كانت واقعة الحرة في أيام يزيد بن معاوية .

تهامة ، وهى الأرض المنخفضة على شاطئ البحر الأحمر ، من نجد وهى الأرض المرتفعة شرقا . وقيل إن الحجاز « ما حجز فيما بين اليمامة والعروض وفيما بين اليمن ونجد »^(١) ، وسعى حجازاً « لأنه فصل بين النور والشام وبين البادية »^(٢) ، وإنه « ما حجز بين تهامة والعروض »^(٣) . وهو على العموم قطر فقير تسكث به الأودية التى تمتلئ بالمياه بعد سقوط الأمطار ، ومناخه شديد الحرارة ، إلا أنه يعتدل فى بعض بلاده كالطائف المعروفة بحنة مكة^(٤) . ويستوقف الحجاز نظر المؤرخين ، لاشتماله على المدينتين الكبيرتين : مكة والمدينة ، وقد أصبح بحق « مهد الإسلام » والبقعة التى انتشر منها الدين الجديد ، فنال لذلك من عناية الباحثين والدارسين الشيء الكثير .

وتقع بلاد اليمن جنوبى الحجاز ، وهى قطر غنى عرف منذ القدم بالخصب ، وفيه تجود الزراعة عن طريق توفير المياه المتجمعة من الرياح الموسمية وحسن تصريفها ، وأشهر مدنها صنعاء وعدن ونجران ، وفى شرق اليمن تقع حضرموت على ساحل المحيط الهندى ، وتسكث بها الجبال والوديان . وتقع ظفار شرق حضرموت وهى من أعمال الشحر^(٥) وتشتهر بالتوابل والطيب ولا سيما اللبان ، وكان التجار يجلبون منها البخور للمعابد والميا كل المعبرية

وفى أقصى الزاوية الجنوبية الشرقية من جزيرة العرب تقع عمان ، وهى كورة عربية تشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع^(٦) ، واشتهر سكانها بالمهارة فى الملاحة فكانت حركة التجارة فى المحيط الهندى بين

(١) البكرى : معجم ما استعجم ج ١ ص ٢١٠ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، مادة « الحجاز » ج ٣ ص ٢١٨ .

(٣) مراصد الإطلاع ج ١ ص ٢٢٠ .

(٤) Sidelhot : Histoire Generale des Arabes. tome 1. p. ١2. (٥)

(٥) شحر عمان : ساحل البحر بين عمان وعدن — المنجد .

(٦) ياقوت : معجم البلدان .

سواحل الجزيرة الشرقية والهند منظمة منذ زمن بعيد وكانت السفن تحمل
المنتجات الموسمية من الهند إلى ساحل عمان . وفي الشمال الغربي من عمان تقع
البحرين أو الأحساء ، وتمتد على طول الخليج العربي من حدود عمان
إلى الفرات .

هذه هي جزيرة العرب مهد الساميين ، أو البقعة التي نزحوا منها إلى ماحولهم
من أقاليم . وقد انقسمت الآراء حول الوطن الأول للعنصر السامي . ويرى
بعض المؤرخين « أن جميع التقاليد السامية تدل على أن الجزيرة العربية هي المهد
الأول للساميين » وأن جزيرة العرب ولاسيما الأصقاع الوسطى منها لم تكن
قاحلة جرداء كما نراها اليوم ، بل كانت خصبة في العصور القديمة تصلح للعيش
والحياة والسكنى ثم اعتراها الجفاف فطمس معالمها وأزال حضارتها ، ومن هؤلاء
المؤرخ كيننج^(١) . وليس من السهل أن نقرر أ المناخ الجزيرة العربية - كما استنتج
بعضهم - كان أكثر اعتدالا خلال التاريخ ، ثم انتهى مع الأيام إلى جفاف تدريجي
أم لم يكن^(٢) . على أنه قيل كذلك إن نجداً هي المهد الأول الذي درج فيه
الساميون^(٣) وإنها هي التي وسمتهم بميسمها ، وطبعتهم بطابع الصحراء الذي
لا يمحى ، وإن الأمم الزراعية لا ترجع القهقري إلى طور البداوة والقيام على
للأنعام وإن العكس في ذلك صحيح . ورأى دى غوية De Goeij أن وسط
جزيرة العرب هو المسكن الأول للجنس السامي على العموم^(٤) .

(١) King : History of Babylon, pp. 116 — 120.

(٢) Brockelman : History of the Islamic Peoples, p. 2

(٣) الرحوم محمد محمود جمعة : مهد الساميين . بحث مستخرج من صحيفة دار العلوم .
السنة الرابعة ، العدد الأول ، سنة ١٩٣٧ .

(٤) في خطابه لدى المجمع العلمي سنة ١٨٨٢ .

العصر الجاهلي :

يعرف عصر ما قبل الإسلام في الجزيرة العربية عند جمهور المؤرخين والمحدثين وأصحاب السير « بالعصر الجاهلي » ، ويقصد به عادة « زمن الجهل وعدم المعرفة » وهو عين ما نعتت به الأزمنة السابقة للنصرانية في الآية الثالثة عشرة من الإصحاح السابع عشر من سفر أعمال الرسل^(١) . ولقد ورد لفظ الجاهلية في أربع آيات من آي القرآن الكريم^(٢) ، ويتبين لنا إذا ما دققنا النظر في هذه الآيات الأربع ، أن المعنى المقصود بالجاهلية ليس هو الجهل الذي هو ضد العلم ، ولكنه الجهل الذي هو السفه والغضب والأنفة^(٣) . وفي الحق أن لفظ الجهل ضد العلم قد ورد كثيراً بهذا المعنى في قول الشعراء القدماء أو الجاهليين كما يسمونهم ، والشعراء المحدثين على السواء ، ومن ذلك قول عنترة في معلقته :

• إن كنت جاهلة بما لم تعلمي •

ويطلق لفظ « الجاهلية » على الحال التي كانت عليها العرب قبل ظهور الإسلام ، يؤيد ذلك قول المؤرخين المحدثين : يقول الدكتور فيليب حتى « تفسر كلمة الجاهلية عادة بعصر الجهل أو الممجية ، ولكنها في الحقيقة تعني تلك الفترة التي كانت فيها الجزيرة العربية خالية من أي قانون أو نبي موحى إليه أو كتاب منزل »^(٤) :

The term Jahillia usually rendered time of ignorance or barbarism. In reality means the period in which Arabia had no dispensation, no inspired prophet, no revealed book.

(١) الموسوعة الإسلامية — مادة جاهلية .

(٢) قال الله تعالى « ألحكم الجاهلية يُبغون » المائدة آية ٥٠ ، « يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » آل عمران آية ١٥٤ ، « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية » الفتح ٢٦ « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى »

(٣) للرحوم أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٨٣ — ٨٤ .

(٤) Hitti, ph. : History of the Arabs, p. 37.

وأطلق المسلمون لفظ « الجاهلية » على كل الفترة الواقعة من فجر التاريخ العربي حتى ظهور الإسلام ^(١) .

واختلف العلماء في تحديد العصر الجاهلي ذاته ، فذهب بعضهم إلى القول بأنه : العصر الذي خلا من الرسل بين عيسى ومحمد ^(٢) ، ويرى بعض المفسرين أن المراد بالجاهلية في قوله تعالى « وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى » إنها الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام حيث كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال ^(٣) . وروى عن الحكم بن عيينة أن الجاهلية كانت بين آدم ونوح وهي ثمانمائة سنة ^(٤) ، وقال ابن عباس : مابين نوح وإدريس ^(٥) ، وروى عن ابن خالوية أن هذا اللفظ أطلق في الإسلام على الزمن الذي كان قبل البعثة ^(٦) ، ويرى نيكلسون أن الجاهلية تشمل في الحقيقة كل الفترة منذ آدم إلى محمد ولكنها قد تستعمل في دائرة محدودة للإشارة إلى عصر ما قبل الإسلام للأدب العربي ^(٧) .

بذلك يتضح صعوبة تحديد العصر الجاهلي كمصر معين من عصور التاريخ ، لأنه ليس زمناً متصلاً بعضه ببعض ، بل هو فترات منقطعة تقع حيناً بعد حين ، وكل فترة منها تكون طائفة وثنية لها شائرها ، ولها خصائص عباداتها التي تعبر عن شعور الأمة حسب دواعي البيئة ^(٨) .

(١) Nicholson : Literary History of Arabs, p. 30

(٢) الموسوعة الإسلامية - مادة جاهلية

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ج ١٤ ص ١٧٩ .

(٤) الألوسي : بلوغ الأرب في أحوال العرب ج ١ ص ١٧ .

(٥) القرطبي : نفس المصدر والجزء ج ١٤ ص ١٧٩ .

(٦) الألوسي : نفس المصدر ج ١ ص ١٥ .

(٧) راجع مقدمة نيكلسون في كتابه المسمى « تاريخ العرب الأدبي » .

(٨) محمد عبد المعيد خان : الأساطير العربية قبل الإسلام ص ٣ .

العرب :

يظهر أن المعنى الحقيقي للفظ عرب « Arab » هو صحراء « desert » كما يظهر أن كلمة « Arabya » — كما جاءت في نقوش الملك داريوس هيستاسبس Darius Hystaspes — تعنى صحراء الجزيرة وسورية وشبه جزيرة سيناء ^(١) . وكثيراً ما تصادف في المؤلفات اليونانية لفظى « Arab » و « Arabia » وإن كانت أفكار الشعراء عن موقع ذلك القطر خيالية كلها . وكان هيودوت عارفاً بالجزيرة العربية ، كما درس معاصروه من المؤرخين من أمثال اكزينوفون Xenophon لفظ « عرب » وقالوا إنه يطلق على صحراء الجزيرة العربية بوجه خاص كما يطلق على البدو كلمة أعراب ، وكان أهل التاريخ القديم من الفراعنة والآشوريين والفينيقيين يريدون بالأعراب أهل البادية في القسم الشمالى من جزيرة والعرب وشرقى وادى النيل فى البقعة الممتدة بين الفرات فى الشرق والنيل فى الغرب ^(٢) .

وفى العصور المتأخرة نسبياً كان أهالى الجزيرة العربية يعرفون عند الغربيين باسم « Saracens » ، وأطلق أهالى الولايات البيزنطية هذا اللفظ على القبائل العربية بسبب تعديهم على القوافل المارة ببلادهم أو تعرضهم للضرائب الفادحة عايبها ، واستمر أهالى الجزيرة يعرفون عند الغربيين بهذا الاسم ، نظراً لكثرة استعماله فى آدابهم ، حتى إن المسلمين لم يسلموا من النعت به فيما بعد ^(٣) . على أن لفظ Saracens قد يكون اسم قبيلة من سكان أعالي الجزيرة ، يظن أنها منقوطة من « الشرقيين » لأن تلك القبيلة كانت تقيم فى شرق جبل السمراة ^(٤) .

(١) Noldeke : Historians' History of the World, Vol. 8, p.2

(٢) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٣١ .

(٣) Noldeke : Historians' History of the World, Vol. 8 p. 4.

(٤) جرجى زيدان : نفس المصدر ص ٣١ .

وأطلق الروم على العرب لفظ « ساراقينوس » ، ومعناه عبيد سارة ضغنا منهم على هاجر وابنها إسماعيل . وقيل إن هذا اللفظ قد يكون محرفا عن Sarakins اليوناني ، وأن هذا اللفظ الذي استعمل في آداب القرن الأول الميلادي يدل على اسم شعب كان يسكن سورية أو شرقي الأردن أو شبه جزيرة سيناء ، ثم توسع المؤرخون اليونان في استعماله حتى شمل كل الشرقيين ، وأصبح اسم Saracens يطلق على العالم الإسلامي في العصور الوسطى ، وهو تحريف للفظ Sarakinos اليوناني ^(١) .

وعرف العرب كذلك بلفظ « Taits » الذي أطلقه السريانيون من أهل الرها وسكان بابل على جميع العرب ، والظاهر أن المقصود بهذا اللفظ قبيلة طيء لشهرتها في الجاهلية ، والتي كانت تقيم أصلا في شمال نجد ثم انتشرت في جهات خارج بلادهم ^(٢) .

وينقسم العرب إلى قسمين عظيمين أو طبقتين كبيرتين : أما الطبقة الأولى فهي العرب البائدة ، ويريدون بها القبائل التي هلكت ودرست آثارها وانقطعت أخبارها ، وهي عندهم تسع : عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعييل وجرم وجاسم وعليق ، وأشهرها الأربعة الأولى ويسمونها العرب العاربة . أما الطبقة الثانية فهي العرب المتعربة أو المستعربة وهم أبناء إسماعيل بن إبراهيم : ويذهب بعضهم إلى تقسيم العرب إلى عاربة وبائدة وهم عاد وثمود وطسم وجديس ، وتسمى قحطان عربا متعربة وعدنان عربا مستعربة .

أما العرب العاربة فسموا بذلك لرسوخهم في العربية ، ويعتبرهم المؤرخون أقدم سكان جزيرة العرب ، كما يعدونهم ساميين من نسل إرم بن سام ،

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ١٧ - ١٨ .

(٢) Noldeke : Bistorians' History of the World, Vol. 8 p. 4, (٢)

إلا العماقة فيقولون إنهم من نسل لاوذ بن سام أخى إرم^(١) ، ويقال إن قوم عاد ومعظم العماقة القدماء من نسل حام^(٢) ، وقد ورد ذكرهم في القرآن مثلاً للكبرياء والجبروت اللذين أديا بهم إلى التهلكة . ولا تتعرض التوراة لأصل هذه القبائل ، وقد حاول بعض مفسريها تطبيق أسماء هذه القبائل البائدة على بعض الأسماء الواردة بالتوراة فلم يستطيعوا ذلك إلا بتكلف ملحوظ .

أما عاد ، فكان موطنها حضرموت التي تتاخم بلاد اليمن على حدود الصحراء المسماة بالأحقاف ، ولا يمكن تحديد ما إذا كان قوم عاد من الجنس السامى من سلالة الإرميين ، أم أنهم يمثلون ثقافة غير سامية خلفت إرم ذات العباد ؟ وكان قوم عاد من أشد الناس بطشاً ، شيدوا أبنية شاهقة تدل على حضارتهم ومدنيتهم ، وكانوا يعبدون الأصنام ويقتربون شتى الموبقات ، فلما بعث الله فيهم أخاهم هوداً نبياً ورسولاً لم يؤمن به إلا القليل ، وقالوا له « يا هود ما جئتنا بمينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين ، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء »^(٣) ، ثم نزل بهم قحط شديد ، وساق الله عليهم العذاب فأفناهم جميعاً إلا فئة قليلة لبث نداء هود وأجابته إلى دعوته ونبذت عبادة الأوثان . وعلى مر الزمان ظهر شعب آخر يدعى بقوم عاد الثانية ، وكان مقرهم اليمن ، وينسب بناء سد مأرب إلى ملكهم لقمان بن عاد الذي حاك حوله المؤرخون العرب طائفة من الخرافات .

وكان ملك ثمود في شمال بلاد العرب بين الشام والحجاز ، وكانوا يسكنون بيوتاً منحوتها في الجبال ، ولا تزال آثارهم المنحوتة في الصخور قائمة في مدائن

(١) جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٣٧ .

(٢) Caussin de Perceval : Histoire dee Arabes, Vol.1 p. 7.

(٣) سورة هود : ٥٢ - ٥٤ .

صالح على مسيرة أسبوع من شمال المدينة والتي تدل عليها النقوش النبطية^(١) التي عثر عليها في القبور . ولما طغوا أرسل الله إليهم صالحاً نبياً ، فهزأت نمود من نبيها صالح وأبت أن تطيعه حتى يأتي بمعجزة خارقة ، فأخرج لهم صالح من الصخر ناقة وفصيلها وأمرهم ألا يمسوها بسوء ، بيد أن أحد أشرارهم عقرها وذبحها ، فأرسل الله عليهم صيحة من السماء فأصبحوا في ديارهم جامعين ، وسار صالح إلى فلسطين ثم إلى الحجاز مع من بقي من قومه المؤمنين .

وأشار ديودور الصقلي وبطليموس وغيرهم من القدماء إلى وجود آل نمود ، ما عاد فلم نجد لهم أثرًا يذكر خلال العصور التاريخية ، مع أن آل نمود قد عاشوا حتى القرن الخامس والتحقوا بجيش الدولة البيزنطية كفرسان نموديين^(٢) . وكانت مساكن طسم وجديس في اليمامة ، والملك عليهم من طسم ، ثم انتقل الملك إلى جديس ، ولم يدون عن هاتين القبيلتين شيء إلا حقيقة هلاكهما والأسباب التي أدت إليه . ويقصد بالعاقبة ، أهل شمال الحجاز مما يلي جزيرة سيناء ، الذين فتحوا مصر باسم « الهكسوس » ، وملكوا نابل أولاً ثم نزحوا منها إلى جزيرة العرب ، وقيل إن لفظ « العاقبة » منحوت من اسم قبيلة مواطنها بمجعات العقبة أو شمالها حيث كان العالقي^(٣) .

القطمانية والعمرناوية :

كان موطن شعب قحطان بلاد اليمن ، وهو ينسب إلى قحطان بن عابر ابن شالح الذي يقال إنه أول من ملك أرض اليمن ولبس التاج^(٤) وأطلق على نسل

(١) Doughty : Documents epigraphiques recueillis dans (١)

le Nord de L'Arabie, p. 12 sui

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 3.

(٣) جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٣٨ :

(٤) أبكاربوس : نهاية الأرب في أخبار العرب ص ٦ (طبع مرسليليا) .

قحطان اليمينيين أو القحطانيين ، بينما أطلق على نسل إسماعيل بن إبراهيم العدنانيين أو النزاريين ، وصار هذان اللفظان يرادفان عرب الجنوب وعرب الشمال . وخلف قحطان - جد أعراب الجنوب - ابنه يعرب الذى يقال إنه أول من اتخذ العربية لساناً ولقبه الشعراء « رب الفصاحة » ، قال بعضهم :

فما مثل قحطان الساحة والندى ولا كابنه رب الفصاحة يعرب

ومن هنا أطلق على القحطانيين العرب المستعربة ، أما العدنانيون فيقال لهم العرب المستعربة ، لأن إسماعيل كان يتكلم العبرانية . فلما نزلت جرهم من القحطانية بمكة وسكنوا مع إسماعيل وتزوج منهم ، وتعلم هو وأبناؤه العربية فسموا المستعربة ، وهم جمهور العرب من البدو والحضر الذين يسكنون أواسط جزيرة العرب وبلاد الحجاز إلى بادية الشام^(١) .

وكان أهل الجنوب يعيشون عيشة قرار ، أما أهل الشمال فغلبت عليهم البداوة والارتحال . وكانت لغة اليمينيين تختلف لغة العدنانيين في أوضاعها وتصاريفها ، وكما كان لسان أهل الجنوب يشمل لهجات شتى أهمها : المعينية والسبئية والقبتانية والأوسانية والحضرية ، وهى قريبة من اللهجات الحبشية السامية ، كذلك كان لسان أهل الشمال يشمل أيضاً عدة لهجات نستطيع أن نميز بين أربعة أنواع منها وهى اللحيانية^(٢) والنمودية^(٣) والصفوية^(٤) والنبطية . وتمتاز اللهجات الثلاث الأولى بخطوطها المشتقة من الخط العربى الجنوبى ، بخلاف اللهجة الرابعة المنقوشة بخط آرامى ، كما تمتاز اللحيانية والنمودية أيضاً باشتغالها على كلمات وصيغ لا تختلف كثيراً عن اللغة العربية الفصحى ، على حين أن

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٥ .

(٢) سمى العلماء هذه اللهجة العربية القبالية باللحيانية لأنه ذكر فيها بنو لحيان .

(٣) سميت بهذا لشهرة بنى نمود قبل الإسلام فى نجد وشمال جزيرة العرب .

(٤) لاسمها مأخوذ من جبل الصفاء الموجود فى بادية الشام .

اللهجة الرابعة هي لهجة آرامية اختلط بها صيغ وكلمات عربية^(١).

ولقد سبق عرب الجنوب عرب الشمال في إنشاء حضارة خاصة ، بينما ظل معظم الشماليين يعيشون في بيوتهم التقليدية المصنوعة من الشعر ، وينتقلون من مكان إلى آخر طلباً للعيش والحياة ، ولم يظهر عرب الشمال على المسرح العالمى إلا بيزوغ شمس الإسلام الذى تعتبر أرضهم مهده الأول . وهناك فرق بين عرب الشمال - بما فيهم عرب نجد - وبين عرب الجنوب ، من الناحية الجنسية : فعرب الشمال ينتسبون لجنس البحر الأبيض المتوسط ، أما عرب الجنوب فينتسبون للجنس الألبى المسمى أيضاً بالجنس الحيثى أو العبرى ومن مميزاته الفك العريض والأنف الأففى والخذ المنبسط والشعر الكثيف^(٢).

وكان العداء مستحكماً بين العدنانيين والقحطانيين منذ القدم حتى أن كلامهم اتخذ لنفسه شعاراً في الحرب يخالف شعار الآخر ، فاتخذ المضربون العائم الحجر والرايات الحجر ، واتخذ أهل اليمن العائم الصفر والرايات الصفر^(٣) . وكان توالى الحوادث والوقائع الحربية يزيد فى العداء بينهم ، ولم يزل الاختلاف واضحاً بينهم على الرغم من محاولة الإسلام توحيد الأمة العربية وجمع شملها تحت لوائه ، وقد كان لهذا الاختلاف شأن كبير فى إضعاف معنويات الدولة العربية .

الممالك العربية فى الجاهلية

لم تعرف بلاد العرب قبل الإسلام نظام الدولة السياسى ، ولم يكن بها حكومة مركزية تهيمن على كافة شؤونها ، وإنما اكتظت بالوحدات السياسية

(١) أنوليمان : لهجات عربية شمالية قبل الإسلام ، بحث مستخرج من مجلة مجمع اللغة العربية الملكى . ج ٣ ، ١٩٣٦ .

(٢) Hitti History of the Arabs, p. 30 (٢)

(٣) أحد أمين : فجر الإسلام ص ٧ .

المستقلة التي عرفت بالقبائل . والظاهر أن العرب في جاهليتهم لم يكن لهم شعور بأنهم أمة بالمعنى الصحيح ، إنما كان الشعور القوى عندهم شعور الفرد بقيماته ، التي يتبعها حلت أو رحلت ، ويذب عنها غارة الغير وظلم المعتدى . والشعر الجاهلي ملؤه بالشعر القبلي ، فالعربي يمدح قبيلته ويعنى بانتصارها ، ويعدد محاسنها ، ويهجو القبيلة الأخرى من أجل قبيلته ، ولكن قل أن نجد أن شعراً يتغنى فيه العربي بأنه عربي ويفخر فيه على غيره من الأمم ^(١) .

لم تسكن الجزيرة العربية قبل الإسلام وحدة متماسكة من الناحية الجنسية واللغة الدينية ، فضلاً عن وسائل المعيشة التي كانت تختلف في جهة عن الأخرى . فمن الناحية الجنسية نجد أن عرب الجنوب قد اختلطوا منذ القدم بالأحباش وشعوب إفريقية الشرقية ، حتى تميزوا عن عرب الشمال في خلقهم ولونهم . ومن الناحية اللغوية نرى أن لغة الجنوب التي اتسمت بالطابع الحبشي السامي ، كانت تختلف لغة الشمال القريبة من اللغة العبرية والنبطية . ومن ناحية الدين نشعر بالاختلاف البين بين عبادة أهل الجنوب وأهل الشمال : فأهل الجنوب كانوا يعبدون الأجرام السماوية . أما أهل الشمال فقد عبدوا الأصنام المنحوتة . وخلت الجزيرة العربية من وجود هيئة خاصة من كبار زعمائها ، تكون بمثابة الحكومة في العصر الحديث ، لها قوة تنفيذ أوامرها على كافة الأفراد . واستعان زعماء العرب في الجاهلية بالفتاك والخلعاء والصعاليك على تنفيذ خططهم أو نصب المهالك لأعدائهم ، وكانت القبائل كثيراً ما تتحلق هؤلاء الشذاذ ، فتتبرأ من جرائرهم ، وتتخلص من تبعه أعمالهم ^(٢) .

وقد نشأ بأطراف جزيرة العرب قبل الإسلام بعض الدويلات ، مثل : ممالك اليمن في الجنوب ، ومملكة الحيرة في الشمال الشرقي ، ودولة الفساسنة

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ١ ص ١٧ .

(٢) Lammens : Le Berceau de L' Islam, Vol. 1.p 193—194. (٢)

في الشمال الغربي . أما وسط بلاد العرب فقد سادت فيه الحياة القبلية بأجل مظاهرها ، حيث كانت القبائل تحيا حياة سياسية فطرية . وامتاز الحجاز عن غيره باهتمامه على عدة مدن ذات حياة سياسية خاصة مثل مكة والمدينة والطائف .

ولم تكن الجزيرة العربية خالية من طبقة الحكام ، وإنما كان يحكمها بعض الملوك المتوجين مثل ملوك معين وسبأ^(١) من أولاد قحطان ، كما كان رؤساء العشائر يقومون بما يقوم به الملوك تماما ، وكان لهم ما للملوك من الحكم والسلطان . وكان ببلاد العرب بعض البيوتات المشهورة بالكبر والشرف مثل : بيت هاشم بن عبد مناف بيت قريش ، وبيت آل حذيفة بن بدر الغزاري بيت قيس ، وبيت آل ذى الجدين بن عبد الله بيت شيبان ، وبيت بنى الديان من بنى الحارث بيت اليمن . وكان لرؤساء هذه البيوتات مكانة مرموقة بين العرب سكان البادية والحضر . ولم يعد العرب قبيلة كنفدة المشهورة بين أهل البيوتات ، وإنما عدوهم من الملوك^(٢) ، وكان موطنهم حضرموت الواقعة في الجنوب الشرقي ، وقد امتد سلطانهم إلى الحجاز واليمن ، على أن أمر هذه المملكة لم يدم طويلا ، إذ سرعان ما دب الضعف إليها واختفت من مسرح الجزيرة العربية تماما .

١ - مملكة معين :

ازدهرت في جنوب بلاد العرب منذ الألف الثاني قبل الميلاد ، حضارة راقية ، حيث كان المناخ ملائما كل الملاءمة للزراعة والرعى ، كما اعتمدت تلك الحضارة على التجارة أيضا . ومن بين الممالك التي نشأت في هذه البقعة من جزيرة العرب : مملكة معين وتقع في جوف اليمن بين نجران

(١) سبأ اسمه عبد شمس وقيل اسمه عامر وهو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان وسبأ اسم يجمع القبيلة كلها كما يكون اسم رجل بعينه . راجع ابن دريد : كتاب الاشتقاق ص ٢١٧ .

(٢) الأصفهاني : الأغاني ١٧ ص ١٠٦ - ١١٠ .

وحضرموت^(١) ، وكانت سبأ تقع بين معين في الشمال وقتبان في الجنوب ، أما حضرموت فتقع شرفى هذه الممالك الثلاث^(٢) .

نزع الميعينيون مع غيرهم من القبائل إلى جزيرة العرب حيث استوطنوا منطقة الخوف ، وما أن أطل عليهم الألف الثانى قبل الميلاد حتى كانوا قد توسعوا فى مستعمراتهم التجارية بعيداً نحو الشمال^(٣) . على أنه إذا كان المؤرخون القدماء لم يذكروا أسماء ملوك معين أو شيئاً من أخبار وأحوال مملكتهم ، فإن رجال الآثار أراحوا شيئاً من الغموض الذى خيم على هذه المملكة ، ومنهم من قام بالبحوث الطويلة عن نظمها السياسية والاجتماعية معتمدين على النقوش وحدها التى كشفت حديثاً فى جنوب جزيرة العرب ، حتى كشفوا عن أسماء ستة وعشرين ملكاً من ملوك معين^(٤) ، واستدل من النقوش الميعينية على أن نظام الحكم فيها كان ملكياً وراثياً ، حيث كانت السلطة تنتقل من الأب إلى الابن ، وقد يشترك الاثنان معا فى الحكم .

وكانت منتجات معين الوطنية وهى البخور والمر عظيمة القيمة فى مصر ، وكان موقعها الجغرافى العظيم على البحر الأحمر مركزاً تجارياً هاماً منذ القدم^(٥) ، وامتد مجال نفوذها حتى بلغ غزة شمالاً على البحر الأبيض المتوسط ، وانتشرت محطات تجارتها ومخازن أسلحتها على طول الطريق . ومن ثم كانت مملكة معين من القوة والغنى مايفوق مملكة سبأ ، التى اشتهر أمرها فى التاريخ ، لأنها ظهرت

Hitti : History of the Arabs, p. 52 (١)

De Lacy, O'Leary : Arabia before Muhamed, p. 93. (٢)

Brockelman : History of the Islamic Peoples, p. 3. (٣)

Hitti : History of the Arabs, p. 45. (٤)

Hell : Die Kultur der Araber, English Translation by (٥)

Khuda Bukhsh, p. 4.

في وقت كان فيه الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية مزعزعا وأقل أمنا .
في عالم التجارة . ولقد أشار ديودور الصقلي إلى المعينيين بأنهم كانوا يجلبون
البخور من جنوب جزيرة العرب إلى شمالها ، ثم حذا حذوهم السبثيون فمدوا
الهيكل المصرية بالبخور في عهد البطالسة^(١) .

٢ - مملكة سبأ :

ترجع إلى أقدم معلوماتنا عن ممالك جنوب جزيرة العرب إلى الجغرافي اليوناني
إراتوستنيس Eratosthenes الذي ذكر أسماء سكانها ، وهم : المعينيون
والقبتانيون وأهل حضرموت . وكان السبثيون أكثرهم شهرة ، إذ كان لفظ
« سبئ » يطلق عادة على جميع تجار العرب كما كان يستعمل كثيراً في العهد
القديم . وقد تتبع استرابون أسماء المعينيين والسبثيين والقبتانيين ، من الشمال
إلى الجنوب^(٢) .

امتد حكم سبأ حول سنة ٩٥٠ إلى سنة ١١٥ ق . م ، وقد حكم ملوكها
الأول في نفس الوقت الذي حكم فيه آخر حكام معين ، ولم تلبث أن انتزعت
سبأ سلطان معين ، وآلت إليها السيادة على الجزء الجنوبي من جزيرة العرب ،
وأصبح ملوكها حكاماً على هذه البلاد في أزهى فترة تاريخها^(٣) . ولا يصح
أن يطلق اسم سبأ على بلاد العرب السعيدة ، لأنها لم تكن سوى إقليم منها
وإن كانت أقوى تلك الممالك شكيمة وأهمية^(٤) وتنسب مملكة سبأ إلى سبأ بن
يشجب بن يعرب بن قحطان جد عرب الجنوب ويسمى سبأ عبد شمس ، وكان ملكاً .

(١) De Lacy, O'Leary : Arabia before Muhamad, p. 94.

(٢) De Lacy, O'Leary : Arabia before Muhamad, p. 86.

(٣) Hitti, ph : History of the Arabs, p. 54.

(٤) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 4.

مهيماً كثير الغزوات وإن سكنت الأنار عن ذكر غزواته ، ويقال إنه حمل السبايا إلى بلاد اليمن فقبل له لذلك سبأ^(١) ، وهو الذى أغار على بابل وفتحها وأخذ أتواتها ، وفيه يقول بعض الشعراء :

لقد ملك الآفاق من حيث شرقها إلى الغرب منها عبد شمس بن يشجب
سعى بالجياذ الأعوجية والقنفا إلى بابل فى مقنب بعد مقنب
وكان لسبأ عدة أولاد ، أشهرهم : حمير وكهلان ، وقبل موته قسم الملك
بينهما ، ونصب ولده حمير مكانه بعد أن جمع أهل مملكته وأجلس ولده حمير
عن يمينه وكهلان عن يساره ، وطلب من شعبه أن يعطى حمير من ملكه
ما يصلح لليمين وكهلان ما يصلح للشمال^(٢) ، ومن ثم كانت لحمير السيادة
والملك ، أما كهلان فكانت له حراسة النجوم وشن الغارات على الأعداء ،
ويرى بعض المؤرخين ، ومنهم قون كريمة ، أن هذه القصة رمز إلى تشعب
السبئيين إلى فرعيين هما : حمير وكهلان حيث كانت القوة فى يد الأول .

مرت دولة سبأ فى حقتين انتهت الحقبة الأولى سنة ٥٥٠ ق . م . وكان
الملك رأس الدولة يلقب فى تلك الحقبة « مكرب سبأ » ولقد عثر فى النصوص
على نحو سبعة عشر ملكاً نعتوا بهذا اللقب ، وكان حاضرة سبأ فى تلك الفترة
« صراوح » التى تقع على مسيرة يوم غربى مأرب^(٣) .

وامتدت الحقبة الثانية حول سنة ٦٥٠ إلى ١١٥ ق . م . وفيها كان الحكام
يحملون لقب « ملك سبأ » ، وأصبحت حاضرتهم مدينة مأرب التى تبعد ستين

(١) أبكار يوس : نهاية الأرب فى أخبار العرب ص ٨ (طبع مرسايا) .

(٢) خلاصة السيرة الجامعة لمجائب أخبار ملوك النبايعه ص ٩ ، وهى شرح على القصيدة

الحميرية لأبى الحسن نموان بن سعيد . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٢٩٧ ج

Hitti : History of the Arabs, p. 45,

(٣)

ميلا شرق صنعاء ، وترتفع ٣٩٠ قدما على سطح البحر^(١) . يقول الهمداني « قد نظرت بقايا مآثر اليمن وقصورها ، سوى غمدان فإنه لم يبق منه سوى قطعة من أسفل جدار فلم أر مثل ناعط ومأرب وضرر^(٢) » ولقد زار مأرب بعض الباحثين من الأوروبيين مثل أرنود Arnaud وهليفي Halévy وجلالزر Glaser ، فوصفوها وصفا دقيقاً وعينوا أماكنها وقصورها القديمة^(٣) .

ساعد سبأ وخليفته حمير على الاستقرار وبناء حضارة راقية ، ذلك الخصب الذي امتاز به إقليمهم منذ القدم . ولا تزال بقايا تلك الحضارة ممثلة إلى اليوم في السدود التي أنشئت لحزن المياه والمدن الحصنة والقصور والمعابد . ولقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن الإقليم الجنوبي من جزيرة العرب كان في عصر مملكة سبأ أكثر خصباً مما هو اليوم . يقول كنجج « لا شك في أن الرمال المنقولة التي اكتنفت هذه المنطقة تحت تأثير رياح السموم ، قد لعبت دورها في إخفاء معالم الحياة الزراعية فيها »^(٤) .

ولقد قامت السفن منذ زمن بعيد تبحر عباب المياه محملة بالبضائع والمنقجات الموسمية بين موانئ بلاد العرب الشرقية وبين الهند . ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد ، كان لأهلالي جنوب الجزيرة العربية دراية بالخليج العربي ، حيث كانوا يبيعون شطر مصر يبيعون فيها بضائعهم . وكانت صعوبة الملاحة في البحر الأحمر سبباً في تفضيل الطريق البري للتجارة بين اليمن وسورية ، وكانت القوافل تقوم من حضرموت وتذهب إلى مأرب عاصمة سبأ ثم تتجه شمالاً إلى مكربة^(٥) ،

(١) Hitti : Ibid, p. 55.

(٢) الهمداني : الإكليل ج ٨ ص ٤١ ، نشر الأب أنستاس السكرملي .

(٣) راجع الموسوعة الإسلامية ، مادة Ma'rib .

(٤) King : History of Babylon, 121.

(٥) مكة فيما بعد .

وتظل في طريقها من بترا حتى غزة على البحر المتوسط . ويقول نيكلسون « من المؤكد أن سبأ كانت دولة تجارية زاهرة لمدة قرون قبل ميلاد المسيح »^(١) ، كما أن السفن التي بناها البطالمة للسير في البحر الأحمر لم تستطع أن تؤثر تأثيراً كبيراً في مصالح أهل سبأ التجارية فقد ظلوا يمدون جميع الهياكل المصرية بالبخور . وظل رخاء السبثيين قائماً حتى أخذت التجارة الهندية تهجر البر وتسلق الطرق البحرية على طول شواطئ حضرموت وخلال مضيق باب المندب . وكانت نتيجة هذا التغير ، الذي ظن نيكلسون أنه حدث في القرن الأول الميلاد ، أن أخذت قوتهم تضعف شيئاً فشيئاً ، حتى اضطر جزء كبير من السكان للبحث عن مأوى جديد في الشمال .

ويظهر أن الأقاصيص الشائعة بين الأمم الغربية عما بلغته مدن سبأ وحمير من الأبهة والعظمة ، لها أساس من الحقيقة^(٢) . وقام نظام الحكم في سبأ على الأسر الأرستقراطية القوية التي حالت دون نشوء أى سلطة مركزية قوية^(٣) .

وقد كثرت كلام الباحثين والمؤرخين حول شخصية « ملكة سبأ » التي ورد أمرها في القرآن الكريم والتوراة ، وهل كانت هذه الشخصية هي نفس بلقيس ابنة شرجبيل كما تقول ذلك المصادر العربية ، أم لم تكن ؟ حدثتنا الكتب المقدسة أن ملكة سبأ قد سمعت عن سليمان الحكيم الجالس على عرش أورشليم ، فأتت من بلادها إلى عاصمة ذلك العاهل العظيم في قافلة محملة بالطيب والذهب والحجارة الكريمة ، مالا يقع تحت حصر أو يحيط به وصف ، وبعد أن أتمت زيارتها عادت إلى بلادها حاملة أطيب الذكريات . ويرى بعضهم أن تلك الزيارة

Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 1. (١)

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٣٧ .

Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 3. (٣)

قد أوحى إلى سليمان « بنشيد الأناشيد »^(١) . وأكب المؤرخون على دراسة أحاديث الكتب المقدسة عن زيارة ملكة سبأ لملك أورشليم ، على أمل أن يمزقوا الستار عن شخصية هذه الملكة .

يظن بعض المؤرخين أن المرأة التي اتصلت بأعظم شخصية عرفها العالم وقتذاك كانت حبشية الجنس ، وأنها قد أتت من جنوب جزيرة العرب . ويذهب بعض المؤرخين مثل « جلازر » و « شريدر » وغيرهم إلى أن الملك سليمان دعا ملكة سبأ للإقامة مدة من الزمن في مكان ما من هضاب أروم ، لمشاهدة عمال الملك يستخرجون النحاس من المناجم الممتدة هناك . ولم يتفق علماء العرب على نسب بلقيس^(٢) ، التي رأوا أنها الملكة العربية المعاصرة لسليمان الحكيم . غير أن الأب أنستاس الكرملي يرى « أن المحققين من أبناء العصر قد أثبتوا أن بلقيس لم تكن أبداً في عهد سليمان الحكيم »^(٣) . ولم يتعرض القرآن الكريم لاسمها ، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشير إلى اسمها أو نسبها ، فاعتبرها المفسرون « بلقيس ابنة شر حبيل »^(٤) ، ولم يفرقوا بينها وبين شخصية ملكة سبأ المعاصرة لسليمان . وهذه الملكة كانت من أشهر ملوك سبأ ، بل من أشهر ملوك الجاهلية أيضاً .

ومن أهم الأعمال التي تقتزن بتاريخها ، أن بعض علماء الآثار نسبوا سدود عدن إليها . إذ أن ملكة سبأ قد راقتها عدن على ما فيها من وحشة وجفاء ، فشأت أن تعيد إليها الحياة ، ولذلك أمرت بصنع سدود هائلة لا يزال علماء

(١) راجع « بنشيد الأناشيد » في التوراة .

(٢) جاء في الموسوعة الإسلامية ، مادة « بلقيس » ، أن اسم هذه الملكة عرف عن نوفليس Naukalis الذي أطلقه يوسفوس على ملكته ، ملكة سبأ ، التي كانت في اعتباره حاكمة على مصر وأثيوبيا .

(٣) الهمداني : الإكليل ج ٨ ص ٢٤٣ ، راجع تعليقات الأب الكرملي .

(٤) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 18. (٤)

الآثار يحاولون تأريخها علمياً فتضطرب تقديراتهم على مدة ألف سنة ما بين القرن الخامس عشر والقرن الخامس قبل الميلاد ولا يتفقون إلا على الإعجاب بها، إعجابهم بأنهم أورع الآثار الهندسية في العالم^(١). وكانت تلك السدود تقع في مضيق منحدر، فتستند إلى الجبلين محفوراً بعضها في الصخور، وتندرج هابطة الواحد تحت الثاني، حتى إذا امتلأ الحوض الأعلى صب فضله في التالي، وهكذا حتى الخزان الأخير القائم في سفح الجبلين^(٢).

أما عن سقوط دولة سبأ، فقد نسبته مؤرخو العرب إلى حادث تصدع سد مأرب، الذي قيل «إنه يؤرخ فترة من تاريخ بلاد العرب الجنوبية»^(٣)، ولا جدال في أن سد مأرب كان من أهم مرافق حياتهم الزراعية، واستطاعوا بواسطته أن يتغلبوا على صعوبة الري الدائم الذي تحتاج إليه التربة اليمنية^(٤)، ومن ثم أصبح هذا السد من أهم أسباب رخائهم وتقدم بلادهم. ولقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن انكسار سد مأرب كان في حد ذاته نتيجة إهمال من جانب أمة آخذة في الانحطاط، وأن الخراب الذي حل بسببها لا بد أن يكون قد حدث تدريجياً قبل انهيار السد بزمان طويل، ومن ثم هاجر عدد كبير من أهل هذه البلاد إلى الجهات الشمالية والشرقية من جزيرة العرب^(٥). ومما لا ريب فيه أن انكسار السد، حادث تاريخي لا يتطرق الشك إلى حدوثه، كما أن علماء الآثار وبعض المنقبين في خرائب بلاد العرب الجنوبية — وعلى رأسهم

(١) فؤاد أفرام البستاني : عدن الفردوس السائر، بحث مستخرج من مجلة الشرق السكاثوليكية.

(٢) راجع وصف هذه السدود في، أمين الريحاني : ملوك العرب ج ١ ص ٢٤٤ (الطبعة الثانية).

(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs. p. 16.

(٤) Gustav : La Civilisation des Arabes, p. 6.

(٥) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٢٨.

جلالزر - قد أثبتوا أن حادث السد قد وقع فعلا ، ولكنه لم يحدث مرة واحدة بل حدث عدة مرات متعاقبة .

على أن بعض المؤرخين الأوربيين ذهب إلى أن السبب في اختفاء السبئيين من الجزيرة العربية ، إنما يرجع إلى ما أصاب بلادهم من الضعف التجاري بين القرن الثالث والقرن الرابع قبل الميلاد ، على أثر النشاط التجاري الذي قام به الرومانيون في البحر الأحمر .

٣ - مملكة عجم :

لما سقطت الدولة السبئية ، وتلاشت مدينة مأرب عاصمة ملكهم ، صارت السلطة ببلاد اليمن متفرقة في أيدي من بقي فيها من الحكام أو الأمراء الأقوياء ، وكان لكل قصر من قصور اليمن حاكم مستقل يعرف بإضافة قصره إليه ، فيقال « ذو ريدان » أي حاكم ريدان ، و « ذو ناعط » و « ذو ظفار » وهكذا . وكان القصر وقتئذ كالحصن أو القلعة يقيم فيه صاحبه مستقلا بشؤونه ، كما عرف أصحاب تلك القصور بلفظ « الأذواء »^(١) .

ومن أشهر القصور التي وصلت إلينا أسماؤها ، وبالع شعراء العرب ومؤرخوهم في وصفها : قصر ناعط وقصر سلحين^(٢) وقصر غمدان الذي وصفه الهمداني بقوله إنه أول قصور اليمن وأعجبها ذكراً وأبعدها صيتاً ، وكان عشرين سقفاً غرقاً بعضها على بعض . . . وكان فيما بين كل سقفين عشرة أذرع^(٣) .

(١) البتانون : الرحلة الحجازية ص ١٥ .

(٢) كان سلحين بمأرب وهو قصر بلقيس . الهمداني : الإكليل ج ٨ ص ٥٩ . وقد ضبط اللغويون سلحين بفتح السين . وقال الهمداني في كتابه : صفة جزيرة العرب ص ٢٠٣ إن سلحين من مشاهير محاقد اليمن ، وضبط الكلمة بفتح السين وكسرها معا . ويرى الأب أنستاس الكرملي أنه ضبطها بالكسر للاحقها بالأوزان العربية ، وضبطها بالفتح إبقاء لها على أصلها الحميري .

(٣) الهمداني : الإكليل ج ٨ ص ١٥ .

أما ياقوت فقد ذكر أن غمدان كان سبعة سقوف بين كل سقفين منها أربعون ذراعاً^(١) وهو أقرب إلى الحقيقة من وصف الهمداني .

كان القوى من أدواء اليمن يتغلب على بعض البلاد التي في جواره ويكون له الحكم فيها ، وعندئذ يسمى مجموع مملكته محفداً وهو قبلا . وإذا ما اجتمعت عدة محافد مع ما يلحقها من القرى والمزارع في حكم شخص واحد ، سميت مخالفاً وحاكماً مملوكاً ولقد استطاع صاحب ريدان — التي عرفت فيما بعد باسم ظفار — وفي نهاية القرن الأول قبل الميلاد أن يتغلب على جملة مخاليف ويضمها إلى مخالفة ، وعندئذ تكونت دولة حمير وظهرت إلى عالم الوجود ، وما زال خلفاؤه يعملون على توسيع تلك الدولة حتى استطاع الملك « شمر يرعش » أن يضم إليها حضرموت وما والاها من البلاد شرقاً في نهاية القرن الثالث الميلادي^(٢) .

كانت دولة حمير تقع بين سبأ والبحر الأحمر وقد حلت محل قتيبان التي ظهرت قبلها والتي كانت تشغل أقصى الركن الجنوبي الغربي من بلاد العرب^(٣) . ولم تلبث حمير أن استوعبت سبأ وريدان ، وأصبح لقب كبيرهم « ملك سبأ وريدان » ، وظهرت حمير سنة ١١٥ ق م واستمرت حتى سنة ٣٠٠ م^(٤) .

ويقسم حكم حمير إلى طورين أو عصرين : فقد عرف ملوك العصر الأول باسم « ملوك سبأ وريدان » ، أما ملوك العصر الثاني الذين تغلبوا على حضرموت وضموها إلى ملكهم فقد عرفوا باسم القبايلة أو ملوك سبأ وريدان وحضرموت . وقيل إن لفظ « تبع » لا يطلق إلا على كل من ملك اليمن مع الشمر

(١) ياقوت : معجم البلدان .

(٢) البتانوني : الرحلة الحجازية ص ١٦ .

(٣) De Lacy, O'Leary : Arabia before Muhammad, p. 96, (٣)

Bitti, ph, : History of the Arabs, p. 55. (٤)

وحضرموت^(١) ، وليس معنى ذلك أن التبابعة قد اقتصرُوا في فتوحهم على جنوب الجزيرة العربية ، بل امتد ملكهم إلى بلاد الحجاز واليمامة وما بينهما من قبائل العرب العدنانية ، بغض النظر عن تلك الفتوحات الخرافية في إفريقية وآسيا التي ورد ذكرها في بعض المصادر . وكان التبابعة يقيمون على العرب حكما منهم يسمونهم ملوكا^(٢) ، وأصبح الحميريون تحت حكم ملوكهم المعروفين بالتبابعة ، قوة يهرب جانبها في الجنوب من بلاد العرب ، كما ظل نفوذهم — ولو ظاهريا — على القبائل الشمالية حتى القرن الخامس بعد الميلاد ، عند ماثاروا بزعامه كليب بن ربيعة وأزالوا قوة اليمن المسيطرة عليهم^(٣) .

أما تتبّع الأول الذي أطلق لقبه على من خلفه من ملوك حمير ، فهو الحارث الراش الذي سمي بذلك لأنه زين بيوت قومه بالفنائم والأسلاب مما جلبه معه الهند وأذربيجان^(٤) ، وقد جمع الحارث كل سلطة بيده وتغلب على حضرموت ومهرة وعمان^(٥) ، وافتتحت جيوش الحارث ، الهند والسند وأرض بابل وخراسان والشام والمشرق^(٦) .

خلف الحارث ابنه الصعب ذو القرنين ، وهو من أشهر ملوك التبابعة وأبعدم صيتا ، ونسب إليه الكثير من الفتوحات للمعظيمة في الشرق والغرب ، مما يصعب معه التأكد من صحتها . وروى أبو محمد بن هشام عن وهب بن منبه^(٧) أن عرشه

(١) ابن كثير القرشي: البداية والنهاية ٢ ص ١٥٩ ، السهيلي: الروض الأنف ج ٢ ص ١٥

(٢) البتانوني: الرحلة الحجازية ص ١٧ .

(٣) Nicholson: Literary History of the Arabs, p.5.

يرى المستشرق نولدكه « في العلاقات الخمس » ص ٤٤ من الجزء الأول ،

Fiinf Mo'allaqat. Vol 1. p. 44 أن الأخبار العربية التي تمثل كليباً قائداً لفرسان ربيعة في نزل قوى اليمن لا تمت إلى التاريخ بصلة .

(٤) Nicholson: Literary History of the Arabs, p. 61.

(٥) Sedillot: Histoire Generale des Arabes. Vol. 1. p. 36.

(٦) الهمداني: الإكليل ج ٨ ص ٢٨٧ نفس الآب الكرملی .

(٧) كان وهب من علماء التابعين وهو من الأبناء — أبناء فارس المبعوثين مع سيف —

كان من ذهب صامت مرصع بالدر والياقوت والزمرد والزبرجد^(١). ويرى نيكلسون أن الصعب شخصية خرافية ، خلط نسبة العرب بينها وبين ذى القرنين العجيب الوارد نبؤه في القرآن والذي يعتبره غالبية المفسرين نفس الإسكندر الأكبر ، وأن ذا القرنين إنما يقصد به الإلهة السبئية عشتار التي تمثل نجمة الصباح الجميلة ، وأن « ذا القرنين وبلقيس » ، ما هما إلا إلهان وثنيان من الآلهة الوثنية التي ظلت قائمة في العهد الإسلامي بعد أن تنسكت بأسماء مختلفة^(٢).

وهناك رأى آخر ، ذكره الأستاذ حميد الله المقدسى ، حول « اسكندر ذى القرنين والقرآن » ، قال : « لفت نظري أثناء قراءتي قصة إسكندر ، بضع صفحات أذكرتني بما ورد في سورة الكهف ، الآيات ٥٩ — ٩٨ ، عن اسكندر ذى القرنين وعن موسى وفتاه ، فقابلتهما على بعضهما فإذا بينهما قرابة ظاهرة ، بل اتفاق غريب يكاد يكون في بعض السطور حرفيا مع اختلاف بين في تفاصيل القصة ، مصدره على ما رأى ، أن صاحب القرآن (كذا) لم يأخذ روايته عن اسكندر عن الأصل اليوناني تواء ، أو عن أقدم تراجم هذه القصة ، وهى ولا شك الترجمة السريانية التي شاعت ، بل أخذ إما عن أحد الرواة الذين تعرف عليهم صاحب الشريعة الإسلامية في أحد الأديرة ، أو في تلك المدن التي كان ينزل عندها أو يمر بها في رحلتي الشتاء والصيف ، أو في مكة نفسها وهو الأرجح لأنه قد عرف من محمد بن عبد الله أنه كان يتردد ، بكرة وأصيلا ، على شخص أو أشخاص يسمع منهم أساطير الأولين وقصص أبطال فارس واليونان ، وأن هؤلاء الأشخاص أو ذلك الشخص كانوا من الأعاجم بشهادة محمد نفسه (كذا)

= ابن ذى القرنين لقتال الحبشة في اليمن ، فهو على الأرجح فارسي الأصل وهو صاحب كتاب « التيجان » الذي رواه أبو محمد عبد الملك بن هشام .

(١) وهب بن منبه : التيجان في ملوك حمير ، ص ٨١ .

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, pp. 17—18.

(وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ
وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) ^(١).

على أنه من المعروف عند المؤرخين والباحثين ، أن المقصود بذى القرنين
الواردة قصته في القرآن الكريم ليس الإسكندر الأكبر المقدوني ، بل هو
شخصية عربية صرفة لعبت دوراً هاماً في تاريخ بلاد العرب الجنوبية . أما القول
بأن صاحب الشريعة الإسلامية قد أخذ رواياته عن تعرف عليهم في الأديرة
أو المدن التي كان ينزل عندها أو يمر بها ، فهو بعيد عن الصواب . وقد نسب
بعض الإخباريين ، الكثير من الأخبار إلى ذى القرنين العربي ، وهي في الحقيقة
من أخبار ذى القرنين اليوناني ، وإن كان ذلك لا يعني أن المقصود بذى
القرنين في القرآن هو الإسكندر الأكبر ^(٢).

ومن أشهر ملوك حمير « شمر يرعش » بن مالك ناشر النعم ، الذي غزا
العراق وفارس وخراسان وبلاد الصين ، وخرب مدينته الصفد في بلاد ما وراء
النهر وسميت « شمر قند » بلفه العجم أي شمر خربها ، فعربت بها العرب إلى
سمر قند ^(٣) بعد أن بناها ثانية . وروى أبو محمد عبد الملك بن هشام أن

(١) حبيب الله المقدسي : قصة إسكندر ذى القرنين والقرآن . بحث مستخرج من مجلة
المشرق سنة ١٩٣٧ م ص ٨ — ١٢ .

(٢) جاء اسم ذى القرنين في العربية لعدة رجال منهم تبع الأقرن (شمس العلوم ص ١٩)
وهو والد تبع الأكبر ، وقال نشوان في مادة صعب من شمس ص ٦١ : الصعب اسم ذى القرنين
السيار ، ويقول عبيد بن شمرية ص ٤٣٣ من أخباره : تبع الأقرن وهو ذو القرنين المذكور
في القرآن الكريم وسمى الأقرن وذا القرنين لشب كان فيه وهو على قرنيه « أي ذؤابتيه » .
راجع تعليقات الأب السكرمي ، ناشر كتاب الإكليل للهمداني ج ٨ ص ٢٢٢ ، ٢٣٢ .

(٣) خلاصة السيرة الجامعة لعجائب ملوك التبابعة ص ٧٠ مخطوط بدار الكتب المصرية
رقم ٨٢٩٧ ، أخبار عبيد بن شمرية ص ٤٣٢ ، والتيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه ص ٢٢٧
طبع الدكن سنة ١٣٤٧ هـ .

« شمر يرعش جعل على فارس ألف درع يؤدونها كل عام ، وجعل على الروم ألف درع أيضا ، وكذلك على كل من أهل بابل والبحرين وعمان وأهل اليمن ألف درع »^(١) . ويظهر أن مرجع هذه المبالغات التي بالغها اليمينيون ، هو التنافس بينهم وبين العدنانيين الذي استمر حتى صدر الإسلام ، ولما كان النبي العربي الجديد من العدنانيين ، اضطر اليمينيون إلى مطاولتهم بذكر فتوحاتهم القديمة وبالغوا فيها بمبالغة كبيرة ، ووضعوا أسفاراً وفتوحات ليس لها ظل من الحقيقة . وكانت حمير دولة حربية بخلاف سبأ التي اهتمت بمصالحها التجارية ، كما كان موقع حمير البحري من أسباب سقوطها في يد الأحباش ، بعد أن ضعفت قوتها الحربية وأصبحت عرضة لغارات الأحباش الذين تم لهم النصر على آخر حكام اليمن وأصبحوا سادة البلاد الحقيقيين .

الغزو الأجنبي لجنوب بلاد العرب

إن بلاد العرب بما فيها بلاد الحجر العربية بموقعها الجغرافي للمقارن بين الشرق والغرب ، كانت مطعماً لكل من يستولى على مصر أو العراق ، وفتنت ملوك نينوى Ninive وبابل Babylone . غير أن العرب قاوموا هؤلاء الأعداء ، ونجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً ، وحررت كتابتهم العبرانيين من رقة الآشوريين أكثر من مرة^(٢) .

ولما غزا الإسكندر بابل وتقدم إلى ما وراء نهر السند ، شعر بأهمية الجزيرة العربية من الوجهة الاستراتيجية ، لذلك رأى أن فتح تلك الجزيرة يتم انتصاراته ويحمله سيد آسيا الغربية ، بيد أن الموت الذي عاجله ، حرمه من تنفيذ ذلك المشروع وأنقذ جزيرة العرب من الوقوع في قبضته .

(١) الهمداني : الإكليل ج ٨ ص ٢٥

(٢) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, tome 1. p. 25.

وعند ما قُسمت إمبراطورية الإسكندر ، أصبحت البقاع القريبة من حدود مصر وفلسطين والتي كان العرب يسكنونها من نصيب بطليموس^(١) . وقد شايح الأنباط بطليموس على أنتيجون Antigone الذى فتح أحد قواده بلاد الحجر العربية ، بيد أن الأنباط أبادوا بعدئذ جيش أنتيجون المؤلف من ٤٦٠٠ جندي ، فأرسل إليهم جيشاً آخر بقيادة ديمتريوس Démétrius ولكنهم لم يظفر - مثل أنتيجون تماماً - بأى نجاح فيما قام به من محاولات ضد بلاد الحجر العربية^(٢) . غزا بومبيوس الشام وفلسطين عام ٦١ ق . م . وعقد حلفاً مع الحارث . وقد بقيت الجزيرة العربية طوال العصر الجاهلى بعيدة عن أيدي الغزاة ، وبدأ العالم الخارجى يمد بصره نحو تلك الأصقاع فى الربع الأخير من القرن الأول قبل الميلاد فى عهد العاهل الرومانى أغسطس Augustus الذى فكر فى مد أطراف الإمبراطورية الرومانية منذ أن أصبحت مصر خاضعة لنفوذه ، وذلك بالاستيلاء على كل من شبه جزيرة العرب وإثيوبيا ، لأنه كان يظن أن الأولى تنتج التوابل والثانية الذهب^(٣) . وعلى هذا الأساس ساق أغسطس جيشاً رومانياً تحت قيادة أيلوس جالوس Aelius Gallus حوالى عام ٢٤ ق . م^(٤) ليرتاد هذين القطرين اللغنيين ، وكان غرضه من هذه الحملة أن يعقد المهود مع العرب يفزوم إذا ما جرأوا على الوقوف فى وجه التوسع الرومانى^(٥) .

وبعد مسير ستة أشهر . استطاع الجيش الرومانى أن يصل إلى أقصى جنوب شبه الجزيرة بفضل إرشاد دليل من الأنباط ، ولكن شمس الجزيرة المحرقة ومياه الآبار التى لم يعود عليها الرومان ، كانت من العوامل التى أحبطت المشروع

(١) Le Bon Gustave : La Civilisation des Arabes p, 64.

(٢) Sedi'Iot : Histoire Generale des Arabes, 1. pp. 26-75.

(٣) Playfair, R. L. : History of Arabia Felix, p. 45.

(٤) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, tome 1. p. 82.

(٥) Arthur Gilman : History of the Saracens. p. 26.

الرومانى وقضت عليه ، إذ سرعان ما ضعفت قوة الرومان تحت وطأة الأمراض التى حلت بهم ، ولم يستطع أبولوس جالوس أن يغزو العرب ، وفشل فى مهمته واضطر إلى العودة مسرعاً .

وإذا كانت حملة جالوس قد فشلت من الناحية الحربية فقد كانت لها نتائج أبعد مدى من ذلك ، إذ أنها استطاعت أن تمد العالم المتحضر بمعلومات جديدة عن الجزيرة العربية ، لأن جالوس قائد الحملة قد اصطحب معه صديقه الحميم سترابون Strabon^(١) ، ولما عاد هذا الكاتب المشهور إلى مصر استطاع أن يصف جزيرة العرب وصفاً دقيقاً وأن يصور البيئة العربية تصويراً شيقاً ، فى الفصل السادس عشر من كتاب هذا الجغرافى العظيم .

نجما جنوب جزيرة العرب من الغزو الرومانى الذى لم تستطع بلاد الحجر العربية أن تسلم منه ، فضمت إلى الإمبراطورية الرومانية فى عهد تيبيريوس Tiberius ، وأوضحت بذلك بلدة رومانية زاهية كما تدل بقاياها^(٢) .

ولا مرأى فى أن التنافس الاستعمارى الذى نشأ بين الدولة الساسانية فى فارس والدولة الرومانية الشرقية ، قد ظهر أثره فى جنوب بلاد العرب ، وإن ظهر بمظهر الصراع الدينى . فلقد عمد ملوك الدولة الرومانية الشرقية - فى سبيل تنفيذ غرضهم السياسى وهو الاستيلاء على ذلك الجزء الجنوبى من جزيرة العرب لما له من موقع ممتاز - إلى إرسال وفود من الرهبان إلى تلك البلاد وأمروهم أن يبشروا التعاليم المسيحية بين أهل الحضر والبادية من جهة ، ويمهدوا الأفكار والنفوس لقبول

(١) هناك من المؤرخين من يرى أن سترابون لم يذهب إلى جزيرة العرب ، وإنما جمع معلوماته هذه من قصص التجار والغامرين ، ومن سبقه من كتاب الإغريق ، وبين سترابون فى هذا الفصل الذى كتبه عن جزيرة العرب أن الماء يتقصرها فى جميع أجزائها ، ولعله قصد بذلك أن يبرر إخفاق جالوس أمام قبائل العرب لأنه كان صديقه على ما يقال . راجع :

Kiernan : The Unveiling of Arabia, p. 28.

Le Bon, Gustave : La Civilisation des Arabes, p. 65. (٢)

التسلط السياسى الرومانى من جهة أخرى ، كما أنهم استطاعوا أن يجعلوا من الحبشة المواجهة لبلاد اليمن ولاية رومانية مسيحية .

ولقد تنبه ملوك حمير لحيل الرومان وأدركوا ما يتعرض له كيانهم السياسى من الخطر الشديد بسببها ، فنشطوا لإحباطها وفكروا فى أمضى الأسلحة التى تمكنهم من القضاء عليها ، فهدام فكرهم إلى أن يمتنعوا الديانة اليهودية ليقاوموا ديناً توحيدياً بدين توحيدى آخر^(١) . كما أن الفرس قد أيقنوا أن الرومان يرمون من وراء نشر المسيحية فى بلاد اليمن إلى غرض سياسى ، فوجهوا عنايتهم إلى تشجيع ملوك حمير على اعتناق الديانة اليهودية . ولا جدال فى أن اليهودية قد كسبت بعض النفوذ فى دولة حمير ، كما أن الدعاية الرومانية قد أثمرت فيها ، فأصبح فى نجران جالية نصرانية قوية استطاعت أن تثبت للخطوب حتى ظهور الإسلام^(٢) .

وقد قيل إن أول من تهود من حمير هو الملك تبان أسعد أبو كرب الذى كان كثير الغزوات والحروب ، وإنه غزا أذربيجان وهزم ملك الفرس ، وعمل بقول حبرين يهوديين من قريظة ، فطاف بالبيت العتيق بمكة بعد عودته من إحدى غزواته . ولقد أحسن زعماء حمير أن الحملات الحربية التى ساقها الملك أسعد أبو كرب ، إنما هى عبء ثقيل عليهم ، فدبروا مؤامرة لقتله وتولية أخيه عمرو مكانه ، فامتنع عمرو أول الأمر ، وأبى الخضوع لرؤساء حمير ، غير أنهم استطاعوا التغلب عليه فطمع تبع بيده ، وخلف أخاه فى الحكم وهو آخر ملوك التبابعة^(٣) وكان الملوك الذين خلفوا عمرا على اليمن ، يختارهم ثمانية أذواء يقال لهم « الثمانية » . وفى عهدهم غزا الأحباش بعض أجزاء مملكة حمير وأرسل

(١) الدكتور إسرائيل ولفسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٣٦ .

(٢) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 3.

(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs, pp. 91 - 52.

النجاشي ولاته المسيحيين ليحكموا باسمه ، حتى قام أخيراً ذو نواس وهو من سلالة تبع أسعد ، وطرده الأشراف الثائرين ، وأصبح حاكماً لليمن . وكان يهودياً متعصباً ، فقد عزمه على أن يستأصل النصرانية من نجران ، فسار إليها على رأس قوة كبيرة ممن دخلوا في دينه أفواجاً وهناك احتفر عدة أخاديد في الأرض وملاًها نارا ، فمن تابعه على دينه خلى عنه ، ومن أقام على النصرانية قذفه فيها^(١) .

غير أن ذا نواس دفع ممن نصره غالياً ، فقد هرب رجل يقال له ذو ثعلبان إلى إمبراطور الروم ، وأخبره بما فعل ذو نواس بأهل دينه . وعندئذ كتب الإمبراطور جستين Justinus رسالة إلى نجاشي الحبشة يطلب منه غزو اليمن وإنقاذ المسيحيين . لذلك أرسل النجاشي سبعين ألفاً من الأحباش تحت قيادة أرياط لغزو بلاد اليمن التي كان يتوق إلى فتحها منذ زمن بعيد ، فلم يستطع ذو نواس أن يعتمد على أشراف حمير ، وانتهى الأمر بخذلانه ، ووقوع اليمن في قبضة الأحباش . وأصبح أرياط حاكماً حبشياً على اليمن من قبل النجاشي بعد موت ذي نواس .

قامت المنافسة بين أرياط وبين أبرهة أحد قواد الأحباش ، ولم يلبث أن قتل أرياط وخلفه أبرهة على اليمن . وفي هذه المعركة التي قامت بين القائدين ، جرح أبرهة وشقت شفته ، ولذلك قيل له « أبرهة الأشرم » ، وما لبث أن أطلق على نفسه « الأمير التابع للملك الحبشة ملك سبأ وريدان وحضرموت ويمنات وعرب النجاد وعرب السواحل »^(٢) ، مما يدلنا غاية الدلالة على أن الأحباش قد سيطروا تماماً على أهم جهات جنوب جزيرة العرب . . .

عزم أبرهة والى الحبشة على اليمن على أن يصرف الحجاج العرب عن السكبة إليه ، فكتب إلى قيصر الروم يخبره بما اعتزمه ، وأنه يريد بناء كنيسة في صنعاء

(١) وهب بن منبه : النيجان في ملوك حمير ص ٣٠١ .

(٢) بول Buhl : الموسوعة الإسلامية ، مادة Abrahah .

فأرسل إليه القيصر الصناع وأمدّه بكل ما يحتاج إليه في هذا البناء ، ولما تم بناء الكنيسة كتب أبرهة إلى النجاشي أنه يريد أن يحول تجارة قریش إلى صنعاء ، بعد أن بنى بها القليس^(١) وأعدّها لحج العرب ، ولما سمع بذلك رجل من النساء^(٢) من كفاة ، أتى القليس ولطخها بالآفذار ، فنضب أبرهة وأقسم ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه^(٣) . وعد تدنيس كنيسة صنعاء في نظر بعض المؤرخين هو سبب حملة أبرهة على مكة ، وقد يكون كما يقول نيكلسون « سبباً يتخذة أبرهة لفزو مكة ، وإن كان يريد من غير شك الاستيلاء على مكة والإفادة بما تدره تجارتها »^(٤) .

على أنه يمكن القول أنه لم يكن من السهولة بمكان ، تحويل العرب عن الكعبة — التي يشتركون جميعاً في تقدسها — إلى كنيسة جديدة في صنعاء . وإن أسرف أبرهة في تزيينها بالرخام والفسيفساء ، فالعرب لا يخرجون من دين إلى دين آخر ولا يتحولون من عبادتهم إلى عبادة أخرى بمثل هذه السهولة . ثم إن تجارة قریش وما تدره على القرشيين من أرباح ، لم يكن مصدرها وجود الكعبة في بلدهم فقط ، وإنما يرجع ذلك إلى وقوع مكة على الطريق التجاري بين اليمن وبلاد الحجر العربية ، وهذا الموقع الفريد الذي منحت له الطبيعة لم يكن من اليسير على أبرهة أن يتحكم فيه ، خاصة إذا علمنا أن مكة تقع في منتصف

(١) القليس : هي الكنيسة التي بناها أبرهة في صنعاء ، وهو لفظ أخذته العرب عن الروم ثم حرف فيما بعد إلى « كنيسة » . ويطن بعضهم أن القليس لفظ عربي مبني ومعنى . يقول عبد الرحمن بن محمد « سميت القليس لارتفاع بنيانها وعلوها ، ومنه القلائس لأنها في أعلى الرؤوس » . معجم البلدان : مادة « قليس » .

(٢) النساء : هم الذين كانوا ينسؤون الشهور على العرب في الجاهلية ، فيحلون الشهر من أشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل .

(٣) ابن هشام : السيرة ص ٢٩ .

(٤) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 66. (٤)

الطريق تقريباً بين الشمال والجنوب ، وأصبحت بذلك محطة تجارية طبيعية للقوافل للمارة في هذا الاتجاه .

ويمكن اعتبار هذه الحملة محاولة من محاولات الدولة الرومانية الشرقية للاستيلاء على بلاد العرب ، بعد أن فشلت بيزنطة في نشر دينها في جنوب جزيرة العرب ، إذ ليس ببعيد أن تكون بيزنطة قد كلفت أبرهة القيام بهذه الحملة ، بعد أن ثبت أنها كانت ترسل تجارها إلى مكة للتجسس على أحوال العرب . وأثبتت نقوش سد مأرب أن الدولتين المتنافستين : بيزنطة وفارس ، قد أرسلتا وفودهما إلى مأرب ، لمحاولة كسب أبرهة إلى جانب كل منهما . ولما شبت الحرب بين هاتين الدولتين سنة ٥٤٠ م ، لم يشترك أبرهة فيها أول الأمر ، رغم ما بذله إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية من جهد في سبيل كسبه إلى جانبه .

ولم يلبث أبرهة أن حارب الفرس بجانب الروم ، ولكنه سرعان ما ترك الحرب . يقول بول Buhl : « نستطيع أن نجد صلة بين هذه الحرب التي لا يمكن أن تكون قد حدثت قبل عام ٥٧٠ م وبين تلك القصص العربية التي تعتمد على القرآن ، والتي تشير إلى حملة أبرهة الفاشلة على مكة والكعبة »^(١) .

جرد أبرهة جيشاً عظيماً من الأحباش ، سير أمامه القبيلة ، وبم شطر الكعبة لهدمها ، ولما اقترب من مكة عسكر في مكان يقال له المغمس^(٢) . ثم بعث أبرهة إلى مكة رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود ، فلما وصل إليها ، ساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم وأصاب فيها مائتي بعير لبعيد المطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، وهمت قريش وكفانة وهذيل ومن كان بالحرم بقتاله ، غير أنهم رأوا أن لاطافة لهم به ، فعدلوا عن قتاله . ثم بعث أبرهة حفاطة الحميري إلى مكة ليسأل عن سيدها وشريفها ويخبره بأن أبرهة

(١) بول Buhl : الموسوعة الإسلامية ، مادة « أبرهة » Abraha .

(٢) المغمس : موضع على ثلثي فرسخ من مكة ، في طريق الطائف .

لم يأت إلا لهدم البيت وليس لحرب أهل مكة ، فلما دخل حنيفة مكة سأل عن سيد قريش ، ف قيل له عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، فجاءه وقال له عبد المطلب ما أمر به ، فقال له عبد المطلب : « والله ما تريد حربيه ، وما لفا بذلك من طاقة ، هذابيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة ، وإن يحل بيته ، فوالله ما عندنا دفع عنه » ^(١) ، وعندئذ أمره حنيفة بالانطلاق معه إلى الملك ، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيهِ حتى أتى العسكر ، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه ، ثم قال لترجمانه : قل له ما حاجتك ، ففعل الترجمان ، فقال عبد المطلب : حاجتي أن يرد على الملك مائتي بعير أصابها لي ، فقال أبرهة لترجمانه « قل له كمنت قد أعجبتني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتنا هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه لا نكلمني فيه ؟ » فقال عبد المطلب : « إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه ، فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصابها الأسود بن مقصود ، واسكن عبد المطلب لم يفلح في رده عن غزو مكة ، فخرج حانقا إلى السكبة ومعه جماعة من قريش ، فأنشد :

يارب لا أرجو لهم سواكا يارب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا لمنهم أن يخربوا قراكا ^(٢)

خذل أبرهة وهزم جيشه ، ومما لاشك فيه أن وباء الجدري قد انتشر في جيش أبرهة ، وقتك برجاله فتسكا ذريعا حتى أن بعضهم يقول إنه لم ينج من هذا الجيش سوى أبرهة نفسه ورجل آخر من الأحباش عاد إلى اليمن وتحدث بما صنع الله بأصحاب الفيل . ويعرف عام هذا الحادث عند العرب

(١) ابن هشام : السيرة ص ٢٣ .

(٢) ابن هشام : نفس المصدر ص ١٩ — ٣٥ .

بعام الفيل^(١) ، نسبة إلى الفيلة التي استخدمها أبرهة في غزوته الفاشلة للكعبة .

توفي أبرهة بعد أن عاد إلى اليمن بقليل ، وخلفه ولده : « يكسوم » ثم « مسروق » ، فاشتدت وطأتها على اليمن وعم أذاها سائر الناس . فلجأ سيف بن ذى يزن الحميري إلى قيصر الروم يستنجد به على إخراج الأحباش من اليمن ، غير أنه لم يجبه إلى طلبه وقال له : أنتم يهود الحبشة نصارى ، وليس في الديانة أن ينصر الخالف على الموافق^(٢) . فاستنجد سيف بن ذى يزن بن ماء السماء ، وطلب منه أن يقدمه إلى كسرى أنوشروان ، فلما قابله في إوانه سلب منه مساعدته على استرداد بلاده : فوعده أنوشروان بالنصرة على الأحباش ، ثم صرفه بعد أن أعطاه عشرة آلاف درهم فارسي . غير أن سيف بن ذى يزن رمى الدراهم التي أخذها من كسرى للخدم ، فلما علم بذلك كسرى ، غضب وأمر بإحضاره ، فلما مثل بين يديه قال له : عمدت إلى حياء الملك الذي حباك به تنثره للناس ، فأجابته سيف بن ذى يزن ما أصنع بالذي أعطاني الملك ، ما جبال أرضي التي جئت منها إلا ذهب وفضة ؟ فلما سمع ذلك كسرى طمع في بلاد اليمن ، فأرسل معه جيشاً فارسياً من المساجين تحت قيادة وهرز الديلمي ، الذي وصف بأنه قد بلغ من الكبر عتياً .

تمكن عرب الجنوب بالاتحاد مع الفرس تحت قيادة وهرز من إجلاء الأحباش إلى حبن ، وتنصيب سيف بن ذى يزن ملكاً عليهم . وفرض كسرى على ابن ذى يزن جزية وخراجاً يؤدبانهما إليه كل عام ، وبعد رحيل جيوش الفرس قتل سيف بيد أحد الأحباش ، فلما سمع بذلك كسرى أرسل جيشاً

(١) يرى كوسان دي برسفال Caussin de Percval أن حادث الفيل وقع في ٢٠ أغسطس سنة ٥٧٠ م ، ويعتقد فريمان Freeman في كتابه Lectures on the Saracens أن سنة ٥٦٩ م هي عام الفيل ، بينما يرى بالمر Palmer أن حادث الفيل وقع في ٢٠ أبريل سنة ٥٧١ م ومع ذلك فهو يرى أن عام الفيل غير مؤكد تماماً .
(٢) السعدي : مروج الذهب ج ٧ ص ٧

ثانيا بقيادة وهرز ، فتلاشت مقاومة الأحباش تماما ، وغدت اليمن إمارة فارسية ، تعاقب على حكمها أولاد وهرز الديلمي من قبل كسرى ، ثم انتقل حكم اليمن إلى باذان وهو آخر وال فارسي على اليمن ، وقد عاش إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم واعتنق الإسلام ، واعترف بسيادة النبي عليه ^(١) . ولم تلبث أن شبت القلاقل في اليمن بعد ذلك وانتشرت بها الفوضى سريعا ، ولم يستتب النظام إلا في عهد أبي بكر .

الممالك العربية على التخوم

في حوالي منتصف القرن الثالث المسيحي ، كانت بلاد العرب تقع بين أعظم إمبراطوريتين في ذلك الحين : هما الإمبراطورية الفارسية في الشرق والإمبراطورية الرومانية في الغرب ، تفصلهما صحراء الشام بعضهما عن بعض .

وكانت الإمبراطوريتان المتنافستان عرضة لغزوات البدو ، الذين كانوا يشنون الغارات على حدودهما بين حين وآخر ، فيستولون على ما يصل إلى أيديهم من الغنائم ، ثم يختفون في الأغوار المتعددة وراء السكتبان المشابهة بنفس السرعة التي اتسمت بها غاراتهم ، ثم لا يلبثون أن يظهروا محتاحين تلك الحدود ، مدافعين عن حريتهم الثالثة .

ولقد حاول الفرس والروم أن يغزو الجزيرة العربية ، ولكنهم كانوا يعدلون عن هذا المشروع لما يستلزمه من ضحايا في الأنفس والأموال . وعندئذ رأت فارس أن الضرورة تدعوها إلى إيجاد حامية على حدودها المقابلة للصحراء ، فنجح هذا المشروع مؤقتا وصدت غزوات القبائل البدوية وغاراتها ^(٢) .

ولم تسكن صحراء الشام التي تفصل بين هاتين الإمبراطوريتين من الامتداد حتى

(١) Zettersteen : الموسوعة الإسلامية ، مادة « الأنبا »

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 33.

تكون مساحة مقفرة تفصل بين أراضيها . ولطالما سعى الرومان إلى تأمين حدودهم بخلق مساحات مقفرة تفصل بلادهم عن بلاد أعدائهم ، فاكنتسحوا الأراضي على شاطئى الرين وأجلوا البرابرة من السكان على طول المناطق المحتلة حتى يكونوا أراضى خالية ، إن تألبت فيها الجموع المنقضة ، رأيتها العيون وشعرت بها الأرصاد ، وقد عمدت روما إلى تعزيز حدودها الشرقية وبسط نفوذها على الإمارات المتاخمة لهذه الحدود .

أما فارس فقد شعرت بأهمية غرض روما الذى كانت هى نفسها تهدف إليه على الفرات الأعلى ، فرأت إدخال بعض القبائل المغيرة فى خدمة الإمبراطورية ودفع قدر من المال بانتظام ، فتصبب نزعاتهم وتأمين خطر الغزو المفاجئ من جانب روما ، وبهذه الوسيلة تكونت إمارة الحيرة على تخوم الروم ، وقد استطاع الروم أن يقفوا فى وجه الأسد الفارسى بفضل معونة عرب غسان الأقوياء .

١ — إمارة الحيرة :

تقع مدينة الحيرة فى جنوبى الكوفة على بعد ثلاثة أميال منها ، فى موضع يقال له النجف . ولقد اختلف العلماء فى معنى اسم الحيرة : ف قيل إنها سميت الحيرة لأن تبعاً الأكبر لما قصد خراسان خلف بعض جنده بذلك الموضع وقال لهم : « حيروا به » أى أقيموا به^(١) ، وقيل إنما سميت الحيرة لأن تبعاً لما أقبل بجيوشه فبلغ موضع الحيرة ضل دليله وتحير فسميت الحيرة ، ومنهم من ذهب إلى أنها من فعل « تحير الماء » إذا اجتمع وزاد^(٢) ، ويرى بعضهم أنها من أصل أرامى بمعنى المعسكر والحصن ، بينما ذهبت طائفة إلى أنها من « الحير » العربى بمعنى الحمى والملبأ ، وقيل إن لفظ « الحيرة » العربى مأخوذ عن كلمة « حيرانا »

(١) ياقوت : معجم البلدان .

(٢) خزائن الأدب ج ١ ص ٤٢٨ .



السريانية التي أطلقت في الأصل على معسكر عرب فارس المتنقل^(١) . والحيرة الأرامية والحير العربي من أصل سامي واحد ، إذ أن المضرب والمعسكر والحمى ألفاظ يدل أصلها على معنى واحد^(٢) .

سكن وادي الفراتين في فجر التاريخ جيلان من الناس هما : الشمريون والأكديون : ويبدو أن الشمريين كانوا من سكان المناطق الجبلية الشرقية ، الذين تقدموا الأكديين في احتلال هذا الوادي الخصب . ويقال إن وطن الأكديين الساميين كان بلاد العرب الوسطى التي كانت تصلح للعيش والحياة والسكنى في هذه العصور^(٣) ، والراجح أنهم هبطوا بابل من أطراف جزيرة العرب^(٤) ، فاجتاحوا في هجرتهم سواحل البلاد السورية ، وخلفوا فيها جماعات منهم عرفوا بعد ذلك بالأموريين . ولم تنقطع هجرات الأكديين الساميين على العراق ، بل ازداد عددها حتى قويت شوكتهم وثبت مقامهم ، وانتهى الأمر باندثار الشمريين والقضاء عليهم قضاء مبرما .

وقد اتصل سكان الجزيرة العربية بالعراق من أقدم عصوره ، سواء أكان هذا الاتصال عن طريق التجارة أو عن طريق الهجرة والارتحال . على أن أخبار العرب في هذه البقاع لا تزال مغمورة في ظلمات كثيفة من الغموض والإبهام ، ولا تخرج عن كونها أخباراً مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ .

وهناك جماعات من العرب نزلوا العراق منذ أقدم عصوره وأنبتوا في شماله ووسطه وجنوبه ، ولكن أسماء قبائلهم وبطونهم غير معروفة على وجه التحديد . على أن أول هجرة عربية محققة ، هي هجرة بني معد بن عدنان ، الذين كانوا

Nicholson : Literary History of the Arabs, p.38, Footnote 1. (١)

(٢) يوسف غنيمة : الحيرة ص ١١ .

King : History of Babylon, pp. 116 — 120. (٣)

Johns : Ancient Babylonia, pp. 18—19. (٤)

ينزلون تهامة من بلاد اليمن إلى البحرين ، التي سكنها قبلهم قبائل من الأزد ، وهناك « تحالفوا على التنوخ وهو المقام وتعقدوا على القناصر والتآزر ، فصاروا يداً على الناس وضمهم باسم التنوخ ، وكانوا بذلك الاسم كأنهم عمارة من العائز وقبيلة من القبائل » ^(١) . وكان من أثر اجتماع هذه القبائل بالبحرين أيام ملوك الطوائف الذين ملكهم الأسكندر ، أن تطلعت نفوس من كانوا في البحرين من العرب إلى ريف العراق ، واغتنموا ما وقع بين ملوك الطوائف من الاختلاف ، فأجمع رؤسائهم على السير إلى العراق ، ونزل كثير من تنوخ الأنبار والحيرة حتى القرآت ، فسموا عرب الضاحية ^(٢) . وكان أول من تملك على تنوخ العراق مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان الأزدي ^(٣) . وكان منزله مما يلي الأنبار ^(٤) واتخذ في الحيرة قصرأ وبستاناً ، وكان خليفته عمرو بن فهم .

انتقل الملك بعد عمرو بن فهم إلى جذيمة الأبرش ، وفيه يقول ياقوت « كان أول من ملك عليهم في زمن ملوك الطوائف مالك بن فهم أبو جذيمة الأبرش ، ثم مات فلك ابنة جذيمة الأبرش » ^(٥) ، وجاء في خزانة الأدب « قال ابن رشيق في العمدة : وملك بعد مالك بن فهم ، ابنه جذيمة بن مالك وهو الأبرش والوضاح وكان ملكه ستين سنة » ^(٦) . واتصف جذيمة الأبرش برجاحة العقل والاتزان والحزم ، ويقول حمزة الأصفهاني إنه « كان ثاقب الرأي ، بعيد المغار ، شديد النسكاية ، ظاهر الحزم » ^(٧) . ويرى الطبري أنه « من أفضل ملوك العرب رأياً ، وأشدهم نسكاية ، وأظهرهم حزمًا » ^(٨) .

(١) ياقوت : معجم البلدان ، مادة « حيرة »

(٢) ياقوت : نفس المصدر ، مادة « حيرة »

(٣) الأصفهاني : تاريخ سبي ملوك الأرض ص ٩٤ .

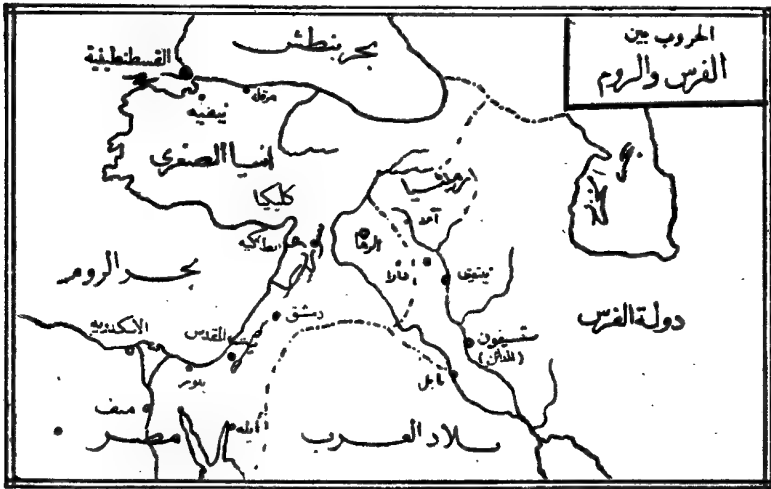
(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٧٥٠ .

(٥) معجم البلدان ، مادة « حيرة » .

(٦) خزانة الأدب ج ١ ص ٣٢٧ .

(٧) حمزة الأصفهاني ص ٩٥ — ٩٦ .

(٨) الطبري ج ٢ ص ٧٥٠ .



وكانت الأحوال السياسية في العراق وقتئذ موالية لجذيمة لتوسيع مملكته وتقوية سلطانه ، فالفتن الداخلية التي قامت بعد وفاة الملك البرثي بلاش الرابع وتنازع أردوان و بلاش ابني بلاش الرابع الحكم ، مهدت لجذيمة بسط سيطرته فيما بين الحيرة والأنبار و بقة^(١) وهيت^(٢) وناحيتهما حيث شن الغارات على قبائل العرب هناك ، ويظهر أنه سيطر على معد و بعض اليمن وعلى البحرين كذلك^(٣) ، وغزا جذيمة طسما وجديسا في منازلهما : ولكنه لم يكن موفقا في هذه الغزوة بل قفل راجعا بن معه أمام خيل حسان بن تبع أسعد أبي كرب^(٤) .

ومن حروب جذيمة ، حربه مع عمرو بن ظرب بن حيان بن أذينة والد الزباء المشهورة في الأدب العربي القديم والذي كان ملكا على مشارف الشام والمضيق بين الخانوقة^(٥) وقرقيسيا^(٦) ، فقد قصده جذيمة بمجموعه واقتتلوا قتالا شديدا ، قُتل خلاله عمرو بن ظرب وفرت جموعه ، بيد أن جذيمة لم يضم مملكته إليه واكتفى بقتله ، فاستولت الزباء على بلاد أبيها^(٧) . ولكن قلبها أفعم بحب الثأر من قاتل أبيها ، فعمدت إلى الحيلة للتخلص من جذيمة بأن كتبت إليه تخبره بأنها ترغب في صلة بلدها ببلده وتطمع في الزواج منه . فعقد جذيمة

(١) بقة : اسم موضع قريب من الحيرة ، وقيل حصن كان على فرسخين من هيت كان ينزله حذمة الأبرش . ياقوت : معجم البلدان .

(٢) هيت : بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة . ياقوت : معجم البلدان .

(٣) يوسف غنيمه : الحيرة ص ١١٩ .

(٤) حمزة الأصفهاني ص ٩٦

(٥) الخانوقة . مدينة على الفرات قرب الرقة . ياقوت : معجم البلدان .

(٦) قرقيسيا : بلد على نهر الخابور ، وعندها مصب الخابور في الفرات . ياقوت : معجم البلدان .

(٧) يوسف غنيمه : الحيرة ص ١٢٢ .

مجلسه واستشارهم في الأمر ، فوافق رجاله على ذهابه إلى الزباء وخالفهم وزيره قصير بن سعد فيما أشاروا به عليه ، غير أن جذيمة عقد عزمه على الذهاب إليها ، فخلف ابن أخته عمرو بن عدى على حكم البلاد ، وسار مع وجوه قومه إلى الزباء ، فاستقبله رسلها بالهدايا ، وأسكنها ما لبثت أن قبضت عليه وقتلته شر قتلة ، انتقاماً لأبيها عمرو بن ظرب .

وقد انقسم عرب الحيرة في أوائل القرن الثالث الميلادي ، إلى ثلاثة أصناف : تنوخ وينزلون غربى الفرات بين الحيرة والأنبار وهم أصحاب المظال وبيوت الشعر والوبر ، والأحلاف وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيها ممن لم يكن من تنوخ الوبر ولا من العباد الذين دانوا لأردشير^(١) ، والعباد هم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا فيها المساكن والأديرة وعرفوا بذلك لأنهم كانوا يعبدون الله أو لأنهم اتخذوا « يا آل عباد الله » شعاراً لهم عندما حاربهم سابور الأكبر ، وقيل أيضاً في تعليل هذا الاسم إنه وفد على كسرى خمسة منهم ، وكانت أسماءهم تبتدىء بكلمة عبد ، وهم : عبد المسيح ، وعبد ياليل ، وعبد يسوع ، وعبد الله ، وعبد عمرو ، فقال كسرى . أنتم عباد كلكم ، فسموا العباد^(٢) . على أن المقصود بالعباد هم عرب الحيرة النصراني الذين كانوا يعبدون الله في كنائسهم ، كما أن العصر الذي أطلق فيه العباد على أتباع الدين المسيحي من عرب الحيرة للتمييز بينهم وبين الوثنيين من سكانها غير محدد تماماً^(٣) . وقد سكن اليهود الحيرة أيضاً وبقوا بها حتى الفتح الإسلامي ، فقد قال الحجاج لأهل الكوفة « يا أهل الكوفة فلا أعز الله من أراد العز بكم ، ولا نصر من أراد النصر بكم ، أخرجوا عنا ولا تشهدوا معنا قتال عدونا ، ألحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى »^(٤) . وقد سكن الحيرة

(١) حزة الأسفهانى ص ٢٥ .

(٢) البكرى : معجم ما استعجم ج ١ ص ٢٥ .

(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 39 .

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٩٥٥ .

إلى جانب العرب واليهود ، النبط والفرس . وقد كثرت النبط بها كثرة بالغة ، أما الفرس فكانوا سادة البلاد الحقيقيين الذين كانوا يحكمونها في بعض الفترات من قبل الأكرسة .

بيت النعمى :

بعد وفاة جذيمة الأبرش ، انتقل الملك إلى ابن أخيه عمرو بن عدى بن نصر الذى يعتبر رأس بيت النعميين أو المناذرة ، وقد يقال لهم « آل الحرق » ، ويظن أن الحرق اسم إله جاهلى لا نعرف عنه أكثر من ذلك^(١) ، ولقد عين سابور الأول عمرو بن عدى من بنى نلم ملكا على العرب فى العراق^(٢) ، وامتاز عمرو عن سبقه من ملوك الحيرة باتخاذ الحيرة عاصمة لدولته ، فكان « أول من اتخذ الحيرة منزلا من ملوك العرب »^(٣) . وقد حاول قصير بن سعد وزير جذيمة الانتقام من الزباء ، فجدع أنفه وهرب إليها وشكا لها حاله فلاطفته وأكرمته ، ولما تأكد من وثوقها به طلب منها أن تسمح له بالسفر إلى العراق ليحلب ماله وأمتعته ، فأذنت له وأرسلت معه عيرا ، فسار قصير بما دفعت إليه حتى قدم العراق ، وهناك أخذ من بيت مال الحيرة ما يرضى الزباء التى فرحت به بعد عودته ، وتأكدت من إخلاصه لها ، فأرته ذلك النفق الذى مدته من مجلسها إلى حصن لها داخل مدينتها ، وعندئذ عول على الانتقام منها ، فخرج فى تجارة له ، ولما علم عمرو ابن عدى بأمر تلك التجارة ، خرج إليه مع ألفى فارس على ألف بعير فى الجوالق ، وتقدم قصير يسبق الإبل حتى دخلت المدينة . ولما رأت الزباء الإبل أنشدت تقول :

ما للجمال مشيها وثيدا أجنـدلا يحملن أم حديدا

CL Huart : Histoire de Arabes Vol. 1, p. 63. (١)

Brockelman : History of the Islamic Peoples, p. 8. (٢)

(٣) حمزة الأصفهاني : تاريخ سبى ملوك الأرض من ٩٧ .

أم صَرْفَانَا تارزا شديدا أم الرجال قبضا قعودا
ولما توسطت الإبل المدينة أنيخت ، ودل قصير عمرا على باب النفق ،
خرج الرجال من الفرائ وصاحوا بأهل المدينة وأعملوا فيهم السلاح ، وقام عمرو بن
عدى على رأس النفق . ولما أقبلت الزباء تريد النفق اتدخله ، أنصرت عمرا فعرفت
غرضه ، فمضت خاتما وكان فيه سم ، وقالت : « بيدى لا بيد عمرو » ، وتلقاها
عمرو بن عدى فجلبها بالسيف ، وأصاب كثير من أهل المدينة وعاد إلى العراق ^(١) ،
بعد أن خرب المدينة وتركها قاعا صفصفا ^(٢) :

وبعد موت عمرو بن عدى ، تولى أبنه أسرو القيس الأول إمارة الحيرة ،
وأمه ماوية بنت عمرو وأخت كعب بن عمر الأزدي ^(٣) ، وكانت الأحوال السياسية
في فارس ملائمة له لمد سلطانه وتوسيع ملكه .

ذلك أنه بعد أن توفي الملك بهرام الثانى سنة ٢٨٢ م لم يحكم خليفته بهرام
الثالث أكثر من أربعة أشهر ، وبعد وفاته قام النزاع على العرش بين ابنه :
نرسن Nerses وهرمزذ Hormisdas ، انتهى بانتصار نرسن واختفاء
هرمزذ من مسرح المنافسة تماما . وفى عام ٢٩٦ م بعد حوالى ثلاث سنوات من
ارتقاء نرسن العرش ، قام بغزو أرمينيا وطرد ملكها تيريداتيس Tiridates صنيعة
روما ، الذى التجأ بدوره إلى الإمبراطور دقلديانوس وكان فى أوج قوته وطلب
حمايته ، فأمر جالوريوس Galerius ^(٤) بالتوجه من الدانوب وتولى قيادة جيش
الشام . وكان نرسن قد غزا الولاية الرومانية بالجزيرة ، فقابله جالوريوس فى سهولها

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ص ٧٦٦ .

(٢) على إبراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ١٨ — ٢٠ .

(٣) حزة الأصفهاني : تاريخ سى ملوك الأرم من ١٠٠ .

(٤) فى هذه الفترة كانت الإمبراطورية الرومانية يحكمها إمبراطوران ، ينضم لهما قيصران ،
أحدهما جالوريوس المذكور .

الواسعة ، واشتبك الجيشان في واقعتين كبيرتين لم تسكن لهما نتائج حاسمة ، ولكن في الواقعة الثالثة تقرر مصير الجيش الروماني حيث هُزم هزيمة منكرة وفر كل من تيريداتيس وجالوريوس بأن سبحا في مياه الفرات ونجيا من القتل . وفي شتاء العام التالي أرسل الإمبراطور دقلديانوس ، القيصر جالوريوس على رأس فرقة حربية من إقليم إيليريا Illyria لكي ينازل الفرس ويسترد سمعته الحربية ، وقد استفاد جالوريوس من هزيمته السابقة وتجنب نزال الفرس في السهولة الواسعة ، واستطاع أن يهترق مناطق أرمينيا الجبلية ويفاجئ المعسكر الفارسي ليلا ، ولم يكن نرسس ينتظر تلك الجرأة من الجيش الروماني ، ففر من المعركة بعد أن أصيب بجرح بالغ ، ولكن جيشه كان قد أيبس عن آخره ، ووقعت أسرته وبعض النبلاء أسرى في يد الجيش الروماني ، وكانت شروط الصلح التي عقدت بين الطرفين شديدة الوطأة على الفرس ، فقد نصت على بتر عدة أقاليم من فارس وإلحاقها بامتلاكات روما^(١) . ولقد انتهى هذا النزاع مع روما والذي أثاره نرسس نفسه ، بمأساة قضت على عرشه ، فقد تنازل عن الحكم سنة ٣٠١ م ، بعد أن شاهد هذا التقدم العظيم الذي أحرزته قواته في الدولة مما عجز عنه أسلافه^(٢) .

استغل امرؤ القيس الأول هذا الموقف في فارس : فوالى الساسانيين حتى حفظ عرشه ، وفي الوقت نفسه خضع لنفوذ الرومان ، فإن النقوش التي وجدت على قبرة في النمار^(٣) تدل على أنه كان خاضعا لنفوذ الرومان حوالي سنة ١٣٢٨ م^(٤) . كما أنه أخضع قبيلتي أسد ونزار ، وهزم مذحج ، ولما بلغ هذا الشأن البعيد ، عظم

Sykes : History of Persia, Vol. 1. 441 — 442. (١)

Sykes : History of Persia. Vol, 1. p. 443. (٢)

(٣) مدينة تقع في الجنوب الشرقى من دمشق .

Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 8. (٤)

أمره وقويت شوكته على قبائل العرب حتى استعمل بنيه عليهم وأنابهم عنه لدى
الفرس والروم^(١).

تولى مملكة الحيرة بعد امرئ القيس ابنه عمرو ، ويعرف باسم « عمرو
الثاني » ، وأمه هند بنت كعب بن عمرو^(٢) ، وقيل إن أمه أخت ثعلبة بن عمرو
من ملوك غسان وتعرف بمارية البرية^(٣) . ولم يتناول المؤرخون حكم هذا الملك
وسياسته في شؤون بلاده بشيء من الإفاضة .

وخلفه على الحيرة ، أوس بن قلام ، ولم يكن من سلالة اللخمين ، بل قيل إنه
من المالقي من بني عمرو بن عميلق^(٤) ، وقد أقامه سابور ذو الأكتاف ملكا على
الحيرة بعد أن رأى تنازع أولاد عمرو بن امرئ القيس على ملك أبيهم بعد موته .
عمل أوس بن قلام على استتباب الأمن والضرب على أيدي أولاد عمرو الثاني
حتى طردهم من الحيرة ، غير أنهم تربصوا به في النهاية وقتلوه بعد أن حكم
خمس سنوات .

وانتقل الحكم إلى امرئ القيس الثاني ، وهو محرق الأول ، وقيل إنه
ملك إحدى وعشرين سنة وثلاثة أشهر^(٥) .

وتولى مملكة الحيرة بعد وفاة امرئ القيس الثاني ابنه النعمان الأول ،
ويقال له ابن الشقيقة ، لأن أمه شقيقة ابنة أبي ربيعة بن ذهل من شيبان^(٦) .
وكان النعمان من أشد ملوك الحيرة نسكاً في الأعداء . ولقد غزا الشام عدة مرات

(١) جورجى زيدان : تاريخ الآداب العربية ج ١ ص ٢٨ .

(٢) حزة الأصفهاني : تاريخ سني ملوك الأرض ص ١٠٠ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣ .

(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ص ٨٥٠ .

(٥) حزة الأصفهاني ص ١٠١ .

(٦) الطبري ص ٨٥٠ ، حزة الأصفهاني ص ١٠١ .

وأكثر المصائب في أهلها ، وكانت له كتيبتان يقال لهما «دوسر»^(١) وهي لتنوخ والأخرى «الشهباء» وهي للفرس ، وكانت أيضاً تسميان «القبيلتين»^(٢) ، فكان يفزو بهما من لم يدين له من العرب . وكان للنعمان الأول مقام رفيع في بلاد فارس ونفوذ عظيم في قصر الأكاسرة ، فطلب منه يزدجرد أن يتعهد بتربية ابنه بهرام في الحيرة ، لأنه لم يعيش له ولد قبله^(٣) فامتثل النعمان لمشيئة يزدجرد ، واختار له «أربع نسوة ذوات أجسام صحيحة ، وأنساب صريحة ، وأذهان ذكية وآداب مرضية ، إلتفات منهن من بنات أشراف العرب ، واثنتان من أكابر المعجم»^(٤) ، فنشأ بهرام بالحيرة وتربى بين ظهرانيها حتى تنقف بالثقافة العربية الخالصة ، وكان ذلك سبباً في كراهية الفرس له بعد موت أبيه يزدجرد . واشتهر النعمان بن امرئ القيس بأنه باني الخورنق^(٥) والسدير^(٦) ، وكانت لهما شهرة عظيمة في تاريخ الحيرة حتى نسب النعمان إليهما ، ويغلب على الظن أنهما كانا في مكان واحد من الحيرة ويطلق عليهما معاً اسم الخورنق . وذهب بعض المؤرخين إلى القول باعتناق النعمان النصرانية ، وإن كانت الدلائل لا تشير

(١) كانت أحسن كتب النعمان وأشدّها بطشاً ونكابة ، وسميت «دوسر» اشتقاقاً من الدسر وهو الطعن بالثقل ، لثقل وطأتها ، الألويس : بلوغ الأرب ج ٢ ص ١٩١ ، طبع بفداد .

(٢) الأصمعي : الأغاني ج ٢ ص ١٤٦ .

(٣) الطبري ص ٨٥١ .

(٤) الفردوسي : الشاهنامه ج ٢ ص ٧٥ من الترجمة العربية للبنداري ونشر الدكتور عزام .

(٥) الخورنق : قصر بظاهر الحيرة ، اختلف في بانيه . قال المهيم بن عدي إن بانيه هو النعمان بن امرئ القيس . وقال ابن السكيت إن الذي أمر ببناؤه بهرام جور بن يزدجرد . معجم البلدان : مادة خورنق .

(٦) السدير : قصر قريب من الخورنق ، اختلف العلماء في أصل اسمه . قال الأصمعي : إن السدير كلمة فارسية بمعنى [ثلاث قباب متداخلة] ، وقيل إنما سمي السدير بذلك لكثرة مواده وشجره ، من قولهم [إنّي لأرى سدير نخل] أي سواده وكثرته . باقوت : معجم البلدان . مادة «سدير» .

إلى تنصره ، بل إلى عطفه على رعاياه المسيحيين وإطلاقه الحرية الدينية لهم ، دون أن يكون قد تنصر بالفعل .

خلف النعمان على عرش الحيرة ، ابنه المنذر الأول ، وأمه هند بنت زيد مئاه بن زيد بن عمرو الفسائي^(١) ، وقد تدخل المنذر في النزاع الذي حدث في فارس عقب موت يزدجرد الأول ، إذ أنه أيد اختيار بهرام جور الذي عارض رجال الدين في فارس في توليته^(٢) خوفاً من ممالأته للعرب المنقف بثقاتهم ، ولكن المنذر أمدّه بالجند حتى تمكن من استرداد ملك أبيه . وقد امتد اضطهاد النصارى الذي بدأه يزدجرد الأول خلال الأعوام الأخيرة من حكمه إلى عهد بهرام جور بحمية ونشاط ، وبلغ من قسوته أن عبر عدد كبير من النصارى حدود الدولة الفارسية ، ووضعوا أنفسهم تحت الحماية الرومانية ، فأغضب هذا العمل بهرام جور وطلب منهم أن يخضعوا لحكمه ، ولما قوبل طلبه بالرفض شبت نيران الحرب . ولقد كان الرومان هم البادئون بالعدوان ، فسارت قواتهم إلى الجزيرة تحت قيادة أردابريوس Aradaburius ، واستطاع هذا القائد أن يهزم الجيش الفارسي هزيمة منكرة^(٣) ، بيد أن المنذر انحاز إلى جانب الفرس وبرهن على أنه تابع مخلص ، فسكابد سنة ٤٢١ م شر هزيمة^(٤) لحقت بجيشه العربي .

انتقل الملك بعد وفاة المنذر إلى النعمان الثاني ، وذكره الطبرى عند كلامه عن بهرام جور ، فقال « ثم دعا بهرام بالنعمان بن المنذر ، وأمره أن يؤذن العرب بإحضار خيلهم من الذكور والإناث على أنسابها ، فأذن النعمان للعرب بذلك »^(٥) .

(١) حرة الأصفيهاني : تاريخ سني ملوك الأرض من ١٠٣ .

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 41.

(٣) Sykes : History of Persia, Vol. I. pp. 461 — 466.

(٤) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, tome, 1. p. 33.

(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك من ٨٥٦ .

وقد خلفه على الحيرة أخوه الأسود بن المنذر ، وأمه هر ابنة النعمان من بنى الهيجانة ابنة عمرو بن أبي ربيعة من نخم^(١) ، وقد كان للأسود كتيبة شديدة البأس يقال لها « الملجأ » يُظن أنه استخدمها في حروبه مع الفساسنة عرب الشام ، كما قيل إن الفرس أسبرت الأسود بن المنذر^(٢) عشرين سنة^(٣) .

ملك بعد الأسود بن المنذر ، أخوه المنذر بن المنذر بن النعمان وأمه هر^(٤) ، وكانت مدة حكمه سبع سنوات في زمن قباذ بن فيروز^(٥) .

انتقل الملك بعد المنذر الثاني بن المنذر الأول إلى النعمان الثالث بن الأسود ، وقد ذكر كوسان دى برسفال « إن أبا الفداء ومعظم مؤرخي العرب قد أغفلوا ذكر هذا الملك »^(٦) ، مع أن الطبرى^(٧) وابن الأثير^(٨) وحمزة الأصفهاني^(٩) قد ذكروا النعمان الثالث من ملوك الحيرة .

كان من شروط الصلح التي عقدت بين الملك يزيد جرد الثاني والإمبراطور تيودوسيوس الثاني Theodosius II عام ٤٤٢ م ما يلزم روما بدفع مبلغ من المال سنوياً للدولة الفارسية ، ولكن الدولة الرومانية لم تدفع المبلغ طوال سنى السلام بين الدولتين . ولما جاء قباذ شعر بحاجته الشديدة إلى المال ، فطلب من الإمبراطور أنستاس Anastasius أن يفي بما تهدد به تيودوسيوس عام ٤٤٢ م . ولم يكن طبيعياً أن يرضخ أنستاس لمشيتته قباذ على الفور ، فاندلعت نيران الحرب

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ص ٨٨٢ . حمزة الأصفهاني ص ١٠٤ .

(٢) CL. Huart : Histoire des Arabes, Vol. 1, p 66

(٣) الطبرى : نفس المصدر ص ٨٨٢ .

(٤) الطبرى : نفس المصدر ص ٩٠٠ .

(٥) حمزة الأصفهاني : تاريخ سنى ملوك الأرض ص ١٠٤ .

(٦) Caussin de Perceval : Histoire des Arabes Vol. 2. p .67.

(٧) الطبرى : نفس المصدر ص ٩٠٠ .

(٨) ابن الأثير : الكامل ج ١ ص ١٧٧ .

(٩) حمزة الأصفهاني : تاريخ سنى ملوك الأرض ص ١٠٤ .

بين الدولتين ، وكاد أنستاس أن يخلو عن العراق بأسره سنة ٥٠٢ م^(١)، ولكن الحرب ظلت سجلا بين الدولتين حتى انتهت سنة ٥٠٥ م^(٢) . واشترك النعمان في تلك الحرب وأرسل عدة حملات حربية إلى سورية على الفرات ، وأقلق الرومان وحلفاءهم العرب^(٣) وأبلى بلاء حسناً في تلك الحروب ، وكان عليه أن يدفع غزو قبائل العرب الوسطى التي تعرف باسم القبائل البكرية الذي بدأ رئيسها الحارث بن عمرو سيداً للحيرة في فترة من تاريخها . ولما توفي النعمان ، عين قباذ خليفة له ، رجلاً دخيلاً ليس من آل نصر ، هو أبو يعفر علقمة .

تولى الحكم بعد أبي يعفر علقمة ، امرؤ القيس الثالث^(٤) ، الذي يقترن اسمه بقتاله ربيعة بن نزار في البحرين ونجد قبل بلوغه العرش واختطف منهم ماء السماء التي تزوجها^(٥) وأنجب منها ابنه المنذر أشهر ملوك الحيرة ، واسم ماء السماء : ماوية بنت عوف بن جشم بن هلال بن ربيعة ، وغلب ماء السماء على اسمها لجمالها وحسنها^(٦) وقيل لكرمها ورقة طباعها^(٧) .

كانت روما في أثناء حرب قباذ مع الهون قد تقدمت نحو التخوم الفارسية وأنشأت حصناً قويا في مدينة دارا ، فأرسل قباذ سفارة إلى روما لتحتج لدى الإمبراطور أنستاس على نقض شروط الصلح التي أبرمت بين الدولتين عام ٥٠٥ م، ولكن الإمبراطور لم يصنع إلى تلك الاعتراضات وسار في سياسته العدائية حتى مات سنة ٥١٨ م ، وخلفه حسين الأول ، فتابع سياسة سلفه وعقد محالفة

(١) Sedillot : Histoire Générale des Arabes, tome, 1. p. 33

(٢) Sykes : History of Persia, Vol. 1. p. 219.

(٣) Caussin de Perceval : Histoire des Arabes, Vol. 2. p. 68.

(٤) حمة الأصفهاني : تاريخ سني ملوك الأرض ص ١٠٤

(٥) Caussin de Perceval : Histoire des Arabes, Vol. 2. p 73.

(٦) حمة الأصفهاني ص ١٠٥ .

(٧) لويس شيخو : النصرانية وآدابها ج ١ ص ٨٨ .

ضد فارس مع أحد ملوك الهون ، وقبل خضوع أمير لزا لنفوذه ، ومع ذلك لم تعلن الحرب بين الدولتين إلا عام ٥٢٦ م عندما غزت روما أرمينيا الفارسية^(١). وكان قائد تلك الحملة بليزاريوس الذائع الصيت ، ولكنها مع ذلك فشلت فشلا ذريعا ، كما أخفق الرومان في فتح الجزيرة أيضا ، وفي عام ٥٢٨ م عاود الرومان الكرة تحت قيادة بليزاريوس ، فلم يلاقوا غير الفشل .

ولقد أيقن الإمبراطور جستنيان خليفة جستين أن القوات الحربية الموضوعة تحت تصرف القائد بليزاريوس ضعيفة للغاية ، لذلك أنعم عليه بلقب « قائد الشرق » وقام بتجنيد قوة حربية بلغ عدد رجالها خمسة وعشرين ألفا . وكان قائد الفرس في ذلك الوقت يقال له « فيروز مهران Firuz — Mihran فتقدم صوب دارا واستولى على عدة مدن هامة ، وقبل أن يلتحم الجيشان جرت بعض المراسلات بين القائدين لم تؤد إلى نتيجة ما ، وختم فيروز مهران آخر رسائله طالبا أن يعد له الطعام داخل أسوار دارا^(٢) ، ولكن الخيالة الرومانية استطاعت بعد قتال رهيب أن تشطر الجيش الفارسي شطرين وأن تنزل به خسائر فادحة .

وفي أرمينية أيضا هزمت القوات الرومانية جيش قباز في معركتين فاصلتين حتى قال المؤرخ سايكس « إن عام ٥٢٩ م كان شؤما على الملك قباز الذي بلغ من الكبر عتيا ، حتى عجز عن إدارة جيوشه بنفسه ، ولكنه كان في الوقت نفسه عاما ذا اعتبار بالنسبة للمنذر ملك الحيرة ، ذلك الملك العربي الشديد البأس الذي جال في سورية حتى أنطاكية والذي أثار الرعب في الأقطار المسيحية بذبحه أربعائة راهبة قربانا للنجم فينوس^(٣) .

وحوالى عام ٤٨٠ م امتد نفوذ قبيلة كنفدة^(٤) التي يظهر أن أمراءها كانوا

Sykes : History of Persia, Vol, 1. p. 480—481. (١)

Sykes : History of Persia. Vol, 1, p. 481. (٢)

Sykes : History of Persia, Vol. 1. p. 482. (٣)

(٤) كنفدة : من بني كهلان وبلادهم اليمن وكان لها ملك بالحجاز واليمن . قال الأصفهاني :
« قال أبو عبيدة : حدثني أبو عمرو بن العلاء أن العرب كانت تعد البيونات المشهورة بالكبر =

مخضعون لتبابعة اليمين ، وشمل نفوذها جزءاً كبيراً من وسط بلاد العرب وشمالها ، وكان حجر آكل المرار هو الحرك الأول في بسط النفوذ ، ولكن مالبث أن تفكك عندا مامات حجر ، والقام الشمل مرة أخرى على يد حفيده الحارث ابن عمرو . وفي ذلك الحين كانت تعاليم مزدك الاشتراكية قد اتسع نطاق دعوتها وتغلغلت بين العامة في فارس ، وانتهى الأمر أن اعتنقها الملك قباد نفسه ^(١) ، الذي دعا المنذر إلى الدخول معه في ذلك فأبى ، بينما أجاب الحارث ابن عمرو الدعوة عند ما وجهها إليه قباد ^(٢) . وقد أقصى المنذر عن مملكته زمنا ما ، وليس من البعيد أن يكون إقصاء المنذر عن مملكته راجعاً إلى عداوته للتعاليم المزدكية ، ولكنه مالبث أن عاد إليه بعد فترة قصيرة .

ولما تولى كسرى أنوشروان عرش فارس ، قتل كثيرين من أتباع مزدك ، وطلب الحارث بن عمرو ، فخرج من الأنبار هارباً في هجائنه وماله وتمر بالثوبة ^(٣) . وتبعه المنذر بالخيول من تغلب وبهراء وإباد ، فلحق بأرض كلب ، فنجوا واتهبوا ماله وهجائنه ، وأخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نفساً من بني آكل المرار ، فقدم بهم على المنذر فضرب رقابهم بحفر الأملاك في ديار بني مرينا العباديين ^(٤) بين دير هند والكوفة ، وفيهم يقول امرؤ القيس :

== والشرف من القبائل بعد بيت هاشم بن عبد مناف في قريش ثلاثة بيوت ، ومنهم من يقول أربعة : بيت آل حذيفة بن بدر الفزاري ، بيت آل زرارة بن عدس الدارمي ، وبيت آل ذي الجدين بن عبد الله بن همام ، وبيت بني الدنان من بني الحارث بن كعب . وأما كنفة فلا يعدون من أهل البيوتات إنما كانوا ملوكاً . الأغاني ج ١٧ ص ١١٠ — ١١١ .

Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 42, (١)

وتعاليم مزدك مبسطة في .

Browne : Literary History of Persia. Vol. 1, pp. 168—172.

(٢) الأصفهاني : الأغاني ج ٩ ص ٧٩ (طبع دار الكتب) .

(٣) الثوبة : موضع قريب من الكوفة ، وقيل بالكوفة .

(٤) من أشرف أهل الحيرة النصارى ، وكانوا ينتسبون إلى لحم .

ملوك من بنى حُجر بن عمرو يساقون العشيّة يقتلون
فلو في يوم معركة أصيبوا ولكن في ديار بنى مريّنا
ولم تغسل جاجهم بغسل ولكن في الدماء مرمّلتاً^(١)
أقام الحارث بعدئذ بأرض كلب ، وقيل إنه قتل هناك^(٢) بعد أن فرق ولده
في قبائل العرب : فلك ابنه على بنى أسد وغطفان ، وملك ابنه شرحبيل على
بكر بن وائل بأسرها وبنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم والرباب ، وملك
ابنه معد بن يكرّب على بنى تغلب ، والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف
من بنى دارم بن حنظلة والصنائع وهم بنو رُميّة ، وملك ابنه عبد الله على
عبد القيس ، وملك ابنه سلمة على قيس^(٣) .
ولقد ظل المنذر بن ماء السماء يتحين الفرص للانتقام من أولاد الحارث ،
وسنحت له الفرصة عند ماتحزبت القبائل . ووقعت الحرب بين شرحبيل وأصحابه
وسلمة وأصحابه ، فقتل شرحبيل في يوم السكّاب الأول^(٤) ، والتجأ سلمة
إلى بنى تغلب فلم يقبلوه بينهم ، فلبجأ إلى بكر بن وائل فأجاروه ورضوا به ملكاً
عليهم ، فبعث إليهم المنذر يدعوهم إلى طاعته ، فأبوا ذلك فسار إليهم المنذر بجيشه
واقْتتلوا قتالاً شديداً يجمل أواره ، وأسر يزيد بن شرحبيل بعد أن هزمت بكر ،
وقد عرفت هذه الواقعة عند العرب بيوم أواره الأول^(٥) .

وقام المنذر بن ماء السماء حليف الفرس بدور هام في سبيل إخضاع روما .
ذلك أن كسرى أنوشروان الذي طبقت شهرته الآفاق ، كان يرغب عند ارتقائه

(١) ملطحين .

(٢) الأصفهاني : الأغاني ج ٩ ص ٨٠ — ٨١ .

(٣) الأصفهاني : نفس المصدر والجزء ص ٨١ — ٨٢ .

(٤) السكّاب : اسماء بين الكوفة والبصرة ، وقيل ماء بين جبلة وشام . وكان للعرب
يومان مشهوران بيوم السكّاب : أما الأول فهو ما قتل فيه شرحبيل بن الحارث ، والثاني كان
بين سعد والرباب وبين بنى الحارث بن كعب وقبائل اليمن وقتل فيه عبد يثوث الحارثي .

(٥) ابن الأثير : السكّاب ج ١ ص ٣٢٨ .

العرش في عقد الصلح مع روما ، حتى يشعر بالطمأنينة الكافية داخل مملكته ،
و يستطيع بذلك أن يصمد أمام الحملات الأجنبية ، وكانت هذه الرغبة متبادلة بين
العهالين الروماني والفارسي^(١) ، فإن جسنينان من ناحيته كان يود أن يأمن
الجهة الشرقية كي يتجه صوب الغرب ، ورضى بأن تكون المعاهدة في صالح الدولة
الفارسية . لذلك وضع العاهلان حداً للحرب التي اشتعلت بين الدولتين ثلاثين عاما
واتفقا على عدة شروط أهمها : أن روما حليفة فارس إلى الأبد^(٢) ، وكان من
نتيجة هذا الاتفاق أن تمكن جسنينان من أن يغزو إفريقية الشمالية ويقضي
على الوندال والقوط الشرقيين بإيطاليا . إلا أن أبناء هذا النصر الذي أحرزه الروم
قد ساء كسرى أنوشروان ، فأوعز إلى عامله المنذر بن ماء السماء أن يغزو سورية ،
وقامت الحرب بينه وبين الحارث بن جبلة أمير غسان ، الذي انتصر له الروم بينما
انتصر الفرس للمنذر . ولم تكن عاصمة سوريا من المنفعة بحيث يعجز أنوشروان
عن فتحها ، وما لبثت أن سقطت في يده وزاح يعمل في مبانها بمفعوله ولم يعلم
من ذلك إلا ما اقتدى بالمال^(٣) .

ونسبت للمنذر بن ماء السماء حرب «يوم عين أباغ»^(٤) ، وكانت بينه وبين
الحارث بن جبلة الفسائي ، وقيل إن المنذر قتل في هذه الواقعة مع ابنين له .
اختلف المؤرخون في الكلام عن المنذر وعما إذا كان وثنيا أم نصرانيا .
فقال شيخو إنه كان نصرانيا^(٥) ، وقد ذكر للتدليل على ذلك أن ساويرس
البطريك السرياني أراد أن يحتذب إلى بدعته ملك الحيرة ، فأرسل إليه أسقفين

Sykes : History of Persia, Vol. 1. p. 487. (١)

Op. Cit. p. 487. (٢)

Op. Cit. p. 488. (٣)

(٤) عين أباغ ليست بعين ماء وإنما هو واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام .
معجم البلدان ، مادة : عين أباغ .

(٥) شيخو : النصرانية وآدابها ج ١ ص ٩٠ .

ليقتنعه بأن في المسيح طبيعة واحدة ، فسمع الملك كلامهما ساكتاً ثم فض كتاباً كان في يده فبدت الكتابة على وجهه عند قراءته ، فسأله الأسقفان : ما الأمر ؟ فقال : قد بلغني كاتب هذه الرسالة أن رئيس الملائكة قد توفي ، فهذا الخبير قد أمتعني جداً . فضحك الأسقفان وقالا للملك : كيف يمكن أن يموت ملاك لا جسد له ، فهذا كذاب محض . فأردف الملك وقال لهما : وكيف أتتا تزعمان أن المسيح وهو ذو طبيعة إلهية مفردة قد مات ؟ أليس هذا أعظم كذبا وضلالا ؟ ثم رد الأسقفين خائبين^(١) . وهذه الشهادة التاريخية هي مثل من الأمثلة العديدة التي نرى فيها اختلاط التعاليم المسيحية بالفلسفة اليونانية ، وتوضح مدى الصعوبة التي كان يلاقها العرب في فهمها ، وهي في الوقت نفسه محاولة من المحاولات التي كانت تقوم بها الكنييسة لجذب الوثنيين إلى حظيرتها ، إذ لم يكن المنذر نصرانيا وإنما كان وثنيا .

وقد ذكر بعض مؤرخي العرب - في سبيل التدليل على وثنية المنذر - أنه كان يقتل بعض أسراه ويقدمهم قربانا للنجم فينوس ، وأيدهم في ذلك بعض المؤرخين الأوربيين ممن يعتقد برواياتهم . يقول سايبكس : إن المنذر قد ذبح أربعمائة راهبة قربانا للسيار فينوس^(٢) . وأنكر نيكلسون نصرانية المنذر بل نصرانية ملوك الحيرة ، سوى النعمان الثالث ، قال : كان اللخميون بعكس غالبية رعيّتهم عريقين في الوثنية^(٣) ، بينما قال شيخو : إن النصرانية عمت ملوك الحيرة وأهلها العرب ، حتى أن المسلمين لما فتحوا مملكة المناذرة وجدوها مملكة نصرانية في دينها وآدابها وعاداتها^(٤) .

خلف المنذر على مملكة الحيرة ابنه عمرو الثالث ويعرف باسم « مضرط

(١) شيخو : النصرانية وآدابها ، ص ٩٠ .

(٢) Sykes : History of Persia, Vol. 1. p. 482. (٢)

(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 49. (٣)

(٤) شيخو : نفس المصدر والجزء س ٩٢ .

الحجارة^(١) ، واشتهر باسم أمه هند ابنة الحارس بن عمرو بن حجر آكل
المرار^(٢) التي تعرف عند المؤرخين باسم هند الكبرى^(٣) . ويقال إن عمرو
ابن هند أراد أن ينتقم من غسان بعد قتل أبيه المنذر ، فدعا بني تغلب إلى الطلب
بثأره من غسان ، ولكنهم امتنعوا ، فغضب عمرو بن هند وجمع جموعاً كثيرة
من العرب غزا بها بني تغلب وقتل منهم عدداً كبيراً .

وحكم عمرو بن هند ، ونسبت إليه الحرب المعروفة بيوم أواره الثاني^(٤) ،
وسببها أن أسعد بن المنذر أخا عمرو بن هند كان مستودعاً في بني تميم فقتل فيهم
خطأ ، خلف عمرو وليقتلن به مائة من بني تميم وأغار عليهم في بلادهم بأواره ،
فظفر منهم بتسعة وتسعين رجلاً ، أوقد لهم ناراً وألقاهم فيها ، فر رجل من
البراجم^(٥) وشم رائحة حريق القتلى فظننه قتار الشواء ومال إليه ، فلما رآه عمرو
قال : بمن أنت ؟ قال : رجل من البراجم ، فقال عمرو : إن الشقي واقد البراجم ،
وأمر به فألقى في النار^(٦) .

كان عمرو بن هند - حسب رواية شيخو - على النصرانية^(٧) ، مستدلاً
على ذلك بما رواه أبو عبيد البكري^(٨) وياقوت الحموي^(٩) في وصف دير هند
الكبرى أم عمرو وابنة الحارث بن عمرو بن حجر . فقد ذكر البكري أنه :
كان في صدر دير هند مكتوب ، بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو

(١) حزة الأصفهاني : تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ص ١٠٩ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ص ٩٠٠ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان . مادة دير هند الكبرى ، ج ٤ ص ١٨٣ — ١٨١ .

(٤) أواره : اسم ماء أو جبل لبني تميم .

(٥) البراجم : خمسة رجال من بني تميم : قيس وعمر وغالب وكلفة والظالم . بنو حنظلة
ابن مالك بن زيد مناة بن تميم ، اجتمعوا وقالوا : نحن كبراجم الكف فغلب عليهم .

(٦) ياقوت . معجم البلدان ، مادة : أواره .

(٧) شيخو : النصرانية وآدابها ص ٩١ .

(٨) البكري : معجم ما استعجم ج ٢ ص ٦٠٦ نشر الأستاذ مصطفى السقا .

(٩) ياقوت : نفس المصدر ، مادة : دير هند .

ابن حجر ، المملوكة بنت الأملاك ، وأم الملك عمرو بن المنذر ، أمة المسيح وأم عبده وابنة عبده في زمن افرائيم الأسقف ، فالإله الذي بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها ، ويقبل بها ويقومها إلى أمانة الحق ويكون الإله معها ومع ولدها الدهر الدهر . « على أن الحيرة كانت وقتئذ تموج بالمبشرين الداعين للمسيحية ، وليس ببعيد أن تكون هند قد لبث دعوتهم واعتنقت النصرانية ، ثم عملت جاهدة لجذب ابنها إلى دينها فكتبت على دارها ما كتبت . ولقد بلغ عمرو بن هند منتهى العجب بعظمته وسطوته على قبائل العرب ، فأهانت أمه أم الشاعر عمرو بن كلثوم في مأدبة أقامها بظاهر الحيرة للشاعر وأمه ورهطه ، فاستشاط الشاعر غضباً وقتل عمرو بن هند في عقر داره بالحيرة .

تولى الحكم بعد عمرو بن هند . أخوه قابوس بن المنذر ، وفيه يقول الأصفهاني « إنه لم يملك وإنما سموه ملكاً لأن أباه وأخاه كانا ملكين »^(١) . وكان قابوس بن المنذر ضعيفاً لا يصلح لأعباء الحكم حتى سموه « فتنة العرس » ، فلا عجب أن تتناول عليه الأيدي ويقتله رجل من يشكر .

وبعد قتل قابوس استولى على حكم الحيرة رجل دجيل ، ليس من سلالة اللخمين يقال له السهرب ، ولكنه لم يستمر في الحكم طويلاً .

وعاد النفوذ إلى اللخمين باعتراف المنذر الرابع بن المنذر أريكة الحكم في الحيرة . وقد تضاربت روايات المؤرخين حول شخصية المنذر بن ماء السماء وابنه المنذر الرابع ، فلم يفرقوا بين هاتين الشخصيتين ، وإنما نسبوا إلى كل منهما بعض أعمال الآخر . بعد موت المنذر الرابع ، تولى الحيرة النعمان بن المنذر الذي يكنى بأبي قابوس ، وهو آخر ملك لحمي الحيرة ، وقد نشأ في أسرة نصرانية في الحيرة قامت بتريخته وتعليمه ، وكان كبيرها زيد بن حماد أبا الشاعر عدى بن زياد ، واستطاع

(١) جزه الأصفهاني : تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ص ١١٠ .

زيد بواسطة دهقان يدعى فاروخ ماهان Farrukh Mahan أن يجتذب عطف كسرى أنوشروان بأن صار كاتب ديوانه^(١). ولما اشتد ساعد عدى أرسله أبوه مع ابن الدهقان ليتلقى العلوم والمعارف ، فأجاد الفارسية كما أتقن العربية وقرض الشعر وتعلم ركوب الخيل ، مما حببه إلى أنوشروان فقربه إليه واتخذته كاتباً له ومترجماً في ديوانه . وكان أنوشروان يبعث به إلى القسطنطينية في بعض السفارات الخاصة نظراً لحبه له وإعجابه بذكائه وذلاقة لسانه . وكان عدى يزور المدائن بين فترة وأخرى ليشرّف على أعمال التحرير ، فرأى بعض زيارته للحيرة هنذا ابنة النعمان فقدرها وذلك في خميس الفصح بعد الشعابين^(٢) بثلاثة أيام^(٣) . وكانت تبلغ من العمر وقتئذ إحدى عشرة سنة ويقال إن عدى خطبها إلى النعمان فأجابته وزوجه منها^(٤) . غير أن بعض المؤرخين يرى أن هنذاً التي تزوجها عدى ليست ابنة النعمان ، وإنما هي امرأة بدوية وأن زواج عدى من هند ابنة الملك النعمان قد بنى بعضها على مارد في قول الشاعر أن صلة عدى بالبيت المالك صلة زواج

أَجَلَ نَعْمَى رَبَّهَا أَوْلَاكُمْ وَدُونَى كَانَ مِنْهَا وَاضْطَهَارِي^(٥)

وجاء ذكر بيت هند في قول الشاعر :

عَرَّجَا بِي عَلَى دِيَارِ الْمَهْدِ . لَيْسَ إِنْ عَجَّئْنَا الْمَطَى كَبِيرًا^(٦) .

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 45.

(٢) خميس المهد : هو أحد أعياد النصارى وهو قبل الفصح بثلاثة أيام ، والشعابين أهياهم أيضاً ويقع قبل الفصح بسبعة أيام .

(٣) الأصفهاني : الأغاني ج ٢ ص ١٢٩ .

(٤) راجع قصة زواج عدى من هند ابنة النعمان ، في الأصفهاني : نفس المصدر والجزء ص ١٢٩ — ١٣١ (طبع دار الكتب المصرية) .

(٥) الأصفهاني : نفس المصدر والجزء ص ١٣٣ .

(٦) الأصفهاني : نفس المصدر والجزء ص ١٢٨ . راجع حاشية (١) من كتاب Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 48.

وقد أعان عدى ، النعمان على بلوغ الملك ، وهو الذى غضب عليه بعد أن كاد له أتباع الأسود بن المنذر ، فألقاه فى السجن ردحا طويلا ثم قتله فى النهاية ، وكان لعدى غلام يدعى زيدا ، أشار كسرى أبرويز بأن يخلف أباه فى إدارة التحرير العربى فى ديوان الملك ، وما لبث أن أخذ زيد يترقب الفرص للأخذ بثأر أبيه بإثارة مكامن الحقد فى قلب كسرى على النعمان ، وذلك بأن ذكر لكسرى أبرويز ، محاسن نساء آل المنذر ووصفهن له ، فكتب إلى النعمان يأمره بأن يبعث إليه بأخته ولما قرأ النعمان كتابه قال لزيد بن عدى رسول كسرى: يا زيد أما لكسرى فى مَهْ السواد كفاية حتى يتخطى إلى العرييات ؟ فقال زيد : « إنما أراد الملك إكرامك أبيت اللعن بصهرك ، ولو علم أن هذا يشق عليك لما فعله ، وسأحسن ذلك عنده^(١) . » غير أن زيدا لم يف بوعده وكاد له كذلك . ولما بلغ النعمان غضب كسرى عليه أخذ سلاحه وماله ونزل على بنى شيبان ببِلدة ذى قار ، فلقيه هانىء بن مسعود الشيبانى فأروعه أهله وماله ، ثم ذهب إلى كسرى ليطلع له على حقيقة الحال ، غير أن كسرى زج به فى السجن وولى مكانه إياس بن قبيصة الطائى وهو ليس من البيت المالك ، وما لبث كسرى أن طالب هانىء بن مسعود بودائعهم قانتع ، وكان ذلك سبب يوم ذى قار^(٢) المشهور بين قبيلة بكر من بين الفرس ومن انضم إليهم من العرب من جهة أخرى ، وفيه دارت الدائرة على الفرس فى ذلك اليوم وصانت قبيلة بكر استقلالها فى البحرين^(٣) . ومع أن القوات التى اشتركت فى يوم ذى قار كانت صغيرة العدد نسبيا ، فقد عد العرب هذا النصر فاتحة عهد جديد ، كما أن قبائل الصحراء التى كانت حتى ذلك الوقت تستظل بلواء الإمبراطورية الساسانية ، ويكبح جماحها ملوك الحيرة الأقوياء ،

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥ — ٢٧ .

(٢) ذو قار : واد متاخم لسواد العراق على طريق الفرات إلى الشام .

(٣) SedilIot : Histoire Generale des Arabes, tome 1. p. 35.

قد وثقت في قدرتها على الوقوف موقفا عدائيا ، وبدأت تظهر السكراهية والاحتقار لهذا الشبح الذي لم تعد تخشى بطشه والذي زال نفوذه منذ عدة سنوات حتى وطئوه بأقدامهم في النهاية^(١) .

وقد كان لوقعة ذي قار نتائج خطيرة ، فقد حدثت عندما بدأ محمد عليه السلام في الدعوة لرسالته ، ولو أن النصر الذي كان حليف العرب في هذه الواقعة انتقل إلى جانب الفرس ، لكانت متاعب المجاهدين من العرب في فتح العراق عظيمة للغاية^(٢) . وكان لهذه الموقعة فضل كبير على الإسلام ، ورنه فرح تجاوبت أصدائها في الجزيرة العربية ، ويتمثل لنا ذلك الفرح في قول محمد عليه السلام عندما سمع بهذا النصر الذي أحرزته قبيلة بكر : هذا أول يوم انتصف فيه العرب على المعجم .

وقد أصبحت الحيرة بعد تلك الموقعة مرزبة فارسية يدير شؤونها نائب لكسرى من الفرس ، غير أن المفادرة ما لبثوا أن استعادوا سلطانهم على الحيرة ، فولى حكما المنذر بن النعمان بن المنذر وظل واليا عليها حتى دخلها الإسلام .

٢ - مملكة نمرص :

خضع عرب بادية الشام لتغيرات السياسة العالمية قبل إخوانهم عرب الجزيرة بزمان طويل . فنفذ عهد الملك الآشوري تيجلاث فليسار Tiglath Pileser (٧٤٥ - ٧٢٨ ق . م) كان للعرب هناك مملكة عاصمتها الجوف . وكانت مقاليد أمورها بيد ملوكات كن يتعاقبن على العرش ، ولكنهن كن يخضعن للمملكة آشور حتى عهد إسرحدون Esarhaddon (٦٨١ - ٦٦٩ ق . م)^(٣) .

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 70

(٢) Sykes : History of Persia, Vol. 1. p. 522.

(٣) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 6.

وفي عهد الآخمينيين Achaemenians المتأخرين نشأت دولة الأنباط ، واحترف أهلها التجارة قبل ميلاد المسيح بزمان طويل ، كما سيطروا خلال الحقبة الهيلينية على تجارة القوافل بين جنوب بلاد العرب وشمالها . وكان الأنباط يتكلمون اللغة العربية ، وورد في أحد نقوشهم أنهم كانوا يستعملون اللغة الآرامية في الكتابة^(١) . ويرى أنوليتان أن النبطية لهجة آرامية اختلط بها صيغ وكلمات عربية ، لأن الناس الذين كتبوها كانوا من العرب العاربة ، وأخذوا لغتهم المكتوبة وخطهم المكتوب من الآرام^(٢) . وذكر بركلان أن لغة الأنباط الرسمية كانت اللغة الآرامية حتى في عهد الآخمينيين ، وهي نفس اللغة التي وجدت منقوشة على قبورهم المنحوتة في الصخر^(٣) .

وكان للأنباط مركز محترم بين الدول الهيلينية التي أغارتهم ألقاب موظفيهم وزعمائهم العسكريين . ولما ظهر الرومان فوق المسرح العالمي لم يتعرض أباطرتهم أول الأمر لاستقلال الأنباط ، إلا أنهم قضوا على هذا الاستقلال وضموا مملكتهم إلى الإمبراطورية الرومانية حيث عرفت عندهم باسم « الولاية العربية » .

هكذا دالت دولة الأنباط وتحولت إلى ولاية صغيرة تابعة للحكم الروماني . واستطاع أذينة بن السميدع وهو شيخ عشيرة عربي ، أن ينشئ دولة عربية مستقلة في سورية الشرقية ، أطلق عليها مملكة تدمر . واختلف المؤرخون في عوامل تسمية هذه المملكة باسم « تدمر » : يقول الهمداني « إنما سميت تدمر بتدمر بنت حسان بن أذينة^(٤) » . وقيل إن تدمر تخفيف « تدمرتا » بالآرامية ومعناها

(١) راجع مقدمة كتاب Nicholson : Literary History of the Arabs

(٢) أنوليتان : لهجمات عربية شمالية قبل الإسلام . بحث مستخرج من مجمع اللغة العربية الملكي سنة ١٩٣٦ .

Brockelman : Op. cit.

(٣)

(٤) الهمداني : الإكليل ج ٨ ص ١٣١ .

« الأمجوبة والمعجزة » لأنها كانت أمجوبة مدن الأرض كلها ، وذهب الأب أنستاس الكرملى إلى أن أصل الكلمة مأخوذ من « التمر » وكذا فى الآرامية فيكون معناه « مدينة النخل » أو « مدينة التمر » لكثرة فيها يومئذ فإن لفظ بلعيرا Palmyra يعنى النخلة فتكون هذه اللفظة منقول الكلمة الشرقية^(١) .

وكانت تدمر أسعد حفظاً من دولة الأنباط ، إذ كانت السيادة فيها للعرب ، على الرغم من أن الآراميين المتأثرين بالحضارة الإغريقية كانوا يؤلفون غالبية سكانها^(٢) ولقد ساعد أذينة ، فاليران فى أثناء حربه مع كسرى سابور الأول ، واستطاع أن يطرد المغير من سورية ويقتنى أثره حتى أبواب المدائن عاصمة فارس سنة ٢٦٥ م ، فأنعم عليه الإمبرار جاليانوس Gallienus بلقب أغسطس Augustus^(٣) واعترف به قسماً على المشرق Co-emperor of the Orient^(٤) .

واستطاعت دولة تدمر أن تسيطر على شؤون التجارة كما سيطر عليها الأنباط ، وعززت مركزها الاقتصادى بمد نشاطها التجارى إلى كثير من البلدان النائية مثل روما وداشيا وبلاد الغال وأسبانيا . وتدل الآثار التى خلفتها تدمر على الدور الهام الذى قامت به خلال ذلك العصر وتشير إلى عظيم اهتمامها بمرافق الحياة الاقتصادية بها ، حتى عدها بعض المؤرخين مستودعاً كبيراً لتجارة الشرق ، وذكروا أن آل أذينة كانوا معاصرين لأمرأاء الحيرة والأنبار الأولين^(٥) .

واعتلت زنوبيا عرش تدمر بعد وفاة زوجها أذينة ، فإن حكمه لم يطل ، وسرعان ما اغتيل فى عامه التالى لما أحرزه من النصر العظيم على الفرس ، وكانت زوجته

(١) الأب أنستاس مارى الكرملى وحقق الجزء الثامن من كتاب الإكليل للهمدانى .
راجع تعليقاته على تسمية تدمر فى هذا الصدد ج ١ ص ١٣٢ .

(٢) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 7.

(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 33

(٤) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 7.

(٥) Sedillot : Histoire Generale des Arabs, Vol 1. p. 31.

زنوبيا المعروفة عند مؤرخي العرب باسم الزباء خافله ، وتربعت على عرش تدمر سنة ٢٦٧ م واتبعت سياسة الحياد بين الإمبراطورية الفارسية وروما ، بينما كانت تسعى لتشييد إمبراطورية شرقية كبيرة . غير أن نجاحها في هذا المشروع لم يكن أعظم من نجاح كليوباترة التي حاولت مثل هذه المحاولة^(١) . وظلت زنوبيا تصرف شؤون تدمر حتى سنة ٢٧٧ م عندما خرب الإمبراطور أورليانوس Aurelianus مدينة تدمر^(٢) واقتاد ملكة الشرق أسيرة أمام عربته في شوارع روما عام ٢٧٤ م . وفوض الرومان أمور حكومة العرب في سورية بعد سقوط زنوبيا ، إلى أمراء من التتوخيين ثم إلى السليحيين الذين أزالوا قبيلة غسان ملكهم عام ٢٩٢ م^(٣) .

٣ — مملكة غسان :

انتهى عهد الدول العربية المستقلة في الشمال بقضاء أورليانوس على تدمر . ولما كانت سوريا تؤلف منطقة الحدود الشرقية في الإمبراطورية الرومانية ، كان على قيصرة الرومان أن يهتموا بهذه المنطقة ويعطوها من عنايتهم النصيب الأوفر . ولذلك أغدقوا الأموال على بعض القبائل العربية هناك ، حتى استطاعوا اتخاذهم صنائع لهم على تخوم البادية ، يستعينون بهم في صد غارات البدو الذين كانوا يغزون المناطق المتحضرة وينهبونها .

وكانت قبيلة قضاة أول من قدم الشام من العرب في صحبة مليكهم مالك ابن فهم بن تيم الله^(٤) ، وقيل إن الرومان قد ملكوا القضاعيين على من ببلاد الشام من العرب بعد أن دخلوا في النصرانية وأصبحوا صنائعهم ، ولم يلبث أن

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, pp. 33—43.

(٢) كان تخريب تدمر في عهد أورليانوس عام ٢٧٢ م . راجع :

Gustave, Le Bon : La Civilisation des Arabes, 65.

Sedillot : Histoire Generale des Arabes, Vol 1. p. 31. (٣)

(٤) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢٦٧ .

انتقل الملك إلى بنى سليخ بن حلوان بن عمران بن خالف بن قضاة ، الذين استمروا على ذلك زمنا حتى تفرقت الأزد من بلاد اليمن على أثر انكسار سد مأرب ، فسار بطن منهم إلى الشام ونزلوا أرض البلقاء وأقاموا على ماء هناك يقال له غسان فسموا غسان^(١) .

ولما نزلت غسان في جوار سليم فرضوا عليهم الأتاوة ، وظل الغسانيون يؤدونها لهم حتى وقعت الحرب بينهم ، وانحصرت غسان على سليخ وانفردت بالسلطان دونها . يقول الأصفهاني « إن أول من ملك من غسان ، جفنة^(٢) بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء ... وكان الذي ملسه على عرب الشام ملسا يقال له نسطورس ، فلما ملك جفنة قتل ملوك قضاة من سليخ الذين كانوا يدعون الضجاعة ، ودانت له قضاة ومن بالشام من الروم وبني جلق والقرية وعدة مصانع^(٣) » .

وكان الحارث بن جبلة أول أمراء بني جفنة وأعظمهم شأنا بلا منازع ، وقد اختاره الإمبراطور جستنيان حوالي عام ٥٢٩ م ليكون بجانبه ضد المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة^(٤) . ولقد رفع الإمبراطور جستنيان الحارس إلى مرتبة الملوك وبسط سيادته على كثير من قبائل العرب بالشام حتى يقيم خصما قويا في وجه المنذر بن السماء ملك الحيرة . ويستبعد أن يكون الحارث أو أحد خلفائه قد حمل رسميا لقب « ملك » ، لأن هذا اللقب كان خاصا بالقيصر وحده ، كما أن الوثائق التي تمثل لغة الحكومة الرسمية أطلقت على الحارث وخلفائه لقب بطريق Patricius أو رئيس قبيلة Phalarch^(٥) .

(١) حزة الأصفهاني : تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ص ١١٤ — ١١٥ .

(٢) حزة الأصفهاني : نفس المصدر ص ١١٥ — ١١٦ .

(٣) كان يطلق أحيانا على جفنة مؤسس البيت الغساني ، « نملية » .

(٤) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 51

(٥) نولدة : أمراء غسان ص ١٤ ، ترجمة الدكتور بندلي جوزي والدكتور قسطنطين .

وكان تاريخ غسان مضطرباً أشد الاضطراب وتميز بعدم الاستقرار إذا ما قيس بتاريخ الحيرة، إذ أن هناك اختلافاً كبيراً في عدد ملوك هذه الدولة فضلاً عن مدة حكمها . يقول نيكلسون « من الصعب الاعتماد على الأخبار العربية الخاصة بدولة الفساسنة لما فيها من اضطراب ، ولأنه قل أن يجد الباحث مادة يؤلف من شتاتها صورة تاريخية تقريبية يمكن أن تضاف إلى تلك المعلومات المبعثرة في كتب المؤلفين البيزنطيين »^(١) . وسبب هذا الاضطراب في أقوال مؤرخي العرب هو عدم استقرار حياة الفساسنة الذين لم يكن لهم ملك ثابت ، حتى أنهم اتخذوا أكثر من عاصمة .

وحالف الروم الفساسنة مخالفة الند للند ضد الفرس والعرب الغنيرين على طراف مملكتهم ، واشتروا أن يدمم الروم بثلاثين أو أربعين ألفاً إذا حاربهم العرب ، وأن يمدوا الروم بعشرين ألف مقاتل إذا تحاربوا مع الفرس^(٢) . وفي أواخر القرن السادس الميلادي ، نشبت الحرب بين الحارث وبين المنذر أمير الحيرة على البادية الواقعة جنوبى تدمر . فقد ادعى أمير الحيرة أن القبائل العربية النازلة في تلك الأراضي خاضعة لسلطته ، فنارعه الأمير الفساساني ، ومن ثم نشبت الحرب بينهما . وانتصر كسرى ملك الفرس لأمير الحيرة في هذه الحرب ، ويقال إنه أوعز إليه بالتوغل في سورية ، فامتل المنذر لهذا الأمر وجال في سورية حتى أنطاكية^(٣) . ورأى جستنيان نفسه مضطراً لأن يكل أمر الدفاع عن هذه الأقاليم إلى الحارث بن جبلة الفساساني^(٤) .

Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 5. (١)

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٩ .

Sykes : History of Persia, Vol. 1. p. 482. (٣)

Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 43. (٤)

وفي سنة ٥٤١ م حارب الحارث بن جبلة في العراق إلى جانب الروم تحت قيادة بليزاريوس وعبر نهر دجلة على رأس جيشه ، ثم عاد فارتد إلى مركزه السابق ، ولم تؤد حملته إلى نتيجة تذكر . ولم يمض على هذه الغزوة زمن طويل حتى عاد الأميران العربيان إلى القتال حول سنة ٥٤٤ م ، ووقع في هذه الحرب أحد أبناء الحارث في يد المنذر ، فقدمه ذبيحة للعزى . وقد استمر القتال بين الأميرين العربيين حتى أحرز الحارث بن جبلة انتصاراً حاسماً في معركة بالقرب من قنسرين سنة ٥٥٤ م . ومع أن الحارث خسر في هذه المعركة أحد أبنائه فقد قتل من الجانب الآخر المنذر ملك الحيرة نفسه ^(١) .

وكان الحارث مسيحياً يعقوبياً ، وقد دافع عن مذهبه بحماسة وتوفيق عظيمين ، في وقت كان التعلق بأهداب هذا المذهب مجازفة خطيرة . كما أنه كان لا يدخر وسعاً في الدفاع عن أصحاب الطبيعة الواحدة وتحريم من الاضطهاد الذي كان يقع عليهم . وقد تمكن الحارث من تعيين يعقوب البرادعي ، مؤسس الكنيسة السورية القائلة بالطبيعة الواحدة ، أسقفاً في المقاطعات السورية العربية ، فتوطدت بذلك دعائم الكنيسة اليعقوبية بعد أن كانت مهددة بالخطر ^(٢) . وفي أخريات أيام الحارث زار القسطنطينية ليتفق مع السلطة الحاكمة عن يخلقه من أبنائه ، واستطاع أن يجتذب إليه عطف الكثيرين ، كما ترك أثراً كبيراً في نفوس أهلها وخاصة جاستينيان ابن أخى الإمبراطور جستين Justinus ^(٣) .

وتسلم المنذر بن الحارث زمام الحكم بعد وفاة أبيه ، فسارع لمحاربة عرب الحيرة الذين كانوا قد أغاروا على سورية بعد وفاة الحارث ، وانتصر على ملكهم قابوس عام ٥٧٠ م . ولم يمض على هذا النصر الذي أحرزه المنذر بن الحارث مدة طويلة

(١) نولدكه : أمراء غسان ص ١٨ .

(٢) نولدكه : نفس المصدر ص ٢١ .

(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 52. (٣)

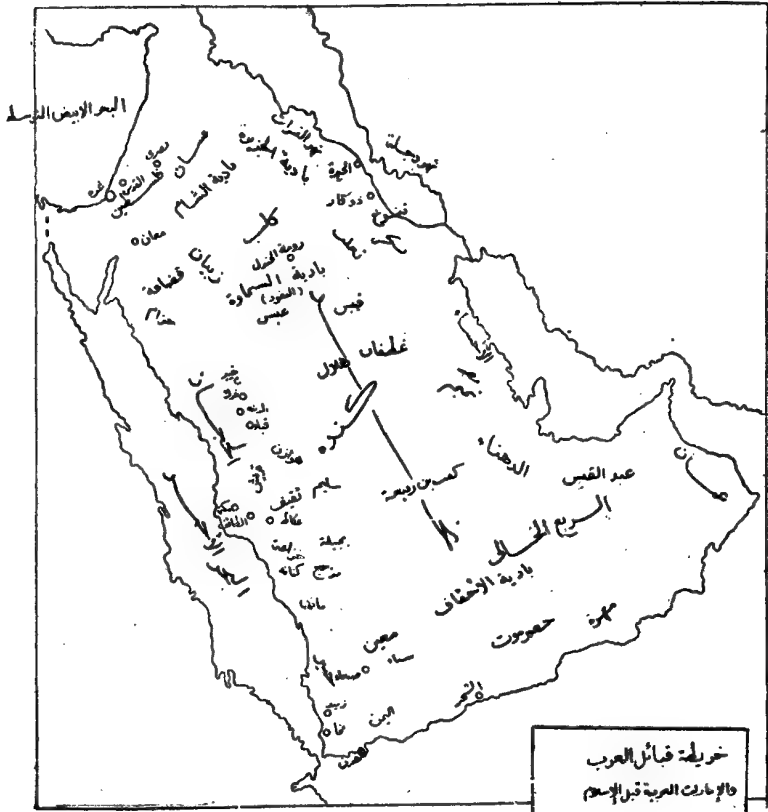
حتى كانت العلاقة بين مملكة الفساسنة والروم قد ساءت إلى حد بعيد . ولم يكن الإمبراطور جستين راضياً كل الرضى عن الأمير العربي ، ورفض إمداده بالمال ، وأوهز إلى البطريق مرقيانوس أن يحتال عليه ويقتله . ولكن المنذر أحس بهذه المؤامرة ، فشق عصا الطاعة على الروم وظل نائراً عليهم مدة ثلاث سنوات ، فاتهمز عرب الحيرة هذه الفرصة وأغاروا على سورية ، وعاثوا فيها ما شاءوا حتى اضطر الروم إلى استرضاء الأمير العربي ليقف في وجه هؤلاء الغزاة ويثبت أقدام الرومان في سورية ، منطقة الحدود الشرقية في الإمبراطورية الرومانية .

ولقد وصل المنذر إلى القسطنطينية ، حيث استقبل هناك بكل مظاهر التمجيد والاحترام وأطلق عليه بعض الكتاب الغربيين لقب : المنذر ملك الشرقيين^(١) . غير أن المنذر لم يتمتع طويلاً بهذا المركز الذي وصل إليه ، إذ سرعان ما قبضت عليه الحكومة البيزنطية ، وأرسلته أسيراً إلى القسطنطينية . ويرجع السبب في سخط الدولة الرومانية عليه إلى فشل بعض حملاتها في غزوة إحدى ولايات الفرس ، فمزت الحكومة البيزنطية هذا الفشل إلى المنذر واتهمته بتواطئه مع العدو .

ولم يكتف الروم بنفي المنذر فحسب ، بل عمدوا إلى قطع الإعانة السنوية التي كانوا يقدمونها لأسرته من آل جفنة . ولذلك سخط على الإمبراطور الروماني أبناؤه الأربعة ، وشقوا عصا الطاعة على دولته ، وأخذوا يشنون الغارات على أراضيها تحت قيادة أخيهما الأكبر النعمان^(٢) . ولكنهم لم يحفوا من وراء اتباع تلك السياسة شيئاً يذكر ، فسرعان ما تمكن القائد البيزنطي الذي أرسله الإمبراطور ضد هؤلاء النافرين من القبض على النعمان وأرسله أسيراً إلى العاصمة كما أرسل أبوه من قبل . ومنذ ذلك الوقت حتى الفتح الفارسي لفلسطين عام ٦١٤م ،

(١) نولدكة : أمراء غسان ص ٢٦ .

(٢) نولدكة : نفس المصدر ص ٣١ .



حميت الفوضى أرجاء مملكة الفساسنة ، وصارت القبائل المختلفة تتنخب رؤساءها الذين كانوا غالباً في بعض الأحيان من آل جفنة ، ولكن الأسرة الحاكمة كانت في حقيقة الأمر قد اندثرت تماماً^(١) . غير أن الروم ما لبثوا أن انتصروا على الفرس واستردوا بلاد الشام منهم . وفي ذلك يقول بركلان : إن أباطرة الروم عند ما انتصروا على الفرس تركوا حكم البلاد (سوريا) إلى أهلها^(٢) .

وكان جبلة بن الأيهم هو آخر ملوك غسان ، ويقال إنه أسلم في عهد هر ابن الخطاب على أثر انتصار العرب في اليرموك سنة ١٣ هـ (٦٣٦ م) ، غير أنه مالبت أن تحول إلى النصرانية وعاد إلى جانب الروم . ويرجع سبب ارتداده إلى النصرانية ، أن أحد العامة وطىء ذيل إزاره بينما كان يطوف بالكعبة ، فما كان من جبلة إلا أن لطمه لكمة شديدة حتى هشم أنفه ، فشكاه إلى عمر بن الخطاب فأمر أن يضربه كما ضربه جبلة ، فعز عليه ذلك واحتال على الحرب مع خمسمائة رجل من قومه ، وذهبوا إلى ملك الروم حيث تنصروا عن آخرهم .

واستطاع الفساسنة أن ينشئوا حضارة أعظم من حضارة الآخمينيين ، وذلك لتأثرهم بالثقافة الهيلينية ، بينما تمسكت الطبيعة البدوية أن تسم الآخمينيين بميسمها وتؤثر فيهم أعظم التأثير^(٣) .

Niccolson : Leiterary History of the Arabs, p. 52. (١)

Brokelmann : History of the Islamic Peoples, p. 7. (٢)

Nicholson : Op. cit, p. 54. (٣)



مدن الحجاز

١ - مكة :

تأسست مكة حول منتصف القرن الخامس الميلادي ، وتقع في قلب الحجاز في منخفض من الأرض تحيط به بعض التلال . ويمتد وادي مكة من الشمال إلى الجنوب ، وتقع معظم المدينة فيما يشبه الحوض ، ويبلغ عرضه نصف ميل وطوله حوالي ميلين ^(١) ، وكانت لانخفاضها عرضة لمياه السيول التي تنحدر من التلال حولها ، ومن هنا نرى أن تاريخ مكة تكثر فيه أخبار السيول . ومناخها حار ، ولهذا كان يلجأ إليها جماعات كثيرة من أهل الحجاز فيتخذونها مشى لهم بعد أن يكون بعضهم قد قضى صيفه في الطائف :

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف ^(٢)

وكانت مرافق الحياة في وادي مكة الضيق - وادي الفور - شاقة للغاية ، لتعرضه للفتح السموم وخلوه من الماء ومن الهواء اللطيف ومن الشجر ، ونعته القرآن الكريم بأنه « غير ذي زرع » حتى ضجر بعض كبار مكة من مناخها وقالوا ما قاله صفوان بن أمية وزملاؤه من رجال مجلس الشورى القرشي « ليس لنا بها مقام » ، هذا على الرغم من أنهم كانوا يتمتعون بالراحة الطويلة مدة الصيف في قصورهم البهجة في الطائف ^(٣) وجبل السراة . قال ياقوت الحموي يصف مكة : مكة مدينة في واد ، والجبال مشرفة من جميع النواحي محيطة حول الحرم ، وليس بمكة ماء جار ، ومياهها من السماء ، وليست لهم آبار يشربون منها ، وأطيبها

Rutter : Holy Cities of Arabia, p. 115. (١)

(٢) وصف محمد بن عبد الله النمري زينب بنت يوسف أخت الحجاج بالنعمة والرفاهية ،

فقال هذا الشعر .

Lammens : Taif à la Veille de l'Hégire, Chap. III. p. 5 (٣)

بئر زمزم ، وليس بجميع مكة شجر مشمر إلا شجر البادية ^(١) .

ومكة هي بيت الله الحرام ، ويقال مكة اسم المدينة وبكة اسم البيت . قال زيد بن أسلم : بكة الكعبة والمسجد ، ومكة ذو طوى وهو بطن الوادى ، ولها عدة أسماء : فهي أم القرى كما سماها الله تعالى فى قوله (لتنذر أم القرى ومن حولها) ، وهي البلد الأمين فى قوله تعالى أيضاً (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين) .

كان العماقة أول من سكن مكة ، ولما أنزل إبراهيم ولده إسماعيل مكة مع أمه هاجر ، كان موضع البيت رَيَوة حمراء فأمر إبراهيم هاجر أن تتخذ عليه مسكناً لها : ثم أنبع الله لهما زمزم ، فتفرق العماقة وجرهم فى البلاد ومن هناك من بقايا عاد . وذهب بنو كركر وهم من العماقة إلى مكة واستأذنوا هاجر فى النزول بها ، فأذنت لهم . ولما علت جرهم الثانية بنزول بنى كركر الوادى وما هم فيه من الخصب بادروا نحو مكة ، ونزلوها واستوطنوها مع إسماعيل ومن تقدمهم من العماقة ، وتسكلم إسماعيل العربية خلاف لغة أبيه ^(٢) .

وقد زار إبراهيم مكة مرتين ، وفى المرة الثانية أمره الله تعالى ببناء البيت ، وساعده فى بنائه ابنه إسماعيل ، (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) وبينما كانا منهمكين فى عملهما هذا جاءهما جبريل وأوصاهما بأداء فريضة الحج . ويؤكد مؤرخو العرب أن الله تعالى قد أمر آدم بإعادة بناء الكعبة فى وادى مكة الذى كانت الملائكة قد شادتها فيه قبل خلق الإنسان ^(٣) ، وحينما طغى الطوفان وطوى فى لجته كل ما على الأرض ، ورفعت الكعبة إلى السماء ، حتى إذا غاض الماء ، أعاد بناءها فى مكانها السابق ، إسماعيل وإبراهيم ^(٤) .

(١) ياقوت : معجم البلدان

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٣٥٨ .

(٣) Rutter : Holy Cities of Arabia, p. 117.

(٤) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 63

ولقد اختلف المؤرخون في أمر الملك على الحجاز بين جرم وبين إسماعيل : فقيل للملك كان في جرم ومفاتيح السكبة وسداتها في يد ولد إسماعيل ، كما قيل إن قيذار بن إسماعيل توجه أخواله من جرم وعقدوا له الملك بالحجاز^(١) . وقام بأمر البيت بعد إسماعيل ابنه نابت وهو أكبر أولاده ، ثم قام من بعده أناس من جرم ، فلبثهم على ولد إسماعيل ، ويظن أن ولايتهم قد استمرت حتى سنة ٢٠٧ م^(٢) .

ولما طالت ولاية جرم نالوا من الحرم ما لم يكونوا ينالون واستخفوا بحرمته ، وكما عدا سفيه منهم على منكر ، وجد من أشرفهم من يمنعه ويدفع عنه^(٣) . وبعد تفرق سبأ على أثر سيل العرم ، خرج عمرو بن عامر الذي يقال له مزقياء ابن ماء السماء ، هو وقومه من اليمن وساروا من بلد إلى بلد حتى قارب مكة ، فأبت جرم أن تسمح لهم بالإقامة في مكة ، وقالت : لا والله ما نحب أن تنزلوا معنا فتضيقوا علينا مراتعنا ومواردنا ، فاحلوا عنا حيث أحببتهم ، فلا حاجة لنا بحواركم . ونشبت الحرب بين الفريقين واستمرت ثلاثة أيام ، وانتهى الأمر بهزيمة جرم^(٤) . وبقي ثعلبة بن عمرو بن عامر بمكة وما حولها حتى أصابته الحمى ، فدعوا طريفة السكاهنة وأخبروها ما حل بهم ، فدعته إلى التفرق في أرجاء الجزيرة العربية ، وعندئذ افترقوا من مكة : وتوجهت فرقة إلى عمان وهم أزد عمان ، وسار ثعلبة بن عمرو بن عامر نحو الشام فنزلت الأوس والخزرج ابنا حارثة ابن عمرو بن عامر المدينة ومضت غسان فنزلوا الشام ، وانخرعت خزاعة^(٥) بمكة فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر فولى أمر مكة وحجابه السكبة .

(١) صبح الأعشى : ج ٤ ص ٢٦١ .

(٢) Sedillot : Histoire Générale des Arabes, tome, pp. 41-42

(٣) الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من آثار ج ١ ص ٤٦ (طبعة مكة) .

(٤) الأزرقى : أخبار مكة ج ١ ص ٨ .

(٥) هم قوم ربيعة بن حارثة بن عمرو ، الذين سموا خزاعة لانخراعتهم .

وكان سبب تولية خزاعة أمر البيت أنه « لما ثارت الحرب بين إياد ومضر ابني نزار وكانت على إياد ، قلمت الحجر الأسود ودفتته في بعض المواضع ، فرأت ذلك امرأة من خزاعة فأخبرت قومها ، فاشترطوا على مضر أنهم إن ردوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم فوقوا لهم بذلك ، ووليت خزاعة أمر البيت »^(١) . وكان أول من وليه منهم عمرو بن لحي ، فملت مكانته بين العرب حتى أصبح قوله ديناً متبعاً لا يخالف . وكان عمرو أول من غير دين إبراهيم وبدله حين خرج إلى الشام ورأى قوماً يعبدون الأصنام ، فأعطوه منها صنماً نصبه على السكبة . ولما أكثر عمرو بن لحي من نصب الأصنام حول السكبة ، غلب على العرب عبادتها ، وانمجت الحنيفية منهم ، وفي ذلك قال سحنة بن خلف الجرهمي :

يا عمرو ، إنك قد أحدثت آلهة شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت ربٌّ واحد أبداً فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفن بأن الله في مهل سيمصطنى دونكم للبيت حجابا .

استمرت خزاعة على ولاية البيت نحواً من ثلثمائة سنة وكان آخرهم خليل ابن حبشية بن سلول الذي زوج ابنته حبي من قصي بن كلاب . ولما حضرت خليلاً الوفاة جعل ولاية البيت الحرام لقصى وأسلم إليه المفتاح ، فاستولى قصي ابن كلاب على أمر مكة والبيت الحرام من يد خزاعة ، وأجلام عنها بما كان له من العصبية ، فرحلت خزاعة ونزلت في بطن مر^(٢) ، ويقال إن قصيا كان في زمن بهرام جور بن يزدجرد^(٣) .

أما قبيلة قريش فكانت وقتئذ متفرقة في بني كنانة . ويقول لامنس

(١) السعدي : مروج الذهب ج ١ ص ٣٦٦ .

(٢) وادي فاطمة .

(٣) أبو هلال الحسين العسكري : الأوائل ص ١٣ ، مخطوط بدار الكتب المصرية ،

مخطوط تحت رقم ٢٨٧٣ تاريخ .

إن قريشاً كانت « قبل أن ترتقى إلى مركزها الحالي »^(١) ترود حول منطقة الحرم فتؤجر دوابها وتسير في خدمة القوافل هاديةً محافظةً ، هذا إذا لم ترابط مسترة في غورى تهامة منتظرة مرور القوافل فتهمج عليها وتنهبها ، وطال عهدا بحياة التشرد ومرن أربابها على الاحتيال والنهب ، حتى أهاب بهم قصى وأخرجهم عن نطاق الفوضى والاضطراب ، وأدخلهم قلب مكة فأقامهم فيها أسياراً^(٢) .

واختلف المؤرخون في تسمية قريش بهذا الاسم . قال ابن هشام : النضر هو قريش فمن كان من ولده فهو قرشى ومن لم يكن من ولده فليس بقرشى ، وقيل إن فهر بن مالك هو قريش ، وأوضح الأكثرون من نسابة العرب أنه النضر بن كنانة^(٣) .

أما اشتقاق قريش فقيل من التقرش بمعنى التجمع بعد التفرق ، وذلك عندما كانت قريش متفرقة في بنى كنانة فجمعهم قصى بن كلاب من كل أوب ، فسموا قريشاً وسمى قصى مجماً^(٤) ، قال حذافة بن غانم بن عامر القرشى^(٥) :

قصى أبوكم كان يدعى مجماً به جمع الله القبائل من فهر وقيل سميت قريش من التقرش وهو التكبس والتجارة . قال هشام بن الكلبي : « كان النضر بن كنانة يسمى قريشاً لأنه كان يقرش عن خلة الناس وحاجتهم ، فيسدها بماله — والتقرش هو التفتيش — وكان بنوه يقرشون أهل

(١) أى قبل أن تصبح سيده مكة وحاملة زعامتها .

(٢) Lammens : Les Ahabies et l'Organisation Militaire de la

Mecque au Siècle de L'Hegire, Journal Asiatique

Onzieme Série, tome VIII. 1916 pp. 525—282.

(٣) ابن كثير القرشى : البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٤) ابن عبد ربه : المقد الفريد ج ٣ ص ٣١٢ .

(٥) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ١ ص ٢١ ، النسخة الشمسية المحفوظة بدار

الكتب المصرية رقم ١١٠٣ تاريخ .

الموسم عن الحاجة ، فيرفدونهم بما يبلغهم بلادهم ، فسموا بذلك قريشاً^(١) .
وقيل أيضاً إنما سميت قريشاً بداية في البحر تسمى « القرش » ، فشبه بنو النضر
ابن كنانة لأنها أعظم دواب البحر قوة .

كذلك عرفت قبيلة قريش في الجاهلية بعدة أسماء ، منها : العالمية ، قال
أبو هلال العسكري « كانت قريش تسمى في الجاهلية « العالمية » ، لفضلهم
وعلمهم^(٢) ، قال الفضل بن عباس بن عتبة :

ألسنا أهل مكة عالمياً وأدركنا السلام بها رطاباً
ويقول ابن عبد ربه : كانت قريش تسمى آل الله وجيران الله وسكان الله^(٣) .
وفي ذلك يقول عبد المطلب بن هاشم :

نحن آل الله في ذمته لم تزل فيها على عهدٍ قدّم
إن للبيت رباً مانعاً من يرد فيه يأنم يختم
ومن أشهر الأسماء التي لقبت بها قريش في الجاهلية وعرفت بها لفظ
« السخينة »^(٤) ، وظل هذا الاسم يلزمها حتى في العهد الإسلامي ، قال
كعب بن مالك :

جاءت سخينة كي تغالب ربها فليغالب مغالب الغلاب

وقال خدّاش بن زهير :

ياشدة ما شدتنا غير كاذبة على سخينة لولا الليل والحرم

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٠١ .

(٢) أبو هلال العسكري : الأوائل ص ٧٤ ، مخطوط بدار الكتب رقم ٢٧٧٣ تاريخ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣١٣ .

(٤) السخينة : نوع من الطعام يتخذ من الدقيق ويؤكل في شدة الدهر وغلاء السعر ،
وكانت قريش تأكله فسميت به وهجّت حتى لقبت بالسخينة .

(٥) ابن هشام : السيرة ص ٧٠٤ .

ووجد صدى هذا اللقب بعد الهجرة في أهجية مرة للنجاشي ، لدع فيها القرشيين ، حتى أن ابن قتيبة قال عنه : هجا قريشاً لعنه الله ^(١) ، ومن هذه الأهجية :

سخينة حتى يعرف الناس بها قديماً ولم تعرف بمجدٍ ولا كرمٍ
فيا ضيعة الدنيا وضيفة أهلها إذا ولي الملك التناقلة القدم
وبعد أن جمع قصي بن كلاب قريشاً من سهول مكة ، وأسكنها منطقة الحرم
أصبح سيد قريش وشریفها ، واجتمع له مالم يجتمع لغيره من المناصب ، فكان
بيده الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللاء والقيادة ^(٢) .

١ — الحجابة هي سدانة الكعبة ، فلا يفتح بابها إلا هو ، كما أنه
يلى أمر خدمتها .

٢ — والسقاية هي إسقاء الجميع الماء العذب ، وكان عزيزاً بمكة
يجلب إليها .

٣ — والرفادة هي إطعام الحجاج ، حيث تمد لهم الأسطة في أيام
الحج ، وتستمر حتى تنقضى .

٤ — والندوة هي نادي قريش ومجمع الملأ والسراة فيها ، وكانت ملاصقة
للمسجد الحرام ، فسيحة وسيمة ، وفيها كانت قريش تقضى شئونها العامة .

١ — فلا تزوج امرأة إلا في دار الندوة .

ب — ولا يعقد لواء إذا خرجت قريش للحرب إلا في دار الندوة .

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ١٩٠ ، طبعة DeGoerge .

(٢) عبد الحميد المبادئ : دار الندوة . لأحدى موضوعات كتاب « صور من التاريخ

الإسلامي ، العصر العربي » ص ٦ — ١٢ .

ح — ولا يعذر غلام ولا تُدرع جارية إلا فيها . وكان الغرض من ذلك هو مجرد إحصاء وتسجيل للبالغين من قريش ، الذكور والإناث^(١) .

د — ومن دار الندوة ترحل قوافل قريش للتجارة ، وفي فنائها تحط هذه القوافل حولتها إذا رجعت .

هـ — وتعتبر دار الندوة دار مشورة قريش ، فيها يجتمع بنوها للتشاور في أمورها ، ولم يكن يدخلها للشورة من غير بنى قصى إلا من بلغ أربعين سنة ، في حين كان يدخلها بنو قصى وحلفاؤهم جميعا ، وقد أصبحت دار الندوة بعد بنى عبد الدار إلى حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد فباعها في الإسلام بمائة ألف درهم^(٢) .

و — واللواء هي راية يلوونها على رمح ، وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا إلى محاربة عدو ، فيجتمعون تحتها ويقاتلون عندها .

٦ — والقيادة هي تولى إمارة الجيش إذا خرجوا إلى حرب .

ولقد جمل قصى مكة أرباعاً وزعها بين قومه ، وأبقى لكل فريق منهم منازلهم التي استقروا عليها . وكان لقصى عدة أبناء ، من أشهرهم عبد الدار وعبد مناف . فأجمع قصى على أن يقسم أمور مكة الستة ، التي فيها الذكر والشرف والعز ، بين ابنيه : فأعطى عبد الدار السدانة وهي الحجابة ودار الندوة واللواء ، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة^(٣) ، وبقيت قريش على ذلك زمانا . ثم أن عبد مناف رأى في نفسه وولده ، وهم : عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل ، من النباهة والفضل مادهم على أنهم أحق من عبد الدار بالأمر ، فأجمعوا

(١) السهيلي : الروض الأنف ج ١ ص ٨٨ .

(٢) أبو التقي محمد بهاء الدين : تاريخ مكة للمشرفة ص ٤٩ . مخطوط محفوظ بدار السكيت المصرية ، تحت رقم ١٥٧٠ تاريخ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان .

أمرهم على أخذ ما بأيديهم من الوظائف ، وهو بالقتال ففترقت قريش إلى فريقين : مال فريق منهم إلى بنى عبد مناف بن قصى ، أما الفريق الآخر فقد رأى أن لا ينزع من بنى عبد الدار ما أسنده قصى إليهم . فمشى الأكابر بينهم ودعوا إلى الصلح ، على أن تظل السقاية والرفادة لعبد مناف ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار ، وتعاقدوا على ذلك حلفاً مؤكداً . فأخرجت بنو عبد مناف ومن تابعهم من قريش ، وهم : بنو الحارث بن فهر وأسد بن عبد العزى وزهرة ابن كلاب وتيم بن مرة ، جفنة مملوءة طيباً وغسوا أيديهم ومسحوا بها السكبة تأكيداً على أنفسهم فسموا المطيبين . وأخرجت بنو عبد الدار ومن تابعهم وهم مخزوم بن يقظة وجمع وسهم وعدى بن كعب ، جفنة مملوءة دماً وغسوا فيها أيديهم ومسحوا بها السكبة ، فسموا الأحلاف « ولعقة الدم »^(١) .

ووزعت الوظائف التي اختص بها بنو عبد مناف بين هاشم وأخيه عبد شمس : أما هاشم فكانت إليه الرفادة^(٢) مع السقاية لأنه كان موسراً ، فإذا ما حضر موسم الحج قام في قريش وقال : « يامعشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته وإنكم يأتونكم في هذا الموسم زوار الله ، يعظمون حرمة بيته ، وهم ضيف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصكم الله بذلك وأكرمكم به ، حفظه منكم وأفضل ما حفظ جار من جاره : فأكرموا ضيفه وزواره ، فإنهم يأتون شُمتاً غيراً من كل بلد على ضوامر^(٣) كالقداح^(٤) وقد أزحفوا وتفلوا وقلوا وأرملوا^(٥) ، فأقروهم وأغنوهم وأعينوهم »^(٦) ، وكان هاشم يأمر بحياض من

(١) ياقوت : معجم البلدان .

(٢) الرفادة : من الرفد وهو الإعانة ، وقد يرفده رفاً أى أعطاه .

(٣) ضوامر : جمع ضامر وهو الجمل الذي هزل .

(٤) القداح : مفرداً قدح وهو السهام .

(٥) أزحف الرجل إذا أميت لبله ، وتفل إذا ترك الطيب ، وقل أى كثر قلله ، وأرمل أى احتاج فيقال رجل أرمل أو امرأة أرملة أى محتاجة .

(٦) القرزى : النزاع والتخاصم فيما بين أمية وهاشم من ٨ ، تاريخ اليعقوبى ج ١

أدم فتجعل في موضع زمزم ثم يستقى فيها من الآبار التي بمكة فيشرب الحاج ، وما يزال يطعم حجاج البيت ويسقيهم حتى يتفرقوا لبلادهم.

أما عبد شمس فإنه نظرا لكثرة أسفاره وقلة إقامته بمكة ولأنه كان رجلا مقلا وله ولد كثير ، فقد تولى القيادة دون الرفادة ، وتولاها من بعده ابنه أمية ابن عبد شمس ثم حرب بن أمية ، فقاد الناس يوم عكاظ وغيره . ثم قاد أبو سفيان ابن حرب قريشا بعد أبيه حتى كان يوم بدر ، فقاد الناس عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس ، فلما كان يوم أحد قاد الناس أبو سفيان بن حرب ، وقاد الناس يوم الأحزاب وكانت آخر واقعة لقريش حتى جاء الله تعالى بالإسلام^(١) .

كان هاشم بن عبد مناف يسمى عمرا ، وإنما قيل له « هاشم » لهشمه الخبز لقومه بعد أن حدث جذب شديد في مكة ، فخرج هاشم إلى الشام واشترى خبزاً وأتى به إلى مكة ، وصار يهشمه لقومه ، فسمى هاشماً . ولقد حدثت منافرة^(٢) بين هاشم بن عبد مناف وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس ، وسببها أن أمية كان ذا مال فتكلف أن يفعل كما فعل هاشم من إطعام قريش ، فمعجز عن ذلك ، وشتت به ناس من قريش وعابوه ، فنافر هاشما على خمسين ناقة سود الحديق فتحر بمكة وعلى جلاء عشر سنين ، وجعلا بينهما السكاهن الخزاعي جد عمرو بن الحقي وكان منزله عُسْفان ، وخرج مع أمية أبو همهمة حبيب بن عامر ابن عميرة ، فقال السكاهن الخزاعي : « والقمر الباهر ، والسكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر »^(٣) ، فأخذ هاشم الإبل فنحراها وأطعم لحمها من حضر ،

(١) أبو النفا محمد بهاء الدين : تاريخ مكة المشرفة ص ٥٨ . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٧٠ تاريخ .

(٢) للمنافرة أى المخاكمة ، يقال : نافرت فلانا إلى فلان فنمزني عليه أى غلبني . وكانت المنافرة عند العرب أن يسأل الخصمان المحكم : أينما أعز نقرا وأكثر غفرا ؟

(٣) الإيشيى : المستطرف فى كل فن مستظرف ج ١ ص ١٠٠ .

وخرج أمية إلى الشام فأقام به عشر سنين ، فكان هذا أول عداوة وقعت بين بيت هاشم وبيت أمية^(١) . ولما توفى هاشم خلفه أخوه المطلب في إقامة الرقادة والسقاية وكان ذا شرف في القوم وفضل ، وكانت قريش تسميه « الفيض » لسماحته وفضله^(٢) . وقد خلف المطلب في الرقادة والسقاية ابن أخيه « شيبة » ابن هاشم المشهور بعبد المطلب الذي لقب « بشيبة الحمد » لكثرة حمد الناس له ولأنه كان مفزع قريش في النوائب وملجأهم في الأمور ، فكان شريف قريش وسيدها كلاً وفعلاً غير مدافع^(٣) . ولما توفى عبد المطلب قام بالرقادة والسقاية العباس بن عبد المطلب ، ولم يزل يتولاهما حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة سنة ٨ هـ فأبقاهما في يده .

أما بنو عبد الدار فقد اختصوا بالحجابة واللواء ورئاسة دار الندوة . ولم تزل الحجابة بيد عبد الدار حتى توفى ، بعد أن جعل الحجابة بعده إلى ابنه عثمان ابن عبد الدار ، ودار الندوة إلى ابنه عبد مناف بن عبد الدار . ولم يزل بنو عثمان بن عبد الدار يلون الحجابة دون ولد عبد الدار حتى كان فتح مكة ، فقبضها رسول الله من أيديهم وفتح الكعبة ودخلها ، ثم خرج رسول الله من الكعبة ومعه مفتاحها ، فقال له العباس بن عبد المطلب « بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، أعطنا الحجابة مع السقاية » . فأنزل الله تعالى على نبيه (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) ، فدعا رسول الله عثمان بن طلحة ، ودفع إليه المفتاح وقال « خذوها يا بني أبي طلحة بأمانة الله سيحانه ، وأعملوا فيها بالمعروف ، خالدة تالدة لا ينزعها من أيديكم إلا ظالم »^(٤) .

(١) المقرئى : النزاع والتخاصم بين بني أمية وهاشم من ١٠ .

(٢) ابن هشام : السيرة من ٨٨ .

(٣) قيل إنه سمى بشيبة الحمد لأنه ولد وفي رأسه شيبة ، أو سمى بذلك تفاقوا بأن يبلغ سن الشيب .

(٤) الأزرقي : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ج ١ من ٦٢ (مطبعة مكة) .

أما اللواء فكان في أيدي بني عباد كلهم ، يليه منهم ذوو السن والشرف حتى كان يوم أحد فقتل عليه من قتل منهم .

عمرو قريش بقبائل العرب في الحجاز :

قام القرشيون بعدة محاولات في سبيل السيطرة على قبائل العرب . وكان موقع مكة الجغرافي على الطريق التجاري بين حضرموت وبلاد البحر العربية مما أعان كثيراً على ذلك . وكانت مكة مدينة تجارية عظيمة ، لأهلها رحلات تجارية شتوية وصيفية ، والقوافل تذهب إلى مختلف الجهات حاملة البضائع من قطر إلى آخر وبلغ عددها نحو ألفين وخمسمائة جمل ، فيها مابين المائة والثلاثمائة رجل^(١) .

و بلغ امتداد تجارة قريش بين مختلف القبائل إلى هاشم بن عبد مناف . يقول أبو هلال العسكري : كانت قريش تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة وما حولها ، فخرج هاشم بن عبد مناف إلى الشام ، فنزل بقيصرية ، وكان يذبح كل يوم شاة ويصنع جفنة ثريد ويدعو من حوله ، فكان من أتم الناس وأجلهم ، فذكر ذلك لقيصر فأحضره ، فقال له هاشم « أيها الأمير إن قومي تجار العرب ، فإن رأيت أن تكتب لي كتاباً تؤمنهم به فيقدمون عليك ما تستطرف من أمتعة الحجاز ، فيكون ذلك أرخص لكم فكتب قيصر كتاب أمان لمن يقبل منهم . فخرج هاشم به فكلماً مر بحى من العرب أخذ من أشرفهم الأيلاف (الأمان) حتى قدم مكة »^(٢) .

ولا شك أن الحياة التجارية قد نمت ثروة المسكين ورفعت من شأن بلدهم

(١) لامنس : الموسوعة الإسلامية ، مادة Mecca .

(٢) أبو هلال العسكري : الأوائل ص ١٥ . مخطوط بدار الكتب رقم ٢٧٧٣ تاريخ .

في نظر قبائل العرب ، حتى أن لامنس ذكر أن ثروة مكة تعادل ثروة تدمر^(١) ، كما كان من وراء تبادل التجارة وانتشارها في مكة ما عاد على أهلها بالأرباح الطائلة . ولم يكن حب أبناء الأشراف وأهل الشرف فيهم ، الفروسية ، بأقل من حبهم للتجارة التي كانوا يمارسونها منذ نعومة أظفارهم .

ولم يقتصر تجار مكة على الأرباح الطائلة التي درتها عليهم التجارة والأسفار ، بل عمدوا إلى بيع الرقيق في بلدكم . وكانت مكة في ذلك مقصد الأثرياء وملتقى التجار ، وظلت مكة سوقاً للرقيق منذ القدم ، وظلت كذلك إلى عهد قريب ولقد شاهد رثر سوق العبيد في مكة ، فلاحظ أن أعمارهم تتراوح بين الثامنة والتاسعة إلى الخمسين من كلا الجنسين ، وكان الرجال يرتدون القمصان المسكية القصيرة^(٢) ، أما النساء فكان يلبسن الملابس الواسعة التي تغطي أجسامهن بما في ذلك أيديهن^(٣) . وكانت هذه السوق تقام في موضع يسمى « الحزورة » ، يلي البيت الحرام^(٤) .

وبما ساعد على علو مكانة قريش بين قبائل العرب ، عقدها حلف الفضول^(٥) . وسبب ذلك الحلف أن رجلاً من زبيد قدم مكة بتجارة له ، فاشتراها منه العاص

(١) لامنس : الموسوعة الإسلامية ، مادة Mecca .

(٢) مما يدل على أن معظم الرقيق كان من مكة .

(٣) Rutter : Holy Cities of Arabia, p. 134.

(٤) الحزورة ، بفتح الزاي وتشديد الواو ، هو موضع سوق مكة . البكري : معجم ما استعجم ص ٤ (نشر الأستاذ مصطفى السقا) .

(٥) اختلف المؤرخون في بيان الأسباب التي من أجلها أطلق اسم الفضول على ذلك الحلف . قيل سمي بذلك لأنهم تحالفوا أن لا يتركوا أحد فضلاً يظلمه أحد إلا أخذوه منه ، وقيل سمي به تشبيهاً بحلف كان قديماً بمكة أيام جرم على النناصف والأخذ للضعيف من القوى والغريب من القاطن ، وسمى حلف الفضول لأنه قام به رجال من جرم كلهم يسمى الفضل : الفضل بن الحرث والفضل بن وادعة والفضل بن فضالة ، فقيل حلف الفضول جمعاً لأسماء هؤلاء .

ابن وائل ، غير أنه حبس ثمنها عنه ، فما كان من الزبيدي إلا أن استعدي عليه الأحلاف من قريش ، فأبوا أن يعينوه على العاص لمساكته فيهم . فلما عيل صبر الزبيدي صعد أبي قبيش^(١) عند طلوع الشمس ، وقريش في أنديتهم حول الكعبة ، فصاح الزبيدي بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر
إن الحرام^(٢) لمن تمت حرامته ولا حرام لثوب^(٣) الفاجر القدر^(٤)

فقال الزبير بن عبد المطلب : واجتمعت هاشم وزهرة وتيم في دار عبد الله ابن جدعان ، وتماهدوا ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي ماعليه . فسمى ذلك الحلف حلف الفضول ، وقالوا : لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر ، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي وردھا إليه^(٥) . وقال الزبير .

حلفت لنمقذن حلقاً عليهم وإن كنا جميعاً أهل دار
نسقيه الفضول إذا عقدنا يعز به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالى البيت أنا أباة الضيم نمنع كل عار^(٦)
وهناك أبيات أخرى لا تختلف عن سابقتها إلا في اللفظ :

(١) أبو قبيس أحد أخشي مكة أي جيلها ، وجاء في القاموس أن الأخشين هما أبو قبيس والأحر ، بينما يقول ابن بطوطة أن جبل قيقعان هو أحد الأخشين . مهذب رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١١٦ .

(٢) الحرام : الاحترام .

(٣) لثوب : لشخص .

(٤) القدر : الكثير القدر .

(٥) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور على ابراهيم : النظم الإسلامية ص ٣٢٨ — ٣٢٩ .

(٦) السهيلي : الروض الأنف ج ١ ص ٩١ .

يَا لَ قَعِيٍّ لِمَطْلُومٍ بِضَاقَتِهِ بِيْطَن مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّوَرِ
وَأَشْعَثِ مُحْرِمٍ ^(١) لَمْ تُقْضَ حُرْمَتُهُ بَيْنَ الْمَقَامِ وَبَيْنَ الْحِجْرِ وَالْحَجَرِ ^(٢)
أَقَائِمٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ بِذَمَّتِهِمْ أَوْ ذَاهِبٌ فِي ضَلَالٍ مَالٌ مُنْتَمِرٍ ^(٣)
فَأَجَابَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ مَرْدَاسٍ السَّلْمِيُّ بِقَوْلِهِ :

إِنْ كَانَ جَارِكَ لَمْ تَنْفَعَكَ ذِمَّتُهُ وَقَدْ شَرِبْتَ بِكَأْسِ الدَّلِّ أَنْفَاسًا
فَأَتِ الْبَيُوتَ وَكُنْ مِنْ أَهْلِهَا صَدْدًا ^(٤) لَا يَلْقَى نَادِيَهُمْ ^(٥) فُحْشًا وَلَا بَاسًا
وَمَنْ يَكُنْ بِبَفَاءِ الْبَيْتِ مُفْتَضِمًا يَلْقَى ابْنَ حَرْبٍ ^(٦) وَيَلْقَى الْمَرْءَ عَبَّاسًا
قَوْمِي قَرَيْشٌ بِأَخْلَاقٍ مُسْكَمَةٍ بِالْجِدِّ وَالْحَزْمِ مَا عَاشَا وَمَا سَاسَا ^(٧)
سَاقِي الْحَجَجِيجِ وَهَذَا يَاسِرٌ فَلَجِجٌ ^(٨) وَالْجِدُّ يُورِثُ أَحْمَاسًا وَأَسَدَسًا

وقيل إن النبي صلى الله عليه وسلم قد شهد هذا الحلف، وقال : لقد شهدت

(١) الأشعث : مفبر الرأس ، متلبد الشعر أو منتشره ، لقلة تعبهه بالدهن ، وهو ما يحرم على المحرم فعله .

(٢) المقام : مقام إبراهيم . والحجر « بالكسر » مكان سيدنا إسماعيل بالحرم .
والحجر « بالفتح » : الحجر الأسود المعروف في الكعبة .

(٣) المنتمر : هو الذي يؤدي العمرة ، وهي أفعال مخصوصة تسمى بالحج الأصغر ،
وأفعالها : الإحرام والطواف والسعي بين الصفا والمروة ، والفرق بينهما وبين الحج : أن الحج
يكون في وقت معلوم من السنة ، والعمرة تكون للانسان في السنة كلها .

(٤) الصدد « محرّكة » : القصد .

(٥) في الأحكام السلطانية : لا تلقى تأديبهم .

(٦) هو أبو سفيان .

(٧) ورد هذا البيت في الأغاني ج ١٦ ص ٦٥ هكذا :

قومي قريش وحلاف ذواتها بالجد والحزم ما حازا وما ساسا .

(٨) الياسر : المقامر . والفالج : الغالب .

في دار عبد الله بن جدعان خلفاً ما أحب أن لي به خمر النعم لو أدعى به في الإسلام لأجبت^(١) .

ولم تكن مكة مدينة تجارية فحسب ، بل كانت فوق ذلك مركزاً دينياً يؤمه في المواسم كثير من القبائل العربية . كما كان مكانها من الحرم يضمن لها على الغالب سلامة أرزاقها ، ويضعها بعيداً عن سطوة جيرانها من ذوى المطامع الجريئة التي كانت تدفعهم أحياناً إلى غزوة منطقة الحرم . ولا مرء أن موقع مكة كان يجلب إليها عدداً كبيراً من شذاذ القفر وخلصاء العرب خاصة أيام الحج . وطالما فكر القرشيون في استخدام شجاعة الخلفاء وقوتهم^(٢) في سبيل مصالحهم التجارية ، فكأنوا يستخدمونهم للمحافظة على قوافلهم في رحلاتهم البعيدة^(٣) ، كما كانوا يرون في هؤلاء الشذاذ والخلفاء زبائن ذوى أموال لم يبذلوا الجهد الكثير في تحصيلها فينفقونها بسهولة في حوانيت مكة .

على أن أهل مكة لم يستطيعوا التغلب على جيرانهم القاطنين حول الحرم إلا بصعوبة كبيرة ، فكثيراً ما قامت تلك القبائل الفقيرة الضاربة في مرتفعات تهامة الجدية ، بمختلف ضروب الاحتمال على الحياة ، بجميع الطرق المشروعة وغير المشروعة . ومن بين هذه القبائل الفقيرة التي امتازت بالخبث والدهاء وعدم التخرج ، نجد : قبيلتي بنى غفار المتصلة بجذع كفانة ، وقبيلة بنى أسلم التي تمثل في قبيلة خزاعة ما يمثلها بنو غفار في قبيلة كفانة . وكانت قبيلتا غفار وأسلم شرّاً سكان أهل تهامة .

(١) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٨٦ .

(٢) من أهم صفات الخليم : الجرأة والإقدام دون مبالاة بالموت . وخير ما يمثل لنا ذلك قول عباس بن مرداس :

أقاتل في السكينة لا أبالي أفيها كان حتى أم سواها .

(ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ١١٣) .

(٣) Lammens : Bereceau de L'Islam, Vol. 1 p. 334. (٣)

واشتهر الغفاريون بالتلصص ونهب المسافرين حتى الحجاج فسموا « مرقاق الحبيج » ، وكثيراً ما أفسدوا على تجار مكة آمالهم ومساعيمهم فنهبوا تجارتهم وعرقلوا سير قوافلهم حتى أنهم كانوا يقتلون من يستفردونه من أهلها . حدثنا ابن هشام « أن ابنا لحفص بن الأخيف أحد بني هصيص بن عامر لؤي ، خرج يبتغي ضالة له ، وكان غلاماً وضيقاً نظيفاً ، فر بعامر بن يزيد بن عبد مناة ^(١) وهو سيد بني بكر ، فرآه فأعجبه . قال : من أنت يا غلام ؟ قال : أنا ابن لحفص بن الأخيف القرشي . فلما ولي الغلام ، قال عامر بن يزيد : يا بني بكر ! أما السكم في قریش من دم . قالوا : بلى والله أن لنا منهم لدماء ، قال : ما كان رجل ليقفل في هذا الغلام برجله إلا كان قد استوفى دمه ، فتبعه رجل من بني بكر فقتله بدم كان له في قریش ^(٢) وقد ظل البراد مثالا أعلى للخلعاء الغفاريين ، وكان يقوم بمغامراته خفية ، ثم ينشرها في أنحاء الجزيرة العربية بكل ما تقتضيه شروط التمثيل المسرحي من زهو وافتخار ، حتى ضج القرشيون من أعماله ، فاستحلفه بنو أمية وجعلوه حليفاً لهم وأنزلوه مكة . بيد أنه لم يفارق ماشب عليه من أعمال النهب والسلب ، فعاد القرشيون إلى القذم منه ، فترك المدينة دون أن يترك حلف الأمويين ، ثم علقت الأسطورة بمغامراته وما اتصف به من جرأة وحيلة وبطش ، فولدت منها آثار أضيفت فيما بعد إلى الآثار الأدبية المختصة بالاصوص ^(٣) .

كانت غفار شوكة في حلق قریش ، لما كان لمنزلها من موقع جغرافي بين مكة والشام ، فإن أبا ذر الغفاري لما أسلم بين يدي الرسول أتى المسجد فشهّر إسلامه بأعلى صوته ، فقام القوم إليه فضربوه حتى أضجموه ، وأتى العباس فأكب عليه ، وقال : ويلكم أستم تعلمون أنه من غفار وأنه في طريق تجارتكم إلى الشام ^(٤) .

(١) كثيراً ما دعت غفار « بكر بن عبد مناة » حتى عرفت قبيلتهم بهذا الاسم .

(٢) ابن هشام : السيرة ص ٤٣١ .

(٣) Lammens : Les Ahabies et l'Organisation Militaire de

la Mecque. Journal Asiatique, 1916.

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٣ ص ١٨٧ .

لذلك عمل القرشيون على جذب الغفاريين إلى حلفهم ، حتى يأمنوا شرهم حرصاً على مصلحة أهل مكة التجارية والسياسية ، وذلك لما عرف عن الغفاريين من الميل إلى السلب والنهب^(١) .

وقد فكر سادة البطحاء^(٢) وأسياد مكة في استخدام بدو تهامة ، سواء أ كانوا ينتمون إلى كنانة أو إلى خزاعة ، للدفاع عن منافعهم السياسية والتجارية ، فكان القرشيون يختارون منهم عدداً من العسكر المأجور في جيشهم المسمى « الأحابيش » . وكما عرف أولو الأمر في مكة شجاعة الغفاريين وغيرهم من بدو تهامة ، فإنهم قدروا كذلك جرأة ذو يان^(٣) العرب وقتما كهم الذين خلعتهم قبائلهم وتبرأت من جرائر أعمالهم ، فكانوا يلحقونهم بهم في نطاقهم ، ليمثلوا نفوسهم في سبيل مصالحهم . وتاريخ مكة إبان العصر الجاهلي مفعم بذكر ففكات البراد وأبي الطمحاء^(٤) والحريث بن ظالم الذين كانوا يلقون الرعب في أنحاء الجزيرة العربية في سبيل مصالح الأمويين والحزوميين والهاشميين . وتدلنا النصوص العربية التاريخية على أن القوة العسكرية التي استأجرتها مكة للمحافظة على الأمن الداخلي والدفاع عن منافعها التجارية ، كانت عبارة عن أحياء من عرب تهامة وأخرى كانت تنزل ظاهر مكة .

(١) ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٣ ص ١٩ .

(٢) كانت قريش فريقين : فريقاً بطحاء مكة فكانت بيوتهم حول بئر زمزم وقرب ساحة السكبة فمروا بقريش البطاح ، والبطاح جمع بطحاء وهي الأرض ذات الحصى ، وكانت قريش البطاح عشرة أبطن : هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم وخزوم وعدى وجم وسهم . أما الفريق الآخر فهم فريق الظواهر لأنهم استقروا بظواهر مكة . ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣١٣ .

(٣) الواقدي : تاريخه (Kremer) ص ٥٨ ، الطبري ج ٢ ص ١٤٣٨ . وقد سمي هؤلاء اللصوص ذو ياناً لأنهم يشبهون الذئاب .

(٤) كان شاعراً خلعتة قبيلته فالتحق بخدمة القرشيين ، ويقال إنه كان للزبير بن عبد المطلب الهاشمي .

وقد كثرت الجدل بين المؤرخين حول كلمة « الأحابيش » والمقصود بها . يقول ابن هشام في « السيرة » عن ابن اسحق : « الأحابيش بنو الحارث بن عبد مناف ابن كنانة ، والمون بن خزيمه بن مدركة ، وبنو المصطلق من خزاعة تحالفوا جميعاً فسموا الأحابيش لأنهم تحالفوا بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة » (١) . لذلك قيل عن الأحابيش « إنهم حلفاء قريش السياسيون » .

غير أن لامنس ذكر أن القول بأن وصف الأحابيش بأنهم حلفاء قريش هو ماورد في السيرة ليس إلا (٢) ، وأن أعمال البطولة المنسوبة لعلى أبي طالب وحمزة موضع شك ، وأن قبيلة قريش الحضرية قد اهتمت بشديد الاهتمام بأن تؤيد شهرتها فتحصى نفسها بعدد من الأقوال والوصايا منسوبة إلى الرسول ، وأن البدو كانوا يرون في قريش تجاراً لا هم لهم إلا جمع المال والإكثار من الأرباح وهم ماعداء ذلك جبناء لا يجرأون على تسيير قوافلهم إلا إذا دفعوا لبعض سادة القفر مبلغاً من المال في سبيل خفارة تلك القوافل (٣) ، وأن النظرية التي ترمى إلى إقرار السيادة القرشية في العصر الجاهلي لا تستند إلى أساس ، وأن مانسب إلى خالد بن الوليد الخزومي وعمر بن العاص السهمي وغيرهما من كبار القرشيين - قادة الفتوح العربية - لا يتفق وما ذكر من ميل قريش عن الحرب والكفاح إلى التجارة وتديبر الأموال وما يتبع ذلك من تأصل الحذر والخوف المدافعين إلى الجبن (٤) ، وأن

(١) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٢٤٥ .

(٢) Lammens : Les Ahabies et l'Organisation Militaire de la

Mecque. Journal Asiatique, 1916. pp. 425-482.

(٣) Fatima : Berceau de l' Islam, Vol. 1. راجع كتاب

pp. 233—433.

(٤) وقد بين المرحوم الدكتور زكي محمد حسن في دراسات في مناهج البحث والمراجع في التاريخ الإسلامي (مجلة كلية الآداب مايو سنة ١٩٤٠ م ١٧٧ — ١٧٨) رأيه في الأب لامنس ، فقال : كان الأب لامانس من أشد المتعصبين على الإسلام ، وهو بعد ذلك من المعجبين ببنى أمية ، لأن الدولة التي أقاموها كانت تعنى بمظاهر الملك وبالعصبة العربية أكثر من عنايتها بالدين وشعونه ولأنها قامت في الشام وتأثرت بالمدنيات القديمة التي قامت في ربوعه . =

القرشيين قد لجأوا في الجاهلية إلى مأجورى الأحابيش في الدفاع عنهم والحاربة دونهم ، واعتمد لامنس في ذلك على ما جاء في الأغاني من قول الشاعر :

ففضحتهم قريشاً بالفرار وأنتم تمدون سودانا عظام المناكب
فأما القتال ، لا قتال لديكم ولكن سيرا في عراض المواكب
واستدل من ذلك على قدم عادة استئجار الأحابيش ، وأنها ليست من الطرق
التي لجأ إليها القرشيون في عصر قريب من الهجرة ، وأنها عاطفة متأصلة في القرشيين
منذ فجر تاريخهم . ورأى لامنس أن وصف السودان بعظم المناكب إنما يطلعنا
على أنهم من أبناء حام ، فيحول بذلك بيننا وبين ما قد يتوهمه البعض ، إذ ينفون
وجود السودان . ويفسرون الأحابيش بالعرب المسودة وجوهم بتأثير شمس
الحجاز أو المنسويين إلى ما يتصوره اللغويون من وجود جبل اسمه الحبشى ^(١) .
ويرى كليمان هوارت « أن العرب كلهم - حضرا أو بدوا - كانوا يولدون
رجال حرب » مما يناقض ما ذهب إليه لامنس ^(٢) . ويقول (الرحوم) الأستاذ عبد الحميد

= وكان المستشرقون أنفسهم يرففون في لامانس هذا العيب ويأخذونه عليه ، ولكنه كان
واسع الاطلاع ، وحسب الدارس تقفا ومرانا في التاريخ الإسلامى أن يقرأ لامانس وأن يهضم
ما يروقه من أبحاث وأن يبحث وينقب ليستطيع الرد على الجزء الباقي فيها وأن يراجع النصوص
التي كان لامانس يبني عليها أحكامه ليرى كيف كان يحذف في تفسير بعضها ويحمل بعضها الآخر
مالا تحتل . وقصارى القول أن قراءة لامانس ومن على شاكلته رياضة علمية ميدانها السكتب
والسكتبات وتقرع فيها الحججة بالحجة ويدفع النص الواحد بالنصوص الكثيرة ، ثم قال (ص ١٨٢)
من بحثه المذكور « كتب لامانس كثيراً في تاريخ بنى أمية ولكن ما كتبه يشوبه التعصب الدني
أولا والتعصب لبنى أمية بعد ذلك »

وقال (الرحوم) الدكتور زكى حسن في مجلة المقتطف - ديسمبر سنة ١٩٣٧ عن لامنس :
« ومع أن هذا الراهب المؤرخ أخذ كثيراً من آرائه عن شيوخ المستشرقين فإنه انتهى فاحية
ميزته عنهم وبالغ في التعصب على الإسلام حتى أفسد ذلك علمه في بعض التواحي وجعل المؤرخين
وعلى رأسهم المستشرقون يشكون في أمانته العلمية ويتهمون به بركوب متن الشطط » .

Lammens : Les Ahabies et l'Organisation Militaire (١)

de la Meque. Journal Asiatique, 1916.

Cl. Huart : Journal Asiatique, 1913, p. 216. (٢)

العبادى : إن المدلول التاريخى لكلمة الأحباش متمش مع مدلولها اللغوى ، غير أنه يجعل مناط التسمية تحالف هذه القبائل ومحالفتها قريشا بمكان معين ، وهو أمر لا يؤثر بحال فى صحة النتيجة التى وصلنا إليها بهذه المقارنة ، وهى أن الأحابيش عرب . والحق إنا بإزاء قبيلة عربية آخذة فى التكون بواسطة الحلف الذى كان سبباً فى تكون كثير من القبائل العربية القديمة . ولولا مجيء الإسلام وحيلولته دون تمام المزج بين الأحياء المؤلفة للأحابيش لأصبحت هذه الأحياء قبيلة عربية صحيحة ، على نحو ما أصبحت البطون التى منها تألفت قبيلتنا تنوخ والرباب^(١) . وقال ابن هشام : أنه كان فى معركة أحد « أحابيش وعبدان أهل مكة »^(٢) . ولا بد أن نفرق بين عبيد مكة وأحابيشها الذين كانوا يؤلفون القوة العسكرية المدافعة عن تلك الجمهورية التجارية ، التى كثيراً ماتولى قيادتها الغفاريون لاشتهارهم بالجرأة والبطش وعدم احترامهم الكعبة فى بعض الأحيان^(٣) . كان عبيد مكة من الحبش من فلول جيش أبرهة ، أو من شرى بالمال لخدمة أشرف مكة وتجارها . وكان أقيال اليمن على الرغم مما تناقلوه أباً عن جد من التذكارات المؤلفة عن احتلال الحبش بلادهم يتخذون حرسهم من رجال الحبش . وكان أحباش مكة عبارة عن حلف من العرب قوامه أحياء من كنانة وخزيمة وخزاعة . يقول ابن عبد ربه « ومن بنى كنانة الأحابيش مَبْدُول وعَوف وأحمر وعَوزن وهم بنو الحارث ابن عبد مناه ومنهم الحليس بن عمرو بن الحارث وهو رئيس الأحابيش يوم أحد »^(٤) . روى الطبرى فى خبر الحديبية عن ابن اسحق ، أن النبی دعا خراس بن أمية الخزاعى فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على حمل له يقال الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه

(١) عبد الحميد العبادى (المرحوم) : أحابيش قريش ، هل كانوا عرباً أو حبشاً ؟

بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مايو ١٩٣٢ .

(٢) ابن هشام : السيرة ص ٥٦٠ — ٥٦١ .

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ١٥٠ .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣٤٠ .

ما جاء له . فمقروا به جمل رسول الله وأرادوا قتله ففنعته الأحابيش وعندئذ خلوا سبيله حتى أتى رسول الله^(١) . وذلك يبين أن الأحابيش كانوا ندأ لقريش في القوة والعدد وأن حلفهم معهم إنما كان يقوم على التناصر والتآزر . وروى الطبري في خبر الحديبية أيضاً عن ابن إسحاق « أن قريشاً بعثوا للرسول صلى الله عليه وسلم ، الحليس بن علقمة ، وكان يومئذ سيد الأحابيش وهو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه ، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده قدأ كل أو باره من طول الحبس ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاما لما رأى . فقال : يامعشر قريش ! إني قد رأيت ما لا يحل ، صد الهدى في قلائده قدأ كل أو باره من طول الحبس عن محله ، قالوا له اجلس فإنما أنت رجل أعرابي لا علم لك . . . فعضب الحليس ، وقال : يامعشر قريش ! والله ما على هذا حالناكم ولا على هذا عاقدناكم أن تصدوا عن بيت الله من جاء معظما له . والذي نفس الحليس بيده لتخلق بين محمد وبين ما جاء له أولأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد ، فقالوا له : مه ! كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به »^(٢) .

ورغم ما رواه الطبري ، فقد وجد لامنس أن هناك « شباها غريباً بين لفظ الأحابيش واسم سكان حدود أريتريا الغربية » ووجد « أن لغوي العرب أخذت تولد الشروح والمشابهات المتنوعة للفظ الأحابيش ولا شيء بعد تلك الخيلة في سبيل الشرح والتعديل ، فكلمنا غرب اللفظ غرب شرحه ، وبعد استخراجه يسهل ذلك ما في أصول اللغة من مرونة وما في تصاريقها وصيغتها من لين وتنوع »^(٣) . ثم

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ص ١٤١٨ .

(٢) الطبري : نفس المصدر ص ١٥٤٢ .

(٣) Lammens : Les Ahabies et l'Organisation Militaire de la Mecque. Journal Asiatique. 1916.

قال : إن يكن الأحابيش حلفاء قريش السياسيون ، فأى معنى محقر فى اسمهم وكيف صارت اللفظة أحابيش ، من أقذع الشتائم وأقبح اللعنات كما نراها فى فم نابغة المهجاء حسان ، وهو من أعرف أبناء عصره بقيمة الألفاظ المهجائية ومواضع السباب ، إذ نراه لا يتردد فى استعمالها عند ما أراد هجو بعض أعداء النبي من البدو فقال : أنتم أحابيش جمعتم بـلانسب . هذا السهم الدقيق المسدد لا يقع دون الهدف ، وبالتالى فلا يخلق بحسان إن يريشه إذا فهمنا الأحابيش ما يقصد المحدثون أن يفهمونا إياه من كونهم حلفاء قريش السياسيين ، وهم لا يتعبون هذا التعب إلا فى سبيل تخليص قريش من عار الالتجاء إلى عبيدان أجانب عن العرب .

ولم يرض مؤرخو العرب أن يخلط بين العبيد الحبشان وأحابيش قريش الذين يعتبرون بدواً من قبائل تهامة وقبائل جنوبى الحجاز من كنانة وخزاعة . يقول ابن قتيبة « إنهم عرب خلص^(١) كانت قريش تستدعيهم للاشتراك معها فى الحروب . ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم عرف كيف يغفل قوتهم ، بطريق السياسة وطريق العنف معاً : فأما من حيث السياسة فقد اجتذبت إلى جانبه قبائل خزاعة وكنانة التى تنتمى إليها أحياء الأحابيش . ولما كان صلح الحديبية أخذت خزاعة صراحة جانب الرسول ودخلت فى عقده كما دخلت بكر بن عبد مناة ابن كنانة عقد قريش ، وأما العنف فنقبيته فى غزوة بنى المصطلق »^(٢) .

هذه هى قبيلة قريش ، وهؤلاء هم الأحابيش حلفاء قريش السياسيون ، الذين كانت تستأجرهم قريش للدفاع عن قوافلها التجارية من بين بدو تهامة الضاربين بجوارها .

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٠٧ .

(٢) عبد الحميد العبادى (المرحوم) : أحابيش قريش ، هل كانوا عرباً أو حبشاً ؟

تحت الأرض وتستقر في جوفها^(١). وكان لذلك أثره في انتشار الزراعة التي تعتمد على مياه الآبار بها ، وهي من هذه الناحية تختلف عن مكة التي وصفت في القرآن بأنها (وادي غير ذي زرع) .

ولقد كان هناك في المدينة موضع خاص يسمى « العميق » لا يبعد عنها بأكثر من ميلين أو ثلاثة من جهتها الجنوبية الغربية^(٢). وكانت السيول الهابطة من الجبال حوله تنحدر إليه فتكثر به المياه التي تروى البساتين المنبتة هناك ، وتنعش نفوس الأعراب الذين يحلون بالمدينة بعد طول الترحال والتجول وتعتقد حلقات الطرب في ذلك الموضع الفريد ، فينشد الشعراء ويغنى المغنون تحت ظلال الأشجار والنخيل .

و « المدينة »^(٣) ، بلدة زراعية تسكنها الآبار والأشجار ، وتفوق مكة من حيث ثمارها ومتجاتها ، ومناخها على ما في صيفها من حر وشتائها من برد خير من مناخ مكة أيضا . ولذلك اختلف تاريخ المدينتين إبان العصر الجاهلي ، لأنهما تأثرتا بطبيعتهما الجغرافية أكثر من أى شيء آخر .

وكان أول من نزل المدينة بعد الطوفان ، قوم يقال لهم صعل وفالح ، فزمام داود عليه السلام حتى هلكوا^(٤). وكان العاقلة ينزلون غزة وعسقلان وساحل بحر الروم وما بين مصر وفلسطين ، ثم سكنوا مكة والمدينة والحجاز كله . وكان ساكنو المدينة منهم بنوهف ، وبنو سعد ، وبنو الأزرق ، وبنو مطروق ، وكان ملك الحجاز منهم رجل يقال له الأرقم ينزل ما بين تيماء وفدك^(٥) .

(١) بول Buhl : الموسوعة الإسلامية ، مادة Al Madina

(٢) لامنس : الموسوعة الإسلامية ، مادة Akik

(٣) يقال إن المدينة تسعة وعشرين اسماً منها طيبة والمباركة والعاصمة . وروى في قول النبي صلى الله عليه وسلم « رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق » قالوا المدينة ومكة .

(٤) أبو التقي محمد بهاء الدين : تاريخ مكة المشرفة ص ٢١٦ . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٧٠ تاريخ .

(٥) الأصفهاني : الأغاني ج ١٩ ص ٩٤ .

ولم يستمر العاقلة طويلا في احتلال المدينة لأنهم كانوا أهل عز وبنى شديد ،
مما جعل موسى بن عمران يرسل إليهم بعض جنوده ليقتلهم . ويقول السهمودي
عن هذه الغزوة اليهودية : « كانت العاليق قد انتشروا في البلاد فسكنوا مكة
والمدينة والحجاز كله ، وعتوا عتوا كبيرا ، فلما أظهر الله تعالى موسى على فرعون
ووطىء الشام ، وأهلك من بها بعث إليهم جندا من بنى إسرائيل للحجاز ،
وأمرهم أن لا يستبقوا منهم أحدا بلغ الحلم ، فقدموا ، فأظهرهم الله ، فقتلهم .
وأصابوا ابن ملكهم الأرقم ، وكان أحسن الناس وجها فلم يقتلوه وأخذوه معهم
إلى موسى الذى كان قد توفى قبل عودتهم ، فلم يسمح لهم اليهود بالإقامة بالشام
لأنهم خالفوا أمر نبيهم ، فرجعوا إلى الحجاز وأقاموا به ونزل جمهورهم
بيثرب ^(١) .

كان هذا هو أول سكنى اليهود فى يثرب ، فانتشروا فى نواحي المدينة كلها
إلى العالية فاتخذوا بها الآطام والأموال والمزارع . وبعد أن تغلب الرومان على
بنى إسرائيل فى الشام ، تشقت اليهود فى أنحاء متفرقة حول فلسطين فى القرنين
الأول والثانى الميلاديين . وكانت جزيرة العرب من أنسب البقاع للاعتصام بها
من ظلم الرومان ، وذلك لبعدها عن سطوة الفرس الرومانى ، ولصعوبة سير
الكتائب الرومانية المنظمة فيها إذا ما فكر الرومان فى مطاردة اليهود ، وعلى
ذلك فقد استوعبت بلاد العرب الشمالية عددا كبيرا من هؤلاء اليهود المضطهدين ،
ونزل معظمهم فى يثرب لسهولة الحياة بها . وقد عُدنا لنا الأصفهاني أحد عشر اسما
من أسماء قبائل بنى إسرائيل الذين سكنوا المدينة حتى نزلها الأوس والخزرج
وهم : بنو عكرمة ، وبنو ثعلبة ، وبنو محمر ، وبنو زغورا ، وبنو قينقاع .
و بنو النضير ، و بنو قريظة ، و بنو بهدل و بنو عوف ، و بنو الفصيص ^(٢) .

(١) السهمودي : خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ص ١٠٩ .

(٢) الأصفهاني : الأغاني ج ١٩ ص ٩٤ .

ولقد اختلط اليهود بالعرب المقيمين في يثرب، وأشهرهم : بنو الحرمان ، و بنو مرثد ، و بنو معاوية ، و بنو الشظية . وبلغ من اختلاطهم بهم أن تسكلموا اللغة العربية ، ولكنها كانت عربية مشوبة بالخطأ العبرية ، كما أنهم تأثروا بنظم العرب الاجتماعية فعاشوا معيشتهم القبلية . ولقد أدخل اليهود إلى بلاد العرب أنواعا جديدة من الأشجار ، وطرقا للحراسة والزراعة بالآلات ، كما اشتغل اليهود بالتجارة وعنوا بها عناية كبيرة حتى صار لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد كأبي رافع الخيبري ، واشتغلوا بصناعة الأسلحة كالسيوف والدروع وسائر الآلات الحديدية المعروفة وقتذاك^(١) . واشتهر بنو قينقاع بصناعة الصياغة حتى كان لهم في يثرب حى خاص يعرف بحى بنى قينقاع^(٢) .

ظل اليهود مقيمين في يثرب مع من بها من العرب حتى حدث سيل العرم في مأرب ونزح إليهم من بلاد اليمن الأوس والخزرج . ولقد اختلفت روايات المؤرخين في سبب هجرة الأوس والخزرج إلى المدينة ، كما تضاربت بشأنه أقوال المحدثين : فابن هشام يذكر أن عمرو بن عامر رأى جرذاً يحفر في سد مأرب ، فعلم أنه لا بقاء للسد بعد ذلك وعزم على الهجرة ، فاختلف سبباً للرحيل بأن أوعز إلى أصغر أولاده أن يلطمه عندما يغلظ له في القول ، وعندما حدث ذلك قال : أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدى ، ولهذا باع عمرو أملاكه وخرج من اليمن ، وبعد رحيله قالت الأزد : لا تتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه ، فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان ، فخاربتهم عك فسكانت حربهم سجالاً ، ثم ارتحلوا عنهم ففرقوا في البلدان : فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزلت الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مرأ ، ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عمان^(٣) . أما السهمودي فيرى أن عمرو بن عامر قد توفي

(١) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٧ .

(٢) ولفنسون : نفس المصدر ص ١٩ .

(٣) ابن هشام : السيرة ص ٨ .

قبل سيل العرم وصارت الرئاسة إلى أخيه عمران بن عامر ، وقد أنذرت طريفة الكاهنة أن ماء غامرا سيفمر البلاد ويحولها إلى خراب بلقع . ولما سألها عن مواعده أخبرته بأن ذلك سيكون عندما يرى جرذاً يحفر سد العرم ، ولما رأى عمران أن الجرذ تحفر في السد أيقن أن الأمر قد وقع وأن الخراب حل على مأرب ، فاحتال مع بني أخيه على الهجرة ^(١) . ويرى الأصفهاني أن الهجرة إنما حدثت بعد حدوث السيل الذي خرب السد ^(٢) .

ولما طال الزمن على هذا السد وأهمله الملوك ، تصدعت جوانبه ، ولم يعد يحتمل تدفق السيول ، ففاضت مياهه على ماحوله من القرى والمزارع . ويظهر أن السيل قد حدث وأهل البلاد مقيمون بها ، كما يستدل من قوله تعالى في سورة سبأ (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا لله بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل حط وأثل وشىء من سدر قليل) . وكان من أثر ذلك الحادث الذى لا يتطرق الشك في حدوثه ^(٣) أن هاجر عدد كبير من بلاد اليمن إلى الجهات الشمالية والشرقية من جزيرة العرب : فنزل آل جفنة الشام ، ونزلت خزاعة مرأ ^(٤) ، ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد همان ، ونزلت الأوس والخزرج يثرب .

نزل الأوس والخزرج على اليهود في المدينة ، فأقاموا معهم وعاشوا بجوارهم ، وكانت علاقتهم بهم أول الأمر علاقة ود وصفاء ، حتى أئزى الأوس والخزرج

(١) السهمودي : خلاصة الوفا ص ١١٢ .

(٢) الأصفهاني : الأغاني ج ١٩ ص ٩٥ .

(٣) O'Leary de Lacy : Arabia before Muhammed, p. 89 .

(٤) يقول ابن هشام « خزاعة بنو حارثة بن عمرو بن عامر ، وإنما سميت خزاعة لأنهم تخزعوا من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام فنزلوا بمر الظهران وأقاموا بها » . السيرة ص ٥٩ .

لاشتغالهم مع اليهود بالتجارة والزراعة وسائر مرافق الحياة الاقتصادية في المدينة . وفي ذلك يقول السهمودي : « وجد الأوس والخزرج الأموال والأطام بأيدي اليهود والعدة والقوة معهم ، فكثروا ماشاء الله ، ثم سألوهم أن يمقدوا بينهم جواراً وحلفاً يأمن به بعضهم من بعض ، ويمتنعون به ممن سواهم . فتحالفوا وتعاملوا وظلوا كذلك زماناً طويلاً ، وأثرت الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدة ، خافت قريظة والنضير^(١) أن يغلبوهم على دورهم فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف »^(٢) .

وظل الأوس والخزرج أهل عز ومنعة في بلادهم ، حتى وقعت بينهما حروب طويلة اشتركت فيها بعض القبائل العربية ، ومن هذه الحروب : يوم الصفينة وهو أول يوم جرت الحرب فيه ، ويوم السرارة ، ويوم وفاق بنى خطمة ، ويوم حاطب ويوم حضير الكتائب ، ويوم أطم بنى سالم ، ويوم البقيع ، ويوم بعث ، ويوم مضرس ومعبس ، ويوم الدار ، ويوم بعث الآخر ، ويوم نجر الأنصار^(٣) . وأدت الحروب التي وقعت بين الأوس والخزرج بسبب ما بينهما من دماء وثورات إلى جعل الحياة في المدينة مضطربة أشد الاضطراب . وكان النصر في أول الأمر لحليف الخزرج على الأوس ، حتى اضطرت الأوس حوالى السنة العاشرة قبل الهجرة أن تسعى لمخالفة قريش على الخزرج . على أن قريشاً كانت أحرص من أن تزج بنفسها في حرب لا تعود عليها بفائدة . لذلك أبت أن تتورط في ذلك الحلف وردت رسل الأوس خائبين .

عادت الأوس تلتمس الحلف من يهود يثرب الذين كانوا قد وقفوا في تلك الحرب موقف الحياد ، واستطاعت أن تعقد حلفاً مع بنى قريظة والنضير ، فلما

(١) كان يقال لبني قريظة وبني النضير خاصة من اليهود ، الكاهنان ، نسبوا بذلك إلى جدهم الذي يقال له الكاهن . الأغاني ج ١٩ ص ٥٩ .

(٢) خلاصة الوفا ص ١١٥ .

(٣) اليعقوبى : تاريخه ج ٢ ص ٢٧ .

بلغ أمر الحلف الخزرج ، أرسلت إلى اليهود تحذرم عاقبة هذا الحلف . غير أن اليهود أخبروا الخزرج أنهم لا يرغبون في الحرب ، وعندئذ طلبت منهم الخزرج رهناً أربعين غلاماً من غلمانهم ليضمن حيادهم ، فامتلأ اليهود لأمرهم وصلوا لهم الضمان المطلوب . وما لبثت الخزرج أن خيرتهم بين الجلاء عن يثرب والنزول لهم عن أرضهم أو قتل غلمانهم . وقد اعتزم اليهود الجلاء فعلاً عن المدينة ، بعد أن رأوا أن الخزرج قد لجأت في طغيانها ، إلا أن كعب بن أسد القرظي حملهم على العدول عن موقفهم وطلب منهم محالفة الأوس صراحة ، فما كان من الخزرج إلا أن قتلوا العلمان وعقدوا حلفاً مع قبيلة بني قينقاع اليهودية .

وهكذا انقسمت يثرب إلى معسكرين كبيرين ، انحازت القبائل اليهودية إلى كل منهما . ولم يلبث أن التقى أولاد قبيلة^(١) بيماء ، قبيل الهجرة بنحو خمس سنين ، وانتهى الأمر فيه بانتصار الأوس على الخزرج بعد أن قتل من الفريقين عدد كبير من أشرفهما . وتصافح الأوس والخزرج بعد بعام ، واتفقا على إقامة حكومة في يثرب ، ممثلة في شخص عبد الله بن أبي الخزرجي وهما بتتويجه فعلاً ، وأقبلوا ينظمون له الخرز - شارة الملك عندهم - ولكن حدث ما لم يكن يدور بخلداهم ، إذ بينما كانوا يتأهبون لهذا الحدث الكبير ، هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يثرب ، فدان له أهلها بالطاعة والولاء ، وعدلوا عن تولية عبد الله بن أبي الخزرجي ، ولذلك ظل معارضاً للنبي في نزاعه مع قريش وسمى هو وأتباعه ، في القرآن الكريم ، باسم « المنافقين » .

(١) هم الأوس والخزرج . وأمهات قبيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد . وقال ابن السكيت :

قبيلة بنت الأرقم بن عمرو .

٣ - الطائف :

تقع الطائف في الجنوب الشرقي من مكة على نحو خمسة وسبعين ميلا ، وترتفع عن سطح البحر نحو خمسة آلاف وأربعمائة قدم ^(١) ، وتمتاز بخصوبة تربتها وجودة مناخها ، وثمارها لا تختلف عن ثمار الشام حتى قيل إنها كانت قرية بالشام نقلت إلى الحجاز ^(٢) . ويقول بركهارت ^(٣) عن الطائف : « إنها أجمل بقعة في الحجاز وأبهج موضع شاهدته في طريقى إلى الحجاز بعد رحيلى من لبنان » ^(٤) ، ولاغرو فقد أعجب بالطائف كل من زارها وقضى بعض أيامه بين ربوعها . يقول رتر Rutter : « لما أصبحت فعلا بين رياض الطائف ، تحققت مما لم تكن تألفه عيناى في الجزيرة العربية ، فقد كانت أشجار الخوخ واللوز محملة بأزهارها المتفتحة ، وما أعجب أن تجد جمال الربيع في هذه البقعة من جزيرة العرب المحرقة الجذبة ، حتى قلت لرفيقي أن ما يزعجه أهل مكة عن الطائف بأنها كانت فردوسا من رياض الشام ، حل على أجنحة الملائكة إلى الحجاز ، حقيقة واقعة » ^(٥) .

وكان من أثر ارتفاع الطائف عن سطح البحر وكثرة المزارع والنبيل بها ، أن اتخذها أشراف مكة مصيفا لهم ، حيث كانوا يتمتعون بالراحة مدة الصيف في قصورهم التي أنشأوها هناك ^(٦) ، وكانت حاصلاتها تشمل العسل والبطيخ والموز والتين والعنب والزيتون والسفرجل ^(٧) ، ويقول ياقوت « إنها ذات مزارع ونخل وأغاب وموز وسائر الفواكه ، وبها مياه جارية وأودية تنصب منها إلى تبالة . . . وفي أكنافها كروم على جوانب ذلك الجبل ، فيها من العنب العذب

(١) الموسوعة الإسلامية ، مادة Taif

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، مادة الطائف .

(٣) ولد جون لويس بركهارت السويسرى عام ١٧٨٤ ، وسافر إلى الحجاز عام ١٨١٤ حيث جال بين ربوعه ، ثم رجع إلى القاهرة حيث توفي عام ١٨١٦ ونشر كتابه المسمى « أسفار في الجزيرة العربية » في لندن عام ١٨٢٩ .

(٤) Burckhardt : Travels in Arabia, p. 65.

(٥) Rutter : Holy Cities of Arabia, p. 331—332.

(٦) Lammens : Taif à la Veille de l'Hegire, p. 45.

(٧) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ١ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ (طبعة باريس ١٨٩٣ م) .

مالا يوجد مثله في بلد من البلدان ، وأما زيبها فيضرب بحسنه المثل ، وهي طيبة الهواء شامية ربما جدد فيها الماء في الشتاء ، وفواكه أهل مكة منها ^(١) .

وقد زاد موقع الطائف الطبيعي على طريق القوافل — الممتد من جنوب بلاد الحجر — من أهميتها كتركز تجاري ، فضلاً عن كونها مدينة صناعية ، يقول الهمداني : « الطائف مدينة قديمة جاهلية وهي بلد الدباغ يدبغ بها الألب الطائفة المعروفة » ^(٢) ، واشتهرت ورود الطائف بالعطّر الذي كان يمد أهل مكة بما يحتاجون إليه من طيب ، أما آخر الطائف فقد كان برغم كثرة الطلب عليه أقل ثمنًا من النوع الذي كانوا يجلبونه من الشام والعراق .

كانت الطائف تسمى قديماً وجابوج بن عبد الحى ، أحد العالقة الذين نزلوها وهو أخ لأجاء الذي سمي به جبل طى ^(٣) . وقد ذكر على بن عراق عن صاحب كتاب المطالع « أن وادي وج هو أرض الطائف جميعها » ^(٤) . على أن هذا الاسم لم يذكر في القرآن الكريم ، وإنما ورد بعض أحاديث العرب مثل قول خولة بنت حكيم « إن آخر وطأة وطأها الله بوج » ، وقيل إن المراد بالقريتين في قوله تعالى (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ، إنهما مكة والطائف ^(٥) .

كانت قبيلة ثقيف تقيم في الطائف ، ولقد أوضح البكري سبب إطلاق هذا الاسم عليها بقوله : « بعد أن افترق قسى ^(٦) والنخع ، مضى قسى حتى

(١) ياقوت : معجم البلدان ، مادة الطائف .

(٢) الهمداني : صفحة جزيرة العرب ص ١٢٠ (طبع ليدن) .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، مادة الطائف .

(٤) على بن عراق : نشر الطائف في قطر الطائف ص ٨ . مخطوط بدار الكتبة المصرية

رقم ٢٢٣٣ تاريخ .

(٥) على بن عراق : نفس المصدر ص ٣ .

(٦) هو قسى بن منبه بن بكر بن هوزان .

أتى وادى القرى فنزل بمجوز يهودية كبيرة لاولد لها ، فكان يعمل بالنهار
ويأوى إليها بالليل ، فاتخذها أما واتخذته ابنا . فلما حضرته الوفاة ، قالت له :
يا هذا لا أحدى غيرك وقد أردت أن أكرمك لإطافك إياى ، فإذا أنت
واريتنى نخذ هذا الذهب وهذه القضبان من العنب ، فإذا أنت نزلت واديا
تقدر على المساء فيه فاعرسها فيه ، فإنك تنفع بها ، وماتت . فأخذ الذهب
والقضبان ثم خرج إلى وج وهو الطائف ، وهناك آمنه عامر بن الطرب العدوانى سيد
قيس وحكمها ، وزوجه ابنته زينب فولدت له عوفا وجشم ودارسا ، ثم هلك
زينب فزوجه ابنة له أخرى يقال لها آمنة ، فولدت له ناصر بن قسى والمسك
بنت قسى ثم غرس قسى تلك القضبان بوادى وج فأنبتت ، فقال أهالى وج :
قائله الله ما أنقعه ، حين ثقف عامراً حتى آمنه وزوجه ، وأنبت تلك القضبان
حتى أطعمت ، فسمى ثقيفاً يومئذ ^(١) .

وأقامت ثقيف مع عدوان بن عمرو بن قيس إلى جانب الطائف ، وتكاثر
نسلها حتى أصبحت قبيلة كبيرة فى العدد والمنعة ، وحدث أن نزلت عامر بن صعصعة
ناحية من الطائف مجاورين لعدوان ، ثم استطاعوا أن يخرجوا عدوان من الطائف
ويستولوا عليها . أما كيفية استيلاء ثقيف على الطائف جميعها ، فقد ذكر البكرى
«عرفت ثقيف فضل الطائف فقالوا لبنى عامر : إن هذه بلاد غرس وزرع ، وقد
رأيناكم اخترتم المراهى عليها فأضررتم بعمارتها وأعمالها ونحن أبصر بعملها منكم
فهل لكم أن تجمعوا الزرع والضرع وتدفعوا بلادكم هذه إلينا ، فنثيرها حرثاً
ونعرسها أعناباً وأشجاراً . . . فإذا بلغت الزروع وأدركت الثمار شاطرناكم ،
فكان لكم النصف بحقهكم فى البلاد ولنا النصف بعملنا فيها . فدفعت بنو عامر
الطائف إلى ثقيف بذلك الشرط ، فأحسن ثقيف عمارتها ، فكانت بنو عامر
تجيء أيام الصرام ، فتأخذ نصف الثمار كلها كيلاً وتأخذ ثقيف النصف الثانى ،

(١) البكرى : معجم ما استعجم ج ١ ص ٦٥ — ٦٦ ، نشر الأستاذ مصطفى السقا .

وكانت عامر وثقيف تمنع الطائف ممن أرادهم فلبثوا بذلك زماناً من دهرهم ، حتى كثرت ثقيف فحصبوا الطائف وبنوا عليها حائطا يطيف بها ، فسميت الطائف ، فلما قوا بكثرتهم وحصونهم امتنعوا من بني عامر فقاتلتهم بنو عامر فلم تصل إليهم ولم يقدرُوا عليهم ^(١) .

وهكذا انتصرت ثقيف وتفردت بملك الطائف ، فضربتهم العرب مثلاً ، قال أبو طالب بن عبد المطلب :

منعنا أرضنا من كل حي كما امتنعت بطائفا ثقيف
أناهم معشرُ كي يسلبوم خالت دون ذلکم السيوف ^(٢)

كانت الطائف من مدن الحجاز القوية حتى قرنت بمكة وأصبحت تدانها في القوة والأهمية ، ولا غرو فقد ورد ذكرها في عدة أحاديث منسوبة للرسول صلى الله عليه وسلم ، تبين مقدار أهميتها وعظيم مكانتها . روى أحمد بن حاتم الموصلي أن الرسول رأى عبد الله بن عباس فقال : لو كان بعدى نبي مرسل لكان عبد الله بن عباس ، اللهم فقهه في الدين وانشر منه وعلمه التأويل وبارك فيه إنه سيدفن بالطائف ، فمن زاره بها فكأنما زار قبري . وعن عبد الله بن عباد ابن جعفر ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أول من أشفع له يوم القيامة أهل المدينة وأهل مكة وأهل الطائف ^(٣) .

وقال كنانة بن عبد اليل بن عمرو يفخر بالطائف ويذكر فضلها :

كانت الله لم يؤثر علينا غداة تجزأ الأرض اقتساما
عرّفنا سهمنا في الكف يهوى لدى وجّ وقد قسم السهاما

(١) البكري : معجم ما استعجم ج ١ ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، مادة الطائف .

(٣) علي بن عراق : نشر الطائف في قطر الطائف ص ٢ مخطوط بدار الكتب المصرية ،

فلما أن أبان لنا اصطفيينا سَنَامَ الأرض إن لها سفاما
أسافلها منـازل كل حي وأعلاها لنا بلدًا حراماً^(١)

وصارت الطائف بعد الفتوحات الإسلامية تابعة لمكة ، وانحط شأن
البلدين معا ، بينما اتسع نفوذ المدينة وصارت الزعامة إليها على مدن الحجاز^(٢) ،
واستقرت الطائف محافظة على مركزها القديم ، وعدت مصيفاً لأشراف العرب
كما كانت في الجاهلية تماماً ، وكانت زينب بنت يوسف أخت الحجاج تشتو بمكة
وتصيف بالطائف . كما روى الأصفهاني : أن عائشة بنت طلحة لما تأيمت^(٣) كانت
تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة وتخرج إلى مال لها عظيم بالطائف وقصر كان لها
هناك فتنزه فيه وتجلس بالعشيات فيتناول بين يديها الرماة^(٤) .

وتدين الدولة العربية للطائف بما أخرجته لها من رجالات في الشؤون
الإدارية والحربية ، منهم زياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة وهما القائدان المحنكان
في جيش معاوية ، والحجاج بن يوسف الثقفي عامل عبد الملك على العراق ، ومحمد
ابن القاسم الذي تغفل في قلب آسيا وضم هذه المناطق إلى حوزة الإسلام .
وعلى أكتاف هؤلاء ، ازدهرت الدولة الأموية ، واستطاعت أن تقضي على
كثير من العقبات التي قامت في وجهها .

(١) البكري : معجم ما استعجم ج ١ ص ٧٨ ، نشر الأستاذ مصطفى السقا .

(٢) لامنس : الموسوعة الإسلامية ، مادة Taif .

(٣) تأيمت المرأة : مات عنها زوجها ولم تتزوج بعده .

(٤) الأصفهاني : الأغاني ج ٦ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ (مطبعة دار الكتب) .

ب - تاريخ الجاهلية الدينية

تعددت الديانات في بلاد العرب قبل الإسلام واختلفت اختلافاً متبايناً ، وتأثرت عادة بما جاورها من البلاد ، فقد ذكر اليعقوبي « أن أديان العرب كانت مختلفة بالجوارات لأهل الملل والانتقال إلى البلدان والانتجعات » (١) ، كما أخذ العرب عن الأمم التي اتصلوا بها كثيراً من آلهتها . وأثبتت الدلالات في بلاد العرب وجود ديانات سماوية كالمسيحية واليهودية ، وغير سماوية كالجوسية والصابئة والوثنية التي كانت العامة والغالبة في شبه جزيرة العرب .

١ - الديانة الوثنية

مظاهر الوثنية الجاهلية :

اختلفت مظاهر الوثنية في بلاد العرب قبل الإسلام باختلاف الأمكنة والبقاع : فهي عند البدوى الضارب في فيافي جزيرة العرب تمثل أول أشكال المعتقدات السامية وأبسطها وأكثرها سذاجة ، ولكنها عند عرب الجنوب بما فيها من المظاهر الفلسفية والهياكل المزخرفة والشعائر الدينية الخلابية وتقديم الذبائح والقرايين تمثل مرحلة من التطور راقية محدثة وهي مرحلة أدت إليها حالة الاستقرار والتحضّر في المجتمع (٢) .

وديانة البدوى — شأنها في ذلك شأن غيرها من الديانات البدائية — مبنية على الإيمان بوجود أرواح في الأشياء المادية ، مما يرى الإنسان حوله كالأشجار والرمال والحجارة ، أو مما في مظاهر الطبيعة كالرياح والأمطار والنجوم والشمس والقمر ، فاعتقد البدوى أن لكل من هذه الأشياء روحاً تحركها ، وبالتدرج أصبحت القوى الطبيعية العليا آلهة ، أما القوى السفلى فأحييت إلى مراتب الجن والشياطين . ثم تكاملت صورة الألوهية في مخيلة الجاهلي ، إلا أن

(١) تاريخ اليعقوبي : ج ١ ص ٢١١ .

(٢) تاريخ العرب ص ١٣٣ .

الحسوسات الطبيعية كالأشجار والآبار والكهوف والحجارة بقيت مقدسة تعد وسائط يقترب العابد منها إلى المعبود^(١) .

نزع العرب في منطقة الحجاز وما يجاورها من أنحاء نجد إلى تكريم الحجارة المقدسة أو المؤلمة — على قول بعض المؤرخين — تكريماً لا يختص بقبيله دون أخرى ، ولا ينفرد به بلد دون آخر ، وهذا القرآن الكريم والشعر الجاهلي القديم شاهدان على انتشار الأصنام في أنحاء الجزيرة . ونسب بعضهم هذا الانتشار إلى شهرة المعبدين القرشيين : الصفا والمروة وكلاهما من أسماء الحجارة^(٢) ، حتى قيل إن ذلك أدى إلى إيهام الرواة وجماع الأحاديث النبوية بأن عبادة الحجارة كانت عامة في بلاد العرب . وأول مؤرخو العرب بوجه عام والعارفون بتاريخهم الديني على وجه الخصوص ، مثل هذين الاسمين : فقد ذكر ابن دريد « ربما سُميت الحجارة الرقاق البيض التي تبرق في الشمس مروا والمروة المعروفة بمكة »^(٣) ، وقال في موضع آخر : الصفا الحجارة^(٤) ، وذهب إلى أن الشخص من البدو « وكان إذا وجد حجراً أخذه وعبد »^(٥) .

وكانت الحجارة التي تكرمها القبائل مأخوذة في أصلها من الحرم المكي . وفي ذلك يقول ابن هشام عن ابن إسحق « ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل أنه لا يظعن منهم ظاعن من مكة حينما ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، فحينما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم »^(٦) .

(١) فليب حتى : تاريخ العرب ص ١٣٤ .

(٢) ابن دريد : الاختقاق ص ٤٦ . ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٣٢٥ .

(٣) ابن دريد : نفس المصدر ص ٤٧ .

(٤) ابن دريد : نفس المصدر ص ٨ .

(٥) ابن دريد : نفس المصدر ص ٧٦ . السهمودي : وفاء الوفاء ج ٢ ص ٣٧٣ .

(٦) ابن هشام : سيرة رسول الله ص ٥١ .

والحجارة المؤلمة نوعان : النوع الأول هو الحجارة المحمولة أو المنقولة ، والنوع الثاني هو الحجارة الثابتة التي لاتنزعج من محالها كالمعابد الخاصة بالحجاز ولاسيا معبد مكة ، وفي كتب سير الرسول صلى الله عليه وسلم شواهد كثيرة على نقل هذه الحجارة المسكرمة ، ومن ذلك شهادة ابن سعد بشأن الحجر الأسود فقد ذكر أنه « لما حج آدم وضع الحجر الأسود على أبي قبيس ، فكان يضيء لأهل مكة ليالى الظلم كما يضيء القمر ، فلما كان قبيل الإسلام بأربع سنين ... أنزلته قريش من أبي قبيس »^(١) ، ويعلق الأب لامنس على شهادة ابن سعد بقوله « إن ما يهمننا من هذا الحادث هو أن المؤرخين إذا ما عرضوا لهذا الموضوع في العصر الجاهلي المتأخر — ولا سيما في العصور التي تقدمته — يميزون بسهولة في القول عن الحجارة المؤلمة أو تلك الأصنام التي تمثل المعبودات الجاهلية : الحجارة المحمولة أو المنقولة ، والحجارة الثابتة ، وهذه الحجارة الأخيرة كانت وحدها مركززة لاتنزعج من محالها ، وقد تكون منها المعابد الخاصة بالحجارة ولا سيما معبد مكة^(٢) .

واشترك الصنم « يفوث » ، على ماورد في بعض أساطير الأدب الجاهلي في حروب العرب القبلية ، كما نرى العربى يستغيث ويستنصر هبل في غزوة أحد . وأوضح الطبرى أن أبوسفیان كان في هذه الغزوة ، يحمل اللات والعزى^(٣) ، وكان أبوسفیان في ذلك الوقت سيد مكة المطاع وقائد الناس^(٤) بل « رب تهامة » . وهكذا جمع أبوسفیان بين أعمال السيد المدنية والدينية التي اختص بها القبائل العربية الكبرى من جمعوا بين صفة الرب أو السيد وصفة الكاهن^(٥) ،

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٢ .

(٢) لامنس : الحجارة المؤلمة وعبادتها عند العرب الجاهليين . بحث مستخرج من مجلة المشرق الكاثوليكية ، ١٩٣٨ .

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ١ ص ١٣٩٥ .

(٤) ابن هشام : سيرة رسول الله ص ٥٥٧ .

(٥) لامنس : المصدر السابق .

ووجد في حوزته في آخر يوم بدر ، تلك الرموز الدينية ، أى الحجريين المقدسين ، وصاح مخاطباً أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : ألا لنا العزى ^(١) ولا عزى لكم ^(٢) . وتشير أخبار الطائف في الجاهلية إلى وجود اللات في إحدى المعارك المهمة من حرب الفجار ، ونصب قبل المعركة خباء أو بيت ليتخذ محلاً لآلهة الطائف أو « ربة الطائف » ، وكان مدار الخباء يمثل حد حرم منيع لا يمكن حرقه فيظل ملاذاً آمناً للاجئين . ويشير الشاعر الجاهلي عبيد بن الأبرص إلى أن بنى جديلة تركوا معبودهم الخاص في ساحة القتال ، فيقول :

وتبدلوا اليعسوب بعد إلههم صنما فقرأوا يا جديل وأعذبوا ^(٣)

وكان العرب الجاهليون لا يقومون بفزوة مهمة إلا إذا اصطحبوا معهم : كاهناً يصل بينهم وبين إرادة الله ، وسادناً يخدم هيكل ذلك الإله ، وبعض العائفين والقائمين ^(٤) من المهرة في معرفة الغيب وتأويل الإشارات وإطلاع القبيلة على حركات أعدائها . وكان هؤلاء الموهوبون يفتيدون المحاربين بمعلوماتهم الطبية ومقدرتهم السرية ، قبل الرحيل وطول الطريق ولا سيما في أثناء المعركة . ولم يكن غريباً أن يجمع الشخص نفسه في أيام الجاهلية البعيدة بين رتبتي الكاهن والسيد ، وكان الكاهن يرأس الجيش المحارب فيفقد الفزوة إلى حيث شاء ، ومن هؤلاء القواد الكهان : زهير بن جناب الكلبي وزهير بن جذيمة العبسي ^(٥) .

وليس في بلاد العرب ، ولا سيما في منطقة الحجاز ونجد طبقة « إكليريكية » خاصة ،

(١) معنى « العزى » القوة والقادرة ، وقد يكون هذا هو السبب في ذكرها هنا مفردة ، وهى تجمع عادة مع اللات بل تقدمها اللات في الإيمان .

(٢) ابن دريد : الاشتقاق ص ٣١٦ . الطبري : نفس المصدر ج ١ ص ١٤١٨ .

(٣) ديوان عبيد بن الأبرص ، القصيدة ٢ بيت ٦ وجاء في شرحه ، اليعسوب : صنم . قال ابن كنانة ، أعذبوا : كفوا .

(٤) يذكر ابن دريد في كتابه : الاشتقاق ص ٢٨٨ أن بنى لهب كانوا أعيف العرب وأزجرهم للطير .

(٥) لامنس : الحجارة المؤلفة وعبادتها عند العرب الجاهليين .

إنما يقوم مقامها طائفة العرافين والزاجرين والقائنين والسدنة ، ولم يكن لهذه الطائفة ما يميزها أو يرفعها عن سائر الناس : فلا مسحة خاصة لها ولا رتبة ، ولا فرق في أساليب المعيشة بينهم وبين أبناء قبيلتهم ؛ لهم ما لها وعليهم ما عليها لا يترجعون عن غزوة ولا يتأثمون من إهراق دم ، بل كان منهم من يقود الجيوش فينعت كثير الغارات ^(١) ، ويمتطى متن الصافنات فيجمع بين الكهانة والفروسية ^(٢) حتى كان اسم الفرس رفيق البطل في غزواته المشهورة يظل مقرونا باسمه : فعمرو بن الجميد الملقب بالأفـكل ^(٣) كان له جواد ذائع الصيت نادر الصفات اسمه هبود ينسب إليه فيقال « فارس هبود » ^(٤) وقتل هذا الكاهن الفارس في إحدى الغزوات ^(٥) فقد عرف بالبطش واشتهر بالعسف مدة سيادة بني ربيعة ^(٦) .

وقد يدعى الكاهن أحيانا « الحكم » وهي رتبة تستتبع عادة رتبة السيادة ، وتدعو الناس إلى استشارة صاحبها قبل القيام بأية غزوة أو غارة ، ولذا كان نفوذ هؤلاء الكهان غير محدود ، ولأقوالهم وإشاراتهم الأثر البعيد ، وكان لابد لهذه الاستشارة في مكة من أن تكون قرب الكعبة أى على مقربة من المعبود الخاص بالقبيلة ، وكانوا لذلك إذا سافروا اهتموا بنقل « بيت إيل » أو « الحجر المؤله » .

(١) Lammens : Le Berceau de L'Islam, Vol. 1. p. 251.

(٢) في كتاب الاشتقاق لابن دريد ص ٢٣٩ ذكر كاهن فارس و « الفارس » من مرادفات « السيد » في اللغة القديمة .

(٣) راجع نقائض جرير والفرزدق طبعة Bevan ص ١٥٤ . والاشتقاق ص ١٩٧ ، والأفـكل اسم لاصفة . راجع ابن السكيت : تهذيب الألفاظ (طبعة شيخو) ص ١٨٣ ، وأسـد الغابة لابن الأثير ج ٣ ص ٢٦٣ .

(٤) كثيراً ما اشتهر الفارس بجواده في العصر الجاهلي . الاشتقاق ص ٨٥ ، ٨٦ ، ١١٦ ، وذلك أن الجواد حيوان ثمين عزيز لا يمكن من اقتنائه إلا الأغنياء المترفون ، ولم يكن العربي يملك إلا جواداً واحداً . وإذا زاد جوادين .

(٥) الأصفهاني : الأغاني ج ١٥ ص ٧٥ — ٧٧ .

(٦) قال عنه ابن دريد ص ١٩٧ « كان سيد ربيعة وكان ذا بني » .

(م — ٩ التاريخ الإسلامي العام)

وفي ساحة الوغى ، كان الجاهليون يعمدون إلى وضع جمل وقبة في صفوف المحاربين ، بقصد إهاجة حمية القوم في الدفاع عن القبة والموت في سبيلها ، حتى كانوا يقسمون بأن لا يتراجعوا إلا إذا تحركت القبة ، وكثيرا ما كان السيد يحلف عنهم « أن لا يفر حتى تفر القبة »^(١). وتساءل الأب لامنس : لم هذه الحراسة في الدفاع عن القبة ، وهذه التضحيات في سبيلها ، ولم تر البسكريين يوم ذى قار يستعيدون حميتهم وشجاعتهم أمام الجيوش الفارسية المنظمة لمجرد ظهور القبة ؟ ثم أجاب على ذلك : بأننا نشهد حفلة دينية تظهر رمزا مقدسا ، فإن نصب القبة في ساحة الحرب دليل على أهمية المعركة وخطورة الحالة التي تتعلق بها سلامة القبيلة بل كيانها نفسه ، ولم تسكن القبة لتنصب إلا في مثل هذه الخطوب ، لا في غزوة بسيطة أو غارة عادية أو ثأر فردى وإن تعلق بشخص السيد نفسه .

وهذه الصفة المقدسة كان العرب يولونها القبة والجل الذي ترفع عليه ، لأنها يحملان الحجر المؤله أو الشيء الرامز إلى الإله المعبود ، وأوضح الشاعر السكيت ابن زيد الذي كان « خبيرا بأيام العرب » أن القبائل أجمعت أمرها في الحرب أن لاتولى ظهرها للصنم مناة الوجود في المعركة فيقول السكيت بن زيد :

وقد آت قبائل لاتولى مناة ظهورها متحرفينا^(٢).

على أن اللات والعزى — دون الآلهة الوثنية الأخرى — تؤلفان زوجا يمثل وحده أفضل تمثيل لآلهة العرب المشركين جميعهم . يؤيد ذلك ، فضلا عن النصوص القديمة ، حديث ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أورده مسلم في صحيحه وفيه يقول « لا ينقض الليل والنهار حتى يعود الناس إلى عبادة اللات والعزى »^(٣). وقد أراد الرسول عليه السلام أن يصور عودة الناس

(١) الأصفهاني : الأغاني ج ٢٠ ص ١٣٦ ، الطبرى ج ١ ص ١٠٢٨ .

(٢) طائلا أنعم « السكيت » النظر هو وزملاؤه من الشعراء في منظومات الشعر الجاهلي ،

ولم يورد ابن هشام إلا هذا البيت للفرد من قصيدة السكيت .

(٣) صحيح مسلم ج ٢ ص ٥٠٤ .

إلى الشرك أو الوثنية قبل نهاية العالم ، فلم ير أفضل من أن يمثل هذا الشرك بعبادة اللات والعزى^(١) . كذلك ليس ثمة من صدقة عارضة في ازدواج الآلهتين في موقعة أحد ، وذكر في بعض الأحيان الصنم مناة إلى جانب هاتين الآلهتين ، كما جاء في حديث الفرائيق الذي أورده المفسرون وكتاب السيرة وأخذ به جماعة من المستشرقين أن محمدا عليه السلام لما رأى من تجنب قريش إياه قرأ بعد « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » ، « تلك الفرائيق العلاء وإن شفاعتهن لترجي »^(٢) .

وكان للآلهة مقامات ثابتة ، حتى إذا ارتحلت القبيلة ، قامت بخدمة المقام وعبادة آلهة القبيلة التي تحمل محلها ، وجرت العادة أن تزور القبيلة المرتحلة ، المقام مرتين في العام أيام الأعياد ، وفي هذه الزيارات كانت القبائل تكرم معبودها أو إلهها بذبائح تقترب بها إليه ، وتسمى هذه الذبائح « العتائر »^(٣) . وكان لحم الضحية يظل متروكا للكواسر ووحوش القفر ، ولم يكن محرما على الحاضرين أن ينالوا من هذا اللحم ، وهو ما حدث في الأضحية التي فدى بها عبد المطلب ابنه ، فبقيت على قول ابن هشام « لا يصد عنها إنسان ولا يمنع »^(٤) .

(١) في دمشق قطعة خزفية مكتشفة وفيها صورة جل يجلس إلهين في محل الهودج وقرب سنم الجل ثم على مؤخر عنقه وعلى الشخصين الإلهيين نفسيهما يخال للناظر أنه يرى شبه خيمة ابتدء بتمثيلها أو شبه قبة على شكل نصف دائرة . وفي سورية قطعة أخرى زخرفية مكتشفة ومحفوفة في متحف اللوفر تمثل كذلك امرأتين على ظهر الجل تنفخ أحدهما بالزمار وتضرب الأخرى على الدف وعلى رأسيهما تنتصب خيمة نصف مستديرة أو قبة من جلد تحفظهما من وقع حرارة الشمس . Cumont : Etudes Syriennes, 265—273 وعند لامنس : « أننا لو كنا نعرف الشيء الواضح عن الحالة الوثنية في بلاد الفساسنة ، لكان من الممكن أن نرى اللات والعزى يمثلان في هذه القطعة الدمشقية » .

(٢) محمد حسين هيكل : « حياة محمد » ، حيث تجد تفصيلا عن قصة الفرائيق .

(٣) أورد ابن هشام في سيرة الرسول ص ٦٥٩ هذا البيت :

كأنهم عتائر يوم عيد تذبح وهي ليس لها نسك

(٤) ابن هشام : سيرة رسول الله ص ١٠٠ .

ولما كانت مكة قلب الجزيرة العربية النابض تعج داخل حرمها بالأصنام ، فقد اشتهرت إبان العصر الجاهلى بكثرة حفلاتها الدينية وخصوصا فى أيام الأعياد ، فتزدحم شوارعها الضيقة بالعابدين والمتفرجين ، وتسير مواكبها الدينية متتابعة لتطوف بحجارة الأحياء وفيها ترى جمالا مترنحة حاملة القباب المتمايلة الفاقعة الألوان يقودها زعماء القوم ويسير وراءها على الجبال أيضا نساء قريش وقد حللن الشمور وضربن الدفوف والغرايل^(١) وصحن بأصوات الفرح والحماسة ، إلى أن يصل الجميع إلى الكعبة ، حتى أن القرشيين قد هجوا بأنهم لا يحسنون إلا السير فى هذه المواكب الدينية ، فقيل :

فأما القتال لا قتال لديكم ولكن سيرا فى عراض الموابك
وكانت الآلهة فى نظر البدوى تهيم على الأراضى والآلهة بالسكان ، كما كانت قوى أخرى أطلق عليها الجن والعفاريت تسيطر فى اعتقاده أيضا على البرارى والقفار ولا تختلف عن الآلهة فى طبيعتها بل فى كنه علاقاتها بالإنسان ، على اعتبار أنها تخاضمه وتؤذيه حتى نسب إليها أهوال البادية^(٢) . وآفات وحيواناتها البرية الخفيفة^(٣) . وقد قيل إن الشاعر الجاهلى تأبط شراً — وهو من نماذج الفروسية فى الجاهلية — بات ليلة ظلمة وبرق ورعد فلقه الغول ، فزال يقاتلها إلى أن أصبح وهى تطلبه حتى قتلها وتأبطها وسار ، وفيها يقول .

فلم أنفك متكئا عليها لا نظر مصبحا فإذا أتانى

(١) لا نسمع عن هذه الآلات الموسيقية عند العرب ، إلا عند ما يتبع النساء الرجال إلى ساحات الحرب ، ولولا الدين لما خرجت حرائر مكة فى هذا المشهد تنشد على أنغام الموسيقى تلك المقطوعات التى نسبت إلى السكائنات فى موقعة ذي قار وأيام بكر وتغلب .

(٢) إن الصورة التى تخيلها العرب الجاهلى للجن والعفاريت لم تصل فى بشاعتها حداً يمكن أن يقارن بصورة الجن عند غير العرب كاليونان والهند والفرس ، فإن صورة الجن عند هؤلاء رهيبية مخيفة ومبينة على مفالة بعيدة عن القياس وتركيب أجسادها على خلاف المهود وأعمالها خارقة للعادات . فيليب حتى : تاريخ العرب ص ١٣٦ — ١٣٧ .

(٣) حتى : تاريخ العرب ص ١٣٦ — ١٣٧ .

إذا عينان في رأس قبيح كـرأس المر مشقوق اللسان
وساق محذج وشواة كلب وثوب من عباء أو شنان
وتجمع مظاهر الديانة الوثنية عند العرب ، إلى جانب عبادة الأصجار
والأشجار والآبار والكهوف ، عبادة النار كذلك ، فقد كانوا يعمدون إلى حفر
أخذود مريع في الأرض يملأ وقوداً ، ثم لا يدعون طعاماً ولا شراباً ولا عطراً ولا
جوهرًا إلا طرحوه فيها تقريباً إليها ، وحرموا إلقاء النفوس فيها وإحراق
الأبدان بها . ويرجع مؤرخو العرب عبادة النار في الجزيرة العربية إلى أسطورة
خوها أنه « لم قتل قبيل أخاه هايل وهرب من أبيه آدم إلى اليمن جاءه إبليس
وقال له : إنما قيل قربان هايل وأكلته النار لأنه كان يخدمها ويعبدها ، فانصب
أنت أيضاً ناراً تكون لك ولعقبك ، فبنى بيت ناراً »^(١).

(١) الأصنام :

كان لكل قبيلة من قبائل العرب ، إله خاص تتعبد له ، ومن هنا كثرت
الأصنام في بلاد العرب ، حتى قيل إن عددها بلغ ٣٦٠ صنماً على مارواه ابن
هشام ، وكانت في الوقت نفسه تعترف بسلطة الإله الأكبر . ولم تكن الصلة بين
القبيلة عند العرب وبين إلهها وثيقة كما كانت الصلة عند بني إسرائيل مثلاً
بين يهوه^(٢) وشعبه .

وكان الأساس في معتقدهم ، الذي جعل لكل بئر أو صخرة أو تل من
الرمال إله خاص ، أن الله قد خلق لنفر من الآلهة بعض تصرفات مثل : شفاء
المرضى ، والإتيان بالذرية والنسل ، وإبعاد المجاعة وإقصاء الوباء ، ولم يكن من

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ١ ص ٨٢ .

(٢) يهوه : أى الله ، باللغة العبرية .

اليسير الحصول على المنفعة السماوية إلا بعد وساطتهم وشفاعتهم^(١).

اختلف المؤرخون في أصل عبادة الأصنام : فمنهم من زعم بأنها محلية ، ومنهم من قال بأنها مجلوبة من الخارج . ويذكر مؤيدو الرأي القائل بأنها محلية أن أهل اللوتى من العرب أرادوا إحياء ذكراهم ، ففتحوا صوراً من الحجر على شكلهم تمثلهم ، وعبدوها بعد ذلك . يقول السهيلي عن البخاري عن ابن عباس « صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح ، في العرب بعد ، وهى أسماء قوم صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن نصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسونها أنصاباً وسموها بأسمهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنوَّخ العلم عادت »^(٢).

على أن العرب لم ينحتوا الأصنام لجهلهم بالفنون الجميلة ، فالظاهر أن الأصنام المنحوتة مجلوبة من الخارج^(٣) . ويؤكد ذلك ما ذكره مؤرخو العرب في قصة عمرو بن لحي . يقول ابن هشام أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق ... رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم : ما هذه ؟ قالوا : نستسقى بها المطر ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها فأجابوا طلبه^(٤) ، فقدم مكة بهيل ودعا الناس إلى عبادته وإلى مفارقة الخنيفية ، فأجابه الجمهور وأكره من لم يحبه حتى تم له ما أراد^(٥) . ويقول الأزرقي : « أحضر عمرو بن لحي هبل من هيت من أرض الجزيرة »^(٦) ، مما يبين أن الأصنام المنحوتة مجلوبة من الخارج .

(١) مولاى محمد على : رسول الله ص ١٥ .

(٢) السهيلي : الروض الأتق ج ١ ص ٦٣ .

(٣) عبد المعيد خان : الأساطير العربية ص ١١٣ .

(٤) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٥١ .

(٥) أبو هلال العسكري : الأوائل ص ٦٩ .

(٦) الأزرقي : أخبار مكة ج ١ ص ٦٨ .

وهناك رأى يذهب إلى أن الأصل في عبادة الأصنام أن قوما من الأوائل اعتقدوا أن الكواكب تفعل أفعالا لا تجرى في النفع والضرر مجرى أفعال الإله ، على حسب ما يعتقد به بعض أهل التنجيم فأتخذوا عبادتها ديناً^(١) . على أن نولدكه يذكر أنه مما لا نزاع فيه أن العرب عبدوا الشمس والنجوم الأخرى في عصر متأخر جداً ، أما الأوثان المتحدة غير النجوم فلا يمكن تفسيرها بأنها شكل من أشكال النجوم^(٢) .

وكان العربي إذا سافر حمل معه حجراً ، وإذا أزمع العودة تركه ، وفي ذلك يقول ابن الكلبي . « كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فأتخذها رباً وجعل ثلاث أثنافى لقدره ، وإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك »^(٣) ، وعلى سبب ذلك بأنهم كانوا يفعلونه تعظيماً للحرمة وصباية بمكة . وقيل من ناحية أخرى إن عادة حمل الأحجار ، إنما هي بقية من ديانة الساميين الأولى وأن قدماء العرب إنما يحملون الأحجار في أسفارهم لاعتقادهم أنها جزء من تربة تلك الواحة الخصبية التي يسكن الإله جذوع أشجارها ، يروى بمائه مدرها وأحجارها . وبما أن الحجر جزء من تلك التربة ، ففيه شيء من روح الإله ، ولذا كان العربي القديم يحمله معه في أسفاره تيمناً به وتفاؤلاً ، حتى كان إذا وقع على بئر أو شجرة روى بمائها أو تغذى بشمرها ، ثم رفع عقيرته بالدعاء والتهليل بل كان حينما حل يضع الحجر ويطوف به دلالة على الشكر والحمد والتعظيم والتوقير^(٤) .

وعبد العرب الأحجار ، ولكنهم لم يعبدوا كل صنف من الحجر بل ما استحسنوه وما أعجبهم منها . وكانت معظم تلك الحجارة المختارة بيضاء

(١) المسكوي : الأوائل ص ٦٩ ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٢) Ency. of Religion & Ethics • Arabs •

(٣) ابن الكلبي : الأصنام ص ٣٣ .

(٤) محمد محمود جمعة : التنظيم الاجتماعية والسياسية ص ١٣٩ .

اللون ، ولها علاقة بالنغم والجل ولبنهما^(١) : وتعددت أقوال المؤرخين في هذا الصدد : يقول ابن الكلبي « وكان لأهل كل دار في مكة صنم في دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً »^(٢) . ويقول أبو عثمان النهدي^(٣) « كنا في الجاهلية نعبد حجراً ونحمله معنا فإذا رأينا أحسن منه ألقيناه وعبدنا الثاني ، وإذا سقط الحجر عن البعير قلنا سقط إلهم فالتمسوا حجراً ... »^(٤) . ويقول ابن دريد صاحب الاشتقاق « كان الرجل منهم إذا وجد حجراً أحسن من حجر أخذه وعبده »^(٥) .

ولم يكن الوثن في تصور العرب رباً إلى القرن السادس قبل الميلاد ، لأن عرب الحجاز ونجد لم يكونوا متصلين بالوثنية المجاورة ، ولم يتأثروا بالوثنية البابلية أو الرومانية أو النينية قبل ذلك القرن^(٦) . كما أن الأساطير التي نسجت حول النصب تدل صراحة على أن العربي لم يعبد الوثن معتقداً أنه خالقه أو خالق الكائنات لأنه تارة يستسقم عند الوثن ، وتارة أخرى يسبه ويشتمه ، ومرة ثالثة يأكله وقت المجاعة^(٧) . وعلى ذلك ، لم تكن الوثنية الخارجية ، حتى القرن السادس قبل الميلاد ، قد دخلت بلاد العرب أو تأثر بها العرب أنفسهم ، أو إذ لم تكن هناك سوى الوثنية المحلية التي تنحصر في تقديس الأشياء التي استفاد بها العربي البدوي واستمرت وتطورت تحت تأثير الحضارة المجاورة^(٨) .

(١) الدكتور محمد عبد الميد خان : الأساطير العربية ص ٩٧ .

(٢) ابن الكلبي : الأصنام ص ٣٣ .

(٣) نهدي : قبيلة من قضاة .

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٣ ص ٣٢٥ .

(٥) ابن دريد : الاشتقاق ص ٨٦ .

(٦) محمد خان : الأساطير العربية ص ١٠٧ .

(٧) محمد خان : نفس المصدر والصفحة .

(٨) محمد خان : نفس المصدر ص ١٠٦ .

تأثر العرب بوثنية الأمم المجاورة ، فالثابت أن مردوخ والزهرة عبدا في جزيرة العرب وأنهما من الأصنام البابلية وانتشرت عبادتهما في بلاد العرب جميعاً^(١) . وتأثر العرب كذلك بلكديا وآشور ، فقد كان من عادة العرب تقديم اللبالي على الأيام ، كما قال البيروني في كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية « أن العرب فرضت أول مجموع اليوم واليلة نقطة للغارب على دائرة الأفق ، فصار اليوم عندهم بليته من لدن غروب الشمس عن الأفق إلى غروبها من الغد » ، وهذا يخالف نظرية الروم والفرس ويوافق نظرية السكندان الذين كانوا يقدمون إله القمر على الشمس . كذلك قيل إن كلمة « صنم » أصلها صلم Solm وهي كلمة آرامية دخلت البادية العربية^(٢) . وهنا نستعرض أهم الأصنام الجاهلية :

هبل :

كان هبل من أعظم أصنام قريش ، نصبه عمرو بن لحي على البئر الذي حفره إبراهيم عليه السلام في بطن الكعبة ، وأمر الناس بعبادته ، فكان الرجل إذا قدم من سفر ، بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت ، وحلق رأسه عنده^(٣) . وعنده في الكعبة سبعة قداح ، كل قدح منها فيه كتاب ، وكان قربانه مائة بعير^(٤) وعبدته قريش واستقسمت عنده بالأزلام^(٥) وكانوا إذا أرادوا أن يخفون غلاما أو يزوجوا أحداً أو يدفنوا ميتاً أو شكوا في نسب أحدهم ، ذهبوا به إلى هبل وبمائة درهم وجزور فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها ثم قربوا صاحبهم

(١) محمد خان : الأساطير العربية ص ١٠٩ .

(٢) محمد خان : نفس المصدر ص ١١٢ .

(٣) الأزرق : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ج ١ ص ٦٨ .

(٤) الأزرق : نفس المصدر والجزء ص ٦٨ .

(٥) الأزرق : نفس المصدر والجزء ص ٦٧ .

الذى يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا . يا إلهنا !! هذا فلان أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه ^(١) ، وكانت له خزانة للقربان وله حاجب .

واختلف المؤرخون في سبب تسميته بهذا الاسم : يقول ياقوت « هبل أظنه من الهابل وهو الكثير الشحم واللحم ومنه حديث عائشة : والنساء يومئذ لم يهبلن اللحم أى لم يسمن ، أو من الهبل والشكل يراد به أن من لم يطعمه هبله أى شكله أو من الهبل والهباله وهو الغفيمة أى يفتنم عبادته أو يفتنم من عبده ^(٢) . وذهب جورجى زيدان إلى أن لفظ هبل لا اشتقاق له في العربية من معناه فهو غير مشتق من لفظ عربي ، ويقول إنه عبرانى أو فينيقي ، أصله هبعل ومعنى بعل (السيد) ، وزاد على ذلك فقال . إن الهاء في العبرى أداة التعريف مثل « الـ » العربية فبإضافة هذه الأداة إلى بعل يريد الأكبر ، وقال : أما العين الزائدة فسهل إهالها بالتخفيف ثم ضياعها بالاستعمال وخصوصا في لفظ بعل لأن السكندانيين كانوا يلفظونه « بل » بإهال العين وهو اسم هذا الإله عندهم . وقول إن هبل القرشى هو بعل الإسرائيلى ، وعلى ذلك إذا صح تعليل الأستاذ جورجى زيدان اللغوى فلا يبقى شك في أن هبل هو بعل . ويقول الدكتور محمد عبد المعيد خان « والذى قد يؤكد صحة هذا رأى أن الله سبحانه وتعالى أورد في التنازل : أتدهون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ، فقال الله سبحانه بعلا ولم يقل هبلا ، وفي هذا ما يدل على أنه كان يسمى بعلا عند بنى إسرائيل ^(٣) .

وتشير إقامة هبل على البئر الكائن في بطن الكعبة إلى أنه كان ذا علاقة بالرزق والخصب في عقيدة العرب أيضا ، كما كان اليهود يعتقدون أنه إله النعمة والسعادة . يقول محمد عبد المعيد خان : « لا أتردد أن أقول إن هبل

(١) الأزرقي ، أخبار مكة ج ١ ص ٦٨ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان .

(٣) محمد خان : الأساطير العربية ص ١١٥ .

كان إله الخصب والرزق ومن ثم إله السعادة وشبه رب الأرباب في عقيدة العرب^(١) . وهبل هو الإله الذي عناه عمرو بن لحي حينما قال : إن ربكم يتصف باللات لبرد الطائف ويشتو بالعزى لحر تهامة^(٢) .

وهبل هو أعظم الأصنام التي كانت لقريش في جوف الكعبة وحولها ، وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، فجعلت له قريش يدا من ذهب ، وكان لإصلاح اليد المكسورة أنثر خالد في العقيلة العربية التي أخذت منذ ذلك الحين تتصور الإله في صورة إنسان حقيقي كما يظهر من الخرافة التي صورت العزى في صورة امرأة^(٣) .

اللات والعزى :

واتخذ العرب في الطائف معبود « اللات » ، وهي أحدث من مناة وكانت صخرة مربعة بيضاء ، وسدنتها من ثقيف بنى عتاب بن مالك . وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : واللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، فإنهن الغرائيق العلى ، وإن شفاعتهن لترجي^(٤) . وكان العرب يحلفون بها ، يقول أوس بن حجر :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهم أكبر
وانتشرت عبادة اللات بين العرب ، بدليل كثرة الأسماء المركبة من إسمها ، مثل تيم اللات وعمرو اللات وزيد اللات وغيرها^(٥) واختلف المؤرخون في سبب تسميتها بهذا الاسم . يقول ياقوت : إن اللات كان رجلا من ثقيف ، ويقول الأزرقى : إن

(١) محمد خان : الأساطير العربية قبل الإسلام ص ١١٧ .

(٢) الأزرقى : أخبار مكة ج ١ ص ٧٤ .

(٣) ابن الكلبي : الأصنام ص ٢٧ .

(٤) ابن الكلبي : نفس المصدر ص ١٦ — ١٩ .

(٥) لويس شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ج ١ ص ٨٤ .

رجلا ممن مضى كان يقعد على صخرة ثقيف يبيع السمن للحجاج إذا مروا
فيلتسبونهم وكان ذا غنم فسميت صخرة اللات . فلما مات وفقده الناس قال لهم
عمرو بن لحي : إن ربكم كان اللات فدخل في جوف الصخرة^(١) ، أما الأستاذ
رشدى صالح ناشر ومحقق كتاب الأزرق فيقول إنها كانت بالطائف في موضع
مفارة مسجد الطائف اليسرى اليوم ، فلم تزل كذلك حتى أسلت ثقيف فبعث
رسول الله المغيرة ابن شعبه فهدمها وحرقها بالنار^(٢) ، ويذهب محمد عبد المعيد
خان إلى أن اللات كلمة قديمة وردت في الأدب البابلي الذي يرجع عصره إلى ثلاثة
آلاف سنة تقريبا وهى إسم إله من آلهة البابليين الذين رأوا فيها تمثال فصل
الصيف^(٣) .

واللات من الأصنام التى جاء بها عمرو بن لحي ، أخذها العرب من النبطيين
الذين كانوا يعتبرونها إله الشمس ويلقبونها بربة البيت ، ونسب العرب إليها
— كالبابليين — فصل الصيف وقالوا : ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف .

أما العزى فكانت من أعظم الأصنام عند قريش ، حتى إنهم كانوا
يزورونها ويهدون لها وتقرّبون عندها بالذبح ، وكان لها منحر ينحرون فيه
هداياهم يقال له النعيب ، وبها كانت العرب وقريش تسمى عبد العزى^(٤) ،
وكانت قريش تحفها بالإعظام . قال زيد بن عمرو بن نفيل ، وكان قد تأله
في الجاهلية وترك عبادتها وعبادة غيرها من الأصنام :

تركت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتها ولا صنمى بنى غنم أزور

(١) الأزرق : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ج ١ ص ٨٤ .

(٢) الأزرق : نفس المصدر والجزء ص ٧٤ حاشية ٥ .

(٣) الأساطير العربية ص ١١٧ — ١١٨ .

(٤) ابن السكيت : الأصنام ص ١٨ .

ولا هبلا أزور وكانت ربا لنا في الدهر إذ حلمي صغير^(١)

واختلفت المؤرخون في ماهية العزى : فذهب الأزرقى إلى أن العزى كانت ثلاث شجرات سمّرات في وادى نخلة ، وأن أول من دعا إلى عبادتها عمرو بن ربيعة والحارث بن كعب ، وأن قريشا وبني كنانة كانت كلها تعظم العزى مع خزاعة وجميع مضر ، وسدتها بنو شيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم^(٢) . أما ياقوت فيذكر أن العزى سمرة كانت في غطفان يعبدونها وكانوا قد بنوا عليها بيتا وأقاموا لها سدنة ، وقال عن اشتقاق إسمها : والعزى تأنيث الأعز مثل الكبرى تأنيث الأكبر ، والأعز بمعنى العزيزة ، والعزى بمعنى العزيزة . يقول درهم بن زيد الأوسى للعزى :

إني ورب العزى السعيدة واللـه الذى دون بيته شرف^(٣)

وللعزى أسماء كثيرة تختلف باختلاف الألسنة : فالليونان دعتها إفروديت ، والكلدانيون بلتى ، وطىء عوزى ، مما يظهر لنا أن كلمة العزى من لغة بنى طىء^(٤) . وقيل إن أحد ملوك الحيرة قد ضحى للعزى عددا من البتولات المسيحيات^(٥) ، ولعلمهم كانوا يرون في سفك الدماء وسيلة لإخضاع غضب الآلهة وللتقرب منهم وطلب رضاهم . وقد تطورت العزى عند العرب ، فقد مثلت فصل الشتاء كما مثلت اللات فصل الصيف ، ويظهر ذلك من قولهم : إن ربكم يشقوا بالعزى لحرتهامة ، وصارت إلهة الخصب والرزق حينما قامت على ثلاث شجرات سمّرات في وادى نخلة وصعدت إلى السماء في صورة امرأة حسناء ،

(١) ابن الكلبي : الأسمان ص ٢١ .

(٢) الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ج ١ ص ٧٤ — ٧٥ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان .

(٤) محمد عبد الميّد خان : الأساطير العربية ص ١٢٠ .

(٥) شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ج ١ ص ١١ .

وأصبحت نجم الصباح حينما ظهرت اللات في صورة الشمس ، وسميت الزهرة كما قال البلخي في قصة هاروت وماروت في كتابه : البدء والتاريخ^(١) .

أصنام أخرى :

وعبد العرب عدة أصنام أخرى ، من بينها « مناة » وهي أقدم الأصنام عند العرب ، جاء بها عمرو بن لحي ، دخلت عبادتها بلاد الحجاز ولم تولد فيها ، وكانوا يسمون بها عبد مناة وزيد مناة ، وقيل إنها كانت صخرة لذيذ ، وكانت العرب جميعا تعظمها وتذبح حولها ويهدون لها ، وخاصة الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة . وقيل إن مناة كانت للأزد وغسان ، يحجونها ويمظمونها ، فإذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى لم يحلقوا إلى عند مناة^(٢) .

وتمثل مناة عند العرب ، الموت لا الدهر ، لأن الدهر في تصورهم ذكر ، ومناة أنثى ، ولعل هذا هو ما دعا العرب أن يستقسموا عند هبل وذى الخلصة ولم يستقسموا عند مناة ، بل حلفوا أمامها . يقول عبد العزى بن وداعة المزني :
إني حلفت يمين صدق برة بمناة عند محل آل الخزرج^(٣) .

ويؤكد صفة مناة ما قيل من أن سيفين وجدا عند مناة حينما هدمت عام فتح مكة^(٤) ، لأن السيف رمز العدالة والإنصاف عند أهل البادية^(٥) ، وقيل إن مناة كانت إلهة القضاء والقدر التي تقابل إلهة الحظ المخلص عند الإغريق .

وكان لقريش أيضا صنم عرف باسم « ودة » ، وكان بدومة الجندل ، وسداته في بني القرافصة بن الأحوص السكليين ، واشتقاق ود في اللغة

(١) محمد عبد المعيد خان : الأساطير العربية ص ١٢١ .

(٢) الأزرق : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ج ١ ص ٢٣ .

(٣) ابن السكلي : الأصنام ص ١٣ — ١٤ .

(٤) ابن السكلي : نفس المصدر ص ١٥ .

(٥) محمد عبد المعيد خان : نفس المصدر ص ١٢٩ .

العربية هو من ودد بمعنى أحب ، ومثل ود دور الحب عند العرب ، وكان أول من أجاب دعوة عمرو بن لحي إلى ذلك الصنم هو عوف ابن عُذرة^(١) الذي تعد قبيلته المثل الأعلى للحب^(٢) حتى قيل « الحب المُذرى » نسبة إليها ، قال الشاعر :

حياك ود فإننا لا يحل لنا لهو النساء وإن الدين قد عزما^(٣)

وكان « يغوث » من أصنام العرب في الجاهلية ، وهو من غشت الرجل أغوثه من الغوث أى أغثته ، وقيل إنه كان صنما لمذبح وأهل جرش ولأنه كان على هيئة الأسد^(٤) ، وقيل أيضا إن يغوث مجلوب من مصر ، وعلى جرجى زيدان ذلك بقوله : « وقد وجدنا بين آلهة المصريين صنما على صورة أسد أو لبؤة يسمونه تغوث ولا يخفى ما بين هذا اللفظ واللفظ يغوث من المشاكلة الصورية إذا اعتبرنا أن العرب كانوا يكتبون بلا نقط » . وقد وقعت حرب بين بعض قبائل اليمن لاقتناء ذلك الصنم ، من بينها واقعة رزم بين بنى الحارث وحمدان ومعهم سدنة الصنم من جهة وبين مراد من جهة أخرى ، وإلى هذه الواقعة أشار الشاعر بقوله :

وسار بنا يغوث إلى مراد فبناجزناهم حتى الصباح

واتخذت خيوان « يعوق » ، وقيل إنه كان على صورة الفرس^(٥) .
واتخذت حمير « نسرا » وكان قبل ذلك من أصنام قوم نوح عليه السلام ، وكان على صورة الذسر^(٦) .

(١) ابن السكبي : الأصنام ص ٥٥ .

(٢) محمد عبد الحميد خان : الأساطير العربية ص ١٣١ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان .

(٤) الزنجشمري : الكشف عن مغالتي التنزيل ج ٢ ص ١٥٣٢ (طبع كلكنا) .

(٥) الزنجشمري : نفس المصدر الجزء والصفحة .

(٦) ابن السكبي : نفس المصدر ص ١١ .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الأصنام في كتابه العزيز حيث قال (وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يعقوث ويعوق ونسرا)^(١). وينفى صاحب كتاب النصرانية وآدابها، أن هذه الأصنام قد عبدت في جزيرة العرب، فيقول «ولعل كثيراً من هذه الأصنام لم تعبد في جزيرة العرب كود وسواع ويعقوث ويعوق ونسر، الذين يقال عنهم إنهم من آلهة قوم نوح»^(٢). وقد اقترن اسم نسر بالعزى في الآيات الآتية التي أوردها ياقوت :

أما ودماء مائرات تخالها على فتنة العزى أو النسر عندما
وما قدس الرهبان في كل هيكل أبيل الأبيلين المسيح ابن مريما
لقد ذاق منا عامر يوم لعل حساماً إذا ما هز بالكف صمماً

وكانت قبائل هذيل هي أول من اتخذ «سواعا» للعبادة، وقيل إن موضع هذه القبائل إما في أرض ينبع، أو في رهاط من بطن نخلة، إذ أن قبائل هذيل وبنى الحيان كانت تقيم في ضواحي مكة، ورهاط واد كبير تقع في غربيه قرية الحديبية^(٣).

ومن أصنام العرب المعروفة، إساف ونائلة كانا رجلاً وامراً ففُسُخَا حجَرين، فأخرجا من جوف الكعبة وعليهما ثيابهما، فجعل أحدهما بلصق الكعبة والآخر عند زمزم وكان يطرح بينهما ما يهدى للكعبة. وتشير قصة مسخ إساف ونائلة إلى تقديس العرب وتعظيمهم لمكة والبيت الحرام. وكان أهل الجاهلية يعمرون بإساف ونائلة ويتمسحون بهما، فإذا طاف أحدهما بالبيت يبدأ بإساف فإذا فرغ من طوافه ختم بنائلة. ثم اتخذها قصي بعد ذلك

(١) سورة نوح، آية ٢٣.

(٢) شيخو: النصرانية وآدابها ج ١ ص ٦.

(٣) الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٧٨ حاشية ٧.

ليذبح عندهما عند موضع زمزم ، بدليل ما ذكره صاحب « كتاب الأعلام »
عن نذر عبد المطلب حيث قال : غير عدى بن نوفل بن عبد مناف ، عبد المطلب بقلة
أولاده ، فقال له عبد المطلب : أو بالقلة الأولاد تعيرنى . . . ؟ فوالله لئن أعطانى الله
عشرة من الولد لأنحرت أحدهم عند الكعبة ، فلما كمل له عشرة جمعهم ثم أخبرهم
بنذره ، فقالوا له أوف بنذكرك وافعل ما شئت ، قال : ليأخذ كل واحد منكم قدحا
فيكتب فيه اسمه ثم إيتونى به ، ففعلوا ودخلوا على هبل . . . وضرب صاحب
القداح ، فخرج السهم على عبد الله فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة ثم أقبل
على إيساف — وهو صنم كان على الصفا ليذبحه عنده^(١).

ولإيساف ونائلة ، يقول أبو طالب ، وهو يحلف بهما حين تحالفت قريش
على بنى هاشم :

وأحضرت عند البيت رهطى ومعشرى وأمسكت من أثوابه بالوصل
وحيث ينيخ الأشعرىون ركابهم بمفضى السيول من إيساف ونائل
وقال بشر بن أبى خازم الأسدى فى إيساف :

عليه الطير ما يدنون منه مقامات العوارك من إيساف
واختلفت الروايات فى شأن صنم « ذى الخلصة » فقيل : إنه بيت أصنام
كان لحوس وخشم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بقبالة ، ثم أحرقه جرير
ابن عبد الله السجلى حين بعثه النبى صلى الله عليه وسلم^(٢) ، وقيل إنه كان
لمعرو بن لحي بن قمة نصبه بأسفل مكة حين نصب الأصنام فى مواضع شتى ،
فكانوا يلبسونه القلائد ويلقون عليه بيض النعام ويذبحون عنده ، وكانوا يعنون
بقسميتهم له بذلك الاسم أن عباده والطائفين به من الخلصة^(٣) ، وقيل هو

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ٤٦ . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٤٧ تاريخ .

(٢) ياقوت معجم البلدان .

(٣) تاريخ مكة المشرفة . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٧٠ ، تاريخ ورقة ٣٢

(١٠ م - التاريخ الإسلامى العام)

السكبة اليمانية التي بناها أبرهة بن الصباح الحيرى وكان فيه صنم يدعى الخلصة فهدم ، وقيل إن ذا الخلصة كان بيتا تعبد به بجيلة وخثعم والحارث بن كعب وجرم وزبيد والغوث بن مر بن أد وبنو هلال بن عامر وكانوا سدنته بين مكة واليمن بالعَبِلَاء على أربع مراحل من مكة^(١) ، وقيل إن ذا الخلصة كان صنما بنبالة كانت العرب جميعاً تعظمه وله ثلاثة أقداح : الأمر والنهى والترعى^(٢) .

أما « رثام » فكان بيت نُسْك يُستنسك عنده ويحج إليه ، وينسب إلى رثام بن نهقان بن تبع بن زيد بن عمرو بن همدان ، وعلى مقربة منه جبل « أقوى » من بلد همدان ، وعلى مقربة منه قصر المملكة . وأمام باب القصر حائط فيه بلاط ، فيها صور الشمس والهلال ، فإذا خرج الملك ورآها كفر لها بأن يضع راحته تحت ذقنه عن وجه يستره ثم يخر بذقنه عليها . يقول الشاعر :

إنا بنو أود الذى بلوائه صعبت رثام وقد غزاها الأجرع^(٣)

وكان بحضرموت صنم يدعى « الجلسد » تعبد به كندة وحضرموت ، وسدنته بنوشكامه بن الشبيب بن السكون ، ثم بنو هلاق ويسدنه منهم الآخرز ابن ثابت . وكان للجلسد حمى ترعاه سوامه وغنمه ، وكانت هواقي الفم إذا رعت حمى الجلسد حرمت على أربابها . وكان كجثة الرجل العظيم وهو من صخرة بيضاء ، وإذا تأمله الناظر رآه كصورة وجه الإنسان^(٤) ، قال الشاعر :

فبات محتاب شقارى كما ييقر^(٥) من عشي إلى الجلسد^(٦)

(١) ياقوت : معجم البلدان .

(٢) ابن السكلي : الأصنام ص ٤٧ .

(٣) الحميداني : الإكليل ج ٨ ص ٨٢ .

(٤) ياقوت : نقر المصدر .

(٥) البيهقي مشبه يطأطأ الرجل فيها رأسه .

(٦) ياقوت : نفس المصدر .

وكان للمالك وملاك ابن كنفانة بساحل جدة صنم يقال له « سعد » ،
وكان صخرة طويلة^(١) . وقيل إن هذا الصنم كانت تعبد هذيل^(٢) . ولدينا
قصة رجل من بني مالك وملاك أقبل يابل له ليقفها عليه « يتبرك بذلك فيها ،
فلما أدناها منه نفرت فذهبت في كل وجه وتفرقت إلى أهله فتناول حجراً فرماه
به ، وقال لا بارك الله فيك إلها ، أنفرت على إبل » ، ثم خرج في طلبها حتى
جمعها وانصرف عنه وهو يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من أرض لا يدعى لني ولا رشد^(٣)
وكان للعرب أيضاً « مناف » ومنه كانت تسمى قريش عبد مناف ،
ولا يعرف أين كان ولا من نصبه وقيل إنه صنم عبد في الجاهلية^(٤) . يقول
ياقوت « إنه كان مستقبل الركن الأسود وله غنبيان أسودان من حجارة تذبح
بهما الذبائح »^(٥) .

ومن الأصنام المعرفة في الجاهلية : « بَئِل » ، و « أوال » الذي كان
لبكر بن وائل وتغلب بن وائل ، و « بلج » وكان في عميرة وغفاية من غزوة
ابن ربيعة^(٦) ، و « جهار » وهو صنم كان لموازن بمكاظ وسدنته آل عوف
النصريين^(٧) : أما « بساء » فهو بيت بنته غطفان وسمته كذلك مضاهاة للكعبة
وهو من قولهم : لا أفعل ذلك أبس . عبد « بناقته » وهو طوقانه حولها ليحلبها ،
وأبس الإبل عند الحلب إذا دعا الفيصل إلى الناقة ليستدرها به ، فكانهم

-
- (١) ابن السكبي : الأصنام ص ٣٦ .
(٢) ابن سيدة : المحمص ج ١٣ ص ١٠٤ .
(٣) ابن السكبي : نفس ص ٣٦ - ٣٧ .
(٤) الشدياق : الساق على الساق ص ١٥٥ - ١٥٨ .
(٥) ياقوت : معجم البلدان .
(٦) ياقوت : نفس المصدر .
(٧) الشدياق : نفس المصدر ص ١٥٥ - ١٥٨ .

كانوا يستحبون الرزق في الطواف حوله . وسمى هذا العنم كذلك باسم « بس » . وهو بيت لفظان بناء ظالم بن أسعد لما رأى قريشا يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ، فذرع البيت وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ، فرجع إلى قومه فبنى بيتاً على قدر البيت ووضع الحجرين وقال : هذا من الصفا والمروة ، واجتزأ به عن الحج فأغار زهير بن جناب السكبي ، فقتل ظالماً وهدم بناءه ^(١) .

و « الكعبات » هو بيت كان لربيعة يطوفون به ، وقيل إنه كان لبكر وتغلب ابني وائل وإياد في سنداد ^(٢) . قال الأسد بن يعفر :

أهل الخورنق والسدير وبارق والبيت ذى الكعبات من سنداد
ومن أصنام العرب في الجاهلية : « زون » وهو صنم كان بالأبلة ، وشمس
صنم كان لبني تميم وله بيت وتعبده بنو أذ وضبة وتيم وعدى وثور وعكل ، وسدنته
في بني أوس ، وكسره هند بن أبي هالة وسفيان بن أسيد ^(٣) . وذكر الأب لويس
شيخو تلبية هذا العنم وهي . لبيك اللهم لبيك ! ما نهارنا نجره لأمه وحره
وقره ، لا نتقى شيئاً ولا نصره ، حجاً رب مستقيم ^(٤) . وكان « الضمار » -
صنم في ديار سُلَيم بالحجاز ذكر في إسلام العباس بن مرداس السلمي ^(٥) ،
وكان لخولان صنم يقال له « عَمُّ أنس » بأرض خولان يقسمون له أنعامهم
وحرثهم قسماً بينه وبين الله وسمى كذلك عُيَاس ^(٦) ، و « المدان » هو اسم

(١) الشدياق : الساق ص ١٥٥ — ١٥٨

(٢) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٥٧ .

(٣) باقوت : معجم البلدان .

(٤) شيخو : النصرانية وآدابها ج ١ ص ١٥ .

(٥) ابن هشام : نفس المصدر والجزء ص ٥٣ .

(٦) الشدياق : صاحب الساق ص ١٥٥ .

صنم ومنه عبد المدان ، و « المحرق » صنم كان بسلمان لبكر بن وائل وسائر ربيعة وكانوا قد جعلوا له في كل حي من ربيعة ولدا وسدنته أولاد الأسود العجليون^(١) .

أما « الغنبد » ، فقد اختلف في كونه صنما أو موضعاً للنحر . يقول ياقوت : الغنبد هو الموضع الذي كان ينحر فيه اللات والعزى في الطائف وخزانة مايهدي إليها ، وقيل هو بيت كان لمخاف وهو صنم كان مستقبل الركن الأسود وله غنبيان أسودان من حجار تذج بينهما الذبائح ، وللغنبد حجر ينصب بين يدي الصنم . . . وكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها وكان عندها^(٢) . وذكر صاحب الساق : أن الغنبد هو صنم ليس إلا^(٣) . أما ابن سيدة فقد أطلق عليه « غنبد » وذكره على أنه صنم كانت تعبده قضاة^(٤) .

ومن أصنام العرب في الجاهلية صنم عرف باسم « مزحَب »^(٥) . وكان « الضيزن » صنما يعبد في الجاهلية^(٦) ، وقيل إنه كان لدوس^(٧) ثم لبني منهل ابن دوس^(٨) ، ذكره الأزرقى هند ماتكلم عن كسر الأصنام بعد فتح مكة^(٩) . أما « الضيزنان » فهما صنمان كانا للمنذر الأكبر اتخذهما بياض الحيرة ليسجد لهما كل

(١) ياقوت : معجم البلدان .

(٢) ياقوت : نفس المصدر .

(٣) الشدياق : الساق ص ١٥٥ .

(٤) الشدياق : نفس المصدر ص ١٥٥ .

(٥) الشدياق : نفس المصدر ص ١٥٠ .

(٦) ابن سيدة : المخصص ج ١٣ ص ١٠٤ .

(٧) كانت دوس تنزله في قسم من جبل السراة ، يسمى سراة دوس .

(٨) ابن الكلبي : الأصنام ص ٣٠ .

(٩) الأزرقى : أخبار مكة ج ٧ ص ٧٨ .

كل من دخل الحيرة امتحانا للطاعة^(١) ، وفيها قال صاحب كتاب الحيرة
« كان لجذيمة الأبرش التنوخى صنان يقال لها الصيزنان وكان جذيمة قد تنبأ
وتسكنه وكان يستسقى بهما ويستنصر بهما على العدو »^(٢) .

ونصب عمر بن لحي على الصفا صنما يقال له « نهيك مجاود الريح » ونصب
على اللروة صنما يقال له « مطعم الطير »^(٣) . كما أن « الشارق » كان صنما
في الجاهلية به سمي عبد الشارق^(٤) . وكان « الفللس » صنما « لطيء في الجاهلية
وهو على هيئة جمل أسود ثم تأكل بفعل المؤثرات الجوية حتى بدا للرأى كأنه
تمثال إنسان »^(٥) .

ومن أصنام الجاهلية « العتر » ومعناه في اللغة الذبيحة التي كانوا يذبحونها
في الجاهلية في رجب ، و « عَوْض » وهو صنم لبكر بن وائل ، و « نهم » صنم
لمزيفة وبه سموا عبدنهم ، و « الكسعة » وثن^(٦) كان يعبد ، و « كثرى »
صنم لجديس وطسم كسره نهشل بن الرئيس ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم
فأسلم ، و « الأشهل » صنم عبد في الجاهلية ومنه بنو الأشهل وهم حى من العرب
وعبد العرب في الجاهلية أصناماً منها : البجة والسجة وآزر وباجر والدوار
والدار وسفير والأقيصر وجريش والعوف ونصر وشريق وودع وذو الشرى
والجبهة وعائم والأسحم والليل والبعيم ومنهب^(٧) .

(١) ابن سيدة : المجمل ج ١٣ ص ١٤٠ .

(٢) يوسف غنيم : الحيرة ص ٢٩ .

(٣) الفاكهى : تاريخ مكة ص ٦ .

(٤) ابن سيدة : نفس المصدر والجزء ص ١٠٥ .

(٥) محمد محمود جمعة : النظام السياسية والاجتماعية ص ١٢١ .

(٦) إذا كان الصنم من خشب أو فضة أو ذهب على صورة إنسان فهو « صنم » ، وإذا كان

من حجارة فهو وثن . ياقوت : معجم البلدان .

(٧) الشدياق : الساق ص ١٥٦ - ١٥٨ .

كان للعرب بيوت تحجج إليها ، مثل اللات وذى الخلصة وكعبة غطفان التي بناها ظالم بن سعد بن ربيعة ، فسار إليها زهير بن حباب السكبي وهدمها ، فقال الرسول عليه السلام : لم يكن شيء من أمر الجاهلية وافق الإسلام إلا ما صنع زهير بن حباب^(١) .

أما بنو الحارث بن كعبة ، فكانت لهم كعبة في نجران يعظمونها ، وقد قيل إنها لم تكن كعبة عبادة ، وإنما كانت غرفة لأوثك القوم^(٢) ، دعاها بعضهم دير نجران « وتسمه العرب كعبة نجران » ، وهو لبنى الحارث ابن كعب^(٣) . ومن دعاها ديراً ، ياقوت ، فقال : « هو بالبن لآل عبد المदान ابن الاديان من بنى الحارث بن كعب ، كانوا قد بنوه مربعا مستوى الأضلاع والأقطار مرتفعا عن الأرض ، يصعد إليه بدرجة على مثل بناء الكعبة ، فكانوا يحجونه هم وطوائف من العرب ممن تحل عليهم الأشهر الحرم ولا يحج الكعبة وتحججه خشم قاطبة^(٤) » . وكان لإياد كعبة أخرى بسنداد من أرض بين الكوفة والبصرة^(٥) .. وعدت كعبة شداد الإيادى من البيوت التي كانت العرب تحجج إليها^(٦) .

أما أهل الحيرة ، فقد كان لهم صنم أطلق عليه اسم « سُبْد »^(٧) يحلفون به ويقولون به « حق سبد »^(٨) وذهب أنستاس الكرملى إلى أنه ربما كان من الأصل ، إذ عند أبناء وادى النيل إله يعرف باسم « سوبدو »^(٩) .

(١) الهمداني : الإكليل ج ص ٨٤ .

(٢) ابن السكبي : الأصنام ص ٤٤ .

(٣) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٥٨ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ج ١٧٨ .

(٥) ابن السكبي : الأصنام ص ٤٥ .

(٦) الهمداني : نقش المصدر والجزء ص ٨٤ .

(٧) الأصفهاني : الأغاني ج ص ١٠٢ .

(٨) يوسف غنيمه : الحيرة ص ٣٠ .

(٩) صحيفة دار السلام البغدادية : عدد تشرين الثاني ، سنة ١٩١٩ .

(ب) عبادة الحيوان :

وكما عبد العرب في الجاهلية الحجارة والبيوت والأصنام ، عبدوا كذلك الحيوان . قال السهيلي : خرج نفر من طيء يريدون النبي عليه السلام بالمدينة وفودا ، ومنعهم زيد الخليل ووز بن سروس النبهاني فمقلوا رواحلهم بفناء المسجد ودخلوا فجلسوا قريبا من النبي صلى الله عليه وسلم حيث يسمعون صوته ، فلما نظر النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ، قال : إني خير لكم من العزى ولاتها ، ومن الجمل الأسود الذي تعبدون من دون الله ، وبما حازت منافع من كل ضار غير نفع ^(١) . واختلف الباحثون في تفسير ماذهب إليه السهيلي : فقد قيل إن طيئاً كانت تعبد صنما لها يقال له « فلس » ، وأن ذلك الجمل الأسود الذي أورده السهيلي في روايته لم يكن إلا صورة لذلك الصنم « فلس » ^(٢) . وقيل إن العرب عبدوا الحيوان الحى نفسه ولم يفتحوا الأصنام على صورته ^(٣) .

وكانت الآرام والظبيان والغزلان بأنواعها المختلفة مقدسة عند العرب ، وظلت تعبد إلى عصر متأخر في بيوت الأصنام في مكة وتبالة وغيرها ، فقد كان العرب في الجاهلية يمتقدون أن لتلك الحيوانات قوة خفية وأنها قادرة على البطش والانتقام ، وذلك ظاهر من الأساطير التي ظلت متداولة إلى ما بعد ظهور الإسلام ^(٤) . وكان الحمام كذلك من بين الطيور التي عبد العرب أصنامها في الجاهلية ، وقد أقاموا له صنما في الكعبة ^(٥) ، فقد ذكر ابن هشام

(١) السهيلي : الروض الأثف ج ٢ ص ٣٤٢ .

(٢) محمد محمود جمعة : النظام الاجتماعية والسياسية ص ١٢١ .

(٣) محمد عبد الميذ خان : الأساطير العربية ص ٨١ .

(٤) Robertson : The Religion of Semites, Note F. (٤)

(٥) محمد محمود جمعة : نفس المصدر ص ١٤٠ .

أن رسول الله لما ترك مكة وأتم طوافه « دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عبدان فكسرها بيده ثم طرحها^(١) .

ويظهر أن العربي قد عبد الحيوان الحي نفسه ، ولم يفتح الأصنام على صورة الحيوان ، لأنه كان جاهلا بصناعة الرسم والفتح ، وكان معظم الأصنام ، التي وجدت على صورة الحيوان في شبه جزيرة العرب ، مجلوبة من البلاد المجاورة ، وعددها ثلاثة :

١ - النسر : وكان على صورة النسر ، ولقد ورد ذكره في النقوش القبطانية والسبئية ، ويظهر أن عبادته قد دخلت جزيرة العرب من مصر ، ويرى فلهوزن أن عبادته كانت متصلة بالكواكب وأنها كانت تشير إلى مجموعة الكواكب القريبة من الحجرة^(٢) .

٢ - نفوث : وكان على هيئة الأسد .

٣ - يعوق : وكان على هيئة الفرس .

ومنها عوف ، وهو اسم طائر صياد وأحد أسماء الأسد ، ورد ذكره كإله في الأعلام ، فقالوا : عبد عوف^(٣) . ولكن هذه الأصنام الحيوانية لم تترك أثرًا في حياة العرب^(٤) .

وهناك ارتباط وثيق بين أرض الحمى وبين الحيوان والطير . فمن حقوق الحمى أن لا يظلم الناس في تلك الحدود ، وأن لا يقتنص الصياد الحيوان ولا الطير في هذه الأرض المقدسة . وليس ببعيد أن يكون ذلك هو السبب في أن عمرو بن لحي قد قام بتنصيب الأصنام على مواطن المياه والآبار وساحل

(١) ابن هشام : سيرة رسول الله ص ٨٢٢ .

(٢) محمد محمود جمه : النظم السياسية والاجتماعية ص ١٣٩ .

(٣) شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ص ١٣ .

(٤) محمد خان : الأساطير العربية قبل الإسلام ص ٨١ .

البحر ، كما قيل إنه نصب هبل على البئر التي كانت في جوف الكعبة وسميت
« الأخسف »^(١)

قدس العربي الحيوان وعبدته ، تحصيلًا للبركة ، وشكرًا للاستفادة منه ،
جريا على عادة الرعاة قديما^(٢) ، أو لاعتقادهم أنها تشترك مع الإنسان في بعض
الصفات الشخصية ، ومن أجل ذلك كانوا يتمتعون عن أكل لحومها^(٣) .

وذهب فريق من العلماء إلى أن العرب لم يقدسوا أو يعبدوا الحيوان من أى
نوع كان ، لأن أقدم آلهة العرب كانت آلهة أرضية متصلة بالتربة والسقى
والخصب والنتاج ، وهو أمر طبيعي لسكان البيد والصحراء ، وصار لذلك صدى
في تعظيم الأشجار والعيون والآبار^(٤) .

(ج) عبادة الأشجار :

لم يكن نصيب الأشجار من العبادة والتقديس بأقل من نصيب غيرها
مما قدسه العرب وعبدوه ، وقد يكون مرجع ذلك إلى ندرة الأشجار في
الجزيرة العربية . وكان لكفار قريش شجرة عظيمة خضراء يقال لها
« ذات أنواط » ، يعلقون عليها كل سنة أسلحتهم ، ويذبحون ويعكفون
بجوارها يوما ، وكان من حج منهم وضع زاده عندها ودخل بغير زاد تعظيما
لها^(٥) ، وكما قيل عن ذات أنواط ، كذلك قيل عن العزى إنها كانت ثلاث
شجيرات سمرات بنخلة . وكان أول من دعا إلى عبادتها عمرو بن ربيعة
والحرث بن كعب^(٦) . وجاء في بعض المصادر ، أن العربي كان يعبد الأشجار
ويرى فيها روح الشر ، مثل شجرة الحماطة ، وهى أحب الشجر إلى الحيات^(٧) .

(١) محمد خان : الأساطير العربية قبل الإسلام ص ١٠٢ .

(٢) محمد خان : نفس المصدر ص ٨٣ .

(٣) محمد جمعة : النظم السياسية والاجتماعية ص ١٠٤ .

(٤) محمد جمعة : نفس المصدر ص ١٣٩ .

(٥) الأزرقى : أخبار مكة ج ١ ص ٧٧ — ٧٨ .

(٦) القرشى : تاريخ مكة المشرفة ، ورقة ٣٢ (مخطوط) .

(٧) محمد خان : نفس المصدر ص ٥٢ .

٢ - الديانة المسيحية

كان لابد للمسيحية أن تنتشر في بلاد العرب انتشاراً ، أقل ما يقال فيه ، إنه استطاع أن يجذب العديد من القبائل العربية إلى النصرانية . وذلك لأنها كانت تحيط بتلك البلاد من الشمال حيث يوجد الروم ، ومن الجنوب حيث الأحباش .

أخذ المبشرون يحبون بلاد العرب للتبشير بهذا الدين ، يعزز نشاطهم ويشد أزهم ، النفوذ السياسي للدولتين المسيحتين المجاورتين لبلاد العرب هما : مملكة الحبشة في الجنوب والدولة الرومانية في الشمال . وذكر المؤرخون الكثير من القصص عن المبشرين الذين كانوا يدعون للمسيحية سرراً ، فإذا عرف أمرهم تركوا تلك البلاد وانتقلوا إلى غيرها . ومن بينها ، قصة فيمون ، الذي نشر دين النصرانية في نجران حسب رواية مؤرخي العرب ، الذين يذكرون أنه كان رجلاً صالحاً مجتهداً في العبادة بحجاب الدعوة . وكان يعتمد الخفاء عن الناس ، ولكن فطن لشأنه رجل من أهل الشام يدعى صالح ، فلزمه ، وخرجا فارين بأنفسهما حتى وطئا بلاد العرب ، واختطفتهما قافلة ويصعا في نجران ، وحين كان يؤدي الصلاة في الليل ، سأله سيده عن دينه ، فأخبره به ، وقال له ، إنما أنتم على باطل ، وهذه الشجرة لا تضر ولا تنفع^(١) ، ولو دعوت عليها إلهي الذي أعبدوه لأهلكها ، وهو وحده الذي لاندله ودعا فيمون ، فأرسل الله ريحا جففت النخلة من أصلها . وأقبل أهل نجران على دين عيسى ، وانتشرت النصرانية^(٢) .

(١) كان أهل نجران في ذلك الوقت يبدون نخلة طويلة لهم .

(٢) ياقوت : معجم البلدان .

وهناك شواهد ثابتة نقلها مؤرخو العرب ، تدل دلالة واضحة على أن
المبشرين المسيحيين لم يجمعوا عن الدعوة لدينهم في الحجاز : فذكر ابن خلدون
في تاريخه بعثة برثلماوس إلى أرض الحجاز والعرب^(١) ، وسبقه الطبري إلى
ذلك فقال : وكان ممن توجه من الخواريين ... ابن ثلما (برثلماوس) إلى
العراقية وهي أرض الحجاز^(٢) ، وكذلك ورد في سيرة الرسول لابن هشام
عن ابن اسحق : وكان ممن بعث عيسى بن مريم عليه السلام من الخواريين
والأنبياء الذين كانوا بدم في الأرض ، ابن ثلما ، إلى الأعراقية وهي أرض
الحجاز^(٣) . ويقول شيخو : وما زاد النصرانية ترقياً في بلاد العرب عدد كبير
من الكهنة والأساقفة والرهبان كانوا في أيام الاضطهادات على عهد القياصرة
الوثنيين أو ملوك الرومان المشيبيين لا يجدون أماناً لحياتهم إلا بأن يهجروا بلادهم
ويقروا إلى بلاد العرب حيث كان يصعب على المفتصبين أن يدركوهم ويلحقوا
بهم الأذى^(٤) ، كما كان القسس والرهبان يردون أسواق العرب يعطون
ويبشرون^(٥) .

ولم تكن بلاد العرب الداخلية وبخاصة مدن الحجاز التجارية ، تجهل
تعاليم المسيحية وتقاليدھا ، لا تصالھا الدئم بقبائل الشمال التي كانت تدين
بالنصرانية . كما أن الرهبان الذين انتشرت صوامعهم في فلسطين وشبه جزيرة
سينا حتى قلب الصحراء ، كان لهم أثر كبير في تعريف العرب بالنصرانية . أضف
إلى ذلك أن الصحراء كانت ملجأ لبعض الفرق النصرانية المضطهدة من
الكنيسة الرسمية ، فكانا طبيعياً أن تكون أفدر على النجاح في نشر تعاليمها
من كنيسة الدولة الرسمية .

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ص ١٤٠ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ١ ص ٧٣٨ .

(٣) ابن هشام : السيرة ص ٩٧٢ .

(٤) لويس شيخو : النصرانية وآدبها بين عرب الجاهلية ج ١ ص ٣٦ .

(٥) أحد أمين : فجر الإسلام ص ٣١ .

٣ — الديانة اليهودية

بلغت اليهودية أقصى الجزيرة العربية، مجتازة أواسطها، ولكن في نفوذ قليل وتأثير أقل : ولعل ذلك راجع إلى نظرة عرب الجزيرة في ذلك الحين إلى الديانة اليهودية ومعتقها، وإلى عدم وجود دولة أخذت على عاتقها نشر الديانة اليهودية في بلاد العرب كما فعلت الدولة الرومانية الشرقية حين روجت للمسيحية بإرسالها الرهبان والمبشرين هناك .

غير أن الديانة اليهودية عظم ما دخلت بلاد العرب لم يأخذ تلك الصورة التي أخذتها الديانة المسيحية في تلك البلاد ، فإن الأحيار اليهود لم يأخذوا على عاتقهم نشر الديانة اليهودية بين العرب كما فعل المبشرون المسيحيون ، بل إن الديانة اليهودية دخلت في بلاد العرب على يد جماعات من اليهود انتقلت بأمرها إلى بلاد العرب واستوطنوها وسكنت في أراضيها ، وترتب على ذلك أن العرب المجاورين لتلك الأقوام تهودوا تبعاً لمجاورتهم تلك الجماعات اليهودية .

وجدت الديانة اليهودية - أول ما وجدت - في بلاد اليمن ، ويدعى يهود اليمن أن أجدادهم ظعنوا إلى ذلك القطر منذ عهد سليمان الحكيم ، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن اليهودية كانت منتشرة في اليمن على عهد الملك ياسر أنعم (وهو ناشر النعم) ، وقيل إن انتشارها كان في عهد قبان أسعد أبو كرب وهو خليفة ياسر أنعم ^(١)

أما عن كيفية ظهور اليهودية في بلاد الحجاز ، فقد أوضح ياقوت أن «سبب نزول اليهود في المدينة ، أن موسى بن عمران عليه السلام بعث إلى الكنعانيين حين

(١) يوسف غنيمه : نزعة المشتاق في تاريخ يهود العراق ص ٨٨ — ٩٩ .

أظهره الله تعالى على فرعون ، فوطئ الشام وأهلك من كان بها منهم ثم بعث بعثاً آخر إلى الحجاز وأمرهم ألا يستبقوا أحداً ممن بلغ الحلم إلا من دخل في دينه ، فقدموا عليهم فقاتلهم فأظهرهم الله عليهم فقتلهم وقتلوا ما كسبهم الأرقم ^(١) .

ويمكن القول أن جموعاً كثيرة من اليهود في القرن الأول والثاني بعد الميلاد أخذت تهاجر إلى الأرجاء العربية عموماً وإلى الربوع الحجازية بنوع خاص . ولا شك أنه كانت هناك أسباب أخرى دعت هذه الجموع إلى ترك أوطانها والنزوح منها إلى البلاد العربية ، وأهم هذه الأسباب .

١ - زيادة عدد اليهود في فلسطين زيادة مضطردة ، فقد قيل إنهم بلغوا أربعة ملايين .

٢ - اضطهاد الرومان لليهود في القرن الأول قبل الميلاد و لجوءهم إلى أرض الجزيرة العربية التي كانت أحب إليهم من غيرها لأنظمتها البدوية الحرة ، ونظراً لوجودها في أقاليم رملية بعيدة تعوق سير القوات الرومانية المنظمة وتمنع توغلها .

٣ - بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠ م التي انتهت بخراب بلاد فلسطين ودمار هيكل بيت المقدس وتشتت اليهود في أصقاع العالم ، قصدت جموع كثيرة أخرى من اليهود بلاد العرب ^(٢) .

وجد اليهود في بلاد العرب ونشروا في البلاد التي نزلوها في جزيرة العرب تعاليم التوراة وما جاء فيها من تاريخ خلق الدنيا ومن بعث وحساب وميزان وجنة ونار . كذلك كان لليهود أثر كبير في اللغة العربية ، فقد أدخلوا عليها كلمات كثيرة لم يكن يعرفها العرب ومصطلحات دينية لم يكن لهم بها علم مثل جهنم

(١) ياقوت : معجم البلدان

(٢) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٨ - ٩

والشيطان وإبليس^(١) . واقتبس عرب الحجاز من اليهود أموراً كثيرة : كالحج والذبائح والزواج والطلاق والسكينة والاحتفال بالأعياد^(٢) . ولما استقر اليهود ، وعملوا على حفر الآبار في الأراضي العالية واشتغلوا بتربية الماشية والدجاج ونسج الأقمشة ، وكانت التجارة من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز^(٣) .

وقد استطاع هؤلاء اليهود ، رغم ما قيل من أنهم كانوا قليلي الدعوة لهذا الدين ، أن يؤثروا على بعض العرب ويهودهم ، فقد قيل إنه تهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقرظطة والنضير^(٤) . كما دانت بعض القبائل باليهودية ومنها بنو نعيم وبنو كنفانة ، ولعلها سرت إليهم من مجاورة اليهود لهم في تيماء ويثرب وخيبر^(٥) ، وصالح النبي صلى الله عليه وسلم أهل مَقَنَا على ربع عروكهم وغزولهم وعلى ربع ثمارم وكانوا يهودا^(٦) . ومع ذلك لم تستطع اليهودية أن تغلب على الوثنية في بلاد العرب ، لأن كثيراً من أحكامها مبني على المشقة ولأنها إن أباحت قتال الوثنيين — والقتال دين العربي — فإنها لا تبيح الانتفاع بغنائمهم بل تحرقها ، والعربي إنما يقاتل لينتقم من عدوه في نفسه وينتقم بماله وأهله^(٧) .

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٧ .

(٢) جرجي زيدان . تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٥ .

(٣) ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٠ — ١٩ .

(٤) اليعقوبي : تاريخه ج ١ ص ٢١٣ .

(٥) محمد نعمان الجارم : أدبيات العرب في الجاهلية ص ٢٠١ .

(٦) البلاذري : فتوح البلدان ص ٦٠ .

(٧) محمد نعمان الجارم : نفس المصدر ص ٢٠١ .

٤ - الصابئة والمجوسية والزندقة

(١) الصابئة :

ينسب الصابئة دينهم إلى سيدنا نوح وإلى إبراهيم الخليل ، بالتلقى عن نوح وعن إدريس ، ومنهم عبدة الأصنام والكواكب . ويعتقدون أن الثواب والعقاب إنما يلحق الأرواح ، وأن النبي هو البري من المذمومات ، والصابئة تمنع توريث الفاسق ويعتقدون في بعث الأرواح لا الأجسام وطهارة النفس العاصية بعد ثلاثة آلاف سنة وأن الرسل لم يبعثهم الله بل هم ملهمون من المجرذات ، وحرّموا تعذيب الحيوان وقتله إلا ما أحل أكل لحمه^(١) . وهم ينقسمون إلى كافر ومؤمن . ولذلك ذكرهم الله تعالى في الأمم الأربع ، التي تنقسم كل أمة منها إلى ناج وهالك^(٢) .

وهم يعظمون الكواكب وينقسمون في ذلك إلى ثلاث فرق : الأولى : ذهبت إلى أن الكواكب واجبة الوجود لذاتها غير محتاجة إلى محصص ، والثانية : ترى أن الكواكب آلهة ولكل منها عمل قائم به في هذا العالم يصدر عنه لا يقدر عليه غيره ، وأنها أبدية الوجود أزلية الأولية تجري أحكامها لا لثانية ، والثالثة : ترى أن لهذه الكواكب والأفلاك إلها مبدعا أعطاها قدرة وإرادة ذاتية نافذة في هذا العالم وفوض إليها تدبيره . وهذه الطوائف كان لها عصبية في بلاد العرب فدانت العرب بهذا الدين واعتنقته

(١) نعيان الجارم : أديان العرب ص ١٨٥ .

(٢) الجارم : نفس المصدر ص ١٧٦ .

وبنوا الهياكل العظيمة وقدموا لها القرابين وحجوا إليها وذبحوا لها الذبائح .
وأول من دان بهذا الدين من العرب قبائل الحيرية^(١) . ولقد كانت كفانة تعبد
القمر ، وحير الشمس ، وميسم الدبران ، ولخم وجذام المشتري ، وطىء سهيلا ،
وقيس الشعرى العبور ، وأسد عطارد . وكان بعضهم أيضا يكرم زحل والجوزاء
والجبار أو الثريا ويستدل عليه من بعض أعلامهم كعبد الثريا وعبد نجم
وعبد الجبار^(٢) .

وأخص أنواع عبادتهم للشمس ، كانت بالسجود لها عند شروقها وعند
غروبها وعند توسطها السماء ، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن صلاة
النوافل في هذه الأوقات قطعاً لمساواة الكفار ظاهراً وسداً لذريعة الشرك .
أما آثار عبادتهم للكواكب فمنها تسميتهم أنفسهم بأسماء مضافة لها بالعبودية
كعبد شمس وعبد المشتري . ومن الصابئة أخذ العرب علم النجوم واشتغلوا به
كثيراً حتى أن ابن قتيبة ذهب إلى تفضيلهم فيه عن المعجم^(٣) .
(ب) المجوسية :

تدور عقائد المجوسية على قاعدتين : أحدهما بيان سبب امتزاج النور بالظلمة ،
والثانية سبب خلاص النور من الظلمة . وهم يعتقدون بوجود فاعلين أزليين
يصدر عن أحدهما الخير وعن الثاني الشر ، فاعتقدوا بوجود إلهين : أحدهما نور
ومبدأ الخير كله ويسمونه أهورا مزدا ، والثاني ظلام ومبدأ الشر كله ويسمونه
أهرمان أو أهرمن .

ولقد تحكم سدنة هذا الدين في رقاب الناس وتصرفوا في معتقداتهم^(٤) .
وقد دخلت المجوسية بلاد العرب ، يثبت ذلك ما أورده البلاذري في « فتوح

(١) نعمان الجارم . أديان العرب ص ١٧٦ .

(٢) لويس شيخو : النصرانية وآدابها ج ١ ص ١١ .

(٣) البتوني : الرحلة الحجازية ص ١١١ .

(٤) روفائيل بابو اسحق : تاريخ نصارى العراق ص ١ — ٢ .

البلدان ، حيث قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس
هجر ومجوس أهل اليمن ، وفرض على كل من بلغ الحلم من مجوس اليمن من رجل
وامرأة ديناراً .

(ح) الزندقة :

وهؤلاء الزنادقة هم أتباع مزدك الذي خرج في أيام قباذ بن فيروز بن يزدجرد
ملك الفرس ، فدعا الناس إلى الزندقة ، فأجابه قباذ إلى ذلك ، ولم يلبث قباذ أن
دعا الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار ملك نجد إلى ذلك الدين ، فأجابه إلى
طلبه واستعمله قباذ على الحيرة وطرده المنذر من مملكته ، ويقول اليعقوبى في ذلك
« وتزندق حجر بن عمر الكندى »^(١) . وقيل إن الزندقة في العرب كانت
في قريش ، أخذوها من الحيرة^(٢) . وخلط بعض المؤرخين بين الزندقة والمجوسية
فقد جاء في « بلوغ الأرب » : أن المجوس يلقبون بالزنادقة ، لأن الكتاب
الذى زعم زرادشت أنه نزل عليه من عند الله ، سمي بالزند ، والمنسوب إليه يسمى
زندى ، ثم عُرب فقيل زنديق ثم جمع فقيل زنادقة^(٣) . على أن الزنادقة
هم أتباع مزدك ، والمجوس تختلف كل الاختلاف عن الزنادقة . وهذا يثبت عدم
صحة هذه الرواية .

ووجد كذلك بين العرب من أخذ بالمانوية ، وهؤلاء هم أصحاب ماني ابن فانك
الحكيم ، الذى ظهر في زمن سابور أردشير وقتله بهرام بن هرمز بن سابور
وذلك بعد عيسى عليه السلام . وقد أخذ ديننا بين المجوسية والنصرانية ، وكان
يقول بنبوة المسيح عليه السلام ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام^(٤) .

(١) اليعقوبى : تاريخه ج ١ ص ٢١٤ .

(٢) محي الدين الطاهر : بلوغ الأرب في مآثر العرب ص ٨٨ .

(٣) الطاهر : نفس المصدر ص ٦٩ .

(٤) ابن حزم : الملل والنحل ص ٨١ .

ولم يقدر لدين من هذه الأديان الفوز والغلبة في بلاد العرب ، وفطن
المسقفون العرب إلى سوء حالتهم الدينية ، وعمدوا إلى التخلص من الوثنية
وعبادة الأوثان وعادات الجاهلية ووأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر ،
ودعوا إلى دين توحيد جديد ، ونادوا بوجود إله واحد يحاسب ويمجزي الناس
على أعمالهم من خير وشر . وكان ضعف شأن الوثنية وانتشار الآراء المسيحية
واليهودية والمذاهب الفارسية ، مما مهد الطريق لظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

الباب الثاني

الدولة العربية

من ظهور الإسلام وسقوط الأمويين

البعثة النبوية - الخلفاء الراشدين - الدولة الأموية

أولا - البعثة النبوية

نشأة الرسول :

اختار عبد المطلب لابنه عبد الله - وكان في الرابعة والعشرين من عمره - فتاة من أسرة عريقة في الجاهلية ، هي آمنه بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، وكان وهب سيد بني زهره . وبعد أن أقام عبد الله مع زوجته في ديار أهلها ثلاثة أيام ، انتقل بها إلى منازل بني عبد المطلب ، وأقام معها أياما قليلة ، ثم خرج في تجارة إلى الشام وتركها حاملا ، ولكنه لم يعد من تلك الرحلة ، حيث مات في يثرب ودفن ، وتقدمت بآمنة أشهر الحمل ، حتى كان مولده عليه السلام في صبيحة يوم الاثنين الموافق ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ م ، وهي السنة التي يطلق عليها « عام الفيل » : وعهدت أمه إلى حليلة السعدية بإرضاعه ، فرحلت به إلى البادية حيث تقيم مع بني سعد ، وبعد أن بقى عندها خمس سنوات ردت به إلى أمه ، وبذلك نشأ محمد في جو بدوي ، وكان لذلك أثره في تعلمه لغة أهل البدو الفصححة^(١) .

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٧٣ .

ومحمد عليه السلام من قبيلة قريش ، القبيلة العربية التي ترأسها قصى ، من أبوين فقيرين فى مالهما ، غنيين فى جاهيهما وحسبهما . وقد مات أبوه قبل أن يولد ، فكفلته أمه . ولما بلغ السادسة من عمره خرجت به لتزور أخواله فى يثرب ، فمكثت هناك شهراً ، ثم عازمت على العودة إلى مكة ، وبينما هى فى الطريق توفيت . فكفله جده عبد المطلب ، ولم يمض على ذلك سنتان حتى توفى جده ، وكفله عمه أبو طالب ومحمد فى التاسعة ، وصار منذ ذلك الوقت يحنو عليه ويعنى به ويخرجه معه فى أسفاره ، وكان يجد فيه من النجابة والذكاء والبر وطيب النفس ما جعله يزداد به تعلقاً ، بذلك نشأ محمد يتيماً فقيراً ، وفى ذلك يقول تعالى (ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى)^(١) .

وكان رسول الله يرمى الغنم وهو طفل ، ثم اشتغل بالتجارة وسافر إلى الشام ، وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، جمعه بالسيدة خديجة بنت خويلد المصالح الاقتصادية ، إذ وجدت فيه الشخص الأمين على مالها وبضاعتهما ، فأرسلته مع خادمها ميسرة ليتاجر لها بالشام ، فجنى ربحاً كثيراً مما جعل السيدة خديجة تعجب بهذا الشاب الأمين ، وزاد إعجابها به أن ميسرة قص عليها من أخباره قصصاً حببتها فيه ، فرأته شاباً يختلف عن غيره من الشباب ، فهو إلى جانب طيب سمعته وقوة شخصيته ، يمتاز بجمال الخلقة وجمال النفس ووقار الشيوخ ، حتى تمت أن تزوجه . ولكن كيف السبيل إليه ، وهو الذى لم يفكر فى الزواج منها ، يمنعه فارق كبير فى السن فقد كان فى الخامسة والعشرين وهى فى الأربعين ، وفارق أكبر فى المركز الاجتماعى فقد كان فقيراً يتيماً وهى ابنة خويلد من كبار أشراف مكة وأغنيائهم .

وحارت السيدة خديجة في أمرها : تمنعها التقاليد والحياء من مكاشفة محمد بالأمر ، فأرسلت إليه صديقتها نفيسة كي تعرف دخيلة نفسه ، فسأله عن السبب الذى يمنعه من الزواج ، فاعتذر بقلة ماله ، فقالت : فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة ، ألا تجيب ؟ فسألها : مَنْ ؟ ، فقالت : خديجة ، وقبل محمد وتم الزواج^(١) . ودفع صداقه عمه أبو طالب ، وخطب خطبة أوضح فيها فضائل محمد ونبله رغم قلة ماله ، قال : الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بيتا محجوجا وبلدا حراما وجعلنا الحكم على الناس . ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخى ، من لا يوازن به فتى من قریش ، إلا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى .

عاش محمد عيشة المتعبدين ، يتردد على غار حراء على مقربة من مكة ، يتعبد فيه شهرا من السنة ويصلى لإله لا يعرفه العرب . وهكذا كانت حياته مثالا للأمانة والإخلاص ، حتى لقب بالأمين ، ووصفه ربه بأنه على خلق عظيم .

البقرة :

كان عليه الصلاة والسلام لا يعتقد فى دين أهله ، وإنما كان يتردد على غار حراء يتعبد فيه ويصلى ، وشجعتة السيدة خديجة على ذلك وكانت ترسل إليه الطعام فى الجبل ، وفى يوم الإثنين ١٧ رمضان وكان قد بلغ الأربعين من عمره ، نزل عليه الوحى ، إذ رأى جبريل الذى ظهر أمامه ، وقال له : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، فضمه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال له : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارىء ،

(١) على إبراهيم حسن : نساء لمن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٢١ — ٢٢ .

فضمه مرة ثانية وثالثة وقال له : (إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم)^(١) . فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده إلى منزله ، وقال لزوجته : زملوني زملوني (لفوني) فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، وقص على السيدة خديجة ما حدث ، فقالت له : والله ما يخرزك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتسكب المدموم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر ، ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وهو شيخ أعمى ، قد درس النصرانية ، فقال له : هذا الناموس الذى أنزله الله على موسى ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك ، قال : أوخرجنى هم ؟ قال : لم يأت رجل بمثل ما أوتيت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً . فاطمان الرسول .

وبعد فترة عاد محمد إلى الغار ، فنزل عليه جبريل مبشراً أنه رسول الله ، فرجع الرسول إلى داره وقال لزوجته : ذئرونى ، فنزلت عليه الآية (يا أيها المدثر قم فأأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر)^(٢) . ثم نزل قوله تعالى : (وأنذر عشيرتک الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين)^(٣) .

عندئذ صعد الرسول إلى جبل الصفا ، ونادى أهله وعشيرته وقال : أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم تصدقونى ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذباً قط ، قال إني نذير لكم ، بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبالك ! ألهذا جمعتنا ؟ فقال عليه السلام : ما أعلم إنسان فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى ربى

(١) سورة العلق ، آية رقم ١ — ٥ .

(٢) سورة المدثر ، آية رقم ١ — ٨ .

(٣) سورة ٢٦ آية ٢١٤ — ٢١٦ .

أن أدعوكم إليه ، فأينكم يؤازرنى على هذا الأمر يكون أخى ووصى وخليفى فيه ؟ فلم يجبه أحد ، فقال على بن أبى طالب : أنا يارسول الله عدتلك ، أنا حرب على من حاربت . فقال أبو لهب تبا لك ولمن اتبعت ^(١) . فأنزل الله قوله تعالى (تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد) ^(٢) . ثم خطب الرسول قائلا : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو ، إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ^(٣) .

أخذ الرسول عليه السلام ينشر الدعوة الإسلامية لأقرب الناس إليه : كزوجته خديجة التى كانت أول من آمن به من النساء ، وعلى بن أبى طالب ابن عم الرسول ، ومولاه زيد بن حارثة ، وأبى بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ابن عبيد الله ، وأبى عبيدة بن الجراح ، كما أسلم الأرقم بن أبى الأرقم الذى اتخذت داره مركزا لبث الدعوة الإسلامية . واستمر الرسول فى نشر الإسلام سرا بين العرب جميعا ^(٤) ، وظل على تلك الحال حوالى الثلاث سنوات حتى نزل قوله عز وجل : (فاصدع بما تؤمر به وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين) ^(٥) . فظهر رسول الله بالدعوة للإسلام ، وضدع لأمر ربه . وكان عليه أن يوجه الناس نحو عبادة إله واحد لا شريك له وهذا هو أساس الإسلام ، وأن يمتد العرب كذلك فى نبوة محمد عليه السلام وأنه مرسل من قبل الله ،

(١) الطبرى ج ١ ص ٢١٧ .

(٢) سورة المسد رقم ١١ آية ١ — ٥ .

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٢١٧ .

(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٧٠ .

(٥) سورة ١٥ ، آية رقم ٩٤ .

وأن هناك بعثاً وعقاباً وثواباً ، كما كان على الرسول أن يصلح من شأن المجتمع العربي الفاسد .

كان العرب قبل الإسلام يعبدون الأصنام في الكعبة وهي عبارة عن أحجار لا تضر ولا تنفع ، لا تروى ظمأنا ولا تشبع جائعاً ، ولا تنقى فقيراً ، ولا تسقى زرعاً . ولكنها مع ذلك كانت قبلة العرب وأساس الحياة عند قريش زعيمة العرب ، إذ كانت القرابين تقدم لهذه الأصنام التي دان لها العرب ، وفي هذا مصلحة اقتصادية ومنفعة أدبية لقريش ، فقد كانت قريش هي التي تحمي الدار ، فالقضاء على هذا الدين إنما هو قضاء على هذه المنافع وهذه الزعامة .

لذلك كانت مهمة الرسول في نشر الدين الجديد مهمة شاقة ، فقد ندد بالوثنية وبالمعتقدات التي لا تؤمن بوحداية الخالق ، أي أنه قلل من قيمة الأصنام ، ولم يكتف بهذا بل أظهر فساد نظمهم الاجتماعية . ولذا نظرت قريش إلى محمد نظرتها إلى رجل خارج على نظمها وعاداتها ، جاء يهدم أسس حياتها الاجتماعية والاقتصادية معاً . ولهذا رأت أن تقاومه مقاومة عنيفة حتى تحافظ على كيانه ، فأخذت تهزأ به وبأصحابه ، وادعت أنه شاعر ساحر ، ودعوته إنما هي محض خداع في سبيل وصوله إلى أغراضه وهي أن يكون ملوكاً على العرب .

بدأت قريش بأن بعثت إليه عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً في قومه ، فذهب إليه وهو يصلي بالمسجد وقال له يا ابن أخي : إنك منا حيث قد علمت ، من خيارنا حسباً ونسباً ، إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم . فاسمع مني ، أعرض عليك أموراً ننظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، فقال عليه السلام : يا أبا الوليد أسمع . فقال : يا ابن أخي وإن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً

ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رؤياً من الجن لا نستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه . فقال عليه السلام : لقد فرغت يا أبا الوليد ، قال : نعم . قال : فاسمع منى . بسم الله الرحمن الرحيم : (المر ، كتاب فصحت آياته قرآنك عربياً لقوم يعقلون ، بشيراً ونذيراً ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون)^(١) . وأنصت عتبة يستمع إلى أحسن الحديث حتى رجع إلى قريش قائلاً : إني سمعت قولاً ما سمعت مثله قط : واللوات ما هو بالشعر ولا هو بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش « أطيعوني واجملوها لى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فقال النضر بن الحارث : بماذا جاءنا محمد واللوات ما محمد بأحسن حديثاً منى »^(٢) . فأنزل الله قوله تعالى : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ، ويتخذها هزواً ، أولئك لهم عذاب مهين ، وإذا تتلى عليه آياتنا لى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً ، فبشره بعذاب أليم)^(٣) .

هكذا كانت مرحلة المقاومة الأولى : ولما كان ينزل آياته فيدمغ بها قول الذين كفروا ، والذين هم فى ضلالهم يعمهون . فأخذت قريش فى إيذاء الرسول وأصحابه ، فكان أبو جهل إذا سمع بإسلام رجل من ذوى الشرف أنهه وقال له « تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهم حملك ولننقلن رأيك ولنضعن شرفك »^(٤) . ويقول ابن الأثير : « إن مشركى قريش كانوا يخرجون عمار بن ياسر وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء ويعذبونهم بحرماً ، فيمر الرسول فيقول : صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة »^(٥) . وهناك من الأمثلة

(١) سورة فصلت .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٨ .

(٣) سورة لقمان .

(٤) ابن هشام ج ١ ص ٢٧٠ — ٢٩١ .

(٥) ابن الأثير ج ٢ ص ٣٠ .

مالا يدخل تحت حصر عن تعذيب قريش للمسلمين وإهاتهم وإساءتهم حتى أنهم عذبوا النساء ، ولم يقتصروا على تعذيب الرجال ، ولم يكتف السكفار بذلك بل حاولوا أيضاً الاستعانة باليهود في التقليل والخط من شأن محمد والرسالة ، ولكن الله رد كيدهم إلى نحورهم .

الهجرة الى الحبشة :

كان من أثر شدة إيذاء قريش للمسلمين أن أمرهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة ، ولم يأمرهم بالهجرة إلى أية ناحية من شبه الجزيرة العربية ، لأن القبائل العربية سوف تجامل قريشاً زعيمة العرب ، وكانت بعض البلاد العربية مثل يثرب ونجران موطناً للديانات الأخرى كالمسيحية واليهودية^(١) . كما أن هؤلاء المهاجرين كانوا يخرجون وحداناً متخفين حتى لا تشعر بهم قريش ، وقد اختار الرسول الحبشة أيضاً لما اشتهر به النجاشي من الكرم والعدل ، فهاجر عدد من المسلمين للحبشة في رجب من السنة الخامسة للنبوة . وكان عددهم في أول الأمر أحد عشر رجلاً وأربع نسوة ، ثم ازدادوا حتى بلغوا ثمانين رجلاً غير النساء والأطفال ، وكان من بينهم عثمان بن عفان وزوجته رقية^(٢) ، فأكرمهم النجاشي وأمنهم .

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٧٦ .

(٢) أنجب النبي من السيفة خديجة كل أولاده إلا إبراهيم ، وهم : رقية وأم كلثوم وفاطمة وزينب والقاسم وعبد الله . وتزوجت رقية وأم كلثوم بأدى الأمر من عتبة وعتيبة ابني عمه أبي لهب ، ولم تبق هاتان الزوجتان مع زوجيهما بعد الإسلام فتزوجهما عثمان ، الواحدة بعد الأخرى ، وحين هاجر عثمان مع الرسول إلى المدينة واشترك في الغزوات ، تخلف عن واقعة بدر ، إذ أبقاء الرسول في المدينة لتمرير رقية زوجته ، ولكن روحها فاضت والمسلمون في المعركة ، ثم زوجه ابنته أم كلثوم . ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ج ٤ ص ٢٢٣ .

كانت هجرة هؤلاء المسلمين إلى الحبشة خطوة سياسية موقفة من الرسول ، فقد ذاع بين العرب أن جماعة منهم قد فرّوا إلى الحبشة ، بدين جديد تلقوه عن محمد . فكان هذا بمثابة دعوة إلى الإسلام ، مما حدا بقريش أن ترسل عمرو بن العاص وعبد الله ابن أبي ربيعة يحملان الهدايا إلى النجاشي وبطارقته ، وقالاه ، أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت . وقد بعثنا إليك فيهم أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه .

بعث النجاشي في طلب هؤلاء المسلمين وسألم . ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟ فرد جعفر ابن أبي طالب قائلا : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونقطع الأرحام ، ونسى الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئا ، وحرّمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله ، وأن نستحل ما كنّا نستحل من الخبائث . قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك ، فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله شيء تقرّؤه على ؟ قال جعفر : نعم ، وتلا من سورة مريم إلى قوله تعالى : (فأشارت إليه ، قالوا كيف تكلم من كان في المهدي صبيا ، قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني

مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيفاً ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) .

دهش البطارقة وقالوا : هذه كلمات تصدر من النبع الذي صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح ، وقال النجاشي : إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، والله لا أسلمهم إليكم^(١) . وقد عاد هؤلاء المهاجرون إلى المدينة بعد هجرة الرسول .

مقاطعة قريش لبني هاشم :

لما عجزت قريش عن النيل من محمد ، ذهب بعضهم إلى أبي طالب قائلين له إنهم لن يصبروا على هذه الحال ، وخيروهم بين أن يمنعه عما يقول أو ينزلوه وإياه ، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ، ولكنه قال له : « يا ابن أخي ، إن قومك جادوني وقالوا لي كذا وكذا ، فابق على وعلى نفسك ولا تحملي من الأمر مالا أطيق ، فظن الرسول أن عمه خاذله ومسله وأنه ضعف عن نصرته ، فقال : والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، ما تركته »^(٢) .

أخذ الإسلام في الانتشار رغم مقاومة قريش ، وقد أعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب الذي أخذ في الصلاة جهرا عند الكعبة ، وصلى المسلمون معه ، ولم يكتف بهذا بل أخذ يناضل قريشاً ، فانفقت قريش على أن يقاطعوها بني هاشم وبني عبد المطلب مقاطعة تامة فلا يصاهروهم ولا يتاجرون معهم ، ولا يناصروهم وعلقوا صحيفة المقاطعة بالكعبة فاضطر بنو هاشم وبني المطلب

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ٢٤٧ .

إلى النزوح إلى شعب أبي طالب بشرق مكة ، وكانت قريش تظن أن هذه المقاطعة الاقتصادية الاجتماعية السياسية ستضطر بني هاشم والمطلب إلى تسليم الرسول إلى الكفار ، ولم يقفوا عند حد المقاطعة بل ازدادوا في إيذاء المسلمين بشق الوسائل ، وظل هذا الحصار حوالى الثلاث سنوات .

لكن الرسول لم يزد مع ذلك إلا اعتصاماً وتمسكاً بدين الله ، وازداد أصحابه وأتباعه تعلقاً بدين الإسلام ، بل إن هذه المقاطعة ساعدت على نشر الدعوة بين باقى أجزاء شبه الجزيرة العربية . وظل الرسول والمسلمون من خلفه يعانون آلام المقاطعة والجوع ، ولم يكن يتاح لهم الاختلاط بغيرهم من الناس إلا فى الأشهر الحرم ، حين يفد العرب إلى مكة لزيارة البيت الحرام ، حيث كان الرسول ينتهز فرصة الحج ويدعو القبائل إلى الإسلام . إلا أن طول مدة الحصار وما لاقاه المسلمون من ضيق وألم جعل أبناء عمومته وأصحابهم فى قريش يشعرون بفداحة ما ارتكبوا من إثم ضد إخوانهم . فدفعت هذه العاطفة بعض شباب قريش إلى إمداد الرسول وأتباعه بالموث والطعام سراً ، وكان فى مقدمة هؤلاء زهير بن أمية الذى طاف بالبيت سبع مرات ونادى فى الناس : يا أهل مكة ، أنا كل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكنى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة . فوافقته الأغلبية الساحقة من قريش ، وكان على رأس المعارضين أبو جهل ، وهكذا نقضت هذه الصحيفة وعاد الرسول وصحبه إلى مكة مرة أخرى^(١) ، ولكن العلاقات ظلت عدائية بين المسلمين وقريش .

وفى وسط هذه الظروف القاسية على المسلمين وعلى الرسول ، وبينما هو يناضل قريشاً وقريش تناضله وتؤذى صحبه ، إذ يأتيه خبر وفاة عمه أبى طالب^(٢) ،

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .

(٢) أبو الفداء ج ١ ص ١٢٠ .

ولم تلبث أن لحقت به السيدة خديجة زوج الرسول . فحزن عليهما الرسول أشد الحزن ^(١) . وانهزت قريش هذه المناسبة واشتدت في إيذاء الرسول وأصحابه ، ولسكن الرسول ومن حوله من المسلمين المؤمنين قابلاو الشدة بالتمسك بالدين وأهدابه .

خرج الرسول بعد ذلك إلى الطائف مستجيراً بتقييف حتى يبلغ رسالة ربه ، ولكن تقيفاً جاملت قريشاً ، فلم تستمع لدعواه بل لم تقبل أن تجبره بعد أن فقد عمه ، ولم تسكتف بذلك بل أخذ سفهاء تقييف يسيثونه ، حتى اشتد به الكرب والضيق ، ولم يجد ملاذاً إلا أن يشكو لله قائلاً : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي . إلى من تكلني ! إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحمل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضيني ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

أراد الرسول عليه السلام أن يعود إلى مكة ، ولكنه لم يتمكن من دخولها إلا بعد أن أجاره المطعم بن عدي أحد أشرف قريش . ولم يلبث الرسول قليلا بعد ذلك حتى أسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وصعد به من الصخرة المقدسة إلى سدره المنتهى وفرضت الصلوات الخمس على المسلمين في تلك

(١) توفيت السيدة خديجة في السنة العاشرة من نزول الوحي ، قبل الهجرة بثلاث سنين ، بعد وفاة أبي طالب بأيام ، وعمرها خمس وستون سنة . وكان تأثير الرسول لوفاتها بالغاً حتى لقد خيف عليه ، ولا غرو فقد ظلت أربعاً وعشرين سنة وبضعة أشهر ، لم يتزوج خلالها عليها ، وكانت أول سيدة آمنت برسالة زوجها العظيم ، ووالته بتشجيعها . فقد كان عليه السلام يخرج يبشر قومه بالإسلام فلا يزال منهم غير التكذيب والإهانة ، فيرجع إلى بيته حزينا يائسا ، فتزيل خديجة أحزانه وتدعوه إلى استمرار تحمل الأذى في سبيل دعوته . ابن سعد : الطبقات الكبيرة ج ١ ص ٤١

الليلة المباركة . ولم تصدق قريش حديث الإبراء ، بل إن بعض المسلمين لم تنسح عقولهم لتصديق مثل هذه المعجزات فارتدوا عن الإسلام . ولكن هذه الأزمات لم تزد الرسول إلا تمسكا بدين الله ومن حوله الراسخون في الإسلام ، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وحزرة ، الذين كانوا منعة للرسول وحصنا للإسلام ضد الكفار .

بيعتنا العقبة :

استمر الرسول ينتهز فرصة مواسم الحج ويعرض نفسه على القبائل ، فمنهم من كان يصدق دعواه ومنهم من كذبه ولم تطل هذه الحال كثيراً ، إذ أنه عند ما جاءت وفود الأوس والخزرج من يثرب لتتبع إلى بيت الله الحرام في السنة الحادية عشرة من البعثة واستمعوا إلى دعوته ، آمنوا به وصدقوا ، وقال بعضهم : إن هذا هو الذي قد وعدنا به اليهود ^(١) . وفي الموسم التالي للحج . التقى الرسول عند العقبة ببعض منهم فدعاهم للإسلام واستمعوا إلى آيات من القرآن الكريم ، فلقبت دعوته لديهم قبولا ورجعوا إلى يثرب حيث أخذوا يثبتون الدعوة للإسلام بين قومهم . وفي العام التالي وفد إلى مكة اثنا عشر رجلا من الأوس والخزرج وبايعوا الرسول عند العقبة ، وتعرف هذه ببيعة العقبة الأولى ، وبعث معهم الرسول عليه السلام مصعب بن عمير بن هاشم ليقرئهم القرآن ، فاختر إحدى الدور في يثرب واتخذها مركزاً للإسلام .

وفي موسم الحج التالي ، جاء من يثرب ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من الأوس والخزرج واجتمعوا بالرسول عند العقبة وبايعوه وتمهدوا له بالدفاع عنه وطلبوا منه الهجرة إلى بلدهم ، ويقول ابن اسحق : إن أبا الهيثم بن النبهان قال : يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبلا وإنا قاطموها (يعني اليهود) فهل

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣٠ — ٣٢ . الطبري ج ٢ ص ٢٣٤ .

عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فقبسهم الرسول وقال : بل الدم الدم والمدم المدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربكم وأسلم من سلمتم^(١) ، وهذه هي ما تسمى بالبيعة الكبرى أو بيعة العقبة الثانية . وإذا نظرنا إلى هذا الحلف تجد أنه يوضح لنا أن الرسول كان يريد بلداً آمناً ، يأوى إليه حتى ينشر رسالة ربه ، أما أهل يثرب فقد وجدوا في هذه البيعة حلقة سياسياً يقوى شأنهم ضد اليهود .

ولكن لماذا كان أهل يثرب أكثر تصديقا للرسول من غيرهم ، ولماذا اختار الرسول هذه البلدة مأوى وملجأ؟ نجد أن أهل يثرب كانوا يعلمون من اليهود أن هناك نبياً سيبعث ، كما أنه لم يكن هناك مصلحة اقتصادية لأهل يثرب في تمسكهم بالوثنية كقريش . وكان للنزاع بين أهل يثرب من الأوس والخزرج وبين اليهود أكبر الأثر في محالقتهم للرسول ، إذ وجدوا في ذلك فرصة لطرد اليهود من المدينة وإجلائهم عن أراضيهم التي تعد أخصب بقاع المدينة ، كما أن تزعم الرسول للمدينة يزيل ما بين العرب من الأوس والخزرج من نفور وتنازع على السلطة والنفوذ . أما من ناحية الرسول فقد كان بينه وبين أهل يثرب صلة نسب وقرابة ، فهناك بنو النجار أخوال جده عبد المطلب ، وهناك قبر أبيه الذي كانت تحج إليه السيدة آمنة بنت وهب ، وفي منتصف الطريق بين مكة والمدينة يوجد قبر أمه التي توفيت أثناء عودتها من زيارة قبر زوجها عبد الله . لهذه الأسباب مجتمعة التقت مصالح الرسول بمصالح أهل يثرب فتحالفا وتعاقدا على الإسلام وعلى التفاني في نشره ونصرته .

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٤١ — ٤٢ . الطبري ج ٢ ص ٢٣٧ — ٢٣٩ .

(م - ١٢ التاريخ الإسلامي العام)

الهجرة :

عندما علمت قريش بأمر هذه البيعة ، ذهب سفراؤها إلى المدينة ، حيث قابلوا المشركين من أهل يثرب ، فأقسموا لهم بأن شيئا من هذا لم يحدث ، ولم يشترك المسلمون في هذه المناقشات ، فانتاب قريشا الفرع والخوف وبالغت في إيذاء المسلمين .

أمر الرسول أتباعه بالهجرة إلى المدينة فبدأوا يهاجرون إليها سرا ، وحدانا وزرقات حتى لم يبق بمكة إلا الرسول وأبو بكر وعلى بن أبي طالب وبعض أقرباء النبي ، وأخذ الرسول يتأهب للهجرة ، وعندما علمت قريش ذلك ، اجتمعت في دار الندوة وتشاررت فيما تفعل فاتفقوا على قتل الرسول ، وأمروا فتيانا من بطون قريش أن يضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل ويرضى بنو هاشم بدينه^(١) ، فنزل قوله تعالى : (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)^(٢) . فخرج الرسول من داره ليلا يصاحبه أبو بكر ونام على فراشه ، وجعل النبي عليه السلام يتلو آيات من القرآن ويضع التراب على رؤوسهم ، ففشيت أبصارهم فلم يروا الرسول ، وسار الرسول وصديقه إلى غار بجيل ثور بالقرب من مكة .

ذهلت قريش من ذلك وراعها ماحدث ، فأخذت تفتق أثر الرسول وجعلت مكافأة مائة ناقة لمن يدلهم عليه أو يأتي به^(٣) . ووصلت قريش إلى الغار الذي به الرسول وصاحبه ، ولكنهم وجدوا يمامة راقدة على بيضها

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٤٥ — ٤٦

(٢) سورة الأنفال .

(٣) ابن هشام ج ٢ ص ٨٢

ووجدوا العنكبوت قد نسج نسيجه على باب الفار ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله تعالى : (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين ^(١) - إذ هما في الفار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم) ^(٢) .

أمضى الرسول ثلاث ليال في الفار ، ثم تركه إلى قباء ، فوصلها ظهر الإثنين ١٢ ربيع الأول بعد مسيرة ثمانية أيام ، وهي إحدى ضواحي المدينة . فأسس بها الرسول مسجداً وأقام بها ثلاثة أيام ، حيث لحقه على بن أبي طالب ليلاً بعد أن أدى عن الرسول ما كان للناس عنده من ودائع . ثم يم الرسول شطر المدينة يحوطه مئات المسلمين ، حتى أتى بنى سالم فصلى أول جمعة في الإسلام وخطب المسلمين ، ودخل المدينة راكباً ناقته في ١٦ ربيع الأول الموافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ م . وحاول الأنصار أن يستضيفوا الرسول عندهم ، ولكنه أمر أن تترك الناقة تسير حتى بركت أمام دار أبي أيوب الأنصاري ، فقبل به الرسول وبنى مسجد المدينة في هذا المكان كما أقام مسكنه بجواره ، ثم أرسل إلى مكة وأحضر أهل بيته .

هكذا وصل رسول الله إلى المدينة المنورة ، مهاجراً من مكة . وتعد الهجرة أول حادث تاريخي عظيم في الإسلام : فقد كانت محورا لتغيير مجرى الحوادث ، وبداية لذلك النصر العظيم الذي ناله الإسلام على الوثنية وغيرها من الديانات التي دان بها العرب ، وجعل عمر بن الخطاب هذه الحادثة بداية للتاريخ الهجري . وعدت خطوة سياسية عظيمة من الرسول ، فقد نفذ برنامجه السياسي الذي وضعه وفشلت قريش في منعه من الهجرة فخسرت بذلك خسارانا

(١) كان أبو بكر الصديق هو رفيق الرسول عليه السلام في الفار .

(٢) سورة التوبة ، آية ٤٠ .

كبيراً ، إذ أن الرسول أصبح في وسط أنصاره ومن آمنوا به ، بل أصبح في وسط قوم عاهدوه على الدفاع والنصر حتى سموا الأنصار .
بذلك انتهى هذا الدور من حياة الرسول ، وترك الكفار في مكة ليتخذ من المدينة عاصمة للإسلام ، وكان هذا الدور الأول بمثابة نضال من أجل المبدأ والعقيدة ، بل أنه كان تضحوة من الرسول والمسلمين من حوله ، فقد ضحوا بأموالهم وأولادهم وأنفسهم في سبيل نصره العقيدة التي آمنوا بها والدين الذي اعتنقوه ، وجاهدوا باذلين النفس والنفيس ، حتى كتب لهم النصر ، وكان نصراً عزيزاً .

الرسول في المدينة :

عندما وصل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة ، جمع شملها ، وألّف القرآن بين أهلها وأصبحت مقول الإسلام وملجأ للمسلمين جميعاً ، هاجر إليها المسلمون فراراً من ظلم قريش واضطهادها ، وأصبح بالمدينة عدد كبير من المهاجرين والأنصار وبجانهم اليهود من بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع .
فرأى الرسول أن يصلح من شأن المدينة وأن يتخذ الحيلة من اليهود حتى يعيش المسلمون في أمان ، فيقبل على الإسلام من ظل حتى الآن يخاف بطش قريش . فلم يكن الرسول يفكر في أن يثرى ولا أن يصبح ملكاً على المدينة كما كان يظن الكفار ، ولكنه وضع سياسته منذ البداية ورسماً على أن يبلغ رسالة ربه وينشر الإسلام بين العرب والناس أجمعين ، وما كان هذا يتأتى إلا إذا شعر المسلمون بالأمن والطمأنينة حتى يجاهدوا في سبيل الله .

شعر أهل المدينة من العرب - الأوس والخزرج - بالطمأنينة بعد هجرة الرسول إليهم ، وزال ما في نفوسهم من بغضاء وعداوة ، وأصبحوا بفضل الله إخواناً . أما اليهود ، فقد كانوا أهل نفاق وخداع ، فأراد الرسول أن يأمن

شرهم ، فمقد حلفا بين المهاجرين والأنصار وبين اليهود جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد إلى المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس . وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ولليهود دينهم والمسلمين دينهم » (١) .

بذلك آمن الرسول المسلمين وأوجد التعاون والتضامن بينهم ، وجعل لكل شخص أن يقرر الدين الذى يختاره ، وهو حر فى تفكيره ورأيه . وتعتبر هذه الوثيقة بداية عصر جديد فى التاريخ الإسلامى : فإن المسلمين قد اطمأنوا إلى دينهم ، وأما اليهود فقد عاهدوا الرسول ووقعوا على صحائف مشابهة لهذه الصحيفة . فأصبحت المدينة حراماً لأهلها يدافعون عنها ويحافظون عليها ، وبذلك أصبح اليهود متساوين مع المسلمين فى الحقوق والواجبات .

ومن أهم ما قام به الرسول فى المدينة المنورة : المؤاخاة بين المسلمين من المهاجرين والأنصار ، فقد آخى الرسول بينهم وأسكن كل مهاجر مع أحد من الأنصار حتى يبنى المهاجرون منازلهم ، وكان عليه السلام يحث المسلمين على الحبة والأخوة ، فقال فى أحد خطبه : « اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتقوه حق تقاته ، وتحابوا بروح الله بينكم » . ولم تكن أقواله تدل على المؤاخاة فحسب ، بل كانت أعماله عليه الصلاة والسلام مثلاً أعلى للإخاء والمساواة ، كان ديموقراطياً حقاً لم يفرق بين كبير وصغير ، فوضع أساس التسامح بين الناس ،

لا فرق بين مسلم وسواه ، فمن دخل في عهده فهو آمن ، ونادى في أتباعه من
أذى ذمياً فليس منا ، بل بالغ في التسامح والمساواة حتى جعل للذميين ما للمسلمين
وعليهم ما عليهم . هذه كانت سياسة الرسول في المدينة ، وهي الأساس الذي سار
عليه الخلفاء الراشدون من بعده .

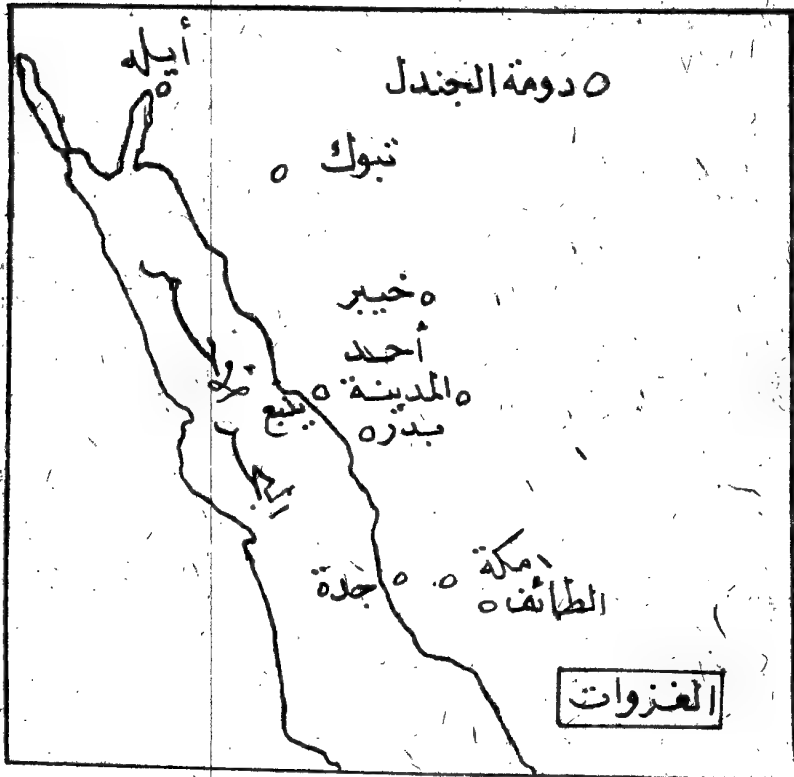
وفي وسط هذا الجو المتسامح الكريم ، ظهر فريق المناقذين يتزعمه عبد الله
ابن أبي ، وهؤلاء لم يغيروا دينهم الأول وإنما أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ،
وأخذوا يناقضون المسلمين ويخذلونهم ، حتى طلب ابن عبد الله بن أبي أن يقتل
والده بنفسه ، ولكن الرسول قال له : « بل نترقب به ونحسن صحبته
ما بقى معنا » .

بنى الرسول مسجده في المدينة ، ولم يهكن الغرض منه مجرد مكان لإقامة
الصلاة بل جملة مركزاً لبث الدعوة ونشر الإسلام ، ومكاناً يجتمع فيه المسلمون
للتشاور في أمهم ، وكان عليه السلام يستقبل فيه السفراء من قبائل العرب ،
وأصبح هذا المسجد مركز المدينة وقلبها النابض الذي يجتمع فيه المسلمون من
كافة البقاع ، فهدت الوحدة الدينية بذلك إلى الوحدة السياسية ، وأصبح
المسلمون بنعمة الله إخواناً وقوة متماسكة . وقد سادت المدينة روح الديمقراطية
الصحيحة وتلاشت الفوارق القبلية بين الناس .

وفي هذا الوقت ، تزوج الرسول من السيدة عائشة بنت أبي بكر ولما تبلغ
العاشرة إكراماً لأبي بكر صديقه الحميم ، الذي صحبه في هجرته من مكة إلى
يثرب اتقاء لأذى قريش يوم اشتد به الكرب .

الغزوات والسرايا^(١) :

عندما انتهى الرسول عليه السلام من تنظيم شئون المسلمين ، وتوثيق الروابط بينهم ، اتجه إلى الناحية الخارجية ، وهي تنظيم علاقات المسلمين مع بقية



(١) الغزوة هي التي خرج فيها الرسول مع المقاتلين ، أما السرية فهي ما لم يخرج فيها الرسول . حاشية رقم ٥ للدكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٩٠ .

أجزاء بلاد العرب . وقد كان عليه السلام في بداية أمره يعتمد على الحجّة والبرهان والإقناع في نشر الدعوة الإسلامية ، وقد اعتنق الإسلام عدد كبير من العرب خلال هذه السنوات ، رغم ما كانت تبديه قريش من مقاومة واضطهاد للمسلمين . وكان الله يحث رسوله على الصبر والثبات ويقول : (واضبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم)^(١) .

وعندما استمرت قريش في إيذاها للمسلمين ، أمر الله رسوله بالنضال في سبيل نشر الدين الإسلامي ، وأذن للمسلمين بالقتال والجهاد في سبيل الله دفاعاً عن أنفسهم ضد إيذاء الكفار (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)^(٢) ، (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوا حيث تفقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل)^(٣) ، (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم)^(٤) . وأمر الله رسوله بكسر شوكة الكفر حتى لا يخشى من يريد الإسلام على نفسه وأن يطمئن إلى سلامته ، فأمر بأن يقاتل جميع المشركين : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)^(٥) .

هكذا أمر الله المسلمين بالجهاد ، فبدأ الرسول في تنفيذ أمر ربه ، وحاول استطلاع قوة قريش . فأرسل عدة سرايا منها سرية عبد الله بن جحش في رجب سنة ١ هـ الذي نزل عند نخلة (بين مكة والطائف) ومعه ثمانية رهط من

(١) سورة الأحقاف .

(٢) سورة الحج .

(٣) سورة البقرة .

(٤) سورة الأنفال .

(٥) سورة التوبة .

المهاجرين ، وكتب له الرسول كتاباً أمره ألا يفضه إلا بعد مسيرة يومين ، وعند ما فتح عبد الله بن جحش الكتاب وجد فيه : « إذا نظرت في كتابي هذا ، فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا ، وتعلم لنا من أخبارهم » ^(١) . وعندما مرت قافلة لقريش بهؤلاء المسلمين ، اعترضوها وأسروا منها عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وقدموا بهما وبالعير على الرسول بالمدينة ، فقال لهم الرسول عليه السلام : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » ، فأسقط في أيديهم وظنوا أنهم خالفوا تعاليم الإسلام . واتهموا الكفار هذه الفرصة واتهموا المسلمين بالقتال في الشهر الحرام مع حرمة هذا العمل ، ولكن الله تعالى أنزل قوله : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) ^(٢) ، فكانت هذه الآية إيذانا بقتال المشركين في أى وقت والجهاد في سبيل الله ومقاتلة الكفار حينما وجدوا .

ولا شك أن حكمة تشريع القتال للمسلمين كانت لها أغراض عديدة : فالكفار يتربصون الفرص بالمسلمين ، ويحاولون جردهم أن يقضوا على محمد وأتباعه ، وكان المسلمون بذلك معرضين لخطر كبير ، فكان عليهم أن يتخذوا الحيطة ويستعدوا للدفاع عن أنفسهم —هم ضد الكفار ، وكان لا بد لهم أن يلتقوا مع قريش في موقعة فاصلة حتى ينتهى ما بينهم . وفوق ذلك كله كان على محمد أن يبلغ رسالة ربه بالحجة أولا ثم القضاء على الكفار إن لم يقتنعوا بالحجة والبرهان ^(٣)

(١) الطبرى ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٢) سورة البقرة .

(٣) حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن : النظام الإسلامية ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

غزوة بدر سنة ٢ هـ

في رمضان سنة ٢ هـ نذب الرسول نقرأ من المسلمين لاعتراض قافلة قریش وهى قادمة من الشام ، فاستنجد أبو سفیان رئیس القافلة بقریش ثم غیر الطريق الذى اعتاد أن یسلكه ، وسار بجانب ساحل البحر وتسلل إلى مكة دون أن یفقد من تجارتہ شیئا . وعندما علمت قریش بذلك خرج عدد كبير منهم یتراوح بین تسعمائة وألف ، وكان بینهم العباس بن عبد المطلب عم الرسول وأبو جهل ، وخرج رسول الله فی ثلثمائة وأربعة عشر رجلا وأمامهم فی مسیرهم رایتان سوداوان . وعندما وجد المسلمون أن عدد قریش یرید عنهم كثيرا ، حاول بعضهم التراجع ، فنزل قوله تعالى : (وإذ یعدکم الله لإحدى الطائفتین أنها لکم وتودون أن غیر ذات الشوكة تكون لکم ، ویرید الله أن یحق الحق بکلماته ویقطع دابر الیکافرین)^(١) . أما قریش فکادت تنقسم إلى فریقین : فریق یرید الرجوع مادامت التجارة قد نجحت ، وفریق — یقوده أبو جهل — یرید الحرب ، ونزل هذا الفریق الأخير عند بدر خلف کثیر من الرمال ، كما بادر المسلمون إلى ماء بدر فنزلوا عنده .

بدأت الموقعة على شکل مبارزة فردیة ، ثم التقى الفریقان فی صبیحة يوم الجمعة ١٧ رمضان ، وكان الرسول یحث المؤمنین على الجهاد ویحرضهم على القتال فی سبیل الله ، وكان لوجود الرسول علیه السلام بین صفوف المقاتلین أعظم الأثر فی تقوية روحهم المعنویة وشحذ عزائمهم ، حملوا على الکفار حملة صادقة وأمدهم الله بمجنود من عنده ، ونزلت الآية الکريمة : (إذ تستفتینون ربکم فاستجاب لکم أنى مدمکم بألف من الملائكة مردفین)^(٢) . وانجلى

(١) سورة الأنفال .

(٢) سورة الأنفال .

هذه المعركة عن قتل سبعين من الكفار واستشهاد أربعة عشر مسلماً^(١) ، كما نزلت في تلك المعركة الآية الكريمة : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون)^(٢) .

كانت هذه المعركة أولى معارك الجهاد في سبيل نشر الإسلام ، وكانت ضربة قاصمة لمكانة قريش ، فقد رأى الكفار مبلغ استمسك المؤمنين بدينهم في سبيل الجهاد ، ومقدار تقانيمهم في الذود عن الإسلام ، وأطلق المسلمون على هذه الغزوة غزوة الفرقان لأن الله قد فرق فيها بين الحق والباطل . ولقد تأثرت قريش بهذه الهزيمة ، فقد قتل فيها كبارها وكسرت شوكتها ، بل ضاعت هيبتها بين العرب . ولذلك صممت على الأخذ بثأرها ، فرصدت أموال القافلة للانتقام من محمد وأتباعه .

وفي هذه الغزوة نزلت عدة آيات قرآنية توضح للرسول كيفية معاملة الأسرى وكيفية اقتسام الغنائم . فقد اختلف المسلمون ، كلٌّ يحاول أن يستولى على ما جمعه من الأسلاب ، فنزلت الآية الكريمة موضحة ذلك : (واعملوا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة ، وللرسول ، ولذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . والله على كل شيء قدير)^(٣) .

ولقد ازدادت قوة المسلمين في المدينة بعد انتصارهم في هذه الغزوة ، وأحسن غير المسلمين في المدينة من الكفار واليهود بقوة الإسلام ، وابتدأوا يأتون بالرسول وبالمسلمين ، وقام شعراؤهم ينددون بالمسلمين ويكيدون لهم ، وكان الرسول

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٩٦ — ٢٣٠ ، الطبري ج ٢ ص ٢٦٧ — ٢٩٧ .

(٢) سورة الأنفال .

(٣) سورة الأنفال .

على علم بكل هذه الأعمال ، فأخذ يحتاط من الكفار واليهود حتى تمكن في نهاية الأمر من القضاء على المشركين جميعا .

غزوة أُحُد (سنة ٥٣) :

لم تهدأ قريش ولم تستقر بعد هزيمتها في بدر ، ووطدت العزم على الانتقام من الرسول والمسلمين ، وجمع أبو سفيان حوالي ثلاثة آلاف من الكفار والمشركين والأحابيش وصار متجها إلى المدينة ، وخرجت معهم نساؤهم . ولما علم الرسول عليه الصلاة والسلام بمسير قريش استشار أصحابه : فأشار بعضهم بالاعتصام بالمدينة وكان هذا من رأى الرسول ، وقال بعضهم بالخروج لملاقاة قريش ، وانضم الصحابة إلى الرأى الأول لما كان للمدينة المنورة من مناعة وحصانة ، وعندما استشار الرسول عبد الله بن أبي بن سلول رأى البقاء في المدينة ، ولكن الرسول عليه السلام قرر الخروج من المدينة وملاقاة قريش بعيداً عنها . وسار الرسول وقت السحر من ليلة السبت في منتصف شعبان سنة ٥٣ هـ في ألف من المسلمين ، وبعد أن تقدم المسلمون مرحلة كبيرة من الطريق ، رجع عبد الله بن أبي بثلث الجيش ، وقال : عصاني واتبع الولدان ، وكادت تحل الفتنة بين المسلمين ، فنزل قوله تعالى : (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم ، إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون)^(١) .

وعندما وصل الرسول عليه السلام إلى جبل أحد نصب معسكره على سطح الجبل المواجه للمدينة ، وكانت قريش في أسفل الجبل ، وهنا تظهر عبقرية الرسول الحربية ، فقد حصن مواقع جيشه ، واحتوى بالجبل ووضع الرماة في أعلاه ليحموا ظهر الجيش ، وأوصى عليه السلام الرماة ألا يتخلوا

عن مواقعهم ، سواء انتصر المسلمون أو انهزموا . وبدأت المعركة على عادة العرب بالمبارزة ، وتزعم المشركين أبو سفيان بن حرب ، كما كان على رأس فرسانهم خالد بن الوليد ، ثم دارت رحى الحرب فاتتصر المسلمون بادية ذى بدء ، إلا أنهم عند مارأوا تقهقر الكفار لم يتذكر الرماة نصيحة الرسول بالبقاء في أماكنهم ، فتغلوا عنها وأسرعوا يجمعون الأسلاب والنفائس ، وانتهر خالد بن الوليد هذه الفرصة واستولى على موقع الرماة وأثنى ظهور المسلمين من خلفهم ، فاختلط الأمر على المسلمين واضطربت أحوالهم واختل نظامهم ، ثم صاح ابن قتيبة المشرك قائلاً : ألا إن محمداً قد قتل ، فتخاذل المسلمون ودب اليأس في قلوبهم ، ولكن المؤمنين وعلى رأسهم أنس بن النضر صاح يقول : « ماذا تصنعون بالحياة من بعده ؟ فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، والتف الصحابة حول الرسول يصدون عنه مهام المشركين ، وكان على رأسهم طلحة بن عبيد الله الذي تلقى حوالى الأربعين سهماً والذي قال فيه رسول الله : من سره أن ينظر إلى رجل يمشى على الأرض قد قضى نجبته فليتنظر إلى طلحة^(١) . وهكذا استقبل كثير من المسلمين في الدفاع عن الرسول ، وشج رأس الرسول وكسرت ربايعيته . وانخدع الكفار بموته عليه السلام ، ووقفت المعركة واستشهد من المسلمين حوالى السبعين رجلاً ، وقد مثلت نساء الكفار بحث المسلمين ، حتى أن هنداً بنت عتبة زوجة أبي سفيان بقرت بطن حمزة عم الرسول وأخذت كبده فلا كتبها حتى إذا عجزت عن أكلها لفظتها^(٢) .

وبعد ذلك عاد الرسول إلى المدينة ، وكان هذا أول هزيمة منى بها المسلمون ،

(١) الطبرى : الرياض النضرة في مناقب العشرة ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٢) السيدة هتم ، بنت عتبة بن ربيعة بن شمس بن مناف ، وهي زوجة أبي سفيان ابن حرب . ويرتبط تاريخ هند ارتباطاً وثيقاً بفزوة أحد ، إذ أنها عمدت خلالها إلى إيذاء المدافعين عن الإسلام ، لأنها وزوجها أبا سفيان وابنها يزيد وأخاه معاوية لم يسلموا إلا يوم فتح مكة .

إلا أنها كانت درساً قاسياً عليهم كيف يحافظون على مواقفهم ولا ينصرفون إلى جمع الأسلاب ، كما أن هذه الغزوة كشفت عن المنافقين الذين ظهر السرور على وجوههم مثلهم مثل المشركين واليهود .

غزوة الأعراب (الختي) سنة ٥ هـ :

فكرت قريش بعد انتصارها في أحد ، في القضاء على محمد قضاء نهائياً ، حتى تتخلص من المسلمين وتستعيد هيبتها ، وانتهزت القبائل الأخرى هذه الفرصة ، فأخذت تعتدى على المسلمين حيناً وجدوا مجاملة لقريش وانتقاماً لدينها الوثني ، أما الرسول فإنه عندما وجد من اليهود نقضهم للمعاهدة بدأ في طردهم من المدينة^(١) ، فلجأوا إلى خيبر حيث أخذوا يحرضون الكفار من قريش وغيرهم ضد الرسول ، واتفقت القبائل العربية واليهود من بني النضير على المسير للقضاء على محمد . وعند ما علم الرسول بمسيرهم استشار أصحابه فيما يفعل ، فأشاروا عليه بمحفر خندق حول المدينة يحميها من قريش ، وكان الرسول يعمل في حفر الخندق بنفسه ، وكان هذا الخندق في شمال المدينة المنورة لأن باقي جهاتها كان محصناً بالنخيل والمنازل . وعند ما أقبلت قريش والأعراب وكان عددهم يربو على العشرة آلاف ، وقف المسلمون في ثلاثة آلاف ، ووُضع النساء والأولاد في الحصون ، والخندق يفصل بينهم وبين المشركين^(٢) .

وفي أثناء ذلك نقض بنو قريظة عهدهم مع الرسول واشتد كرب المسلمين ، وظهر كثير من المنافقين الذين كان إسلامهم ضعيفاً ، واستمر حصار الكفار للمدينة شهراً كان الرسول فيه يوصي المسلمين بالصبر ويخفف من آلامهم ، وحاول الرسول أن يفاوض غطفان ليصرفهم عن قريش فيضعف بذلك من

(١) سيأتي تفصيل الكلام على النزاع بين المسلمين واليهود فيما بعد .

(٢) تاريخ البعقوني ج ٣ ص ٥٠ — ٥٩ .

قوة الكفار . وفي خلال ذلك جاء نعيم بن مسعود إلى الرسول مسلماً ، وعرض على الرسول أن يؤدي أية خدمة للإسلام ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : خذ عنا فإن الحرب خدعة ، فذهب نعيم إلى بني قريظة ولم يكونوا قد علموا بإسلامه وأخبرهم أن قريشاً سوف تتركهم تحت رحمة الرسول وعليهم أن يأخذوا رهائن منهم ، ثم جاء إلى الكفار وأخبرهم أن بني قريظة ندموا على نقضهم عهدهم مع الرسول وأنها سيطلبون منهم الرهائن لإعطائها إلى الرسول . وعندما طلبت قريش من بني قريظة أن تنفي بوعدها ، قال اليهود إنهم لا يجارون يوم السبت وطلبوا من قريش إعطاءهم رهائن ، فتأكدت قريش من صدق كلام نعيم وثبت لها خيانة بني قريظة ، ثم هبت ريح صرصر عاتية اقتلعت أوتاد خيام الكفار ، فقرر الكفار الرحيل ، وبذلك نجت منهم المدينة^(١) .

هكذا ظهرت عبقرية الرسول العسكرية مرة أخرى ، فلم يكن العرب يعرفون حفر الخنادق قبل ذلك العهد ، حتى إن قريشاً عندما رأيت الخندق قالت : « والله إن هذه المكيدة ما كانت العرب تكيدها »^(٢) ، كما أن مقدرة الرسول السياسية ظهرت في مفاوضة غطفان ووعدهم بثلاث غلة المدينة إن هم تخلوا عن قريش ، ثم رجع الرسول عن المفاوضة فظننت غطفان أن مركز الرسول قد تحسن ، كما أن ما قام به نعيم بن مسعود كان له أكبر الأثر في تخليص المسلمين من مأزقهم الحرج . أضف إلى ذلك ما أبداه الرسول من صبر وما ضربه من مثل عليا في المحافظة على الروح المعنوية بين المسلمين ، ثم انتقم الرسول أشد الانتقام من بني قريظة . وخرج بعد ذلك لقتال بني المصطلق الذين كانوا يضررون له العداء فهزمهم ، ثم تزوج من جويرة بنت الحارث بنت سيد بني المصطلق حتى لا ينضم إليها فلول قومها فتكون سبباً في قيام نزاع جديد بين المسلمين وبني المصطلق ،

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٩٨ .

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٧٨ .

وأعتنق المسلمون أقباءها من الأسرى ، إكراماً لها لزواجها من رسول الله ^(١) .
وفي أثناء عودة الرسول إلى المدينة حدث ما يسمى بحادثة الإفك . ذلك
أن السيدة عائشة تركت هودجها باحثة عن عقدها الذي فقدته ، ولما عادت
كانت القافلة قد رحلت دون أن يشعر الركب بتخليقها ، وظلت عائشة وحيدة
في ذلك الطريق القفر حتى وجدها صفوان بن المعطل وأوصلها إلى منزلها ^(٢) .
إلا أن حاسدات عائشة وأعداء النبي اختلقوا الإشاعات غير البريئة حول ذلك
الحادث العارض فتأذى النبي ، وجأى زوجته عائشة ، إلى أن أوحى له الله
ببرائها ^(٣) ، ونزلت الآية الكريمة (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ،
لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لعل امرئ منهم ما اكتسب من
الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) ^(٤) ، ثم نزلت آية أخرى تدافع
عن المحصنات ، (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم
ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون) ^(٥) .

صلح الحديبية (سنة ٦ هـ) :

في السنة السادسة للهجرة ، خرج الرسول للعمرة ^(٦) في ألف وأربعمائة من
المسلمين ، ولكن قريشا وقفت في الطريق ، فندب الرسول عليه السلام ،
عثمان بن عفان لمفاوضة قريش واستطلاع أخبارهم ، فحجزته عندها ، وشاع
بين المسلمين أنه قتل ، فتأهبوا لقتال قريش وبايعوا رسول الله بيعة الرضوان

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٢٥ . الطبري ج ٣ ص ٦٣ — ٦٦ .

(٢) على إبراهيم حسن : نساء لمن في التاريخ الإسلامي نصيب ص ٣٢ — ٣٣ .

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٣٤٢ — ٣٤٣ .

(٤) سورة النور .

(٥) سورة النور .

(٦) العمرة : زيارة بيت الله الحرام في غير موسم الحج . حسن إبراهيم حسن : تاريخ

الإسلام السياسي ج ١ ص ١٠٤ .

وقال عليه السلام « لا نبرح حتى تنأحر القوم » ونزل قوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً)^(١) . وبينما المسلمون على استعداد للقتال ، علموا أن عثمان لم يقتل ، وجاء عثمان إلى المسلمين وأبلغ الرسول أن قريشا تطلب رجوعه هذا العام ، ثم أوفدت قريش سهيل بن عمرو لمفاوضة الرسول ، وتم بين الرسول وسهيل الاتفاق الآتى ، وهو المعروف بصلح الحديبية : —

- ١ — أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين لمدة عشر سنوات .
- ٢ — أن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلماً بدون إذن وليه .
- ٣ — لا تلزم قريش برد من يأتى إليها من عند محمد .
- ٤ — من أحب الدخول في عقد قريش وعهدا فله ذلك ، ومن أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه .
- ٥ — أن يرجع الرسول هذا العام من غير عمرة ، على أن يأتى في العام التالى فيدخل مكة مع أصحابه بعد أن تخرج منها قريش ويقيم فيها ثلاثة أيام وليس معهم من السلاح إلا السيوف .

وعندما فرغ الرسول من عقد صلح الحديبية ، رأى المسلمون أن فيه تشاهلاً كبيراً من ناحية الرسول وتشدداً من ناحية قريش ، فقام عمر بن الخطاب وقال للرسول عليه السلام : ألبست رسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعني^(٢) . ثم قال الرسول لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا فلم يقم منهم

(١) سورة الفتح .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٧٩ .

أحد حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد قام الرسول فدخل على أم سلمة^(١) وذكر لها مالتى من الناس وما كان من مخالفتهم لأمره ، فقالت له : يا نبي الله أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تفجر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك ، فقام الرسول ولم يكلم أحداً منهم كلمة حتى نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأى المسلمون ذلك قاموا فنفحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً^(٢) . وهكذا ضربت أم سلمة مثلاً أعلى في أصالة الرأي وبعد النظر ، وتفادت فتنة كاد الشيطان يفلح في تغذيتها ، لولا حكمة أم سلمة وتمسكها بدينها وبعد نظرها^(٣) .

ولقد كان الرسول سياسياً بعيد النظر في عقده هذا الصلح : إذ أنه أمن جانب قريش لمدة عشر سنوات ، أخذ في أثنائها ينشر الدعوة الإسلامية في بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية . وكان عليه السلام عبقرى في قبوله بعض شروط الصلح ليقينه بأنه إذا ذهب مسلم إلى قريش ليرتد عن دينه فإن الإسلام غنى عنه ، ولأنه لم يكن يهتم بدخول أفراد من قبيلة قريش في الإسلام لأن الدين عقيدة خافية في النفس لا تستطیع القوة منعهما ولأن الرسول اتجه نحو نشر الإسلام بين القبائل الأخرى تاركاً قريش جانباً بعدما أشعرها بقوة

(١) تعد أم سلمة من أشرف نساء العرب نساء وأكرمهن أصلاً . فهي زوجة رجل من المسلمين المجاهدين يدعى أبا سلمة ، وكان لها منه أبناء عدة . وشهد هذا الرجل غزوة أحد وجرح فيها ثم برى من جرحه فأرسله النبي عليه السلام لمحاربة بني أسد فهزمهم وعاد الرسول منتصراً ، وبما لبث أن عاوده جرحه القديم وما زال به حتى قضى عليه وحضره رسول الله عليه السلام وهو على فراش الموت . وظل إلى جانبه يدعو له بالخير حتى فاضت روحه . ومرت بعد هذا أربعة أشهر خطب بعدها رسول الله أم سلمة لنفسه ، فاعتذرت بكثرة العيال وبخطيئها سن الشباب ، ولكن الرسول ، ما زال بها حتى تزوج منها . وامتد العمر بأم سلمة حتى عهد يزيد بن معاوية في الدولة الأموية ، فشهدت الكثير من حوادث المسلمين وحضرت بعض وقائعهم .

(٢) الطبري ج ٢ ص ٨٠ .

(٣) على إبراهيم حسن : نساء لمن في التاريخ الإسلامي نديب ص ٣٨ .

المسلمين ومقدرتهم العسكرية ، وعندما بدأ الرسول في سيره راجعا إلى المدينة المنورة نزلت سورة الفتح : (إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا) . بذلك اعتبر صلح الحديبية نصرا جديداً وفتحاً مبيناً في الإسلام ودل على مقدرة الرسول السياسية ، إذ أن هذه أول مرة تعترف فيها قريش بالرسول ، كما أنها بسماحها للرسول بزيارة مكة في العام التالي إنما كان اعترافاً منها بكيان المسلمين باعتبارهم قوة ذات خطر بعد أن كانوا يعذبون ويشردون .

بين الرسول واليهود :

عند هجرة محمد عليه السلام إلى المدينة ، عقد مع اليهود محالفة تنص على أن يتفق اليهود مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليتهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، وأنه لا يخرج منهم أحداً إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم . وأن من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته^(١) . بذلك شرط الرسول عليه السلام لجماعة اليهود المساواة مع المسلمين من حيث المصلحة العامة ما داموا محافظين على العهد والمواثيق ، كما فتح الطريق لمن يرغب منهم في اعتناق دين الإسلام ، وكفل لهم التمتع بجميع الحقوق التي يتمتع بها كافة المسلمين . وكان بالمدينة من اليهود بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ، كل منهم يعيش في بقعة من أخصب بقاع المدينة . ورغم ما عاملهم به الرسول من رفق ولين ، فإنهم دأبوا على نقض العهد : لأنهم كانوا ينظرون إلى دعوة الرسول بين الشك والريبة ، بل لأنهم كانوا يصرحون بالشك في رسالة النبي لأنه من سلالة عربية والنبوّة لا تظهر إلا فيهم ، كما أن الأديان السماوية نزلت في بلاد الشام وليس

في بلاد العرب . وصاروا يهاجمون دعوة الرسول ، ويقتلون من أهميتها
ويتشككون في قيمتها حتى قال الله تعالى : (بثأما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا
بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده)^(١) .

ولم يكتف اليهود بمهاجمة دعوة الرسول عليه السلام ، بل إنهم أخذوا
يذكرون بثأرم القديم ، وبما كان بينهم من نزاع وقتال ، وبما كان بين الأوس
والخزرج من تشاحن وبغضاء ، وحينما وقعت موقعة بدر ، انضم بنو قينقاع
إلى الكفار من قريش ونقضوا عهدهم مع الرسول مؤملين في نصرة الكفار ،
ولكن عندما نصر الله الإسلام وأعز المسلمين وهزمت قريش في بدر رجع
الرسول عليه السلام إلى المدينة ، واليهود مازالوا يذكرون قتلى الكفار ويعرضون
بالمسلمين . ولم يكن لقبيلة بنى قينقاع من حصون أو معاقل تحتمى بها بل كانت
لهم بساتين وأشجار ، وكان كلما عاتبهم الرسول قالوا له : « لا يفرنك يا محمد
أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبحت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك
لتعلمن إنا نحن الناس » . ولما لم يجد الرسول بدا من إجلاء هذه القبيلة عن المدينة ،
حاصرهم قرابة نصف الشهر حتى رضخوا لأمره ، وعند ما شفع فيهم عبد الله
ابن أبي ، قبل الرسول عليه السلام شفاعته ، وأمرهم بمغادرة المدينة ، فأذعنوا
لأمره ورحلوا عنها تاركين وراءهم سلاحهم وأموالهم ، واتجهوا إلى أذرعات
بالشام . وهكذا خلت المدينة من اليهود لأن بنى النضير وبنى قريظة كانوا بظاهر
المدينة ، فتمت بذلك الوحدة السياسية للمدينة .

أما بنو النضير فقد ساءت العلاقة بينهم وبين المسلمين عقب غزوة أحد ،
إذ أن الرسول كان قد أوفد أربعين رجلاً من الأنصار ويسمون بالقراء لنشر
الإسلام في نجد ، وأمر عليهم المنذر بن عمرو فتمزقوا عند بئر معونة في أثناء

سيرهم ، وكان هذا البئر لبني عامر ، وأرسل المنذر حرام بن ملحان إلى عامر ابن العطفيل بكتاب رسول الله فقتله عامر ، ثم استعان ببني سليم لمقاتلة القراء فلم ينج منهم إلا عمرو بن أمية^(١) ، وفي أثناء رجوع عمرو إلى المدينة قابله في الطريق رجلان من بني عامر ، كان الرسول قد أعطاهما جواراً وأماناً ، ولكن عمرو بن أمية قتلتهما انتقاماً لقتل المسلمين . ولما علم الرسول بذلك قال لعمرو : « بئس ما صنعت ، قتلت رجلين كان لهما في أمان وجوار » . وأرسل عامر بن العطفيل يطلب دية هذين الرجلين ، فذهب الرسول ومعه كبار الصحابة إلى بني النضير يستعين بهم في دفع دية هذين الرجلين ، لأن بني النضير كانوا حلفاء بني عامر فقابلوه بترحاب وبشر . وبينما كان الرسول جالساً تحت جدار أحد المنازل ، إذ خلا اليهود بعضهم إلى بعض وقالوا : ألا من رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه حجراً فيريحنا منه ؟ فقال عمرو ابن جحاش : أنا لذلك ثم صعد ليلقى بالحجر على الرسول ، فأعلم الله رسوله بما ياتر له اليهود ، فقام من فوره ورجع إلى المدينة تاركاً أصحابه ولم يخبر أحداً منهم ، وعندما استبطنأ الصحابة هودة الرسول ، قاموا ولحقوا به بالمسجد في المدينة ، فأخبرهم بما رآه من أمر اليهود ، وبعث الرسول إلى اليهود محمد بن مسلمة ، وقال له : اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم : إن رسول الله أرسلني إليكم أن أخرجوا من بلادى . لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما همتم به من القدر بى . لقد اجلستمكم عشرا ، فمن رُئى بعد ذلك ضربت عنقه . فبدأ اليهود يجهزون لرحيلهم . ولكن رأس النفاق عبد الله بن أبى أرسل لليهود يقول لهم : لا تخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا في حصونكم ، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصونكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يصلوا إليكم . وتساورت بنو النضير في قول ابن أبى ، فأرسل حيي بن أخطب

زعيمهم إلى الرسول يقول له : إنا لن نخرج من ديارنا وأموالنا ، فاصنع ما بدا لك .
ومرت الأيام العشرة دون أن تخرج بنو النضير من المدينة فحاصرهم الرسول
وحاربهم عشرين ليلة وأمر بتحريق نخيلهم حتى تفل عزيمتهم عن القتال
استمساكا بأموالهم ، وفي ذلك نزلت الآية الكريمة : (ما قطعتم من لينة
أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين)^(١) .

لما يئس اليهود من القتال طلبوا العفو من الرسول وجلوا عن المدينة ،
وقسم الرسول أموالهم على المسلمين^(٢) . ونزلت الآية الكريمة في ذكر المنافقين
وجلاء بنى النضير : (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا
من أهل الكتاب ، لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ،
ولئن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ، لئن أخرجوا لا يخرجون
معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصرهم ليؤلن الأديار ثم لا ينصرون
لأنتم أشد رهبة في قلوبهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون)^(٣) . وهكذا
استراحت المدينة المنورة من بنى النضير ، كما استراحت من قبل بجلاء بنى قينقاع
ولم يبق بالمدينة إلا بنو قريظة .

وعندما وقعت غزوة الأحزاب ، رأى الرسول أن بنى قريظة نقضوا
عهده ونكثوا بالآيمان ، فعزم على طردهم . فلم تكد الأحزاب تجلوا عن المدينة
حتى أمر الرسول عليه السلام مؤذنا أن يؤذن : من كان سميعا مطيعا فلا يصلين
المعصر إلا ببني قريظة ، فتلاحق المسلمون وخرج على بن أبي طالب بالراية ، وحاصرهم
الرسول خمسة وعشرين يوما ، حتى خضعوا لأمره ، ونزلوا على حكمه ، وسأل
بنو قريظة حلفاءهم الأوس أن يتشفعوا لهم لدى الرسول ، فقال الأوس للرسول :

(١) سورة الحشر .

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٥١ .

(٣) سورة الحشر .

يا رسول الله : إنهم كانوا موالينا ، فقال الرسول : ألا ترضون بامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ بلى ، قال : فذاك إلى سعد بن معاذ ، فلما جاء سعد ، قالوا له : يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم . فأخذ سعد عهد الله وميثاقه على الفريقين إن الحكم فيهم لما حكم ، فأجابوه وأجاباه الرسول : أن نعم ، قال سعد : فإني أحكم بأن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبي الذراري والنساء ، فقال له رسول الله : لقد حكمت بحكم الله ، ثم حفرت الخنادق ، وضرب المسلمون أعناق اليهود جميعا وكانوا نجوا من سبعمائة ، ولم تقتل من نسايتهم إلا امرأة واحدة تسمى بنانة زوجة الحكم القرظي لقتلها خلاد بن سويد برحى طرحتها عليه ، فمات فقتلتها الرسول^(١) ، وقسمت أموال اليهود بين المسلمين .

غزوة خيبر (سنة ٧ هـ) :

لم يأمن الرسول شر اليهود بعد خروجهم من المدينة ، ذلك أن اليهود اجتمعوا في خيبر بعد خروجهم من المدينة ، وانضمت إليهم قبائل بني قينقاع والنضير وقرروا أن يغيروا على المدينة لمداومة المسلمين . وكان يتزعم اليهود ، يهود خيبر وفدك وتيما ووادى القرى . وعندما علم الرسول عليه السلام بذلك ، رأى أن يهاجم اليهود في عقر دارهم ، واستعد لغزومهم في السنة السابعة من الهجرة . وأمر أصحابه أن يستعدوا لغزو اليهود لإجلالهم عن شبه الجزيرة العربية جمعا ، وأمر ألا يخرج معهم إلا كل راغب في الجهاد ، وسار بجيش المسلمين حتى وصل خيبر ليلا^(٢) ، وكان اليهود في هذه الفترة يقيمون داخل حصونهم ومعاقلهم . وعندما أصبح الصباح ، وبدأ اليهود يقاهبون لعملهم ، فاجأهم المسلمون واضطرب اليهود فولى فريق منهم هاربا^(٣) . ثم دارت معركة حامية

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٩٠ . الطبري ج ٣ ص ٥٩ .

(٢) الترمذى ص ١٩٨ .

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ١٧١ .

بين اليهود والمسلمين ، يدفع المسلمين لقتال حب الجهاد في سبيل الله والقضاء على معقل اليهود الأخير ، ويدفع اليهود إليه حب العيش والبقاء . ولم يكن اليهود يتحركون حصنا من حصونهم إلا بعد دفاع مستميت ، وكان منهم مرحب اليهودي الذي أخذ ينشد :

قد علمت خيبر أتى مرحبُ شاكي السلاح بطل مجربُ
أطعن أحيانا وحيناً أضرب إذا الليوث أقبلت تحرب
إن حماي لمي لا يُقربُ يحجمُ عن صولتي المجرّبُ

فانبرى له محمد بن مسلمة وقتله ، وظلت المعركة سجالا بين الفريقين حين اتصهر المسلمون في النهاية واستولوا على أرض خيبر ، وبذلك قضى رسول الله على شر اليهود في بلاد العرب وسمح لبعضهم بالبقاء في خيبر ، إذ أنهم سألوا رسول الله أن يبيحهم في أرضهم لزراعتها لأنهم أعلم بها وأمر لها ، فقبل الرسول وسمح لهم باستقلالها على أن يكون للمسلمين نصف غلتها .

هكذا تخلص الرسول من اليهود . وتظهر هنا حكمة الرسول السياسية وبعد نظره الاقتصادي ، فإن بعض أراضي اليهود قد فتحت عنوة وبعضها قد فتح صلحا ، فأما النوع الأول فقد أصبح ملكا للمسلمين ، أما النوع الثاني فقد رضى الرسول ببقائه في أيدي أصحابه إذ فيه مصلحته ومصلحة المسلمين لأن المسلمين لم يكن بينهم عدد كاف للزراعة والحرب فبقاء هذه الأرض في أيدي اليهود يوفر كثيراً من المسلمين لأعمال الحرب والجهاد . وقد ظل اليهود في هذه الأرض حتى جاء الخليفة عمر بن الخطاب فأجلام عن أراضيهم ، قائلا إن الرسول عليه السلام قال : لا يجتمع في جزيرة العرب دينان ، وأعطى اليهود عوضا عن هذه الأراضي أرضا في بلاد الشام ، وكان الرسول عليه السلام يرسل المندوبين لجمع المحصول من هذه المستعمرات ، وبذلك تمكن عليه الصلاة والسلام من تعمير الإسلام في شبه الجزيرة العربية كلها ولم يبق بها إلا مكة والطائف .

رسول محمد عليه السلام إلى الملوك :

اتهمز الرسول فرصة الهدنة مع قريش وأخذ في إرسال الرسل والخطابات إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام والاهتداء بنوره ، والابتعاد عن الوثنية وغيرها من الديانات . فأرسل دحية بن خليفة الكلبي رسالة إلى هرقل فتقبلها هرقل قبولاً حسناً ، وجاءه في هذه الأثناء رسول من الحارس الفسافي يخبره أن رسولا جاء من قبل محمد عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام وأراد الحارث أن يذهب لمحاربة النبي ، ولكن هرقل منعه من ذلك .

وأرسل الرسول عليه السلام ، عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ، ولكن كسرى ثار عند ما سمع برسالة محمد ، ذلك لأنه كان يحكم الفرس بذلك الحق الملكي المقدس ، وشعر أن هذا الدين سيهدم كيانه ويزلزل مكانته بين الشعب ، فأرسل إلى باذان عامله على اليمن يقول له : « إبعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جليدين فليأتياي به » فبعث باذان برجلين من هنده ، وعندما قابلا الرسول أخبرهم نبأ مقتل كسرى على يد ابنه شيرويه ، فلم يصدق الرجلان الخبر وهددا الرسول ، ولما عادا إلى باذان علما بالنبأ ، فقال باذان إن هذا الرجل لرسول ، فأسلم وأسلم من كان معه من الفرس ببلاد اليمن ^(١) .

وأرسل الرسول عليه السلام ، عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ، وقد كانت العلاقات بينهما طيبة ، منذ أن هاجر المسلمون الأوائل إلى الحبشة فردا طيناً . كما أنه أرسل - بناء على طلب الرسول - المسلمون الذين كانوا بالحبشة وجهمهم بسفينتين على رأسهما جعفر بن أبي طالب ، وقد فرح الرسول برجعهم فرحاً شديداً ، حتى قال إنه لا يدرى بأى هو أشد اعتباطاً : بالنصر على خير أم بلقياً جعفر .

(١) الطبري - ٣ من ٩٠ .

وأرسل عليه السلام كذلك إلى المقوقس عظيم القبط في مصر ، فرد المقوقس رداً جميلاً ، إذ أرسل إلى الرسول يخبره أنه يعتقد أن نبيا سيظهر واسكنه يعتقد أنه سيظهر في بلاد الشام ، وبعث إلى النبي بهدية طيبة منها جارتان وبغلة بيضاء وحمار ومقدار من المال وبعض خيرات مصر ، فتزوج الرسول من مارية التي ولدت له إبراهيم^(١) ، وقد قيل إن المقوقس خشى أن يسلم خوفاً من أن يسلبه هرقل مركزه وسلطانه .

هكذا أخذ الرسول ينشر الإسلام في بقية أجزاء شبه الجزيرة وخارجها ، وكان رد معظم الملوك والأمراء طيباً ، حتى بلغ الحال ببعض المؤرخين إلى القول بإسلام النجاشي والمقوقس .

عمرة القضاء

مر العام بعد صلح الحديبية ، فأمر الرسول المسلمين أن يستعدوا للذهاب إلى مكة ليزوروا البيت الحرام ، وقد لبي نداء الرسول جمع غفير من المسلمين وخاصة المهاجرون الذين كانوا يتمنون هذا اليوم منذ أمد بعيد ، فقد ظلوا سنوات سبعة بعيدين عن مكة ، وأما الأنصار فقد كانوا يودون زيارة المسجد الحرام كما كانت لهم تجارة مع قريش ومكة . وبلغ عدد المسلمين قرابة الألفين ، ولم يحملوا معهم

(١) لم يأت عفواً زواج محمد عليه السلام ، ممن تزوج بهن من فضليات النساء ، بل كان الدافع هو جمع القبائل العربية تحت لواء الإسلام وتقريب زعمائها إلى الرسول . وكان زواجه من السيدة مارية القبطية المصرية ، تأليفاً لقلوب القبط وحفزاً لهم على اعتناق الإسلام . ولجأ الرسول إلى نشر الديانة الإسلامية خارج الجزيرة العربية ، وبعث الرسل بذلك إلى المقوقس ، الذي استقبل رسول محمد إليه باليشر والترحاب ، ولكنه لم يحجبه إلى ما طلبه الرسول من العمل على نشر الدين الإسلامي ، وأرسل له عدة هدايا من بينها السيدة مارية التي كانت من نصيب الرسول ، ووهب شقيقته سيرين « الجارية الثانية » لشاعره الحميد حسان بن ثابت .

إلا سيوفهم ، وقد احتاط الرسول خوفاً من غدر الكفار فجهز مائة فارس جعل على رأسهم محمد بن مسلمة .

سار هذا الجمع الكبير من المدينة متجهاً إلى مكة لقضاء العمرة ، وعندما علمت قريش بمقدم الرسول وصحبه تنفيذاً للصلح الحديبية ، خرجت من مكة وضربت خيامها على التلال المجاورة ، واتجه المسلمون إلى مكة ، يحف كبار الصحابة بفاقة الرسول . وعندما رأى المسلمون البيت الحرام نادوا جميعاً : لبئيك لبئيك . وكان لهذه المظاهرة الكبرى أثر كبير في نفوس كثير من المشركين ، فلم يلبثوا أن جاءوا رسول الله مسلمين . وقد طاف الرسول والمسلمون بالكعبة ، وعندما أتموا طوافهم انتقلوا إلى الصفا ثم نحووا الهدى ، وقام بلال مؤذن الإسلام وأذن للظهر في اليوم التالي من فوق الكعبة ، وأقام الرسول بمكة ثلاثة أيام زار فيها المهاجرون دورهم ، وتزوج الرسول بآخر زوجاته السيدة ميمونة وهي شقيقة زوج العباس . وقد أسلم بعد هذا الحادث مباشرة خالد بن الوليد سيف الله المسلول وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة وكثير غيرهم ، ممن بهرت أنظارهم قوة الإسلام والمسلمين .

غزوة مؤتة (سنة ٨ هـ) :

رجع الرسول إلى المدينة المنورة بعد ذلك ، وأخذ في إرسال بعض القوات الصغيرة لنشر الإسلام ، ثم وجه ثلاثة آلاف من المسلمين إلى مؤتة وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال « إن أصيب زيد ، فجعفر بن أبي طالب على الناس ، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس » .

سار الجيش ومعه خالد بن الوليد متطوعاً ، ولما علم الروم بمقدم الجيش أخذوا يعدون له العدة ويجهزون حتى استعدوا بجيش كبير ، بلغ عدده حوالي

ماتى ألف ، والتقى الفريقان عند مؤتة ، وحمل زيد راية الرسول وحارب حرب الأبطال حتى استشهد ، فحمل الراية بعد جعفر وظل يحارب حتى قطعت يمينه ثم حارب بشماله فقطعت فاحتضن الراية بعضده حتى قتل ، فأخذ الراية ابن رواحة واستبسل فى القتال حتى استشهد بدوره ، فأخذ الراية من بعده — باختيار المسلمين — خالد بن الوليد وكان قائدا ماهراً محمكاً ، فتمكن بمهارته من الانسحاب بالمسلمين بسلام حتى رجع إلى المدينة .

غزوة الفتح (فتح مكة سنة ٨ هـ) :

ظل الرسول يأمل أن يفتح الله عليه ويتم نعمته بفتح مكة ، ولكن صلح الحديبية كان يمنع الرسول من مهاجمتها . وظلت الحال كذلك حتى كانت السنة الثامنة للهجرة إذ نقضت قريش هذا الصلح بإغاثتها قبيلة كنانة حليفها ضد خزاعة حليفة الرسول فى حرب وقعت بينهما . وحين سمع الرسول باستنجد خزاعة ، سار إلى مكة فى السنة الثامنة للهجرة ، على رأس نحو من عشرة آلاف من المسلمين ما بين فارس وراجل ، وما أن سمع كبراء قريش بمقدم هذا الجيش الكبير حتى جاءوا هائمين على وجوههم متجهين إلى الرسول فكان منهم العباس بن عبد المطلب الذى كان سفيراً لقريش عند الرسول ، وأبوسفيان زعيم قريش الأكبر الذى شفع فيه بعض الصحابة حتى قبل الرسول إسلامه بل وأكرمه النبي بقوله « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن »^(١) ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن .

هكذا دخل الرسول مكة فى سهولة ويسر ، واتجه إلى المسجد الحرام حيث طاف به سبع مرات ثم أمر بإزالة التماثيل والصور وهو يقول . (وقل جاء الحق

(١) تتضح من ذلك قيمة أبى سفيان فى المجتمع العربى ، حتى سوى الرسول بين بيت أبى سفيان وبيت الله ، وهو شرف عظيم .

وزحق الباطل إن الباطل كان زهوقاً^(١) واجتمعت قريش بين يديه فقال لهم
يا معشر قريش ! ماذا تظنون إنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ
كريم ، فاذهبوا فأتهم الطلقاء .

بهذا عفا الرسول عنهم جميعاً ، ودخل مكة — بعد ثمانى سنوات من خروجه
مهاجراً — دخول المنتصر الفاتح ، فهدم أصنامها وأزال ما بها من آثار الكفر
والوثنية ، وكان ذلك تنفيذاً لكلمات ربه : (يا أيها الذين آمنوا ، إنما المشركون
نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف
يفنيكم الله من فضله إن شاء ، إن الله عليم حكيم)^(٢) .

ولقد كان لهذا الفتح أكبر الأثر في انتشار الإسلام : فإن استيلاء الرسول
على الكعبة بعد اتجاه القبلة نحوها ، جذب كثيراً من القبائل العربية للإسلام ،
كما أخضع الرسول ما تبقى من البدو من مسيحيي نجران وعمان وغيرها . ولم
يأت عام ١٠ هـ ، حتى كانت البلاد العربية كلها تدين بالإسلام ، وذلك بذلك
دولة الكفر .

غزوات حنين (سنة ٨ هـ) :

لم يكد الرسول يقضى خمسة عشر يوماً في مكة ، حتى علم باستعداد ثقيف
وهوازن لحاربه وعلى رأسهم مالك بن عوف ، ذلك الرجل الذى حشد ماله
ونسائه وأطفاله خلف الجند حتى يمنعهم من الفرار ونزل عند حنين . وخرج
رسول الله على رأس اثني عشر ألفاً من المسلمين من مهاجرين وأنصار وما كاد
ينبعث ضوء الفجر ويلوح حتى فاجأ الكفار المسلمين ، فاقتل نظامهم واضطربت
حالتهم وصارت كيوم أحد ، ويشير الله تعالى إلى هذا بقوله : (لقد نصركم الله

(١) سورة الإسراء .

(٢) سورة التوبة .

في مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) ^(١) . واحتدم الوطيس وصار الرسول ينادى : أيها الناس ! هلموا إلى ! أنا رسول الله محمد بن عبد الله . وساءت الحال فنادى العباس بصوت جهورى وتسارع المسلمون نحو الرسول . وعند ما وضع ضوء النهار وخرج الكفار من مكانهم استبسل المسلمون في القتال ، حتى قال الرسول : الآن حى الوطيس ، وتقهقر الكفار واتحصر المسلمون ، وفر مالك بن عوف ببعض الكفار إلى الطائف ، وتفرق شمل الآخرين ، فتبع المسلمون من فر ، وذهب الرسول إلى الطائف فحاصرها ، وتراشق الفريقان بالنبال ، واستعمل الرسول المنجنيق ^(٢) لأول مرة في الحرب كما استخدم الدبابات والضبور وهددوا الرسول بقطع البساتين والأشجار ، ثم حل شهر ذى القعدة فرجع الرسول عنها وفك الحصار حتى تنتهى الأشهر الحرم ، ولكن ثقيفا وجدت نفسها محاصرة بالمسلمين من كل الجهات ، فلقد انتشر الإسلام وعم جميع أرجاء شبه الجزيرة فجاءت وفودهم ووفود هوازن إلى الرسول مسلمين ، وأعطى الرسول إلى هوازن ما أخذه منها من النساء والولد ^(٣) وفرق الأموال على قريش حتى ظن الأنصار أن الرسول قد تركهم ورجع إلى أهله . ولكن النبى بحكمته رأى أن قريشا حديثة عهد بالإسلام وأن إعطائهم مثل هذه الفنائم يشعروهم بأن في الدين الجديد سعادة في الدنيا والآخرة . أما الأنصار فقد قال لهم الرسول : أفلا ترضون يامعشر الأنصار

(١) سورة التوبة .

(٢) راجع تفسير : المنجنيق ، والدبابه والضبور ، باب « نظام الحكم » في هذا الكتاب .

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٣٠٣ .

أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رجالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار فقال الأنصار : رضينا برسول الله قسماً وحظاً^(١) .

غزوة تبوك (سنة ٩ هـ) :

وفي السنة التاسعة للهجرة ، اجتمعت على حدود فلسطين قبائل عديدة من الروم لقتال المسلمين ، فخرج إليهم الرسول بمحيشه حتى ترك تبوك على حدود الشام وأقام بها ، فصالحه أهلها ، ثم جاءت وفود القبائل مُسلّمة ، وأرسل خالد ابن الوليد إلى دومة الجندل ففتحها وعاد الرسول بعد ذلك إلى المدينة . وتعد هذه الغزوة آخر الغزوات النبوية .

وفي سنة ٩ هـ وفدت إلى المدينة وفود كثيرة من أنحاء الجزيرة ، فسمى هذا العام بعام الوفود^(٢) ، ونزلت الآية الكريمة : (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك والمحتفره إنه كان تواباً)^(٣) .

حجة الوداع ووفاة الرسول :

وفي السنة العاشرة من الهجرة ، خرج الرسول في حوالى مائة ألف من المسلمين إلى المسجد الحرام ، وعقد جبل عرفات ألقى على المسلمين خطبته الخالدة التي تعتبر دستور الإسلام ، فقد بين فيها رسول الله أصول الدين الإسلامى وشرعه ونادى بالمساواة التامة بين الناس بقوله : أيها الناس ؟ اسمعوا قولى ، فإنى لأدري لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ، بهذا الموقف أبداً ، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٣٩ .

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ٢٠٥ .

(٣) سورة النصر .

إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا . . . أيها الناس ! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، وقد تم القرآن بنزول الآية الكريمة في ذلك الوقت : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)^(١) .

ولم يمض على حجة الوداع ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول عليه الصلاة والسلام بالحمى ، وعند ما علم الأنصار بأشتداد مرض النبي ، أحاطوا بالمسجد ، فخرج الرسول وجلس على المنبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أيها الناس ! بلغني أنكم تخافون موت نبيكم هل خلد نبي قبلي ممن بعث الله فأخذه فيكم ؟ ألا إني لاحق بربي وأنكم لاحقون بي فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصي المهاجرين فيما بينهم ، فإن الله تعالى يقول (والعصر إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وإن الأمور تجري بإذن الله ، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل بمجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه ، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم . . . وأوصيكم بالأنصار خيراً ، فإنهم تبوءوا الدار والایمان من قبلكم ، أن تحسنوا إليهم ، ألم يشاطروكم في الثار ؟ ألم يوسعوا لكم في الديار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وحبهم الخاصة ؟ . . . إلى أن قال : ألا وإني فرط لكم وأنتم لاحقون بي ، إلا فإن موعدكم الخوض ، ألا فمن أحب أن يرد على غدا فليكشف لسانه إلا فيما ينبغي .

ثم ازدادت الحمى على رسول الله ، حتى انتقل إلى جوار ربه في يوم الاثنين

١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ (٨ يونية سنة ٦٣٢ م) ، وهو في الثالثة والستين من عمره^(١) .

حزن المسلمون لوفاة الرسول حزنا عميقا ، ولم يصدق بعضهم وفاته حتى إن عمر بن الخطاب ذهل من هول الخبر ، فنبى آيات ربه وقال : « إن رجلا من المناققين زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي ، وإنه والله مات ، ولكنه ذهب كما ذهب موسى ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقطع أيدي رجال زعموا أنه مات » . إلا أن أبا بكر دخل على الرسول وكشف عنه وقال : بأبي أنت وأمي ! طبت حيا وطبت ميتا ! واقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة ... ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجدنا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء الشجون . . اللهم فأبلغه عنا السلام ! اذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن من بالاك ، فلولا ما خافت من السكينة لم نعم ما خلفت من الوحشة ، اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا » . ثم خرج للناس وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، أشهد أن الكتاب كما نزل وأن الدين كما شرع وأن الحديث كما حدث وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين . ثم قال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، وأن الله قد تقدم إليكم في أمره ، فلا تدعوه جزعاً وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر^(٢) . واجتمع الناس لدفن الرسول ، وقال أبو بكر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما دفن نبي إلا مكانه الذي توفي فيه ، فحفر له فيه^(٣) .

(١) ابن سعد ج ٨ ص ١٢١ .

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٤٦٧ . الطبري ج ٣ ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٤٨٦ .

ثانياً — الخلفاء الراشدون

١١ — ٤٠ هـ = ٦٣٢ — ٦٦١ م

صبراً ونهاية حكم الخلفاء الراشرين :

السنوات الهجرية	الخلفاء الراشدون	السنوات الميلادية
١١	أبو بكر الصديق	٦٣٢
١٣	عمر بن الخطاب	٦٣٤
٢٣	عثمان بن عفان	٦٤٤
٣٥ — ٤٠	علي بن أبي طالب	٦٥٠ — ٦٦١

أزمة الحكم بعد وفاة الرسول :

كان لشخصية الرسول أثر كبير في نفوس العرب حتى لنهم لم يصدقوا موته عندما علموا به ، فلما تحققوا من ذلك ، شك فريق منهم في أمر هذا الدين الذي أتى به ، وارتد كثير منهم عن الإسلام لأنه لم يكن قد تمسكن من قلوبهم بعد ، فأخذ كبار الصحابة يفسكرون في أمر المسلمين ليواجهوا الموقف الجديد ورأوا أنه لا بد للمسلمين من رئيس يقول شئونهم ويتدبر أمورهم .

وقد اختلفت آراء المسلمين فيمن يتزعمهم وظهرت بينهم روح التعصب القبلي ، وأخيراً استقر الرأي على أن يكون للرسول خليفة ، يأمر بالعدل وينهى عن المنكر ويؤم الناس في الصلاة . ولسكن الصحابة اختلفوا في كيفية

اختياره : لأنه لم يؤثر عن الرسول نص صريح يشير فيه إلى مسألة الحكم من بعده ، كما أن القرآن لم يشر إلى نظام الحكم بعد وفاته .

وكان من أثر ذلك أن ظهر الانقسام بين صفوف المسلمين ، واشتدت وطأة هذه الأزمة السياسية ، وتسابت القبائل والبطون ليكون لها الأمر دون غيرها وتكشف ما في الصدور ، وتجلت النفس العربية والطبيعة القبلية ، فكان الأوس والخزرج يخشى كل منهما صاحبه ويخافون المهاجرين ، حتى إذا كثرت المناقشات تصدى لحلها بعض زعماء المسلمين من أمثال : أبي بكر وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح^(١) .

١ - أبو بكر الصديق

١١ - ١٣ = ٦٣٣ - ٦٣٤ م

بيعة الصقفة :

ذهب الأنصار إلى سقيفة بني ساعدة ليختاروا من بينهم خليفة للمسلمين ، وقد خطبهم سعد بن عباد بن زعيم الخزرج فقال « ... يا معشر الأنصار ! إن لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب » ، وأوضح لهم أنهم أحق بالخلافة من غيرهم ، واتفقت كلمتهم على اختياره . غير أن كبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمر وأبي عبيدة عند ما علموا باجتماع الأنصار ، أسرعوا إليهم واشتركوا معهم في المناقشة وأقنعوهم بضرورة اختيار الخليفة من قريش بحجة أن العرب لا يدينون إلا للقرشيين . وقد حاول الأنصار أن يقتسموا السلطة بأن يكون من المهاجرين أمير ومن الأنصار أمير ، ولكن رفض طلبهم ولم يلق قبولاً .

(١) حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن : النظام الإسلامية ص ٣٣ .

عرض أبو بكر على الحاضرين أن يختاروا واحداً من اثنين هما : عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح ، ولكن عمر بن الخطاب خشى أن يترك الناس فيختلفوا ويضع الأثر الذي أحدثه كلام أبي بكر ، فقام إلى أبي بكر ، وبايعه بالخلافة^(١) ، وقال له : « ألم يأمر النبي بأن نعلي أنت يا أبا بكر بالمسلمين ، فأنت خليفة ، ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب الرسول منا جميعاً » . وقد قال عمر بن الخطاب إنه أشفق من أن يختلف المسلمون ، فقال لأبي بكر : « أبسط يدك أبايكم » ، فبسط أبو بكر يده ، فبايعه عمر ومن بعده المهاجرون والأنصار ، وقد أضاف عمر إلى ذلك قوله : « وإنا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من مبايعة أبي بكر ، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة ، فإما أن نبايعهم على ما لا نرضى أو نخالفهم فيكون فساد »^(٢) .

وبعد أن بايع عمر أبا بكر ، تبعه الحاضرون في اجتماع السقيفة ، وقد ساعد على إتمام هذه البيعة خوف الأوس من أن تكون الخلافة في الخزرج أعداءهم القدماء ، وهذه البيعة تسمى البيعة الخاصة ، وفي اليوم التالي أخذ أبو بكر^(٣) البيعة في المسجد وتسمى البيعة العامة ، وبذلك أصبح خليفة للمسلمين .

كان أبو بكر يسمى في الجاهلية عبد الكعبة^(٤) لأن الكعبة كانت رمز العبادة في الجاهلية ، وسماه الرسول عبد الله ، وسمى بالصديق لأنه أول من صدق برسالة الرسول من الرجال . وهو من كبار رجال العرب في الجاهلية ، وكان يفصل في بعض القضايا ، وأنفق معظم ثروته في نشر الإسلام ، وقد أسلم على يده كثير من العرب أشهرهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام

(١) ابن هشام ج ٥ ص ٣٣٥ — ٣٣٩ .

(٢) ططبرى ج ٣ ص ٢٠٠ .

(٣) هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمي .

ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ج ٤ ص ١١٠ .

(٤) دحلان : السيرة الحلبية ص ١١٠ .

عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله ، وكان أبو بكر رفيق الرسول وساعده الأيمن فتحمل كثيراً من الغت وتعرض لكثير من الأخطار ، وكان رفيقه في الغار يوم هاجر مكة إلى يثرب ، وكان الرسول يثق فيه ويستشيريه في خواص الأمور حتى أنه قال في آخر خطبة له « ... إني لا أعلم أحداً كان أفضل عندي في الصحبة يداً منه » (١) .

ورغم ذلك فقد تخلف على بن أبي طالب عن مبايعة أبي بكر ، لاعتقاده بأحقية عنه في الخلافة : فهو أول من اعتنق الإسلام من الصبيان ، وهو ابن عم الرسول ، وزوج ابنته فاطمة التي ولدت له الحسن والحسين ، كما أنه يمتاز بشجاعته وفروسيته . وتأخرت بيعة على لأبي بكر حتى قيل إنها حدثت بعد أربعين يوماً من اختياره خليفة ، وقيل إنها وقعت بعد ثلاثة أشهر ، وفي رأى آخر أنها تمت بعد ستة شهور . وناصر علياً في موقفه العباس وطلحة والزبير .

وبعد أن أخذ أبو بكر البيعة في المسجد ، خطب الحاضر بن خطبته المشهورة فقال : « أيها الناس ! إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن صدقت فقوؤموني . الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندي حتى أخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا قوم ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحكم الله » .

حركة المرتدين :

لم يصدق الناس خبر موت الرسول ، وتسرب الشك إلى نفوسهم ، واستبعدوا أن يكون الشخص الذى أحدث هذا الانقلاب العظيم فى التاريخ بشراً يجوز عليه الموت ، وحدث المخرج والمرج بين الناس لما تحققوا خبر موت الرسول ، ووجد أغلب العرب الفرصة سانحة للخروج على سلطان قريش ، فامتنعوا عن دفع الزكاة وعرف هؤلاء باسم المرتدين ، ولم يبق مخلصاً للإسلام ومطيعاً لأبى بكر إلا سكان المدينة ومكة والطائف . وينقسم المرتدون إلى قسمين : فئة تريد العودة إلى حياة الجاهلية ، وكثرة لا تعترف بالزكاة مع اعترافها بسائر تعاليم الإسلام .

وقد هزت حركة المرتدين الدولة الإسلامية ، حتى لقد أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر بعدم محاربتهم ماداموا يدينون بوحدانية الله عملاً بقول النبى عليه السلام « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله » .

ولكن أبابكر وقف موقفاً حازماً وعزم على محاربة المرتدين ، حتى يشوبوا إلى رشدهم وتعود بلاد العرب يداً واحدة كما كانت زمن الرسول ، وقال « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى حقاً لا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها » . وكان أبو بكر على حق فى موقفه هذا ، إذ لو تساهل فى الزكاة لفتح باباً للتهريب من تأدية فرائض الإسلام الأخرى .

وقد أرسل أبو بكر إلى كل جماعة من المرتدين يعلمهم أن وفاة النبى عليه السلام أمر طبيعى يتفق مع قول الله تعالى « إنك ميت ولأنهم ميتون » ومع قوله أيضاً « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبل الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم

على أعقابكم » ، ودعاهم أبو بكر إلى الاعتصام بحبل الله وبعد أن بعث الكتب المرتدين سير الجيوش لقتالهم ، وأمر أبو بكر كل قائد بالسير إلى ناحية من بلاد العرب . ومن أشهر هؤلاء : خالد بن الوليد ، وشرحبيل بن حسنة ، وعكرمة ابن أبي جهل ، وعمرو بن العاص ، وسعيد بن العياص ، والعلاء بن الحضرمي . ولم تمض سنة واحدة حتى كانت الجزيرة العربية تدين بالطاعة والولاء للإسلام ولأبي بكر خليفة رسول الله .

المتنبئون :

وقد أدت رغبة بعض القبائل في تزعم المسلمين والتخلص من نفوذ قريش ، إلى ادعاء بعض أفرادها النبوة . فظهر في أيام الرسول عليه السلام : مسيلة الكذاب من بني حنيفة ، واستطاع أن يضم قبيلته إلى جانبه ، وقد تزوج مسيلة من سجاح التميمية وبذلك ضم بني تميم إليه . وأرسل مسيلة إلى الرسول كتابا يدعى فيه النبوة ومشاركته في الرسالة ويساومه على اقتسام الرياسة . وقد رد عليه النبي بكتاب يقول فيه « من محمد رسول الله إلى مسيلة الكذاب سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ، وتوفى الرسول دون أن يخضع مسيلة . فلما تولى أبو بكر الخلافة أرسل إليه عكرمة بن أبي جهل ، ولكن عكرمة هزم لتمجده وعدم أناته . فسير أبو بكر خالد بن الوليد على رأس جيش كثيف ، والتقى جيش خالد ابن الوليد بجيش مسيلة ، فاشتد القتال واستمرت أنصار مسيلة حتى كادت الهزيمة تحقق بجيش المسلمين ، ولكن المسلمين صدقوا في الجهاد وصبروا على الحرب ، وقد دعا خالد مسيلة للمبارزة حتى يقتله ، ولكن مسيلة لم يستطع صبرا أمام خالد فاضطر إلى الفرار ، غير أن المسلمين هجموا عليه وعلى أصحابه ، فهزموه .

وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، كما قيل إن وحشياً^(١) قتل مسيلمة شر قتلة ، وقضى بذلك على تلك الحركة الخطيرة .

ومن المتنبئين أيضاً الأسود العنسي ، وقد ظهر في بلاد اليمن وكسب كثيراً من الأنصار ، وغزا بلاد نجران ودانت له كما دانت له مذبح وألحق الرعب في قلوب ولاية المسلمين على اليمن حتى كتبوا بذلك للرسول ، ولكن ولاية المسلمين انتمروا به وتوصلوا إلى قتله غيلة في صبيحة الليلة التي مات فيها الرسول^(٢) . وبذلك لم يكن الأسود العنسي ، ممن قضى عليهم أبو بكر من المتنبئين ، على أن بعض المؤرخين يذكر أن الأسود قتل في عهد أبي بكر عند بداية حروب الردة .

ومن المتنبئين كذلك طليحة بن خويلد ، أحد كهنة بني أسد . ظهر أمره بعد النبي وانضمت إليه غطفان من حولها فبعث إليهم أبو بكر عدياً ، ثم خالد ابن الوليد ، واشتد القتال حتى فر طليحة إلى الشام^(٣) ونزل بقبيلة كلب مقبلاً بين أفرادها حتى أسلمت فأسلم أيضاً ، ولما ولي عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبي بكر بايعه طليحة ، ثم رجع إلى قومه فأقام بينهم حتى عاد إلى العراق وأبلى مع المسلمين بلاءً حسناً .

على أن فريقاً من أتباع المتنبئين لم يكونوا يعتقدون في صدق هؤلاء المتنبئين ، بل إن منهم من دفعه إلى ذلك العصبية القبلية وكرهية الخضوع لقريش . وقد روى أن أحد بني حنيفة من أتباع مسيلمة قال « أشهد بأن مسيلمة كذاب ، ولكن كذاب ربيعة ، خير من صادق مضر » . وروى أيضاً أن عيينة بن حصن قام خطيباً في غطفان بعد وفاة الرسول وقال : « ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بني أسد ، وإنني لمجدد

(١) وحشى هذا هو قاتل حمزة عم النبي في غزوة أحد .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٢ — ٢١٩ .

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٢٣٠ — ٢٣٢ .

الحلف الذى كان بيننا فى القديم ومتابع طليحة (بن خويلد) والله لأن نتبع نبياً من الحليفين أحب إلينا من نتبع نبياً من قريش ، وقد مات محمد وبقى طليحة . وقد انتهت حركة المتنبيين — كما انتهت حركة المرتدين — بالفشل ، وحافظ بذلك أبو بكر على الإسلام فى فترة تعد من أدق الفترات .

حركة الفتح والتوسع :

سير أبو بكر إلى أطراف الشام ، الجيش الذى كان النبى قد جهزه قبل وفاته تحت قيادة أسامة بن زيد . وكان عمر بن الخطاب يعارض فى إرسال هذا الجيش لاضطراب أحوال بلاد العرب وصغر سن أسامة ، فقال أبو بكر « نكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله وتأمرنى أن أعزله »^(١) ثم أوصى أبو بكر أسامة فقال : « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تفعلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً ... وتلقون أقواماً قد فخصوا أوساط رؤوسهم »^(٢) وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقهم بالسيف خفقا ، اندفعوا باسم الله »^(٣) .

وأفد أبو بكر — عقب بيعته مباشرة — الجيش الذى كان قد أعده النبى بقيادة زيد بن حارثة ، للنار لما نزل بالمسلمين فى مؤتة ولإرهاب الروم ومنعهم من التفكير فى قتال المسلمين . ونزل أسامة بعسكره فى منطقة البلقاء بعد عشرين يوماً حيث تقع مؤتة ، وقضى على كل من وقف فى وجهه من أعداء

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ١٣٩ .

(٢) يقصد بذلك رجال الدين الذين قضت المادة فى المصور الوسطى بفحص رؤوسهم ، أى محلقها من الوسط تمييزاً لهم عن العلمانيين وهم المدينون .

(٣) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة .

الإسلام وأحرق المدن التي قامت المسلمين ، وبذلك انتقم أسامة لأبيه والمسلمين . ولما سمع هرقل أنباء هذه الفزوة أرسل جيشاً قوياً عسكر في البلقاء ، ولكن المسلمين وعلى رأسهم أبو بكر لم يكونوا قد فكروا في ذلك الوقت في فتح الشام . ولما كان أبو بكر يريد أن يشغل العرب بأمور تصرفهم عن الفتنة ولا سيما بعد أن قضى على حركة المرتدين ، تداول مع المسلمين في الأسر ، واستقر الرأي على أن تستمر حركة الفتح ، وأمر أبو بكر بتولية المثني بن حارثة الشيباني قائداً ، واتباع ذلك بتولية خالد بن الوليد القيادة العامة .

وفي ذلك الوقت ، كان العلاء بن الحضرمي يقاتل المرتدين ، فانضم إليه المثني بن حارثة ، وسار بقواته شمالاً حتى استولى على القطيف وتركها ، واستمر في سيره حتى وصل إلى مصب دجلة والفرات ، وقضى في أثناء ذلك على الفرس وعملهم ممن عاونوا المرتدين في البحرين . وأمعن السير بجيشه في دلتا الفرات ، فلقبه هرمز أحد قواد الفرس ، وحدثت بينهما عدة وقائع سمع بها أبو بكر ، فسأل عن المثني وعرف ما عمله في البحرين أثناء حروب الردة ، وأصدر أمره إلى خالد بن الوليد كي يخف إليه ويعينه على هرمز ، ثم يسير لفتح الحيرة عاصمة العرب اللخميين .

ذهب خالد بن الوليد إلى دلتا الفرات ولم تكن له خطة مرسومة ولكنه انتصر وتقدم نحو الشمال ، وبعث إلى الخليفة بالفنائم . على أن هذه الانتصارات لم تدم طويلاً ، إذ أن يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان أعد جيشاً كثيفاً من الفرس بقيادة القائد رستم ، فتقهقرت أمامه جيوش المسلمين إلى أطراف الصحراء بقيادة خالد بن الوليد والمثني بن حارثة ، ولكنها تمسكت من إخضاع القبائل العربية التي كانت تقيم جنوب نهر الفرات ، واستولت على الحيرة والأنبار . وظل الحال على ذلك إلى أواخر أيام أبي بكر ، فوجه

خالد بن الوليد لمساعدة المسلمين في قتال الروم في الشام وفلسطين .

أما في الشام فقد كان للمسلمين أثناء حرب الردة عدة جيوش على حدود هذا الإقليم بقيادة خالد بن سعيد بن العاص ، لحماية تلك الحدود . وعندما علم هرقل بأمر هذه الجيوش أعد العدة لطردها ، وعلم خالد بن سعيد بذلك ، فأرسل إلى بكر يستأذنه في منازلة الروم ومن انضم إليهم من قبائل العرب بالشام واستشار أبي بكر كبار الصحابة ، ودعى الناس لغزو الشام فلبوا الدعوة في حماسة وحمية ، تدفعهم قوة الإيمان وعدم المبالاة بالموت . وسرعان ما أنفذت الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة ، وعقد اللواء لأربعة من الأمراء هم : شرحبيل بن حسنة ووجهته وادي الأردن ، وعمر بن العاص ووجهته فلسطين ، وأبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص ، ويزيد بن سفيان ووجهته دمشق . وأمر أبو بكر هؤلاء القواد أن يتعارفوا بعضهم مع بعض ، وأن يكونوا مدداً للجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة^(١) .

سار خالد بن سعيد بن العاص نحو الشام وهزم الجيوش التي جمعها الروم ، وبعد ذلك توالى قدوم الجيوش الإسلامية إلى الشام ، وانضم الوليد بن عقبة وعكرمة بن أبي جهل وذو الكلاع الحميري أحد أمراء اليمن إلى خالد بن سعيد بن العاص ، حتى تجمعت لديه قوة كبيرة وخيل إليه أنه يستطيع أن يقضى على الروم كما قضى خالد بن الوليد على الفرس ، ولكنه لم يكن قائداً محسناً ، فإن ماهان قائد جيش الروم استدرجه إلى مكان قريب من وادي الصفرة إلى الشرق من بحيرة طبرية ، حتى أحاطه به وقطع عليه خط الرجعة واضطره إلى الفرار هو والوليد بن عقبة ، تاركاً وراءه جيش المسلمين يقوده عكرمة وذو الكلاع متقهقراً . وبذلك فشلت حركة المسلمين الأولى في الشام ورجعت جيوشهم إلى الحدود .

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ١٩٥ .

على أن هذه الهزيمة لم تخمد حماسة أبي بكر ، فسير هذه الجيوش واستطاعت أن تصل إلى حيث يقيم جيش عكرمة بدون عناء بعد أن قضت على المقاومة التي أبدتها حلفاء الروم من عرب الشام . وكان عدد هذه الجيوش والجيش الذي يقوده عمرو بن العاص ، حوالى ثلاثين ألفاً ، اتخذ كل منها في بادية الأمر جهة خاصة . ولكن قواد المسلمين عندما رأوا أن هرقل قد سير لمحاربتهم عدة جيوش كثيفة ، تبادلوا الرأي ، وأشار عليهم عمرو بن العاص بجمع قواتهم ، وأرسل إليهم أبو بكر كتاباً يقول فيه « اجتمعوا عسكرياً واحداً والقوا زحف المشركين بزحفكم فأنتم أعوان الله ، والله ناصر من نصره وخاذل من كفره » ، وعمل المسلمون بهذه المشورة واجتمعت قواتهم كلها على شاطئ اليرموك الأيسر ولما رأى الروم ذلك جمعوا قواتهم على الشاطئ الأيمن للنهر ونزلوا في بطحاء تحيط بها الجبال من ثلاث جهات في منطقة تسمى واقوصة^(١) ، فعبر المسلمون نهر الأردن إلى شاطئه الأيمن ووقفوا أمام جيوش الروم وكان يقودها تيودريك^(٢)

ووقف الجيشان وجهاً لوجه ، دون أن يتغلب أحدهما على الآخر نحو شهرين مما أقلق الخليفة . فأرسل إلى خالد بن الوليد في العراق : أن سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشجوا فليهنك أبا سليمان النية والخطوة ، أتمم يقيم الله لك ولا يدخلنك محب فتخسر وتحذل ، وإياك أن تدل بعمل ، فإن الله له المن وهو ولي الجزاء^(٣) . تولى خالد بن الوليد القيادة مكان أبي عبيدة وسار على رأس جيش كبير يتكون من عشرة آلاف جندي ، أدرك به المسلمين في اليرموك وقاتل الروم ، وصادف مجيئه أن

(١) على مسيرة ثلاثين أو أربعين ميلاً من مصب اليرموك بالأردن .

(٢) هو أخو هرقل وكانت العرب تسميه تنارق .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ١٧٤ .

هرقل كان قد عزز جيشه بتعيين ماهان^(١) ، الذى هزم خالد بن سميد من قبل ، قائداً .

ولما قدم خالد بن الوليد بجيشه إلى الشام وجد المسلمين يقاتلون متساندين ، فرتب الجيش وجعل أبا عبيدة بن الجراح فى القلب . وعمر بن العاص على اليمين ، ويزيد بن أبى سفيان على اليسرة ، ثم دارت رحى القتال ، واشتركت النساء مع الرجال لصد هجمات العدو ، الذى اضطهرهم إلى التقهقر عدة مرات^(٢) . وبعد أن لحقت الروم الهزيمة ، جاء يوم الواقصة ، وهو اليوم الذى كتب فيه النصر للعرب حيث قتل من جند الروم مائة وعشرون ألفاً^(٣) .

وفى أثناء قتال العرب فى اليرموك ، أتاها نعى أبى بكر سنة ١٣ هـ وتولية عمر بن الخطاب الخلافة ، فعزل خالد عن القيادة وولى مكانه أبا عبيدة .

٢ - عمر بن الخطاب

١٣ - ٢٣ هـ = ٦٣٤ - ٦٤٤ م

ينتهى نسب عمر بن الخطاب إلى كعب بن لؤى ، ويشترك نسبه مع الرسول فى الجد السابع . ولد بمكة قبل حرب الفجار الأعظم بأربع سنين ، وكان فى الجاهلية سقيراً^(٤) لقريش إذا وقعت حرب بين قريش وبين غيرها من القبائل ، أسلم سنة ست وعشرون سنة بعد أربعين شخصاً ، وكان لا يخفى إسلامه ، وهو الوحيد من المهاجرين الذى هاجر دون أن يتخفى ، وصار من أشد المنصرين

(١) يعرف أيضاً باسم ماهان وهو قائد أرمى عرف فيه هرقل الشجاعة والإقدام .

(٢) الواقدي : فتوح الشام ج ١ ص ١٦٥ .

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٣٠ .

(٤) السقير فى اللغة : الرسول والمصلح بين القوم ، وفى حديث على أنه قال لعثمان « إن الناس قد استصفرونى بينك وبينهم » أى جعلونى سقيراً ، والسفارة معروفة فى الجاهلية وهى من المناصب التى كانت فى يد قريش وبطونها .

لِلرَّسُولِ وَالْإِسْلَامِ حَتَّى صَحِبَهُ فِي مَعْظَمِ غَزَوَاتِهِ ، وَلَقِبَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ « الْفَارُوقِ » لِأَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَعَنْهُ قَالَ النَّبِيُّ : « لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرُ » ^(١) ، وَكَانَ عُمَرُ مِنْ مُؤَيِّدِي أَبِي بَكْرٍ عِنْدَ بَيْعَتِهِ ، وَعَاوَنَهُ فِي خِلَافَتِهِ فَقَدْ سَاعَدَهُ فِي حُرُوبِ الرِّدَّةِ وَفِي جَمْعِ الْقُرْآنِ وَفِي الْفَصْلِ فِي الْقَضَايَا ، وَكَانَ عُمَرُ مِنْهُ بِمَثَابَةِ الْوَزِيرِ .

بَيْعَةُ عُمَرُ :

تَرَكَ يَوْمَ السَّقِيفَةِ أَثَرًا وَاضِحًا فِي ذَهْنِ أَبِي بَكْرٍ ، فَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْمَرَضُ خَافَ إِنْ هُوَ أَمَرَ الْخِلَافَةَ كَمَا تَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ انْقَسَمَ الْمُسْلِمُونَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَاقْتَتَلُوا وَأَصْبَحُوا أَشَدَّ خَطَرًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَهْلِ الرِّدَّةِ ، فَاسْتَقَرَّ رَأْيُهُ عَلَى أَنْ يَمُودَ بِالْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ لِمَنْ يَعْتَقِدُ فِيهِ الْكَفَايَةَ وَحَسَنَ السِّيَاسَةَ ^(٢) . نَظَرَ أَبُو بَكْرٍ فِي أَصْحَابِهِ لِيَتَخَيَّرَ مِنْ بَيْنِهِمْ : رَجُلًا حَازِمًا فِي غَيْرِ عُنْفٍ لِيَفَا فِي غَيْرِ ضَعْفٍ ، فَوُجِدَ أَنَّ مِنْ تَوَفَّرَتْ فِيهِ هَذِهِ الصِّفَةُ مِنَ الصَّحَابَةِ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَوَقَعَ اخْتِيَارُهُ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَفْرُدَ بِالرَّأْيِ وَيَفْرُضَ إِرَادَتَهُ دُونَ مَشُورَةِ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ . فَسَأَلَ عِدَدًا مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ عَنْ رَأْيِهِمْ فِي عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَبْلَ أَنْ يَمُودَ إِلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ ، وَتَأَكَّدَ أَنَّهُمْ جَمِيعًا رَاضُونَ عَنْهُ ، وَبَعْدَ أَنْ اسْتَقَرَّ رَأْيُهُ عَلَى اسْتِخْلَافِ عُمَرَ ، أَطَّلَعَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْ حِجْرَةِ بَحْوَارِهِ ، وَخَاطَبَهُمْ قَائِلًا : « أَتَرْضَوْنَ بَيْنَ اسْتِخْلَافِ عَلَيْنَ ؟ فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَلُوتُ مِنْ جَهْدِ الرَّأْيِ وَلَا وَلِيَّتَ ذَا قَرَابَةٍ . وَإِنِّي قَدْ وَلِيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا » ، فَأَجَابَهُ النَّاسُ سَمْعًا وَأَطَاعًا . وَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ

(١) ابن الجوزي . سيرة عمر بن الخطاب ص ١٥ — ٢٤ .

(٢) حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن : النظام الإسلامية ص ٣٣ — ٣٤ .

وقال : « اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم ما أنت به أعلم ، فوليت عليهم خيرهم وأقوامهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم . وقد أملى أبو بكر على عثمان بن عفان كتاب بيعة لعمر بن الخطاب وهو يقول فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقى الفاجر ، إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن بر وعدل فذلك علمي به ورأي فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب . والخير أردت ولكل امرئ ما اكتسب (وسيعلم الذين ظلموا أي مقلب ينقلبون) » ^(١) .

وقد بدت سياسة عمر القائمة على الحزم والشدة في أول خطبة خطبها إذ قال : « إنما مثل العربي مثل جمل أنف أتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده وأما أنا فو رب الكعبة لأحملنهم على الطريق » ^(٢) . وهنا نلاحظ أمرين خطيرين : أن أبا بكر علق خلافة عمر على رضا الناس ، وثانيهما : أنه لم ينتخب أحد من أبنائه أو أقربائه بل انتخب شخصا أجمع الناس على احترامه لما امتاز به من الصفات الطيبة .

الفروع الإسلامية ١ - فتح فارس :

كان أبو بكر قد وجه جيشاً إلى أطراف العراق بقيادة خالد بن الوليد ومعه المنثى بن حارثة . وانتصر على الفرس بعد عدة وقائع واستولى على الحيرة والأنبار وأبرم صلحاً مع أهلها تعهدوا له فيه بأداء الجزية ، ولما سمع أهل القرى القريبة من الحيرة بهذا الصلح سارعوا إلى مصالحة خالد . ولكن يزدجرد الثالث آخر

(١) سورة الشعراء ٢٦ آية ٢٢٧ .

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٨ .

ملوك آل ساسان أعد جيشاً كبيراً بقيادة رستم ، فارتد العرب إلى أطراف الصحراء ، ثم أمر أبو بكر ، خالد أن يلحق بجيوش المسلمين لقتال الروم في الشام وفلسطين .

ولما ولي عمر الخلافة أرسل نجدة إلى العراق تحت قيادة أبي عبيدة ابن الجراح الثقفي ، فاشتبك مع الفرس في عدة مواقع انتهت بانهزام العرب في واقعة الجسر . وعند ما علم عمر بذلك عهد إلى سعد بن أبي وقاص أحد كبار القواد بإتمام فتح فارس ، فوصل سعد إلى القادسية ، والتقى بجيش الفرس الذي بلغ ثلاثين ألف مقاتل بقيادة رستم ، في حين لم يزد جند العرب عن ثمانية آلاف مما دعا الفرس إلى الاستهتار بهم ، وكان الفرس يضحكون من نبل العرب ويشبهونها بالمغازل . وأرسل سعد رسوله المغيرة بن شعبه إلى رستم يدهوه إلى الدخول في الإسلام أو دفع الجزية ، فقال رستم « وقد علمت أنه لم يحملكم على ما أتم فيه إلا ضيق المأاش وشدة الجهد ، ونحن نعطيكم ما تشعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون » . وقال المغيرة : « إن الله بعث إلينا نبياً صلى الله عليه وسلم فسمعنا بإجابته واتبعناه ، وأمرنا بجهد من خالف ديننا ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . ونحن ندعوك إلى عبادة الله وحده والإيمان بنبيه ، فإن فعلت وإلا فالسيف بيننا وبينكم » ، فقال له رستم : « والشمس والقمر لا يرتفع الضحى غداً حتى نقلبكم أجمعين » . فقال المغيرة : « لا حول ولا قوة إلا بالله وانصرف عنه » ^(١) .

حدثت واقعة القادسية سنة ١٥ هـ وانتهت بهزيمة الفرس وقتل رستم هو وعدد كبير من جنوده واستولى العرب على غنائم كثيرة ثم تبعهم سعد إلى « جلولاء » سنة ١٦ هـ وأوقع بهم ، وأسرى إحدى بنات كسرى ،

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٦٥ .

وقتل عدداً كبيراً من الفرس ، واتخذ سعد الكوفة مقراً للمسلمين وأسس بها المسجد الجامع^(١) . وتابع سعد انتصاراته على الفرس ، فاستولى على المدائن حاضرة بلادهم بعد حصار شهرين ، وغنم العرب غنائم كثيرة من بينها بساط كسرى . وفر يزيدجرد ملك الفرس ، ولم يستطع أن يلاقى العرب إلا بعد أربع سنوات قضاها في الاستعداد للملاقاتهم ، وبلغ عدد جيشه أكثر من ستين ألف مقاتل . وتقابل العرب والفرس في موقعة نهاوند سنة ٢١ هـ ، وكتب النصر للعرب . وتعرف هذه الموقعة باسم فتح الفتوح ، لما ترتب عليها من القضاء على حكم الأكاسرة ، أما يزيدجرد الثالث فقد فر إلى الحدود الشرقية وقتل في خراسان سنة ٣١ هـ في خلافة عثمان بن عفان .

وهكذا دانت فارس جميعها للعرب وتحولت إلى ولاية عربية . وبنى المسلمون الكوفة والبصرة ، واتخذوا الكوفة مقراً لحكومتهم بدل المدائن ، واعتنق الفرس الإسلام واختلطوا بالعرب ، وأصبحوا عنصراً إسلامياً مهماً . وأظهر المسلمون معهم تسامحاً وفرضوا على من لم يقبل الإسلام منهم جزية ، وفيما عدا ذلك لم يتدخل العرب في شئون الفرس الدينية . ولا شك أن العرب قد جنوا ثمار هذه الانتصارات التي أحرزوها على الفرس : فضموا إلى بلادهم بلداً جديداً ، وأنزوا وأصبحوا في رغد من العيش بعد أن امتلأوا كنوز الفرس ، وقد بهرت تلك النفائس والأموال العرب الذين اعتادوا التقشف والبساطة . أما الفرس فقد رحبوا بالعرب : الذين خلصوهم من استبداد آل ساسان ، واعتنق عدد كبير منهم الإسلام ، ودفع غير المسلمين جزية الردوس نظير إعفائهم من الخدمة العسكرية . أما الخراج فقد فرض على الأرض ، إذا تركها المسلمون في أيدي أصحابها يزرعون مقابل تلك الضريبة حتى يتفرغ المسلمون للجهاد جنوداً لهم مرتبات ثابتة من بيت المال . على أن زواج الحسين بن علي من ابنة يزيدجرد آخر

ملوك فارس ، كان من العوامل الرئيسية في انتشار الإسلام في بلاد الفرس ، فقد رأوا في أبناء الحسين ، ورثة ملوكهم الأقدمين . وهذا أدى إلى تعلق الفرس بعلي بن أبي طالب وذيروع المذهب الشيعي في بلادهم^(١) .

٢ - فتح الشام وفلسطين :

كانت جيوش المسلمين تحت إمرة خالد بن الوليد^(٢) قد انتصرت انتصاراً باهراً على الروم في موقعة اليرموك ، وبدأت تتجه لحصار دمشق . وقد توفي أبو بكر في هذا الحين وخلفه عمر بن الخطاب فأصر بأن تستمر الجيوش الإسلامية في القتال ، واستطاعت أن تفتح دمشق وكان ذلك في أواخر سنة ١٣ هـ ، وبعد فتحها انتصرت الجيوش الإسلامية على الروم في مكان يسمى *خَل*^(٣) ، وبعد قتال شديد انهزم الروم وطاردتهم المسلمون ووخزهم بالرمح حتى أصيبوا جميعاً وكانوا ثمانين ألفاً^(٤) .

بعد ذلك استولى قسم من الجيش الإسلامي بقيادة أبي عبيدة وخالد بن الوليد على حمص وحماة وقنسرين واللاذقية وحلب ، في حين ذهب جزء آخر من الجيش بقيادة شرحبيل وعمر بن العاص إلى بيسان وطبرية وأرغموا أهلها على الصلح بعد حصار دام عدة أيام ، وتم بذلك صلح الأردن ، وكتب عمرو بن العاص إلى عمر ينبئته بالفتح^(٥) .

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن ص ١٨١ — ١٨٢ .

(٢) أصبح خالد فيما بعد تحت إمرة أبي عبيدة ، إذ كان عمر بن الخطاب قد عزله وولى أبا عبيدة قيادة الجيش ، وحدث ذلك عندما كان العرب يقاثلون في اليرموك واستنجد أبو عبيدة أن يقرأ على خالد كتاب العزل حتى تفتح دمشق ، وجرى الصلح على يدى خالد وكتب المكتب باسمه . انظر — حسن ابراهيم حسن . تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ١٨٥ .

(٣) *خَل* : بكسر أوله وسكون ثمانية وآخره لام ، هو موضع بالشام . ياقوت : معجم البلدان .

(٤) ياقوت : نفس المصدر .

(٥) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٠١ — ٢١١ .

انتصر عمرو بن العاص على الأرطوبون وإلى فلسطين الروماني ، عند أجنادين سنة ١٥ هـ ، وانتصر عليه بعد قتال شديد لا يقل أهمية عن القتال الذي دار عند اليرموك ، واضطره أن يلجأ هو ومن بقي من الثمانين ألفا الذين كانوا يحاربون معه في أجنادين إلى بيت المقدس ، وكان من نتائجها المباشرة أن خضعت لسلطان العرب : عسقلان ونابلس ويافا والرملة وغزة وبيروت .

وقصد عمرو بن العاص بعد ذلك بيت المقدس ، وحاصرها أربعة أشهر لم ينقطع فيها القتال ، وأخيراً رضيت المدينة المقدسة بالتسليم على أن يتم ذلك بحضور عمر بن الخطاب نفسه ، ورضى بهذا عمرو ورحل إلى الجابية ، وتم فتح بيت المقدس سنة ١٦ هـ ، وسلمت قيسارية للجيش الإسلامي بقيادة عمرو ابن العاص بعد أن غادرها قسطنطين بن هرقل خفية ، وقد ملئت نفسه خوفاً لأنه علم أن أباه قد هرب من أنطاكية وأن عمرو بن العاص قد اخترق أسوار قيسارية ، فانسل من قصره هو وأسرته ، وفي الصباح علم الأهليون بهرب أميرهم فسلوا لعمرو^(١) .

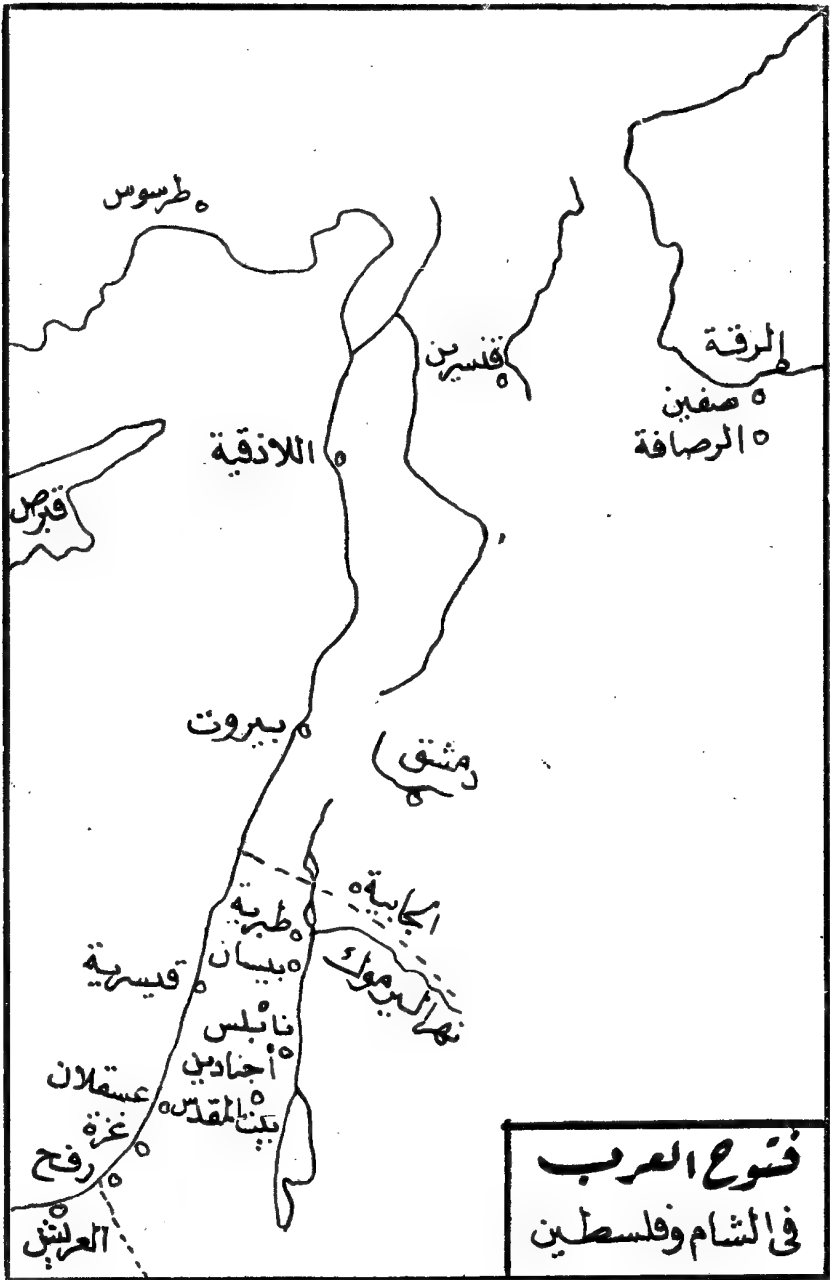
بذلك قضى على نفوذ الروم في الشام ، ويكفي لتقدير عظم جهود المسلمين ، أنهم فقدوا في حرب الشام ما يزيد على خمسة وعشرين ألف مقاتل .

٣ - فتح مصر :

ناقش عمرو بن العاص الخليفة عمر بن الخطاب عند قدومه إلى الجابية في موضوع فتح مصر^(٢) ، فتردد عمر لإشفاقه على المسلمين من أن يصيبهم الفشل : فقد كانت الجنود الإسلامية في ذلك الوقت متفرقة في الشام والجزيرة وفارس لقتال الروم والفرس . ولم يكن في استطاعة عمر أن يجمع لفتح هذه البلاد جيشاً

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ١٧٩ .

(٢) انظر — على إبراهيم حسن : مصر في العصور الوسطى ص ٢٥ — ٣٣ حيث نجد تفصيلاً لفتح مصر .



كبيراً ، كما أن عمرو كان يخشى من التوسع في الفتح لاسيما وأن أقدام المسلمين لم تثبت بعد في البلاد التي فتحوها .

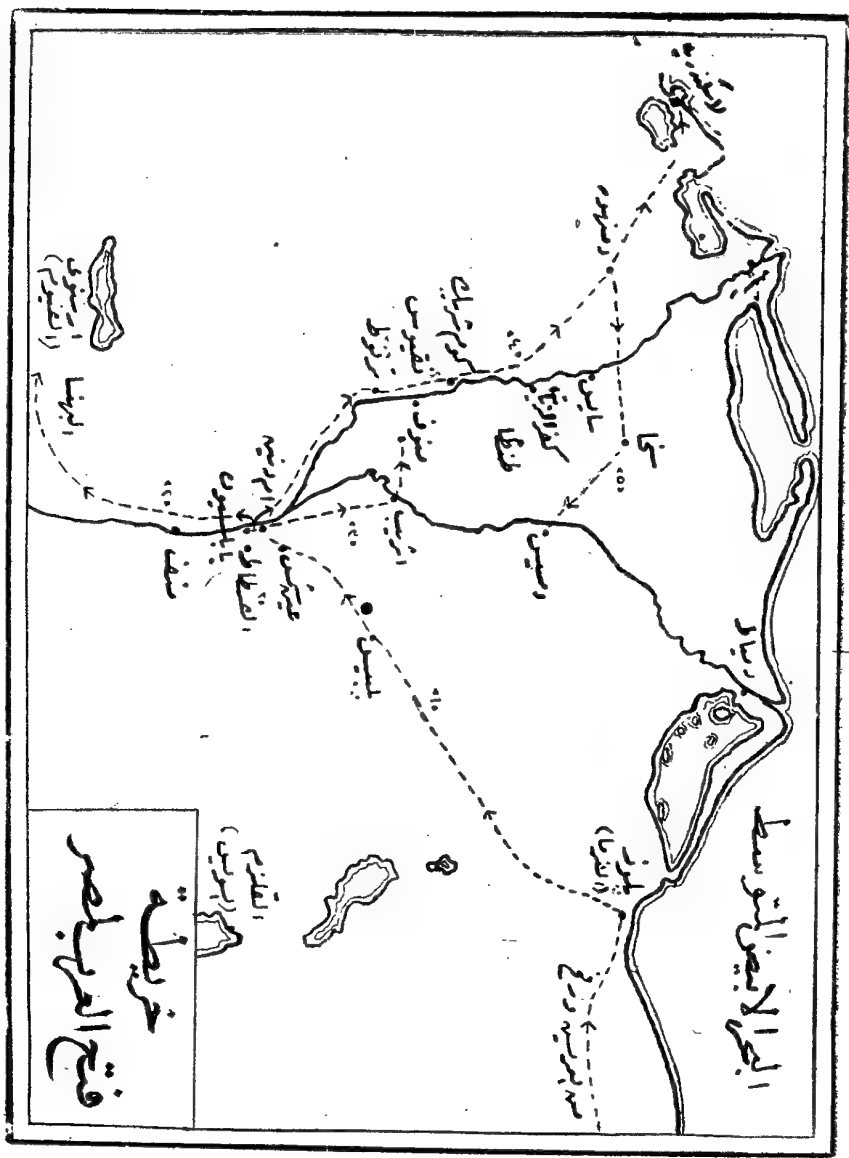
أخذ عمرو يهون على عمر فتح مصر ، ويذكر له : أنه دخلها في الجاهلية وعرف طيب تربتها وخصوبة أرضها ومقدار ثروتها وخيرها ، وأوضح له أن الاستيلاء عليها يثبت فتوح العرب في الشام وفلسطين ، ويؤمنها من ناحية الجنوب وأن موقع مصر الجغرافي يساعد العرب على الاستيلاء على المغرب والأندلس ، فضلاً عن تحقيق أهم غرض للفتوح الإسلامية وهو نشر الديانة الإسلامية في بقعة جديدة .

لم يزل عمرو بعمر حتى رضى وأذن له بأربعة آلاف مقاتل . وقال لعمرو :
إني مرسل إليك كتاباً فإن أدركك وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيء من أرضها فانصرف ، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض واستعن بالله واستنصره^(١) . وسواء وصل كتاب عمر لعمرو أم لم يصل ، فإنه سار في طريقه إلى مصر وحارب الروم وهزمهم في العريش وبلبيس ، وأم دنين ، وعين شمس ، واقتحم حصن بابليون مقر القيادة الرومانية ، وفتح الإسكندرية . عاصمه الديار المصرية إذ ذاك . وواصل فتوحاته حتى تم له الاستيلاء على مصر وأصبحت ولاية إسلامية ، وقد رحب القبط بالعرب لتخليصهم من ظلم الرومان فلم يساعدوا الروم ضد العرب بل أمدوا العرب بالعلافة والمؤن وغير ذلك .

العوامل التي سهلت انتصار العرب على الروم والفرس :

امتاز العرب على أعدائهم من الفرس والروم بالصبر على مشاق القتال والاكتفاء بالقليل من الزاد ، وامتازوا بالحماسة الدينية التي بثها النبي عليه الصلاة

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٥٣ .



والسلام في نفوسهم ، وبالحرص على الخروج من دائرة بلادهم إلى بلاد أخرى كثيرة الموارد وفيرة الخيرات . وقد أفسدت المدنية ، الإمبراطورية الرومانية الشرقية : إذ انغمس أهلها في وسائل الترف والنعيم ، وتصدعت أركانها : إذ لم يكن بين شعوبها رابطة أو تآلف لاختلافهم في الديانة والقومية والجنسية مما جعل اتحادها لصعد الفتح العربي عسيراً ، كما رحبت الشعوب الخاضعة لها بالعرب لتخلصهم من اضطهادات الرومان وضرائبهم الفادحة ، وكذلك كان العرب يحيدون بعض الفنون الحربية التي لا يجيدها خصومهم كفن الرماية . وكانت معظم الجيوش العربية تتكون من الخيالة ، أما الرومان فكانت جيوشهم تتكون من المشاة وكانوا يستعملون العدد الثقيلة التي تعوق حركات الخيش ، على حين كانت عدد الحرب عند العرب بسيطة ، فكانوا يستخدمون الرمح الذي نسمع عنه كثيراً في تشبهات العرب وأشعارهم ، والسيف الذي يعتبر من أشرف أسلحتهم .

ترك العرب الحرية الدينية للقبط ، وخبروهم بين الإسلام فيكون لهم حقوق المسلمين وعليهم واجباتهم ، أو البقاء على دينهم فتفرض عليهم جزية قدرها ديناران للقادرين واستثنى منهم النساء والشيوخ والأطفال ، وتمهد عمرو بحماية كنائسهم ، واستقبل بطريقهم عند عودته إلى الإسكندرية بالترحيب ، وأصبح اليعاقبة والمللكانيون سواء أمام العرب ، وتركت الأرض لهم ، فضلاً عن الإصلاحات التي تمت مما زاد في ثروة القبط وحسن أحوالهم ، فשמروا بالطمأنينة تحت حكم العرب ^(١) .

(١) على إبراهيم حسن : مصر في العصور الوسطى ص ٣١ — ٣٢ .

مفئات عمر :

١ — تأسيس البصرة . أسس عمر بن الخطاب في سنة ١٦ هـ مدينة البصرة واتخذها مقراً لحكومة العرب في فارس بدلا من المدائن عاصمتهم القديمة . وكانت البصرة من أول أمرها أشبه بالقرية منها إلى المدينة ، ولذلك فضلها العرب عن المدائن لأنهم لم يألّفوا سكنى المدن الكبيرة ، كما أن عمر أراد ألا يكون بينها وبينه بحر إذا أراد أن يمد العرب في فارس بالجنود^(١) . وقد أصبحت البصرة بعد فترة قصيرة من أهم المراكز التجارية في العالم وخاصة في تجارة الشرق في العصور الوسطى بين الهند والصين .

٢ — تأسيس الكوفة : كذلك أسس العرب مدينة الكوفة سنة ١٧ هـ عند ما ضاقوا بالبصرة لكثرة مياهها ومستنقعاتها ، واتخذها على بن أبي طالب فيما بعد حاضرة للخلافة بدلا من المدينة المنورة .

وقد أنشأ العرب مساكنهم في البصرة والكوفة من الغاب والخيام ، ثم بنوها بالابن لما لم تقو على مقاومة النار ، ثم بالحجارة لما زادت ثروتهم ، وقد بنى في كل منهما مسجداً ، ثم اختطت الطرق والدروب واتخذت القبائل لها خططا ومقابر ، وروعى في بنائهما أن تكونا من الرحب والسعة بحيث لا يشمر العرب بتغيير بيئتهم السابقة ذات الهواء النقي والفضاء الواسع ، وأصبحت المدينتان بعد فترة وجيزة من أهم مراكز العلم والسياسة والاقتصاد في العالم الإسلامي .

٣ — تأسيس القسطنطينية^(٢) : شرع عمرو بعد فتح الإسكندرية — وكان قد نزل بجنده بجوار حصن نابليون — في تأسيس مدينة القسطنطينية سنة ٢٠ هـ

(١) الفخرى ص ٧٨ .

(٢) على إبراهيم حسن : مصر في العصور الوسطى ص ٣٩٢ — ٤٠١ .

التي لم تلبث بعد إنشائها أن اتسع نطاقها ، وأصبحت حاضرة البلاد المصرية . وقد راعى عمرو في اختياره موضع الفسطاط : أن يجعلها في مأمن من هجمات العدو ويسهل وصول المؤن والأقوات إليها لما كان حولها من المزارع إذ كان النيل يحوطها غربا وجبل المقطم شرقا ، أضف إلى ذلك وقوعها على رأس الدلتا مما يسهل معه الإشراف على الوجهين البحري والقبلي . واتخذ عمرو الفسطاط مقراً للحكم ، ثم جاءت القبائل العربية فتناфست على المواضع ، فعين لهم عمرو أربعة من رؤساء جنده ، جعلوا لكل قبيلة خطة ، وهي أشبه بالحارات الآن . وظلت الفسطاط تتدرج في العمران حتى وصلت إلى درجة كبيرة من الرقي . ويرجع في تسميتها « الفسطاط » رأى المؤرخين الذين ينسبون تلك التسمية لفسطاط عمرو (خيمته) الذي باضت فيه اليمامة ، وقد خلفه عندما ذهب لقتال الروم في الأسكندرية . وفي تلك العاصمة أنشئ « جامع عمرو » الذي بناه عمرو ابن العاص في خلافة عمر سنة ٢١ هـ ، وهو أقدم جوامع مصر الإسلامية حتى أطلق عليه المسجد العتيق وتاج الجوامع والمسجد الجامع . كما أمر عمرو بحفر خليج أمير المؤمنين لتصل الأقوات عن طريقه بالمراكب للحجاز ، وقد تم تجديده في سنة واحدة ، سنة ٢٣ هـ ، فضلا عن مقاييس النيل وما تتطلبه الزراعة من حفر الترع وشق القنوات .

مصرع عمر :

قتل عمر على يد أبي لؤلؤة « فيروز » غلام للمغيرة بن شعبة ، وقد قيل إن عمر بن الخطاب خرج يطوف بالسوق ، فلقه أبو لؤلؤة فقال : يا أمير المؤمنين أعني على المغيرة بن شعبة فإن عليّ خراجا كثيرا ، قال : كم خراجك ؟ قال : درهمان كل يوم ! قال : وما صناعتك ؟ قال : نجار ، نقاش ، حداد ، قال : فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال ، فقد بلغني أنك تقول : لو أردت أن أعمل رحي تطحن الريح فعملت . قال : نعم . قال : فاعمل لي

رحى ، فقال أبو لؤلؤة موريا : « إن شئت لأعلن لك رحا يتحدث بها من في المشرق والمغرب » ثم انصرف عنه ، فقال عمر : لقد توعدني العبد .

وفي صباح اليوم الثالث ، ذهب عمر مبكراً كعادته وأمام الناس في الصلاة ، وإذا بأبي لؤلؤة يشق صفوف المصلين وفي يده خنجر ويظعن عمر ست طعنات ، كانت إحداها هي القاتلة ، وحاول فيروز الهرب فلم يفلح ، ويقال : إنه قتل نفسه . ومكث عمر ثلاثة أيام بعد إصابته محتفظاً بقواه العقلية ، وضع خلالها نظاماً ليعين بمقتضاه الخليفة من بعده ، ولما حانت منيته استأذن السيدة عائشة في أن يدفن بجوار الرسول ، وتم له ما أراد . وعندما أحس الموت دعا ابنه عبد الله وقال له : إذهب إلى عائشة أم المؤمنين قل لها إن عمر بن الخطاب يقرأ عليك السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين فإنى لست للمؤمنين أميراً ، ويستأذنك في أن يدفن مع صاحبه ، فذهب عبد الله فقال ذلك لعائشة وعاد إلى أبيه بإذنها ، فقال لابنه : أحملوني على سرير فإذا وصلتكم إلى بيت عائشة ، فلا تدخلوا حتى تستأذنوا ، وقد حمل سرير عمر ، حتى إذا بلغوا بيت عائشة قالوا : إن عمر بن الخطاب يستأذن عائشة أم المؤمنين ، ولم يدخلوا السرير حتى أذنت عائشة . وهناك دفن عمر بن الخطاب مع صاحبيه : محمد رسول الله وأبي بكر أول خلفاء المسلمين . ومات عمر وهو في الثالثة والستين من عمره ، وهي السن التي توفي فيها النبي وأبو بكر .

شخصية عمر :

كان شدة عمر في خلافته من أظهر ما امتاز به ، فقد كان إذا أمر بشيء أو نهى عنه ، بدأ بتنفيذ ذلك في أهله أولاً ^(١) . كما كان شديداً على ولاته ،

(١) ذكر ابن الجوزي أن عبد الرحمن بن عمر قد سكر في مصر في خلافة عمرو ابن العاص ، وكانت عمر قد كتبت لعمرو : إياك أن يقدم أحد من أهل فتحبوه بأمر لا تصنعه لغيره ، فأقبل بك ما أنت أهله ، فجلده عمرو ، ولما قدم عبد الرحمن على عمر جلده وعاقبه أيضاً . سيرة عمر بن الخطاب ص ٢٠٧

فكان يخشى أن يرهبوا الناس فيذلوها نفوسهم ويعلمهم الجبن ، لذلك فتح صدره لأى شكوى من عماله ، وأعلن هذه الخطة لعامة المسلمين فى خطبه ، وكان يسأل الرعية إذ وفدت عليه فى مناسبات الحج وغيرها عن حال أمرائهم ، ويتفقد بنفسه أحوال الناس ويطوف فى الأسواق وهو يقرأ القرآن .

اشتهر عمر بالشجاعة والجرأة ، لهذا رأينا المسلمين بعد أن كانوا يعبدون الله مستخفين فى دار ابن الأرقم قد خرجوا من مكنتهم ، وأعلنوا إسلامهم ودعوا الناس إليه معلنين مظاهرين ، ذلك لأن عمر بارز خصوم الإسلام من قريش ، ودافع عنه بصدره وسلاحه ، وقال للمسلمين : لا يعبد الله سراً بعد اليوم ، ولما أذن الله بالهجرة لرسول الله هاجروا مستخفين إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وطاف بالكعبة قائلاً : من أراد أن تشكله أمه أو يتيم ولده أو يرمل زوجته فليتبعنى وراء الوادى .

ويدلنا على حرص عمر على مال المسلمين أنه حبس أبا سفيان بن حرب وهو من سادات قريش وزعمائها ، حتى ردت زوجته هند قرصاً أخذته من بيت مال المسلمين . وكان عمر يدهن إبل الصدقة بالقار^(١) ، وكانت مملوكة لبيت المال مما يجمع من الزكاة وغيرها ويتصدق بالإنفاق على فقراء المسلمين .

وعرف عمر بالفقه فى الدين حتى أنه كان يفتى الناس هو وأبو بكر الصديق زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) . واشتهر برغبته فى معرفة أحوال الناس ليتعرف ما يمكن أن يكون قد أصابهم من شر أو نالهم من مكروه ، فكان بعد

(١) الطبرى ج ٥ ص ٣٣

(٢) النووى وتهذيب الأسماء واللغات ج ٢ ص ١٩٠ .

الصلاة يخرج في الليل يتجسس أخبار الناس بسمع أحاديثهم مستخفياً ، ليمكن بذلك من إصلاح حالهم .

وتلقب عمر بلقب أمير المؤمنين ، إذ نقل عليه لقب « خليفة رسول الله » ، ومعنى لقب أمير المؤمنين أن المؤمنين قد استحالوا إلى قوة ، وأن عمر صار أميراً ورئيساً لهذه القوة ، كما كان عمر أول من اتخذ يوم هجرة الرسول مبدأ للتاريخ الإسلامي .

وكان عمر بسيطاً في معيشته ، إذ كان في زيه ومظهره رجلاً عادياً ، وحدث أن الهرمزان كان قد أسروحيء به إلى المدينة ، وسبق وحوله حاشيته في أبهته وثيابه الحريرية ، إلى عمر في المسجد حيث كان نائماً ، فأخذ الهرمزان العجب عند ما علم أن ذلك الرجل هو الخليفة . وقيل إن قيصر أرسل رسولا لعمر ، فلما دخل الرسول المدينة ، سأل أهلها : أين ملككم ؟ فقالوا مالنا ملك بل لنا أمير قد خرج إلى ظاهر المدينة ، فجاء الرسول في طلبه ، فرآه نائماً في الشمس على الأرض فوق الرمل الحار ، وقد وضع درته كالوسادة والعرق يتصبب من جبينه حتى بل الأرض ، فكان ذلك موضع دهشته .

وقد أجمع المؤرخون من العرب والإفرنج على أن عمر كان من أعظم رجال السياسة ، فإن الدولة الإسلامية جاءت ثمرة جهود رجال ثلاثة : محمد عليه السلام وهو موجد الديانة الإسلامية ومؤسس الدولة العربية ، وأبي بكر الذي حافظ على الدين وتلك الدولة من الأخطار ، وعمر الذي أقام الدولة على أسس متينة وشيد صرحها عالياً .

٣ - عثمان بن عفان

٢٣ - ٨٣٥ = ٦٤٤ - ٦٥٦ م

اختصار:

طلعن أبو لؤلؤة ، عمر بن الخطاب طعناته القاتلة بمنجبره المسموم ، فأصبحت حياة عمر في خطر محقق وبدأ الناس يتكلمون في أمر الخلافة ، وطلبوا إليه أن يمهّد لأحد بها ، فتردد في الأمر ، ويظهر أنه لم يكن يفكر في الشخص الذي يخلفه ، ولم يأخذ الأمر عدته وإنما فوجيء به ولذلك طلب مهلة يفكر فيها ، وعرض عليه بعضهم أن يمهّد بالخلافة إلى ابنه عبد الله فرفض وأظهر أنه لم يكثر بالأمر . ويستدل على ذلك من قوله : وانظر فإن استخلف فقد استخلف من هو خير مني ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني ولن يضيع الله دينه .

خشى المسلمون سوء العاقبة إن فارق عمر الحياة دون أن يمهّد لأحد ، فجاؤا مرة أخرى مكررين الرجاء ، فاختار عمر ستة من أكابر أصحاب رسول الله وهم : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله . ودعاهم إليه إلا طلحة فقد كان غائباً^(١) ، ثم خاطبهم قائلاً : إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض ، إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكنني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة فنشاوروا واختاروا رجلاً منكم . فاجتمعوا قريباً منه ، ولم يلبث أن ارتفعت أصواتهم ، فقال لهم : ألا أعرضوا

(١) حسن إبراهيم وعلي إبراهيم : انظم الإسلامية ص ٣٩ - ٤٠ .

عن هذا أجمعين . فإذا امت فتشاوروا ثلاثة أيام وليصل بالناس صهييب ، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر ، وطلحة شريككم في الأمر فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضره أمركم . وقال للمقداد بن الأسود : إذا وضعتوني في حفرتي : فاجمع هؤلاء الرهط في بيت ، حتى يختاروا رجلاً منهم ، وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن ، عوف وطلحة إذا قدم ، وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الأمر ، وقم على رؤوسهم : فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف ، وإن اتفق أربعة رجلاً منهم وأبى إثنان فاضرب رأسيهما ، فإن رضى ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم فكوا عبد الله بن عمر ، فأبى الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم ، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله ابن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس ^(١) .

وبعد أن دفن عمر ، اجتمعوا تنفيذاً لوصيته ، وكان طلحة غائباً ، ولكن طال بهم النقاش والجدل واشتد التنافس ، حتى أصبح يخشى أن تمضي الأيام الثلاثة دون أن ينتخب الخليفة . إلا أن عبد الرحمن بن عوف أخذ يحدث كلا منهم على انفراد ، ليستطلع آراءهم ويقف على حقيقة ما في ضمائرهم ويمهد السبيل للاختيار النهائي . وقضى عبد الرحمن كل وقته مستطلعاً آراء المسلمين من الصحابة وأشرف الناس ومفكرهم . ولما انتهى من طوافه ومحادثاته ، دعا الكثير من أهل الفضل إلى المسجد حتى ازدحم بهم ، وبعد أن صلوا الصبح بدأ الجدل والكلام . فقام عبد الرحمن وقال : أيها الناس ! إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم ، وقد علوا أميرهم ، فلما اشتد الجدل والنقاش ، قال سعد بن أبي وقاص لعبد الرحمن : أفرغ قبل أن يفتتن الناس . وأخيراً

دعا عبد الرحمن عليا وقال له : عليك عهد الله وميثاقه لئعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ، قال علي : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ على وطاقتي ، ثم أبلغ عبد الرحمن عثمان ما قاله لعل ، فقال عثمان : نعم ، فبايعه على . وهكذا أعلن عبد الرحمن مبايعته لعثمان ، فأقبل عليه الناس جميعاً يبايعونه ، وبذلك نال عثمان الخلافة ، فقال على لعبد الرحمن : لقد حبوته حبو دهر ، ليس هذا أول يوم تظاهرت فيه علينا ، فصبر جمل والله المستعان ، والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك ، والله كل يوم هو في شأن^(١) .

وبعد أن بويع عثمان خطب في الناس خطبته المشهورة التي تتعلق بالدين قال فيها : إنكم في دار قلعكم^(٢) وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فإن أيتم صبحتم أو مسيتم . إلا وأن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور إرموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً — والذي هو خير — فقال عز وجل : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقدرًا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً)^(٣) .

اتساع الدولة العربية زمن عثمان :

كان ميدان الفتوح الإسلامية في زمن عثمان في الشرق والشمال والغرب من الجزيرة العربية . ففي الشرق خرجت فارس بعد مقتل عمر على السيادة

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٣٠ — ٣١ .

(٢) ليست بمستوطن .

(٣) الطبري ج ٤ ص ٤٣ .

الإسلامية وهم الفرس باسترجاع مُلكهم بقيادة يزدجرد بن شهریار آخر الملوك الساسانيين ، فعهد عثمان إلى عبد الله بن عامر عامله على البصرة لقمع هذه الثورة ، ففضى عبد الله على الفتنة في فارس ثم تابع سيره إلى خراسان وفتحها بعد أن ترك لجنده أمر إعادة سلطان الدولة في كرمان وسجستان ، وفي أثناء هذه الحروب طورد يزدجرد وتوفي وقيل إنه قتل سنة ٣١ هـ على يد بعض الفرس المسيحيين ، وبموته انتهت سلسلة ملوك الدولة الساسانية في فارس .

وفي عهد عثمان بن عفان فتح سعيد بن العاص بلاد طبرستان ، وقيل إن جيش المسلمين كان يضم الحسن والحسين ابني علي^(١) . وكذلك طلب ملك جرجان الصلح من سعيد بن العاص وتعهد بأن يدفع له مائتي ألف درهم كل عام^(٢) . وعبر الأحنف بن قيس نهر جيحون فصالحه أهالي بلاد ما وراء النهر ، ثم توغل في طخارستان وفتحها مدينة بعد أخرى حتى أرغم أهلها على مصالحته^(٣) .

وكانت الشام في عهد عثمان مقسمة بين الأمراء المسلمين ، وكان معاوية يحكم جزءاً كبيراً منها وعرف بحسن السياسة والتدبير ، وتمكن من جمع الشام كلها تحت حكمه وأصبح أشبه بملك مستقل ، فقد مكث أميراً عليها مدة طويلة بلغت العشرين عاماً ، وصار له في قلوب أهل الشام مكانة سامية كان لها أكبر الأثر في تعصيدهم له عندما عزله عليّ ورفض معاوية أن يطيع ذلك الأمر .

وفي مصر عزل عثمان بن عفان وإليها همرو بن العاص وولى عليها أخاه

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٤٢ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ١٩٨ .

(٣) البلاذري : نفس المصدر ص ٤١٥ .

من الرضاة عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وكانت مصر إذ ذاك مهددة من الدولة البيزنطية ، ومع ذلك فقد غزا ابن أبي السرح الإقليم المسمى إفريقية^(١) لتأمين حدود مصر الغربية^(٢) .

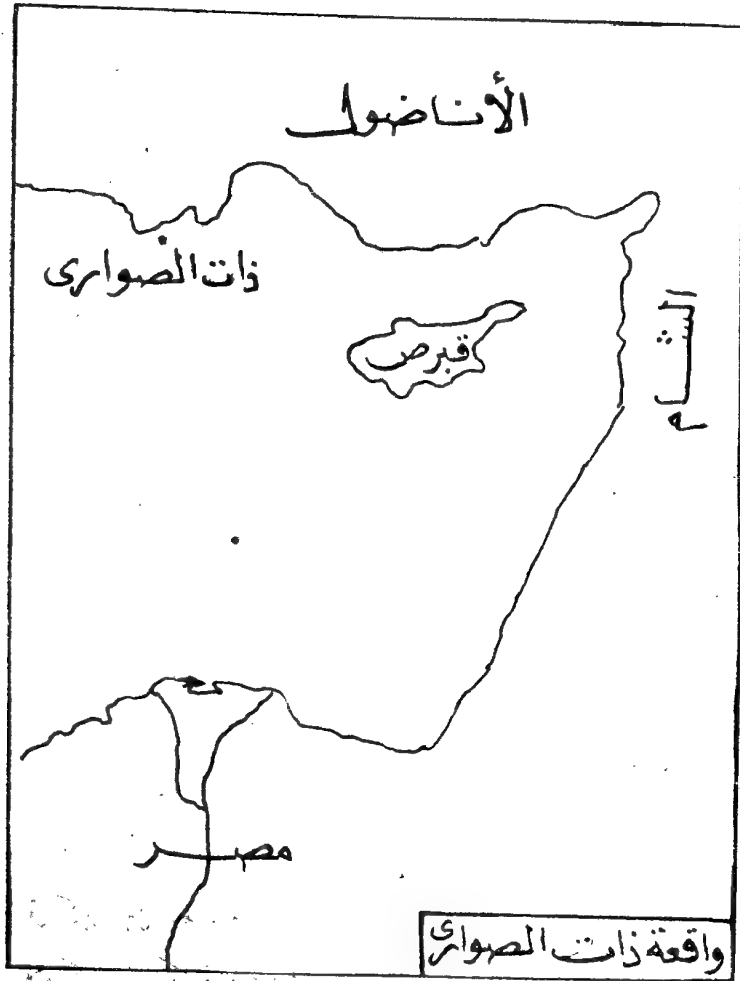
كانت الدولة العربية حتى وفاة عمر دولة برية وليست بحرية : فكانت جيوشها تحارب براً ، ولم نسمع إلى ذلك الوقت بواقعة بحرية أو بإنشاء أسطول ، ولكن في عهد عثمان ابتدأت الدولة الإسلامية في تكوين قوة بحرية كبيرة . ويقال إن معاوية استأذن عمر في إنشاء أسطول يفتزو به الروم في البحر ، وذلك لأن معاوية وجد أن أساطيل الروم لا تبرح تهدد شواطئ الشام ، إلا أن عمر امتنع عن ذلك لخوفه على المسلمين من ركوب البحر ، ولكن الضرورة كانت ماسة لإنشاء أسطول ، إذ أصبح العرب أمام البيزنطيين وجهاً لوجه ، فلما جاءت خلافة عثمان عرض عليه معاوية الفكرة من جديد ، فأذن له عثمان على شرط ألا يجبر مسلماً على ركوب البحر ، فجدت معاوية في إنشاء أسطول جعل رجاله من العرب اليمنيين ، وأمر على الأسطول الإسلامي عبد الله بن قيس الحارثي فكان أول أمراء البحر ، وقد حارب معاوية بهذا الأسطول البيزنطيين حتى وصل إلى عمورية في آسيا الصغرى كما استولى على جزيرتي قبرص ورودم وفتح كثيراً من الحصون ، وسار إلى أرمينية الصغرى حتى وصل إلى قاليقلا^(٣) فصالحه أهلها ثم استمر في فتوحه حتى بلغ تفليس .

وفي سنة ٥٣٤ هـ حدث بين العرب في مصر بقيادة عبد الله بن أبي السرح وبين قسطنطين ملك الروم ، موقعة بحرية هامة في البحر الأبيض المتوسط ، تعرف

(١) تونس الحالية .

(٢) على إبراهيم حسن : مصر في العصور الوسطى ص ٤٣ — ٤٤ .

(٣) هي البلاد التي فوق زاوية خليج اسكندرونة ، وهي تعرف باسم كيليكيا وتعرف عند العرب باسم قاليقلا .



مصر

١٩٤٧ - ١٩٤٨
The Ministry of Defense
١٩٤٧ - ١٩٤٨

بموقعة ذات الصواري بالقرب من مدينة الإسكندرية حين حاول الروم استرجاع مصر ، وكان النصر فيها للعرب ، وسميت بذلك الاسم لكثرة عدد السفن التي اشتركت في المعركة ، ومنذ ذلك الوقت بدأ الأسطول العربي يقوم بدور هام في التاريخ الإسلامي .

وكان عمرو بن العاص قد غزا بلاد النوبة ، فلما جاء ابن أبي السرح إلى مصر وتولى أمرها ، وجه نظره نحو الجنوب فغزا بلاد النوبة من جديد وواصل سيره حتى بلغ دنقلة ولكنه لم يتمكن من فتحها ، رغم ما بذله من جهود في القتال ، وكان ذلك سنة ٣١ هـ ، فاضطر إلى مهادنة أهلها وعقد الصلح معهم^(١) . وكان هذا الصلح أشبه بمعاهدة اقتصادية بين مصر وبلاد النوبة : فقد نصت على أن ترسل بلاد النوبة الرقيق إلى مصر ، على أن تصدر مصر إليها الحبوب والعدس^(٢) .

مقتل عثمان والأمرات التي أدت إليه :

إذا قارنا بين حال المسلمين في زمن النبي وأبي بكر وعمر وحالمهم في زمن عثمان ، نجد هناك فرقاً شاسعاً : ففي الزمن الأول كان المسلمون فقراء لم يفتنهم المال والعقار وامتلاك العبيد ، أما في زمن عثمان فقد نشأ من تدفق الأموال على بلاد العرب بعد استقرار النفوذ العربي في الأقاليم المفتوحة أن تغيرت حالة العرب الاجتماعية تغيراً ملحوظاً . كذلك تغيرت شخصية الخليفة ، فهناك فرق كبير بين شخصية النبي وأبي بكر وعمر وبين شخصية عثمان : فالنبي عليه السلام كانت له مكانة خاصة ممتازة كما كان زعيماً سياسياً قديراً على تصريف أمور الدولة وحكم أصحابه من بعده حكماً حازماً . وعرف أبو بكر وعمر بالعدل

(١) الكندي : كتاب الولاة ص ١٢ — ١٣ .

(٢) Stanley Lane—Poole : History of Egypt in the Middle Ages, pp. 20—21.

المقرون بالشدة ، ولكن عثمان من سوء حظه أنه حكم الدولة العربية بعد أن تغيرت أحوالها واتسعت أملاكها وكثرت أموالها وزادت مطامع رجالها ، ولذلك لم يكن موفقا في حكمه توفيق النبي وخلفائه الأوائل من بعده .
ويمكن إرجاع الفتنة التي أودت بعثمان ، إلى الأسباب الآتية : —

١ — سياسة عثمان في تولية الولاة :

ترك عثمان ولاية عمر بن الخطاب سنة واحدة في مراكزم ، ثم عزلهم الواحد بعد الآخر ، وعين بدلهم ولاية من بنى أمية كانوا حديثي السن وسيرتهم غير محمود .

عزل عثمان ، سعد بن أبي وقاص من ولاية الكوفة ، وولى مكانه الوليد بن عقبة أخاه من أمه ، وكان ذا ماض سيئ إذ كان النبي عليه السلام قد ولاه على صدقة بنى المصطلق وأرسله ليجمعها فكذب على الرسول وقال إنهم امتنعوا عن دفعها . وكذبه القرآن الكريم حيث يقول (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) (١) .
وسماه الرسول : الفاسق ، وعند ما عزله عثمان عين مكانه أمويا آخر هو سعيد ابن العاص ابن خاله ، وينسب إليه أنه قال : إن السواد بستان قریش ، أى أنه كان يرى إيثار قریش بالأموال والأملاك دون سائر الناس . وعزل عثمان أبا موسى الأشعري عن البصرة وعين بدلا منه عبد الله بن عامر ، وهو فقي في الخامسة والعشرين من عمره وابن خال عثمان أيضا . كذلك عزل عثمان عمرو بن العاص من مصر وعين مكانه أخاه في الرضاة عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، مع أنه كان قد ارتد عن الإسلام وكان النبي عند فتح مكة قد أهدر دمه ولم يعرف عنه إلا بعد أن أتى به عثمان مسلما

لذلك نعم المسلمون على عثمان لأنه عزل ولاية عمر من الأمصار ، وولاهها ذوى قريبه ومن كانوا على صلة به رغم أنهم يكونوا من ذوى السيرة الحسنة .

٢ — سياسة عثمان المالية :

خالف عثمان أبا بكر وعمر اللذين كانا يعيشان عيشة زهد وتقشف ويسيران على سياسة ترمي إلى المحافظة على أموال المسلمين وإنفاقها بحرص ، فقد مديده إلى بيت المال ليأخذ من أموال الدولة لنفسه ولأهل بيته ويعطيها أقاربه وكبار القرشيين ، وسمح لهم بالتملك خارج الحجاز كما سمح لسكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم وامتلاك الضياع فيها^(١) ، بينما منع عمر بن الخطاب أعلام قريش من الخروج إلى البلدان إلا بإذن ، وبذلك أوجد عثمان طبقة أصحاب الثروات الضخمة ، وخرج هؤلاء السادة من المهاجرين والأنصار إلى تلك الأقاليم النائية عن الحجاز وأنشأوا فيها أرسقراطية دينية تمتاز بالسبق إلى الإسلام وصحبة الرسول^(٢) . كذلك آوى عثمان ، الحكم بن أبي العاص أبا مروان بن الحكم وأعطاه مائة ألف درهم ولم يأوه أبو بكر وعمر ، ولما فتحت إفريقية أخذ عثمان الخمس ووهبه كله لمروان بن الحكم . وطلب إليه عبد الله ابن خالد بن أسيد صلة فأعطاه أربع مائة ألف درهم .

ولم يكثف عثمان بذلك بل إنه سمح لولائه الذين عينهم فى الولايات أن ينهجوا نهجه ، فدوا أيديهم إلى أموال المسلمين بحجة التقرب إلى الناس بالأموال والعطايا ، فأنار هذا كله الحقد عليه وقوى المعارضة ضد حكمه .

(١) الطبرى ج ٥ ص ١٢٤ .

(٢) حسن إبراهيم حسن . تاريخ الإسلام السيامى ج ١ ص ٢٧٤ .

٣ - تصرفات عثمان في الدولة الربيعية :

استحدث عثمان بن عفان في الدين عدة أمور ، لم توجد من قبل عهد الرسول عليه السلام ولا في عهد أبي بكر وعمر ، فقد جعل من القرآن نسخة واحدة رسمية هي النسخة التي جمعت في عهد أبي بكر وأغضب بعمله هذا جماعة من المسلمين على رأسهم عبد الله بن مسعود الذي رأى في إحراق النسخ الأخرى من القرآن ومن ضمنها نسخته خروجاً على الدين . وكان عثمان أول من قدّم الخطبة في العيد على الصلاة وأتم الصلاة في منى مخالفاً في ذلك النبي وأبا بكر وعمر الذين قصروها ، كما أخذ عثمان الزكاة على الخيل وخالف بذلك الرسول عليه السلام وأبا بكر وعمر .

— وصرف عثمان بن عفان من موارد الصدقة في الحروب وغيرها من المرافق ، مع أن لأموال الصدقة مصارف معينة بيّنها الله سبحانه وتعالى في قوله : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) . وبلغ من كره المسلمين لعثمان واعتراضهم على تصرفاته ، أنهم لم يقدرُوا تلك الإصلاحات التي قام بها ، ومن بينها توسيع مسجد الرسول عليه السلام .

٤ - حركة ابن سبأ^(١) ضد عثمان :

صادفت دعوة عبد الله بن سبأ ضد عثمان مرعى خصيباً في البصرة ، ولكن عبد الله بن عامر وإلى عثمان عليها تمكن من طرده منها ، فرحل ابن سبأ من الكوفة ، وهناك ظهر استياء الناس من عثمان وواليه وطرده ابن سبأ من الكوفة أيضاً ،

(١) هو يهودي من أهل صنعاء ، أمه حبشية واعتنق الإسلام في عهد عثمان ، وأخذ ينتقل في البلاد الإسلامية : فبدأ بالحجاز ثم البصرة فالكوفة فالشام ومصر .

فسار إلى بلاد الشام ، وحض على عثمان ، أبا ذر الغفارى وكان من المعارضين لسياسة الخليفة . وأخيراً رحل ابن سبأ إلى مصر وأخذ ينشر دعوته ، واتصل بالثائرين فى كل من البصرة والكوفة ، وكان يتبادل مع أهلها الكتب والرسائل والرسول ، وقد سهل على ابن سبأ تنفيذ سياسته فى مصر اشتداد سخط أهلها على عثمان بن عفان وعلى واليه عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، كما ساعد انضمام محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر إليه على إذكاء نيران السخط فى مصر ونجاح ابن سبأ فى سياسته التى سارعت بخلافة عثمان إلى الزوال .

٥ - اعتراضه الصحابة على سياسة عثمان^(١) :

غضب كثير من الصحابة على عثمان ، لاشتطاطه فى جباية الأموال وإغداقها على أقاربه وإسراف ولاته فى سفك الدماء . وكان أبو ذر الغفارى من أشد الصحابة سخطاً عليه ، فأخذ يحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء ، ودعا إلى عدم كنز الأموال ، وإلى صرف الفائض من أموال الأغنياء على الفقراء . متمثلاً بقوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بمذاب أليم ، يوم يحى عليها فى نار جهنم فتسكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون)^(٢) .

وقد غضب عثمان على أبى ذر الغفارى ، فأرسله إلى معاوية بالشام ، واسكن معاوية خاف على ولايته من دعوة أبى ذر ، وخاصة أن ابن سبأ حينما وفد إلى الشام حرص أبا ذر على معاوية ، فسيده معاوية إلى المدينة لما وجد فيه معارضا لسياسته ، فلما دخلها أبا ذر وجد المجتمعات تعقد بها للتأمر على عثمان ، فنادى فى المجتمعين : بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار^(٣) ،

(١) على إبراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٣٦ — ٣٧ .

(٢) سورة التوبة ٩ : ٣٤ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٧٥ .

وأخيراً نفاه عثمان إلى الربرة^(١) حيث مات سنة ٣١ هـ^(٢).

وكان عبد الرحمن بن عوف ، وهو ممن بايعوا عثمان بالخلافة ، من بين الغاضبين على عثمان ، وأخذ في بادئ الأمر ينصحه ، فلما ضاق ذرعاً بسياسته قاطعه وابتعد عنه . لم يرض علي بن أبي طالب عن عثمان واعترض علناً على سياسته وتصرفاته وأكثر من نصحه بدون جدوى ، حتى ساءت العلاقات بينهما ، وتدخل العباس بن عبد المطلب للتوفيق بين الرجلين ولكنه لم ينجح في مسعاه . وغضب كذلك عمار بن ياسر على عثمان وناله منه أذى كثير بسبب معارضته له ، وهدد بالنفي فذهب إلى مصر وانغم هناك إلى المعارضين . وكان من بين الذين غضبوا أيضاً على عثمان بسبب تصرفاته ، عبد الله بن مسعود وطلحة ابن عبيد الله الذي قيل إنه كان من بين الذين حاصروا عثمان في داره .

كان هؤلاء المعارضون من كبار الصحابة الذين لم تتجاوز معارضتهم حد النصيح . ولا شك أن موقفهم من عثمان ، كان بسبب ما رأوه من تنكبه الطريق السوى الذي سلكه الرسول وأبو بكر وعمر .

الحالة في الأمصار

٦ - في المدينة :

لم تسكن المصلحة العامة وحدها هي التي دعت إلى الثورة على عثمان : فقد رأى علي بن أبي طالب نفسه أحق بالخلافة من أبي بكر وعمر ، وكذلك راعى طلحة والزبير مصالحهما . على أن كبار الصحابة جميعاً كانوا خلال معالجتهم للحالة في الأمصار يعتبرون أنفسهم حماة للمصلحة العامة ، يمثلون النظم والتقاليد التي سار عليها النبي وأبو بكر وعمر . وأنتجت معارضة هؤلاء ظهور روح الثورة

(١) الربرة : قرية صغيرة على مقربة من المدينة .

(٢) السمودي : مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٨ .

في المدينة ، وهي بلدة كانت في حاجة ماسة إلى العون المادى والمدد العسكرى ،
ولذلك عمد أهل المدينة إلى الاتصال بالمسلمين فى الأمصار ، وخاصة البصرة
والكوفة والفسطاط ، فيما عدا بلاد الشام التى لم تثر على عثمان بفضل سياسة
معاوية .

٢ - فى الكوفة والبصرة :

ابتدأت الفتنة فى الكوفة فى سنة ٣٤ هـ ، وكان الى الكوفة سعد بن
أبى وقاص قد عزله عثمان ، وولى مكانه الوليد ، ثم عزله وولى سعيد بن أبى العاص
الذى اشتدت فى عهده الحالة فى الكوفة حتى اضطر إلى الخروج إلى المدينة ليطالع
الخليفة على حقيقة الحال ، فاتهم أهل الكوفة فرصة غيابه ومنعوه من دخولها
عند عودته إليها . وهنا يتضح ضعف عثمان ، فقد رضى بعزل سعيد وولى مكانه
أبا موسى الأشعرى ، وهو رجل ضعيف لم يستطع كبح الثوار . وكانت الحالة
فى البصرة مثلها فى الكوفة ، غير أن الثورة فى الكوفة كانت أشد منها
فى البصرة لكثرة عدد الجند بها .

٣ - فى الفسطاط :

أما فى الفسطاط ، فإن عثمان لما تولى الخلافة ، عزل عمرو بن العاص عن
ولاية مصر وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، فحسر بذلك صداقة
عمرو وهو رجل من أدهى رجال عصره ، فقد خرج من مصر بعد عزله وسار
إلى المدينة نائماً على عثمان ، فلما اشتدت الحال فى المدينة ذهب إلى فلسطين .
ولكن حنقه على عثمان كان فى ازدياد .

وفى مصر كان على رأس الثوار المصريين رجلان من كبار المحرضين على
عثمان هما : محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة ، فقد حقد ابن أبى حذيفة

على عثمان لأنه كان يأمل أن يوليه بعض أمور المسلمين ، ولكنه رفض^(١) ،
وظهر مسلكه العدائي لعثمان عند ما شجر الخلاف بينه وبين ابن أبي السرح
في واقعة ذات الصواري سنة ٣٤ هـ ، وابتدأت الثورة في مصر على الخليفة
في أثناء الغزوة التي انتهت بتلك الواقعة ، فقد خرج المصريون ومعهم محمد بن
أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة وانضم إليهما فريق من على رأيهما ، ويظهر أنهما
سخطا على عبد الله بن أبي السرح لأنه استأثر بالأموال والخزائن وعاون الخليفة
على ذلك . ولما وضعت الحرب أوزارها رجع ابن أبي حذيفة وابن أبي بكر إلى
الفسطاط ، حيث انضموا إلى ابن سبأ^(٢) . وهكذا نجح ابن سبأ في مصر في تأليب
الناس على عثمان ، وانضم إليه كثير من ذوى النفوذ والسلطان ، وبذا كانت
معارضة الأقاليم لحكم الخليفة أقوى من معارضة المدينة .

الدور العملي في الفتن :

أوجس عثمان خيفة من المعارضة التي قامت ضده في الأقاليم . ولذلك انتهز
فرصة موسم الحج سنة ٣٤ هـ ووجود ولاته المقربين إليه وهم معاوية وابن
أبي السرح وعبد الله بن عاصر وسعيد بن العاص ، واستشارهم في السياسة الواجب
اتباعها إزاء أهل الأمصار . على أن المعارضين لم يعطوا فرصة لولاة عثمان لتنفيذ
السياسة المرسومة : فأهل الكوفة حاولوا دون رجوع سعيد بن العاص إلى
ولايته واضطروا عثمان أن يولى بدلا منه أبا موسى الأشعري ، كما أن ابن
أبي حذيفة في مصر كاتب الثوار في البصرة والكوفة واتفقوا على الذهاب
إلى المدينة .

خرج وفد مصر وكان يتألف من ستائة شخص قاصداً المدينة ، وكذلك

(١) الطبري ج ٥ ص ١٣٥ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٢٨٣ ، هامش رقم ١ .

سارت وفود من الكوفة والبصرة ، ووصلت هذه الوفود إلى مكان قريب من المدينة واتصلت بعثمان ، ودارت بينه وبين هذه الوفود محادثات . وكان على بن أبي طالب هو السفير بين الثوار وبين عثمان ، وظهر ضعف عثمان من إجابته مطالب الثوار بمنزل الولاية وإرجاع الأموال ، ولكنه ضم على البقاء على عرش الخلافة عندما طاب إليه الثوار أن يعترفوا .

ظن الناس أن الثورة قد انتهت بإجابة مطالب الثوار وهوا بالرجوع ، ولكن في اليوم التالي هجم الثوار على المدينة واستعملوا أساليب العنف أثناء الهجوم ، ويرجع سبب ذلك إلى أن المصريين أثناء رجوعهم رأوا رجلاً على جمل البريد ، ولما شكوا في أمره فتشوه ، فوجدوا معه كتاباً يختم عثمان يأمر فيه واليه ابن أبي السرح بقتل كبار الثوار من المصريين ، وعندئذ عاد الوفد إلى المدينة ورجعت الوفود الأخرى وبدأوا يحاصرون دار عثمان . وقد ادعى عثمان أنه لم يكتب هذا الكتاب ولم يوقع عليه ، ولكن هذا الاعتذار لم يجد نفعاً ، وفي يوم الجمعة التالي لدخول الثوار المدينة خطب عثمان في الناس ونصحهم بالهدوء والسكينة ، ومنذ ذلك الوقت منع عثمان من الخروج من داره ومن الاتصال بالناس .

بدأ منذ ذلك الحين حصار دار عثمان ، فقد حاصرها الثوار أربعين يوماً وهددوه بالقتل ، فقال « والله لئن قتلتموني لا تتحاربون من بعدى أبداً ، ولا تصلون بعدى أبداً ، ولا تقتلون بعدى عدواً جميعاً أبداً » . وحاول أن يقنع الثوار بما قدمه من خدمات للإسلام والمسلمين ، ولكن الحماسة كانت قد أخذت من الثوار كل مأخذ ، فلم يعبأوا بقوله ، فاستنجد عثمان بعلي بن أبي طالب الذي حاول جاهداً أن يهديه من حماسة الثوار ، وأن يبمدم عن دار عثمان ولكنه أخفق فيما أراده . ثم استنجد بمعاوية بن أبي سفيان ، فكتب إليه كتاباً قال فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم — أما بعد ، فإن أهل المدينة قد كفروا ،

وأخلفوا الطاعة ، ونسكنوا البيعة ، فابعث إلى من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول .

وأرسل الثوار يستدعون أهل مصر خشية أن تحضر قوات من الأمصار لتنفذ الخليفة . ثم تسلق المنزل محمد بن أبي بكر الذي كان المصريون يودون أن يكون والياً عليهم ومعه رجالان ، ودخلوا على عثمان وهو جالس مع زوجته ، وطرحه ابن أبي بكر أرضاً وأخذ يشد لحيته ، فذكّره بأبيه ، فتركه محمد وخرج ، فانهز عثمان فرصة خروجه وأسرع يطلب ماء الوضوء فتوضأ وأحضر المصحف ومسك به ، حتى يجعل منه وقاية تقيه وحرزاً يحميه .

ولما صح عزم الثوار على الهجوم على الخليفة وجدوا أن أبناء الصحابة وفي مقدمتهم الحسن والحسين يقفون بباب الدار لحماية الخليفة ، فأحرق المصريون الباب والسقيفة ، فسقطت السقيفة . ودخل الثوار على عثمان ، فطعنه رجل من أهل السكوفة بسهم ذى نصل عريض ، وجاء آخر فضربه برجله ثم تتابع ستة رجال حتى دخل رجل من أهل مصر ، فنتف من لحية عثمان خصلة ، وضربه بقضيب من حديد على صدغه الأيسر ، وأرادت زوجته نائلة أن تحول بينه وبين الثوار ولكنها عجزت ، إذ دخل رجل من أهل مصر وضربه بالسيف ، فتلفت نائلة الضربة بيدها فقطعت أصابعها ، ولم تزل تدافع عن زوجها ، وتضرب أروع الأمثلة في الوفاء والإخلاص ، حتى دخل كنانة ابن بشر التجيبي ، فوضع طرف سيفه في بطن عثمان فبقره ^(١) ، وحاولت نائلة أن تمسك بالسيف فقطع أصابعها ، وأسلم عثمان أنفاسه الأخيرة ، فأخذت نائلة تصيح ، فخرج الثوار هاربين واندفع الصحابة إلى عثمان حيث وجدوه صريعاً ، فبكى كثير منهم ، وجاء على بن أبي طالب فصفع ولديه لعدم حمايتهما لعثمان . كان مقتل عثمان يوم الجمعة ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ هـ . وقد رثته ابنته

(١) محمود الغزاوي : مقتل عثمان بن عفان ص ٨٣ .

عائشة فقالت . « رحمة الله عليك يا أبتاه . . . احتسبت نفسك ، وصبرت لأمر ربك حتى لحقت به ، وهؤلاء الآن قد ظهر منهم تراوض الباطل وكوامن الأحقاد » ^(١) . أما زوجته نائلة ^(٢) فقالت « . . . رزئت جليلاً وتذوقت شكلاً من عثمان بن عفان ثالث الأركان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . فليعلمن الذين سمعوا في أمره ، ودبروا في قتله ، ومنعونا عن دفنه ^(٣) اللهم إن بنس للظالمين بدلاً ، وإنهم شر مكاناً وأضمر جنداً . . . هيهات والله ما مثله بموجود ولا مثل فعله بمعدود » .

وكان مقتل عثمان بداية الفتن والانقسامات في الإسلام حتى يومنا هذا ، وانتهت من ذلك التاريخ الخلافة الحقة القائمة على الفكرة الديمقراطية . وابتدأ ماسى بالملك ، واعتبر عهد علي بن أبي طالب الذى خلف عثمان فترة انتقال بين المهدين .

شخصية عثمان :

كان عثمان عندما اعتلى عرش الخلافة قد تقدم في السن تقدماً كبيراً ، فقد قيل إنه كان في ذلك الحين في السبعين من عمره ، وشفع له في الوصول إلى الخلافة ماضيه الجيد في سبيل الدعوة الإسلامية ، إذ كان أحد المشركين المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض ^(٤) .

(١) أشهر مشاهير الإسلام ج ٤ ص ٨٢٢ .

(٢) صارت نائلة مثالا لفداء الزوجة لزوجها ، ولو أدى ذلك إلى بذل دماها رخيصة في سبيل الدفاع عنه والحفاظ على حياته ، فقد دافعت عن زوجها دفاع الأبطال ، وقت أن حاقت بها المصائب من كل جانب ، بما خلد اسمها في التاريخ رمزاً للبطولة وعنواناً للخلاص . على إبراهيم حسن : نساء لمن في التاريخ الإسلامى نصيب ص ٦٢ .

(٣) تقصد هذه السيدة من قولها « ومنعونا من دفنه » : أن الثوار لم يكتفوا بقتله والتمثيل بجثته ورميها بالأحجار والنش محمول على الأعناق ، بل لأنهم لم يسمحوا بجنازته ولا بدفنه مع بقية الصحابة والخلفاء فدفنت جثته بمقبرة مجاورة لمقابر اليهود .

(٤) ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ج ٤ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

كان عثمان غنياً أنفق معظم أمواله في سبيل نشر الدعوة الدينية ^(١) ، شديد الإيمان بصدق رسالة النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد تزوج ببنيتين من بناته ، كما كان طيب القلب خالص العقيدة سخياً ، وذاع عنه الجود والكرم والبذل للقريب والبعيد حتى قلده عماله وكثير من أهل عصره في طريقته واقتدوا بفعله ^(٢) .

ومع ذلك لازمه سوء الحظ في خلافته ، فإنه لم يؤثر عنه مواقف تدل على شجاعته في الحروب ، ولذا كانت خدمته للإسلام بماله لا بسيفه ، كما أنه تجرد من قوة الإرادة وبعد النظر والدهاء السياسى وهى مما اتصف به أبو بكر وعمر .

٤ - على بن أبى طالب

٣٥ - ٤٠ = ٦٥٠ - ٦٦١ م

ولد على قبل البعثة بمشر سنين وهو ابن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف . وكان لعلىّ المقام الأول بين صحابة الرسول ؟ إذ آمن برسالته وهو صبى لم يبلغ الثالثة عشرة ، وعد في طليعة الذين دافعوا عن الرسول وناصروه فمقد بات في موضع الرسول في الليلة التى هاجر فيها النبي عليه السلام من مكة إلى يثرب ^(٣) ولم يهاجر علىّ إلا بعد أن أدى الودائع التى كانت عند الرسول لأهلها ، وزوجه الرسول من ابنته فاطمة في السنة الثانية للهجرة فأعقب منها الحسن والحسين ^(٤) .

كان على يرى أنه أحق المسلمين بالخلافة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام : فهو ابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة ، وكان أبو بكر يستشير في مهلم الأمور ،

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٣ .

(٢) المسعودى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٢٥٦ - ٢٥٨ .

(٤) الطبرى ج ٣ ص ١٤٣ .

كما كان عمر لا يعمل إلا بمشورته لما يعهده فيه من الفقه والذكاء والدين ، وبعد مقتل عمر دخل على الشورى وكان يظن أن الخلافة ستؤول إليه فلما آلت إلى عثمان بايعه على ولازمه ، وكان عثمان في صدر خلافته يستشير في كثير من الأمور ، ولكن محابة عثمان ذوى قرياء غيرت رأى على فيه فظن الناس أن العلاقة توترت بينهما ^(١) .

انتخابه :

بعد موت عثمان ، مال بعض الثوار الى تولية على ولكن بيعته لم تكن عن إجماع من المسلمين ، فقد كان أكثر الصحابة متفرقين في الأمصار ، ولم يكن بالمدينة سوى عدد قليل على رأسه طلحة والزبير كما تردد في بيعته بعض الصحابة كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ، وتخلف عن بيعته بعض الأنصار كحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وبنى أمية وقد لحق بعضهم بالشام ولحق البعض الآخر بمكة ^(٢) .

ولما قتل عثمان بن عفان ، أقبل الناس على علي بن أبي طالب ليبايعوه ، فقال : ليس ذلك حكم ، إنما ذلك لأهل بدر ، أين طلحة والزبير وسعد ؟ فأقبلوا فبايعوا ، ثم بايعه المهاجرون والأنصار ومن بعدهم سائر الناس . وكان ذلك في يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة ٥٣٥ هـ . وكان طلحة أول من بايعه ^(٣) ، وكانت المبايعة له في المسجد لأن علياً اشترط ذلك .

وبذلك تكون خلافة علي انتخاية كخلافة أبي بكر وعمر ولكنها لم تكن إجماعية ، لذلك بدأ الانقسام من عهد خلافة علي . إذ قيل إنه تلقى

(١) ابن أبي الحديد : نهج البلاغة ج ٣ ص ١٩٢ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السني ج ١ ص ٣٠٥ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٩٣ .

الببيعة عن اشتهرو بايثار الفتن وإراقة الدماء ، وحط خصومه من بيعته فقد قالوا إن بيعته غير صحيحة لأن من ولوه كانوا ممن يحب على على أن يقتص منهم بدل أن يقبل الخلافة عن طريقهم .

وكان على يعتبر نفسه الخليفة الحق ، ولذا حاول إصلاح المفاصد التي وقعت في زمن سلفه عثمان ، وبدأ بعزل عمال الأمصار من أقرباء عثمان . وهذه الخطوة كانت غير موفقة ، فإن بيعته لم تسكن عامة ، وسار في تنفيذ خطته رغم نصيحة المخلصين من أتباعه بالمدول عما اعتزمه من أمر هؤلاء الولاة ، وكان من أثر ذلك ، تلك الفتن التي أثارها في وجهه : طلحة والزبير من جهة ، ومعاوية والزبير من جهة ، ومعاوية ابن أبي سفيان من جهة أخرى .

بين على وطلحة والزبير :

وجد في عهد على فتنة داخلية ، بدأت بعزل عمال الأمصار من أقرباء عثمان : فقد أحفظ هذا العمل قلوب أولئك الولاة الذين أنزروا في عهد عثمان ، كما أن طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام بعد أن باعيا عليا نقضا بيعته وذهبا إلى مكة واتفقا مع السيدة عائشة على الخروج على على^(١) ، ولما ذهبت إلى مكة انضم إليها بنو أمية وطلحة والزبير^(٢) كما وصل إلى مكة وقتئذ ولاة الأمصار الذين عزلهم على . وبعد قليل وجدوا أن مكة لا تصلح لأن تكون مقراً لحركتهم ، فخرجوا إلى البصرة بعد أن عمل طلحة والزبير على استمالة زعمائها ، وهم المنذر بن ربيعة سيد ربيعة والأحنف بن قيس سيد مضر وكعب بن سور سيد اليمن ، وحاولا أن يستميلا عبد الله بن عمر ولكنهما فشلا ولم يجدا منه إلا التمسك ببيعته لعلى ،

(١) ربما كان مسلك السيدة عائشة من على راجعا إلى كراهيتها عليا منذ موقفه في حادث الإفك .

(٢) يقال إن سبب خروج طلحة والزبير على على ، أن طلحة كان يريد الولاية على اليمن ، وكان الزبير يريد الولاية على العراق ولكن على لم يوافقهما

وكان عبد الله بن عمر يرى في إنزواء عائشة المحافظة على كرامتها والإشفاق على المسلمين من أن تتفرق كلمتهم ، وقال عبد الله لطلحة والزبير : واعلموا أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأن المدينة خير لسكانها من البصرة ، والذل خير لسكانها من السيف ، ولن يقاوم عليها إلا من كان خير منه ، وأما الشورى فقد وافقه كانت تقدم وأخرتها ولن يردّها إلا أولئك الذين حكموا فيها ، فاكفينا أنفسكم^(١) . بهلى أن طلحة والزبير لم يستمعوا للنصح . ولم يكن للنصيحة أم سلمة زوج الرسول أى أثر في نفس عائشة^(٢) .

خرجت عائشة^(٣) وطلحة والزبير إلى البصرة في ستائة رجل ، وعمد على إلى الإقناع بالحجة والبرهان وكاد ينجح في سياسته ، ولكن السبئية وهم أنصار عبد الله بن سبأ وكانوا في جيش على ، خشوا حدوث الاتفاق بين الفريقين المتنازعين وانسلوا ليلا من جيش على وهاجموا جيش عائشة في البصرة . ولم يكن على يرغب في تطور الحوادث ، ولكن قامت حرب طاحنة بين على وبين أعدائه برئاسة عائشة في مكان يقال له الخريبة في منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ ، وقيل إن عدد القتلى من الفريقين في يوم الجمل كان عشرة آلاف^(٤) . ودامت هذه الواقعة سبعة أيام ، وفيها انتصر بادية الأمر جيش السيدة عائشة وطلحة والزبير ، ولكن عليا لم يلبث أن أخذ الراية من ابنه محمد بن الحنفية وهاجم

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ٩٩ — ١٠٠ و ١٠٣ .

(٢) أظن الكتب التي دارت بين عائشة وأم سلمة ، في العقد الفريد ج ٣ ص ٩٦ — ٩٧ .

(٣) يجب أن نشير هنا إلى أن السيدة عائشة عارضت عثمان بن عفان في حياته فقد وقفت — حين كان عثمان يخطب في المسجد — ممسكة بيدها جلباب الرسول ، وقالت : يا مفسد المسلمين ! هذا جلباب الرسول ، لم يبل ، وقد أبلى عثمان سنته . على أن ذلك لم يمنعها من أن تعزّم الانتقام ممن تسببوا في قتله وتهاونوا في المحافظة على حياته ، ولما ذكرها بعض الناس بخصوصيتها القديمة للخليفة المقتول ، ردت قائلة : « إنهم استتابوه ، ثم قتلوه » .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ١٠٣ — ١٠٤ .

أعداءه وعاوناه أصحابه حتى دارت الدائرة على الأعداء: فقتل طلحة وابنه محمد ، وأسر مروان بن الحكم والسيدة عائشة ، وأما الزبير فقد انسحب قبل بدء المعركة تنفيذاً للوعد الذي وعده للى ولكن عمر بن الجرموز وهو يمني قتل وأخذ رأسه وأنى بها على .

وسميت تلك الواقعة واقعة الجبل ، لأن عائشة كانت تركب جملاً وتحرض الجند على القتال وهي في هودجها المصفيح بالحديد ، ولم ينته القتال إلا عند ماعقر الجبل بالسيف ، ورغم ذلك أحسن على معاملة السيدة عائشة وسيرها إلى المدينة معرزة مكرمة ، ويقال إنه ودعها بنفسه وجهزها بما تحتاج إليه في سفرها ^(١) ، وبذلك لم يعامل السيدة عائشة بما عاملته . وعقب انتهاء تلك الواقعة ومقتل طلحة والزبير ورحيل السيدة عائشة ^(٢) إلى المدينة ، استقرت الأمور وسارت الأحوال في مجراها الطبيعي .

بين علي ومعاوية :

كان معاوية والياً على الشام منذ عهد عمر بن الخطاب ، فانسع نفوذه وسلطانه في عهد عثمان بن عفان ، ولما قتل عثمان وبويع علي ، أرسل إلى معاوية الرسل والكتب يطلب إليه مبايعته ولكنه رفض ، وبعث إلى علي بن أبي طالب كتاباً يقول فيه : من معاوية إلى علي ، أما بعد فإنه لمس يدي وبين قيس عتاب... غير طعن السكلى وضرب الرقاب وبعد أن انتصر علي في موقعة الجبل ، أرسل أيضاً إلى معاوية يدعو إلى بيعته ، ولكن معاوية رد عليه بكتاب عنوانه : من معاوية إلى علي . وداخله : بسم الله الرحمن الرحيم ، لا غير ، ولم يكتب معاوية بالامتناع

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٢٥ .

(٢) عقب واقعة الجبل ، عدت السيدة عائشة عن الحياة العامة إلى الحياة الخاصة ، وكان

ذلك بمثابة نهاية حياتها السياسية ، وتوفيت عام ٥٧ هـ ودفنت ليلاً في البقيع . وصلى عليها أبو هريرة .

عن بيعة على ، بل يقال إنه أخذ البيعة لنفسه من أهل الشام بعد أن أقنعهم بضرورة محاربتة لأنه تحاذل في الدفاع عن عثمان ، ويقال إن على بن أبي طالب كتب إلى معاوية في كتاب بعثه مع جرير بن عبد الله البجلي يقول فيه : وقد كثرت الكلام في قتلة عثمان ، فأدخل في الطاعة ثم حاكم القوم ، فإني أحملك وإياهم على كتاب الله . فلما ذهب رسول على إلى معاوية ماطله واستنظره ، وكتب إلى عمرو بن العاص : أما بعد فإنه كان من أمر على وطلحة والزبير ما قد بلغك ، فقد قدم على جرير بن عبد الله في بيعة على ، وحبست نفسي عليك حتى تأتيني ، فأقدم على بركة الله تعالى ^(١) .

سار على ومعه أتباعه من المهاجرين والأنصار وأغلبهم من أهل الكوفة إلى صفين على شاطئ الفرات الغربي في تسعين ألفاً وخمسين بقين من شوال سنة ٣٦ هـ ^(٢) ، وكان جيش معاوية من أهل الشام ويروى عدده على ثمانين ألفاً قد سبقه إلى هناك حيث سهولة الأرض والقرب من الفرات ، بينما بات على وجيشه في البر عطاشاً لأنه حيل بينهم وبين الماء ^(٣) ، ولكن جنود على أجلوا جند معاوية عن الماء بالقوة ثم سمحوا لهم بالشرب منه بعد ذلك . وبعد يومين من نزول على هذا الموضع ، دعا معاوية مرة أخرى إلى توحيد الكلمة ، واستمرت المراسلات بينهما مدة واتفقا أخيراً على المودعة إلى آخر الحرم سنة ٣٧ هـ ، ثم دارت رحى الحرب بينهما من جديد .

وانقضى الحرم وبدأ صفير فل كلاهما هذه الحال ، وبدأت واقعة صفين وفيها بدأ القتال بين ميمنة على وميسرة معاوية ، فانتصرت ميسرة معاوية في أول الأمر . ولكن علياً استأنف القتال ، وهاجم معاوية وقائده عمرو بن العاص ، فلما أحس

(١) اليعقوبي ج ١ ص ٣١٥ .

(٢) السعدي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٥ — ١٧ .

(٣) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٧٢ .

معاوية الهزيمة طلب إلى عمرو بن العاص أن يخلصه من هذا المأزق ، ففكر في حيلة رفع المصاحف على أسنة الرماح وتعليقها في أعناق الخيل طالبين تحكيم القرآن وقد أخذ أصحاب على وبخاصة القراء (الفقهاء) بهذا الرأي ، ولم يستمعوا له عند ما حاول أن يبين لهم أنها حيلة وخديعة ، واضطروه إلى قبول التحكيم . وعلى أثر هذه الخدعة انقسم جيش على ، وانتهى الأمر بخروج بعض المتحاربين في صف على من القتال احتجاجا على وقف الحرب ، وقد عرف هؤلاء باسم « الخوارج » : وعلى رأس الذين رأوا ضرورة قبول على مبدأ التحكيم ، الأشعث ابن قيس وكان والياً على أذربيجان منذ أيام عثمان ، ولما ولي على الخلافة بآيمه وكان على رأس أهل الكوفة وهم غالبية أنصار على ، لذلك اضطر على إلى النزول على رأى الأشعث كارها ، مع أنه لم يكن مخلصاً للخليفة لمطالبته إياه بالأموال التي جمعها من ولايته .

التحكيم :

ارتضى الفريقان التحكيم واتفقا على أن يختار كل منهما مندوبا عنه في النزاع ، للحكم طبقا لكتاب الله : فاختار معاوية وأهل الشام عمرو بن العاص ، واختار أهل العراق أبا موسى الأشعري وكان على لا يريد اختياره فقال : قد عصيتهموني أول الأمر فلا تعصوني الآن ، وبين لهم تخوفه من أبي موسى ولكنهم لم يطيعوا عليا وأصروا على انتخاب أبي موسى فأذعن على على كره منه ^(١) .

انعقدت محكمة التحكيم في « دومة الجندل » الواقعة على الطريق بين دمشق والمدينة ، وظل الفريقان يجتمعان ويتفاوضان في الأمر حتى اتفقا على خلع على ومعاوية وترك الأمر شورى ، يختار المسلمون من يريدون على نحو ما حدث في اختيار أبي بكر وعمر وعثمان ولكنهما لم يتفقا على من يخلف عليا .

قدم أبو موسى الأشعري للكلام من قبيل الاحترام لسنه ، حتى يبدأ أبو موسى بخلع صاحبه ثم يعمل عمرو ما يريد . نهض أبو موسى وخطب مضمناً خطابه هذا الاتفاق ، وفيه يقول : أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلاً لأمرها ولم شعثها من أن نخلع عليا ومعاوية ، ففستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم وإني قد خلعت عليا ومعاوية . ثم أقبل عمرو بن العاص فأكد ما قاله أبو موسى خاصاً بعزل علي ثم أيد صاحبه معاوية وثبت سلطانه ، فقام مقامه وحمد الله وأثنى عليه وقال : إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان ، والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه^(١) . وأخيراً تنازداً وركب أبو موسى راحلته ولحق بمكة ثم انصرف أهل الشام إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة^(٢) .

وزاد موقف على حرجاً أنه كان ملزماً أمام الصحابة بالخضوع لهذا الحكم ، إلا أن علياً رفض قبول التحكيم على هذا النحو واعتزال الخلافة ، وقامت على أثر ذلك اضطرابات وفتن شملت معظم أرجاء الدولة العربية . وبذلك لم يحل التحكيم النزاع بين علي ومعاوية لأن الحكمين اختلفا ، وفي الوقت الذي استفاد فيه معاوية من فكرة التحكيم ومن الصورة التي تم عليها ، فإنه قد أضرب على ضرراً بليغاً ، لأنه فرق أتباعه شيعاً وكان سبباً في ظهور الخوارج ، مما أضعف من قوة علي وكسر من شوكته ، فلم يستطع حين أراد السير لقتال معاوية أن يجد الأنصار الذين يستطيع الاعتماد عليهم .

الخوارج في عهد علي :

رجع علي إلى العراق بعد واقعة صفين انتظاراً لقرار الحكمين ، وكان الخوارج يقاطعون عند ما يخطب على منبر الكوفة ويقولون : « جزعنا من

(١) الطبري ج ١ ص ٣٩ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٢٨٨ .

البلية ، ورضينا بالقضية وقبلت الدنية ولا حكم إلا لله » . وهكذا نرى أن الذين كانوا مع علي في صفين متوادين خرجوا عليه ، وعرفوا لذلك باسم الخوارج ، وكان عددهم إثني عشر ألفاً ، استطاع علي أن يقنع منهم ثمانية آلاف وبقي أربعة آلاف على عدائهم له وذهبوا إلى بلدة النهروان ، واضطر علي أن يذهب لقتالهم . وقد دارت في النهروان معركة شديدة ، كان علي رأس الخوارج فيها عبداً لله ابن وهب ، إلا أن علياً هزمهم هزيمة منكرة وأبادهم ، وبعد أن انتهى من قتالهم عاد إلى الكوفة حيث دعا الناس إلى قتال معاوية ، ولكنهم تقاعدوا عن نصرته .

مقتل علي :

أصبح موقف علي بذلك في غاية الحرج ، وسئم الناس الحالة التي كان عليها المسلمون في ذلك الوقت وخصوصاً الخوارج ، فاتفق ثلاثة منهم على أن يقتل كل واحد منهم أحد زعماء هذه الفتنة وهم : علي ومعاوية وعمر بن الخطاب ، فاتفقوا على قتل معاوية وعمر بن الخطاب ، وتمكن عبد الرحمن بن ملجم من طعن علي عدة طعنات مميتة وهو خارج من صلاة الفجر في مسجد الكوفة وذلك في ١٥ رمضان سنة ٤٠ هـ ، وتوفي بعد ذلك بيومين (١٧ رمضان) . وبوفاة علي ينتهي عصر الخلفاء الراشدين ، وهو العصر التي تستند فيه الخلافة إلى الدين وتقوم على فكرة الشورى ، وابتدئ عصر خلافة جديدة يحول الخلافة إلى ملك ورأى استبدادى . وهكذا كان عصر علي هو الفارق بين العصرين .

شخصية علي :

ذهبت طوائف الناس في تحليل شخصية علي مذاهب شتى : فريق يبيضه ويلعنه وينسب إليه كل نقيصة وهم طائفة الخوارج التي لم تنس لعلى خروجه من ساحة القتال وهو على وشك الانتصار في صفين ، وفريق يذهب إلى تمجيدته ويرفعه إلى مرتبة الآلهة وهم طائفة الشيعة التي تجعل الخلافة من بعد النبي عليه السلام حقاً شرعياً لعلى بن أبى طالب وذريته ، وفريق محايد يصف علياً

بالصفات التي رآها فيه دون المبالغة في مدحه أو الإسراف في ذمه وهم طائفة السنة التي لا تحاول الانتقاص من قدر علي أو رفعه مرتبة فوق ما يستحق .
كان علي ذا شخصية عظيمة هي أشبه ماتكون بشخصية عمر بن الخطاب ، فقد كان يتحرى العدل ومصلحة المسلمين ، حريصاً على أموالهم ، وأبلى بلاء حسناً وأخلص في نصرة الإسلام : فقد كان علي أول من أسلم من الصبيان ، متفقها في الدين يرجع إليه في كثير من مسائل الدين وتفسير القرآن ورواية الحديث ، وكان يقول : « سلوني سلوني عن كتاب الله تعالى فوالله مامن آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أو نهار في سهل أم في جبل » ، وكان فصيحاً ضرب بفصاحته المثل ، كما كان شاعراً حتى قيل : كان أبو بكر يقول الشعر وكان عثمان يقول الشعر وكان علي أشعر الثلاثة^(١) .

الحسن بن علي :

بعد مقتل علي ، خلفه ابنه الحسن ، وظل في الخلافة مدة لا تزيد على ستة أشهر ، حتى أن كثيراً من المؤرخين لا يعدّه من الخلفاء ، وذلك للضعف الذي ظهر به أمام العالم الإسلامي .

بويح الحسن بالخلافة بعد مقتل أبيه بيومين ، وشرع في الزحف إلى الشام لقتال معاوية ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك : لعدم إخلاص أهل الكوفة ، ولأن رسل معاوية نشروا الدعاية ضد الحسن في الكوفة ، فرأى أن يفاوض معاوية في أمر التخلي له عن الخلافة . واشترط الحسن على معاوية ألا يسب أباه علي للنابر وألا يطالب بالأموال التي استولى عليها من الكوفة ، وقبل معاوية تلك الشروط ، وانتهت بذلك حياة الحسن السياسية ، واجتمع رأى المسلمين على اختيار معاوية بن أبي سفيان خليفة سنة ٤١ م ، ولذلك سمي هذا العام « عام الجماعة » لاجتماع كلمة المسلمين على شخص واحد ، هو معاوية .

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٢٢ .

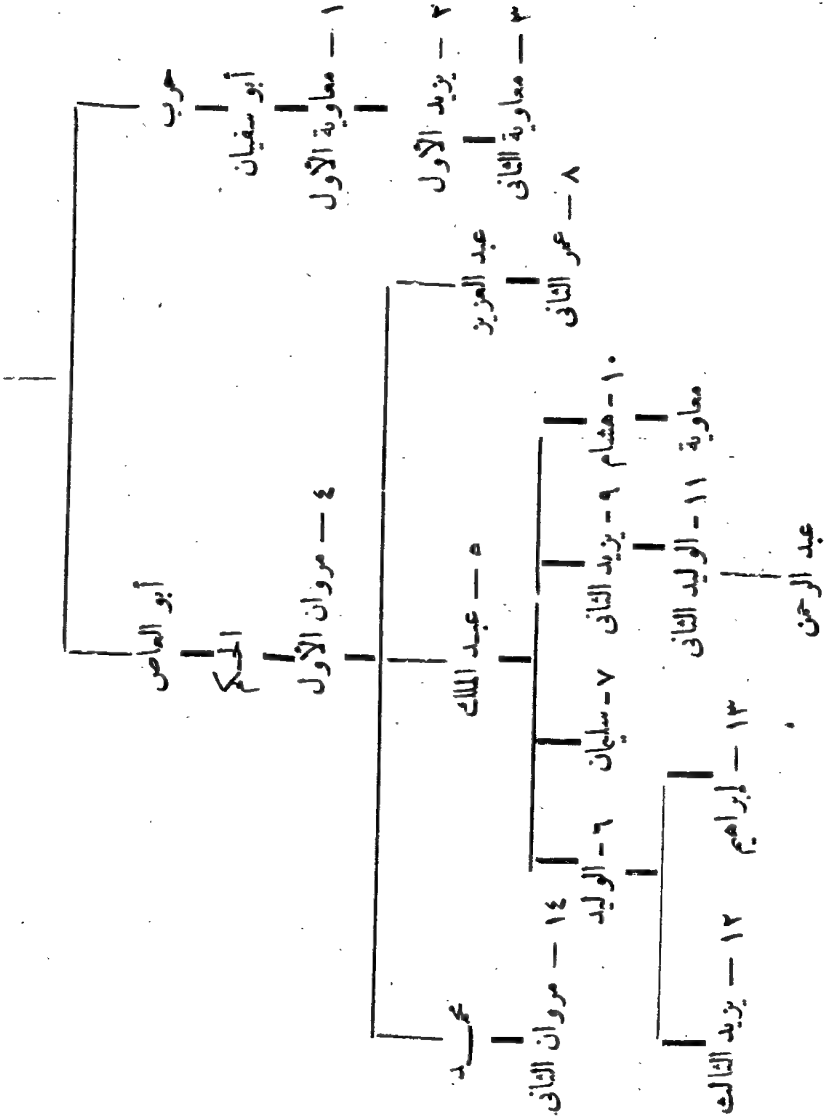
ثالثا — الخلافة الأموية

$$٤١ - ١٣٢ = ٦٦١ - ٧٥٠ م$$

الخلفاء الأمويون :

السنوات الميلادية	الخلفاء	السنوات الهجرية
٦٦١	معاوية بن أبي سفيان .	٤١ . .
٦٨٠	يزيد الأول	٦٠ . .
٦٨٣	معاوية الثاني . . .	٦٤ . .
٦٨٣	مروان بن الحكم . .	٦٤ . .
٦٨٥	عبد الملك بن مروان .	٦٥ . .
٧٠٥	الوليد بن عبد الملك .	٨٦ . .
٧١٥	سليمان	٩٦ . .
٧١٧	عمر بن عبد العزيز .	٩٩ . .
٧٢٠	يزيد الثاني	١٠١ . .
٧٢٤	هشام	١٠٥ . .
٧٤٣	الوليد الثاني	١٢٥ . .
٧٤٤	يزيد الثالث	١٢٦ . .
٧٤٤	إبراهيم	١٢٦ . .
٧٥٠ - ٤٤٧	مروان الثاني . . .	١٢٧ - ١٣٢ .

أمية



١ - معاوية بن أبي سفيان

٤٠ - ٦٠ هـ = ٦٦٠ - ٦٨٠ م

يرجع نسب معاوية بن أبي سفيان بن حرب مؤسس الدولة الأموية إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد في مكة قبل البعثة بخمس سنوات ، وأسلم يوم فتح مكة هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند وله من العمر ثلاث وعشرون سنة^(١) .

انتقال الخلاف إلى معاوية :

كان معاوية أطول الحكام المسلمين عهداً ، فقد قضى في ولاية الشام نحو خمس وعشرين سنة تمكن أثناءها بسياسته ودهائه من أن يجتذب قلوب أهل الشام ويجعلهم طوع أمره ، وظل الشاميون مخلصين للأمويين حتى أواخر عهد بني أمية .

لم يستقيم الأمر لمعاوية على أثر مقتل علي بن أبي طالب مباشرة ، فقد ظل العراق يقاومه عدة شهور ، وبايع الحسن بن علي ، ولكن الحسن خاف غدر أهل العراق ، كما أنه أحس بضعفه أمام جيوش معاوية ، فأظهر استعداده للتزول عن الخلافة لمعاوية حقناً لدماء المسلمين ، بعد أن تبين له أنه قد أصبح لا قبل له بمقاومة معاوية وجنده ، على أن يكون الأمر بعد معاوية شورى بين المسلمين يولون عليهم من أحبوا ، وبذلك أصبح معاوية صاحب السلطان المطلق في الولايات الإسلامية كافة ، وقيل إن الحسن اشترط

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٢١٢ - ٢١٣ .

على معاوية أن تكون الخلافة بعده للحسين . وفي اليوم الخامس والعشرين من ربيع الثاني سنة ٤٩ هـ ، دخل معاوية الكوفة حيث أخذت له البيعة بحضور الحسن والحسين ، وأصبح معاوية خليفة المسلمين . وقد حرص معاوية منذ ولي الخلافة على مزج القبائل العربية التي وفدت إلى الشام بأهل تلك البلاد ، وبذلك استطاع أن يكون آمناً في مملكته ، كما وجه اهتمامه إلى تقريب الرجال الأكفاء إليه وتقليدكم المناصب الكبرى في الدولة العربية .

أشهر الولاة في خلافة معاوية :

اشتهر عمال معاوية بالدهاء وكان ذلك من أبرز صفاته ، فلا غرو في أن يختار ولاته من المتصفين بذلك . ومن الدهاة الذين استعان بهم معاوية في الحكم ، عمرو بن العاص ، الذي ولاه مصر . ومن سيرة عمرو نقيب أنه من الرجال الذين أثروا في الحوادث تأثيراً عظيماً ، ويبدو ذلك من سياسته في التحكيم التي أودت بخلافة علي ، ويكفيه فخراً بلاؤه في الفتوح الإسلامية الكبرى وإصطلاحاته الهائلة في مصر .

ويستوعى النظر كذلك في عهد معاوية ، شخصية المغيرة بن شعبة وإلى معاوية على الكوفة سنة ٤١ هـ . وكان من الطائف من قبيلة ثقيف وله ماض حافل بالأعمال الجليلة في خدمة الإسلام : فقد اشترك في فتوح فارس ، وولاه عمر بن الخطاب على البصرة ، وفي سنة ٢١ هـ ولاه عمر على الكوفة ، وفي الفتنة التي قامت في خلافة عثمان بن عفان اعتزل الفريقين .

وفي عهد معاوية ظهر زياد بن أبيه . وكان والياً على فارس من قبل علي ابن أبي طالب ، فلما قتل على اعتصم زياد بولايته ، فبعث معاوية إليه المغيرة ليستميله إلى جانبه ، وقد استطاع المغيرة أن يشنيه عن رأيه ، وأرسل إليه معاوية كتاب الأمان . فصار إليه وسلمه ما بقي عنده من أموال فارس ،

واستلحقه معاوية بن أبي سفيان فاعترف بإخوته كما اعترف أبوه من قبل بينوته وشهد بذلك نفر من الناس ، وإن كان البعض ينكر صحة هذا النسب ومنهم عائشة أم المؤمنين . لهذا يقال له : زياد بن سمية نسبة إلى أمه سمية ، وزياد بن أبيه لجهلهم اسم أبيه ، وبعضهم يلحقه بأبي سفيان . ومن الغريب أن يلحقه معاوية بأبيه مع ما في هذا الأمر من العار والخزي ، وإنما كان ذلك سياسة من معاوية . وقد امتاز زياد منذ نشأته بنشاطه وحزمه ، فأظهر كفاية في العمل الذي أسند إليه في الفتوح العربية كحاسب للأغنائم مما جعل عمر بن الخطاب يثنى عليه ويتوقع له مستقبلا زهرا ، وولاه معاوية البصرة سنة ٤٥ هـ حيث خطب فيها خطبته البتراء المشهورة^(١) . ولما توفي المغيرة بن شعبه ضم معاوية ولاية الكوفة إلى زياد .

تولية المهدي ليزيد :

أعجب معاوية بما شاهده من نظام وراثته الملك عند القياصرة والرومان ، ففكر في نقل هذا النظام إلى الدولة العربية بعد أن رأى أن العامل الأساسي الذي أدى إلى تفرق كلمة المسلمين إنما هو المنافسة على الحكم . ففكر معاوية في ذلك ، وما لبث أن هداه تفكيره إلى أن تلافى المنازعات على الخلافة لا يتم إلا بتولية ابنه يزيد ولاية العهد من بعده .

كانت هذه الخطوة التي خطاها معاوية طبيعية ، فقد تبين له مانجم من الولايات والفتن والشور من نظام الخلافة المتبع عند وفاة كل خليفة ، فرأى أن يمهّد بالأمر في حياته لابنه ولا يترك الأمر لجماعة من المسلمين ، حتى لا يتفرقوا ولا ينقسموا ، ولكن كان يحسن ألا يختار ابنه ، كما فعل أبو بكر

(١) سميت بالبتراء لأنه لم يبدأها باليسملة أو الدعاء .

الذى عدل عن أولاده إلى عمر ، أو يخذو خذو عمر حين رشح للخلافة ستة من كبار الصحابة ليختار منهم المسلمون من أحبوا ولم يكن من بينهم ابنه .

واستعمل معاوية في أخذ البيعة لابنه يزيد كل أنواع الحيل والدهاء ، فكان « يملأ المقارب ، ويدأوى المباعدين ويلطف به ، حتى استوثق له أكثر الناس » وبايعوا ابنه يزيد . فلما تمت بيعة أهل الشام والعراق ، ذهب إلى المدينة لأخذ البيعة له ، فقابلته الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ، وتسكلم معهم في شأن البيعة ، فقال له ابن الزبير : نخريك بين ثلاث خصال ، قال إعرضهن ، قال : تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر . قال معاوية : ما صنعوا ؟ قال : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر ، قال : ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف ، قالوا : صدقت ، فاصنع كما صنع أبو بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قریش ليس من بنى أمية فاستخلفه . وإن شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه . قال معاوية : هل عندك غير هذا ، قال : لا ، فقال معاوية : فأقسم بالله ، لئن رد علي أحدكم كلمة من مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه . ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم ، فقال : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، مع كل واحد سيف ، فإن ذهب رجل منهم يرد علي كلمة تصديق أو تكذيب ، فليضرباه بسيفهما ، ثم خرج وخرجوا حتى رقى المنبر .

هكذا بايع الناس يزيد بن معاوية . وكان يصح أن يرتاح المسلمون لهذا الاختيار ، لو لم يكن ولي العهد من المتصفين بشرب الخمر والتهافت على اللهو والصيد ، وغير ذلك من الصفات التي كان الخلفاء الراشدون يمتأى عنها . وسار معاوية

فى تنفيذ هذه السياسة بمنتهى الحيلة والمهارة ، فضم ابنه يزيد إلى الحملة البحرية التى أنفذها لفتح القسطنطينية فى الوقت الذى رشحه فيه لولاية العهد ليرفع من شأنه أمام المسلمين .

وكان المغيرة بن شعبه والى السكوفة متحمساً لأخذ ولاية العهد ليزيد ، وذلك حين خاف أن يعزله معاوية ، فأراد بهذه الوسيلة التقرب للخليفة . وللوصول إلى ذلك ، ذهب المغيرة إلى الشام وقابل يزيد بن معاوية وأوضح له أنه من أفضل أبناء كبراء قريش وذوى السن فيهم وأنه من أحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة وأخبرهم بالسياسة ، وأنه ليس هناك ما يمنع أمير المؤمنين من أن يعقد له بالبيعة^(١) ، فقال له يزيد « أو تر ذلك يتم ؟ قال : نعم ! » وأعلم يزيد إياه بهذه الفكرة . فأحضر معاوية المغيرة وسأله عن هذا الأمر ، فقال له يا أمير المؤمنين ! قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان ، وفى يزيد منك خلف فاعقد له . فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس ، وخلفاً منك ، ولا تسفك دماء ولا تسكون فتنة . قال معاوية : ومن لى بهذا ؟ قال المغيرة : أ كفيك أهل السكوفة ويكفيك زيادة أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصريين أحد يخالفك^(٢) . وقد استطاع المغيرة بن شعبه أن ينجح فى نشر هذه الفكرة ، ووجد من يميل إليها بين أهل السكوفة الذين أنفذوا إلى معاوية وفدا يؤيد بيعة يزيد . أما زياد بن أبيه فنصح الخليفة أن يترث ويأمر يزيد بالإقلاع عن لهُو الشباب ، ولما مات زياد أرسل معاوية إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة يقول « لى قد كبرت سنى ودق عظمى ، وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى ، وقد رأيت أن الخير لهم من يقوم بعدى وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك فأعرض ذلك عليهم ، وأعلمنى بالذى يردون به عليك » .

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢١٥ .

(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٤

أراد معاوية بذلك أن يأخذ البيعة ليزيد من أهل الحجاز خاصة ، لما لذلك من أهمية خاصة ، ولكنه نسي أن فكرة الشورى في اختيار الخليفة لا تزال قائمة في أذهان الناس ، وأن أهل الحجاز لم يألفوا نظام الأكسرة والقيصرية ، وفضلا عن ذلك فقد كان ببلاد الحجاز كبار الصحابة وزعماء العرب ومن أبرزهم الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الله بن العباس وعبد الرحمن بن أبي بكر وكلهم ذو مكانة عظيمة . فلما قرأ مروان بن الحكم - عامل معاوية على المدينة - على الناس في المسجد أن معاوية سيأخذ البيعة لابنه يزيد هاجوا وماجوا ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر « ما الخیار أردتم لأمة محمد ، ولا كننكم تريدون أن تجعلوها هرقلية . كلما مات هرقل قام هرقل » ، وقام الحسين ابن علي فأنكر ذلك ، وفعل مثله عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، فكتب مروان إلى معاوية بذلك .

قدم معاوية المدينة ، وحاول أن يقنع كبار الصحابة فيها . فخطبهم في شأن البيعة لابنه ، ولكنهم أبوا جميعا ، فلما رأى منهم إصرارا وعنادا ، أرسل في طلبهم جميعا ، ومنهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين بن علي وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وقد عهد هؤلاء إلى ابن الزبير في أن يتكلم بلسانهم ، فلما دخلوا على معاوية رحب بهم وقال : قد علمتم نظري لكم ، وتمطقي عليكم وصلتي أرحامكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون ، فسكتوا ، فقال : أجيئوني ، ثم أشار إلى ابن الزبير أن يتكلم ، فتكلم بما لا يرضى معاوية ، وأقره الآخرون على قوله ، فقال معاوية « إني أقدم إليكم وقد أعذر من أئذر ، إني قائم فقائل مقالة ، فإياكم أن تعترضوا علي حتى أتمها ، فإن صدقت فعلي صدق ، وإن كذبت فعلي كذبي ، وأقسم بالله

لئن رد على رجل منكم كلمته حتى يضرب رأسه ، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ولا يبق إلا عليها .

وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفهما ، فإن تكلم يرد بها عليه قوله قتلاه ، وخرج وأخرجهم معه واجتمع الناس ، حتى رقى المنبر فخطبهم قائلاً : « قالوا إن حسيناً وابن أبى بكر وابن الزبير لم يبايعوا يزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا نبرم أمراً دونهم ، ولا نقض أمراً إلا عن مشورتهم ، وإني دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين . فبايعوا وسلوا وأطاعوا . ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا ، ثم قربت رواحله فركب ومضى ، فقال الناس للحسين وأصحابه : قلتم لا نبايع ، فلما دعيتم وأرضيتم ، بايعتم ، قالوا : لم نفعل ، قالوا : « بلى ، فملتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ؟ قالوا : خفنا القتل وكادكم بنا وكادنا بكم ! »^(١) .

لم يأبه معاوية لهذه المعارضة التي قامت في بلاد الحجاز ، فكتب لعالمه أن يهدوا البيعة يزيد في الأمصار ، وأن يرسلوا إليه الوفود في دمشق لإعلان رضاهم عن تلك البيعة ، وقد تكلم في هذه الوفود الضحاك بن قيس الفهري ودعا لبيعة يزيد ، وتحققت بذلك سياسة معاوية ، فأعلن البيعة لابنه بعد أن خطبهم الضحاك وغيره ، في تعظيم الإسلام وحرمة الخلافة وفضل يزيد وعلمه بالسياسة وما يترتب على بيعته من جمع كلمة المسلمين . وعلى هذا النحو تمت بيعة يزيد .

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٧ — ٢١٨ .

الفنوح في عهد معاوية :

يمتاز عهد معاوية لا بالتطور السيامي فحسب ، بل إن همة المسلمين اتجهت أيضاً إلى الفتح ، فقد اتسعت الدولة الإسلامية في عهد معاوية شرقاً وغرباً ، ففي الشرق قام ولاته على خراسان بفتح « هارات » و « خوارزم » ، كما استولوا على بعض بلاد الهند والسند ، بل وعبرا نهر جيحون وهاجموا بخارى^(١) وسمرقند . وفي الغرب سار عقبة بن نافع من برقة واستولى على إفريقية^(٢) من الرومان . وأسلم على يديه كثير من البربر ، وقد عمل العرب على إدخالهم في جيوشهم ، وبذلك تسنى لهم أن يجذبوهم إلى الإسلام ، وبنى عقبة على أثر انتصاره مدينة « القيروان » وأقام بها المسجد الجامع ، ولم يكتف عقبة بذلك بل سار سنة ٥٥ هـ حتى وصل إلى المحيط الأطلسي ، ولم ترهبه هجمات الرومان على جيوشه عند تقدمه . ولم يلبث عقبة أن عزل وولى مكانه « أبو المهاجر » مولى مسلمة بن مخلد الذي ولاء معاوية مصر وإفريقية ، وبلغ أسطول الشام في عهد معاوية ١٧٠٠ سفينة فتحت بها عدة جهات كجزيرة رودس وبعض الجزر اليونانية .

اتجه معاوية ناحية الشمال ، حيث الدولة الرومانية الشرقية ، التي كانت تغير على البلاد الإسلامية المجاورة لها . ولذلك رتب معاوية أمر غزوها برا وبحرا عن طريق الأسطول في البحر ، كما رتب ما عرف باسم الشواني والصوائف . وفي سنة ٤٧ هـ سار فضالة الأنصاري على رأس جيش كبير ثم أمده بقوة على رأسها يزيد بن معاوية ، وحاصر الجيش القسطنطينية نفسها سنة ٤٨ هـ وهو الحصار الأول في خلافة معاوية ، وقد بذل القائدان العريبان

(١) دخل المسلمون بخارى بقيادة سعيد بن عثمان الذي خلف عبيد الله بن زياد على ولاية خراسان .

(٢) أي تونس الحالية .

فضالة ويزيد جهوداً جبارة ضد المدينة العظيمة ، ولسكنها فشلت بسبب مناعة حصون المدينة ودفاع قسطنطين الرابع ، ولم يكن هذا الحصار للقسطنطينية هو الوحيد الذى حدث أيام معاوية ، بل إن الأسطول الإسلامى حاصر المدينة سبع سنوات ، ما بين سنتى ٥٤ ، ٦٠ هـ ، وقاست القسطنطينية كثيراً من جراء هذا الحصار ، ولسكنها نجت من شره فى النهاية بفضل « النار اليونانية » ، التى كانت تشتمل حتى على سطح المساء ، وأخيراً عادت قوات المسلمين البحرية من « البوسفور » بعد أن فشلت فى فتح القسطنطينية .

موقف معاوية إزاء الخوارج والشيعة :

كانت الأمة الإسلامية حتى ولى معاوية الخلافة ثلاثة أحزاب : أتباع بنى أمية وشيعة على ، والخوارج وهم أعداء الفريقين . وكانت بلاد المشرق : العراق وفارس ، مركزاً لنشاط الخوارج الذين كانوا يشورون كلما مكنتهم الفرصة . وقد قويت شوكتهم منذ قيام الدولة الأموية ، فواجه معاوية ابن أبى سفيان معارضة قوية منهم ، وعملوا على مناوأة سلطته فى كل من الكوفة والبصرة ، كما كانوا يرون أن غيرهم من المسلمين كفار ، وأن دماءهم وأموالهم حلال . ولذلك كان لا بد من أن يتبع معاوية معهم طريق الشدة والقمع ليأمن شرهم ، ويحول دون ما يلقونه من بذور التفرقة التى كادت تودى بالأمة الإسلامية .

ولما استتب الأمر لمعاوية سنة ٤١ هـ ، عول الخوارج على قتاله ، وكان على رأسهم ورقة بن نوفل الأشجعى ، الذى اعتزل عليا فى خمسمائة من الخوارج فى « شهرزور »^(١) فأرسل معاوية إليهم جيشين من أهل الشام .

(١) شهر : زور إقليم واسع فى بلاد الجبل من أردبيل ومهذان وأهلها من الأكراد يعتازون بالبأس والشدة . ياقوت : معجم البلدان .

ولكنه هزم على يد الخوارج ، مما دعاه إلى أن يخاطب أهل الكوفة قائلا :
 « لا أمان لكم والله عندي حتى تكفوا بوائقكم ^(١) » . فخرج أهل الكوفة
 لقتال الخوارج فقالوا لهم : « ويلكم ما تبغون ؟ أليس معاوية عدونا وعدوكم ؟
 دعونا نقاتله فإن أصبناه كنا قد كفيناكم ، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا » .
 فأبى أهل الكوفة إلا القتال حتى يغلبوهم .

وقام من بعدهم جماعة بزعماء « حيان بن ظبيان » ودخلوا الكوفة في عهد
 واليها المغيرة بن شعبه بعد أن خطبهم حيان خطبة حماسية ، وانفقوا على مناوأة
 الخوارج في غرة شعبان سنة ٤٣ هـ . ولما علم المغيرة بأمرهم قبض على جماعة
 منهم ومن بينهم حيان وأودعهم السجن ، وضيّق على الباقين الخناق حتى
 غادروا الكوفة ، ثم سير ضدهم جيشاً من الشيعة يربو على ثلاثة آلاف من
 كبارهم فقضى عليهم قضاء تاماً . وقد ضمت شوكة الخوارج بفضل ما أبداه
 زياد بن أبيه من الشدة والقسوة في معاملتهم ، ولم تقم لهم قائمة مدة ولايته
 على العراق .

ولما ولي عبيد الله بن زياد بن أبيه البصرة ، تحركوا سنة ٥٨ هـ ، إذ ظنوه
 عينا ، ولكنه ما لبث أن شقتهم وقتل منهم كثيرين ، ولكن مقاومة الشيعة
 لم تكلف معاوية عناء كبيرا كالخوارج ، وقد خمدت روح التشيع في نفوس
 أهل الكوفة وانضوا تحت لواء معاوية الذي أصبح صاحب السلطان المطلق
 على إثر نزول الحسن بن علي له عن الخلافة ومغادرته الكوفة . وغضبت الشيعة
 في الكوفة عند ما رأت المغيرة بن شعبه يلعن علياً كلما قام خطيباً ، وقاطعه
 زعيمهم « حُجْر بن عدى » مرة عندما سمعه يسب علياً ويمدح عثمان وقال له :
 إن من تذمون وتعيبون لأحق بالفضل ، وإن من تزكون وتطرون أولى

(١) البوئق : جمع بائقة وهي الأمر المهلك .

بالذم^(١) . فقال له المغيرة : « ويحك يا حجر ! اتق السلطان وغضبه وسطوته ، فإن غضب السلطان أحياناً مما يهلك أمثالك . وازداد غضب حجر وأصحابه لاستمرار زياد بن أبيه — عندما ولى الكوفة بعد المغيرة — في لعن علي ، وعقدوا الاجتماعات لسب معاوية ، وأدى هذا إلى أن اتبع زياد بن أبيه سياسة الحزم والشدّة إزاء الشيعة ، وأرسل أخيراً صاحب شرطته فقبض على حجر وأرسله هو وأصحابه إلى معاوية ، فقتله هو ومن ثبت على ولائه لعلي بن أبي طالب وأما من تبرأ من علي فقد عفا عنه ، وذلك في سنة ٥١ هـ^(٢) . وصار التشيع من ذلك الحين أمراً نظرياً ، ولا غرو فقد كان ينقص بعضهم الحماس والإخلاص للبدأ الذي كانوا يعتقدونه .

وتوفي معاوية في رجب سنة ٦٠ هـ ، وقبره في دمشق .

٢ — يزيد بن معاوية

٦٠ — ٦٣ هـ = ٦٨٠ — ٦٨٣ م

توليه الخلافة :

اعتلى يزيد عرش الخلافة في دمشق بعد وفاة أبيه معاوية ، وامتنع عن بيعته : الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر . أما عبد الله ابن الزبير فقد فر إلى مكة هو والحسين ، وأخذ عبد الله يعمل على بث الدعوة لنفسه ولكنه وجد في الحسين منافساً قوياً فلم يجرؤ على مناوئته ، وذلك لأن ابن الزبير يعلم أن الحسين أحق بالخلافة منه على اعتبار أنه بعد وفاة أخيه الحسن أصبح رجل الشيعة ، وهو فوق ذلك ابن علي بن أبي طالب ، وحفيد النبي

(١) الطبري ج ٦ ص ١٤٢ .

(٢) الطبري ج ٦ ص ١٥٠ .

صلى الله عليه وسلم . ولذلك عمل ابن الزبير على إخراج الحسين من الحجاز حتى يصفوه له الأمر هناك .

ولما طلب عامل المدينة من الحسين بن علي أن يبائع يزيد بالخلافة ، قال له :
« أما البيعة فإن مثلي لا يعطى بيعته سراً ولا أراك تجتزئ بها منى سراً دون
أن تظهرها على رموس الناس علانية . . . فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم
إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمراً واحداً » . فقال له الوليد ، وكان يؤثر
العافية : فانصرف على اسم الله . وعلى أثر هذه المقابلة توجه الحسين إلى مكة وكانت
الشيعة بالكوفة فاجتمعوا وأرسلوا إليه كتاباً جاء فيه : أما بعد ، فالحمد لله
الذى قسم ظهر عدوه الجبار العنيد الذى اعتدى على الأمة ، فانزعها حقوقها
واغتصبها أمورها وغلبها على فيئها ، وتأمراً عليها على غير رضى منها ، ثم قتل
خيارها واستبقى أشرارها ، فبمداً له كما بعدت نمود إنه ليس علينا إمام ، فأقدم
علينا لعل الله إن يجمعنا بك على الهدى »^(١) . ثم أتبعوا هذا الكتاب بكتب
أخرى ذكروا فيها أسماء الشيعيين الذى حضروا الاجتماع ، وقد قيل إن الحسين
تسلم نحواً من مائة وخمسين كتاباً من مختلف الجماعات ، وكان ذلك فى شهر
ذى الحجة سنة ٦٠ هـ^(٢) .

بين يزيد والحسين بن علي :

كان الحسين طيب رجلاً طيب القلب ، اغتر بدعوة الشيعة ، فأرسل ابن عمه
مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليبلغه حقيقة الأمر ، وخرج إليها مسلم والتقى بالشيعة
وانخدع بما شاهد ، وأرسل إلى الحسين يستحثه على القدوم إلى الكوفة ، والتف
الشيعة حول مسلم . على أن والى الكوفة وقتئذ ، النعمان بن بشر الأنصارى ،

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ٣ — ٤ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٣٢ .

لم يعمد إلى تتبع مسلم وأصحابه ، ولكن بعض أنصار الأمويين كتبوا إلى يزيد بمسلك النعمان فعزله .

ولى يزيد مكان النعمان ، عبيد الله بن زياد أمير البصرة وجعله أميراً على البلدين وعهد إليه في قمع الشيعة ، فأخذهم عبيد الله بالشدة وذهب أولاً إلى البصرة وخطب فيها ، ثم إلى الكوفة حيث قبض على كبار الشيعة وخاصة مسلم بن عقيل وأنصاره ، وهكذا قضى ابن زياد على بوارق الفتنة . ولم يدرك الحسين هذا الموقف من أول الأمر ، إذ أنه لما استبطن أخبار مسلم عزم على الخروج فتصيح له عبد الرحمن بن الحارث وعبد الله بن عباس بالتريث ، ولكنه لم يستمع إليهما .

خرج الحسين وسار إلى الكوفة على رأس فئة قليلة لم يتجاوز عددها ثمانين رجلاً ، وقد قابله القرزدي في طريقه فسأله الحسين عن أهل الكوفة فقال له : « خلفت قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بني أمية » ^(١) . ولما علم ابن زياد بخروج الحسين وأصحابه من الحجاز ، أمر بمراقبة الطرق المؤدية من الحجاز إلى الكوفة ، وعهد إلى قوة من ألف فارس لتأتى بالحسين وأصحابه ، فلما اقترب الحسين من الكوفة منع من دخولها في غير عنف ، وقال له ابن يزيد التميمي قائد القوة ، إرجع فإنى لم أدع لك خلفي خيراً أرجوه ، ومن ثم داخل الحسين الشك وطلب الرجوع إلى الحجاز والذهاب إلى الخليفة في بغداد . غير أن القائد عمر بن سعد بن أبي وقاص ، الذى خلف يزيد في القيادة منعه من ذلك ، كما أن إخوة مسلم بن عقيل صمموا على أن يأخذوا بشار أخيهم أو يقتلوا دونه ، فنزل الحسين عند رأيهم وسار حتى لقيته خيل ابن زياد ، فعدله إلى كربلاء حيث نشب القتال في المأثر من الحرم سنة ٦١ هـ ، إذ أن عبيد الله بن زياد أرسل رجلاً أشد بأساً من الحر بن يزيد التميمي وهو عمر بن سعد بن أبي وقاص لتأديب

(١) السعوى : مروج الذهب ج ٥ ص ٦٥ .

الحسين ، ومعه أوامر مشددة بأن يؤتى له بالحسين ومن معه أسرى ، فلما رأى الحسين ضآلة قوته وعجزه على القتال بها طلب الإذن له بالذهاب إلى الخليفة يزيد أو الرجوع إلى الحجاز فرفض طلبه . وأخيراً أراد القتال ، وقاتل الحسين وأصحابه قتالاً عنيفاً . وانتهى الأمر بأن قتل جميع من كانوا معه ولم يبق إلا النساء والأطفال ووقع النهب والسبي في عسكره وذرائه ، ثم حملت النساء ورأسه إلى يزيد بن معاوية بدمشق فرد نساءه إلى المدينة . وقد أدت حادثة كربلاء إلى ازدياد انتشار مذهب التشيع وخاصة بين الفرس ، أما قبل ذلك فقد كاد التشيع أن يكون قاصراً على العرب .

على أن الحسين قد خرج في شكل عصيان للخلافة وثورة على الدولة الحاكمة دون أن يستمد بقوات كافية لمواجهة الطوارئ والأحداث ودون أن يعمل حساباً لما سيفعله الخليفة في سبيل احتفاظه بكيانه وتوطيد ملكه ، إذ جرد أ. أكبر عدد من قواته للضرب على أيدي الثوار . وتآلم الناس لمقتل الحسين حفيد النبي عليه السلام وابن علي ، وخاصة بعد أن اتضح أن عبید الله بن زياد والى الكوفة والخليفة يزيد بن معاوية لم يعاملا أهل البيت بالإجلال والإكرام الواجبين لمقامهم .

ولقد ألقت مذبحة كربلاء الفزع والهلع في جميع البلاد الإسلامية ، كما أشعلت في نفوس الفرس ذلك الحماس الوطني الذي ساعد بنى العباس على إسقاط دولة الأمويين^(١) . وكما قيل إن الحسين — بصرف النظر عن مكانته ومنزلته في قلوب المسلمين — كان خارجاً على الدولة ، فإنه اعتبر شهيداً في الوقت الذي عد فيه يزيد سفاكاً للدماء^(٢) وتوحدت صفوف الشيعة عقب تلك الموقعة

(١) Sayed Ameer Ali: A Short History of the Saracens, p37.

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, P. 198.

وصمموا على الأخذ بنار الحسين ، وخاصة الفرس الذين كانوا يرون أن هذا الوقت فرصة تسنح لهم للتخلص من سلطان العرب وسيطرتهم والاستقلال بدولتهم .

بين يزيد وعبد الله بن الزبير :

لم يجرؤ عبد الله بن الزبير على الجهر بعلمه في الخلافة والحسين على قيد الحياة ، لأنه يعلم أن الحسين أحق بها منه . فلما قتل الحسين أظهر ابن الزبير حقيقة ما يرمى إليه ، ولكنه في الوقت نفسه أثار السخط على قتله الحسين وشاد بذكوره . وفي ذلك الحين ، اجتمع أصحاب ابن الزبير حوله وأوصحوه أنه أحق رجل بالخلافة بعد الحسين وبدعوا في أخذ البيعة له سرّاً . ولما بلغ يزيد أن ابن الزبير أخذ البيعة لنفسه أقسم ليفتقم من كذا انتقم من الحسين ، ولكنه آثر أن يبعث رسولا يعرض عليه الصلح كي تصفو العلاقة بينهما فرفض ابن الزبير . ولكن يزيد مع ذلك عالج الأمر بالأناة والصبر ولم يعجل الحوادث ، حتى اتضح له أن الأمور في المدينة تسير من سيء إلى أسوأ وفي أشد الحالات فتنة واضطراباً بتحريض ابن الزبير ، وتحرّج الأحوال حين نار أهل المدينة وخنقوا يزيد وطرّدوا عامله وضيقوا على من كان بها من بني أمية حتى استقنوا بيزيد . وكان أهل المدينة قد ولوا على أنفسهم « عبد الله بن حنظلة الغسيل » ، وبهذا كان هناك ثلاثة يدعون الخلافة : يزيد في دمشق ، وابن الزبير في مكة ، وعبد الله بن حنظلة في المدينة .

ولم يجد يزيد بداً من أن يبدأ العمل الجدى ، فأمر الجيش بالسير إلى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المري ، وكان من جبابرة العرب طاعناً في السن مريضاً ، وما كاد الجيش الأموي يصل إلى وادي الحرة الواقع شمال المدينة المنورة حتى خرج إليه أهلها ، وهناك جرت معركة هائلة هي واقعة الحرة ، وأسفرت عن هزيمة

أهل المدينة وقتل عدد كبير منهم ، وقتل في هذه الموقعة ألف وسبعائة من قريش والأنصار والمهاجرين ووجوه الناس وكان من بينهم ثمانون رجلاً من أصحاب النبي عليه السلام كما قتل عشرة آلاف من سائر الناس من الموالى والعرب سوى النساء والصبيان ، على أن بنى هاشم لم يشتركوا في معركة الحرة ولزموا بيوتهم ولذلك لم يقتل منهم إلا ثلاثة فقط . وبعد هذه الهزيمة استباح جيش مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام وأسرف هو وجنده في السلب والنهب والاعتداء ، ولذلك لقبوه « المسرف »^(١) .

ويظهر أن المداوة بين الأنصار وبين قريش هي التي أدت في النهاية إلى حدوث تلك الموقعة ، وقيل إنها صدت لواقعة بدر . على أن موقعة الحرة في الواقع ، هي نتيجة للتنافس بين فريق يريد الوصول إلى الحكم ، وفريق يدافع عما صار إليه من السلطان : فالحسين والزبير يطالبان بالخلافة ، ويزيد يتمسك بعرشه . وفي سبيل ذلك ، استباح كل منهما حرمة الخلافة ، وخربت المدينة بعد تلك الموقعة وفقدت رونقها ، على أنها ظلت مركزاً من المراكز العلمية الأولى في الإسلام ومقرراً لسكبار المفسرين والمحدثين من أهلها .

وبعد واقعة الحرة ، أمر يزيد قائده مسلم بن عقبة المري بالمسير إلى مكة حيث يقيم عبد الله بن الزبير ، إلا أن مسلماً أدركه الموت أثناء الطريق ، فتولى قيادة جيوش يزيد من بعده الحصين بن نمير السكوني ، وكان يزيد قد أوصى بتوليته إذا مات مسلم ، فسار بالجيش إلى مكة وحاصرها في أوائل سنة ٦٤ هـ ، وهذه أول مرة فيها تحاصر مكة في التاريخ الإسلامي ، وكان ابن الزبير قد آوى إليها واعتصم بها على اعتبار أنها حرم مقدس لا يحل فيه القتال ، وكان كثير من أهل المدينة قد انضوى تحت لواء عبد الله بن الزبير للدفاع عن مكة كما انضم

(١) السعدي : مروج الذهب ج ٢ ص ٩٢ .

إليه بعض الخوارج ، ونصب على جبل أبي قبيس المواجه للكمة المجانيق .
أما أصحاب ابن الزبير فتحصنوا في بيت الله الحرام ، ودار القتال فأصاب المجانيق
الكمة وهدمتها وأحرقتها حتى تواردت أحجار المجانيق على البيت مما أدى
إلى هدم الكمة في الثالث من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ^(١) .

بينما كان القتال دائراً بين الفريقين جاءهم خبر وفاة يزيد ، فأرسل الحصين
إلى ابن الزبير يقول : « إن الذي وجهنا إلى محاربتك قد هلك ، فمهل لك
في المودة وتفتح لنا الأبواب فنطوف بالبيت ويختلط الناس ببعضهم ببعض » .
فأجابه ابن الزبير إلى طلبه ووقفت الحرب بين الفريقين ، ثم دعا الحصين عبد الله
ابن الزبير إلى الذهاب معه إلى الشام ليأخذ له البيعة من أهلها ، فأبى ابن الزبير
لأنه أراد أن يعيد إلى بلاد الحجاز مجدها ويجعلها مركز الخلافة . وبذلك عاد
الحصين هو وأتباعه ورفعوا الحصار عن مكة ، بعد أن ألحقوا بالكمة الخسائر
الفادحة ، وهكذا ضاعت الفرصة من ابن الزبير .

٣ - معاوية الثاني

٦٣ هـ = ٦٨٠ م

بوفاة يزيد ، انتقل الملك إلى ابنه معاوية المعروف باسم معاوية الثاني ،
وكانت سنة إذ ذاك ثمانية عشرة عاماً ، ولم يزد عهده في الخلافة على أربعين
يوماً ، وكان انتقال الملك إليه بوصية من أبيه جرياً على السنة التي سنّها معاوية ،
وهي حصر الملك في بني أمية ، ولكن هذه الوصية لم تلق احتراماً وتأيداً ،
ولذلك قام الخلاف مباشرة بعد وفاة يزيد ، فقد كان معاوية شاباً مريضاً ضعيف
الإرادة ، فلم يلبث أن تنازل عن الخلافة وفكر في ترشيح رجل للخلافة كما فعل

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٩٧ .

من قبل أبو بكر وعمر بن الخطاب ، ولكنه لم يجد الرجل الذى يصلح لها فافتدى
بعمر فى اختيار ستة ينتخب الخليفة من بينهم رجلا فلم يفلح ، فترك الأمر شورى
للناس يولون أمرهم من يشاءون ، ثم لزم بيته حتى مات بعد أيام من تنازله
عن الخلافة .

اضطرب أمر بنى أمية على أثر تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة ،
ولكنهم استطاعوا أن يسيطروا على الموقف ، وعقدوا اجتماعاً فى الجابية
سنة ٦٤ هـ بايعوا فيه مروان بن الحكم بالخلافة ، وجعلوا ولاية الحكم من
بعده لخالد بن يزيد ثم لعمر بن سعيد ، وبهذه الطريقة أرضوا جميع الذين كانت
تتوق نفوسهم للخلافة كما وحدوا كلمة أنصارهم .

٤ - مروان بن الحكم

٦٤ - ٦٥ هـ = ٦٨٣ - ٦٨٥ م

مروان بن الحكم من البيت الأموى الذى طالما عادى النبی عليه السلام
أيام دعوته ، ولماولى عثمان بن عفان الخلافة قرّب مروان إليه واتّخذ مشيراً
له وأصبح ساعد عثمان وكاتبه ومديره ، وبعد مقتل عثمان بايع علياً وأقام
بالمدينة واعتزل السياسة بعد واقعة الجمل ، وظل على هذه الحال حتى آلت الخلافة
إلى معاوية فولاه على المدينة ، ولما مات معاوية الثانى وأصبح منصب الخليفة
شاعراً احتدم النزاع بين عرب الشام على الخلافة . وساء قبيلة « قيس » حكم
بنى أمية الذى اعتمد على اليمينيين ، فاجتمعت بزعامة الضحّاك بن قيس الفهرى
فى مرج راهط وبايعت عبد الله بن الزبير ، كما اجتمعت « كلب » حيث
مال فريق إلى خالد بن يزيد بن معاوية وفريق آخر مال إلى مروان بن الحكم

ابن العاص ، غير أنه ظهر لهم أن الفرع السفيناني ليس فيه من يستطيع مناهضة ابن الزبير فقد كان خالد صغيراً ، فعدلوا عنه إلى مروان بن الحكم لسنة وشيخوخته ، واتفقوا على أن يلى الخلافة من بعده : خالد بن يزيد بن معاوية ثم عمرو بن سعيد بن العاص .

نقل الملك إلى الفرع المرواني :

لم يستقر الأمر لمروان بن الحكم إلا بعد أن بذل جهداً كبيراً ، فقد سار إلى الضحاك بن قيس الفهري وهزمه في موقعة مرج راهط في الحرم سنة ٦٥ هـ ، وبذلك انتصر العنصر اليميني على المصرى ، وظاهر هذه الموقعة أنها بين الأنصار وابن الزبير وبنى أمية ، ولكنها كانت في الواقع بين عرب الشام « القيسية » وعرب الجنوب وهم « كلب » . وقد دامت هذه الموقعة عشرين يوماً وانتهت بهزيمة القيسية هزيمة شتاء ، وقتل فيها الضحاك بن قيس ، وهكذا انتصر مروان بن الحكم . وقد أذكت هذه الموقعة نار العصبية القبلية بين اليمينية والمضرية من جديد ، لا في الشام فحسب ، ولكن في سائر الولايات الإسلامية وخاصة في خراسان ، وظهر العداء بين اليمينية والمضرية في صورة نزاع متصل بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، وامتد لهيب العصبية إلى أقاصى البلاد التي وصلت إليها الفتوح العربية فيما شنه هؤلاء وأولئك من حروب أهلية ومعارك دموية^(١) وقد أسفرت موقعة مرج راهط عن نتائج هامة : فقد انتقل الملك من الفرع السفيناني إلى الفرع المرواني ، وأصبح نظام الملك الوراثى الذى سنه معاوية حقيقة واقعة ، وبعثت العصبية القبلية التي كانت عاملاً كبيراً في مجرى الحوادث في العصر الأموى .

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٢٢ .

سياسة مروان إزاء الأمصار :

وجه مروان اهتمامه بعد ذلك إلى الأمصار الأخرى غير الشام ، فذهب بنفسه ومعه ابنه عبد العزيز إلى مصر ، حيث كان عبد الله بن الزبير قد أرسل إليها والياً من قبله اسمه « عبد الله بن جحدم » . وقد استطاع مروان أن يهزم ابن جحدم وأتباعه في موقعة الخندق^(١) قرب القسطنطينية في أول جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ ، وبني مروان الدار البيضاء التي اتخذها مركزاً له ، ثم أخذ البيعة من الناس ، إلا أن نفراً قليلاً ظلوا على بيعتهم لابن الزبير ، ولم يجد مروان إزاء إصرارهم إلا أن ضرب أعناقهم^(٢) ، وولى مروان ابنه عبد العزيز على مصر وعاد هو إلى الشام . وبعد عودته إلى بلاد الشام سير حملتين : إحداهما إلى الحجاز حيث دعا عبد الله بن الزبير لنفسه بالخلافة ولكنها هزمت ، والأخرى إلى بلاد العراق حيث كان الشيعة قد قاموا في الكوفة سنة ٦٥ هـ ، وأظهروا ندمهم على ما فرطوا في حق الحسين وتابوا إلى الله من مأساتهم إزاءه ، ولذلك سموا « التوابين » وقد عزموا على الأخذ بنار الحسين وانتزاع الخلافة من بني أمية وإسنادها إلى أحد رجال البيت ، فلم تقم الحملة بشيء يستحق الذكر .

نهاية حكمه :

لم يحكم مروان مدة طويلة ، فقد كان شيخاً مسنّاً ، وبعد أن تم له الأمر في مصر والشام ، حاول تعديل ماتم في مؤتمر الجابية ، بتحويل الخلافة من بعده لابنه عبد الملك بدلاً من خالد بن يزيد ، وكان مروان قد تزوج أم خالد

(١) كان أصحاب ابن جحدم قد أشاروا عليه بأن يحفر خندقاً وقد تم حفره في شهر واحد وموقعه الآن بجهة القرافة .

(٢) المريزي : الخطط ج ٢ ص ٣٣٧ — ٣٣٨ .

« أرملة يزيد » محاولة منه في إذلال خالد أو ليرجمه عن رأيه في الخلافة ، وكان يحقر من شأن خالد ليصد عنه أهل الشام ، وقد دخل خالد يوماً على مروان فعصيه وعيره بأمه ووصفها وصفًا قبيحاً . فغضب لذلك وأخبر أمه بما حدث ، فقالت له « لا يعرفن ذلك منك وأسكت فإنى أ كفيكه » ، وقد انتقم أم خالد من مروان بأن وضعت على وجهه وسادة لم ترفعها حتى مات ، ولما علم بذلك ابنه عبد الملك أراد أن يقتلها ، فأشير عليه بالعدول عن رأيه حتى لا يتحدث الناس بأن امرأة قتلت أباه ، فيلحق به العار^(١) .

ومات مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ ، بعد أن عهد بالخلافة إلى ابنه عبد الملك ، ثم لابنه عبد العزيز ، فكان ذلك تأكيداً للنظام الذي وضعه معاوية وهو نظام الملك الوراثي ، وهكذا نقض مروان العهد الذي أخذه على نفسه في مؤتمر الجابية .

٥ - عبد الملك بن مروان

٦٥ - ٨٨٦ = ٦٨٥ - ٧٠٥ م

ولد عبد الملك بن مروان في المدينة سنة ٣٦ هـ في خلافة عثمان بن عفان ، ويجمع نسب من جهة أبيه وأمه في أبي العاص ، وأمه عائشة بنت معاوية ابن المغيرة بن أبي العاص بن أمية . اتصف بالشهامة ، وعرف بالتدين فقد حفظ القرآن الكريم عن عثمان بن عفان ، وسمع الحديث من أبي هريرة وجابر ابن عبد الله وغيرهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) .

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٢٢٣ .

(٢) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبرى ج ٥ ص ١٧٣ .

المعروفات التي واجهته :

١ - ظهور التوابين :

وقد عمل عبد الملك منذ تواجته أمر الخلافة على توطيد سلطان الأمويين في الدولة العربية ، فبدأ بإرسال الإمدادات الوفيرة إلى عبيد الله بن زياد وإلى السكوفة ليتمكن بها من القضاء على نفوذ الشيعة الذين كانوا قد اجتمعوا في السكوفة قبل وفاة مروان بن الحكم ، ونادوا بضرورة العمل على أخذ ثأر الحسين ، وأطلقوا على أنفسهم اسم « التوابين » وأمروا عليهم رجلاً اسمه سليمان بن صرد ، وانضم إلى تلك الطائفة عدد وافر من الناس حتى بلغ عددهم أربعة آلاف ، واجتمع التوابون وساروا حتى وصلوا إلى « عين الورد » سنة ٦٥ هـ حيث اشتبكوا بعبيد الله بن زياد الذي أرسله مروان بن الحكم للاستيلاء على العراق ، ثم أمره عبد الملك بن مروان عليها ولحق بالشيعة كثير من أهل البصرة والمدائن ، ولما تلاقى الجيشان حلت الهزيمة بالشيعة بعد أن أبلاؤا بلاء حسناً وقتل رئيسهم سليمان بن صرد وفر المنهزمون إلى بلادهم^(١) . وقد أدت تلك الواقعة إلى نفس النتيجة التي انتهت إليها واقعة كربلاء .

٢ - ثورة المختار :

ولم يكد عبيد الله بن زياد يفرغ من التوابين حتى فوجيء سنة ٦٦ هـ بظهور المختار بن أبي عبيد الثقفي ، أحد قواد الجيوش الإسلامية في العراق زمن عمر ، إذ أنه لما اضطرت أحوال الدولة العربية بعد مقتل علي ، أراد المختار أن يستعيد نفوذه ، فاتصل بالحسن بن علي بن أبي طالب ، فلما نحل الحسن عن حقه

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٧٣ — ٧٩ .

في الخلافة لمعاوية اتصل بالحسين ، وبعد مقتل الحسين اتصل بابن الزبير . ولكن ابن الزبير كان قليل الثقة به لما أبداه من التقلب ، فقد كان من الأمويين ثم أصبح من أصحاب ابن الزبير ، ولكنه مالبث أن سجن في الكوفة لأن واليها أساء الظن به ، إلا أن المختار أعمل الحيلة واستمال إليه الشيعة وإدعى أنه مرسل من قبل محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية ، للأخذ بشار الحسين . وبعد إطلاق سراحه استمال أيضاً فريق الموالي الذين كانوا بالكوفة وكون جيشاً من العرب والموالي وقاد حركة عداوية ضد والي الكوفة واستولى فعلاً عليها . وأخذ يعد العدة لمحاربة عبيد الله بن زياد للانتقام منه : لأنه قاتل الحسين ، ولأنه هو الذي سجنه حين كان يدعو للحسين في الكوفة ، وضر به ضربة أفقدته إحدى عينيه ، وبذلك يمكن القول أن ثورة المختار كانت لأسباب عامة وأسباب خاصة .

التقت قوات ابن زياد مع جيش المختار الذي كان يقوده إبراهيم بن الأشتر عند نهر الخازر ، أحد فروع دجلة ، ودارت الدائرة على ابن زياد ، وقتل في تلك الواقعة هو وكثير من أشراف أهل الشام ، وكان عبد الملك قد سار في سنة ٦٦ هـ على رأس الجنود الشامية لقتال المختار في الكوفة ، وبينما هو في طريقه أتاه في إحدى الليالي خبر مقتل عبيد الله بن زياد وانهزام جنده ^(١) ، وبذلك ثارت الشيعة لنفسها من مقتل الحسين . إلا أن تلك الواقعة على الرغم من أنها عدت انتصاراً لأتباع الحسين ، فإنها لم تؤد إلى ازدياد نفوذ المختار أو تقوية سلطانه فإن ابن الزبير وابن الحنفية الذين كانت المختار يعلن أنه من أنصارهما ومن أتباعهما كانا يسيئان الظن به ، بل إن ابن الحنفية تبرأ منه حين علم بما يذمه المختار من أن له نفوذاً علوياً وبما ينشره من المبادئ الغريبة كقوله : إن الله يحوز عليه البدء ^(٢) ، وكقوله بمبدأ تفاسخ الأرواح ،

(١) المسعودي مروج الذهب ج ٢ ص ٣١ .

(٢) أي أن الله عز وجل يقول قولاً ثم تبين له خطؤه في المستقبل فيمهل عنه .

وزعم أن الملائكة تقاتل معه ، وبأنه حصل على كرسي قديم لعلى بن أبي طالب ، يجلس عليه ليجتذب احترام الناس له . وأمر عبد الله بن الزبير أخاه مصعب ابن الزبير بعد أن ولاء العراق بمقاتلة المختار ، فوقعت بينهما بالقرب من السكوفة سنة ٦٧ هـ معركة كبيرة ، انتهت بهزيمة المختار وقتله هو ونحو سبعة آلاف من أتباعه ، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم « المختارية » .

وهكذا اختفى المختار من عالم التاريخ دون أن يكون للحركة التي قادها من الموالى والعرب أية نتيجة ، بل كل ما يمكن أن يقال عنه إنه رجل قام بدور سياسى فى التاريخ الإسلامى .

٣ - بين عبد الملك وابن الزبير :

بالقضاء على ثورات التوابين والمختارية ، استؤنفت الخصومة بين ابن الزبير وعبد الملك أى بين الحجاز والشام . وللوصول إلى القضاء على ابن الزبير قضاء تاما ، لم يسرع الخليفة فى ملاقاته بل عمد إلى الأناة فى بدء المعركة معه حتى يهزم أعداءه الواحد تلو الآخر ويتفرغ للعدو الأكبر . بدأ عبد الملك بالقضاء على المختار ، وهادن إمبراطور الروم ليأمن جانبه أثناء قتاله ابن الزبير ، ثم قضى على عمرو ابن سعيد ليتخلص من أمر مطالبته بالخلافة . وأظهر عبد الملك بصبره على حركات ابن الزبير فى الحجاز إلى ذلك الوقت وعدم تعجله فى القضاء عليها أنه رجل سياسى ودهاية من دهاء العرب :

بدأ الخليفة بأن هادن إمبراطور الروم سنة ٧٠ هـ حتى لا ينتهز فرصة انشغاله بقتال ابن الزبير فيغير على بلاد الشام ، وبعث إليه عبد الملك الأموال والهدايا وصالحه على أن يؤدى إليه نحو خمسين ألف دينار كل عام^(١) .

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٣ .

كذلك نسل عبد الملك بعمر بن سعيد وهو الذي وعد في مؤتمر الجابية بأن يأخذ الخلافة بعد موت مروان وخالد بن يزيد ، وكان عمرو بن سعيد يرى أحقيته بالخلافة دون عبد الملك فكتب إليه عبد الملك « إنك لتطمع نفسك ، بالخلافة ولست لها بأهل » ، فرد عليه عمرو يهدده ويتوعده في كتاب ينم عن الازدراء والاستهتار^(١) . وجعل عبد الملك الولاية من بعده لابنه الوليد ثم عبد العزيز ، وترك عمرو بن سعيد ، وكان هذا هو العامل الأساسي الذي دفعه إلى الانتقام من عبد الملك ، فزحف عمرو على دمشق منتهزاً فرصة غيابه عنها ، ولكن عبد الملك عاد إلى دمشق وقبض على عمرو وقتله بيده بما عده القاريخ وصمة في جبين هذا الخليفة ، لأن عمرراً لم يفعل شيئاً أكثر من أنه طالب بحق اعترف له به من قبل . بذلك قضى عبد الملك على أعدائه وتفرغ لابن الزبير .

خرج عبد الملك بعد ذلك سنة ٧١ هـ إلى العراق ، بعد أن صالح القيسيين ، لقتال مصعب بن الزبير ، فأخذ يستعد الأخير للملاقاة ولكن لم يستطع جند مصعب الوقوف أمام عبد الملك . وأرسل عبد الملك كتباً إلى قواد مصعب يمنهم حتى استسلم إليه ، إلا أن إبراهيم بن الأشتر أعطى مصعباً الكتاب الذي أرسله إليه عبد الملك وأبلغه خبر القواد الذين أخفوا كتب عبد الملك وطلب ابن الأشتر وقتل هؤلاء القواد جميعاً ، ولكن مصعباً رفض ذلك وأمر بحبسهم فقط^(٢) . وكان لهذه السياسة أثرها فقد خان القواد مصعباً ونشب القتال بين الفريقين بالقرب من باجرا^(٣) وهزم مصعب ومن كانوا معه وقتل أخيراً بعد أن أبلى أحسن البلاء ، ودخل عبد الملك الكوفة فبايعه أهلها سنة ٧١ هـ ، وولى على البصرة والكوفة عمالاً من قبله^(٤) .

(١) السعدي : مروج الذهب ج ١ ص ١١٦ - ١١٧ .

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٢٠ .

(٣) بين الكوفة وواسط ومي أقرب إلى الكوفة منها إلى واسط ، وتبعد عن الأولى

بسبعة عشر فرسخاً . ياقوت : معجم البلدان .

(٤) الطبري ج ٧ ص ١٨٧ - ١٨٨ .

وكان عبد الله بن الزبير لا يزال في الحجاز ، حيث دعا لنفسه بالخلافة . ولما كان عبد الملك يرى أن ابن الزبير قوى الشكيمة وأن هزيمته ليست من الأمور الهينة وأنه لابد لكي تصفوله الأمور من القضاء على ابن الزبير . فقد ندب لقتاله رجلا عرف بالقسوة والصلابة هو الحجاج بن يوسف الثقفي ، الذي كان له فضل كبير في توطيد عرش عبد الملك وعرش أولاده من بعده .

ينتهي نسب الحجاج إلى ثقيف جد القبيلة ، ولد سنة ٤١ هـ ، في قرية الطائف في الحجاز في بدء خلافة معاوية بن أبي سفيان من أسرة فقيرة ، وهو ابن يوسف ابن الحَكَم زوج الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود . وكان أبواه يعملان في نقل الطين والحجارة بالطائف . وكان الحجاج قبيح الوجه قبيثا دقيق الساقين أعور معروق الأصداغ ، ولما اشتد ساعده أرسله أبوه إلى معلمى القرية الذين راعهم استعداده وطلاقة لسانه ، حتى أصابت أقرانه الغيرة من براعة بيانه فأخذوا يميرونه بقبحه ، ومرت الأيام وخرج أقرانه للجهاد إلا ابن يوسف الذى لم يجد من يختاره ، وسار لذلك كثيب النفس إذ أنه لا يحس جبنا ولا نقصا اللهم إلا ضمف البنية . وزاول الحجاج تعليم الصبيان في قرية ثقيف سعيًا وراء الرزق ، واكتسب من هذه الحرفة الفصاحة والقدرة على الخطابة . وواتته الفرصة ودخل في خدمه روح بن زنباع الجذامى رئيس شرطة عبد الملك بن مروان ووزيره ، وتقدم بجرأته إلى أن أصبح من رؤساء الجند . وحين صدرت أوامر عبد الملك للجند ورؤسائهم بالسير للجهاد ، تراخى بعض جند ابن زنباع يأكلون ويسمرون ، فاتهمهم الحجاج ، فسبوه فأمر بإحراق خيامهم وضربهم بالسياط ، فاشتكوا إلى ابن زنباع ، فذهب إلى الخليفة شاكيًا الحجاج . فلما سأله الخليفة عن عوامل ما أقدم عليه ، قال : يا أمير المؤمنين ! إن أمرى من أمرك وإن عصانى جندى فقد عصاك ، وأما خيام ابن زنباع فقد تركت على تعريضه عن خيامه خيامًا تفنى عن اللجاج .

لما تبين لعبد الملك عظم مقدرة الحجاج الحربية ، أرسله للقضاء على ابن الزبير في الحجاز ، وهناك ظهرت قوة إرادة الحجاج . خرج الحجاج إلى الطائف ، ومنها إلى المدينة حيث انضم إليه عاملها ومن معه من الجند ، ثم سار إلى مكة وحاصرها وضرب الكعبة بالمنجنيق ، وهي قاذفات الحجارة وبمناط المدافع في العصر الحاضر ، وأقبل الحجاج على المنجنيق يضرب وتره بيده فتزل الحجارة مدمرة حول الكعبة حتى تصدعت جدرانها وما هاب ولا فرق ، حتى أيقن أهل مكة لما رأوا البرق والرعد أن غضب السماء قد حل . وأرغم بذلك أهلها على طلب الأمان ، فانضم بعض أتباع عبد الله بن الزبير وغيرهم من ذوى قرباه إلى الحجاج ، وبقي ابن الزبير في عدد قليل من أنصاره وخرج ابن الزبير بعد ذلك وقاتل أهل الشام قتالا شديداً واستبسل في الدفاع وحمل عليه العدو وقتلوه في جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ .

وبعد انتصار الحجاج على ابن الزبير كافأه عبد الملك بتوليته على مكة واليمن واليمامة ، ولم يمض زمن طويل حتى ولاء على المدينة أيضاً ، وبذلك أصبح الحجاز كله تحت سلطانه . وكان الحجاز موطن المعارضة الشديدة لبني أمية ، ولذلك أتبع في السنوات الثلاث التي أقامها فيه حكم الاضطهاد والشدة وخاصة إزاء أهل المدينة ، إذ أهان كبار الصحابة فيها حتى شكاه عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى الخليفة ، فكتب إليه الخليفة بالألا يتعرض لعبد الله ولا لأنس بن مالك خادم النبي . ونفذ الحجاج أثناء إمرته على الحجاز سياحة الأمويين . فهدم الكعبة التي بناها ابن الزبير فصارت على النحو الذي كانت عليه في الجاهلية للقضاء على أثر ابن الزبير .

٤ - القضاء على فتن العراق :

ظل الحجاج في الحجاز حتى سنة ٥٧٥ هـ حين رأى عبد الملك أن ينتفع بشدته في العراق ، حيث كانت الحالة في غاية الاضطراب لوجود الخوارج الذين دانوا بالديمقراطية التامة ، فكانت الخلافة عندهم حق لكل مسلم يتصف بالتقوى والشجاعة بصرف النظر عن كونه عربياً أو غير عربى قرشياً أو غير قرشى .

وخرج الحجاج من الحجاز لا في جيش ضخم بل أنى عشر راكباً وقصد الكوفة وصعد المنبر متلماً . وحين ارتقى المنبر أزدرتة العيون ، وهم بعض القوم أن يرميه بالحصى ، فما لبث أن قام فألقمهم الحجارة من منطقة العنيف ، فإنه لما تسكاثر الناس بالجامع كشف اللثام عن وجهه وخطبهم خطبته المشهورة في الأدب والتاريخ ، وكلها استهتار بأهل العراق وتوعد لهم ، لما كان منهم من شق عصا الطاعة على بنى أمية ، وقد بدأها بقوله :

« أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

يا أهل الكوفة ! إني لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لأصاحبها ، وكأني أنظر إلى الدماء بين العائم واللحي . . . » وكلها وتيد لأهل العراق عامة وللخوارج خاصة . ولما انتهى الحجاج من خطبته لم يعترض عليه أحد ممن كان في المسجد ، فقد ارتاعوا وأسلسوا له في الظاهر القياد ، لما رأوا من تهديده بجنى الثمار التي حان قطافها . وهذه الخطبة تبين سياسة الشدة التي اعتزم الحجاج أن ينتهجها مع أهل العراق ، فقد نشر بينهم حكماً عرفياً عسكرياً وأمراف في القتل ، فكان يأخذ بالريبة والظنة ويقتل قوماً ليرهب آخرين ، فإنه ما ترك محتجاً على فعل إلا قضى عليه ، وما كان يفكر أنه أجراً للناس على سفك الدماء .

ولما فرغ الحجاج من أهل الكوفة انتقل إلى البصرة ، وسلك نفس السبيل الذي سلكه في الكوفة ، فخطبهم خطبة لا تختلف عن خطبته التي ألقاها في الكوفة .

٥ - القضاء على ثورات الخوارج :

من أهم الصعوبات التي اعترضت الخليفة عبد الملك ، الثورات التي قام بها الخوارج الأزارقة ، وكانوا قد اشتهروا بحملاتهم العنيفة وبمفاجأتهم الليلية لأعدائهم ، وولى عبد الملك لقتالهم ، المهلب بن أبي صفرة^(١) ولكنه استعمل الأثاء ، ولم يتمجبل أمر قتالهم ، وكان الحجاج إذ ذاك قد رحل من الكوفة بعد أن استخلف عليها عروة بن المغيرة بن شعبة ، وسار إلى البصرة ومنذ وصوله إليها ابتدأت المعركة ضد الخوارج الأزارقة ، وزعيمهم الشاعر المشهور قطري بن الفجاءة . إذ أن الحجاج كتب إلى المهلب يعنقه على تباطئه في قتالهم .

بدأت الحرب بين المهلب والأزارقة ، وفيها انهزم الأزارقة في واقعة رامهرمز وجلوا عن العراق . ووالى المهلب زحفه حتى أجلاهم عن فارس أيضاً ، وكان الحجاج عقب جلاء الأزارقة عن الأقاليم التي كان لهم نفوذ فيها ، يرسل عمالا لجباية الخراج ، وما لبث الخليفة عبد الملك أن ولى المهلب خراج فارس للإنفاق منه على قتال الأزارقة . ويسر مهمة المهلب ما كان من أمر انقسام الأزارقة على أنفسهم فقد كانوا في بادئ أمرهم فرقة واحدة ثم انقسموا

(١) المهلب بن قبيصة الأزدي (أو الأسد) ، وهي قبيلة كبيرة ، استقر بعض أفرادها في عمان وهؤلاء أطلق عليهم أزدي عمان وأقام بعضهم في الحجاز ويقال لهم أزدي سراة ، وهي قبيلة مشهورة في دولتي بني أمية وصدر بني العباس ، وزادت شهرة المهلب بعد تلك الوقائع الحربية الهائلة التي خاض غمارها في صدر التاريخ الإسلامي .

على أنفسهم : فالعرب التفوا حول قطرى زعيم الأزارقة^(١) ، والموالى خرجوا عليه وعرف زعيمهم باسم عبد ربه الكبير ، وكان أنصار قطرى من العرب لا يتجاوز عددهم ربع هذه الأزارقة .

وهنا وجد المهلب الفرصة سانحة ، فخارب الأزارقة وحاصر بلدة جبرفت وكان فيها الخوارج من الفرس واشتد حصار المهلب للمدينة وهزم عبد ربه وأصحابه ، مما أدى إلى كسر شوكة الخوارج ولكن قطرى زعيم الخوارج من العرب ، سار إلى طبرستان ، فسير الحجاج جيشاً من أهل الشام بقيادة سفیان بن الأبرد السكابي ، وهزم قطرى وقتل أثناء فراره بعد أن ظل نحو عشرين عاماً زعيماً للأزارقة ، لقب خلالها بلقب أمير المؤمنين ، ولم تجد نفعا محاولات عبيدة ابن هلال ، الذى خلف قطرى فى الزعامة وحاصر بلدة قومس فقد قضى عليه سفیان كما قضى على قطرى ، وكان عبيدة آخر زعماء الأزارقة ، وبذلك قضى المهلب على الأزارقة وزعيمهم فى واقعة جبرفت .

وبعد أن تم القضاء على الأزارقة ، قاتل الخوارج الصفرية^(٢) الذين كان يترجمهم شبيب^(٣) ، وأبلى الحجاج أحسن البلاء ، ولم تغترهم شبيب فى القتال فقد دل على جرأة نادرة على كثرة أعدائه وقلة أتباعه ، وحكم المنطقة التى أقاموا فيها فى الجزيرة ثم فى سهل العراق لمدة ثلاث سنوات وهزم جيوش الحجاج طوال هذه المدة الواحد تلو الآخر . زحف شبيب حتى أصبح على أبواب الكوفة ، ولكنه تراجع لكثرة جند العدو ، وما لبث أن هاجم

(١) كان نافع بن الأزرق أول زعيم للخوارج الأزارقة .

(٢) ظهر الخوارج الصفرية فى العراق ، ومن مبادئهم : عدم التفرقة بين الكبار ، وجعل كل كبيرة سبباً فى الكفر .

(٣) نسب الخوارج الصفرية فى بادئ الأمر إلى صالح بن مسرج ، وخلفه فى زعامتهم شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني .

الكوفة بعد أن رحل منها الحجاج إلى البصرة ودخلها ، وكانت غزاة زوجة شبيب تحارب معه . وعلى أثر دخول شبيب الكوفة ، عاد إليها الحجاج مسرعاً ، ولكن في الصباح خرج الحجاج ، إذ رأى أن يتراجع دون قتال ، وفي هذه المناسبة هجاه الشعراء بقولهم :

أسدٌ على وفي الحروب نعاماً فتخاه^(١) تنفر من صغير الصافر

ولكن القتال استؤنف بعد قليل بين الحجاج وشبيب ووقعت بين الطرفين عدة معارك ، من أهمها واقعة سوق حكمة عند الكوفة وواقعة دجيل ، وفيهما هزم شبيب وفر وغرق جزء من جيشه ، وبموته سنة ٧٧ هـ انحط شأن الخوارج .

٦ - فتنه ابن الأشعث :

وتفاقم خطر المشرق حين خرج عبد الرحمن بن الأشعث^(٢) على طاعة عبد الملك والحجاج . ذلك أن الحجاج كان قد ولى على سجستان عبيد الله ابن أبي بكر ، وكان ملك كابل في أرض سجستان قد ماطل في دفع الأتاوة التي اعتاد أدائها للدولة العربية ، فأمر الحجاج الوالي ابن أبي بكر بقتاله ، ولكن هذا الوالي قتله ، فجهز الحجاج جيشاً بلغ أربعين ألف مقاتل عرف بجيش الطواويس لحسنه وعظم استعداد رجاله ، وولى قيادته عبد الرحمن بن الأشعث ، فخرج من العراق وسار إلى الحدود الشرقية لقتال ملك كابل ، وكان ابن الأشعث شديد الزهو والحذر ، ولذا عنفه الحجاج واستبطأ الخطط الحربية التي رسمها لقتال بل رماه بالجن . وكان عبد الرحمن حاققاً على الحجاج لشدة وقسوته . وكذلك كان الجيش . فعاد ابن الأشعث وجنده إلى العراق وعصوا

(١) فتخاه : شديدة الذعر والفرع .

(٢) هو ابن محمد بن الأشعث بن الليث بن السكندى ، من قبيلة كنده .

أمر الحجاج وخرجوا عليه دون عبد الملك ، واستوثق ابن الأشعث أن ملك كابل سيحميه في حالة هزيمته ويأخذ بناصره .

ووقعت الحرب بين الحجاج وابن الأشعث في منطقة البصرة ، حيث هزم ابن الأشعث في واقعة الزاوية . ثم اتجه شمالاً إلى الكوفة . وخشى الخليفة العاقبة ، فأرسل ابنه عبد الله وأخاه محمد بن رضوان لمفاوضة ابن الأشعث ، على أن يوليه أى إقليم يشاء على أن يسوى العداء بين أهل الشام وأهل العراق ، ويعزل الحجاج عن أساء إليه ، كما أن ابن الأشعث لم يقبل هذا الصلح ، ثم حدثت واقعة « دير الجماجم » سنة ٨٢ هـ وفيها هزم ابن الأشعث وفر ، وألقى بنفسه من حصن عال ومات وقبض على كثيرين من أتباعه ونكل بهم الحجاج ^(١) ، وبذلك انتهت حركة ابن الأشعث بالقتل .

وعلى أثر ذلك عظم سلطان الحجاج وهذا المشرق . وبسط عبد الملك يده عليه ، وأضاف إلى أعمال الحجاج خراسان وسجستان وعمان ، وصار بذلك حاكماً على نصف الدولة العربية . وضعت ثقة الحجاج في جند العراق وعول على جند الشام ، ولكي لا يخطط جند الشام بجند العراق ، ترك الكوفة والبصرة وأنشأ بلدة واسط ^(٢) ، وكان إنشاؤه ختاماً للفتن التي قامت في ذلك العصر ^(٣) .

٧ — استرداد إفريقية :

هذه الأحداث لم تشغل عبد الملك عما كان يدور في إفريقية ، إذ أن البربر كانوا قد جمعوا جموعهم في مستهل خلافته ، وهاجوا العرب في القيروان وكانوا

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٢٢٧ .

(٢) تقع واسط بين مدينتي الكوفة والبصرة . وقد سميت كذلك لتوسط موقعها بين هاتين

المدينتين .

(٣) على إبراهيم حسن : الحجاج بن يوسف الثقفي ، بحث في مجلة العلوم ، العددان الثامن

والتاسع ، أكتوبر ونوفمبر ١٩٣٧ .

قليلين فهزمهم وقتلوا معظمهم ، كما قتلوا عقبة بن نافع والى إفريقية وسقطت القيروان في أيديهم . وقد أرسل عبد الملك جيشاً لاسترداد تلك البلاد سنة ٦٩ هـ ولكن البربر والرومان قضوا عليه ، كما أرسل جيشاً آخر على رأسه حسان بن النعمان ، استرد القيروان وقرطاجنة ، وهزم الرومان والبربر ، ومدّ النفوذ الإسلامى حتى شواطئ المحيط الأطلسي ، ولكن نهاية جهوده لم تكن موفقة لأن البربر استجابوا للدعوة امرأة أطلق عليها لقب « الكاهنة » . وملكوها عليهم ، واضطروا الجيش إلى الانسحاب إلى برقة ، واقتد ملكت الكاهنة خمس سنوات . وأخيراً أمد عبد الملك قائده حسان بن النعمان بمدد حربى سنة ٧٩ هـ ، فسار لاسترداد شمالى إفريقية ، وفشلت الكاهنة في مقاومته وهزمت بعد أن خاضت موقعة هائلة على سفوح جبال أطلس . وقتلت في تلك المعركة ، وبعد قتلها استطاع حسان أن يحكم إفريقية وأن ينشر السلام بين أهلها . .

تقديم عبد الملك :

كان عبد الملك أول من تجبر من الملوك ، وأظهر أبهة الملك بخلاف من سبقه من الأمويين ، وقد تجلّى بأسه وجبروته حين منع الناس من الدخول عليه ومن التكلم بحرية في حضرته . خطب عبد الملك الناس يوماً فقال : « أيها الناس ! إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف ^(١) ولا بالخليفة المداهن ^(٢) ، ولا بالخليفة المأفون (الضعيف الرأى) ^(٣) ، فمن قال برأسه كذا قلنا بسيفنا كذا » ^(٤) . واشتهر عبد الملك بالحزم وأصالة الرأى كما كان أديباً فصيحاً وشاعراً مجيداً .

(١) يقصد هشام بن عфан .

(٢) يقصد معاوية .

(٣) يقصد يزيد بن معاوية .

(٤) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٨٨ .

وفي سنة ٨٨٦ هـ أراد عبد الملك أن يحمل ابنه الوليد ولياً للعهد دون أخيه العزيز ، وطلب إلى أخيه أن ينزل عن حقه بنفسه ، فرفض ، إلا أنه توفي . وتمكن بذلك عبد الملك من أخذ البيعة لابنه الوليد . وتوفي عبد الملك سنة ٨٨٦ هـ .

٦ - الوليد بن عبد الملك

٨٦ - ٨٩٦ = ٧٠٥ - ٧١٥ م

اعتلى الوليد عرش الخلافة في وقت كان أبوه قد قضى على الأزمات التي واجهت الدولة ، وثبت قواعد العرش الأموي بعد أن تزعزعت أركانها بعد موت يزيد ابن معاوية . وكان قد قضى كذلك على المنافسين أمثال ابن الزبير وابن الأشعث ، فانهى بذلك أمر الفتن الداخلية ، ولذا تمتع المسلمون في عهد الوليد بحياة هادئة مثمرة واتسعت أطراف الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً . وعصره عصر التوسع والفتح ، لأنه في السنوات العشر الذي قضاها في الخلافة استؤنفت الفتوح الإسلامية التي وقفت منذ عصر عثمان بسبب اضطراب أحوال الخلافة ، وأضيفت إلى الدولة الإسلامية أقطار واسعة كان لها أعظم الأثر في نشر المدنية الإسلامية والنفوذ العربي . وقامت الفتوح الجديدة على أساس كسب المال ، لا على أساس نشر الدين الإسلامي كما كان الغرض من الفتح أيام الخلفاء الراشدين . وتم في عهده فتح : إقليم ما وراء النهر ، وحوض نهر السند ، وشمال إفريقيا ، والأندلس . وقام بهذه الفتوح ثلاثة من القواد كان لهم فضل إتمامها وهم : قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم ، وموسى ابن نصير .

الفتوح في عهد الوليد ١ - إقليم ما وراء النهر :

طمع المسلمون منذ عهد عثمان بن عفان في هذا الإقليم فأرسلوا إليه عدة غزوات لم تؤد إلى نتيجة ما ، وكان مقسما إلى عدة وحدات سياسية مثل : سمرقند وبخارى ، وعلى رأس كل منهما ملك من الترك ، هم أشبه بمشايخ قبائل يحارب بعضهم بعضا ، مما نفع المسلمين في غزوهم .

تم فتح هذا الإقليم على يد قتيبة بن مسلم ، وكان الحجاج قد ولاه خراسان . خرج قتيبة أولا إلى « بلخ » واحتلها سنة ٨٦ هـ ، ثم غزا « بيكند » سنة ٨٧ هـ ولكن أهلها انتهزوا فرصة غيابه في الصفد وغدروا بهامله وقتلوه فاضطر إلى الرجوع إليهم وهزمهم وغنم منهم مقام كثيرة بعد أن فتح المدينة عنوة ، وفي سنة ٨٨ هـ واصل فتوحاته فسكان النصر حليفه في بلاد كرمينية^(١) ، وفي سنة ٨٩ هـ استولى على بخارى بعد عناء شديد واستخدم في جيشه كثيرا من أهلها ، وفي سنة ٩٣ هـ استولى على خوارزم ، ثم فتح سمرقند بعد قتال شديد وبفتحها وطد مركزه في بلاد ما وراء النهر وقرر مد حدود الدولة العربية في أواسط آسيا ، وعبر نهر جيحون حيث التقى بجيش مؤلف من عشرين ألف مقاتل من بخارى وخوارزم وغيرها ، وفي العام التالي سار إلى فرغانة وهو الإقليم المتاخم لبلاد تركستان ، ومنها تابع السير حتى وصل خجندة على نهر سيحون ولقي مقاومة ولكنه انتصر انتصارا باهرا^(٢) ، وفي سنة ٩٥ هـ استولى على خوقند وقشغر .

لم يكنف قتيبة بما أحرزه من انتصارات وبما فتحه من بلاد ما وراء النهر ، بل مضى قدما يتابع فتوحاته ، وبينما هو في الطريق جاءه خبر وفاة الخليفة الوليد .

(١) بلدة من نواحي الصفد بين سمرقند وبخارى . ياقوت : معجم البلدان .

(٢) الطبري ج ١ ص ٩١ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٢٣٨ .

فلم يثنه ذلك عن مواصلة الغزو بل ظل في سيره حتى قرب من حدود الصين ، وإذ ذاك أرسل إلى ملكها وفدا يعرض عليه شروط التسليم ، وبعد مفاوضات طويلة اضطر ملك الصين إلى أن يقدم له الخضوع ويدفع الجزية .

وهكذا أصبح هذا الإقليم كله تحت سلطان الدولة العربية . وسلك العرب في معاملة أهل هذا الإقليم نفس السبيل التي سلكوها في الأقاليم الأخرى التي فتحوها ، فجمعوا أهلها على اعتناق الإسلام حتى اعتنقه كثير من الترك . وتوضح أهمية هذا الإقليم إذا علمنا أن كثيرين من علماء المسلمين من أمثال البخاري والفارابي والزندى والخوانزمرى قد ظهروا فيه .

٢ - إقليم السند :

فتح هذا الإقليم محمد بن القاسم ، من أقرباء الحجاج بن يوسف الثقفي ، وكان عاملاً على مكران . عهد إليه الحجاج في غزو بلاد الهند ، لاعتدائه ببعض القبائل الهندية على العرب المقيمين هناك . فسار إليها سنة ٨٩ هـ وتمسكن من احتلال أهم بلدانها حتى بلغ نهر السند ، وهناك التقى بملك السند ، حيث كان هو وجنده يقاتلون على ظهور الفيلة ، وانتهى القتال بهزيمة ملك السند وقتله . وبذلك استطاع محمد بن القاسم أن يمد فتوحه حتى وصل إلى الملتان في جنوب بلاد البنجاب ودخلها^(١) .

وكانت هذه البلاد وثنية ، ثم عم النفوذ الإسلامي بلاد الهند ، وتاخمت تلك البلاد الدولة العربية ووجد بذلك اتصال بين البلدين مما كان له أثر كبير ، فإن كثيراً من علوم العرب كالفلسفة والرياضيات نقلت من الهند واقتبست عنها .

(١) Muir : The Caliphate, its Rise, Decline and Fall, p. 353.

٣ - فتح شمال إفريقية :

يعد موسى^(١) بن نصير^(٢) بطل هذا الفتح . وكان هو ومولاه طارق بن زياد من البربر ، ويرجع السبب في غزو هذا الإقليم إلى أن العرب عولوا بعد فتح مصر على تقوية حدودهم الغربية والاستيلاء على بقية الساحل الإفريقي الشمالى . فخرج موسى بن نصير على رأس جيش قاصداً إفريقية ، فلما بلغها ضم إليه جيشاً آخر ، جعل على مقدمته طارق بن زياد ، وقاتل موسى البربر ، وبسط نفوذ الأمويين ونشر الإسلام في أرجاء بلاد المغرب ، حتى بلغ طنجة وهى قصبة تلك البلاد وأم مدائنها ، فحاصرها حتى فتحها وأسلم أهلها وقلد طارقاً ولايتها^(٣) .

وقد لقي العرب في فتح تلك البلاد مشقات جمة ، لم يلقوها في فتوحاتهم الأخرى : إذ أنها بلاد جبلية يقيم فيها البربر من قديم الزمان ، وهو جنس ألف البداوة ومنذ القدم يعيش كما تعيش قبائل العرب محباً للحروب والغزو ، شديد التأثير بالدوافع الدينية إلى حد تصديق الخرافات والاعتقاد في الأوهام ، ولذا لقي العرب في حربهم معهم كثيراً من الصعاب لبسالتهم ولمساعدة الدولة البيزنطية لهم ومددها إياهم بالجنود والمال لقتال العرب .

استمر موسى في قتاله في بلاد المغرب حتى بلغ شاطئ المحيط الأطلسى وقضى على نفوذ الدولة البيزنطية في تلك الجهات إلى مدينة « سبتة » . ولقد أتبع موسى هذا النصر الحربى بالنصر الدينى ، فقد أدخل البربر في الإسلام ونشر بينهم القراء يقرؤونهم القرآن ، وأصبحت المغرب منذ سنة ٩٠ هـ خاضعة

(١) ولى موسى البصرة في أوائل عهد عبد الملك ، وكان محبا لجمع المال .

(٢) كان نصير من السبي ، الذين أسرهم خالد بن الوليد ، ثم اتصل بالأمويين وأصبح

من مواليهم .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٣٩ .

للدولة العربية . وهكذا أصبح موسى شخصية عظيمة ، وذاعت شهرته في المغرب .

٤ — فتح الأندلس

بعد أن استقر أمر المسلمين في بلاد المغرب ، اتجهت أنظارهم إلى أسبانيا التي كان قد نزل بها الوندال في القرن الخامس الميلادي على أثر ضعف الدولة الرومانية وسميت بذلك وندلوسيا أى بلد الوندال ، وبعد ذلك نزل بها القوط الغربيون ، وكان المسلمون يسمونها الأندلس .

وكانت مساوىء الحكم القوطى في بلاد الأندلس مما سهل أمر فتح هذه البلاد أمام المسلمين ، ذلك أن الطبقات الممتازة من الأشراف ورجال الدين قد استأثرت في العهد القوطى بكل المزايا ، فكانت معفاة من الضرائب كما كانت تضع يدها على معظم الأراضى ، بينما كان التجار مرهقين بالضرائب الفادحة ، وكان الزراع من العبيد هم الذين يقع عليهم عبء الحياة الثقيلة . ولما ثار نبلاء القوط والسكينة على الملك « أخيلا » وولوا مكانه قائد الجيش القوطى « رودريك » Roderic ، انقسم الجيش القوطى إلى فريقين : فريق يشايح رودريك وآخر يعارضه ، وكان على رأس هذا الفريق الأخير أخيلا الذى حاول استرداد عرشه المسلوب ، وقد كان هذا الفريق قوياً ، وازداد قوة حين انضم إليه الأمير جوليان حاكم « سبتة » الذى صد جيوش موسى بن نصير عنها .

وقد سمنحت للعرب فرصة الإغارة على السواحل الأسبانية ، منتهزين فرصة استعانة الأمير جوليان بموسى بن نصير ضد الملك رودريك ، وذلك لما كان يضمه له من العداء ، واتصل جوليان بقوات العرب ، وأخذ يعد لهم وسائل الإغارة على أسبانيا والقضاء على رودريك ، ووصف جوليان لموسى ما جمعت بلاد الأندلس من شتى المنافع وهون عليه حال رجالها وذلك عقب عام ٥٩٠ هـ .

ورحب موسى بن نصير بدعوة جولييان ، واستشار الخليفة الوليد الذي تردد أولاً ، ثم سمح له بمحاربة رودريك على أن يتبع طريق الحيطه والحذر ويتأكد أن جولييان لا يريد التفرير بالمسلمين . وقد أرسل موسى بن نصير ، طريقاً بن مالك على رأس خمسمائة مقاتل سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) ، ففزا بعض ثغور بلاد الأندلس الجنوبية بمساعدة جولييان وعاد بالأسلاب والغنائم .

وبعد ذلك ستر موسى جيشاً كبيراً بلغ عدده سبعة آلاف معظمهم من البربر ، بقيادة مولاة طارق بن زياد حاكم طنجة سنة ٩٢ هـ ، وقد عبر هذا الجيش الخليج الفاصل بين إفريقية وبلاد الأندلس ، ونزل في المكان الذي يسمى الآن « جبل طارق » ، ثم سار في الولاية المجاورة وفر من قوات القوط التي اعترضته ، واتجه شمالاً حيث انضم إليه خمسة آلاف مقاتل ووصل إليه مدد من موسى ابن نصير .

ثارت مخاوف المسلمين حين علموا بذنو جيش رودريك ، ولكن طارق خطبهم خطبته المشهورة : أيها الناس ! أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم إلا الصديق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيق من الأيتام في مأدبة اللثام . قد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لا وذر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلفونه من أيدي عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تفجزوا لكم أمراً ، ذهب ربحكم وتعوضت القلوب في رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة الطاغية وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم للملك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً . . . واعلموا إنى أول مجيب لما دعوتكم إليه ، وإنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لدرى قفاته إن شاء الله ^(١) .

والتقى الجيشان في منتصف رمضان سنة ٩٢ هـ ، وكان الملك رودريك على رأس جيش يبلغ مائة ألف مقاتل وذلك على ضفاف نهر جوادى فى أسبانيا ، وانتصر جيش طارق على العدو انتصاراً باهراً ، وفر رودريك ولكنه غرق فى مياه النهر .

ويعزى هذا النجاح الذى أحرزه المسلمون فى هذه المعركة ، إلى ما بذله جولييان من جهود فى استمالة كثير من جند رودريك إليه ، مما رجح كفة العرب وفرق شمل جيش رودريك^(١) . وقد قسم طارق بن زياد جيشه بعد ذلك إلى أربع فرق : وجه ثلاثة منها نحو « ملقأ » وغرناطة وقرطبة ، فى حين سار هو بنفسه على رأس الفرقة الرابعة نحو « طليطلة » ، عاصمة القوط واستولى عليها ، وكان طارق قد أرسل المفيث بن الحارث على رأس سبعائة فارس إلى قرطبة واستولى عليها كذلك .

ولما سمع موسى بن نصير بانتصارات طارق ، دبب الفيرة فى نفسه وأرسل إليه أمراً بالتوقف ، ثم أعد جيشاً يبلغ عدده ثمانية عشر ألف مقاتل يتألف من العرب والبربر ، وسار به إلى الأندلس واستولى على إشبيلية ، وكانت من أعظم مدن الأندلس شأنًا وأنفخها بناءً وكانت حاضرة أسبانيا حتى غلب عليها القوط فاتخذوا طليطلة حاضرة لدولتهم ، وقد سار طارق حتى وصل إلى مدينة « ماردة » التى تمتاز بقصورها وكنائسها واستولى عليها يوم عيد الفطر سنة ٩٤ هـ .

والتقى موسى بطارق فى طليطلة ، وأنه على عصيانه الأوامر التى أصدرها إليه بالتوقف بل وضر به بالسوط ووجهه على استبداده برأيه ، وطالبه بالأموال والنفائس التى استولى عليها ثم سجنه . وقد استطاع طارق أن يتصل بالخليفة الوليد وشكا له سوء معاملة موسى بن نصير ، فكتب الخليفة إلى موسى يأمره بإطلاق سراح طارق وردّه إلى عمله ، فردّه موسى إلى قيادة المسلمين .

(١) القرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٢٢ .

سارت قوات موسى وطارق من طليطلة : ففتحت أقاليم أرغونة ، وقشتالة ، وقطالونيا على الساحل الشرقى ، واستولت على مدن مهمة منها سرقة و برشلونة ، وأصبحت أسبانيا كلها حتى جبال البرانس فى أيدي المسلمين فى أقل من سنتين ، وذلك فيما عدا الأقاليم الجبلية فى الشمال الغربى التى تسمى جليقية ، وقد التجأ إليها أشراف القوط وكبرأؤهم وصمدوا ضد التوسع الإسلامى ، وترك موسى أمر إخضاع جليقية إلى طارق وعبر البرانس إلى فرنسا وترك الجزء الجنوبى منها ، ولكن الخليفة الوليد مالبث أن دعاه إلى الكف عن التوسع ، فعاد موسى إلى أسبانيا ، وأخذ يوجه جهوده إلى إخضاع الجزء الشمالى الغربى منها ودخل جليقية واستولى على قلاعها . وأراد موسى متابعة الفتح والغزو ، ولكن الوليد استدعى موسى فى ذلك الوقت لأنه كان يخشى ازدياد نفوذه واستقلاله بتلك البلاد . ورحل موسى بن نصير إلى دمشق سنة ٩٦ هـ ، بعد أن ولى ابنه عبد العزيز على الأندلس كما ولى ابنه عبد الله إفريقية .

وهكذا تم فتح أسبانيا ، فامتدت حدود الدولة وازدهرت المدنية الإسلامية لتأثرها بالحضارة الأندلسية الزاهية ، وبذلك يعتبر عهد الوليد عهد التوسع والفتح فى الدولة الأموية .

تغدير الوليد :

كان عصر الوليد عصر عظمة ومجد للأمويين : فقد اتسعت أطراف الدولة العربية ، وبرزت مواهب قواد العرب ، كما ارتقت الفنون وازدهرت العمارة إذ أنشأ المسجد الأموى الباقى إلى اليوم فى دمشق^(١) وأعاد بناء المسجد النبوى فى المدينة المنورة .

وتوفى الوليد سنة ٩٦ هـ بعد الحجاج بسنة واحدة .

(١) كان هذا المسجد فى الأصل كنيسة ، فاقسمه المسلمون وجعلوا نصفه كنيسة للنصارى والنصف الآخر جامعاً للمسلمين ، ثم اشترى النصف الذى جعل كنيسة واسكنه لم يضمه إلى مساحة المسجد .

٧ - سليمان بن عبد الملك بن مروان

٩٦ - ٩٩ = ٩١٥ - ٩١٨ م

سيرة :

ارتقى سليمان عرش الخلافة بعد أخيه الوليد طبقاً للنظام الذى كان قد وضعه عبد الملك بن مروان لولاية العهد . على أن سليمان قد غلبت عليه العصبية القبلية : فقد كانت أمه يمنية مثل يزيد بن معاوية ولذلك كان سليمان متمصباً لأخواله من اليميين ، وكان ذلك التعصب القبلى من عوامل سقوط الدولة .

أراد الوليد أن يجعل ولاية العهد لابنه عبد العزيز من بعده ، وقد شجعه على ذلك الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم الباهلى ومحمد بن القاسم ، ولكن الوليد مات قبل أن ينفذ رغبته ، فحدد سليمان عليه . وكان الحجاج قد توفى قبل الوليد ، أما محمد بن القاسم وقتيبة فقد حلّ بهما غضب سليمان ويقال إنه لما ارتقى سليمان عرش الخلافة ولّى يزيد بن أبى كبشة على السند وأمره بحبس محمد بن القاسم فحبسه فى بلدة واسط وانتهى أمره أخيراً بالقتل^(١) . كذلك عزل سليمان ، قتيبة ابن مسلم ، وأساء معاملته موسى رغم كبر سنه وسوء صحته وفرض عليه مبلغاً كبيراً من المال وما لبث أن سجنه حتى مات ، كما أرسل إلى بلاد الأندلس من قتل ابنه عبد العزيز وعزل ابنه عبد الله عن شمال إفريقية ولكنه عفا عنه وسمح له بالتردد على مجلسه فظل على ذلك حتى مات فى حياة سليمان ، وهكذا بدأ سليمان خلافته بالانتقام من قواد أخيه . على أن سليمان رغم ذلك كان يقدر الناس حق قدرهم ،

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٠٣ .

فقد أبى أن يسلم طارق بن زياد إلى موسى بن نصير بعد أن عفا عنه ، كما أنه كان يجالس العلماء من أمثال ابن شهاب الزهري ، وقدّر عمر بن عبد العزيز حق قدره . وفي عهده ارتفع شأن أعداء الحجاج وخاصة أسرة المهلب ورئيسها يزيد ابن المهلب الذي ولاه سليمان على المشرق ، فسار إلى خراسان وغزا إقليم طبرستان وجرجان .

مصار القسطنطينية :

استطاع سليمان في مدة خلافته ، رغم قصرها ، أن ينفذ الحملة التي كان قد أعدها الوليد في أواخر أيامه لفتح القسطنطينية ، فلم يتوان في تجهيزها ومضى في تنفيذ المشروع دون تردد ، وشجعه على ذلك أن القسطنطينية كانت في حالة ضعف تام ، فأرسل سنة ٩٨ هـ قوة برية تبلغ ثمانين ألفاً إلى آسيا الصغرى تحت قيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، كما أقر عمر بن هبيرة قائد الأسطول العربي على القوة البحرية وأمره بالإبحار إلى القسطنطينية ، ورابط سليمان نفسه بقوة حربية عند « دابق » بالقرب من حلب ليمد الحملة بما يلزمها وقت الحاجة .

اجتاح مسلمة بن عبد الملك آسيا الصغرى ووصل إلى بلدة « عمورية » وأخذ في محاصرتها ، وكان يتولى الدفاع عنها ليو الأزوري البيزنطي الذي عرف بمطامحه السياسية في عرش بيزنطة ، فحاول الاستعانة بالعرب للوصول للملك ، ومن ثم دخل في مفاوضات مع مسلمة ، ولم يكن مسلمة بالقائد الفطن ، فقد صدق ماتمهله به ليو بأنه إذا ساعده على ارتقاء عرش الدولة البيزنطية فإنه يؤدي جزية سنوية للدولة العربية ، ورفع الحصار عن عمورية وسار إلى بلدة أبيدوس على ساحل آسيا الصغرى الغربي ، وسار ليو في الوقت نفسه إلى القسطنطينية وأوهم أهلها أنهم إن جعلوه ملكاً عليهم تمكن من صد غارة العرب لأنه قد تمكن من خديعة القائد

العربي ، فلم يشك أهل القسطنطينية في قوله وجلس على عرش بيزنطة .

كان مسلمة إذ ذاك يربط يحيوشه أمام القسطنطينية منتظراً أن يبرئ بوعده ويرسل إليه الأموال ، وكان الأسطول العربي قد دخل مضيق القسطنطينية ورابط في البسفور . ولما لم يف ليوبوعده صمم مسلمة على مداومة الحصار وأمر وجاله بزرع الأراضى وادخار المؤن والذخائر ، ولكن ليوبو تمكن من أن يدخل النفلة مرة أخرى على مسلمة قائد الجيش الإسلامى . فأوهمه أن الروم قد علموا أنه لن يحاربهم مادام الطعام وفيراً ، فلو أحرق الطعام فإنهم يظنون أنه سيبادر إلى الحرب فيقدمون إليه فروض الولاء والطاعة ، وهكذا أمر مسلمة بإحراق المؤن دون أن يدرك نتيجة هذا العمل ، فلما اشتد حصار المسلمين للمدينة من البحر وهاجمها أسطول المسلمين ، استدرج ليوسلطان المسلمين حتى فتكت بها النار الإغريقية ولم يبق معهم من المؤن والذخيرة ما يساعدهم على مهاجمة المدينة الحصينة^(١) .

وأقبل الشتاء على الجيش وقد نفذت أقواته بعد أن أحرقت ، واضطر الجند إلى أكل الدواب حتى جاءت الأخبار بوفاة سليمان في صفر سنة ٩٩ هـ وتولية عمر بن عبد العزيز ، فمادت الحملة خائبة ، بعد أن أمرها الخليفة الجديد بالرجوع . وهكذا قدر لحملة سليمان على القسطنطينية الإخفاق .

ولا غرو فقد اشتهر سليمان بالضعف ، فقد نشر الفرقة والانقسام بين أفراد الدولة بعد أن شطرها إلى شطرين : يمنية ومصرية ، كما كان نهماً حجباً لا ترف ، فلم يكن من المنتظر أن ينجح في إنجاز مثل هذا المشروع الضخم .

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٤٦ .

٨ - عمر بن عبد العزيز

٩٩ - ١٠١ هـ = ٧١٧ - ٧٢٠ م

بيعته :

لما مرض سليمان بن عبد الملك عزم على مبايعة بعض أبنائه ، فنهاه أحد خاصته وأشار عليه أن يختار رجلاً صالحاً^(١) ، فاستشاره في عمر بن عبد العزيز فأثنى عليه ، فكتب سليمان عهده ، ودعا أهل بيته وقال لهم : « بايعت لمن عهدت إليه في هذا الكتاب » ، ولم يعلمهم به فبايعوا ، ولما مات سليمان جمعهم ذلك الرجل الذي أشار بمبايعة عمر وكتب موت سليمان عنهم وقال لهم : « بايعوا مرة أخرى » فبايعوا ، ولما رأى أنه قد أحكم الأمر ، أعلمهم بموت سليمان فبايعوه ، ولم يتخلف عن بيعته إلا سعيد وهشام ابنا عبد الملك^(٢) . وقيل إن سليمان بن عبد الملك خبره ، فوجد أنه لم يكن من بين الأمويين من يصلح لهذا الأمر غيره : لورعه ، وتمسكه بأهداب الدين ، وحفظ العهود والمواثيق .

سياسته :

كان البون شاسعاً بين عمر وبين غيره من خلفاء بني أمية ، حتى اعتبر حكمه : غرة في جبين ذلك القرن الذي امتلأ بالزيف عن الدين وتلطخ بالاستبداد وسفك الدماء^(٣) ، ويُعد المسلمون خلافتَه كخلافة عمر بن الخطاب . ينتهى نسب عمر ابن عبد العزيز إلى مروان بن الحكم بن العاص بن أمية ، أما أمه فهي بنت عاصم بن

(١) هو رجاء بن حيوة .

(٢) الفخرى ص ١١٧ .

Nicholson : Lit. History of the Arabs, p. 209.

(٣)

عمر بن الخطاب ، فلا عجب إذا اشتهر كجده بالتقوى والورع والعدل ، ومع أنه نشأ في مصر مع أبيه ، إلا أن أباه بعثه إلى المدينة فاتصل بشيوخها وتعمق في الفقه وبرع في الحديث ، وولى الحجاز في زمن عبد الملك بن مروان والوليد ، وتم على يده تجميل المسجد النبوي في المدينة المنورة . وأبطل عمر سب على ابن أبي طالب على المنابر^(١) ، وهي العادة التي كانت متبعة في العصر الأموي ، وهذا حدا بالعلويين إلى الرضى عن خلافة عمر . وكان بلاطه مملوفاً بأهل الورع والتقوى ، حتى لم يكن للشعراء نصيب في بلاطه .

اصولنامه :

كان عصر عمر عصر سلم وإصلاح واستقرار ، بعيداً عن الفتن التي سادت الدولة الإسلامية منذ عهد عثمان ، فقد عزل الولاة الذين عرفوا بالظلم وولى مكانهم الأكفاء والمصلحين وجعلهم مسؤولين أمامه وحده من سلطتهم . ثم بدأ في نشر الدعوة الإسلامية على النحو الذي كانت عليه أيام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وقد وصل عمر بالوسائل السلمية في نشر تلك الدعوة إلى ما عجز عنه أسلافه عن طريق القوة : فقدم لأهالي البلاد التابعة للدولة العربية هبات من المال ليدخلوا في الإسلام ، وأرسل إلى بلاد المغرب عشرة من الفقهاء ليعلموا أهل البلاد أصول الدين الإسلامي وتعاليمه ، كذلك أرسل كتاباً إلى ليو الثالث ملك الروم يدعو فيه إلى الدخول في الإسلام ، وكتب إلى ملوك الهند والسند وما وراء النهر والبربر بإفريقية لإقناعهم باعتماد الديانة الإسلامية على ألا يدفعوا جزية ولا يمس استقلالهم فاستجاب له أكثر هؤلاء الملوك ، وقيل إن عامله على خراسان أدخل في الإسلام نحواً من أربعة آلاف شخص .

وحاول عمر إصلاح حالة البلاد المالية بأن أمر عماله بأن يرفعوا الجزية عن كل من أسلم ، ولما شكوا إليه بعض الولاة كثرة دخول الناس في الإسلام ونقص إيرادات بيت المال نقصاً محسوساً تبعاً لذلك واستأذنوه في فرض الجزية على من يعتنق الإسلام ، قبّح رأيهم ، ورد على أيوب بن شرحبيل الأصبحي وإلى مصر بكلمته الخالدة : ضع الجزية عن أسلم ، قبّح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ، ولم يبعثه جابياً ، ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام على يديه .

واستقدم عمر الجيش الذي كان يحاصر القسطنطينية ، فقد بعث بأوامره إلى مسلمة بن عبد الملك ليرفع الحصار عن القسطنطينية ، بعد أن ساءت حال المسلمين واستعصى عليهم فتح تلك المدينة .

حاول عمر إرضاء الشيعة والخوارج وإقناعهم بمناصرة الأمويين عن طريق الأدلة والحجج والبراهين ، ولم يحرك الخوارج ساكناً في عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان ، ولما ولي عمر بن عبد العزيز ولاية العهد ظهر « بسطام اليشكري » من بني يشكر وكان يعرف باسم شوذب ، ولم يرد عمر أن يأخذ هؤلاء الخوارج الذين التفوا حوله بالشدّة والقسوة ، فأرسل إلى شوذب كتاباً يقول فيه : « بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه ولست أولى بذلك مني ، فهل أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان بيدك نظرنا في أمرنا » . فكتب شوذب إلى عمر : « قد اتفقت وقد أرسلت إليك رجلين يدارسانك وينظرانك ولم يستطع أن يرد علي اعتراضهما في شأن ولاية العهد ليزيد بن عبد الملك من بعده ، فطلب إليهما أن يستمهلاه ثلاثة أيام ، ولكنه مات قبل مضي هذه المدة لأن بني مروان دسوا له السم خوفاً من أن يخلع يزيد وأن يضيع ما في أيديهم من السلطان .

وفاته :

توفي عمر سنة ١٠١ هـ في « دير سمعان » في شمال الشام ، وسنه لا تزيد على تسع وثلاثين سنة ، بعد أن ولى الخلافة مدة سنتين وخمسة أشهر . وقد عده بعض المؤرخين من الخلفاء الراشدين وخاصة أنه رد المظالم التي ارتكبتها بنو أمية ، لذلك نبشت قبور الخلفاء الأمويين بعد قيام الدولة العباسية لإلقائه لأعماله الجليلة التي قام بها في سبيل رفع شأن الإسلام والدولة العربية .

ولكن للأسف لم يعمل بإصلاحات عمر بعد وفاته ، وسارت الأمور في مجراها الأول من حيث تعصب القبائل العربية ، وازدياد أحوال الموالي سوءاً ، وانقسام الأسرة المالكة الأموية على نفسها .

٩ — يزيد بن عبد الملك

١٠١ — ١٠٥ هـ = ٧٢٠ — ٧٢٤ م

هو ابن الخليفة عبد الملك ، من زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية . وقد اعتلى عرش الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز ، طبقاً للنظام الذي وضعه سليمان ابن عبد الملك ، وفي عهده تعرضت الدولة الأموية لبعض الأخطار ، فنجّأها منها وهزم الخارجين عليها .

الفن الداخلي والخارجي :

سار يزيد على سياسة أخيه الوليد ، فإنه بعد أن أعلن الخوارج العصيان وهزموا الأمويين في عدة وقائع ، ولى الكوفة مسلمة بن عبد الملك وأرسل إلى الخوارج سعيد بن عمرو الحريش في جيش كثيف ، فتمكن من هزيمتهم وتشقيت شملهم .

وقامت في عهد يزيد فتنة جامعة قادها يزيد بن المهلب ، وهو الذي ولاه

سليمان على المشرق ، وافتتح طبرستان ، فلما جاء عمر بن عبد العزيز طالبه بخمس الأموال التي جباها ، فمجز عن أدائها ، فسجنه في جزيرة دهلك في البحر الأبيض ثم نقل إلى حلب وظل في السجن إلى أن مرض عمر مرض الموت ، ففر من محبسه معتزماً الثورة ، وذهب إلى البصرة وأسر واليها ، ثم واصل السير إلى الكوفة فانضم إليه خاصته كما انضم إليه الأزدي ، وبذلك عظم أمره واشتدت سطوته . فبعث إليه الخليفة يزيد بن عبد الملك أخاه مسلماً وابن أخيه العباس ابن الوليد في جيش عظيم ، فالتقى الجيشان واقتتلا قتالا شديداً ، وقتل يزيد ابن الملعب في المعركة وتفرقت جموعه وفر إخوته إلى كرمان والسند ، ولكن يزيد بن عبد الملك تعقبهم ونسكل بهم .

لم يقف الأمر في عهد يزيد عند حد القضاء على الأخطار الداخلية ، بل أن الجيوش الإسلامية في أسبانيا وجهت أنظارها من جديد إلى البلاد الواقعة شمال البرانس ، وتقدمت في فرنسا بقيادة السموح بن مالك الذي ولى بلاد الأندلس (١٠٠ — ١٠٢ هـ) ، واختارت جبال البرانس وزحف على مقاطعة بروفانس ثم أغارت على أكيثانيا وحاصرت تولوز . ولما كان نهاية السموح كانت سيئة : لأن « بوردي » دوق أكيثانيا قابله بجيش كبير وهزمه وقتله كما قتل معظم جيشه ، وعاد الباقيون بقيادة عبد الرحمن الغافقي إلى مدينة ناربونة ، مما يدل على أن العرب وإن هزموا في عهد يزيد بن عبد الملك في فرنسا فإنهم لم يغادروها ، وظلت الساطة في أيديهم في الجزء الواقع منها شمال البرانس .

غير أن سوء أخلاق يزيد بن عبد الملك أضعفت هيبة الخلافة . فقد اشتهر باللهو والخلاعة والتشبيب بالنساء ، كما تجدد في عهده الخلاف بين المينية والمضرية وأصبحت المينية من أعداء الدولة بعد أن كانت من أنصارها وصار العنصر المضري حزب الأمويين ، وكذلك لم يأخذ بإصلاحات سلفه فقد نقض كل ما فعله عمر حين أمر بوضع الجزية عن أسلم وجمل الخراج

على الأرض ، وفرض يزيد الجزية على من أسلم مما أدى في النهاية إلى نتائج
تعد على أعظم جانب من الخطورة .

وكانت وفاة يزيد في شعبان سنة ١٠٥ هـ . وهو في الثامنة والسبعين من عمره .

١٠ - هشام بن عبد الملك

١٠٥ - ١٢٥ هـ = ٧٢٤ - ٧٤٣ م

هشام هو ابن عبد الملك من زوجته الخزومية ، تولى عرش الخلافة
سنة ١٠٥ هـ ، ولم يبق في دمشق كما فعل أسلافه من خلفاء بني أمية وإنما أقام
في الرصافة الواقعة شمالي شرق الشام . قضى مدة خلافته في بحث حالة الموالى
وفي إيجاد توازن بين اليمنية والمضرية وفي العمل على توسيع نطاق الدولة
باستئناس الفتح .

سياسة إزاء القبائل :

لم يكن موقف هشام بالنسبة للقبائل العربية ثابتاً بل كان مضطرباً ، فقد
لحظ هشام من بادية الأمر ارتفاع شأن القيسية وانخفاض المضرية نتيجة
لما حدث في عصر سلفه يزيد . فأحب هشام أن يوجد التوازن بين الفريقين ،
وافتح عصره بقولية عمال من القيسية واليمنية : فولى على العراق خالد
ابن عبد الله القسري من قبيلة « قسر » وهي قبيلة ضعيفة ، وفي سنة ٦٢٠ هـ
أخذت سياسة هشام تتغير بالنسبة للقبائل ، فتحول هشام عن اليمنية إلى
المضرية وأصبحت الدولة تعول على الفريق الأخير ، فقد كان هشام محباً لجمع
المال ، وكان عمال القيسية وهم من المضرية كالحجاج وزياد ، مهرة في انتزاع
الأموال على العكس من اليمنية ، كما أن هشاماً تأثر بنسبه إذ كانت أمه قيسية .

التوسع والغزو :

امتاز عصر هشام بالتوسع في الفتوح ، فقد أراد ولاية الأندلس أن يسيروا قدماً في تنفيذ سياسة الفتوح في فرنسا ، التي استؤنفت في عهد يزيد بن عبد الملك وتوقفت على أثر مقتل السمح بن مالك . وقد غزا عنبسة بن سحيم السكابي — الذي ولى على بلاد الأندلس في أواخر عهد يزيد بن عبد الملك — بلاد الغال واستولى عليها ولكنه قتل أثناء عودته فاضطر العرب إلى التقهقر إلى ناربونة .

ولما ولى عبد الرحمن الغافقي حكم الأندلس وأصلح أحوالها وقوى الجيش ، خرج في ثمانية آلاف مقاتل واستولى على أكيثانيا التي استعان دوقها بالفرنجة ، فقابلته جيش يقوده شارل مارتل ، وحدثت بين العرب والفرنجة في رمضان سنة ١٢٤ هـ واقعة تور أو بواتيه ، ودارت الموقعة ثمانية أيام وكاد النصر يتم للمسلمين ، ولكن في اليوم التاسع دارت الدائرة عليهم ووجد العرب أنفسهم في مركز حرج ، واتهمزوا فرصة الظلام وانسحبوا بعد أن أصيب عبد الرحمن بسهم أودى بحياته . وكان لهذه الموقعة أثر كبير في سياسة الأمويين إذ لم يحاولوا بعدها الاستيلاء على بلاد الفرنجة وبدأوا يتراجعون إلى بلاد الأندلس .

الثورات :

واضطرب عبد الرحمن الغافقي إلى ترك أسبانيا والذهاب إلى شمالى إفريقيا ، حيث قامت الثورات ضد الحكم الأموى ، لأن العرب لم يعاملوا البربر معاملة تحمل معنى المساواة معهم ، فقد أكرههم على دفع الجزية وصاروا بذلك في مستوى أقل من العرب . وساعدت هجرة كثير من الخوارج إلى بلاد المغرب . إذ ذاك على إشغال نيران الثورات بها ، ولم يحاول هشام إصلاح حال البربر ، بل استخدم معهم أساليب القوة ، وسير جيشاً من جنود الشام بقيادة

كلثوم بن عياض القشيري ، ولكنه هزم في واقعة بقدورة شمالى إفريقية وعدت
أعظم هزيمة لقبها العرب .

وفي أيام هشام ، خرج زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ، الذي
تنقصب إليه طائفة الزيدية ومن كبار أهل البيت وكان يبنى نفسه بالخلافة ، وقد
عرف هشام ذلك عنه . وأراد زيد الذهاب إلى المدينة ليتخذها مركزاً له وسار
فعلا في طريقه إليها ، ولكن أهل الكوفة تبعوه وكانوا زهاء خمسة عشر ألفاً
وأغروه بالرجوع إليها فرجع ، وهناك أقبلت الشيعة عليه وانضموا إليه كما انضم
إليه أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وأهل خراسان والرى وجرجان
والجزيرة ، وإذ ذاك أعلن زيد حقيقة مراميه ، والتقى بيوسف بن عمر الوالى
الأموى ودارت بينهما معركة حامية ، ألى فيها زيد بلاء حسناً وقاتل قتالا
عنيفاً ولكنه أصيب بسهم أوداه قتيلاً^(١) .

ونار في عهد هشام على الدولة الأموية ، الحارث بن سريج التميمي ، وذلك
لأن هشاماً فأجأ الموالى بضرية خراجية لا قبل لهم باحتمالها ، وكان
الحارث يزعم أنه المهدي الذي بعثه الله لتخليص المضطهدين والأخذ بناصر
المظلومين ، وقد استغل الحارث الكراهية التي كان يضررها الموالى للدولة
الأموية ، فجمع حوله عدداً كبيراً منهم كما جمع عدداً من العرب الناقين ،
واستطاع أن يستولى على المدن الواقعة على شاطئ نهر سيحون ، ولكنه أسد
ابن عبد الله القسرى الذي تولى خراسان في عهد ولاية أخيه خالد على العراق
استردها منه واضطره إلى الانسحاب إلى بلاد ما وراء النهر سنة ١١٨ هـ ،
وانضم الحارث بعد ذلك إلى الأتراك أعداء العرب ، ولكنه لم يفز بطائل
لأن نصر بن سيار ولى أمر خراسان سنة ١٢٠ هـ وكان من الولاة الأقوياء

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٤٣ — ٤٤ .

الموالين للعرش الأموي ، فاستطاع أن يوطد دعائم حكم الأمويين في بلاد ما وراء النهر سنة ١٢٣ هـ^(١) .

...

يعد هشام من مشهورى خلفاء بني أمية ، بلغت مدة خلافته عشرين عاما ، اتصف خلالها بالدقة والإخلاص في العمل . ولكن أحوال البلاد ظلت في عهده تنتقل من سوء إلى أسوأ ، نتيجة ذلك السخط العام على السياسة الأموية في المشرق ، وخاصة لإعادة فرض الجزية على المسلمين بعد أن كان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد ثبت إلغائها ، وكان انقسام المسلمين إلى موال وعرب وإلى يمنية ومضرية داعياً إلى إيقاف حروب الفتح والتوسع .

وكانت وفاة هشام في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ ، في الرصافة ، وبوفاته بدأ الضعف يدب إلى جسم الدولة الأموية .

١١ - الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الوليد الثاني)

١٢٥ - ١٢٦ هـ = ٧٤٣ - ٧٤٤ م

لم يمتد حكم الوليد بن يزيد بن عبد الملك أكثر من سنة واحدة ، وفي عهده أسرعت الدولة ناحية الانحلال ، وكان أسوأ بني أمية سيرة ، أدمن على شرب الخمر وعرف بالجور والظلم وهو لا يزال ولي عهد الدولة . ولما وصل إلى الخلافة ، بالغ في إظهار سروره بموت هشام لأنه كان قد أراد منعه من ولاية العهد ، ونكل بأولاد هشام وبكل أموى فكر في منعه من الوصول إلى الخلافة وسجنهم . وعذبهم ، ولذلك انقسمت الأسرة المالكة على نفسها انقساماً شنيعاً ، وزاد هذا

(١) فان فلوتن : السيادة العربية ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن ص ٦١ - ٦٣ .

الانقسام أن الوليد حاول أن يجعل الخلافة لابنيه الصغيرين مع وجود الراشدين من أسرته ، فتصدى له يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، مما زاد الأمر فسادا وأدى إلى سخط بنى أمية عليه .

وسلك الوليد مسلك هشام من حيث التعصب للقبائل ، وكان هشام قد ناصر القيسية المضرية على اليمنية . واتبع الوليد هذه السنة فمال إلى القيسية وعادى اليمنية ، فكان هذا خروجا على التقاليد المرعية ، إذ كان كل الخلفاء حتى سنة ١٢٠ هـ يعملون على اليمنية .

وقد قتل الوليد بقرية من قرى دمشق في شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ، بسبب قبح سيرته وسوء معاملته لأكابر أهل بيته ورجالات دولته ، فاجتمعوا وهجموا عليه ، فلما أحس بهم دخل داره وفتح المصحف وقال : يوم كيوم عثمان ابن عفان^(١) . ثم تقدم إليه يزيد بن الوليد بن عبد الملك وقتله ، وكانت مدة خلافته سنة وشهرين وأياما .

١٢ — يزيد بن الوليد بن عبد الملك

جمادى الآخرة — ذى القعدة سنة ١٢٦ هـ

جاء بعد الوليد ، يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، ومكث في الخلافة ستة أشهر ويختلف عن سابقه في : أنه كان محبوبا لدى المتدينين فقد كان يزيد ورعا تقيا على عكس الوليد ، وأغضب الوليد اليمنية في حين أن يزيد اكتسب ودهم بأن عزل ولاية القيسية وولى مكانهم اليمنية ، ومع ذلك فقد أخذ عليه بعض العامة ميله إلى القدرية أو المعتزلة التي عظم شأنها إذ ذاك وكان لها آراء فلسفية ولعل ميل الخليفة يزيد إلى القدرية يرجع إلى سعة ذهنه في المسائل الفلسفية .

(١) الفخرى في الآداب السلطانية ص ١٢١ — ١٢٢ .

وكان تحزب يزيد لليمينية دون المضرية وميله إلى طائفة المعتزلة ، داعيا إلى كرهه . وقد مات في ذى القعدة سنة ١٢٦ هـ تاركا الخلافة لأخيه إبراهيم ولكن لم يعترف بسلطان إبراهيم ، ولذا لم يذكر اسمه بين الخلفاء الأمويين وإنما يذكر بعد يزيد هذا مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ولم يمكث إبراهيم ابن الوليد في الخلافة أكثر من شهرين .

١٣ - مروان بن محمد

١٢٧ - ١٣٢ هـ = ٧٤٤ - ٧٤٩ م

لما بويع إبراهيم بن الوليد لم تأت بيعته بطائل ، ولم يلبث مروان بن محمد أن سار إليه وخلمه ، وهرب إبراهيم من دمشق فظفر به مروان وقتله وصلبه وقتل من ماله ومن بينهم العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد القسري ، وحينئذ اشتعلت نار العصبية بين المضرية واليمينية ، وتعصب مروان بن محمد للمضرية على اليمينية ، ولذلك انصرفت اليمينية عنه ومالوا إلى الدعوة العباسية^(١) وبويع مروان في دمشق في شهر صفر سنة ١٢٧ هـ ، وهو آخر خلفاء بني أمية .

وفي عهد مروان ، اشتدت الثورات التي قام بها اليمينية ضد الحكم الأموي في كل أنحاء الشام وفي العراق ، إلا أن مروان بمهارته الحربية التي اشتهر بها وبإخلاص القيسية له استطاع أن يخمّد تلك الثورات الواحدة بعد الأخرى .

وكانت الحالة في العراق قد بلغت النهاية القصوى من الفساد ، ففيها تطاحفت الأحزاب السياسية كالخوارج والعلويين ، بل ظهر إذ ذاك الساخطون من بني أمية ، ولكن بشكل غير منظم . وكانت أعظم الفتن في العراق فتنة الخوارج فقد سار رئيسهم الضحّاك بن قيس إلى الموصل ، وكان هذا الخارجي

(١) السعدي : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٣ .

يسمى إلى الخلافة ، فسار الخليفة لقتاله ، وحدثت بينهما واقعة كبرى قتل فيها الضحاك . وتلا ثورة الخوارج ظهور العباسيين في خراسان ، مما هز الدولة الأموية هزاً عنيفاً وقرب من نهايتها ، وقضى عليها بعد قليل .

سقوط الأمويين

على أن العامل الهام الذى أدى إلى سقوط الدولة الأموية وتضعفها بشكل جلى ، ما كان من تعصب الأمويين للعرب مما أدى إلى خروج الموالى على الدولة الأموية ، وهم غير العرب الذين دخلوا في الإسلام عقب الفتح العربى في فارس ومصر والمغرب ، وما لبث هؤلاء الموالى أن أصبحوا أعداء العرب لتفضيل العرب أنفسهم عليهم وتمتعهم بحقوق لم يتمتع بها الموالى^(١) ، لذلك كان الموالى ينتهزون كل فرصة ليكيدوا للدولة الأموية وظهروا مع كل خارج على الأمويين ولم تكن حركاتهم منظمة ، ولكنها اشتدت في أواخر العهد الأموى حين فسدت الأحوال بشكل واضح ، واستعرت الحروب بين الموالى والدولة الأموية ، مما كان له أكبر الأثر في نجاح الدعوة العباسية حيث احتضن دعاة العباسيين قضية الموالى وأيدوهم ضد بنى أمية .

ولا يقل عن ذلك أهمية ، ما كان من انصراف بعض خلفاء بنى أمية كيزيد ابن معاوية ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك إلى اللهو والمجون والخلاعة ، حتى ضعفت هيبة الخلافة لضعف أخلاقهم وسوء تصرفاتهم .

ومما قوض أركان الدولة وعجل بزوالها ، ما كان من تولية العهد لأكثر من واحد

(١) من بين الحقوق التى حرم منها الموالى في عهد الأمويين : أنهم لم يحصلوا على عطائهم الذى يستحقونه نظير التعاقبهم بالجيش كالعرب ، ولم يكن يسمح لهم بركوب الخيل أثناء القتال ، وقصر التحاقهم بالجيش على فرقة المشاة ، وحتم عليهم أن يكون لهم مسجد خاص يؤدون فيه الصلاة وجبانه خاصة يدفنون فيها موتاهم ، كما كان العربى لا يرضى أن يزوج ابنته من مولى .

مما أدى إلى جلب العداوة والخصام وإحداث القطيعة والانقسام بين أفراد البيت المالك الأموي ، وانتهى الأمر إلى تدهور الدولة وسقوطها ، وظهر ذلك بوضوح في عهد خلافة مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك ابن مروان .

وهز استقرار الدولة وهدهد كيائها ، ظهور روح العصية بين القبائل ، ويتبين خطر هذا التنافس القبلي الذي ظهر بشدة في الدولة الأموية عقب وفاة عمر بن عبد العزيز : من أن يزيد بن عبد الملك أخذ جانب المضرية حتى أصبح العنصر اليمني ضعيفا ، بينما لم تكن لهشام بن عبد الملك سياسة ثابتة إزاء كل من المضرية واليمينية إذ أنه بعد أن انحاز إلى اليمينية ورجحت كفتهم تحول عنهم إلى المضرية وعين من بينهم ولاية ، ولما جاء الوليد بن يزيد بن عبد الملك تحيز للمضرية لأن أمه كانت مضرية مما أثار سخط اليمينية ودبروا المسكائد لقتله وتم لهم ما أرادوا ، وانحاز يزيد بن الوليد إلى اليمينية لأنهم هم الذين ساعدوه على الوصول إلى الخلافة ، وأخذ اليمينيون ينتقمون من المضرية الذين ثاروا في حمص وفلسطين والأردن ، ولكن الخليفة يزيد تمكن من التغلب عليهم ، وتعصب مروان ابن محمد للمضرية فنارت اليمينية ولكنهم تمكن من إخماد ثوراتهم . وأصبح بذلك كل خليفة يعتمد على شيعته تؤيده للوصول إلى مآربه في الخلافة .

وقد أعطت تلك القلاقل والاضطرابات الدعوة العباسية فرصة للظهور وتقوية دعائمها وثبتت أركانها ، إذا شغل مروان بإخماد الفتن حتى باغته العباسيون وقتلوه ، وبمقتله قضى على الدولة الأموية .

* * *

وهكذا زالت الدولة الأموية بعد أن حكمت نحو تسعين عاما ، كان العنصر العربي خلالها هو عمادها ونصيرها وصاحب السلطان المطلق في تصريف شئونها .

وفيهما ظهر ولاة على جانب عظيم من الكفاية وقوة الشخصية كعمرو بن العاص
وزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف وغيرهم . كما حكمها خلفاء أقوياء كما وية الأول
وعبد الملك بن مروان وابنه الوليد وهم الذين أقاموا على دعائم متينة وأظهروا
أبهة الملك وابتدعوا أنظمة للحكم لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، وأعادوا عهد
الفتح والغزو على نحو أعاد إلى الأذهان عهد عمر بن الخطاب ، لولا ظهور خلفاء
ضعاف اتسموا بذيئيم الصفات وظهرت خلال عهودهم الفتن وشبت الثورات ،
مما أدى في النهاية إلى اضمحلال تلك الدولة ثم انهيارها وقيام الدولة العباسية
على أنقاضها .

الباب الثالث

الدولة العباسية

العصر العباسي الأول — العصر العباسي الثاني

١٣٢ — ٥٦٦ هـ = ٧٥٠ — ١٢٥٨ م

انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين

يمكن اعتبار عهد مروان بن محمد (١٢٧ — ١٣٢ هـ) آخر خلفاء الأمويين ،
بدء سقوط الدولة الأموية وانهارها والتمهيد لقيام الدولة العباسية . ففي ذلك
العهد شبت الثورات ضد الحكم الأموي في أنحاء الشام ودبت الفوضى في العراق .
وكانت أعظم الفتن في العراق فتنة الخوارج بزعماء الضحاك بن قيس الذي سار
لى الموصل ، يسعى للوصول إلى الخلافة ، ورغم أنه قتل ، فإن الدولة الأموية
أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الانهيار .

ولم يكد مروان ينتهي من قتال الخوارج ، حتى بلغه نبأ ظهور العباسيين
فى خراسان التى تقع شرق بلاد فارس . وساعد هؤلاء على الظهور ، فساد أحوال
الشام والعراق ، وانقسام القبائل اليمنية والمضرية على بعضها ، وتفكك الأسرة
المالكة الأموية وسوء علاقات أفرادها بعضهم مع بعض . وانتقلت الحالة من سوء
إلى أسوأ ، حين ولى أمور الدولة خلفاء من أصحاب السيرة السيئة ، أدمنوا
الشرب وحكموا البلاد بالعسف والجبروت . وتصعدت أركان الدولة ، حين نزل

خلفاؤها إلى مستوى التعصب الحزبي والقبلي وهجزوا عن صد تيار الانقسام بين القبائل .

ولسكن العامل الهام الذي أدى إلى سقوط الدولة الأموية وتضعفها في عصر مروان بشكل جلي ، ما كان من انقسام المسلمين إلى عرب وموال وهم المسلمون من غير العرب . وعدا الموالى لتلك الدولة وقيامهم ضدها ، لحربهم من الحقوق التي تتمتع بها العرب ، فأصبح الموالى بذلك في مستوى منعطف ، وبينما الحرب بين الموالى والأمويين على أشدها ، انتهز دعاة العباسيين ذلك الظرف ونصروا الموالى . وصارت الحركة التي قام بها العباسيون لنيل الخلافة ، ما هي إلا حركة الموالى ضد العرب ، لأن العباسيين اعتمدوا على الموالى باعتبارهم حزبا كبيرا ساخطاً على الحكم الأموي .

بدأت طلائع الدولة العباسية تظهر ، منذ أن بدأ أبو مسلم الخراساني سنة ١٢٩ هـ - أي قبل سقوط الدولة الأموية بثلاث سنوات - ينشر الدعوة للعباسيين في خراسان . وتداعت الدولة ، حين عقد في الحجاز في أواخر العصر الأموي مؤتمر ضم أقطاب آل هاشم من العلويين والعباسيين ، وتناقشوا في الوسائل التي تؤدي إلى القضاء على الخلافة الأموية بعد أن اشتد البلاء بالمسلمين على خلفائهم ونظروا فيمن يرشح للخلافة إذا نجحت مساعيهم . فوقع اختيارهم على أحد الحاضرين وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بالنفس الزكية . ولسكن الخلافة لم تسند فيما بعد إلى هذا العلوي ، بل أسدت إلى رجل من العباسيين هو أبو العباس . ولم يعد العلويون بعد وصول العباسيين إلى الخلافة عن المطالبة بدعواهم وظلوا يناضلون ويكافحون ابتغاء الوصول إليها في غير طائل ، واضطهدهم العباسيون كما اضطهدهم الأمويون من قبل .

وكان ذلك التحول من الأمويين إلى العباسيين والقضاء على محاولات العلويين في إقامة خلافة علوية ، راجعاً إلى جهود أبي مسلم الخراساني ، الذي وجد في الحالة السيئة التي كانت في خراسان ، فرصة سانحة ، فأذكي

غيران الفتن ضد الأمويين ، وكللت جهوده في هذا السبيل بالنجاح بمساعدة الموالى الذين تدفقوا من كل جانب على خراسان وانضموا إلى دعاة العباسيين والتف حول أبى مسلم مائة ألف من الموالى . وتمكن من بذر بذور الشقاق بين أنصار بنى أمية النازلين في خراسان ، واستطاع أن يربط عدة أشهر بظاهر مدينة مرو حاضرة خراسان ، وأن يستميل اليمنية أعداء الأمويين في ذلك الإقليم ، وتمكن من الاستيلاء على مرو . وتخلص من شيوخ القبائل الذين كانوا ينافزونهم في السيادة وقتلهم عن آخرهم ، وذاع صيت أبى مسلم ، وبعث نصر بن سيار الموالى الأموى في خراسان عدة رسائل متتابعة إلى مروان ابن محمد آخر خلفاء الأمويين مستغيثاً ، فلم تأتته نجدة ، وأخيراً هزم نصر وفر ثم مات عند مرو .

وكانت الدعوة إلى انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين سرية في بادئ الأمر ، ثم انتقلت إلى خراسان . وكونت فيها جمعية سرية ، قوامها اثنا عشر رجلاً كان يطلق عليهم اسم النقباء ، وعدد أعضائها سبعون داعياً انتشر معظمهم في زى التجار . وظلت الدعوة سرية ، حتى وقع في يد مروان بن محمد ، خطاب مرسل من إبراهيم الإمام ابن محمد بن على بن عبد الله ابن العباس إلى أبى مسلم الخراسانى يأمره فيه بتشديد الوطأة على من يتكلم العربية في خراسان ، لأن وجود العرب في خراسان في نظره سواء كانوا يمنية أو مضرية من شأنه أن يؤدي إلى فشل الدعوة العباسية ، ونصحه بالتفكير بكل من يتهمه بالعمل ضد الدعوة العباسية ، وزج إبراهيم الإمام في سجن حران شمال الشام ، وقتل مسموماً في النهاية .

وتولى الدعوة للعباسيين من بعده أبو سلمة الخلال ، واتخذ الكوفة الكوفة مركزاً لدعوته لأنها بلد شيعية ، وسار أبو العباس (السفاح فيما بعد) إلى الكوفة ومعه كبار بنى هاشم من ولد العباس ، ومن بينهم أخوه أبو - جعفر

(المنصور) وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ،
ومن كبار بني هاشم أيضاً عبد الله بن علي العباسي عم السفاح والمنصور .
وبعد سنتين هزم ابن هبيرة القائد الأموي بظاهر الكوفة وأرغم على السير
إلى واسط التي تقع بين مدينتي الكوفة والبصرة جنوبي العراق ، ونزل أبو سلمة
في أوائل سنة ١٣٢ هـ بالكوفة ، وكان أبو العباس وأخوه أبو جعفر مخفيين .
في هذه المدينة قبل ذلك بزمان يسير ، وقد هربا إليها بعد مقتل إبراهيم الإمام ،
واهتم أبو سلمة بأمرهما ، وأبقاها عدة أسابيع ، دون أن يكشف أمرهما
ودون أن يبائع أحدهما بالخلافة ، مما أوجد الريبة في نفوس العباسيين ،
وجعلهم يظنون أن أبا سلمة يعمل على تحويل الخلافة إلى رجل من العلويين ،
ولكن أشياع العباسيين أخرجوها من مخبئهما وبايعوا أبا العباس ، وفي
أواخر سنة ١٣٢ هـ رفع العلم الأسود على حصون دمشق ، وكان ارتفاعه يعني
سقوط الدولة الأموية وزوالها نهائياً .

وانتقلت جيوش العباسيين عقب ذلك من خراسان إلى العراق ، وتمكنت
من أن تأخذ مدنها الكبرى مدينة تلومدينة ، ووجد مروان نفسه مجبوشه على
نهر الزاب في جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ ، وكان جيشه منقسماً على نفسه في حين
كان الموالي أعداؤه متحدين ، فدارت الدائرة على مروان . وقد عهد أبو العباس
إلى عمه عبد الله بن علي بمقاتلة الخليفة الأموي مروان بن محمد ، فتبعه
عبد الله حتى أوصله إلى نهر الزاب الصغير ، وسار مروان منهزماً إلى الموصل
وعبر الفرات . فاضطره عبد الله إلى الهرب إلى فلسطين والأردن ، ثم فر إلى
مصر حيث تعقبته جنود العباسيين وقضت عليه في بلدة بوصير من أعمال الفيوم
وأرسل رأسه إلى السفاح في الكوفة^(١) .

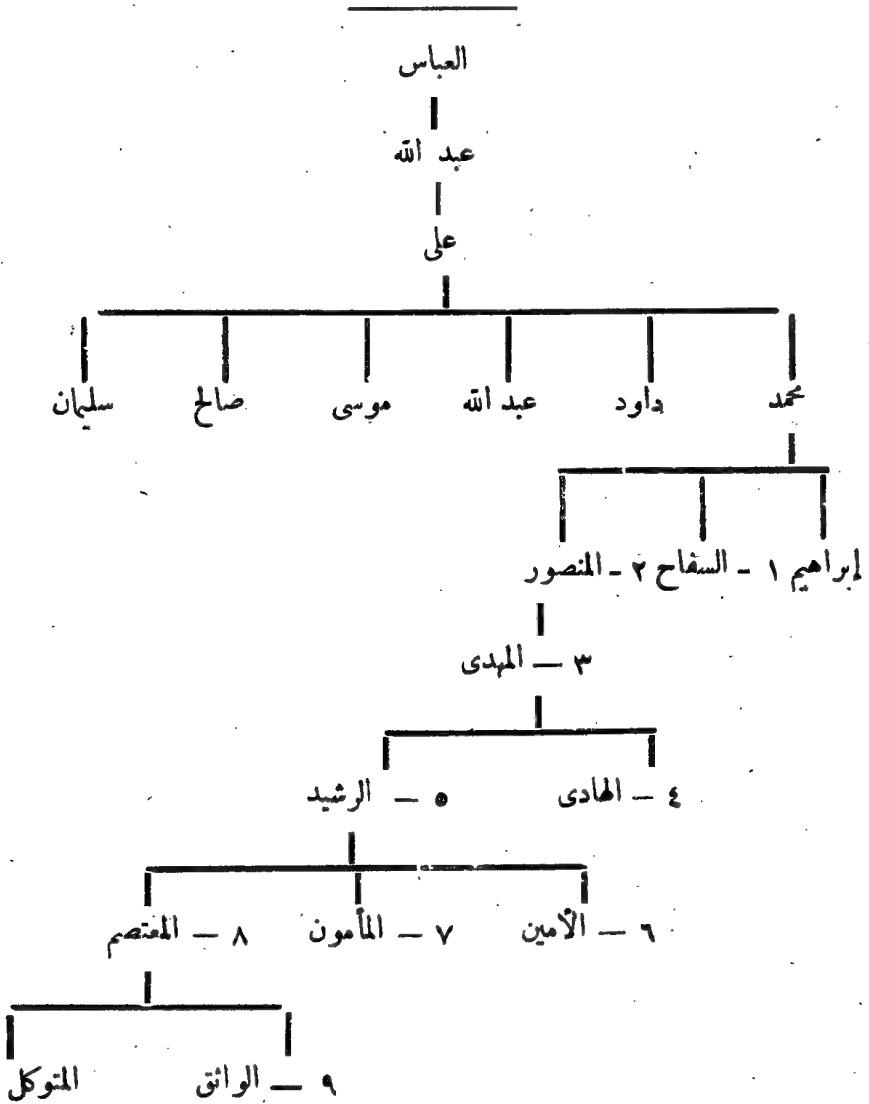
بذلك انتهى حكم الأمويين وقامت على أنقاضهم دولة العباسيين التي حكمت العالم الإسلامي زهاء خمسة قرون . وكان خلفاؤهم من السفاح إلى الواثق رجالا عظماء ، ماعدا الأمين فإنه لسوء حظه لم يساير هؤلاء في عظمتهم ومقدرتهم السياسية ، واعتبر العصر العباسي الأول وحدة منسجمة متناسقة ، إذ لم يكن لكل خليفة سياسة شخصية ، بل سار الجميع على سياسة واحدة ، وكانت الحوادث الكبرى التي وقعت في ذلك العصر تسير كلها في تيارات عامة كإسقاط العرب وإثارة الفرس عليهم ، ثم تشجيع الترك على الفرس والعرب معاً ، ونهضة العلم والأدب ، وظهور حرية الفكر في البحث والجدل والمناظرة ، وتقريب العلماء والأدباء والمفكرين ، وترقية الفنون الجميلة كالعمارة والشعر والموسيقى . وهو على الجملة يعد العصر الذهبي للإسلام .

بدء ونهاية حكم العباسيين الأول :

اسم الخليفة	بدء الحكم ونهايته
١ — السفاح	١٣٢ — ١٣٦ هـ = ٧٥٠ — ٧٥٤ م
٢ — المنصور	١٣٦ — ١٥٨ هـ = ٧٥٤ — ٧٧٥ م
٣ — المهدي	١٥٨ — ١٦٩ هـ = ٧٧٥ — ٧٨٥ م
٤ — الهادي	١٦٩ — ١٧٠ هـ = ٧٨٥ — ٧٨٦ م
٥ — الرشيد	١٧٠ — ١٩٣ هـ = ٧٨٦ — ٨٠٩ م
٦ — الأمين	١٩٣ — ١٩٨ هـ = ٨٠٩ — ٨١٣ م
٧ — المأمون	١٩٨ — ٢١٨ هـ = ٨١٣ — ٨٣٣ م
٨ — المعتصم	٢١٨ — ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ — ٨٤٢ م
٩ — الواثق	٢٢٧ — ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ — ٨٤٧ م

أولا - العصر العباسي الأول

١٣٢ - ٢٣٢ = ٧٥٠ - ٨٤٧ م



١ - أبو العباس السفاح

١٣٢ - ١٣٦ هـ = ٧٥٠ - ٧٥٥ م

ماذا يقصر بلفظ « السفاح » ؟

اعتلى أبو العباس أول الخلفاء العباسيين عرش الخلافة في ٣ ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) ، وخطب في صبيحة اليوم التالي لخلافته خطبة أشاد فيها بفضل آل محمد ، وندد بالأمويين لاغتصابهم الخلافة ، ولما اقترفوه من آثام وذنوب ، وأطرب في مدح أهل الكوفة وزاد في أعطياتهم لإخلاصهم وولائهم لبית العباس^(١) . وختم خطبته بقوله : « أنا السفاح المبيح ، والنائر المنيع » .

قال السفاح : « ... زعمت السبئية الضلال ، أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، فشاهدت وجوههم . بيم ولم أيها الناس ؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم . . . حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دينهم ودنياهم . فتفتح الله ذلك منة ومنحةً لحمد صلى الله عليه وسلم ، فلما قبضه الله إليه ، قام بذلك الأمر من بعده أصحابه ، وأمرهم شورى بينهم ، فعدلوا فيها ، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها ، وتداولوها بينهم ، فجاروا فيها ، واستأثروا بها ، وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه (أغضبوه) ، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ، ورد علينا حقنا . . . وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله . . . يا أهل الكوفة ! أنتم نحل محبتنا . أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، وقد زدتمكم في أعطياتكم مائة درهم ،

(١) حبيب إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٣٦ .

فاستعدوا، فأنا السفاح المبيع والثائر المنيع^(١).

وعقب هذه العبارة البليغة التي ختم بها أبو العباس أول خطبة له في مسجد الكوفة، شاع لقب « السفاح » عن أبي العباس، ويظهر أنه قصد من هذا اللفظ إشعار الحاضرين بأنه عول على سفك دماء كل من تحدّثه نفسه بالخروج عليه والوقوف في سبيله وسبيل دولته، وأن يتوعد أيضاً الأمويين بالتفكيك بهم وإزهاق أرواحهم، ولكن مما يسترعى النظر أن لفظ السفاح كان يطلق في الجاهلية على بعض شيوخ القبائل^(٢).

أما لفظ « المبيع » الذي ورد كذلك في ختام هذه الخطبة، فقد يعنى الرجل الكثير العطايا، وقصده من إنباته أن يبشر في الوقت نفسه من يقوم بنصرته بإغداق الأموال عليه. وهذا يدلنا على أنه لم يكن سفاحاً في كل أدوار حياته، فقد اتصف بالكرم والحلم والعقل والوقار والحياء وطيبة الخلق^(٣)، ولكن اعتلاءه عرش الدولة العباسية في بدء قيامها، والأعداء يتربصون بها من كل جانب، أوحى إليه أن ينتهج في إدارة الدولة خطة العنف والتهديد وأن يتبع سياسة الوعد والوعيد.

اتخاذ الأنبار عاصمة:

كانت دمشق عاصمة الخلافة الأموية وظلت مقرأ للخلفاء حتى اعتلى السفاح العرش، فاتخذ الأنبار عاصمة لدولته. وهي تقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات في الشمال الشرقي للعراق، على مسيرة ثمانية وستين كيلومتراً من بغداد. وقيل إن سابور الثاني من ملوك آل ساسان في فارس هو الذي

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج ٩ ص ١٢٥—١٢٦.

(٢) Nicholson: Literary History of the Arabs, p. 253.

(٣) المسعودي: مروج الذهب، ج ٢ ص ٣١٥.

اختطها . وأطلق العرب عليها « الأنبار » وهى كلمة فارسية تعنى السوق أو مخزن الغلال ، وأضحت هذه المدينة مقراً للخلافة العباسية مدة قصيرة من الزمن (١٣٢ - ١٤٥ هـ) .

واستقر المنصور الخليفة العباسى الثانى ، فى الأنبار ، إلى أن أسس مدينة بغداد سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) . ومنذ ذلك الحين ، أخذت المدينة تقل أهميتها شيئاً فشيئاً ، وفى سنة ١٣٥ هـ (٩٢٧ م) . استولى أبو طاهر زعيم القرامطة على الأنبار وخربها ، فأصبحت كأن لم تكن بالأمس .

اضطهاد الأمويين :

كانت مهمة أبى العباس ، باعتباره أول خلفاء الدولة العباسية ، مهمة شاقة إذ كان عليه أن يثبت أقدام الباسيين فى الخلافة ويوطد أركانهم ليكون الأمر خالصاً لهم ، ومن ثم سار على سياسة الشار والانتقام من الأعداء فى غير هوادة ، فقد عمل على القضاء نهائياً بنى أمية ، ووقعت تبعاً لذلك مذابح عديدة ذهب ضحيتها كثير الأمويين ، حتى اضطّر الكثير منهم إلى التنكر والهرب . وتقلب أبو العباس حياتهم بالمكر والخديعة ، إذ أعلن صفحه العام عنهم وأمنهم على حياتهم ، فأنجذع الأمويون وظهروا من مكانهم وإذ ذاك انتفض عليهم وقتلهم شر قتلة .

اشتدت حوادث التقتيل والتشريد فى مكة والمدينة ، وفى الكوفة ، وفى فلسطين . وأغرى الشعراء ورجال البلاط الخليفة باستعمال الشدة والقسوة وأن يكون رائده عدم الثقة بالأمويين ، قيل : « إن السفاح كان جالساً يوماً فى مجلس الخلافة ، وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقد أكرمه السفاح ، فدخل عليه سديف الشاعر ، وقال :

لا يفرنك ماترى من رجال إن تحت الضلوع داء . دوبا

فضع السيف وارفع الصوت حتى لا ترى فوق ظهرها أموياً^(١)
ودخل شاعر آخر على أبي العباس، وعنده نحو السبعين رجلاً من بني أمية،
وقد قدم لهم الطعام، فأنشده قصيدة جاء فيها :

وأذكروا مصرع الحسين وزيد وقتيلاً بجانب المهراس^(٢)
والقتيل الذي بجران أضحى^(٣) ثاويًا بين غربة وتفاشى

وقد أهاد إنشاد هذين البيتين ذكرى الماضي، وما جره الأمويون على
أنفسهم من سخط الناس لتمثيلهم بأهل البيت : فأمر أبو العباس بسليمان بن هشام
فقتل، ثم أمر بمن كان في داره من بني أمية فضرَبوا بالسياط، وتبع أبو العباس
البقية الباقية من الأمويين وأنصارهم ولم يبق على أحد.

ولم يكتف أبو العباس بالقضاء على الأحياء من بني أمية، بل عمد بعد ذلك
إلى الأموات منهم، فأمر بالتمثيل بجنثهم وإحراقها : فنُفِش قبر معاوية بن
أبي سفيان، وقبر ابنه يزيد، وقبر عبد الملك بن مروان، كما ضربت جثة هشام
ابن عبد الملك بالسياط وذرى في الهواء، إلا أن السفاح أمر ألا تمس جثة عمر
ابن عبد العزيز بسوء اعتراك منه بفضلته وجليل صفاته.

ولما تم لأبي العباس قتل رجال بني أمية ومصادرة أموالهم، اطمان على
دولته من ناحيتهم، وقال :

بني أمية قد أفنيت جمعكم فكيف لي منكم بالأول الماضي ؟
يعطيب النفس أن النار تجممكم عوضتموا من لظاها شر مقتاض^(٤)

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٧٤ .

(٢) ماء بجبل أحد، قتل عند حزة ابن عبد المطلب عم الرسول ودفن :

(٣) هو إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس .

(٤) ابن الأثير ج ٥ ص ١٧٤ .

عزم احترام اليهود والغدر بالانصار :

لم يكتف السفاح بالقضاء على أعدائه الأمويين ، الذين يصح أن يلتبس له الغدر فيما فعل معهم ، بل إنه لم يرع فضل الذين ساعدوه في إقامة الدولة العباسية ، فقدر بهم ، ولم يحترم اليهود والمواثيق التي كان يعطيها لأعدائه ولأنصاره على السواء .

قضى السفاح معظم عهده في محاربة قواد العرب الذين ناصروا بني أمية ، ووقف لهم بالمرصاد : فإن ابن هبيرة قائد جيوش مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، كان مقيماً في بلدة واسط ، وأرسل إليه أبو سلمة الخلال وزير السفاح الجيوش لمحاربته ، وحاصرت في تلك البلدة ، وطال أمد الحصار ، فأرسل السفاح أخاه أبا جعفر الذي تولى الخلافة فيما بعد باسم المنصور ، فحاصر ابن هبيرة أحد عشر شهراً ، وحين باع ابن هبيرة خبر مقتل الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد . فآوض أبا جعفر في الصلح ، على أساس أن يسلم ويعطى له الأمان على حياته ، وانتهى الأمر بأن أعطاه السفاح الأمان ، وتسلم ابن هبيرة كتاباً بذلك يحمل إمضاء الخليفة ، ولكن لم تمض على ذلك بضعة أيام حتى قتل ابن هبيرة ، وكان هذا واحداً من حوادث الغدر في الدولة العباسية ، وتتابعت أمثال هذه الحوادث حتى أصبحت أمراً مألوفاً .

وقتل السفاح وزيره أبا سلمة الخلال ، الذي كان من أهم العوامل التي ساعدت في تأسيس الدولة العباسية . كان أبو سلمة من أهل اليسار في الكوفة واشتهر بالكرم وكثرة البذل لرجال الدعوة العباسية . على أنه لما خبر أحوال بني العباس ، عزم على العدول عنهم إلى أولاد علي بن أبي طالب ، ولما بويع السفاح استوزر أبا سلمة على كره منه لما كانته من الساسانيين وهم عصب الدولة ومصدر قوتها ولقبه وزير آل محمد ، إلا أن هذا كله لم يكن مصدره حسن النية من جانب السفاح ، إذ خاف على نفسه إن هو قتله أن يقوم أهل خراسان

بالتأثر له ، فعمل على أن يتم هذا الأمر على يد أبي مسلم ، وكتب له مع أخيه أبي جعفر كتابا يخبره فيه أن أبا سلمة الخلال يعمل على تحويل الخلافة إلى العلويين وعهد له بمعاقبته ، وأسلوب الكتاب ينم عن رغبته في قتله . فأرسل إليه أبو مسلم رجالا من أهل خراسان ، فقتلوه ، وتخلص منه السفاح وأبو مسلم الذي كان يكرهه ويحقد عليه مقامه .

وبذلك هيا أبو مسلم سبيل قتله بنفسه ، فقد عول السفاح على التخلص من أبي مسلم كذلك ، إذ كان شجى في خلق دولته ، إلا أن المنية وافت السفاح قبل أن يحقق ما اعتزمه من قتله .

ووضع السفاح بذلك قاعدة الغدر بالأنصار وعدم احترام العهود والمواثيق ، وسار على هذه القاعدة من جاء بعده من الخلفاء العباسيين .

الثورات ضد حكم السفاح :

• هذه المعاملة القاسية للأمويين ، لم تؤد إلى صرف العرب عن العباسيين فحسب ، بل جعلت نفوس من العرب تضطرم بالكرامية والبغضاء لبني العباس وللفرس الذين استأثروا بالسلطة دونهم وللمالاة العباسيين لهم واعتمادهم عليهم ، وزاد الطين بلة والحالة سوءاً ، غدر السفاح بأنصاره ، لذلك قامت الثورات في كل مكان . وكان أشدها خطراً ، الثورة التي اندلع لهيها في بلاد الشام بقيادة أبي الورد وهو رجل من العرب ، وتزعّمها من بعده أبو محمد السفياي . ولكن سرعان ماغلب على أمره وقتل ، وقامت ثورة في الجزيرة ، اشتد خطرها حتى أرسل السفاح أخاه أبا جعفر وعمه عبد الله بن علي للقضاء عليها ، فتمكنوا من إخمادها ، وظل أبو جعفر بعد أن انتهت مهمته والياً على الجزيرة حتى تولى الخلافة بعد أخيه السفاح ، وقامت كذلك ثورات في عمان وفي السند وفي خراسان ، وكلها تأخذ على العباسيين كثرة سفكهم للدماء وإزهاقهم الأرواح ، ولكن قضى على تلك الثورات ، كما قضى على سابقتها ، ولولا شدة السفاح في قمع أعدائه لزالّت الدولة العباسية وهي لا تزال في مهدها .

تقدير السفاح :

حكم السفاح أربع سنوات وتسعة أشهر ، أمضاها في القضاء على بقايا الدولة البائدة دولة الأمويين ، ولم يجد طوال هذه الفترة وقتاً ينصرف فيه إلى النظر في ترتيب شئون الدولة . إلا أننا نلاحظ أن السفاح ابتدع أموراً جديدة على نظام الحكم في العصر العباسي لم يكن لها وجود في العصر الأموي ، فقد ظهر نظام الوزارة لأول مرة منذ ظهور الإسلام وأول من تولاها هو أبو سلمة الخلال وزير السفاح ، وأصبح الناس يخطبون وهم وقوف بعد أن كانوا يخطبون وهم قعود . وانتقل مقر الملك من دمشق حاضرة الأمويين إلى الأنبار عاصمة الدولة الجديدة ، فانتقل بذلك مقر الدولة من الشام إلى العراق .

اختلف المؤرخون في تحليل شخصية أبي العباس : فوصفه بعضهم بالقسوة والميل إلى إزهاق أرواح الناس وخاصة أنه قتل عدداً كبيراً من بني أمية ، ولعل تلقيبه نفسه بالسفاح هو الذي حدا بهذا الفريق إلى وصفه بتلك الصفات . على أننا نستطيع أن نقول إن الظروف هي التي أملت عليه تلك السياسة توطيداً لأركان الدولة العباسية الناشئة ، خاصة وأن مؤرخين آخرين وصفوا السفاح أنه كان شاباً يميل إلى الأدب والشعر وسماع الفناء . وكان يظهر لندمائه ويجلس معهم في مجلس واحد ويجزل لهم الطعام^(١) .

وقد توفي السفاح في سنة ١٣٦ هـ . ودفن في مدينة الأنبار .

(١) جاء في بحثة الثقافة أنه لا يستبعد أن يكون شاب جميل عفيف وفي كرم طروب كأي العباس سفاكا للدماء . العدد ٥١ ، السنة الأولى .

٢ - أبو جعفر المنصور

١٣٦ - ١٥٨ هـ - ٧٥٤ - ٧٧٥ م

شخصية :

تعتبر الفترة التي قضاها المنصور على عرش الخلافة من أهم عصور الخلافة العباسية، واستمرت تلك الفترة نحواً من اثنتين وعشرين سنة، توطدت فيها دعائم الدولة، وانصرفت إلى العناية بالشئون السلمية فشيئت مدينة بغداد، وبدأت الحركة الأدبية في العصر العباسي. وساد في عهد المنصور نظام الإدارة المركزية إذ كان المنصور يقيم في بغداد عاصمة ملكه، وأضفى على الخلافة ظلاً قدسياً فأشاع أنه يحكم بتفويض من الله، وركز جميع سلطات الدولة في يده فلم يكن للوزير من الأمر شيء، وأصبح اختصاص الولاة على الأقاليم ضيقاً ولم يعمدوا تابعين في مراكزهم حتى أنه لم يظهر طوال حكمه وال من طراز عمرو بن العاص أو زياد بن أبيه أو الحجاج بن يوسف الثقفي. والمنصور من أقوى خلفاء الإسلام، أعاد إلى الأذهان حكم عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان. وعبد الملك بن مروان، فقد كان ذا شخصية ممتازة، ووجه سياسته نحو المصلحة العامة والحرص على مافيه تقدم العباسيين في الإدارة والحرب والثقافة والعلم.

قضاء المنصور على المعارضة :

غدر المنصور بكثير من كبار أنصاره وبعض أقربائه، في سبيل الاحتفاظ بملكه وصار ذلك من سمات العباسيين الواضحة في طوال مدة حكمهم للعالم الإسلامي.

١ — موقف من عمر عبد الله بن علي :

أوصى السفاح بأن تكون الخلافة من بعده لأخيه أبي جعفر ومن بعده لعيسى بن موسى ، إلا أن السفاح لم يراع العدل حين أسند الخلافة من بعده لهذين الشخصين ، لأن السفاح حين سير عمه عبد الله بن علي إلى الشام ومصر لتتبع مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية للقضاء عليه ، وعده بأن الخلافة من بعد السفاح ستؤول إليه . وكان المنصور يعلم بأمر هذا الوعد ، ومن ثم فقد أحس الخطر من ناحية عبد الله بن علي منذ بلغه نبأ وفاة السفاح ، وكشف أبا مسلم الخراساني بتخوفه ، فوعده أبو مسلم أن يريحه من عمه عبد الله بتدبير مقتله ، مقتدين في ذلك بسياسة الخليفة السفاح حين أمر بقتل وزيره أبي سلمة الخلال . ولم يكن غريباً إذ ذاك أن تتبع سياسة القدر بالأقرباء كما اتبعت مع الأنصار والأعوان مادامت تحقق للعباسيين مصلحة شخصية . ولكن موضع الدهشة أن عبد الله بن علي هو الرجل الذي قضى على قوات الأمويين في موقعة الزاب ، وتبع الأمويين بالقتل والتشريد ، وقضى على الفتن الكبرى التي قامت في الشام ضد حكم السفاح . لما بلغ عبد الله نبأ اعتلاء أبي جعفر عرش الخلافة بعد السفاح ، أعلن أنه أدى ما كلف به على غير وجهه وهو التكنيل بالأمويين ، ثم حرم مما وعد به وهو الخلافة ، فأعلن خروجه على أبي جعفر ، وأبى أن يبايعه ، وسار بجيشه إلى أعلى الجزيرة وحاصر حران شمال الشام ، فبعث المنصور إليه أبا مسلم الخراساني ، يخاف عبد الله النتيجة ، وأراد الصلح ، ولكنه لم يجب إلى طلبه . وأخيراً حدثت الواقعة بين الطرفين ، ودارت الدائرة على عبد الله وفر إلى أخيه سليمان في البصرة ، وظل مختبئاً عنده مدة من الزمن . وهنا كان يصح أن تنتهي المسألة عند هذا الحد ، ولكن انتهى أمر عبد الله بالقتل ^(١) ، وهو الرجل الذي أبلى أحسن بلاء في خدمة الدولة العباسية .

٢ - موقف من أبي مسلم الخراساني :

لم يكن حظ عبد الله بن علي ، أسوأ من حظ رجل آخر كان له فضل نشر الدعوة للعباسيين وقيام دولتهم ، وهو أبو مسلم الخراساني . ذلك أن العلاقات بين أبي مسلم والمنصور لم تكن يسودها الصفاء ، قبل أن يعتلي المنصور عرش الخلافة وبعد أن اعتلاها : ذلك أن المنصور حين توجه إلى خراسان بأمر أبي العباس لاستشارة أبي مسلم في أمر أبي سلمة الخلال ، لاحظ عظم نفوذ أبي مسلم واستبداده بالأمر وقتله الناس لجرد الشك ، فعاد المنصور وحرص السفاح على قتل أبي مسلم . أضف إلى ذلك أن أبا مسلم حين استأذن الخليفة السفاح في الحج ، نذب السفاح أخاه المنصور لرياسة الحج ، حتى لا يظهر أبو مسلم وحده بمظاهر الفخامة والأبهة . ففاظ ذلك أبا مسلم وانتقم لنفسه حين عودتهما من الحج هو والمنصور بأن تقدم المنصور أثناء السير بمسافة ، مما يتنافى مع التقاليد المرعية . وزاد العلاقات سوءاً بين أبي مسلم والمنصور ، أن أبا مسلم بعد أن انتصر على عبد الله ابن علي وحاز عدة غنائم ، أرسل المنصور من قبله رسولا ليحصي الغنائم ويسجلها ، فغضب أبو مسلم ، وقال : كيف أؤتمن على الأرواح ، ولا أؤتمن على الأموال .

لذلك رأى أبو مسلم ألا يقصد الأنبار مقر الخلافة العباسية ، بل يذهب إلى خراسان . فعمد المنصور إلى منعه من الوصول إليها ، بأن عين عليها والي الذي خلقه أبو مسلم أثناء غيابه عن خراسان ، ثم عزل أبا مسلم عن تلك الولاية لرحيله إلى المشرق دون استئذانه وعينه على مصر والشام بدلا منها ، فرفض ذلك أبو مسلم ، وصمم على الرفض على الرغم من نصيح المنصور له .

وسار أبو مسلم في طريقه حتى صار على مقربة من خراسان ، وإذ ذاك رأى أن يرجع ليزيل سوء التفام القائم بينه وبين المنصور . على أن أبا مسلم حين عاد من خراسان ، كان المنصور قد صمم على قتله ، وتمكن منه بالفعل . وتفصيل ذلك أن أبا مسلم سار إلى المنصور ، فلقاه في المدائن عاصمة بلاد الفرس . فلما علم المنصور بوصوله ، أمر الناس جميعاً بقتله ، ولما دخل على الخليفة ، قبل يده ، فأدناه المنصور وأكرمه ثم أمره بأن يعود إلى خيمته ويحضر في الغد . ولما أصبح الصباح أتاه رسول المنصور يستدعيه ، وقد أعد المنصور جماعة من رجاله خلف الستور بأيديهم السلاح . وأوصاهم أنه إذا ضرب إحدى يديه على الأخرى يخرجون فيقتلون أبا مسلم . فلما دخل أبو مسلم عليه ، شرع في توبيخه وتقريعه على ما اقترفه من ذنوب وأبو مسلم ينتحل الأعذار ، فذكر له أموراً ، فقال أبو مسلم : يا أمير المؤمنين ! مثلي لا يقال له هذا ولا تعد عليه مثل هذه الذنوب . فاغتاظ المنصور ، وقال أنت فعلت ، والله لو كانت مكانك أمة سوداء ما فعلت ما فعلت ، وهل نلت ما نلت إلا بنا وبدولتنا ؟ فقال أبو مسلم : دع هذا فقد أصبحت لا أخشى غير الله . فغضب المنصور بيده على الأخرى ، فخرج أولئك نفر وضربوه بالسيوف ، وصاح أبو مسلم : استبقني يا أمير المؤمنين لعدوك ، فقال المنصور وأى عدوى أعدى منك ؟ ثم أمر به فلف في بساط ، ودخل عيسى بن موسى أمير الكوفة ، وقال : أين أبو مسلم يا أمير المؤمنين ؟ فقال المنصور : هو ذلك في البساط ، فقال قتلته ؟ قال نعم ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! بعد بلائه وأمانته ؟ وكان المنصور قد آمنه ، وأشهد عيسى بن موسى على ذلك ، فقال المنصور : خلع الله قلبك ! والله ليس لك على وجه الأرض عدو أعدى منه ، وهل كان لكم ملك في حياته ؟ ثم أمر المنصور بمال لجند أبي مسلم ، ففترقوا ، وكان ذلك سنة ١٣٧ هـ .

وعقب مقتل أبي مسلم ، خطب المنصور في الناس ، فكان مما قاله : « أيها

الناس ، لا تخرجوا عن أنس الطاعة ، إلى وحشة المعصية ، إنه من نازعنا هذا القبيص ، أوطأناه ماني هذا الغمد ، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع لنا ، على أنه من نكث ببيعتنا ، فقد أباح دمه لنا ، ثم نكث بنا هو ، فحكنا عليه لأنفسنا ، حكمه على غيرنا لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق من إقامة الحق عليه ^(١) .

ويظهر أن المنصور إنما قام بما قام به مدفوعاً بعوامل الغيرة من أبي مسلم متأثراً بما استولى عليه من الهواجس وخامرتة الريب في إخلاصه ، وزاد أبو مسلم النار اشتعالاً بتأديبه في زهوه وإسرافه في قتل النفوس البريئة . على أن أبا مسلم إذا كان يستحق القتل . فإن قتله يجب أن لا يكون على يد المنصور ^(٢) ، لأنه مدين لأبي مسلم بما أداه له وللخلافة العباسية من خدمات جليلة ، نقلت الإسلام من حالة إلى حالة أخرى .

بذلك استطاع أبو جعفر المنصور بما أوتيته من حزم ودهاء أن يأسر عمه عبد الله بن علي ثم يقتله ، وأن يقتل أبا مسلم الخراساني ، وكلاهما يعد من مؤسسي الدولة العباسية . وقد علق ابن طباطبا صاحب كتاب الفخرى ، على هذه الظاهرة ، بقوله : « وكأن الخترع للدولة ، يكون عنده من الهدالة والتبسط ، ماتأنف من استماله نفوس الملوك ، كلما زاد تبسطه زادت الأنفة عندهم حتى يوقعوا به » .

والنحل البريئة :

ظهرت في عهد المنصور العباسي عدة نحل دينية ، من أشهرها حركة « الراوندية » ، والمعتقدات المستمدة من الأفكار الفلسفية القديمة التي نشرها الفرس ودعى إليها دعاة ظهوروا على أثر مقتل أبي مسلم الخراساني . أمثال : « سباز » و « إسحق » و « أستاذ سيس » .

(١) الطبري ج ٩ ص ٣١٣ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ١٠٠ .

بدأ ظهور حركة الراوندية في قرية راوند قرب أصفهان وقلدوا الفرس الذين كانوا يقدسون ملوكهم ويعتبرونهم آلهة . ويعتقد أصحاب هذا المذهب أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم قد حلت في علي بن أبي طالب ثم في الأئمة حتى وصلت إلى إبراهيم بن محمد (سبط العباس عم الرسول) ، وكانوا يعتقدون في تأليههم ويستحلون ما حرم الله . ومما لبثوا أن عبدوا الخليفة المنصور « وصعدوا إلى الخضراء (القبة التي بناها المنصور ببغداد) ، فألقوا أنفسهم كأنهم يطيطون ، وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح ، فأقبلوا يصيحون بأبي جعفر : أنت أنت (أى أنت الله) » ^(١) . إلا أن المنصور عد ذلك خروجاً على الدين ، وحاربهم بنفسه وحاول القضاء عليهم ، على الرغم من تأليههم له ، وحبس عدداً كبيراً منهم ، ولكنهم تمكنوا من اقتحام السجون وإخراج من فيها ، وحاولوا قتل أبي جعفر بعد ذلك إلا أنه نجا من الموت ^(٢) . وهم يعدون أنفسهم من أتباع أبي مسلم الخراساني ، وحاربهم العباسيون في عهد المنصور وفي عهد من جاء بعده من الخلفاء ، وخاصة بعد أن أخذت الراوندية تتشكل في أشكال مختلفة كالقنمية والخرمية ، وظهرت كذلك على أثر مقتل أبي مسلم ، عدة نحل دينية . فإن سنباذ ^(٣) وإسحق ^(٤) وأستاذيس ^(٥) قد أعلنوا على التوالي أن أبامسلم لم يقتل ، لأنه حين أراد المنصور قتله ردد الاسم الأعظم وتحول إلى حمامة وطار وأعلن أنه سيعود ثانية . ويبين

(١) الطبري ج ٩ ص ٣٠٧ .

(٢) قيل إن المنصور فر على دابة .

(٣) سنباذ : رجل مجوس ، ظهر في مدينة نيسابور ، ودامت الحرب بينه وبين المنصور نحو سبعين يوماً .

(٤) عرف إسحق باسم إسحق التركي ، مع أنه ليس تركيا ، اعتقد أن أبامسلم متغيب في بلدة قريبة من مدينة الري قرب طهران وأنه سيظهر يوماً بعيد ديانة زرادشت ، وهو رجل من إقليم أذربيجان ، نادى أن للعالم قوتين مسيرتين له أو الهين : إله الشر وإله الخير ، وأنه يجب نصرة إله الخير بالتحل بالفضيلة والامتناع عن الرذيلة .

(٥) بنى أستاذيس حركته على أساس المزدكية ، وهي ديانة فارسية نادى بها مزدك الذي ظهر في مدينة نيسابور في فارس في أواخر القرن الخامس الميلادي .

لنا ظهور هذه الآراء الدينية أن الفرس قد اتسع سلطانهم في دولة بني العباس .
لأن الفرس يعتقدون في أن أبطالهم لا يموتون ولكنهم يختفون فترة يعودون
بعدها إلى الظهور وفي قدرة هؤلاء الأبطال على الطير في الهواء حين يشاءون
وأنهم حين عودتهم بعد غيبتهم يعودون إلى إصلاح مافسد ، كما يتجلى في حركة
أستاذ سيس الذي رمى بها إلى ضرورة المساواة بين الناس وإقامة النظام الاجتماعي
على أساس جديد حتى ادعى النبوة وقطع أصحابه الطرق وارتكبوا كثيراً من
الآثام ولكن كان مصيره الاندحار وقتل كثير من أتباعه ، وانتهت حركته
بالفشل ، كما انتهت حركة سنبلاذ وثورة إسحاق التركي وكما قضى على الراوندية .

لذلك يمكن القول ، أنه كما ظهرت في أواخر عصر الخلفاء الراشدين وعصر
الأمويين بعض المذاهب الدينية كالشيعة والخوارج وغيرها ، ظهرت
كذلك في العصر العباسي محل دينية ترجع إلى أصل فارسي قديم ، وكان
ظهورها نتيجة غلبة العنصر المعجمي على العنصر العربي ، واصطبغت تلك الفحل
بصبغة دينية وسياسية معاً .

موقف من العلويين :

العلويون هم كل من ينتمى إلى علي بن أبي طالب الخليفة الراشد الرابع ،
وهؤلاء اعتبروا أنفسهم أحق بالخلافة من الأمويين ، وبدأوا منذ مقتل الحسين
ابن علي يتذرعون إلى نيل حقوقهم بكل وسيلة ، وكانوا إذا وجدوا الفرصة
ساحة لاستخدام القوة ، لم يترددوا في انتهازها . وفي أواخر الدولة الأموية كان
الدعاة قد نشطوا للدعوة للعباسيين حتى كونوا لهم عصبية قوية ، وحين غلب
الدعاة على الكوفة ، ووجدوا أبا العباس بينهم وقد عهد إليه أخوه إبراهيم

الإمام بالخلافة ، لم يجدوا من بين آل علي من يستطيع أن يحولهم عن بني العباس ،
إذ لم يكن للعلويين في ذلك الوقت من القوة وكثرة الأنصار ما يعيدهم سبيل
الوصول إلى الخلافة .

لم يرق للعلويين أن يظفر العباسيون بالخلافة دونهم ويقيموا دولتهم على أنقاض
دولة بني أمية ، ولم تطب نفوسهم بقيام خلافة عباسية لأنهم اعتبروا أنفسهم
أحق بها منهم ، فتابذوا العباسيين العداء ونظروا إليهم كما كانوا ينظرون إلى
الأمويين من قبل . وأدرك العلويون أن العباسيين قد خدعواهم واستأثروا بالخلافة
لأنهم باتحادهم مع بني العباس ضد بني أمية واشتراكهم معهم في العمل على إزالة
دولتهم قد مهدوا الطريق للعباسيين . ولم تكن استكانة العلويين في بدء الخلافة
العباسية معناها التسليم بالأمر الواقع ، لأنهم انتظروا حتى تنهأ لهم الأحوال ،
فيبدأوا دور الكفاح والنضال ضد العباسيين كما كافوا وناضلوا الأمويين من قبل ،
ابتغاء الوصول إلى حقهم في الخلافة . وعملوا في هذه المرة في طي الخفاء
والكتمان ، وأصبح تاريخ العلويين حافلا في ذلك العصر بضروب الخدع والمكائد
ولكن العباسيين أذاقوهم مرارة الفشل ، كما سقاها الأمويون كأس الدل والهوان
من قبل .

بدأ العلويون ، من شعبة الحسينيين سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب ،
في رفع صوتهم عالياً للمطالبة بالخلافة بعد زوال الأمويين ، إذ اعتبروا أنفسهم
أحق بها من العباسيين لأن الحسن تنازل عن حقه في الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ،
وهذا التنازل كان للبيت الأموي لا العباسي ، ولما بدأ نجم مروان بن محمد
آخر خلفاء بني أمية في الأفول ، اجتمع الحسينيون والعباسيون للتشاور فيمن
تؤول إليه الخلافة بعد القضاء على الدولة الأموية ، فتنازل العباسيون لحمد
ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، كذلك استندت سلالة

الحسن في المناذرة بالخلافة بعد الأمويين إلى حقهم الشرعى فيها عن طريق الحق الإلهى .

وكانت حركات الحسينيين أتباع الحسن بن على نجري في المدينة ، وبذلك ظهرت المدينة مرة أخرى على مسرح السياسة في التاريخ الإسلامى . وكانت الفطائع التى ارتكبها العباسيون ، هى السبب في ظهور المعارضة من سلالة المهاجرين والأنصار للخلافة العباسية بشكل جدى . وكان يقود بنى الحسن رجلان أحدهما يقال له محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب المعروف بالنفس الزكية وكانوا يعتبرونه محمداً المهدي الذى سيخلص العالم الإسلامى مما لحقه من ظلم وجور ، والثانى شقيقه إبراهيم بن عبد الله . وهذان الأخوان من نسل على وفاطمة بنت الرسول عليه السلام ، وعرفا بالعلم والزهد والورع .

تلقى المنصور على ملكه من هذين الأخوين ، لأنها كانا قد رفضا إقرار البيعة له بالخلافة ، وتبعهما أولاد على وجعفر وعقيل وأولاد عمر بن الخطاب والزبير وسائر قريش والأنصار . وجد المنصور في طلبهما دون جدوى ، إذ أنهما اختبأ منذ قيام الدولة العباسية ، فاهتم بأمرها ، وعهد إلى زياد بن عبيد الله بالبحث عنهما ، إلا أنه تهاون في الأمر بل ساعد محمد بن عبد الله على الهرب فقبض المنصور على زياد وسجنه ، وولى مكانه محمد بن خالد القسرى ولكنه عزل لأن المنصور استبطأه .

بلغ اهتمام المنصور أقصاه لإخراج محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم من مكنتهما ، فولى على المدينة رجلاً بدوياً قاسياً وبسط له الأموال ليستخرجهما من مخبئهما ، وهورياح بن عثمان بن حيان ابن عم مسلم بن عقبة المرى الذى نكل بأهل المدينة في واقعة الحرة في عهد يزيد بن معاوية ، واتبع رياح مع أهل المدينة نفس أساليب الحجاج بن يوسف الثقفى مع أهل الكوفة ، فقد

خطب في أهل المدينة قائلاً : « يا أهل المدينة ! أنا الأعمى بن الأعمى رياح ابن عثمان بن حيان ، وابن عم مسleme بن عقبة الليبد خضراءكم المفقى رجالكم . والله لأدعنهم للقمع لا ينبج فيها كلب » ، ولكن أهل المدينة اجتروا عليه وسبوه ولعنوه ووصفوه بأنه « الجلود حدين لتكفن أولئكفك عن أنفسنا » ، ولما بلغ المنصور ذلك ، أبلغ أهل المدينة أن « أمير المؤمنين يقسم بالله لنن لم تنزعوا ، لبيدلتكم بعد أمنكم خوفاً ، وليقطعن البر والبحر عنكم ، وليبعثن عليكم رجالا غلاظ الأكباد بعاد الأرحام »^(١).

وتتابعت بعد ذلك حوادث تعذيب أقرباء محمد بن عبد الله وأنصاره ، فقد حبس الوالى رياح إخوة عبد الله ، وأعلن سب ابنه محمداً وإبراهيم على المنابر ، ثم شخص بنفسه إلى المدينة وأمر بأن يمثل العـلويون بين يديه وهم مكبلون ، وسألم عن مقر محمد بن عبد الله فلم يظفر بشيء ، فمنفهم وبعث بهم إلى الكوفة حيث حبسوا في سرادب تحت الأرض لا يفرقون ، كما يقول المسمودى : بين ضياء النهار وسواد الليل^(٢).

وأخيراً لما استوفى محمد النفس الزكية من أمر أتباعه ونجاح دعوته ، أعلن نفسه ، ويظهر أن محمد بن عبد الله لم يحسن اختيار الوقت الذى يخرج فيه من مكنته ، فقد قيل إن جماعة دخلت عليه بعد أن اشتد بها البلاء ، وقالت له : « ما تنتظر الخروج ؟ ما الذى يمنعك من أن تخرج وحدك ؟ » ، واجتمع الناس حول محمد وبايعوه ، وفى الحال وصل خير ظهوره إلى المنصور ، فأخذ عدته للأمر لأنه موقن من النتائج الخطيرة التى تترتب على التهاون مع مثل هذا الرجل ، إذ كان قد خرج فى مائتين وخمسين رجلاً

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٢٥١ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٠ .

وتوجه إلى السجن وأخرج من فيه وأمر بحبس عامل المنصور على المدينة المنورة ، وخطب أهلها خطبة كلها طعن في المنصور والدولة العباسية ، وفيها قال : « أما بعد ، أيها الناس ! فإنه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يخف عليكم ، من بقاء القبة الخضراء التي بناها معانداً لله في ملكه وتصغيراً للكهبة الحرام ، وإنما أخذ الله فرعون حين قال : أنا ربكم الأعلى ، وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار الموالين ... » (١) .

سير المنصور إلى محمد بن عبد الله جيشاً ضخماً بقيادة ولي عهده عيسى ابن موسى ، ولكنه أحب أن يتقدم إلى محمد قبل القتال بالدعوة السلمية ، فحرت بين الرجلين مراسلات ، لم تأت بنتيجة ما ، تجد نصوصها في الطبري (٢) . قال المنصور في أولى كتبه إلى محمد : « لك على عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، إن تبت ورجعت من قبل ، أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم ، على دماءكم وأموالكم ... » .

لم يعبأ محمد النفس الزكية بهذه الوعود ، ورد على المنصور بكتاب أثار تأثيره ، وجاء فيه « .. وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت على فإن الحق حقنا ، فإن أبانا علياً كان الوصي وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ... وإنا بنو أم رسول الله ، فاطمة بنت عمرو في الجاهلية ، وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم ، إن الله اختارنا واختار لنا ، فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السلف أولهم إسلاماً علي ، ومن الأرواح أفضلهم خديجة الطاهرة ، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين في الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ... ولك

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٠٤ — ٢٠٥

(٢) الطبري ج ٩ ص ١١٠ — ١١٣ .

على أن دخلت في طاعتي وأجبت دعوتي ، أن أؤمنك على نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله أو حقاً لمسلم أو معاهداً ، فقد علمت ما يلزمك من ذلك . وأنا أولى بالأمر منك وأدنى بالعهد ، لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيتهم رجلاً قبل ، فأى الأمانات تعطيتني ؟ أمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله بن علي ؟ أم أمان أبي مسلم ؟ .

وقد بلغ بالنصور الغضب أقصاه بعد وصول هذا الكتاب إليه ، فرد بنفسه على محمد بن عبد الله ، يفند أقواله : « ... أما ما فخرت به من فاطمة وعلى ؟ فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم ... وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسباً وأصرحهم أما وأباً ... فانظر ويحك أين أنت من الله غداً ، فإنك قد تعديت طورك ، وفخرت على من هو خير منك نفساً وأباً ، وأولاً وآخرأ ، إبراهيم ابن رسول الله ، وأما ما فخرت به من علي وسابقتة ، فقد حضرت رسول الله الوفاة ، فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل فلم يأخذوه ، وكان في الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها ولم يروا له حقاً فيها ، أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان ، وقتل عثمان وهوله متهم ، وقاتله طلحة والزبير ، وأبى سعد بيعة ، وتفرق عنه أصحابه وشك فيه شيعته ، ثم حكم حكمين رضى بهما فاجتمعا على خلعه ، ثم كان الحسن فباعها معاوية بخرق ودرهم ، ولحق بالحجاز وأسلم شيعته بيد معاوية ، ودفع الأمر إلى غير أهله ، ثم خرج عمك الحسين بن علي على ابن مَرْجَانة ، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وآتوا برأسه إليه ، ثم خرجتم على بنى أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ونفوكم من البلدان حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم ، فانخذت ذلك علينا حجة ، وظنفت إنا إنما ذكرنا أباك وفضلنا لتقدمة منا على حمزة والعباس

وجعفر ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، وابتلى أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة ، فاحتججنا له وذكرناهم فضله ... ولقد علمت أن مكرمنا في الجاهلية سقاية الحبيج الأعظم وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين إخوته ... فالسقاية سقايته ، وميراث النبي له والخلافة في ولده . فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام ، في دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه ومورثه ... » .

نحرجت النفوس وتمكنت العداوة وتأصلت في قلوب الفريقين المتنازعين ، مما أدى إلى قيام القتال بين الطرفين ، وهنا لجأ محمد النفس الزكية إلى حيلة قديمة اتبعها في القتال ، وهي حفر خندق ، فكان ذلك وبالا عليه ، إذ أحرق القائد وولى العهد عيسى بن موسى بالمدينة وبذل الأمان لكل من يريد أن يخرج ، فخرج منها عدد كبير وبقي محمد ومعه نفر قليل . وانتهى أمر محمد بالقتل وأرسلت رأسه إلى المنصور ، وعاقب الخليفة المدينة عقاباً شديداً بأن أمر بقطع اللؤن عنها وصادر أموال بني الحسن .

بقي بعد ذلك أخوه إبراهيم ، الذي استقر في البصرة ، وكان المنصور يخشى أمره ، لأن معظم أهل العراق كانوا من شيعة علي بن أبي طالب ، وأخيراً أخذ إبراهيم البيعة سراً من الناس ، وأعلن الثورة واستولى على البصرة وعلى الأقاليم المجاورة لها في فارس والعراق ، فاستولى الملع على المنصور ، وبمات إليه بالجيش الذي قاتل به محمداً من قبل ، فرأى إبراهيم أن يهاجم الكوفة حتى تنضم إليه لأن أهلها شيعة ، وعندما بدأ الهجوم عليها ، التقى بالقائد العباسي عند « باخرى » وهي بلدة واقعة بالقرب من الكوفة ، وهنا دارت الواقعة الفاصلة بين الطرفين في ذي القعدة سنة ١٤٥ هـ وهزم إبراهيم وقتل .

وهكذا قضى للمنصور على العلويين ، ومما يدل على خوف المنصور أيام هذه الأزمة ما يرويهِ ابن الأثير من أنه : رمى كل ناحية بحجرها ،

وقد على سجادة صلاته خمسين يوما ، وعليه جبّة متسخة لا يغيرها .
ويمكن القول بأن المعارضة قد انتهت بانتهاء حياة هذين الأخوين ، وولى
العلويين وجههم شطر المغرب في إفريقية بعد تلك المصائب التي تتابعت عليهم
في المشرق .

تأسيس مدينة بغداد :

من الأعمال الخالدة التي يحرص الفاتحون على إتمامها ، تأسيس المدن
لتتخذ عواصم الأقاليم المفتوحة والعناية بأمرها وتوسيع نطاقها بمرور الزمن ،
لكي تضم دواوين الحكومة الجديدة وبيوت أنصارها من القواد والجند
والموظفين ، ولتكون مقراً لأرباب الحرف والصناعات . فقد اتخذت المدينة
والكوفة ودمشق والأنبار عواصم للدولة الإسلامية ، حتى بنيت بغداد فأتخذت
عاصمة للعباسيين في بلاد العراق .

بنى الخليفة العباسي المنصور سنة ١٤٥ هـ مدينة بغداد ، وبدأ مشروعه
الضخم بالبحث عن موضع يصلح لإنشاء عاصمته الجديدة . فبعث رجالاً
يثق بهم لاختيار مكان صالح لذلك ، فدلوه على موضع قريب من مدينة بارما
الواقعة جنوبي الموصل ، وفي هذا المكان أقام المنصور يوماً وليلة لتكوين
رأى نهائي عنه وذلك في فصل الصيف ، فأعجب بطيب هوائه وجودة غذائه ،
واستقر رأيه على أن يتخذ ذلك الموضع لبناء مدينته الجديدة ، ويقع في هذه
الأراضي الخصيبة التي يروبها ماء الدجلة والجدال التي تأخذ ماءها من الفرات ،
وهو مكان تسهل فيه المواصلات بين أجزاء دولته وتتوافر سبل المعيشة^(١) .

وسميت العاصمة الجديدة باسم « بغداد » . وقد وردت عدة اشتقاقات لهذا

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

اللفظ منها : أن بغداد تتكون من بغ ومعناها بستان ، وداد ومعناها الله ، أى أنها بستان الله . وقيل إن معنى بغ معبود أو صنم ، وداد معناها عطية ، أى أن هذه المدينة هى عطية الله . وسميت كذلك المدينة المدورة لأنها بنيت على شكل دائرة ، وأطلق عليها مدينة السلام لأن السلام هو الله ، ومدينة الإسلام ، ودار السلام تشبيهاً لها بالجنة ، وسمى الجانب الغربى منها « الزوراء » لازوراء نهر دجلة عند مروره بها ، كما سمي الجانب الشرقى « الروحاء » لانبساط مجرى النهر عنده (١) .

وأمر الخليفة بضرب الدين وطبخ الأجر استعداداً لبناء المدينة ، ووضع المنصور أول لبنة بيده : بسم الله والحمد لله والأرض لله . . . يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ثم قال : ابنوا على بركة الله . واحتفل بوضع الحجر الأساسى احتفالاً شائعاً شهدته الأمراء والوزراء والقواد والأعيان والعلماء . ثم أخذ البناءون يبنون المدينة ، وفى وسطها قصر الخليفة والجامع ودار حرسه ومنازل أولاده ومنازل من يقوم بخدمتهم وقصور الأمراء ورجال الدولة ودواوين الحكومة ودور الأهالى تتخللها الأسواق (٢) واسكن البناء ما لبث أن وقف أثناء خروج محمد النفس الزكية سنة ١٤٥ هـ على المنصور ، وبعد أن تم للخليفة القضاء على هذا العلوى الناصر على الخلافة العباسية ، أمر بأن تبنى المدينة فى أقرب وقت .

وكان المنصور يشرف بنفسه على مالية الدولة وينفق منها بحساب ، فكان يمدق فى عملية الصرف على بناء المدينة ، حتى سمي المنصور الدوانيقى ، نسبة إلى حرسه على أصغر عملة فى العراق وهى الدانق . وصرف على بنائها نحو تسعة ملايين من الجنيهات ، وخاصة أنه عمل على تحصينها لتعاكس فى العظمة والجلال ،

(١) البغدادى : تاريخ بغداد ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate, p. 18

(م ٢٣ — التاريخ الإسلامى العام)

الحواضر الكبيرة في الشرق والغرب . وبخاصة القسطنطينية حاضرة الدولة الرومانية الشرقية .

وتدرجت بغداد في العمران ، فبنت فيها المباني الفخمة والقصور الشاهقة ، التي من أشهرها قصر « القبة الخضراء » الذي استخدم للضيافة ، إذ كان يقيم فيه السفراء الذين يقدون على بغداد من مختلف الممالك حتى يحين وقت السماح لهم بالمتول بين يدي الخليفة ، وكان على رأس هذا القصر تمثال على صورة فارس في يده رمح ويدور التمثال مع الريح ، ووصفت قبة القصر بأنها كانت « تاج البلد وعلم بغداد » . وبنى قصر الخلد على شاطئ دجلة الغربي خارج بغداد ، في مكان طيب الهواء ، إذ أن المدينة الجديدة قد ازدحمت بالعلماء والتجار والصناع الذين وفدوا عليها من كل صوب وحذب ، وسمى بهذا الاسم تشبيهاً له بمحنة الخلد ، لأن التائق في بنائه كان بادياً للعيان . أما قصر الذهب فيعتبر مركز الدائرة في المدينة الجديدة . كذلك بنى الأمير عيسى بن علي عند مصب الرافد في دجلة قصرًا فخماً يسع أربعة آلاف نفس .

ولم يحل بناء بغداد دون شغب الجند على المنصور . لذلك بنى مدينة « الرصافة » التي كانت في الأصل عبارة عن ثكنات للجيش ، وسميت رصافة بغداد وبغداد الشرقية لأنها تقع في الجهة الشرقية من نهر دجلة المقابلة لمدينة بغداد ، وبنى لها الخليفة المنصور سوراً وحفر حولها خندقاً وجعل فيها ميادناً فسيحاً ومسجداً وبستاناً وأجرى الماء فيها . وسرعان ما عمرت الرصافة حتى قاربت بغداد في الاتساع ، فظهرت فيها الحدائق والمتنزهات والميادين الواسعة والمباني الفخمة ، كما كثرت بها الملامح . واهتم اليعقوبي بوصف مدينة الرصافة ، فبين طرقها ودروبها ووصف أسواقها وتجارتها ، فقال إنه كان بها ٤٠٠٦ من الدروب ، ١٥٠٠ مسجد ، ٥٠٠٠ حمام إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تخلو من مبالغة^(١)

واتسعت بغداد والرصافة اتساعاً عظيماً ، حتى أصبحت أشبه بمدن صغيرة متلاصقة ، وأصبحت بغداد أم مدائن الشرق في ذلك العصر ، وبلغ عدد سكانها مليوني نسمة .

وفي سنة ١٥٧ هـ ، أمر المنصور ببناء « الكرخ » بواسطة حاجبه الربيع ابن يونس ، في الناحية الجنوبية لمدينة بغداد . ويرجع السبب في بناء مدينة الكرخ إلى ارتفاع الدخان المتصاعد من الأسواق واسوداد حيطان بغداد ، مما ضايق المنصور ، فأمر بنقل هذه الأسواق التي كانت تشغل جزءاً عظيماً من مدينته إلى الجنوب حيث الكرخ . ووضع تصميم بناء الكرخ بعد أن وسع طرق بغداد ، حتى بلغ اتساع كل منها أربعين ذراعاً ، وعين مواضع الأسواق كما عين موضع بناء جامع يصل فيه أهل هذه الأسواق حتى لا يدخلوا المدينة ، وعهد بتنفيذ هذا المشروع إلى مولاة الوضاح ، وأفرد لكل حرفة سوقاً خاصة بها^(١) .

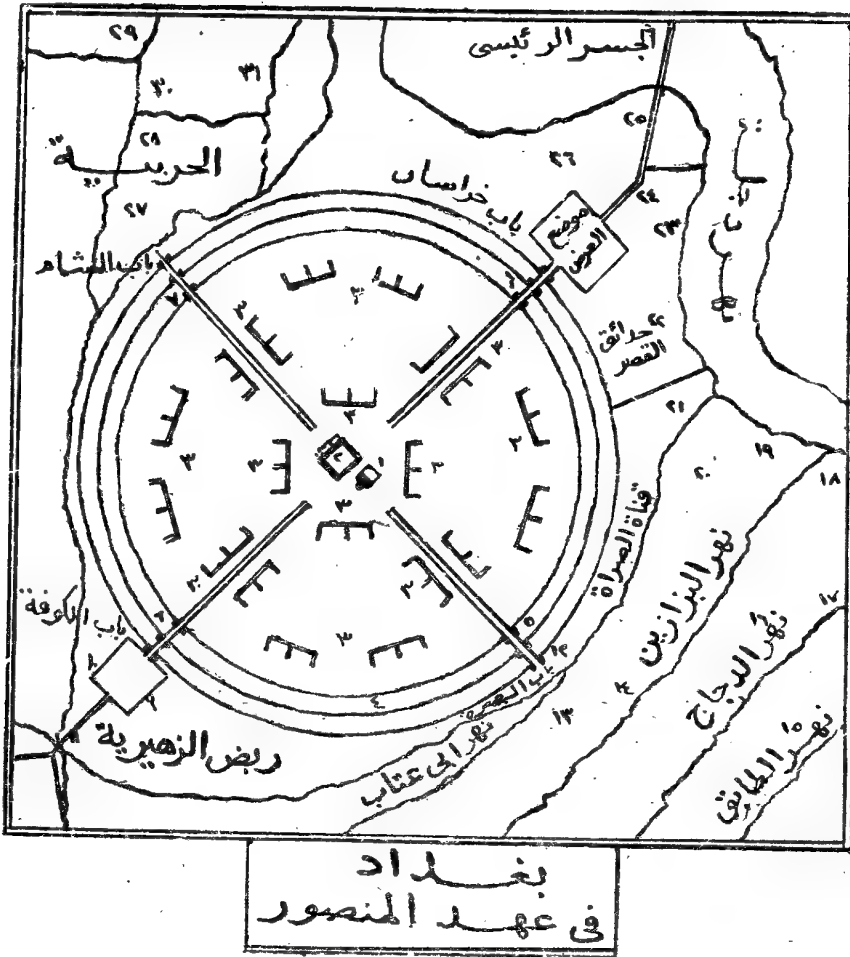
وشهدت بغداد في عهد منشئها أبي جعفر ، حركة تدوين العلوم والنقل عن الأمم القديمة فترجمت الكتب من الفارسية واليونانية إلى العربية : فنقل حنين بن إسحق بعض كتب بقراط وجالينوس في الطب ، ونقل ابن المقفع كتاب كاليلا ودمنة من الفهلوية ، وترجم كتاب السند هند ، وكتاب إقليدس في الهندسة . وبذلك كانت بغداد بعد إنشائها مسرحاً لنهضة علمية واسعة النطاق ، وساعد على ذلك أن المنصور نفسه كان راوية للحديث ، بارعاً في العلوم والفنون ، ولماً بالطب .

ومن بعد المنصور ، نمت بغداد نمواً عظيماً ، وشيدت فيها مبان وأنشئت حدائق ، واستحال العمران من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي ، واشتهرت

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٨ — ٧٩ .

هذه المدينة في التاريخ والأدب والقصص في المصور الوسطى ، وازدهرت فيها الفنون المختلفة ، وانتشرت منها إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي ^(١) ، وقال عنها المؤرخون إنها : جنة الأرض ومدينة السلام وقبة الإسلام .

وطلت بغداد على ذلك منذ إنشائها سنة ١٤٥ هـ حتى كانت سنة ٦٥٦ هـ حيث خربها التتار بقيادة هولاكو بعد استيلائهم على هذه المدينة .



دليل خريطة بغداد : (١)

- ١ — جامع المنصور .
- ٢ — قصر باب الذهب والذهيزان المقابلان لباب الشام .
- ٣ — دواوين الدولة المختلفة : بيت المال — دار السلاح — دار القضاء — ديوان الخراج — المخازن العامة — ديوان الرواتب — ديوان الحاجب — قصور أبناء الخليفة الأصاغر
- ٤ — السجن ويسمى المطبق
- ٥ — باب البصرة
- ٦ — باب خراسان
- ٧ — باب الشام
- ٨ — باب الكوفة
- ٩ — مسجد المسيب
- ١٠ — دار الحرس وديوان الصدقة والإسطبلات وثكنات المجاعة .
- ١١ — الجسر القديم .
- ١٢ — الجسر الجديد .
- ١٣ — قصر ومسجد الوضاح .
- ١٤ — الطريق الذى يمتداز قوس الحراني .
- ١٥ — جامع ضاحية بغداد الشرقية .
- ١٦ — ضريح معروف الكرخي .
- ١٧ — مشهد على المعروف بمشهد المنطقة .
- ١٨ — دار الجوز .
- ١٩ — قصر حميد بن عبد الحميد وباب الشعير .
- ٢٠ — قصر عضد الدين الوزير .
- ٢١ — الدبر القديم بالقرب من ملتقى دجلة بالبصرة .
- ٢٢ — دار القرار : قصر زبيدة .
- ٢٣ — قصر الخلد .
- ٢٤ — إسطبلات الخليفة .
- ٢٥ — ديوان أشغال الجسر ودار عامل الشرطة .
- ٢٦ — قصر الأميرين سليمان وصلاح .
- ٢٧ — سجن باب الشام .
- ٢٨ — قصر سعيد السكاك ومعه الأيتام .
- ٢٩ — دكاكين الأبناء — الفرس .
- ٣٠ — رحية الفرس .
- ٣١ — رحية شعيب .

(١) الخريطة ودليها :

Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate

١ — بين العباسيين والبيزنطيين : سياسة المنصور الخارمية

حاول العرب الاستيلاء على القسطنطينية ثلاث مرات : الأولى في خلافة عثمان بن عفان ، والثانية في عهد معاوية بن أبي سفيان ، والثالثة في عهد سليمان ابن عبد الملك . وتحولت الحرب النظامية بين الأمويين والبيزنطيين إلى غارات تخريب وتدمير في عهد العباسيين ، وانهز البيزنطيون فرصة عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول قوى يضارع أسطول الأمويين واعتمادهم على الجنود البرية دون القوات البحرية . وبدأوا يشنون غاراتهم على أراضي الدولة العباسية ، وذلك في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور : فغزا قسطنطين الرابع إمبراطور الدولة البيزنطية بعض أراضي الشام سنة ١٣٧ هـ ، واستولى على ملطية في آسيا الصغرى ، غير أن العباسيين تمكنوا من استردادها في السنة التالية ، وأقاموا فيها حامية كبيرة من جندهم . وفي سنة ١٥٥ هـ طلب الإمبراطور قسطنطين الصلح مع العباسيين ، على أن يؤدي لهم جزية سنوية^(١) .

٢ — سياسة المنصور إزاء الأندلس :

في عهد المنصور العباسي ، استقلت الأندلس عن الدولة العباسية ، وبدأ بذلك تيار التجزؤ ، أي استقلال الولايات الخاضعة للخلافة العباسية عن سلطان الخلفاء ، واستمر هذا التيار في الاندفاع في عهد من جاء بعده من الخلفاء ، حتى أصبح نفوذ الخليفة الفعلي مقصوراً على بغداد ، ولكن بقي له نفوذه الروحي على العالم الإسلامي ، وفي أواخر القرن الثالث الهجري استقلت بلاد المغرب وتلتها مصر في منتصف الرابع الهجري عن العباسيين ، وتأسست دولة الفاطميين التي نافست الدولة العباسية .

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ١٩٧ .

فتح الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي بلاد الأندلس ، ولكن تلك البلاد في السنوات السبع الأخيرة من عصر بني أمية أى منذ سنة ١٢٥ هـ ، كانت تغل كالمرجل بالفتن والقلق السياسية . وكان سقوط الدولة الأموية بداية للتدهور العام في كافة أرجاء الدولة الإسلامية : ففي بلاد الأندلس ضعف سلطان الأمويين كما ضعف سلطان العباسيين من بعدهم . وقام النزاع الداخلي بين القبائل وخاصة بين المضرية واليمينية ، انتهى بقولية يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب ابن أبي عبيدة الفهرى^(١) وهو من المضريين ، إمرة الأندلس ، حتى جاء عبد الرحمن^(٢) بن معاوية بن هشام .

وقد هرب عبد الرحمن من العباسيين عندما أخذوا في التفتيح بالأمويين ، فذهب إلى المغرب حيث لاقى كثيراً من الصعاب ، بسبب محاولة عبد الرحمن ابن حبيب والى إفريقية القبض عليه ، ولكنه لجأ إلى إحدى قبائل البربر التي حمته ، فأخذ يرسل الأمويين في الأندلس منتهزاً فرصة النزاع بين المضرية واليمينية ، وأخيراً تمكن سنة ١٣٨ هـ من دخول الأندلس والاستيلاء عليها والقضاء على يوسف بن عبد الرحمن والى قرطبة^(٣) .

(١) حاول الخليفة المهدي القضاء على عبد الرحمن ، فأرسل جيشاً من البربر بقيادة عبد الرحمن بن حبيب الفهرى لغزو الأندلس ، فهزمه عبد الرحمن بالقرب من برشلونة وتحصن ابن حبيب في بلنسية وأخذ يحارب عبد الرحمن الداخل إلى أن تمكن رجل من البربر من اغتيال ابن حبيب . ابن الأثير ج ٦ ص ٢٣ .

(٢) ولد عبد الرحمن بن معاوية بن عبد الملك بن مروان في دمشق سنة ١١ هـ ، فهو من نسل الأمويين ، وتوفي أبوه معاوية وهو لا يزال طفلاً ، إلا أنه نشأ نشأة أبناء البيت المالكة وتعلم تعليمهم ، فأتقن الفروسية وركوب الخيل ، وأجاد قرض الشعر وحفظ القرآن ، وعرف باسم عبد الرحمن الداخل ، ولم ترد عنه عن الخامسة والعشرين وقت رحيله إلى الأندلس يقصد إحياء دولة الأمويين فيها .

(٣) المقرئ : فتح الطيب ج ١ ص ١٥٥ - ١٥٦ .

وقد أراد أبو جعفر المنصور القضاء على سلطان عبد الرحمن ، فأرسل العلاء ابن مغيث اليحصبي إلى الأندلس لمحاربة عبد الرحمن ، فاجتمع إليه نفر كثير ، ولكن عبد الرحمن هزمهم عند إشبيلية . وهكذا فشل العباسيون في استرجاع الأندلس وضماها إلى حظيرة الدولة ، فعمل أبو جعفر المنصور على استمالة عبد الرحمن بإرسال الهدايا إليه كما كان يشيد بحليل صفاته وعظيم قدرته ، فيقول : « . . . إلتقم جزيرة شاسعة الحل ، نائية المطعم ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقع بمضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها . . . إن ذلك هو الفتى كل الفتى الذى لا يكذب مادحه » ^(١) .

ولما فشل المنصور في سياسة التودد إلى عبد الرحمن ، أخذ يؤلب عليه ملوك دول الفرنجة ، مما جعل عبد الرحمن يأخذ الحيلة لنفسه من هجوم الفرنجة عليه ، وزاد من متاعبه في ذلك الحين ، ما دبره المنصور العباسى بقصد إعلان خلافته على الأندلس ، فقد اتفق أن يفز وشارلمان الأندلس على أن تصل لمعاونته قوة من إفريقية ، ولكن هذه المؤامرة التى دبرت فى الخفاء لم تنجح : إذ أنه وقت هجوم شارلمان على الأندلس لم تكن حملة البربر قد وصلت ، ففشلت الخطة ، وقضى عبد الرحمن بذلك على خصومه وأصبح أمير الأندلس دون منازع ومحى دولة الأمويين بالمغرب . وحكم الأندلس منذ سنة ١٣٨ هـ إلى سنة ١٧٢ هـ . وهى مدة طويلة قضاه فى توطيد عرشه فى تلك البلاد واكتساح أعدائه .

على أن المنصور العباسى ، حاول رغم ذلك استرجاع هذا الإقليم ، لأن خروجه عن حوزته وعن سلطان العباسيين معناه قيام دول أخرى تحاول عصيان النفوذ العباسى ، واتخذ المنصور فى سبيل تحقيق ما اعتزمه مع ، شارلمان ، بقصد القضاء على عدوها المشترك : عبد الرحمن الداخل ، وتزعم هذه المؤامرة إلى جانب المنصور : سليمان بن الأعرابي صاحب برشلونة ، وابن حبيب الفهرى صهر يوسف ابن عبد الرحمن آخر أمراء الأندلس وكان عبد الرحمن قد عزله من الإمارة ،

(١) المقرئ : فتح الطيب ج ١ ص ١٥٧ .

فقام مطالباً بها وإقصاء عبد الرحمن عنها . ورتبت الخطة على أن : يذهب ابن حبيب إلى إفريقية ويجمع جيشاً من البربر يركب به البحر وينزل في الجهة الشرقية من الأندلس ، ويهاجم شارلمان في الوقت نفسه بلاد الأندلس من الجهة الشمالية الشرقية ويعاونه في ذلك سليمان بن الأعرابي ، ثم يلتقي ابن حبيب وابن الأعرابي وشارلمان ، وينادي بأبي جعفر المنصور خاكاً . ولكن ابن حبيب تمجّل ونزل شاطئ الأندلس قبل تحرك شارلمان . كما أن جيش ابن الأعرابي لم يساعد شارلمان حين عبر الحدود وحاصر بلدة سراقسطا ، ولما بلغ مسامع شارلمان أنباء ثورة السكسونيين رحل عن الأندلس ليقتضي على تلك الثورة في بلاده ، وبذلك لم تكمل الخطة بالنجاح . وعاقب عبد الرحمن الداخل كل من اشترك في تلك المؤامرة ، وثبت سلطانه في الأندلس .

ويلقب عبد الرحمن الداخل ، نقيجة أعماله الباهرة وجهوده الجبارة ، بلقب « صقر قریش » ، ويرجع سبب تلقيبه بهذا اللقب إلى أن الخليفة المنصور سأل بعض جلسائه : « من صقر قریش ؟ » فأجاب بعضهم أنه « أمير المؤمنين » يقصدون المنصور ، وأجاب البعض الآخر أنه معاوية بن أبي سفيان . ولكن المنصور قال لهم إن صقر قریش هو عبد الرحمن الداخل ابن معاوية^(١) ، ذلك الشاب الذي خرج إلى الأندلس ليجدد ملك أجداده ، بعد أن لم تسكن هناك بارقة أمل في إحيائه في أية بقعة من بقاع الأرض .

بين المنصور والفرنجية :

رغب أبو جعفر المنصور إلى Pepin ملك الفرنجة أن يعاونه على عبد الرحمن الداخل ، الذي استقل ببلاد الأندلس عن الدولة العباسية ، فأرسل أبو جعفر السفراء إلى بين وأقاموا عنده عدة سنين عادوا بعدها إلى بغداد ، دون أن تؤدي

(١) ابن عبد ربه : المقدّم القريب ج ٣ ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

مفاوضتهم إلى نتيجة ما ، سوى أنها ولدت في نفس عبد الرحمن الداخل أمير
الأندلس الخوف من هجوم الفرنجة على بلاده ، وبذلك لم يقدم على إظهار
عدائه الحربى للخليفة المنصور .

* * *

توفى المنصور سنة ١٥٨ هـ ، على مقربة من مكة وهو ذاهب إلى الحج ،
وعمره نحو ٦٣ سنة ، وترك الدولة العباسية ثابتة مستقرة وطيدة الأركان ،
بعد أن قاد ذلك العراك الهائل ضد أعداء الدولة ، ووضع أسس النظم التى سار
عليها خلفاء بنى عباس وعمل إصلاحات هائلة فى الدولة الإسلامية ، جعلت من
المنصور حاكماً مستقراً أو مصلحاً كبيراً .

٣ - المهدي بن المنصور

$$١٥٨ = ١٦٩ هـ = ٧٥٥ - ٧٨٥ م$$

حكم المهدي إحدى عشرة سنة ، لم تشهد هذه الدولة الواسعة خلالها حروباً
أو فتناً بالنسبة لما وقع من قبل ، وساعد على ذلك أنه كان مسالماً لا يميل إلى الشدة
والعنف ، وتولى الخلافة بعد أن تمهدت الأمور واستقرت أحوال الدولة .

أعماله :

اهتم المهدي اهتماماً بالغاً بالفنون وخاصة فن العمارة ، فقد أقام سور الرصافة
وبنى مسجد الرصافة ، ووسع المسجد النبوى فى المدينة المنورة وجمعه وزينه بالفسيفساء
والعمد الرائعة ، وكسا السكبة بعد أن نزع السكوة القديمة عنها ، وزاد المهدي
فى مسجد البصرة وجمعه ، وأمر بأن تكون المنابر فى جميع المساجد متوسطة
الارتفاع (كالمسجد النبوى) ، وبني محطات ومنازل على جوانب الطرق التى

يسلكها الحجاج ، وأقام أحواضا لخزن المياه ليشربوا منها ، ووضع علامات على طول طريق الحج ليهتدى بها المسافرون ، وأمر بمنع المرضى بالجذام من أن يتسولوا وأجرى عليهم الأرزاق ، وبأن يكون طعام المسجونين على حساب الدولة بعد أن كان يرسل إليهم من بيوتهم ، وهذا العمل يوضح لنا اتصاف حكومته بصفة البر بالفقراء والمحتاجين .

ومنذ عهد المهدي ، بدأت ظاهرة جديدة لم تكن موجودة من قبل في الدولة العباسية ، فقد أقبل الخليفة المهدي على سماع الغناء . ولم تكن هذه الظاهرة الجديدة في تاريخ الدولة العباسية مقصورة على الخلفاء ، بل تعدتهم إلى الأوساط الأخرى حتى اصطبغ تاريخ بغداد خاصة وتاريخ الدولة العباسية بوجه عام بمظاهر الترف والأبهة .

الحركات الدينية في عصر المهدي :

من الظواهر الخطيرة التي أقلق المهدي ، ظهور بعض الحركات الدينية التي كادت تزعزع خلافته ، من أهمها حركة المقنعية بزعامة المقنع الخراساني وحركة الزندقة .

قاد الحركة الأولى رجل مولود في خراسان موطن الفحل والتقاليد الفارسية وكان أعور دميم الخلقة ، وكان ملثما حتى لا يرى الناس وجهه فسمى المقنع ، ونادى بأن الله خلق آدم فتحول في صورته ثم في صورة نوح وهكذا حتى أبي مسلم الخراساني ثم تحول إلى هاشم ، وهاشم في دعواه هو المقنع ، أي أن الله قد حل فيه بعد أبي مسلم . وبايعه خلق كثير كانوا يسجدون له ، وكان يعتقد أن أبا مسلم أفضل من النبي عليه السلام . على أن حركة هذا الرجل لم يطل أمدها وانتهت بقتله سنة ١٦١ هـ ^(١) .

(١) الفرق بين الفرق ص ٣٤١ — ٣٤٣ . الشهرستاني : الملل والنحل ج ١

أما الحركة الثانية ، فهي الزنادقة ، وهى كلمة تطلق على الملحد . ومبادئ هؤلاء الزنادقة على جانب عظيم من الخطورة ، إذ أنهم كانوا ينادون بالإباحة المطلقة والفوضى والتحلل من جميع الروابط الاجتماعية . وعلى الرغم من أن الخلفاء تسامحوا مع كل الفرق النصرانية واليهودية وغيرها ، فإن الزنادقة لم يلقوا شيئاً من التساهل أو العطف من جانب الخلفاء ، إذ أوجد المهدي هيئة جمل اختصاصها مقصوراً على البحث عن الزنادقة والتنسكيل بهم وجعل عليها رئيساً أطلق عليه اسم صاحب الزنادقة ، وتبعتهم هذه الهيئة فقتل منهم فى عهد المهدي عدد وفير وارتكب فى سبيل ذلك كثير من أعمال العنف والظلم ، لأن هذه الهيئة كانت تعاقب على الظن ، وتعذب وتحرق كل من يتطرق الشك إليه بأنه من الزنادقة ، وكان منهم عدد كبير من رجال العلم والأدب ^(١) .

صفات :

كان المهدي من خلفاء بنى العباس الذين أحبههم الشعب ، فقد أجزل المعطاء للعلماء والشعراء وذوى الحاجة حتى قيل إنه صرف جميع ما خافه المنصور . ولقد تعلم المهدي تعليماً عربياً محضاً ، فدرس القرآن وتأثر به وعكف على دراسة الأخبار والأشعار ، فنشأ فصيحاً بليغاً ، يجيد قول الشعر ، ويحفظ كثيراً من أمثال العرب ، وجمع له المفضل الضبي أمثال العرب ومختارات من شعرهم . ومن ظهر فى أيامه من الشعراء أبو المتاهية ، وكان مولاه عمرو بن ربيع يقول الشعر ويحجده . وعرف عن المهدي الحياء والعفو والجود والحلم والكرم ، والامتناع عن شرب النبيذ . وعمل على نشر العدل ، وجلس للمظالم بنفسه ، فأنصف المظلوم ورد المظالم لأصحابها .

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠١ . الطبرى ج ١٠ ص ٤٢ .

السياسة الخارجية ١ — مع بيلرد الأندلس

لم تجرؤ دولة على مناهضة العباسيين في عهد المهدي ، سوى ما كان من عداء المهدي لعبد الرحمن ، وهي تلك السياسة التقليدية التي سارت عليها الدولة العباسية إزاء الأندلس منذ عهد الخليفة المنصور . ولكن المسألة لم تتعد ذلك الحد بين الطرفين : المهدي وعبد الرحمن ، وذلك لما رآه المهدي من قوة عبد الرحمن وما قد يتكبد به جند العباسيين من المصاعب والمشاق في سبيل الوصول إلى بلاد الأندلس ، وتوترت العلاقات بين الأندلس والخلافة العباسية في ذلك العهد .^(١)

٢ — بين العباسيين والبيزنطيين

عادت العلاقات بين العباسيين والبيزنطيين في عهد المهدي إلى أسوأ مما كانت عليه في عهد المنصور ، فإن الحروب البرية والبحرية بينهما لم تنقطع . ذلك أنه منذ سنة ١٥٩ هـ وما بعدها تواتت حملات المهدي على البيزنطيين ، فخرج قواد المهدي : العباس بن محمد ، وثمامة بن الوليد ، والحسن بن قحطبة بقصد غزو بلاد الروم ، ولكن حملاتهم باءت بالفشل ، مما شجع الروم على الإغارة على حدود الدولة العباسية في سنتي ١٦٢ و ١٦٣ هـ ، بل استولوا على مرعش وأحرقوها ، وخرج المهدي بنفسه ، بعد أن استخلف على بغداد ابنه موسى الذي تولى الخلافة بعده وأبيه وتلقب بالهادي ، كما خرج ابنه هارون [الرشيد] على رأس جيش كبير سار به إلى بلاد الروم فاستولى على حمص ، بعد أن تعهد لواليتها ألا يقتل أحداً من أهلها أو يكرههم على الرحيل عنها في نظير تعهد الروم لهارون بدفع غرامة حربية وإطلاق سراح الأسرى ، ثم عاد هارون إلى حلب التي اتخذها

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٢٢٤ — ٢٢٣ .

أبو المهدي قاعدة لأعماله الحربية ، فسر أبوه بعودته وبما أظهره من همة وإقدام في مناجزة الروم .

ولكن الروم نقضوا شروط الصلح ، فعاد هارون لقتالهم ، كما جمع المهدي جيشاً بلغ مائة ألف جندي جعل على رأسه ابنه هارون ، فوصل هذا الجيش إلى سواحل البسفور ، وأرغم للمسكة إيريني ، أرملة ليو الرابع وكانت وصية على ابنها قسطنطين السابع ، على أن تدفع للمسلمين تسعين ألف دينار جزية سنوية تقضى على دفعتين ، وأن تقيم لهم الأسواق والأدلاء في الطريق عند أوبتهم إلى بلادهم ، وأن تسلم أسرى المسلمين ، وانتهت هذه الغزوة بعقد هدنة بين الروم والعباسيين لمدة ثلاث سنوات ^(١) .

٤ — الهادي بن المهدي

١٦٩ - ٨١٧٠ = ٧٨٥ - ٧٨٦ م

اعتلى الهادي عرش الخلافة بعد أبيه . وكان الهادي قد قضى أكثر أيامه قبل اعتلاء العرش في بلاد المشرق ، واستقرت خلافته سنة واحدة . وفي عهده كانت الخلافة ضعيفة ، فقد أصبحت أموال الدولة تصرف على المقربين وعلى المتصلين بالخليفة من الشعراء وغيرهم ، كذلك بدأ نساء القصر يتدخلن في شئون الدولة مما قلل من هيئتها ، ودب الفساد في الجيش إذ كان الجند يتعصبون بعضهم على بعض ، ووصلت الحالة إلى حد يخيف حتى أنهم طالبوا بمرتباتهم عن سنوات مقبلة ، وازدادت ظاهرة التجزؤ وضوحاً في عصره باقتطاع أجزاء جديدة من أراضي الدولة العباسية وضمها إلى دول أخرى .

سياسة إزاء العلويين :

اقتطع من الدولة العباسية بعض دويلات إثر حوادث معينة ، وهذه الدويلات كانت تابعة للعباسيين ، وكانت جزءاً من دولتهم ثم استقلت عنهم ، وبذلك انتابها تيار التجزؤ .

وقد أدى قيام العلويين ضد العباسيين في عهد الهادي ، إلى فرار أحد زعمائهم إلى المغرب ^(١) ، حيث أسس دولة علوية شيعية . وتفصيل ذلك أن الحسين ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب من زعماء بني الحسن في المدينة المنورة ، ثار ومعه كثير من العلويين في أوائل خلافة الهادي سنة ١٦٩ هـ على عمر بن عبد العزيز الوالي العباسي للمعين على المدينة ، وهو من سلالة عمر بن الخطاب . وكان شديد الوطأة على العلويين تمشياً مع سياسة العباسيين إزاءهم ، إذ أسر بالقبض على من يشتبه في أمره منهم وحبسه والتضييق عليه وإهاتته بالضرب والتشهير والعاوaf به في الطرقات . وقد اعترض الحسين على الخط من كرامة أهل بيته ، فقصده مع أتباعه دار الإمارة في المدينة ، ولكن عاملها تحصن بها ، ثم كسروا السجون وأخرجوا من فيها وبويع الحسين ^(٢) .

على أن ثورة العلويين لم تؤد إلى نتيجة ما ، فقد خاف زعيمهم الحسين ورحل من المدينة إلى مكة ، حيث أثار بعض الحجاج والشيعية على الخلافة العباسية . فلما اتصل ذلك بمسامع الخليفة الهادي ، بعث إليه جيشاً هزمه في « فـخ » وهو واد في طريق مكة ، يبعد عنها بستة أميال ، حيث قتل الحسين بعد أن أبلى أحسن البلاء ^(٣) ، وقتل معه بعض أهل بيته . وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل

(١) يقصد بها شمال إفريقيا .

(٢) الفخرى ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ١٢٦ .

« لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأجح من « فسخ » ، وكثر شعر الشيعة في رثاء قتلاهم ، ومن ذلك قول أحدهم :

فلأبكين على الحسين بعولة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة^(١) الذى واروه ليس بذى كفن
تركوا بفتح غـدوة فى غير منزلة الوطن
كانوا كراماً هيجوا لا طائشين ولا جـبن
غسلوا المذلة عنهم غسل الثياب من الدرن^(٢)
هدى العباد بحدمهم فلم على الناس المين

وعلى أثر تلك الموقعة ، هاجر العلويون إلى المغرب ، وهناك أظهر إدريس ابن عبد الله صحة نسبه وقرابته من الرسول ، وأظهر حقه فى الخلافة . والتف حوله البربر ، وبايعوه فى يوم الجمعة الرابع من شهر رمضان سنة ١٧٢ هـ^(٣) .

وكانت سلطة العباسيين على تلك الجهات إسمية ، وبذا قامت هناك الدولة المعروفة باسم « دولة الأدارسة » . ومن ثم فإن موقعة « فسخ » ، على الرغم من أنها بسيطة فى حقيقة أمرها ، إلا أنها أدت إلى اقتطاع جزء من الدولة العباسية . ومهد قيام الدولة الإدريسية السبيل لظهور الفاطميين والدولة الفاطمية فى شمالى إفريقيا^(٤) .

(١) هو الحسين بن الحسن بن على ، قتل فسخ .

(٢) الدرن : القذارة .

(٣) السعوى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٧ .

(٤) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٨٦ .

اضطراب نظام ولاية العهد :

في عهد الهادي ، اتضح بجلاء اضطراب نظام الخلافة : فقد تولى المهدي بعد أبيه المنصور ولم يخلف المنصور ولي عهده عيسى بن موسى ، وبعد المهدي كان المقرر أن يلى عيسى بن موسى الخلافة ولكن المهدي حمل عيسى على أن يخلع نفسه فصارت الخلافة للهادي ، ثم أراد الهادي أن تكون الخلافة لابنه جعفر دون أخيه هارون ، ولكن الهادي مات سنة ١٧٠ هـ دون أن تتم رغبته . وهنا نلاحظ عدم وجود نظام لوراثة العرش^(١) مما أدى إلى الفوضى وعدم الاستقرار .

تدخل الفناء في شؤون الدولة :

وفي عهد الهادي بدأ نساء القصر يتدخلن في الشؤون السياسية ، وبدأت حياة القصر تتمتع ، وظهرت دسائس البلاط ، حتى قيل إن الهادي قتل بسبب دسائس بعض الجوارى . فقد كان للمهدي جارية يمنية تسمى الخيزران ، قيل إنه اشتراها بمائة ألف درهم ، أنجبت له ولديه اللذين وليا الخلافة العباسية من بعده هما : الهادي وهارون الرشيد . وكان لهذه الجارية الكلمة النافذة في بغداد تأمر وتنهى كيفما شاءت ، حتى كان الناس يتوافدون على دارها ويلجأون إليها . فلما أرادت أن تتابع نفس سياسة الأمر والنهي التي اعتادتها ، وقف منها ابنها الهادي موقفاً مغايراً لموقف أبيه منها . وذات يوم ، سألت الخيزران ابنها الهادي

(١) كان ذلك الاضطراب في نظام ولاية العهد ، من أبرز عوامل سقوط الدولة الأموية : فلم يأبه مروان لترتيب وراثة العرش من بعده الذي وضع في مؤتمر الجابية وحصرت فيه ولاية العهد في عبد الملك ثم خالد بن يزيد ومن بعدها عمرو بن سعيد وولي عهده ابنه عبد الملك ثم عبد العزيز . ولما اعتلى عبد الملك العرش بعد أبيه مروان ، جعلت وراثة العرش في ابنه : الوليد ثم سليمان ، دون أن يكثر لأحقية أخيه عبد العزيز ، لولا أن عبد العزيز توفي . وعمل الوليد على خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وتوليها ابنه عبد العزيز ، ولما ولي سليمان الخلافة بعد أخيه الوليد اتهم بمن اشتركوا في إبطاءه عن وراثة العرش .

قضاء مسألة رجل لم يجد إلى قضائها سبيلا ، فألحت في الطلب ، وازداد هو في
الرفض مبيها الأسباب التي تحمله على ذلك ، ورغم هذا انصرفت غاضبة معلنة
أنها لن تقصده في حاجة بعد اليوم . ولكنه لم يجب طلبها ولم يسترضها ، بل
نهرها^(١) . فلما سمع الناس ذلك انقطعوا عن سؤال أمه الخيزران ، وامتنعوا عن
التردد عليها^(٢) . وأثار موقف الهادي منها حفيظتها وجلب كراهيتها لابنها ،
وعز ذلك عليها إذ كان لها مكان بارز في الحياة السياسية في بغداد ، رغم أنه
قصد من إبعادها عدم دسها في تيار الحوادث كي لا يغيرها في طريقه .

ظل العداء بين الهادي وأمّه الخيزران على أشده إلى يوم وفاته ، وتردد على
صفحات التاريخ أن موت الهادي بعد مرضه كان بتدبير أمّه ، إذ دست إليه
بعض الجوارى لقتله بالجلوس على وجهه حتى مات . إلا أن عاطفة الأمومة أشد
حنواً من أن تجعل الخيزران تقترب مثل هذا الإثم ، ولكن رغم استبعادنا
لمسألة مقتل الهادي بإيماز أمّه ، فإن محاولة الهادي عزل أخيه هارون من ولاية
العهد وكان محبباً إلى أمّه ، ربما جعلت الخيزران تفكر في قتله ، كي لا تتمكن
من إقصاء أخيه عن عرش الخلافة من بعده ، وكانت بذلك ذات أثر فعال
في إقرار ولاية العهد للرشد حتى في وقت انزوائها^(٣) .

٥ — هارون الرشيد

١٧٠ — ١٩٣ هـ = ٧٨٦ — ٨٠٩ م

ولد هارون في أواخر ذى الحجة سنة ١٦٥ هـ ، وهو ابن المهدي ، وأمّه

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٧ — ٢٦١ . الطبري ج ١ ص ٣٣ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٧٣ .

(٣) علي إبراهيم حسن : نساء لمن في التاريخ الإسلامي نصيب ص ٧٩ .

الخيزران . ويعد الشخصية الثانية البارزة في العصر العباسي بعد أبي جعفر المنصور ، وفي عهده بلغت بغداد درجة لم تصل إليها من قبل ، فقد أصبحت كعبة رجال العلم والأدب ومركز التجارة ، واشتهر اسم الرشيد في الغرب ، لما كان بينه وبين شارلمان ملك الفرنجة من العلاقات السياسية وأواصر الود .

عوامل شهرة الرشيد :

يعتبر الرشيد أشهر خلفاء بني العباس قاطبة : لما اتصف به من الكرم والجود ، إذ كان يعطى الكثير من الهبات للشعراء الذين يمدحونه ، كما كان ينفق الأموال على الناس في المواسم . وعرف عن الرشيد التقوى والورع ، فإنه كان في كل سنة إما حاجباً أو غازياً ، وإذا حجّ حجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحجّ حجّ عنه ثلاثمائة بالنفقة السابفة ، وكان يحجّ ماشياً ولم يحجّ ماشياً خليفة سواه^(١) . على أن ذلك لا ينفي محبته لأموال لا تتفق وورعه : منها حب الغناء والموسيقى وشرب النبيذ . واشتهر عن الرشيد الميل إلى الأدب وتقريبه للأدباء ، وإجزاله العطاء عليهم ، حتى أصبحت بغداد في عهده مقراً لمشاهير العلماء والأدباء من أمثال أبي العتاهية والعباس بن الأحنف والأصمعي والواقدي وأبي يوسف صاحب كتاب الخراج . وعنى الرشيد كذلك برجال الفن الجميل ، وظهر في بغداد في عهده عدد منهم كإبراهيم الموصلي وإسحق الموصلي وغيرها^(٢) .

وأصبح عصر الرشيد عصرًا فارسيًا من حيث نظم الحكم ومظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وكان كل شيء فارسي محبوبًا مرغوبًا فيه : فاحتفى

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٨٨ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٧٥ .

بالأعياد الفارسية القديمة كالنيروز ، وأصبحت الملابس على النمط الفارسي ، وصار الطعام والشراب فارسياً ، وأمراء الجيش وقواده صاروا كلهم من الفرس ، وتولى الوزارة رجال من الفرس هم البرامكة .

١ - ثورات العرب : الثورات ضد حكم هارون :

كانت الدولة في عصر الرشيد عربية من جهة اللغة والدين ، أما من جهة الإدارة والحكم والقائمين بأمرها فإنها كانت فارسية ، وبذلك كانت الغلبة للفرس ، وكان اصطفاء العباسيين للفرس أمراً طبيعياً ، لأن الدولة قامت على أكتافهم ، ولكن ذلك أدى إلى إقصاء العرب عن المناصب الهامة وعن الجيش ، فحدث الجفاء بين العرب والعباسيين ، وأحس عرب الشام بالحالة التي انحدروا إليها وفكروا في الثورة وعصيان الحكم العباسي ، ومن تلك الثورات أيضاً ثورة عرب الحوف بمصر وسكان الجهة الشرقية من الدلتا ، إلا أن ثورتهم انتهت بالفشل وقضى عليها والي الرشيد في مصر بشدة ، كذلك ثار عرب الموصل في الجزيرة ومنعوا الخراج ، واستمرت فتنتهم وقتاً طويلاً ، حتى خرج إليهم الرشيد بنفسه ونسكل بهم وبمدينتهم .

٢ - فتنة الخوارج :

في عصر الرشيد ، قام الخوارج بفتنة تزعمها الخارجى المشهور الوليد بن طريف وهو من تغلب أى من عرب الجزيرة ، وتبعه عدد كبير بلغ ثلاثين ألفاً ، فإن الوليد رمى الخليفة هارون بالظلم والجور ، ولكن الرشيد أرسل إليهم قائده يزيد الشيباني ، وحين برز طريف لقتال جند يزيد ، ارتجز .

أنا الوليد بن طريف الشارى قسورة لا يصطلى بنارى

جوركم أخرجنى من دارى

واشتدت شوكة الوليد وكثر أتباعه ، وانتصر أكثر من مرة على جند
هارون وقتل والى نصيبين وأذربيجان ، وعاث فيهما فساداً ، ثم عاد إلى
الجزيرة ، وعبر نهر دجلة حتى وصل إلى حلوان ، ولكنه هزم وقتل على يد ،
يزيد ، ورثته أخته بقولها :

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى فإن مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا فدينناك من فتياننا بألوف

وقد أرادت أخته الفارعة قيادة الحرب من بعد مقتل الوليد ، ولكنها كفت
عن ذلك بعد قليل ^(١) .

٣ - خروج العلويين :

تابع العلويون ثوراتهم في عهد الرشيد كما ثاروا من قبل في عهد المنصور
والهادي ، رغم أن الرشيد أراد أن يستميلهم إليه حتى أطلق سراح كثير من
كان منهم في بغداد ، ولم يعدل العلويون عن اعتقادهم الراسخ في أحقيتهم للخلافة
فقاموا بزعامة رجلين : أحدهما يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوي صاحب الديلم
أو طبرستان الواقع جنوب بحر قزوين وأحد أقاليم فارس وهو أخو محمد
ابن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية الذي ثار زمن المنصور ، وثانيهما
إدريس أخو يحيى بن عبد الله الذي فر إلى بلاد المغرب .

كان يحيى بن عبد الله قد اتخذ إقليم طبرستان حصناً منيعاً يتحصن فيه

(١) عمدة الحضري : الدولة العباسية ص ١٤٢ — ١٤٣ .

ويجتمع إليه هناك عدد كبير من الشيعة لتدبير أمر الثورة ضد العباسيين ، ولما استفحل أمر يحيى أرسل إليه الرشيد قائده الفضل بن يحيى على رأس جيش بلغ نحو خمسين ألف جندي ، وهذا القائد لم يحارب يحيى بن عبد الله بل فاوضه في التسليم دون قتال ، فرضى بذلك إذا كتب له الرشيد يؤمنه على حياته ، فكتب الرشيد الأمان بخطه ، ولكنه ما لبث أن نقضه وحبس يحيى وظل في حبسه حتى مات^(١) .

أما إدريس بن عبد الله أخو يحيى ، فقد فر إلى مصر سنة ١٧٢ هـ ، ثم توجه إلى بلاد المغرب الأقصى ، حيث التف حوله البربر ، وقد عجز الرشيد عن إخضاعه بحد السيف ، ففكر في بلوغ غايته عن طريق المكائد والخدع ، فأرسل إليه رجلا عرف بال المكر والدهاء وأمره بأن يتقرب إليه وأن يظهر أمامه بمظهر السخط على العباسيين وعلى حكمهم ، ولما وصل هذا الرجل إلى بلاد المغرب ، تقرب من إدريس حتى صار من خواصه ، ثم دس له السم فمات سنة ١٧٧ هـ دون أن يترك ولداً يؤول إليه الأمر من بعده ، فانتظر أتباعه أمه وكانت حاملا ، فوضعت ولداً سموه إدريس وبايعوه بالخلافة . وبذلك ازداد خطر الإدارة ، فأصبح الرشيد يخاف العلويين كافة ويعمل على إستهصال شأفتهم^(٢) .

وما عمله الرشيد مع يحيى وإدريس ، سبق أن عمله الخلفاء العباسيون الذين سبقوه مع المعارضين لسياستهم ومع من حاولوا تعريض دولتهم للخطر .

(١) ابن طباطبغا الفخرى ص ١٧٦ — ١٨٧ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ١٢٦ — ١٢٧ .

٤ - ثورات في المغرب والمشرق .

نازعت قبائل البربر في إفريقية بين سنتي ١٨٧ و ١٨١ هـ سلطان العباسيين ، فأرسل إليهم الرشيد جيشاً بقيادة هرثمة بن أعين ، فهزمهم ، ولكن هذا القائد مالبث أن تخلى عن القيادة وعاد إلى المشرق . ثم قامت في هذه البلاد دولة الأغالبة على يد إبراهيم بن الأغلب ، الذي عين أميراً على هذه البلاد من قبل الخليفة العباسي ، لتأديب البربر والوقوف في وجه الأدارسة إذا ما أرادوا الإغارة على أراضي الدولة العباسية ، على أن دولة الأغالبة استقلت بعد قليل عن الخلافة العباسية في بغداد ، ولم يصبح للعباسيين سوى السيادة الإسمية على هذه الدولة ، واتخذت مدينة القيروان الواقعة في الجنوب الغربي من تونس الحالية حاضرة لها ، وظلت على ذلك إلى أن استولى الفاطميون سنة ٢٩٧ هـ على بلاد المغرب .

أما في المشرق فقد ثارت خراسان على علي بن عيسى الوالي المعين عليها من قبل الرشيد ، لسياسة الظلم ، والعسف التي اتبعها . وأرسل كبار رجال خراسان إلى الرشيد يشكون إليه من تصرفات هذا الوالي ، فخرج إليه الرشيد بجيش كثيف ، عسكر به في الري ، ولكن الوالي قابل الرشيد بهدايا ثمينة ووزع مثلها على من صحبه من رجال دولته . فعاد الرشيد إلى بغداد ، واستمر هذا الوالي في ظله وجبروته ، حتى انتهى الحال بقيام ثورة عنيفة ضده في خراسان ، هجم الأهالي خلالها على قصره واستولوا على مافيه ، ولما بلغ ذلك الرشيد ، تحقق من استبداده ، وأنبه على سياسته العقيمة وتحديه شعور الأهالي ، وقرر عزله^(١) . وأرسل إليه القائد هرثمة بن أعين ، فقبض عليه هو وأتباعه وصادر أموالهم ، وبعث بهم إلى الرشيد ، وهدأت الفتنة في خراسان واستقرت الأحوال^(٢) .

(١) راجع خطاب هارون الرشيد لعلي بن عيسى في الطبري ج ١٠ ص ١٠٢ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٥٨ .

البرامكة :

ينتمى البرامكة إلى أسرة فارسية ، دفعت النهضة العلمية إلى الأمام ، وشجعت الفنون ، وصار لها اليد الطولى في إدارة شئون الدولة العباسية ، وما لبثت أن سقطت في ظروف خاطفة غامضة . وجد هذه الأسرة هو « برمك »^(١) وكان رجلاً فارسياً عالماً بالطب والتنجيم ، قدم إلى دمشق في عهد بنى أمية سنة ٨٦ هـ ، حيث داوى مسلة ثم هشام ابنى عبد الملك بن مروان .
ويُعد خالد بن برمك ممن شاركوا في بناء الدولة العباسية ، عيَّنه السفاح وزيراً له ثم ولاء المنصور على طبرستان ثم الموصل ، وكان حسن التدبير يصرف الأمور بحكمة وروية .

وظهر من بعده يحيى بن برمك الذى تولى في زمن المهدي تربية ابنه هارون . وقويت الصلة بين هارون ويحيى حتى كان الرشيد يناديه وهو خليفة « يا أبى » ، ولما اعتزم الهادي نقل ولاية العهد عن الرشيد إلى ابنه جعفر نهام يحيى عن عمل ذلك^(٢) ، وتولى الوزارة^(٣) في عهد الرشيد . واستعان في تصريف شئون الدولة بأبنائه الأربعة : الفضل ، وجعفر ، ومحمد ، وموسى ، وإن كانت مكانة الفضل وجعفر ومقدرتهما الإدارية قد فاقت مكانة ومقدرة محمد وموسى . وحين قلد الخليفة الوزارة ليحيى البرمكى ، قال لوزيره : « قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عفى إليك فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت ، وامض الأمور على ما أمرى » . ثم دفع إليه خاتمه الخاض وسلمه خاتم الخلافة ، حتى صار بيده الحل والعقد في كل شئون الدولة ،

(١) صفة تطلق على كل من كان يلى في الزمن القديم سداثة معبد قريب من مدينة بلخ يقال له النوبهار ، والسداثة عبارة عن السكان الأول في المعبد . وهذا المعبد من المؤسسات الدينية الكبيرة التى أنشئت في الزمن السابق للإسلام ، ويظهر أنه كان يتخذ في الأصل للعبادة البوذية أى الديانة الهندية القديمة ، واسكن الفرس جعلوه بيتاً من بيوت النار للتعبد فيها حسب الديانة الزرادشتية القديمة .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٦١ .

(٣) كان يحيى وزير تفويض ، أى وزير تام السلطة يمثل للخليفة في كل شئ .

فانصرف الناس إليهم ، ونظموا القصائد الرائعة في مدحهم والتفنى بكرمهم والإشادة بمجودهم .

وفي عهد جعفر بن يحيى قبض البرامكة على أمور الحكم ، وصار بيدهم الدخل والخرج . حتى كان هارون يطلب البسيط من المال فلا يصل إليه إلا عن طريق البرامكة ، فقلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ، فعظمت آثارهم وبُعد صيتهم ، وعمرُوا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها لأنفسهم عن سواهم من وزارة وقيادة وكتابة ، وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك ، وأفاضوا على رجال الشيعة العطاء .

بذلك سيطرت الأسرة البرمكية على الدولة العباسية ، سياسياً واقتصادياً وإدارياً وأديباً ، وأصبحت مقصد العلماء والشعراء والأدباء ، وتجمعت الوفود على أبوابهم أكثر من وقوفهم على باب الخليفة ، لما عرف عنهم من الجود والكرم والحماة في النهوض بالعلوم وترقية المعارف ، وعظم ثراه البرامكة إذ كان الخليفة يقدح عليهم الأموال الوفيرة فوق ما كانوا يستحوذون عليه من مال . وزاد سلطان الأسرة البرمكية في أيام الرشيد . حتى أن صاحب الفخرى روى : « أن عبد الملك بن صالح العباسي طلب إلى جعفر البرمكي أن يخاطب الرشيد في ثلاث حوائج هي : أن يقضى عنه ديناً مقداره ألف ألف درهم ، وأن يولى ابنه إحدى الولايات ليرفع بذلك قدره ، وأن يزوج هذا الابن من ابنة الخليفة ، فقضى له جعفر هذه الحوائج الثلاث من فوره »^(١) .

(١) ابن طباطبغا : الفخرى في الآداب السلطانية ص ١٨٥ — ١٨٦

نسبة البرامكة :

اختلف المؤرخون في العوامل التي دفعت الخليفة هارون الرشيد إلى التفتيش بالبرامكة : قيل إنه غضب عليهم لأن جعفرًا البرمكي أطلق سراح يحيى بن عبد الله العلوي بعد أن كان الرشيد قد أمره بحبسه . وقيل إن استبداد البرامكة بالملك وجههم الأموال استمال الناس إليهم مما أوغر صدر الرشيد عليهم وحمله على الإيقاع بهم ، وساعد على إشعال نار العداوة والبغضاء سعاية الفضل بن الربيع وكرهية زبيدة أم الأمين للبرامكة ، أضف إلى ذلك ما اتصل به الرشيد من أن عبد الملك ابن صالح العباسي كان يدعو لنفسه وأن البرامكة يساعده ، كذلك أظهر البرامكة الدالة على الرشيد مما لم تحتمله نفسه ، كما أنهم عاشوا عيشة البذخ والإسراف وأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء مما أثار عوامل الغيرة في نفوس أعدائهم وحسادهم .

على أن أهم عامل أفاض المؤرخون في القول عن أهميته في حدوث نسبة البرامكة ، ما قيل عن وجود علاقات بين جعفر بن يحيى وبين العباسية أخت الرشيد . فإن العباسية يقترن اسمها باسم رجل من أقطاب أسرة البرامكة ، هو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي الذي كان مقرباً من نفس الرشيد ، لما عرف عنه من رجاحة العقل والحزم وحسن تصرف أمور الدولة ، وكان الرشيد لا يبت في أمر دون مشورته ، حتى لازمه جعفر في غدواته وروحاته ، ولم يستطع الرشيد أن يجتمع في مجلس من غير وجوده فيه . وكان الرشيد يعمل في نفس الوقت بمشورة أخته العباسية . فقد كانت ذات ثقافة عالية ، وذكاء نادر ، كما كانت حلوة الحديث ، لطيفة المعشر ، ولذا كانت دائماً تحضر مجلس الرشيد ، شأنها في ذلك شأن جعفر البرمكي .

وكان حرص الرشيد على أن تحضر العباسية مجالسه كما يحضرها جعفر ، داعياً إلى تفكيره في طريقة شرعية تبيح لجعفر أن يجلس في حضرة الرشيد مع

وجود العباسية . وللوصول إلى ذلك ، اجتمع الرشيد يوما بجمعر البرمكي وقال له :
ويحك يا جمعر ! ليس في الأرض طلعة آنس إلى وإليها أميل سوى رؤيتك ، وإن
للعباسية أختي منى موقعا ليس أقل من ذلك ، وقد نظرت في أمرى معكما ،
فوجدتني لا أصبر عنك ولا عنها ، ورأيتني ناقص الحظ والسرور يوم أكون
وحدى معها وكذلك يوم وجودى معك دونها ، وقد رأيت رأيا يجتمع لى به
السرور ويزداد به الأنس ، فرد عليه جمعر : وقفك الله يا أمير المؤمنين . وأخذ
الرشيد عليه عهد الله أن لا يظله وإياها سقف بيت إلا والرشيد ثالثهما ، لحلف له
جمعر على ذلك ، ورضى به ، وظلوا يجتمعون على هذه الحالة وجمعر صارف
بصره عنها ، هيبة لأمر المؤمنين ووفاء بعهده له . وتضاربت الروايات بعد ذلك
في حقيقة ما روى عن العباسية وجمعر وما ذاع عن عقد قرانهما .

على أن بعض المؤرخين الذين يعتمدون روايتهم قد نفى حدوث ذلك ، على اعتبار
أنه أمر يستبعد حدوثه كل البعد ، لما هو معروف عن نسب العباسية وحسبها
ودينها : فهي بنت الخليفة المهدي بن المنصور وهي قريبة عهد ببداوة العرب
وسداجة الدين^(١) ، إذ كيف يقبل الرشيد مع ما عرف عنه من بُعد النظر وعلو
الهمة والإباء والشمم أن يزوج أخته مولى من موالى دولته . وأين قدر العباسية ابنة
المهدي ، وحفيدة المنصور ، وأخت المهدي ، وأخت الرشيد ، وسليمة الخلفاء ،
من جمعر ! كما أن مسألة قبول الرشيد أن يجتمع أخته مع رجل في مجلس واحد
لا تصدر عنه : لأن حرص العربي على عرضه أبقي لديه من كل ما يملك من متاع
وسلطان ، وكان الرشيد قبيها يعلم المدى الذى يصل إليه في الأمور التي تتصل
بشرف الأسرة ومكانتها .

ويمكن القول أن مثل هذه الحادثة لا يمكن أن تؤدي إلى الفتك بالأسرة
كلها ومنع الشعراء من رئاستها ومصادرة أموالها . فقد كان السبب الرئيسي
في نكبة البرامكة هو نفوذهم الذى بلغوه في الدولة وتحدث عنه الشعراء والكتاب ،

(١) ابن خلدون : مقدمة ص ١٤ .

فقد كان نفوذاً غير محدود واستشاراً بالأموال إلى درجة أخافت الخليفة^(١) . ولذا أعرض عنهم الرشيد ، وقسا في معاملتهم ، وتبعهم بالتشريد والتقتيل ، ففضى عليهم بعد العز ونضرة الأيام وتشردوا بعد اجتماع الشمل وعظمة الملك . أما ما قيل عن مسألة العباسة أخت الرشيد وزواجها سرّاً من الوزير جعفر البرمكي ، فلا يوجد في التاريخ ما يؤيدها ولا تنهض مبرراً لإيقاع الرشيد بوزرائه من البرامكة^(٢) .

ويظهر أن نكبة البرامكة أصبحت منذ تجمع هذه العوامل محتملة الوقوع ، بدليل ما رواه صاحب الفخرى عن بختيشوع الطيب ، قال : « دخلت يوماً على الرشيد وهو جالس في قصر الخلد ، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر وبينه وبينهم عرض دجلة . قال فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على جانب باب يحيى بن خالد ، فقال : أجزى الله يحيى خيراً ، تصدى للأمر وأراحني من السكد ووفر أوقاني على اللذة . ثم دخلت عليه بعد أوقات وقد شرع يتغير عليهم ، فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة ، فقال : استبد يحيى بالأمور دوني ، فالخلافة على الحقيقة له وليس لي منها إلا إسمها ، فقلت إنه سينكبهم ، فنكبهم عقب ذلك »^(٣) .

ويمكن القول أن سقوط أسرة البرامكة كان نتيجة حوادث متتابعة ، دفعت الرشيد ، لا إلى الحد من نفوذ هذه الأسرة فحسب ، بل إلى القضاء عليها ومحو آثارها والقسوة في معاملة رجالها : فأمر بقتل جعفر وحبس يحيى وبقيّة أولاده . ومات يحيى والفضل في السجن ، وظل به الباقون حتى عفا عنهم الأمين . وهذه النكبة كانت ضربة موجّهة إلى الأمة الفارسية ، كما أنها تبين لنا إلى أي حد

(١) ابن خلدون مقدمة ص ١٤ .

(٢) على إبراهيم حسن : نساء لمن في التاريخ الإسلامى نصيب ص ٨٥ — ٨٦ .

(٣) ابن طباطبغا : الفخرى ص ١٩٠ .

كانت سلطة الخليفة سلطة استبدادية : وتظهر كذلك جانب الغدر والجمود في الرشيد .

المعارف الدولية في عهد الرشيد

كان للدولة العباسية في عهد الرشيد علاقات دولية منها علاقته بدولة بني أمية في الأندلس ، والدولة البيزنطية ، وبشارلمان ملك الفرنجة :

١ — علاقة العباسيين بروك بنى إمبة في الأندلس ، لم تكن علاقة عدائية ، إلا أنها في الوقت نفسه كانت خالية من المظاهر التي يصح أن تمد ودية .

٢ — وكانت هناك علاقة للدولة العباسية بالدولة البيزنطية . وقد بدأت تلك العلاقة منذ عهد الخليفة المهدي العباسي (١٥٨ — ١٦٩ هـ) فقد عزا المهدي حدود آسيا الصغرى الشرقية . ولما ولي هارون الرشيد الخلافة ، سار بنفسه في سنة ١٨١ هـ على رأس جيش كبير إلى آسيا الصغرى ، وحارب البيزنطيين ، واتصر عليهم في كثير من المعارك . وظل يتابع فتوحه حتى وصل إلى القسطنطينية ، فسارعت إيريني Irene إمبراطورة الدولة البيزنطية إلى طلب الهدنة مقابل دفعها الجزية ، ولكن الإمبراطور نفقور الذي اعتلى العرش بعدها ، نقض في سنة ١٨٧ هـ هذه الهدنة ، وطالب بالجزية التي دفعها الإمبراطورة للرشيد .

غضب الخليفة من ذلك العمل ، ورد على طلب الإمبراطور بكتاب جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نفقور كلب الروم ، قد قرأت كتابك ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه » .

سار الرشيد بجيوشه عقب ذلك مخترقا آسيا الصغرى ، وتابع فتوحه حتى استولى على هرقله ، واضطر نقفور إلى إبرام صلح تمهد فيه بدفع الجزية من جديد^(١) . على أن البيزنطيين نقضوا هذه الهدنة كما نقضوا سابقتها ، وأغاروا في السنة التالية على حدود الدولة العباسية وهزموا المسلمين جنوبى آسيا الصغرى ، منتهزين فرصة التفات الخليفة إلى القضاء على الفتن الداخلية في البلاد . ولكن الرشيد ما لبث أن استولى على المدن الكبرى في الدولة البيزنطية ، وأسر من الروم عشرة آلاف ، وأخذ جزية قدرها عشرون ألف قطعة من العملة الذهبية^(٢) . واتسع نطاق الحروب بين الرشيد والبيزنطيين حتى تعدت آسيا الصغرى إلى البحر المتوسط ، فقد غزا العباسيون جزيرة قبرص ، وأسروا ستة عشر ألف نفس ، من بينهم أسقف هذه الجزيرة نفسه^(٣) .

٣ — وقامت أيضا علاقات ودية للرشيد بشارلمان Charlemagne ملك الفرنجة ، ويظهر أن التحسن في العلاقات بين العاهلين ، كان مصدره عداوتهما اللامويين في الأندلس والبيزنطيين ، وبلغ من تحسن العلاقات بينهما أنها تبادلوا السفراء والهدايا . وتودد هارون الرشيد إلى الإمبراطور شارلمان سعيًا وراء مصلحة بلاده ، كما أن شارلمان من ناحيته خطب ود الرشيد وسعى إلى محالفته ، فأرسل إليه بعثة مؤلفة من رجلين من المسيحيين ورجل من اليهود رغبة في تسهيل سبيل الحج إلى بيت المقدس وإنماء التجارة بين البلدين والحصول على علوم المشرق . أدت هذه السفارات بين الرشيد وشارلمان إلى إرسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى إمبراطور الفرنجة ، وأصبح شارلمان بعد ذلك حامى المسيحيين الذين يجمعون إلى هذه البلاد ، وأكسب ذلك إمبراطور الفرنجة حق حماية

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٩٢ .

(٢) Muir : The Caliphate, . 488

(٣) الطبرى ج ١٠ ص ٩٩ - ٢١٣ .

الأماكن المقدسة في فلسطين ، مما أدى إلى نتائج خطيرة في المستقبل ، مع أن شارلمان لم ينظر في ذلك الوقت بعين الاعتبار إلى مسألة إرسال مفاتيح تلك الكنيسة إليه . كذلك أدت هذه السفارات إلى تبادل الهدايا بين الطرفين ، وكان من ضمن ما أرسله الرشيد إلى شارلمان وأثار الإعجاب في إمبراطورية الفرنجة ، ذلك الفيل الذي وصل إلى مدينة إكس لاشابل قاعدة إمبراطورية شارلمان ، وكان يسمى أبا العباس ، وتلك الساعة المسائية الدقاقة التي ظن أهل الإمبراطورية أنها آلة سحرية ، وقد أفاضت مصادر الإفرنج في وصف هاتين الهديتين .

تقرير الرشيد

رغم شهرة الرشيد وما نعمت به الدولة في عهده من الهدوء والاستقرار ، أخذ عليه : عدم اهتمامه بما ظهر من ميل بعض الولايات إلى الاستقلال عن الخلافة ، وعقده ولاية العهد من بعده لأولاده الثلاثة ، واتضافه بالقدر والقسوة .

في عهد الرشيد بدأت ظاهرة التجزؤ ، وهي محاولة بعض الولايات الخاضعة للدولة العباسية الاستقلال بالسلطة والنفوذ عن بغداد : إفريقية ، ويقصد بها إذ ذاك تونس وجزء من طرابلس ، استقل بهما إبراهيم بن الأغلب وأسس دولة الأغلبية وتعمد بأن يدفع إلى الرشيد سنويا أربعين ألف دينار ، وبذلك خرج المغرب شيئا فشيئا عن حكم الخلفاء العباسيين . وانتبه الخوارج في خراسان فرصة قيام بعض الولايات الخاضعة للعباسيين بالثورة والاستقلال وقاموا ضد الدولة ، ولكن قضى على تلك الفتنة على يد طاهر بن الحسين قائد علي بن عيسى ابن ماهان الوالي على خراسان . وظهرت بعد ذلك فتنة خطيرة في خراسان :

قام بها رافع بن الليث ، وعجز عن قمعها الوالى على بن عيسى والقائد هرثمة بن أعين ، واستفعل أمر الفتنة حتى خرج الرشيد بنفسه سنة ١٩٣ هـ ميمما شطر خراسان ، واستمر في سيره حتى بلدة طوس . وهذه الفتن المتعاقبة في المشرق والمغرب ، توضح أن بلاد الخلافة لم تسكن كلها خاضعة خضوعاً تاماً للخليفة . وتنحصر مسئولية الرشيد في أنه لم يقض بحزم وعزم على تلك الظاهرة الخطيرة ، ظاهرة الاستقلال في بعض الدويلات عن الخلافة .

وعهد الرشيد الفخرف من بعده تؤوروده الثلاثة ، وذلك سنة ١٨٦ هـ : فقد كان كان للرشيد أربعة أولاد ذكور : محمد الملقب بالأمين ، وعبد الله الملقب بالمأمون ، والقاسم الملقب بالمؤتمن ، ثم المعتصم . وعهد الرشيد إلى الثلاثة الأول بولاية العهد من بعده ، الواحد بعد الآخر : أولاً الأمين ، وثانياً المأمون ، وثالثاً المؤتمن إذا قبل المأمون أن يوليه من بعده . وهذا الترتيب في ولاية العهد تصرف غير طبيعي ، لأن ترتيب الرشيد الخلافة لأولاده من بعده على هذا النظام لا يكفي لإقراره والسير بمقتضاه تنظيم الخليفة له ، بل لابد لنفاذه من رضا الإخوة وموافقة الأمة . وخرج الرشيد سنة ١٨٦ هـ حاجاً ومعه أولاده إلى مكة ، وهناك أعلن البيعة لأبنائه على الحجاج في ثلاث وثلاثين رسمية^(١) ، هي عهد مأخوذ على الأمة كلها بأن تكون عند ما اشترط الرشيد لأولاده . ولم يكتف بذلك ، بل قسم الدولة إلى ثلاثة أقسام ، القسم الشرق وهو خراسان يعهد به إلى المأمون ويعتبر والياً لأخيه الأمين ، ويعهد بإقليم الجزيرة والعواصم إلى المؤتمن ، وتصبح ساطة الأمين مطلقة على مايلي ذلك من الأقاليم كالعراق والشام وغيرها . ولما حصل ذلك التقسيم وأعلن على الناس توقعوا من وراء ذلك شراً ، ورأوا أن

(١) تجد نصوص هذه البيعة في الطبرى ج ٩ ص ٧٦ — ٧٧ .

الخليفة لم يكن بعيد النظر في إجراء هذا الترتيب .

وتجلت في الرشيد صفة القدر التي دفعت به إلى الفتك بالبرامكة ، وصفة القسوة حتى أنه قتل أخا رافع بن الليث الذي قام بالفتنة في خراسان قتلة شنيعة بأن أمر بتهجيز جسمه أجزاء وهو حي .

* * *

على أن تلك الصفات التي اتصف بها الرشيد وكان لها أثرها على بعض أعماله ، لا تمنع من وصفه بأنه كان حاكماً شيطانياً شجاعاً إذا أحس بالخطر كما يتجلى في نكبة البرامكة وقضائه على البيزنطيين ، وأنه كان حاكماً محباً للآداب والفنون ، أجزل المطامع للعلماء والشعراء مما أطلق أسننتهم بمدحه والثناء عليه والتقى بجميل خصاله وجليل أعماله . وكان حبه للفزوة ونجاحه ضد البيزنطيين وجوده وكرمه وإقباله على العلم وتشجيعه العلماء مصدر ذبوع شهرته .

وتوفي الرشيد في طوس بعد مرض انتابه ثلاثة أيام ، أثناء خروجه إلى خراسان لقتال رافع بن الليث ، وذلك في جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ ، ودفن بها ولم تنقل جثته إلى بغداد .

٦ - الأمين

١٩٣ - ١٩٨ هـ = ٨٠٨ - ٨١٣ م

ولى الأمين الخلافة بعد أبيه الرشيد ، ولم يعمر في الخلافة طويلاً ، لأن الرشيد كان قد عزم على تولية المأمون من بعده ، باعتباره أكبر أولاده سناً ، إلا أنه عاد فعدل عن ذلك وبايع ابنه الأمين ، بسبب تدخل أمه زبيدة في (م - ٢٥ تاريخ الإسلام العام)

الأمر^(١)، ولما آلت الخلافة إلى الأمين، عول على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد. وشجعه على ذلك وزيره الفضل بن الربيع وحنه على تولية ابنه موسى العهد من بعدهم، فولاه وسماه «الناطق بالحق». ومن ذلك الحين بدأت الفتنة بين الأمين والمأمون، وسببها في الواقع نكث الأمين العهد والميثاق الذي أخذه على نفسه في حياة أبيه، مما أغضب الخراسانيين وغيرهم من أهالي الأمصار الإسلامية، وتطورت الفتنة حتى أصبحت نزاعاً بين الفرس أنصار المأمون والعرب أنصار الأمين.

الفتنة بين أنصار الأمين والمأمون :

ظل الأمين خليفة بالاسم دون الفعل مدة خمس سنوات، لأن سلطته لم تكن تامة على جميع أقاليم الدولة الإسلامية. ووقع منذ اعتلائه العرش، الخلاف بينه وبين أخيه المأمون، ووجدت الدولة نفسها أمام فتنة داخلية، صدأعت وحدة الخلافة، وكشفت عن دور من أدوار النزاع بين العرب والفرس. وفيما سبق هذه الفتنة وما لحقها، بذلت جهود جبارة من ناحية العنصر الفارسي في سبيل استرداد نفوذ الفرس، الذي كاد أن يتلاشى وينمحي، وكافح العنصر العربي في الوقت نفسه في سبيل الاحتفاظ بالمسكانة التي كانت له وعدم إتاحة الفرصة لعودة النفوذ والسلطان للفرس.

كان الأمين شاباً مولماً بالصيد والموسيقى والشراب، ووقف إلى جانبه في نزاعه مع الفرس وزيره الفضل بن الربيع^(٢) وأشهر قواده على بن عيسى ابن ماهان وعبد الرحمن بن جبلة، ولم يكن هؤلاء ذكر في التاريخ. أما المأمون

(١) الطبري ج ١٠ ص ٥٣.

(٢) كان الفضل ممن دبر لدى الرشيد نكبة البرامكة.

فقد شغف بالعلم وتعمق في الفلسفة ، واعتبر في عداد أساطين علماء العصر أكثر من وضعه في صفوف الدهاة السياسيين . ووقف إلى جانبه وزيره الفضل بن سهل السرخسي ^(١) ، وأطلق عليه لقب ذي الرأيتين ^(٢) ؛ وعرف بالدهاء والكفاية فيما يتولاه من الأعمال . ومن قواد المأمون هرثمة بن أعين وطاهر بن الحسين ^(٣) وهما فارسيا الأصل .

بدأ النزاع بين الأخوين ، حين حاول الأمين خلع المأمون عن الخلافة ، فقد أمر بأن يدعى لموسى بن الأمين كي يلي الخلافة قبل المأمون والمؤمن . ولما بلغ ذلك المأمون قطع صلته بأخيه ، فبعث الأمين رسلا تطلب إلى المأمون الرجوع إلى بغداد وأن يقدم موسى بن الأمين على نفسه في الخلافة ، ولكن المأمون رفض العودة إلى بغداد أو تقديم موسى على نفسه . فبايع الأمين لولده موسى في صفر سنة ١٩٥ هـ ولقبه « الناطق بالحق » ، ونهى عن ذكر المأمون والمؤمن على المنابر ، وأحضر الوثائق الرسمية التي كتبها الرشيد وأودعها الكعبة بترتيب ولاية العهد من بعده ومزقها .

ولما تخرجت الأمور بين الأمين والمأمون على هذا النحو ، عهد المأمون إلى قائديه : هرثمة بن أعين وطاهر بن الحسين ، بالدفاع عن خراسان ، وتدفع جموع الخراسانيين للعمل تحت إمرتهما ، وعهد الأمين إلى قائده علي بن عيسى ^(٤) في غزو خراسان . ودارت الحرب بين علي بن عيسى قائد الأمين وطاهر بن

(١) نسبة إلى بلدة سرخس ، وهي مدينة قديمة من نواحي خراسان بين نيسابور ومرو سميت باسم رجل من الدهار في زمن كيكاوس ، سكن هذا الموضع وعمره ثم تم عمارته ذو القرنين الإسكندر ، وقالت الفرس إن كيكاوس أقطع سرخس أرضا فبنى بها مدينة سماها باسمه وهي سرخس . ياقوت : معجم البلدان .

(٢) رئاسة القلم ورئاسة السيف .

(٣) لقب طاهر باسم « ذي اليمينتين » : لأنه كان يعمل بكلا يديه .

(٤) كان علي بن عيسى مبعضا لدى أهل خراسان ، منذ كان واليا عليهم .

الحسين قائد المأمون ، فانتصر جيش المأمون في واقعة الرى وهزم جيش الأمين وقتل على بن عيسى ، وبعث طاهر إلى المأمون كتاباً قال فيه : « كتابي إلى أمير المؤمنين ، ورأس على بن عيسى بين يدي وخاتمه في أصبعي ، وجنده مصرفون تحت أمري والسلام » . وهزمت جيوش الأمين التي كان قد وجهها إلى خراسان وأخذت البيعة للمأمون في ذلك الإقليم ، واستولى طاهر على الأقاليم الخاضعة للأمين إقليماً بعد إقليم : فاستولى على إقليم الجبال جنوب بحر قزوين ، ثم سار إلى الأهواز فواسط والمدائن : حتى أصبح على مقربة من بغداد ، وأقهرت الخطبة للمأمون على منابر الحجاز في مكة والمدينة . وعقب ذلك بدأت استعدادات المأمون لحصار بغداد .

حصار بغداد :

حاصر هارثمة بن أعين الجانب الشرقي من بغداد وطاهر بن الحسين الجانب الغربي منها ، وظل الحصار على الجانبين إثني عشر شهراً ، مما ألحق ببغداد أذى يحل عن الوصف ، ودافع العامة عن الأمين ، وارتكبوا أثناء هذا الدفاع كثيراً من أعمال النهب والسلب ، واستخدمت المجانيق وآلات الحصار المختلفة ، حتى هدمت أسوار بغداد ، وخربت المباني واستعرت النيران في كل مكان ، وعزت الأقوات وانتشرت المجاعات . وسرعان ما نفدت أموال الأمين ، واضطر لبيع كل مافي خزائنه من الأمتعة وضرب مافي قصوره من آنية الذهب دنانير ودراهم لينفق منها على الجند ، ثم استولى طاهر بن الحسين على بعض أحياء مدينة بغداد وعلى أسواق السكرخ وقصر الخلا^(١) .

ورغم ذلك لم يقدر الأمين الظروف السيئة التي أحاطت به وبدولته ، فقد استمر في عبثه ولهو ، واعتمد على قواده ، في الوقت الذي صمم فيه طاهر قائد

للمأمون على فتح بغداد ، وأمر جنده بحسن معاملة الأهليين ، مما كان له أثر يذكّر في تحول كثير من رعايا الأمين إلى جانب قائد المأمون^(١) . واشتد البلاء بأهل بغداد وساءت حالهم ، حتى خرج منهم كل من استطاع الخروج وأصبحت قاعدة العباسيين في حالة يرثى لها ، إذ قوّضت الفتنة كثيراً من معالمها بعد أن كانت كعبة العلوم والآداب ومركز التجارة وحاضرة الإسلام . ويقول الشاعر :

بكيت دما على بغداد لما فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدلنا هموما من مرور ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتها من الحساد عين فأفت أهلها بالمنجنيق
فلا ولد يقيم على أبيه وقد هرب الصديق بلا صديق^(٢)

وبذلك غدا مركز الأمين حرجا ، حتى فكر في الهرب إلى الجزيرة والشام ، ولكن قواده اختلفوا فيما بينهم في النتائج التي تترتب على تنفيذ الأمين لما اعتزمه ، ودخل عليه بعض من يثق في صدق مشورتهم وقالوا له : لقد بلغنا الذي عزمنا عليه ، فمحن نذكرك الله في نفسك ، إن هؤلاء صعاليك ، وقد بلغ الأمر إلى ما ترى من الحصار ، وضاق عليهم المذهب ، وهم يرون ألا أمان لهم عند أخيك وعند طاهر وهرثمة ، لما قد انتشر عنهم من مباشرة الحرب والجذ فيها ، ولسنا نأمن إذا برزوا بك وحصلت في أيديهم ، أن يأخذوك أسيراً ، ويأخذوا رأسك فيقتربوا بك ويحملوك سبب أمانهم^(٣) .

وأخيراً نصحه خلاصاؤه أن يستسلم لأخيه المأمون وينزل له عن الخلافة ، فقبل

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ١٥٦ .

(٢) الطبري ج ١٠ ص ١٨٢ — ١٨٣ .

(٣) الطبري ج ١٠ ص ١٩٢ .

أن يسلم الأمين طاهر : الخاتم والقضيب والبردة وهي مخلفات الرسول عليه السلام واعتبرت في الدولة العباسية شارات الخلافة على أن يبعث بها للمأمون ، ويسلم الأمين نفسه إلى هرثمة . ولكن طاهراً خشي ألا يكون الأمين جاداً في تنفيذ ما اعتزمه ، فقرر الاستيلاء على بغداد . لذلك فإنه حين نزل الأمين في زورق مع هرثمة ، هاجمه أصحاب طاهر وحاولوا إغراقه ولكنه عبر النهر سباحة إلى الجانب الشرقى ، حيث قتل ، وأرسلت رأسه إلى المأمون ^(١) الذي حزن لقتل أخيه ، ولم يكن يرغب في تطور الحوادث إلى هذا الحد ، وبعث طاهر بن الحسين إلى الأمصار الإسلامية بكتاب قال فيه :

« أما بعد ، فإن الخلع كان قسم أمير المؤمنين في النسب والاحقة ، وقد فرق الله بينه وبينه في الولاية والحرمة ، بمفارقته عصم الدين ، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين . يقول الله عز وجل حين اقتص علينا نبأ ابن نوح (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) فلا طاعة لأحد في معصية الله ، ولا قطيعة إذا كانت القطيعة في جنب الله . وكتابي إلى أمير المؤمنين وقد قتل الخلع ورداء رداء نكسة وأحصد لأمر المؤمنين أمره ، وأنجز له وعده ، وما ينتظر من صادق وعده حين رده الألفة بعد فرقتها ، وجمع الأمة بعد شتاتها ، وأحيا به أعلام الإسلام بعد دروسها » ^(١) .

تقرير الأمين :

انتهت بمقتل الأمين الفتنة بين العرب والعجم . وكان كل من الرشيد والأمين ، مسؤولاً عن تلك النكبة التي حلت بالخلافة العباسية ، وعن ظهور هذه الفتنة الجاحدة التي قضت على الأمين . فالرشيد أعطى الأمين الخلافة وهو أصغر سنًا من أخيه المأمون ، وعهد

إلى المأمون بولاية خراسان فاستطاع أن يستقل بها وينأوى فيها الأمين ويتغلب عليه ، كما أن الرشيد جعل ولاية العهد في أبنائه الثلاثة مما أدى إلى قيام النزاع بينهم .

وأخطأ الأمين بتولية علي بن عيسى الحرب في خراسان ضد المأمون مع ما عرف عن هذا القائد من القسوة التي نفرت منه أهالي هذا الإقليم ، كما انصرف الأمين عن أمور الخلافة إلى اللهو والغناء وعيشة البذخ والترف مما أدى إلى سحق الناس ، ويؤخذ على سياسة الأمين رغبته في حرمان أخيه المأمون من الخلافة ونسكته العهد الذي تركه أبوه الرشيد . وقد سبقه إلى ذلك المنصور حين حرم ولي عهده عيسى بن موسى من الخلافة بعده وجعلها في ابنه المهدي ، وفعل ذلك المهدي وجعل الخلافة للمهادي ، وجعل الهادي الخلافة لابنه جعفر يقصد حرمان هارون الرشيد .

وبمقتل الأمين ، انطلقت أسنة الشعراء بذكره ، وكانت الطريقة التي قتل بها هي سبب زناؤه ، إذ لم يكن شخصه إذ ذاك محل عطف أو موضع تقدير .

زبيدة أم المؤمنين :

حزنت السيدة زبيدة زوجة الرشيد على ابنها الأمين ^(١) ، وكان لها أكبر الأثر في توليته الخلافة قبل أخيه الأكبر المأمون ، وبعثت إلى الخليفة المأمون بقصيدة ترقى فيها ابنها ، دلت بها تضلعها في الأدب والشعر والسياسة وكشفت فيها عن هلمها على انتهاء حياة ابنها الأمين على هذا النحو ^(٢) . وهاك بعض أبيات منها : -

(١) انتاب السيدة زبيدة العزل ، نتيجة هذا الحزن البالغ ، وقد أكرمها المأمون بمعد وفاء الأمين وأسكنها قصر الخلافة محاطة بمظاهر الفخامة والأبهة ، حتى توفيت في بغداد في جمادى الأولى سنة ٢١٦ هـ .

(٢) علي إبراهيم حسن : نساء لمن في التاريخ الإسلامي نصيب ص ٨٤ .

خلير إمام قام من غير عنصر وأفضل راق فوق أعواد منبر
ووارث علم الأولين ونحرم ولذلك المأمون من أم جعفر
كتبت وعيني تستهل دموعها إليك ابن عمي مع جفوني وبحجري
أصبت بأذى الناس منك قرابة ومن زال عن كبدي فقل تصبري
أني طاهر لا طهر الله طاهرا وما طاهر في فعله بمطهر
فأبرزني مكشوفة الوجه حاسرا وأنهب أموالى وأضرب أدورى
يعز على هارون ما قد لقيته وما نالنى من ناقص الحق أعور
فإن ما أسدى لأمر أمرته صبرت لأمر من قدير مقدر^(١)

٧ - المأمون

١٩٧ - ٨٢١٨ = ٨١٣ - ٨٣٣ م

عصر المأمون من العصور الإسلامية الزاهرة، ولم يكن المأمون شخصية سياسية بقدر ما هو شخصية أدبية : فقد شجع النهضة العلمية وحرية الفكر ، ودفع حركة النقل والترجمة إلى الأمام ، ولكنه كسياسى أصبح تحت سيطرة الفرس الذين نصره في نزاعه مع أخيه الأمين ، كما أن المأمون بعد وصوله إلى الخلافة لم ينتقل إلى أقاليم الدولة العباسية الغربية في الشام والعراق بل ظل في مرو عاصمة خراسان ، ملتقياً إلى المسائل الفلسفية والعلمية دون الأمور السياسية والإدارية التي عهد بها إلى وزيره الفضل بن سهل ذى الرياستين ، وهذا أناب عنه في العراق والشام أخاه الحسن بن سهل ، وهذان أدارا شئون الدولة حسب

(١) السعوى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣١٦ .

تزعمتها الفارسية ، مما شجع العلويين على الظهور مرة ثانية والمفاداة بأحقيتهم في الخلافة . كما أن المأمون حاول نقل الخلافة إلى العلويين ، فدل في هذه المسألة على أنه سياسى قصير النظر ، ولم يقدر العواقب الخطيرة التي تترتب على تنفيذ ما اعتزمه ، ولكنه عاد فمدل عن رأيه في إقامة خلافة علوية تقوم مقام الخلافة العباسية ، مما أدى إلى استمرار النزاع بين العلويين والعباسيين ، ووقوع الدولة العباسية بين برائن العرب الساخطين على الدولة والعلويين الذين كانوا ينتهزون كل فرصة لإثارة الفتن كي يصلوا إلى الخلافة . كذلك كانت حروب المأمون مع الدولة البيزنطية لا تخرج عن كونها غارات لم تؤد إلى نتيجة حاسمة . ولا تعرف للمأمون إصلاحات مبتكرة .

سياسة إزاء العلويين :

ظهرت في العراق في سنة ١٩٩ هـ فتنة ضد العباسيين ، قام بها العلويون ، بقيادة القائد العربي أبي السرايا السري بن منصور الشيباني ، كي يصلوا إلى الخلافة ، وسيرت العراق الجيوش لمساعدته ، وتمسكت هي وجيش أبي السرايا من هزيمة جيش العباسيين ، حتى تمكن أبو السرايا من تولية الولاية من قبله على مكة والمدينة وسائر بلاد العرب ثم احتل الكوفة وسير جيوشه إلى البصرة وواسط وأقام في العراق حكومة علوية . إلا أن الحسن بن سهل أمير العراق استقدم من خراسان هرثمة بن أعين أكبر قواد الدولة في ذلك الوقت ، فقاتل أبا السرايا وهزمه هزيمة ساحقة ، وانتهى الأمر بفراره وقتله سنة ٢٠٠ هـ . وقضى بذلك على العلويين ، وعاد النفوذ والسلطان للعباسيين .

ولكن العلويين لم يفقدوا الأمل في إقامة خلافة علوية ، فإن نفوذ الفضل ابن سهل كان قد وصل إلى القروة عند المأمون وهو فارسي شيعي عمل على تحقيق ما نصبوا إليه الشيعة منذ نشأتها ، وهو تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين .

ومن الغريب أن المأمون هو الذي أتم هذا التحول ، بأن أمر في سنة ٢٠٠ هـ بأن
يخصى بنو العباس جميعاً كي يقبض أجدرهم بالخلافة من بعده ، فيسند إليه ولاية
العهدة ، فلم يجد هذا الشخص ، فأعلن في سنة ٢٠١ هـ أنه تمثل في العلويين في
شخص علي الرضا ، الإمام الثامن من أئمة الشيعة الإثني عشرية ، ابن موسى
الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسن بن علي
ابن أبي طالب .

كان علي الرضا واسع العلم والمعرفة ، صحيح الفكر ، متزن العقل . قيل
لأبي نواس : هلام تركت مدح ابن موسى والحصال التي تجمعن فيه ؟ فقال :
لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادماً لأبيه ، والله ما تركت ذلك إلا إعظاماً
له ، وليس قدر مثلي أن يقول في مثله :

قيل لي أنت أحسن الناس طرا في فنون من الكلام النبويه
لك من جيد القريض مديح يشر الدر في يدي مجتنيه
فعلا ما تركت مدح ابن موسى والحصال التي تجمعن فيه
قلت لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادماً لأبيه
ثم أنشد :

مطهرون نقيات جيوبهم يجرى عليهم ثناء أينما ذكروا
من لم يكن علوا حين تنبه فما له في قديم الدهر مفتخر
الله لما برا خلقا فأنقذه صفاكم واصطفاكم أيها البشر
فأنتم الملاء الأهل وعندكم أعلم الكتاب وما جاءت به السور^(١)

وقصد المأمون من إسناده ولاية العهد لعلي الرضا ، إنصاف العلويين بما حاق

هم من ظلم واضطهاد منذ مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب ، وقيل إن الخليفة « هم » يخلع نفسه ، وبأن يفوض الأمر إليه . . . وضرب الدرهم باسمه ، وخطب له مع الخليفة على المنابر ، وزوجه ابنته « . ولما نبه الحسن بن سهل إلى سوء العاقبة في حالة تولية علي رضا ولاية العهد ، قال للمأمون : « عاهدت الله إن ظفرت بالخلوع ، أخرجت من الخلافة إلى أفضل آل أبي طالب ، وما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل على وجه الأرض » . وفي جمع حاشد من أعيان الدولة وأمرائها أعلن المأمون بيعة الرضا وتلقب « الرضا من آل محمد » .

وقد صدق حدس الحسن بن سهل ، فإن المأمون ما لبث أن توجس خيفة من تولية علي الرضا عهده ، حتى « أن الخليفة المأمون وجد في يوم عيد انحراف مزاج أحدث عنده ثقلاً عن الخروج إلى الصلاة بالناس ، فانتدب أبا الحسن علياً الرضا للصلاة بالناس ، فخرج وعليه قميص أبيض ، وعمامة بيضاء وهي من قطن وفي يده قضيب . فأقبل ماشياً يؤم المصلين وهو يقول : السلام على أبوي آدم ونوح ، السلام على أبوي إسماعيل وإبراهيم ، السلام على أبوي محمد وعلي ، السلام على عباد الله الصالحين . فلما رآه الناس هرعوا إليه واثالوا عليه لتقبيل يده . فأسرع ببعض الحاشية إلى الخليفة المأمون وقال : يا أمير المؤمنين تدارك الناس وأخرج وصل بهم ، وإلا خرجت الخلافة منك الآن ، فحمله هذا الأمر على الخروج بنفسه ، وجاء مسرعاً والرضا لم يخلص إلى المصلين ، لكثرة ازدحام الناس عليه ، فتقدم المأمون وصلى بالناس » .

ولكن المأمون عدل نهائياً عن فكرة تحويل الخلافة إلى العلويين ، بعد أن ثار عليه أهل بغداد وبايعوا إبراهيم ابن الخليفة المهدي بولاية العهد ، وما لبث المأمون أن صمم على الرحيل إلى بغداد .

وقبل رحيل المأمون إلى بغداد ، قضى على قائده هرثمة بن أعين . وتفصيل

ذلك أن هرثمة رأى أن يطلع المأمون على حقيقة أحوال البلاد واستعداد الفضل وأخيه الحسن بن سهل ، ولذا رأى الحسن أن يوغر صدر المأمون على هرثمة ، بالقول بأنه يتشيع للعلاويين ، وأنه لهذا لم يقض على كل أتباع أبي السرايا زعيم العلويين في ثورتهم ضد الخلافة العباسية رغم تمكنه من ذلك ، واستمع الخليفة لهذه الوشايات فأمر بحبسه ثم قتل . وبذلك يكون المأمون قد فتك برجل خدم الدولة العباسية أجل الخدمات ، كما ظل نفوذ الفضل بن سهل وأخيه الحسن على ما كان عليه . وزاد الحالة شدة ، أن البلاد كانت إذ ذاك تغلى كالمرجل نقيجة محاولة المأمون نقل الخلافة العباسية للعلاويين ، وجاء مقتل هرثمة على هذا النحو ، دافعا لتحفز أتباعه ، وأصبحت بغداد مسرحا للفوضى مرة أخرى ، وانتهز العامة تلك الفرصة وقاموا بنهب الأموال والفتك بالسكان .

المأمون في بغداد

سار المأمون في سنة ٢٠٢ هـ من مرو حاضرة خراسان قاصدا العراق ، ولو أن المأمون انتقل إلى بغداد بعد اعتقاله العرش ، لتفادى ماجره بقاؤه في خراسان من نكبات حلت بالخلافة . وقبل رحيله عين غسان واليا على خراسان . اعترز المأمون القضاء على من أقلقوا خلافته بالتخلص من الفضل بن سهل وعلى الرضا : أما الفضل فقد قتل في الحمام في مدينة سرخس على يد أربعة رجال . وتوفي على الرضا في مدينة طوس سنة ٢٠٣ هـ وصلى المأمون عليه ، وأثارت وفاته هواجس الناس ، وقليل إنها لم تكن طبيعية لأنها جاءت في وقت كان فيه العباسيون ثائرين في العراق على المأمون لمحاولة نقل الخلافة إلى العلويين ، وردد الناس القول بأن المأمون قد دس له السم عند تناوله بعض العنب ، وكتب المأمون إلى الحسن بن سهل وإلى العباسيين في العراق يعلمهم وفاة الرضا ويدعوهم للرجوع إلى طاعته .

وزاد من طمأنينة المأمون عند ما اقترب من بغداد ، اختفاء إبراهيم ابن الخليفة المهدي ، لأن أهل بغداد كانوا قد بايعوه بالخلافة بدلا من المأمون عند ما حول ولاية العهد إلى علي الرضا العلوي ، وظل إبراهيم مختفيا ثمانى سنوات ثم شفع فيه لدى المأمون وعاد إلى الظهور . وكذلك اختفت شخصية من الشخصيات التي أوقدت نيران الفتن ضد المأمون ، وهى شخصية الفضل بن الربيع ، وظل مختفيا مدة ثم صفع عنه المأمون ، ولكنه لم يظهر له الرضاء عنه ولم يعمر طويلا ثم مات .

وهكذا خدم الحظ الخليفة المأمون ، لأنه قبيل دخوله بغداد ، كان الفضل ابن سهل وعلى الرضا قد توفيا ، واختفى أيضا إبراهيم بن المهدي والفضل ابن الربيع . وكلهم من الشخصيات التي سببت الثورة والفتنة في العراق وأقلقت خلافة المأمون .

دخل المأمون بغداد سنة ٢٠٤ هـ ، وبمجرد وصوله إليها عمل على إرجاع الحال إلى ما كان عليه : فبدأ بإقرار الخلافة للعباسيين ومنعها عن العلويين ، وزاد على ذلك أن أمر بلبس الملابس السوداء شعار العباسيين . وتقدم المأمون إلى الأمام خطوة أخرى ، ظنها تؤدي إلى إعادة سلطانه على الدولة ، إذ أمر سنة ٢٠٥ هـ بتولية طاهر بن الحسين على خراسان . وكان الفضل بن سهل قد استبد بأهالي هذا الإقليم ، وأضعف شأن المأمون حتى أصبح إشراف الخليفة على هذا الإقليم إسمياً ، وثار الأهالي على خلافة المأمون وإمارة الفضل . ولكن خاب ظن الخليفة في الوالى الجديد ، فإنه فعل ما لم يفعله الفضل في عنفوان سطوته ، إذ أنه لم يحمل نفوذ الخليفة إسمياً فحسب كما كانت الحال أيام ولاية الفضل ، بل إنه عمد إلى حذف اسم المأمون من على المنابر في خراسان . وتفصيل ذلك أن كلثوم بن ثابت صاحب البريد العباسي^(١) في خراسان ، لاحظ أنه حين حضرت صلاة الجمعة ، صعد المنبر

(١) مهمة صاحب البريد : التجسس على كبار الموظفين ولإنهاء أحوالهم إلى الخليفة .

وقطع اسم الخليفة المأمون^(١) ، فأبلغ كلثوم ما حدث للخليفة ، ولكن طاهراً
توفي سنة ١٦٧ هـ بالحمى ، قبل أن يصل أمر الخليفة بتدبير قتله ، ومن ذلك
يتضح أهمية صاحب البريد في إقليمه ، وولى على خراسان من بعده طلحة بن طاهر
ابن الحسين .

وبذلك تأسست في خراسان دولة وراثية ، عرفت باسم « الدولة الطاهرية » ،
وابتدأت عملية تجزئ الدولة العباسية في الظهور في المشرق ، كما ظهرت من قبل
في المغرب ، وتسبب عن ذلك استحالة الدولة العباسية إلى دويلات عديدة
لا تتبع بغداد إلا في الاسم ، إذ أن كلا من أمراء هذه الدويلات تشبه بالخلفاء ،
وتقلص بذلك نفوذ الخليفة العباسي على الولايات التابعة للدولة وضعفت السلطنة
المركزية .

نورات العرب ضد المأمون :

كثيراً ماثار العرب ضد العباسيين لإهدارهم حرقهم وإبشار الفرس عليهم ،
وقد ثاروا في عهد المأمون بزعماء نصر بن شبث العقيلي ، من زعماء العرب ، من
بنى عقيل الذين أقاموا شمال حلب ، وكان للخليفة الأمين العربي الأيوبي بيعة في
عنقه . لذلك غضب أشد الغضب حين علم بمقتل الأمين ، وقام بفتنة جاححة ضد
المأمون الفارسي الأم ، واستفحل أمره واشتد خطره وكثر أتباعه من العرب ومن
العلويين الساخطين على العباسيين ، وتغلب على ما جاوره من البلدان ، ثم حاصر
مدينة حران شمال الشام . ولكن حين رغب إليه بغض العلويين أن يفضم إليهم ،
رفض ذلك بشدة ، وقال : إن هواي مع بني العباس ، وإنما حاربهم محاربة عن
العرب .

(١) عدم ذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة معناه : استقلال الوالي بإقليمه وخروجه على
الخليفة .

بذلك يمكن القول إن حركة نصر كانت ثورة من العرب ضد العجم ،
وليس خروجاً على الحكومة العباسية . على أن هذه الثورة انتهت بالفشل
فإن عبد الله بن طاهر القتي ولأه المأمون بعد رحيله سنة ٢٠٤ هـ إلى بغداد على
الجزيرة والشام ومصر ، قاتل زعيم حركة العرب نصر بن شبيب وهزمه وقبض
عليه وأرسله إلى المأمون . وكان عبد الله من طراز أبيه طاهر بن الحسين في
المقدرة السياسية والمهارة الحربية ، فقد استمع لنصائح أبيه التي ضمنها كتابه
إليه ، الذي أوضح فيه آداب السياسة وأساليب الإدارة .

والتفت عبد الله بن طاهر إلى فتن العرب في مصر ، وكان أخطر ما واجهه
من مشاكلهم ، مسألة مهاجري الأندلس الذين كانوا قد ثاروا في وجه الحكم
ابن هشام الخليفة الأموي في الأندلس ، فأمر بنفيهم من الأندلس فخرجوا منها
آلافاً إلى فاس بالمغرب الأقصى ، ثم يمموا بعد ذلك شطر مصر وهاجموا
الأسكندرية ودخلوها ، فتصدى لهم عبد الله بن طاهر وإلى مصر ليحملهم على
الخروج ، فطلبوا إليه أن يمدم بالمال والسلاح ويرحلوا إلى جزيرة كريت فأجابهم
الوالي إلى طلبهم ، وساروا من الأسكندرية إلى تلك الجزيرة وغلبوها على أمرها
وكان ذلك سنة ٢١٠ هـ . وبعد هذا التاريخ بدء دخول العرب والإسلام في كريت .

ولكن الفتن عادت إلى مصر بعد رحيل عبد الله بن طاهر عنها عقب تعيينه
والياً على خراسان ، فتقدم المعتصم بنفسه إلى مصر لإخماد ثوراتها ومعه أربعة
آلاف جندي ، ففضى على الفتنة وقتل زعماءها ، وعاد إلى الشام ، ولكن الفتنة
لم يقض عليها نهائياً بخروج المعتصم ، بل عم السخط البلاد وبلغ من خطورة
الحالة في مصر ، أن حضر المأمون إليها بنفسه سنة ٢١٧ هـ . ولبت في مصر
أكثر من شهر ، وعاد إلى بغداد ، بعد أن قضى نهائياً على هذه الفتنة ، وارتكب

في سبيل ذلك كثيراً من أعمال الاضطهاد والفساد ، ودفعه إلى ذلك إساءته الظن بكل العرب وتقريبه للفرس دون سواهم .

عمره : المأمون بالبيزنطيين :

في عهد الأمين ، لم تقع حروب بين الدولتين العباسية والبيزنطية ، لانشغاله بالفتن الداخلية . أما في عهد المأمون ، فقد عادت المشادة بين الدولتين إلى أشد مما كانت عليه في عهد الرشيد ، فقد لجأ كل من المأمون والإمبراطور البيزنطي ثيوفيلس Theophilus إلى الحيل السياسية ، بأن شجع كل منهما الآخرين على خصمه . فإن المأمون شجع توماس الصقلي الذي ثار في آسيا الصغرى على الإمبراطور ، لا بالمال والرجال فحسب ، بل بالعمل على تنويحه إمبراطوراً على الدولة البيزنطية نفسها ، ولكن سرعان ما انكشف تدبيره ولم يتم له ما أراد . واتباع الإمبراطور هذه السياسة نفسها نحو الخليفة ، فجعل بلاد الروم موثلاً للخرمية أتباع بابك الخرمي الفارسي الذي سار سنة ٢٠١ هـ على المأمون واعتصم بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية في منطقة حران شمال الشام واستقل عن الدولة العباسية اثنتين وعشرين سنة (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) ، نشر خلالها مذهباً في الإباحية^(١) . إلا أن إمبراطور الروم سئم في النهاية هذه المحاولات السياسية ، وعرض على المأمون الهدنة فرفضها وطمع في فتح القسطنطينية نفسها ، وخرج بنفسه لقتال الروم في سنة ٢١٨ هـ ، ولكن وقاته حالت بينه وبين تنفيذ ما عزمه .

بوران زوجة المأمون :

بعد أن استقر الأمر للمأمون في بغداد ، أسند الوزارة إلى الحسن بن سهل وطلب الزواج من ابنته بوران ، فرحب الوزير بهذه المصاهرة . ولما زار المأمون

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٤ ص ١٨٩ .

وزيره الحسن بن سهل ليوسف إلى ابنته بوران ، ركب من بغداد زورقا حتى وصل إلى باب الحسن ، وكان يصحبه ابنه العباس فتلقاها الحسن خارج عسكره في موضع اتخذته على شاطئ دجلة ، وكان وصول المأمون وقت المغرب في شهر رمضان سنة ٢١٠ هـ ، فأفطر هو والحسن والعباس . وفي الليلة الثالثة تزوج المأمون ، بوران وزفت إليه في مدينة فم الصلح بالقرب من بغداد ، فلما جلس معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب ، وجمع المأمون تلك الدرر في الآنية ووضعها في حجرها ، وقال : هذه غلتك ، فأسألي حوائجك ، فأمسكت ، فقالت لها جدتها : كلّي سيدك وأسأليه حوائجك فقد أمرك ، فسألته الرضا عن إبراهيم بن المهدي فقال : قد فعلت ، وسألته الإذن لأُم جعفر في الحج فأذن لها ، وتزوجها في نفس الليلة ، وأوقد في تلك الليلة شمع عنبر ، فيها أربعون منفاً .

وبذل الحسن بن سهل على زفاف ابنته للمأمون كثيراً من الأموال ، حتى لقد قدر بعض المؤرخين نفقات الزواج بخمسين مليون درهم ، وأسرف في هذا الزواج ونثر من الأموال ما لم ينثره وما لم يفعله ملك في جاهلية أو إسلام . ذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك ، فيها رقايع بأسماء ضياع وأسماء جوارى وصفات دواب وغير ذلك ، فكانت البندقية إذا وقعت في يد الرجل فتمسحها فقرأ ما فيها فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها ، ونثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض المنبر . وأنفق على المأمون وقواده وعلى جميع أصحابه ، ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده وعلى المسكارين والخدم والملاحين وكل من ضمه العسكر من تابع ومتبوع مرتزق عنده ، فلم يكن أحد من الناس يشتري شيئاً في عسكر المأمون^(١) .

(١) السعدي : مروج الذهب . ج ٣ ص ٣٣٠ .

(م ٢٦ - التاريخ الإسلامي العام)

« النهضة العلمية في عصر المأمون » :

كان عصر المأمون من أزهى عصور العلم في الدولة العباسية : لميل المأمون نفسه إلى تحصيل العلوم والمعارف ونشر المعرفة بين أفراد الأمة الإسلامية ، وقد تجلّى ذلك في إمداد « بيت الحكمة » في بغداد الذي وضع أساسه الرشيد بالكتب في مختلف العلوم والفنون ، مما جلبه من بلاد الهند والروم والفرس وغيرها ، حتى أصبح أشبه بجامعة علمية ، تحوى داراً للكتب ، يجتمع فيه العلماء للترجمة والتأليف والدرس ، وبه أما كن خاصة للنساخين لنسخ الكتب لأنفسهم ولغيرهم بأجور معينة ، وأشرف عليه موظف عرف باسم « صاحب بيت الحكمة » ، كان الخلفاء يختارونه ممن اتصف بسمعة العقل والأمانة العلمية^(١) .

وكان المأمون مثقفا ثقافة فارسية ، لأن أمه كانت فارسية ، وكان يميل إلى حرية الفكر والبحث ، مما دفعه إلى إيجاد « مجالس المناظرة » حتى يتمكن عن طريقها من إزالة الخلاف بين العلماء فيما يدلون به من آراء علمية . فقد روى عن القاضي يحيى بن أكثم أنه قال : أمرني المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم ، وجلس لهم المأمون ، فسأل عن مسائل ، وأفاض في فنون الحديث والعلم . فلما انفض المجلس الذي جعلناه للنظر في أمر الدين ، قال المأمون : يا أبا محمد . . . إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا - بتوفيق الله وتأييده - سببا لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أَرْضَى وأصلح للدين .

كان المأمون يجلس للمناظرة يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، يقول المسعودي :

(١) قضى هولاكو زعيم التتار على هذه المكتبة ، عند إغاراته سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)

على بغداد وتخريبها .

« فإذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم : أنزعوا أخفافكم ، ثم أحضرت الموائد ، وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء ومن خُفّه ضيق فليزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها . فإذا فرغوا أتوا بالجمار فبخروا وطيبوا : ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه ، ويناضهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبدها من مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس ، ثم تنصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون ، قال : فإنه يوما لجالس إذ دخل عليه علي بن صالح الحاجب فقال يا أمير المؤمنين ، رجل واقف بالباب عليه ثياب بيض غلاظ مشمرة ويطلب الدخول للمناظرة ، فقلت : إنه بعض الصوفية فأردت بأن أشير أن لا يؤذن له ، فبدأ المأمون فقال : ائذن له ، فدخل عليه رجل عليه ثياب قد شمرها ونعله في يده ، فوقف على طرف البساط فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فقال المأمون : وعليك السلام ، فقال : أتأذن في الدنو منك ؟ قال : إذن فدنا ، ثم قال : إجلس ، فجلس ثم قال أتأذن في كلامك ؟ فقال : تسكلم بما تعلم أن الله فيه رضا ، قال . أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت قد جلسته أبا اجتماع من المسلمين عليك ورضا منك أم بالمبالغة لهم بالقوة عليهم بسلطانك ؟ قال لم أجلسه باجتماع منهم ولا بمخالبة لهم ، إنما كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلي ، أحده المسلمون إما على رضا وإما على كره ، فعقد لي ولآخر معي ولاية هذا الأمر بعده في أعناق من حضره من المسلمين ، فأخذ علي من حضر بيت الله الحرام من الحاج البعيد لي ولآخر معي ، فأعطوا ذلك إمامائين وإما كارهين ، فمضى الذي عقد له معي على هذا السبيل التي مضى عليها ، فلما صار إلى علمت أني أحتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين في مشارق الأرض ومقاربها على الرضا ، ثم نظرت فرأيت أني متى تخليت عن المسلمين اضطرب حبل الإسلام وانتقصت أطرافه وغلب المهرج والفتنة ووقع التنازع ، فتمطلت أحكام الله سبحانه وتعالى ، ولم يحج أحد بيته ، ولم يجاهد في سبيله ، ولم يكن له سلطان

يجمعهم ويسوسهم ، وانقطعت السبل ، ولم يؤخذ للظالم من ظالم ، فقامت بهذا الأمر حياطة للمسلمين ، ومجاهدا لعدوهم ، وضابطا لسبلهم ، وآخذا على أيديهم ، إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم على رضايه ، فأسلم الأمر إليه وأكون كرجل من المسلمين . . . »^(١)

اشتغل الناس في عهد المأمون بعلوم الدين والحديث ، وظهر المجتهدون الذين يحاولون تفسير ما هو محل الاختلاف ، واجتهد المأمون في بحث مسألة القرآن وخلته ، وعقد لهذا الغرض مجالس للمناظرة ، يناقش فيها في حضرته العلماء من القضاة والحديثين ، وكثير الجدال والنقاش في هذه المسألة ، بعد أن بعث المأمون في سنة ٢١٨ هـ إلى إسحق بن إبراهيم بن مصعب كتابا مطولا يقيم فيه الدليل على صحة الرأي الذي ذهب إليه المعتزلة في القول بأن القرآن مخلوق ، أى أن كلام الله سبحانه وتعالى ليس قديما ، ويتوعد في هذا الكتاب كل من يخالف القول بذلك من الموظفين بإفلاته من وظيفته . وما جاء في هذا الكتاب : « قد عرف أوبر المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشوة الرعية وسفلة العامة ، ممن لا نظر له ولا روية ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه ، أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه ، ذلك أنهم ساووا بين الله وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن على أنه قديم لم يخلقه ولم يخترعه . . . فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين وامتنعهم فيما يقولون واكتشفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه وأعلمهم أنى غير مستعين في محلى بمن لا يوثق بدينه » .

وظهر في عهد المأمون جماعة من كبار العلماء على رأسهم ابن الهزيل وابن سيار والجاحظ وغيرهم من رؤساء الاعتزال ، وهؤلاء تعمقوا في بحث مسألة خلق

القرآن ليصلوا هل هو قديم أم حادث ، وليثبتوا أن ما وصل إليه المأمون من أن القرآن مخلوق هو الصحيح ، وتناولوا بالبحث صفات الله سبحانه وتعالى ووصلوا فيما وصلوا إليه أن الله لا يرى جبهة يوم القيامة .

وتناقش العلماء في تلك المجالس في مسألة الخلافة ومن يستحقها شرعا بعد الرسول عليه السلام وعمد العلماء إلى حض الناس على عدم ذكر معاوية بالخير ، وعلى تحبيذ القول بأن عليا هو خير الناس بعد النبي ولم يصادف المأمون شيئا من النجاح في بحث هذه المسائل وفيما وصل إليه من نتائج ، فقد عاب الناس عليه تدخله في الأمور الدينية البحتة وتفضيله عليا بن أبي طالب على سائر الخلفاء الراشدين واعترافه بأحقية العلويين في الخلافة حتى جعل ولاية العهد لعلی الرضا ، مما أساء إلى العباسيين .

ويظهر أن المأمون كان يرمى من عقد هذه الاجتماعات أن يصل إلى الاتفاق على رأى واحد في مسألة خلق القرآن وموضع الخلافة حتى تتفق كلمة الأمة في تلك الأمور ، التي كانت مصدر شقائها وبلائها ، ولكن لم يكتب له التوفيق فيما رعى إليه^(١) .

ونهض المأمون بالبلاد نهضة علمية جديدة بالتقدير والإعجاب ، فقد اهتم بحركة الترجمة من اللغات الأخرى وخاصة اليونانية والفارسية إلى اللغة العربية . وقويت تلك الحركة بفضل تشجيعه للعلم وبما بذله من الأموال الضخمة في هذا السبيل . وأرسل لذلك البعث إلى القسطنطينية ، لنقل ما فيها من الكتب إلى العربية ، ورحل كثير من العلماء إلى بلاد الدولة البيزنطية ، ومن بينهم حنين بن إسحق ، فأحضروا الكتب الفريدة في الهندسة والموسيقى والطب^(٢) ، وبعث المأمون في طلب كتاب أرسطاطاليس في الفلسفة على وجه السرعة . ومن مهر

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٢) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

من العلماء في عصر المأمون في الترجمة إلى العربية : بختيشوع ، والحجاج بن مطر وثابت بن قرة ، وذلك عدا حنين بن إسحق . ووجد بين العرب أنفسهم كثير من العلماء ألفوا كتباً هامة في العلوم الفلسفية ، وعلى رأسهم الكندي ، وحذا في تأليفه حذو أرسطو ، وترجم كثيراً من كتب الفلسفة وأوضح ما فيها من النقط الغامضة .

تقرير المأصوه :

توفي المأمون سنة ٢١٨ هـ في شمال مدينة طوس بالحلي ، وذلك أثناء رحيله لفتح القسطنطينية ، وهو في الثامنة والأربعين من عمره ، بعد حياة حافلة بجلال الأعمال ، فقد كان أديباً ، عالماً ، شجع العلم ، وقرب الأدباء ، وأغدق عليهم الحبات حتى عد عصره من عصور الأدب الزاهرة في الإسلام . كما انصف بكثير من الصفات الحميدة ، فقد كان يكره الانتقام من أعدائه ويميل إلى العفو عند المقدرة فقد عفا عن إبراهيم بن المهدي الذي جلس على كرسي الخلافة نحواً من سنتين أقلق خلالها خلافة المأمون .

وكان المأمون من الخلفاء الذين عرفوا بالكرم ، فقد أمر بمنح وزيره الحسن ابن سهل والد زوجته السيدة بوران عشرة آلاف درهم وأطلق له خراج فارس وكور والأهواز مدة من الزمن . ولما أراد أن يصعد في دجلة إلى مدينة السلام قال للحسن بن سهل : حوائجك يا أبا الحسن ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أسألك أن تحفظ عليّ مكانتي من قلبك ، فإنه لا يتهيأ لي حفظه إلا بك . فقال في ذلك الشعراء فأكثرُوا وأطّلب الخطباء وتكلموا . وما استظرف مما قيل في ذلك من الشعر ، قول محمد بن حازم الباهلي :

بارك الله للحسن ولبوران في الخلق
يا إمام الهدى قد ظفر ت ولكن يفت من

فلما نعى هذا الشعر إلى المأمون ، قال : والله ما ندرى خيراً أراد أم شراً^(١) .
وعرف عن المأمون أنه رغب في أن تستمر الخلافة العباسية من بعده
في اتباع آرائه ومعتقداته التي نادى بها في خلافته ، فقد أوصى خلفه إسحق
ابن هارون الرشيد الذي تولى الخلافة وتلقب بالمعتصم ، بأن يطارد القائلين بعدم
خلق القرآن ، وأن يحسن معاملة العلويين .

اتصف المأمون بالغفلة وعدم تقدير العواقب ، فقد ابث السنوات الأولى
من حكمه في خراسان ، وكان الأوفى أن يجعل بالخروج إلى بغداد ، ولكن غلب
عليه الفضل بن سهل ذو الرياستين واحتبسه في خراسان وجعله شبه سجين بها
تقضى الأمور دونه ولا يطلع إلا على ما يسمح به الفضل ، حتى فسد أمر المغرب
وقامت الفتن في كل الأنحاء : فتنة نصر بن شبث ومن تبعه من الأعراب ، وفتنة
العلويين أو الطالبيين بزعماء أبي السرايا وعجز الحسن بن سهل أمير العراق عن
مكافحتهم ، وما صحب الفتن العربية والعلوية من الشوائب . وأعجب من ذلك
وأقطع في الدلالة على إغفال المأمون أحوال البلاد ، أن هزيمة بن أعين حين
عزم مخلصاً على أن يطلع المأمون على مجرى الأحوال ودرجة انتشار الفساد
في البلاد ، تمكن الفضل بن سهل والحسن بن سهل من أن يكيده له لدى
المأمون حتى أسر بقتله . وهذا يبين لنا أنه رغم تقدير ما اتصف به هذا الخليفة
من الكرم والميل إلى العفو ومن الإقبال على العلم وتكريم العلماء ، فقد أخذ
عليه استئثار بعض الشخصيات ، ممن عرف عنها الجور والعسف ، بالنفوذ
والسلطان ، وذلك أفسد على المأمون إدارة الدولة في حزم وعزم ، يمكنه من القيام
بأعمال الإصلاح التي كانت البلاد ترجو أن تتم في عهده .

(١) أحمد بن طاهر بن طيفور : كتاب تاريخ بغداد من ٢٠٦ — ٢١١ .

٨ - المعتصم

٢١٨ - ٢٢٧ = ٨٣٣ - ٨٤٢ م

بويج المعتصم بن الرشيد يوم وفاة أخيه المأمون في ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ وهو في غزوته الأخيرة لبلاد الروم ، ورفض الجند أن يقدموا له الطاعة في مبدأ الأمر وأرادوا تولية العباس بن المأمون ، ولكن العباس أسرع إلى مبايعة عمه بالخلافة احتراماً لوصية أبيه فحذا الجيش حذوه بعد ذلك .

سار المعتصم على سياسة أخيه المأمون ، في حمل الناس على القول ~~بخلق~~ القرآن ، فقد أوصاه المأمون قبل وفاته بقوله : « يا أبا إسحق (المعتصم) أدن مني ، واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك في القرآن ^(١) . وزاد على ذلك أن الحق الأذى بكل من يعترف بغير ذلك من العلماء وأهل الرأي ، فأهان أحمد بن حنبل إهانة بالغة وسجنه ^(٢) ، وأصبح كل عالم أو قاض هدفاً لأن يضرب بالسياط والتعذيب إذا لم يأخذ برأى المعتزلة في القول بخلق القرآن .

سياسة إزاء العلويين :

تابع المعتصم إزاء العلويين نفس سياسة الشـدة ، التي تبناها الخلفاء العباسيون قبله عدا المأمون . فقد تخلص المعتصم من محمد الجواد بن علي الرضا الذي كان المأمون قد زوجه ابنته أم الفضل ، حتى لا تحد منه نفسه بالمطالبة بالخلافة على

(١) الطبري ج ١٠ ص ٢٩٤ .

(٢) كان تسمك ابن حنبل أحد كبار المحدثين برأيه في القرآن ، وقوله إنه كلام الله ، فلا هو قديم ولا مخلوق ، أكبر الأثر في علو شأنه بين الناس واحترام العلماء والمحدثين له ، واضطر المعتصم بعد أن كان قد أمر بحبسه أن يفرج عنه ويسترضيه للرأى العام .

أساس : أن أولاده من سلالة المأمون ، وأن أباه عليا الرضا قد ولاه الخليفة المأمون العهد قبل وفاته وبذلك تؤول الخلافة إليه بعد وفاة أبيه^(١) . كذلك خرج محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب على المعتصم ، وكان قد علم أن الخليفة يضم له الشر ، ورحل عن الكوفة إلى خراسان ، حيث انضم إليه خلق كثير وحارب جيوش الخليفة في عدة مواقع ، إلا أن عبد الله بن طاهر والى خراسان قبض عليه وأرسله إلى المعتصم فحبسه في سامرا حتى مات ، ويزعم أتباعه أنه حتى لم يمت وأنه المهدي المنتظر ، وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وبلاد طبرستان وجبال الديلم^(٢) .

اعتماده على الأتراك :

اعتمد المعتصم لأول مرة في تاريخ العباسيين ، اعتماداً كلياً على الأتراك ، بعد أن كان اعتماد من سبقه من الخلفاء على الفرس ، ولا عجب في ذلك إذ كانت أمه تركية : فأسقط العرب من ديوان العطاء ، وأهل العنصر العربي والفارسي معاً ، وأسند إلى الأتراك مناصب الدولة ، وكان المعتصم يرى أن دولته الواسعة لا بد أن يقوم بحراستها جيش قوى ، فاستكثر من الأتراك ، وكانوا يجلبون من أسواق الرقيق في بلاد ما وراء النهر . واتخذ من حسن هندامهم وجمال منظرهم وشجاعتهم وتمسكهم بأهداب الإسلام ، سبباً للاعتماد عليهم : فولاهم حراسة قصره ، وأسند إليهم أعلى المناصب ، وقدم الولايات السكينة ، وخلع عليهم الهبات والأرزاق وآثرهم على الفرس والعرب في كل شيء^(٣) .

أخذ هؤلاء الأتراك ، الذين كانوا بعيدين عن الحضارة والعلم ، يندمجون

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٨ .

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٣٠٥ ، المسعودي : نفس المصدر والجزء ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

(٣) حسن إبراهيم وعلي إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٢٩٩ .

في طبقات الأمراء المثقفين : فتعلموا العربية ، ووقفوا على أحكام القرآن ، ودانوا بالإسلام ، ودرسوا العلوم والآداب ، وكان كل من يصل منهم إلى مرتبة خاصة من التهذيب والثقيف يتولى للنصب القدي يتناسب مع كفايته ومواهبه ، ومن ثم تمكن كثير منهم من الوصول إلى أعلى المراتب ، فاندمجوا في سلاك البلاط وتقلدوا ولاية الإمارات ، وعظم نفوذهم واشتد ، حتى أصبح في أيديهم تولية الخليفة وعزله أو حبسه ونفيه أو قتله ، وما لبث عددهم أن زاد حتى أربى على الخمسين ألفاً^(١) . ، فقويت شوكتهم ، وتدخلوا على الخليفة حتى ألبسهم جلال الديباج والمناطق المذهبة والحلى . فدخلهم الغرور وارتكبوا كثيراً من أعمال المسف والشدة ، حتى أنهم كثيراً ما آذوا السكان وداسوهم بخيولهم في الأسواق والطرقات ، مما أثار غضب العامة وحنقهم عليهم .

وكانت نتيجة إهمال المعتصم للعرب واستعانتهم بالأتراك وإجزاله العطايا لهم دون غيرهم ، أن دب في نفوس العرب ديب الغيرة والحسد ، وقام عجيف القائد العربي بثورة على قواد الترك الذين أساءوا معاملة العرب ، بل عزم على التخلص من المعتصم نفسه ، وأغرى العباس بن المأمون بالخروج على عمه والمطالبة بعرشه ، واشترك قواد العرب في هذه المؤامرة وانفقوا على قتل المعتصم ، إلا أن خبر هذه المؤامرة قد تسرب إلى المعتصم ، ففزع المساء عن العباس حتى مات ولحق به عجيف^(٢) . وثار العرب على المعتصم في بلاد الشام ، كما أثار الأكراد الفتنة ضده في الموصل ، ولسكن هذه الثورات بادت بالفشل في مهدها ، على أن المعتصم بعد أن تمكن من إقصاء قواد العرب والفرس تدريجياً وأسقطهم من ديوان العطاء وقع في أيدي الأتراك ، وهؤلاء كانت الرغبة في انتزاع السلطة من الخليفة قد

Gibbon: Decline and Fall of the Roman Empire, Vol. IV, (١)
P. 47

(٢) الطبري ج ١٠ ص ٣٤٤ . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٧٠ .

تقابلت على نفوسهم ، إذ لم يكونوا جادين في إخلاصهم للخليفة ، وفي سبيل ذلك عملوا على حصر السلطة في أيديهم . وعد عهد خلافة المعتصم وخلافة الواثق من بعده ، فترة انتقال إلى حكم الأتراك الفعلي في بغداد ، وسلطان الخلفاء الإسمي منذ وفاة الواثق ، واتضح بجلء في العصر العباسي الثاني خطر اعتماد العباسيين على الأتراك .

سامرا :

لم يكن بد من أن يعمل المعتصم على تلافى الشر قبل وقوعه ، بعد أن استفحل خطر الارتزاق ، وأثاروا سخط العامة وآذوا أهل بغداد . لذلك عول على اتخاذ موضع يبني فيه مدينة جديدة ، تسع جنده من الأتراك ، فبنى في سنة ٢٢١ هـ مدينة سامرا التي عاشت حوالي الستين عاما .

وهكذا بنيت سامرا شرقي نهر دجلة ، على مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، وتبعد عنها ستين ميلا من الشمال ، وتقع في مكان طيب الهواء جيد التربة . يسهل منه الوصول إلى بغداد براً وبحراً ، وشيد في طرفها مسجداً جامعاً للمسلمين ، وأفرد سوقاً لأرباب الحرف والصناعات ، ونقل إلى حاضرتة الجديدة الأشجار والثمار وغرس الحدائق والبساتين ، وشيد المنزهات ، وأقام المباني الشاهقة والقصور الفخمة التي قيل إن عددها بلغ سبعة عشر قصراً^(١) .

أصبحت سامرا مدينة هامة زاهرة ، حتى سميت « سر من رأى » . وصفها ابن المعتز بقوله : « إنها مشوقة السكنى ، حبيبة المنوى ، كوكبها يقظان وجوها عريان ، حصاها جوهر ، ونسيمها معطر ، وتراها مسك أذفر ، يومها غداة ، ونيلها سحر ، طعامها هنيء وشرابها مريء ، تاجرها مالك ، وفقيرها فانك » . ووصفها الحسين بن الضحاك فقال :

(١) ياقوت : معجم البلدان ، لفظ سامرا .

سر من رأ أسر من بغداد فله عن بعض ذكرها المعتاد
جنداً مسرح لها ليس يخلو أبداً من طريدة وطراد
ورياض كأنما نشر الزه ر عليها مجد الأبراد
وأذكر المشرف المطل من الت ل على المصادرين والوراد^(١)

وظلت مدينة سامرا في أوج عظمتها ، محتفظة بروعتها وبهائها منذ بنائها
سنة ٢٢١ هـ إلى نهاية خلافة المعتضد ، فانتابها الخراب والدمار ، بعد أن تقوضت
معالمها عام ٢٨٩ هـ ، حتى كان الناظر إليها يستوحش منها « بعد أن لم يكن في
الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ، ولا آنس ولا أوسع ملكاً منها
فسبحان من لا يحول ولا يزول » .

ومنذ ذلك الحين ، أطلق عليها « ساء من رأى » ، ثم اختصر فقيل
« سامرا » ، يقول ابن المعتز :

قد أقفرت سر من رأ وما لشيء دوام
فالنقض يحمل منها كأنها آجام
ماتت كما مات فيل تسل منه العظام

الخل المينية : البابكية والمجوسية :

في عهد المعتصم ، ظهرت بجلاء خطورة الحركة التي قادها منذ عهد المأمون
الرجل الفارسي بابك الخرمي^(٢) ، الذي اعتصم بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية
في منطقة حران منذ سنة ٢٢١ هـ وحصنها ، فقد ادعى بابك أن روح حاوידان

(١) ياقوت معجم البلدان .

(٢) المقدسي : البلد والتاريخ ج ٥ ص ١٣٤ .

قد حلت فيه ، وجاويدان كان زعيما نسب إليه أتباعه صفات الألوهية ، وزاد بابك على ذلك أن نشر مبادئ الإباحية وأخذ في العبث والفساد وجنح إلى الوحشية والفوضى ، وكلها من تعاليم المجوس ، كما أن هذا الرجل كثيراً ما أثار البيزنطيين على الدولة العباسية وعقد محادثات مع الروم ضد الدولة ، ولذا تمكن من المقاومة مدة طويلة ، وساعده على ذلك أيضاً أن المأمون كان مشغولاً بالقضاء على الفتن الداخلية في أنحاء البلاد وبقتال البيزنطيين . ولكن المعتصم دفع كل قوات الدولة للقضاء على بابك ، وعهد بذلك إلى الإفشين قائد الخليفة ، الذي حاصره مدة طويلة في مكانه في حران ، ثم أطبقت جيوشه عليه واضطرت بابك إلى التسليم وحاول الفرار ، ولكن قبض عليه وسيق إلى سامرا ، حيث لاقاه المعتصم هو ومن حل معه من الأسرى ، وقتل بابك أشنع قتلة وطيف برأسه في الأقطار ليكون عظة لمن يحاول أن يقوم بمثل حركته ، وكافأ الخليفة قائده الإفشين ، فعقد له على السند وأدخل عليه الشعراء يمدحونه . وقضى بذلك على حركة كانت ستصبح خطراً جسيماً على كيان الدولة ، وخاصة أنها كانت ترمى إلى التحرر من كل نظام اجتماعي والعودة إلى الإباحية .

وظهر في زمن المعتصم ، في إقليم طبرستان ، رجل يعرف باسم « مزيار المجوسى » . وحدث خلاف بين مزيار وبين عبد الله بن طاهر والى خراسان ، فإن مزيار كان لا يؤدى الأتاوة المفروضة على إقليمه لعبد الله بن طاهر ، باعتبار أن طبرستان خاضعة من الناحية الإدارية لخراسان ، بل كان يؤديها للخليفة المعتصم مباشرة متخطياً والى خراسان ، وكان المعتصم بدوره يرسلها لهذا الوالى . وانهز الإفشين قائد المعتصم تلك الفرصة ، وعمل على اتساع هوة الخلاف بين عبد الله بن طاهر ومزيار ، وكان الإفشين بعد ولائه الجديد في واقعة عمورية وانتصاره على البيزنطيين وقضائه على بابك الخرمى وتقدير المعتصم له بعد هذه الخدمات ، قد علا صيته وزادت مطامعه ، فعمل على أن يتولى إمرة

خراسان بدلا من واليها . لذلك كاتب مزيار سرا ، وحرصه على عبد الله بن طاهر ،
وانتهى الأمر بقطع الأناوة التي كان يدفعها مزيار . وكان من نتيجة ذلك العمل
أن ابن طاهر حارب مزيار بأمر المعتصم . ورغب الإفشين في أن يتولى قيادة
الحملة ضد مزيار ، توصلا إلى غرضه في عزل ابن طاهر عن خراسان ، ولكن
ابن طاهر استطاع بواسطة قواده الآخرين القضاء على مزيار وقبض عليه وأرسله
إلى المعتصم . وهناك أفشى مزيار إلى الخليفة أمر الرسائل التي بعث بها الإفشين
إليه يحرضه فيها على الخليفة ووالى خراسان . وعلى أثر ذلك تفكر المعتصم
الإفشين وأمر بحبسه ، وعقد له بعد ذلك مجلسا لحاكمته ، وكان ذلك في سنة ٢٢٥ هـ
وتولى أمر محاكمته محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم وأحد شخصيات
العباسيين البارزة . وانتهت المحاكمة بإعادته إلى السجن ، وظل به حتى مات
سنة ٢٢٦ هـ ثم أحرق بالنار^(١) . ووجدت في حوزته عدة أصنام وبعض كتب
الجوس التي تشرح ديانتهم ، واتضح أنه كان يسر الجوسية ويظهر الإسلام .
وبذلك يتصل تاريخ حياته بموضوع الفحل الدينية القديمة التي ترجع في أساسها
إلى الفرس وحاولت الظهور في عهد العباسيين ، وهي في عهد المعتصم تتعلق
بمحاولة نشر الإباحية كما ظهر في حركة بابك الخرمي وبشر الجوسية التي كان
يعتقها سرا الإفشين وافتضح أمره^(٢) .

عرفته بالدولة البيزنطية :

في زمن المعتصم ، عادت العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية
إلى أسوأ مما كانت عليه . ولكن المعتصم كان بعيد النظر ، فوجه كل همته
إلى القضاء على فتنة بابك الخرمي أولا ، وانهز الإمبراطور البيزنطي تلك

(١) الطبري ج ١٠ ص ٣٦٥ — ٣٦٧ .

(٢) Muir : The Caliphate, pp. 518—519

الفرصة وأغار على مدينة زَبطرة وأحرقها وأسر من فيها ، وعاث فساداً في بعض بلاد سورية ، وأعمل فيها السلب والنهب والتخريب والتقتيل ، حتى ثار الناس واستمفأوا . وكان المعتصم إذ ذاك قد قضى على بابك ، فسار إلى أنقرة في جيش ضخم بقيادة الإفشين وأشناس وهزم الإمبراطور البيزنطي واستولى على أنقرة ، ثم عزم على تخريب مدينة عمورية في آسيا الصغرى ، وكان الإمبراطور تيوفلس قد نشأ فيها ، ومسكر المعتصم غربي دجلة ، حيث التف حوله جفده وعلى رأسهم نخبة من مشاهير قواده من الترك أمثال الإفشين وأشناس وبغا الكبير ، ومن العرب أمثال عجيف بن عنبسة ومحمد بن إبراهيم . وبلغ جيش المعتصم خمسمائة ألف مقاتل أو مائتي ألف في رواية أخرى . وخرج بهذا العدد ، وتابع السير في أراضي آسيا الصغرى ، حتى وصل إلى عمورية سنة ٢٢٣ هـ فحاصرها ، وأسرف في قتل الأهلين ، حتى قيل إنه قتل ثلاثين ألفاً من سكانها ، وتركها للنهب والسلب والتهام النيران لها من كل جانب ، أربعة أيام كاملة^(١) .

ولما عاد المعتصم إلى سامرا ، بعد ذلك النصر الحاسم في عمورية ، احتفل باستقباله احتفالاً باهراً ومدحه أبو تمام الشاعر المشهور ، بقصيدته التي مطلعها :
السيف أصدقُ إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب^(٢)

تقرير المعتصم :

توفي المعتصم في ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ ، وهو نفس الشهر الذي مات فيه الإمبراطور البيزنطي تيوفلس عدوه القديم ، بعد أن حكم المعتصم البلاد حكماً استبدادياً مقروناً بالمهلف وحسن التدبير ، وبعد أن ثبت له أنه لم يكن بعيد النظر حين استخدم الأتراك ، فقد شكوا منهم ومن تغفل نفوذهم في أخريات عهده .

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٢٠٢ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢١٠ — ٢١١ . السوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣ .

والمعتصم من شخصيات العباسيين الجليّة ، تتمثل فيه روح الجدّية ، فقد كان من أبرز صفاته : الصراحة وحُب البساطة . وظهرت مقدرته الحربية في قضائه على الحرّمية ، وعلى مزار والإفشين ، وعلى البيزنطيين ، وتغلّبت عليه الصفة الحربية حتى اشتهر بها .

٩ - الّواثق

٢٢٧ - ٢٣٢ = ٨٤٢ - ٨٤٧ م

ولى الّواثق الخلافة بعد أبيه المعتصم ، وكانت أمه رومية . وشارك أباه في ميوله وآرائه الفلسفية وزاد عليه . وكانت تشوب إدارته مظاهر الضعف أحياناً والاستبداد أخرى ، فقد اشتهد على كتاب الدواوين حين تبين له تفشي الرشوة والفساد بينهم ، واستولى منهم على مبالغ تتراوح بين أربعة عشر ألف دينار ومليون دينار .

وفي عهد الّواثق ، استمرت الحروب بين العباسيين والبيزنطيين ، وسببها وجود جماعة من النصاري المتحفّفين في آسيا الصغرى لا يرون عبادة الصور ، فكانوا لذلك محل اضطهاد الحكومة البيزنطية مما دفعهم إلى الاحتماء بالخليفة الّواثق والمهجرة للاتّجاء إليه ومعهم زعيمهم قريباس Karbeas ، وهؤلاء قاتلوا مع جند العباسيين ضد الروم ، وانتهى الأمر بهزيمة البيزنطيين والإمبراطور البيزنطي ميشيل الرابع هزيمة شائنة في سنة ٨٤٥ م ، في عهد المتوكل الذي خلف الّواثق على عرش الخلافة العباسية .

سياسته إزاء مسائل خلق القرآن :

غلا الّواثق في نشر آرائه الدينية الخاصة بمسألة خلق القرآن ، جرياً على السياسة التي سار عليها أبوه . فأثار خواطر أهل بغداد مما دعاهم إلى

التأمر على حياته وعلى حكومته وكان أحمد بن نصر رأس هؤلاء الساخطين الذين أنكروا القول بخلق القرآن ، وحملوا على الواثق حملة شعواء ودعوا إلى عزله ، والتف حوله كثير من أنصاره ، وعينوا يوما ينفذون فيه مؤامرتهم على أن يضربوا الطبل في الليلة السابقة لذلك اليوم . إلا أن الرجلين اللذين عهد إليهما تنفيذ هذا الأمر أكثرا من شرب الخمر في تلك الليلة ، وأخذ الفريق الذي رابط على الجانب الشرقى يدق الطبل ، فلم يجتهد أصحابهم الذين في الجانب الغربي ، وكشف المؤامرة قبل أن يستفحل خطرهما .

وعقب ذلك ، قبض على أحمد بن نصر وأعوانه وسبقوا إلى الواثق في سامرا قاعدة خلافته . وهناك عقد لهم الخليفة مجلساً للمناظرة ، ولم يكثر لسألة الشغب الذي أحدثوه وغروجهم على الخلافة ، بل اهتم بمناظره أحمد بن نصر في مسألة خلق القرآن ، فقال له : يا أحمد ! ما تقول في القرآن . قال : كلام الله ، قال : أمخلق هو ؟ قال : هو كلام الله . قال : فما تقول في ربك ، أنراه يوم القيامة ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! جاءت الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر . فقال الواثق لمن حوله : فما تقولون فيه ؟ فقال القاضي عبد الرحمن بن اسحق : هو حلال الدم ، وقال غيره : اسقى دمه يا أمير المؤمنين . ووافقه الحاضرون إلا ابن أبي دؤاد قاضي القضاة ، فإنه قال : يا أمير المؤمنين ، كافر يستتاب ليل به عاهة أو تغير عقل . ولكن الواثق دعا بالصمصامة - وهو سيف عمرو بن معدى كرب الزبيدي^(١) - وضربه به على عنقه وحز رأسه وحمله إلى بغداد وصلب ، ووضعت في أذنه رقعة فيها : هذا رأس الكافر للمشرك الضال أحمد بن نصر بن مالك ممن قتله الله على يدي عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين ، بعد أن قام عليه الحجة في خلق القرآن ، ونفى

(١) عمرو بن معدى كرب الزبيدي : هو ذلك الفارس العربي الذي ذاع صيت سيفه واشتهر الخليفة المهدي العباسي وورثته خلفاؤه .

التشبيه ، وعرض عليه التوبة ، ومكث من الرجوع إلى الحق فأبى ، والحمد لله
الذى عجل به إلى ناره وأليم عقابه ^(١) .

تغدير الوائس :

كان الواثق يمطف على أهل بيته ، ويفقد أحوال الرعية ، أفرد في قصره
مكانا للمناظرة والجدل ، ولذا أطلق عليه « للمأمون الأصغر » ، وشغف
بالوقوف على آراء العلماء ، حتى أنه طلب من حنين بن اسحق أن يؤلف كتابا
يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء ، فأتمه وسماه « كتاب المسائل الطبيعية » ،
وعاش في أيامه الشاعر أبو تمام صاحب ديوان الحماسة ، الذى أجزل الواثق
العطاء له ولكثير غيره من الشعراء الذين زخر بهم عصره ، فقد كان الواثق
نفسه شاعراً يقول الشعر . ونبغ في عهده الكندى فيلسوف العرب ، وحنين
ابن اسحق فى الطب ، واليعقوبى والبلاذرى وأبو حنيفة الدينورى وهم من
فطاحل المؤرخين . وكان الواثق يتقن فن الغناء والموسيقى إتقاناً لم يسبقه إليه
خليفة أو ابن خليفة ، وقد وضع بعض الأصوات والأنغام الجديدة . على
أنه ينبغي أن نشير إلى أن حكم الواثق كان فترة ركود فى تاريخ العصر العباسى ،
إذ جعل الترك يشعرون بأهميتهم ويقدخلون فى شئون السياسة ، حتى فتح لهم
باب التدخل فى آخر مراحل السلطة وهى اختيار الخليفة ، فكانت هذه
سابقة جرت الولايات على المباسيين .

حكم الواثق الدولة العباسية أقل من ست سنين ، ولم يول عهده أحداً ،
وسئل فى مرض الموت أن يوصى بالخلافة لولده فلم يقبل ، وقال : لا أتحمل
أمركم حياً وميتاً ، وتوفى سنة ٢٣٢ هـ ، بعد أن أثار خواطر الأهالى : لتسكه
بهذه البدع الدينية . وتوغل العنصر التركى فى الإدارة الحكومية ، وكان ذلك
من أقوى عوامل انحطاط الدولة العباسية وسقوطها فى النهاية .

ثانياً - العصر العباسي الثاني

$$٢٣٢ - ٨٦٥ = ٨٤٧ - ١٢٥٨ م$$

خلفاء العصر العباسي الثاني:

عدد	السنوات الهجرية	أسماء الخلفاء	السنوات الميلادية
١	٢٣٢	المتوكل	٨٤٧
٢	٢٤٧	المتنصر	٨٦١
٣	٢٤٨	المستعين	٨٦٢
٤	٢٥٢	المعتز	٨٦٦
٥	٢٥٥	المهتدي	٨٦٩
٦	٢٥٦	المعتمد	٨٧٠
٧	٢٧٩	المعتضد	٨٩٢
٨	٢٨٩	المستكفي	٩٠٢
٩	٢٩٥	المقتدر	٩٠٨
١٠	٣٢٠	القاهر	٩٣٢
١١	٣٢٢	الراضي	٩٣٤
١٢	٣٢٩	المتقي	٩٤٠
١٣	٣٣٣	المستكفي	٩٤٤
١٤	٣٣٤	المطيع	٩٤٦
١٥	٣٦٣	الطائع	٩٧٤
١٦	٣٨١	القادر	٩٩١

عدد	السنوات الهجرية	أسماء الخلفاء	السنوات الميلادية
١٧	٤٢٢	القائم	١٠٣١
١٨	٤٦٧	المقتدى	١٠٧٥
١٩	٤٨٧	المستظهر	١٠٩٤
٢٠	٥١٢	المسترشد	١١١٨
٢١	٥٢٩	الراشد	١١٣٥
٢٢	٥٣٠	المفتنى	١١٣٦
٢٣	٥٥٥	المستنجد	١١٦٠
٢٤	٦٦٦	المستضىء	١١٧٠
٢٥	٥٧٥	الناصر	١١٨٠
٢٦	٦٢٢	الظاهر	١٢٢٥
٢٧	٦٢٣	المستنصر	١٢٢٦
٢٨	٦٤٠ — ٦٥٨	المستعصم	١٢٤٢ — ١٢٥٨

يُمد العصر العباسى الثانى فى بغداد والذى يمتد أكثر من أربعة قرون ،
 حصر ضعف وانحلال ، كان فيه الخلفاء العباسيون تحت سيطرة الأتراك وبنى بويه
 ثانياً ثم السلاجقة أخيراً . وكان الخلفاء بذلك أكاريشة فى مهبط الرياح ، يتوقف
 بقاء كل منهم على العرش حسب رغبة المسيطرين عليهم من الأتراك وسلاطين
 البويهيين والسلاجقة : وكثير التغيير والتبديل فى وظائف الحكومة ، وانتشرت
 الرشوة فى سبيل الوصول إلى المناصب الكبرى ، وشمل الضعف معظم مظاهر
 الحياة فى بغداد ، وزال بقيامه سنة ٢٣٢ هـ ، العصر الزاهر فى الدولة العباسية .

عهد سيطرة الأتراك

الخليفة العباسية منذ وفاة الواثق إلى أن استولى بنو بويه على بغداد .

٢٣٢ - ٨٣٤ = ٨٤٧ - ٩٤٦ م

كان الخليفة في هذه الفترة من العصر العباسي الثاني ، كالأسير في يد الأتراك إن شاء أبوه أو خلموه أو قتلوه ولذلك كان الخلفاء العباسيون ضعافاً ليس لهم نفوذ ولا سلطان ، ويتوقف بقاؤهم في الخلافة على مقدار رضا الأتراك عنهم وكانت جهود الخلفاء في تلك الفترة جهود قن وقلائل واضطرابات .

تدخل النساء في أمور الدولة :

وقد ترك النساء يتدخلن في أمور الدولة ويصرفن شئونها ، وكانوا يرجعون إلى أقوالهن ويأخذون بأرائهن ، ومن نساء العصر العباسي الثاني ، من كانت لمن السطوة على أولادهن من الخلفاء حتى كن يشرفن على شئون الدولة ويشركن في تدبير أمور الحكم ، وكان لهن أكبر الأثر في سير الحوادث في بغداد .

كان الخليفة العباسي المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) مدمناً على شرب الخمر ، أهده ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف ، وفي الهدية جارية يقال لها محبوبه ، كانت لرجل من أهل الطائف ، وقد أدبها وثقفها وعلمها مختلف صنوف العلم ، غلت من قلب المتوكل في أممي مكان . ولم يكن أحد يعدها عنده ، وأعجب بها وتزوجها ، وأطلق عليها « قبيصة » لحسنها وجمالها ، كما كان يسمى الأسود كافوراً . وفي سنة ٢٣٥ هـ ولي المتوكل المهدأ أولاده : محمداً وسماء المنتصر ،

وأبا عبد الله بن قبيصة ولقبه المعتز ، وإبراهيم وسماء المؤيد . على أن المتوكل قد رأى أن يقدم ابنه المعتز على أخويه : المؤيد والمنتصر ، في وراثة العرش ، رغم أخقيتهما عنه ، لتقديره لقبية أم المعتز . غضب المنتصر لذلك ، باعتباره صاحب الحق الأول ، ودبر مع الأتراك مؤامرة اغتيال فيها المتوكل .

وصل المنتصر (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ) إلى عرش الخلافة ، وعلى الرغم من أنه كان يعطف على الأتراك قبل قتل أبيه ، إلا أنه لم يلبث أن غضب عليهم وصار يسبهم ويقول : هؤلاء قتلة الخلفاء . فكسروا بدورهم في قتله ، وأغروا طبيبه ابن طيفور وأعطوه ثلاثين ألف دينار ، فأت مسموما وهو في السادسة والعشرين من عمره في ٥ ربيع الآخر سنة ٢٤٨ هـ .

وموت المنتصر ، يبيع المستعين بالله (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ) ، لأن العباسيين لم يؤمنوا جانب الأتراك ، فعملوا على تولية الخلافة من يطعنوا إليه من أمراء البيت العباسي ، فلم يولوا أحداً من أولاد المتوكل . وفيه يقول صاحب الفخرى : « واعلم أن المستعين كان مستضعفاً في رأيه وعقله وتدبيره ، وكانت أيامه كثيرة الفتن ، ودوائه شديدة الاضطراب »^(١) ، ولما رأى الأتراك تنسكر المستعين لهم ، خلموه .

واعلى عرش الخلافة من بعده المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) ابن المتوكل وولد قبيصة ، وله من العمر تسع عشرة سنة . وأخرج المستعين ، الخليفة المعزول ، إلى بلدة واسط ، واختار الأتراك أحمد بن طولون ليصاحبه ، فأحسن إليه وأطلق له الحرية في التنقل والصيد . وعلى الرغم من ذلك الفوز الذي أحرزه بخلع المستعين

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٢٠ :

ونفيه ، فإنهم أوجسوا شرا من بقاءه حيا ، وأوعزوا إلى المعتز أن خلافته لن تثبت إلا إذا قتل المستعين ، ووافقهم على ذلك قبيحة أم المعتز فقد خافت على حياة ولدها أن تمتد إليها يد الأعداء . فكتبوا إلى ابن طولون يطلبون إليه قتل المستعين ويمنونه بولاية واسط ، فلم يرض ابن طولون أن يقتل خليفة له في رقبته بيعة . فذلك أرسلوا سعيد الخادم أحد حجاب القصر ، في شردمة من الجيش إلى بلدة واسط ، فتولى بنفسه قتل المستعين ^(١) .

وليس أدل على مدى تغفل الأتراك في أمور الدولة وتسلبهم على حياة الخلفاء أنفسهم ، من هذه العبارة : « لما جلس المعتز على سرير الخلافة ، قعد خواصه وأحضروا المنجمين ، وقالوا لهم : أنظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة ، وكان بالجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته فقالوا : كم تقول إنه يعيش وكم يملك ؟ قال : ما أراد الأتراك ، فلم يبق بالجلس إلا من ضحك » .

وما لبث الأتراك أن قبضوا على الخليفة المعتز وقتلوه . ويصف ابن الأثير قتل الخليفة في هذه العبارة : « فدخل جماعة منهم ، فجروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس ، وخرقوا قميصه وأقاموه في الشمس في الدار ، فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده وأدخلوه حجرة وأحضروا ابن أبي الشوارب وجماعة أشهدوهم على خلعه ، وشهدوا على صالح بن وصيف أن للمعتز وأمه وولده وأخته الأمان ، وكانت أمه قبيحة قد اتخذت في دارها سردابا تخرجت منه وأخت المعتز ، وكانوا قد أخذوا عليها الطريق ومنعوا أحدا يجوز إليها . وسلموا المعتز إلى من يعذبه ، فتمتع الطعام والشراب ثلاثة أيام

(١) على إبراهيم حس : نساء هن في التاريخ الإسلامي نصيب ص ٩٣ — ٩٥ .

فطلب حسوة^(١) من ماء البئر فغموه ، ثم أدخلوه سردابا وحاصصوا^(٢) عليه ،
فمات^(٣) .

اختفت قبيحة بعد موت ابنها المعتز خوفا على حياتها من شر صالح بن
وصيف وأخت ما عندها من المال وقدره ٨٠٠٠٠٠ دينار ، عدا كثير من
الجواهر والحلى والزمرد والؤلؤ والياقوت الذى لا تعرف له قيمة . ومن الغريب
أنها عرضت ابنها للقتل ، ورفضت أن تدفع للثائرين من الأتراك الذين تأخرت
رواتبهم خمسين ألف دينار^(٤) . وقد رثى الشعراء ، المعتز ، بقصائد تبين مدى
تغلغل نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية وانتهى بهم حرمة الخلافة ، ومن ذلك :

قتلوه ظلما وجورا فالفو . كريم الأخلاق غير جزوع
أصبح الترك مالكي الأسر والـ عالم ما بين سامع ومطيع
وترى الله فيهم مالك الأمو ر سيجزيهم بقتل ذريـم

الخليفة العنوبة فى أيدى الأتراك :

بعد وفاة المعتز ، ولى المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ) بنه الواثق الخلافة ،
وكان من أحسن الخلفاء سيرة وأظهرهم ورعا وأكثرهم عبادة . وكان يشبه بعمر
ابن عبد العزيز ويقول : « إني استحي أن يكون فى بنى أمية مثله ، ولا يكون
مثله فى بنى العباس » . وكان يجلس للظالم . فيحكم بين الناس بالقسطاس
المستقيم . وكان كثيره من الخلفاء الذين جاءوا بعد المتوكل العنوبة فى يد الأتراك .

(١) حسوة : جرعة

(٢) حاصصوا عليه : حطوه فى بيت وسدوا بابه .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٦٨ — ٦٩ .

(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٣٢ — ٣٣ .

وليس أدل على ما وصل إليه الخليفة من ضعف وما بلغت الخلافة من انحلال ما ذكر عن أن المهتدي « رفع يده إلى السماء ، ثم قال : اللهم إني أبرأ إليك من فعل موسى بن هفا . . . اللهم تول كيد من كاید المسلمين . . . » . وسرعان ما اجتهدت كلمة الأتراك على قتله ، وعلى أثر ذلك ، قام بعض الولاى بشورة ضده ثم أسروه وخطبوه من الخلافة ، ولم يكتفوا بذلك ، بل عذبوه حتى مات .

ويستل من ضعف الخلافة العباسية المطلق فى المصر الثانى ، فى خلافة المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) بن المتوكل . وفى عهده غلب عليه أخوه الموفق ، حتى لم يبق له من الخلافة إلا اسمها . يقول صاحب الفخرى : « كان المعتمد مستصفاً ، وكان أخوه الموفق طلحة هو المالب على أموره . وكانت دولة المعتمد دولة مجيبة الوضع ، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة ، ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقيادة المساكر ومحاربة الأعداء ومراعاة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء » (١) .

تقسيم أملاك الدولة :

صار الموفق صاحب الأمر والنهى فى بغداد ، إذ كان الموفق لا يرى أخاه المعتمد أهلاً للخلافة . وزاد حقد الموفق على المعتمد تقديمه ابنه المفوض عليه فى ولاية العهد ، وقسم الخليفة المعتمد أملاك الدولة بينه وبين ابنه المفوض وأخيه الموفق : على أن يخص المفوض الأملاك الشرقية وتضم إليه البصرة والكوفة ، ويخص الموفق الأملاك الباقية وهى القسم الغربى من الدولة العباسية . ووضع المعتمد تلك الشروط فى الكوفة ، ونص فيها على أنه إذا حدث فى القسم الخاص بأحدهما ما يستدعى إنفاق شئ من المال ، فإن نفقته تكون من مال خراج

ذلك القسم ، وكانت مصر من القسم الذى يشرف عليه المفوض ابن الخليفة^(١) .
ولما بدأ الموفق قتاله مع صاحب الزنج^(٢) ، وطلب إلى ابن طولون الأموال
التي يستعين بها في قتاله ، أرسلها إليه ابن طولون على أساس أنها تساعد على
صيانة الدولة العباسية وتحافظ على كيائها ، ولكن حين استقل الموفق المبلغ المرسل
إليه ، كتب إليه ابن طولون ينهيه إلى أنه ليس تابعا له وأن مصر ليست من
القسم الذى يشرف عليه أو يحق له جباية الأموال منها وأنه لم يرسل تلك الأموال
تلبية لطلبه أو تنفيذا لأمره بل ليبعد الخطر الذى يهدد سلامة الدولة العباسية .
ومن هنا اشتد العداء بين الموفق وابن طولون^(٣) ، حتى كانت مهمة الموفق
اقصاءه عن ولاية مصر ، ولكنه فشل في كل محاولاته ضده .

الخليفة يستعير بولس :

اتجه الموفق ناحية الخليفة المعتمد وضيق عليه ، وغلّ يده عن كثير من
أعمال الدولة ، دون أن يترك له شيئا من حرية التصرف . ذلك أن حال الخليفة
المعتمد بلغت من الضعف حدا لا يمكن تصوره ، حتى قيل إنه احتاج مرة إلى
ثلثمائة دينار فلم يجدها ، فقال :

(١) على إبراهيم حسن : مصر في العصور الوسطى ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .
(٢) الزنج : هم طائفة من عبيد إفريقية ، أثاروا الرعب والفرع في حاضرة الخلافة
العباسية ، وهددوا كيان الدول . وكان مسرح هذه الثورة العنيفة في المستنقعات الممتدة بين
البصرة وواسط . قاد هؤلاء الزنوج رجل فارسي يدعى علي بن محمد ، ادعى أنه من ولد علي
زين العابدين بن الحسين بن علي ، ولكنه لم يجهز بعقائد المذهب الشيعي على الرغم من إدعائه
النسب إلى علي وفاطمة ، ولكنه جهر بعقائد مذهب الخوارج الذين جعلوا الخلافة أمرا
مشاعا بين المسلمين للأحرار والأرقاء على السواء . قدم صاحب الزنج العراق ودعا إلى تحرير
العبيد في البصرة وضواحيها واستمال قلوبهم حتى أنهم تركوا واليهم وانضموا إليه ، فغظم شأنه
وقويت شوكته ولقيت دعوته قبولا ، ثم سار إلى بغداد سنة ٢٥٤ هـ ، فهدم الخلافة
المعتمد إلى أخيه الموفق بقتلهم .

(٣) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٤٠ و ٤١ .

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتمنا لديه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا وما ذاك شيء في يديه
إليه تحمل الأموال طرا ويمنع بعض ما يجبي إليه ؟

شكا المعتمد حاله إلى ابن طولون ، فرد عليه بكتاب يشير فيه عليه بالحضور
إلى مصر . وارتاح الخليفة إلى فكرة ابن طولون ، وكتب إليه يخبره بعزمه على
المسير إلى مصر . واتهم المعتمد فرصة غياب أخيه الموفق وانشغاله بحرب صاحب
الزنج ، وخرج من سامرا ، واستقر في الرقة سنة ٢٦٩ هـ . وما لبث الموفق أن علم
بمسير الخليفة إلى مصر ، فعمل على إحباط المشروع ، وعهد بذلك إلى ابن كنداج ،
عامله على الموصل والجزيرة . . وفي الرقة كثرت الجدل بين أتباع كل من الخليفة
وابن كنداج على النتائج التي تترتب على تنفيذ المشروع الذي اعتزمه الخليفة .
وبعد أن اشتد النقاش ، أمر ابن كنداج بالقبض على كل من حضر مع المعتمد
من سامرا ، وعنف الخليفة بشدة على ترك ملسكه وفراقه أخاه وهو منشغل
بحرب صاحب الزنج والاحتفاء بأحد ولاة الدولة العباسية وهو ابن طولون ، ثم
أمر بأن يكبل كل من الخليفة وأتباعه بالقيود ويعودوا من حيث أتوا .

فشلت بذلك محاولة الخليفة الاستقرار في مصر ، وأحبط مشروع ابن
طولون وهو نقل مقر الخلافة إلى الديار المصرية ، وما يتبع ذلك من تقوية مركزه
الدولي ورفع شأن مصر بين الأمم . واستاء ابن طولون من عمل الموفق وعامله
على البصرة ، فأرسل إلى أهل مصر كتابا قرئ عليهم وفيه « أن أبا أحمد
(بقصد الموفق) نكث بيعة المعتمد وأسره وحرّش عليه وأنه يبكي بكاء
شديدا »^(١) .

وخطب الخطيب بمصر يوم الجمعة ، فذكر ما آل عليه أمر المعتمد وقال : اللهم

فاكفه من حصره ومن ظلمه » وبعد موت ابن طولون سنة ٥٢٧٠ هـ ، تحسنت العلاقات بين الموفق أخى الخليفة المعتمد وبين خوارويه بن أحمد بن طولون ، وأصبح خوارويه بموافقة الخليفة العباسى واليا على مصر والشام هو وأولاده من بعده مدة ثلاثين سنة . ومات الموفق وابن كنداج سنة ٥٢٧٨ هـ ، وتوفى الخليفة المعتمد بعدها سنة ٥٢٧٩ هـ ، بعد أن بقى فى الخلافة ثلاثا وعشرين سنة ، وكان عهده عهد فتن واضطرابات ، وأيامه أيام محن وخطوب ، رغم ازدهار عصره بطائفة من العلماء كالبخارى ومسلم ومحمد بن عبد الحكيم المؤرخ المصرى والقاضى بكار .

ازدياد خطر التجزؤ :

زاد حالة الخلافة العباسية سوءا ، أن نفوذ الدولة قد تقلص عن جزء كبير من ولاياتها ، بماقت فى عضدها ، وعد استمرارا لظاهرة التجزؤ ، التى انتابت الخلافة ، إذ استقل عن الدولة العباسية قبل ذلك العهد : الدولة الأموية بالأندلس (١٣٨ — ٥١٩٧ هـ) زمن عبد الرحمن الأول الملقب بالناصر ، وتأسست دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى (١٧٢ — ٥٣١٢ هـ) ودولة الأغالبة فى تونس (١٨٤ — ٥٢٩٦ هـ) وفى مصر كانت السيادة لاطولونيين (٢٥٤ — ٥٢٩٢ هـ) .

وقام فى المشرق فى بلاد الفرس وبلاد ما وراء النهر عدة دويلات يرجع قيامها إلى انتماش الروح القومية التى ظهرت منذ أقام المأمون ، فقد قامت الدولة الطاهرية (٢٠٥ — ٥٢٥٩ هـ) فى خراسان على يد طاهر بن الحسين فى عهد المأمون ولكنها كانت تتمترف بسلطان الخليفة العباسى وامتد نفوذهم إلى بلاد الهند ونقلوا قاعدتهم إلى نيسابور حيث بقوا بها حتى سنة ٥٢٥٩ هـ . ومنها انتقلت السلطة إلى أسرة جديدة هى الدولة الصفارية (٢٥٤ — ٥٢٩٠ هـ) التى قامت على يد يعقوب بن الايث الصفار ، والدولة السامانية (٢٦٦ — ٥٣٨٩ هـ) على

يد نصر أحمد بن الساماني في بلاد ما وراء النهر ، وتفرعت عنها الدولة الغزنوية (٣٦٦ — ٥٧٩ هـ) لأن ألبكتين مؤسس هذه الدولة كان من بين الموالي الأتراك الذين استخدموا في البلاط الساماني . وتفاقم خطر هذه الدويلات ، فتقويت شوكة بني بويه (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) وكانوا من الشيعة الغلاة ، وامتد شرم إلى حياة الخلفاء العباسيين أنفسهم الذين أصبحوا من الضعف ، بحيث لم يعد الخليفة قادرا على الدفاع عن بغداد نفسها ، وبعد أن كانت بغداد مركز الحصار في العالم الإسلامي ، ظهرت مراكز أخرى تنافس حاضرة العباسيين ، مثل قرطبة والقاهرة وبخارى ، وأصبح كل منها قبلة العلماء والأدباء والشعراء^(١) . تلك كانت حالة الخلافة العباسية في العصر الثاني .

على أن عهد المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) يتميز بخروج عمرو بن الليث الصفار ، أحد زعماء الصفارية واستيلائه على كثير من بلاد الفرس . فقد تمكن يعقوب مؤسس الأسرة الصفارية من الاستحواذ على ولاية خراسان وبلاد فارس وشرطي بغداد/وسر من رأى وعقد له على كرمان وسجستان والسند وطبرستان وجرجا والرى وأذربيجان وقزوين ، وذلك بموافقة الخليفة العباسي ، ولم يكتف يعقوب بذلك بل قصد بغداد نفسها ولكنه هزم في سنة ٢٦٢ هـ في خلافة المعتضد . وبوفاته سنة ٢٦٥ هـ ، أقر الخليفة المعتمد عمرو بن الليث على ما كان يتولاه أخوه يعقوب من البلاد . ولكن العلاقات لم تلبث أن ساءت بين الدولة الصفارية والخلافة العباسية ، وعزل المعتمد عمرو بن الليث الصفار عن البلاد التي ولاه إياها ، وقد محمد بن طاهر بن الحسين بلاد خراسان وأمر بلمن عمرو على المنابر . ولكن محمد بن طاهر آثر البقاء في حاضرة الخلافة وأتاب عنه رافع بن هرثمة على خراسان . ولما ولي الخلافة المعتمد ، عزل رافع وأعاد عمرو بن الليث الصفار إلى

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ١٤١ — ١٤٢ .

ولاية خراسان . ولم يكتف بذلك بل طلب من الخليفة ولاية ماوراء النهر وكانت تحت إمرة إسماعيل بن أحمد الساماني ، فرفض إسماعيل تسليمها له وجاربه وأصره وشقت شمل جيشه . وكانت هذه الموقعة من المواقع الحاسمة ، فقد كانت عاملاهما في سقوط الدولة الصفارية وقيام الدولة السامانية على أنقاضها سنة ٢٨٧ هـ ^(١) .

وبذلك يكون مؤسس الدولة السامانية في بلاد ماوراء النهر ، نصر بن أحمد الساماني قد خرج كذلك على المعتضد . وتنسب هذه الدولة إلى أسرة فارسية عريقة في المجد ، ونال السامانيون حظوة كبيرة عند الخليفة المأمون ، فولاهم بلاد ماوراء النهر ورفع من شأنهم . وكان لأحمد سبعة أولاد ، واشتهر منهم نصر بن أحمد بن أسد بن سامان وإسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان . وفي عهد إسماعيل ، ظهرت الدولة السامانية بمظهر القوة ، وقامت بدور خطير في إزالة الدولة الصفارية ، وقضى على هذه الدولة سنة ٣٤٣ هـ على أيدي الغزنويين وخانات تركستان ، رغم ما كان لأمر السامانيين من فضل كبير في تشجيع العلم والأدب وبخاصة الأدب الفارسي . من ذلك : كتاب الشاهناه للفردوسي ، وللكتاب المنصوري الذي ألفه أبو بكر الرازي وهو من أشهر كتب الطب في ذلك العصر وقد أهداه إلى أبي صالح منصور بن إسحاق الساماني الذي ولى سجستان نيابة عن السامانيين . وقد روى ابن سينا الفيلسوف المشهور أنه رأى في مكتبة مدينة بخارى حاضرة الدولة السامانية من طرائف الكتب ما لم يسمع بمثله من قبل .

وكان ضعف الخلافة العباسية في بغداد من عوامل ظهور الدولة الغزنوية (٣٥١ — ٥٨٢ هـ = ٩٦٢ — ١١٣٦ م) في بلاد الأفغان والبنجاب ، وذلك على النحو الذي ظهرت به الدولة الصفارية في خراسان والدولة الصفارية في خراسان والدولة السامانية في بلاد ماوراء النهر . ويرجع سبب تأسيس الدولة

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ١٧٨ — ١٧٩ .

الغزنوية، إلى أن ألبكتكين حين أقصى عن مناصبه الكبرى في الدولة السامانية عاد إلى غزنة (شمال غرب الهند) حيث خلف أباه في حكمها، واستطاع أن يفاوض سادته من سلاطين سامان. وبعد موته خلفه ابنه إسحق، وكان لإسحق هذا مملوك يدعى سيكتكين آلت إليه السلطة (٣٦٦ — ٣٨٧ هـ) : فضرب النقود باسمه، ومد سلطاناه في الشرق حيث أسس دولة حاضرتها بشاور وانتشر نفوذه في فارس حيث استولى على خراسان، فمكثه ذلك من الاستيلاء على أجزاء في الهند بعد حروب طاحنة، ثم اتسعت رقعة ولايته حتى استعان ابن أسد الساماني بسبكتكين الذي يعتبر أعظم سلاطين الغزنويين. وخلف سبكتكين ابنه محمود الذي ظهرت فيه قوته فجأة، وغزا الهند اثنتي عشرة مرة، وضم إلى مملكته بلاد البنجاب وأخضع بلاد ماوراء النهر، ووالى ضرباته لبني بويه، وانتهى الأمر باستيلائه على أصبهان، وخضعت له خراسان وعين أخاه نصرا على جيوشها فاتخذ نيسابور مركزاً له وخطب للخليفة القادر (٣٨١ — ٤٢٢ هـ). وبذلك زالت الدولة السامانية من خراسان على يد محمود الغزنوي، الذي كان أول من اتخذ لقب أمير، ولقبه الخليفة القادر بالله : يمين الدولة وأمين الملة، وظهرت هذه الألقاب على السكة التي كانت تظهر باسمه : ومن أهم سلاطين الدولة الغزنوية ابنه مسعود (٤٢١ — ٤٣٢ هـ)، ثم السلطان مودود بن مسعود (٤٣٢ — ٤٤١ هـ)، ومن بعده تداعى سلطان الغزنويين في الهند وانقسمت دولتهم إلى أسر إسلامية مستقلة.

بذلك نرى أن قيام الدويلات كان شرأ مستطيراً على الخلافة العباسية. ولم يعد الأمر مقصوراً على ظهور دويلات تتمتع بجميع مظاهر الاستقلال، وتقل من نفوذ الخليفة العباسي وسلطاناه، بل أن الدولة العباسية حرصت على أن تخطب ود الدول القوية التابعة لها. وأكبر دليل على ذلك، مسألة زواج الخليفة العباسي

المعتضد من قطر الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون وإلى مصر مع أن مصر لم تعد في ذلك أن تكون ولاية من الولايات التابعة لها .

وتفصيل ذلك أن العلاقات بين الطولونيين والعباسيين كانت عدائية ، على أثر ذلك الخلاف الذي قام بين أحمد بن طولون والموفق طليحة أخى الخليفة المعتمد ، مما سبب قيام الحرب في بدء ولاية خمارويه على مصر بينه وبين الموفق ، وانتهت بانتصار خمارويه وعقد الصلح بينهما . ولكن على أثر وفاة الموفق سنة ٢٧٨ هـ ثم الخليفة المعتمد سنة ٢٧٩ هـ ، أصبحت العلاقات ودية بين الطولونيين والعباسيين ، حتى أن الخليفة العباسي المعتضد أقر خمارويه على ولاية البلاد الممتدة بين العراق شرقا و برقة غربا مدة ثلاثين سنة ، ولأولاده من بعده ، ابتداء من سنة ٢٨٩ هـ . وكان من أثر سياسة حسن التفاهم « أن رسول الخليفة قدم على خمارويه يحمل إليه إئتنى شجرة خضرة وسيفا وتاجا ووشاحا » ^(١) وعرض خمارويه زواج أسماء التي تعرف باسم « قطر الندى » من ابن الخليفة العباسي ، ولكن الخليفة المعتضد اختارها لنفسه ، وبذل خمارويه الأموال الطائلة في تجهيز ابنته إلى الخليفة ، وغالى في ذلك الجهار . وبعد إعداد الجهار ، خرجت قطر الندى من القطائع قاصدة بغداد ، وبلغ الموكب شاطئ بغداد في أول الحرم سنة ٢٨٢ هـ ، وشهدت بغداد أياما كلها حمور وسرور ، وسارت السفن تنحدر عباب نهر دجلة ، وأخذت بغداد زخرفها وأزييت ، وحلبت قطر الندى على عروسها في يوم الثلاثاء . ربيع الآخر من ذلك العام . ولم تطل حياتها ، فقد توفيت بعد قليل من زواجها ولحق بها الخليفة المعتضد عام ٢٨٩ هـ ^(٢) .

(١) أبو المحاسن : التيجون الزاهرة = ٣ س ٧٨ .

(٢) على إبراهيم حسن : مصر في المصور الوطني س ٧٢ - ٧٣ .

واعتلى المكتنى (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) عرش الخلافة العباسية . وفي عهده ظهر ضعف الخلافة العباسية بجملاء ، وزادت ظاهرة اقتطاع أجزاء من أراضي الدولة العباسية : فقد أصبح السامانيون أصحاب النفوذ المطلق في فارس ، وتفاقم شر القرامطة حول بغداد والبصرة . وفي سورية واليمن بزمامة زكروية ، وألقوا الرعب والفرع في قلوب الأهليين . وكان الخليفة مبدراً كثير البذل والإنفاق . وكان اعتلاؤه العرش إيذاناً بزوال سلطان الطولونيين عن مصر ، فقد بعث قائده المشهور محمد بن سليمان الكاتب لاسترداد مصر ، فنزل الفسطاط وسار منها إلى القطائع عاصمة الطولونيين سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) ، وأشعل فيها النار فالتهمت الدور والمساجد والحمامات والأسواق والبساتين ، وأصبحت تلك المدينة أنراً بعد عين .

ويصف المقرئ في « الخطط » كيف أزال محمد بن سليمان معالم الطولونيين في القطائع وما ارتكبوته فيها وفي الفسطاط من القطائع ، في هذه العبارة : « دخل محمد بن سليمان يوم الخميس أول ربيع الأول ، فألقى النار في القطائع ونهب أصحابه الفسطاط وكسروا السجون وأخرجوا من فيها وهاجموا الدور وهتكوا الرعية . . . وساقوا النساء وفعلوا كل قبيح من إخراج الناس من دورهم وغير ذلك . وأخرج ولد أحمد بن طولون وهم عشرون إنساناً وأخرج قوادهم ، فلم يبق منهم أحد يذكر ، وخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار وتمطلت منهم المنازل وحل بهم الدل بعد العز والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونصرة الملك ومساعدة الأيام ، ثم سيق أصحاب شيبان إلى محمد بن سليمان وهو راكب ، فذبخوا بين يديه كما تذبح الشاة ، وقتل من السودان سكان القطائع خلقاً كثيراً » (١) . وتقلد محمد بن سليمان عقب ذلك ولاية مصر مكافأة له على مايفعله من جهود في سبيل إعادة مصر إلى سيطرة العباسيين المطلقة .

(١) المقرئ : الخطط ج ١ ص ٣٣٢ .

ظهور أم المقتدر على المسرح السياسى :

وقد أدى تدخل النساء فى أمور الدولة فى العصر العباسى إلى ضعفها وحرمانها من وزرائها الأكفاء واستهتار العامة بها ، ووضحت تلك الظاهرة فى عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) حين أصبح الأمر والنهى بيد أمه ، وكانت تسمى « السيدة » وهى سيدة رومية ، بلغ من ازدياد نفوذها أنها كانت إذا غضبت هى أوقهر ماتنها^(١) من أحد الوزراء أصبح مصيره العزل لا محالة .

وليس هذا كل هذا ما كانت تتمتع به السيدة من نفوذ ، فقد اتسعت سلطتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين فى ٣٠٦ هـ قهرماتنها « ثومال » صاحبة المظالم ، وبذلك تعدى الأمر جلوس الوزراء للمظالم إلى جلوس بعض النساء ، إذ كانت ثومال تجلس فى الرصافة وتنظر فى رفاع الناس كل جمعة وتحضر القضاة والأعيان وتبرز التوقع وعليها خطها ، وكان من أثر هذا التعيين أن استمر العامة بالخلافة ونظروا إلى أحكامها نظرة احتقار وازدراء . ولم تسكن محكمة المظالم تنظر فى قضايا الأفراد وحدها ، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل فى شكاوى الشعب عامة .

وفى ذلك يقول الفخرى : « واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخطيط كثير لصغر سنه ، ولاستيلاء نسائه عليه فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء ، فخربت الدنيا فى أيامه وخلت بيوت الأموال ، واختافت الحكامة ، فخلع ، ثم أعيد ثم قتل »^(٢) .

(١) القهرمانة : السيطرة على من تحت يدها .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٤٠ .

واستأثرت السيدة أم المقتدر بنفوذ كبير في الدولة العباسية . وليس أدل على عظم نفوذها وتدخلها في شئون الدولة وتمتعها بنفوذ أقوى من نفوذ الخليفة ، من ذلك الكتاب الذي بعث به إليها الوزير المصلح على بن عيسى ، يفصل فيه من التصرفات التي نسبتها إليه في إدارة شئون الدولة المالية ، وكان مصير هذا الوزير العزل رغم ما قام من إصلاح .

وفي ذلك يقول ابن الأثير : « ولما كان آخر ذي القعدة سنة ٣٠٤ هـ ، جاءته أم موسى القهرمانة لتتفق معه على إصلاح ما يحتاج إليه حرم الدار والحاشية من الكسوات والنفقات ، فوصلت إليه وهو نائم ، فقال لها حاجبه : إنه نائم ولا أجسر أن أوقظه ، فاجلسي في الدار ساعة حتى يستيقظ ، فغضبت من هذا وعادت ، واستيقظ على بن عيسى في الحال وأرسل إليها حاجبه وولده يعقذر ، فلم تقبل منه ، ودخلت على المقتدر ونخرصت ^(١) على الوزير عنده وعند أمه ، فعزله عن الوزارة وقبض عليه ثامن ذي الحجة ^(٢) .

كذلك عملت السيدة على عزل الوزير أبي العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد ابن الخصب ، وصودرت أمواله سنة ٣١٤ هـ ، وفي عهد الوزير حامد بن العباس ازداد نفوذ السيدة على حين كان الخليفة قابعا في داره ^(٣) .

وقد قص الصولي الذي تلمذ عليه الرازي بن المقتدر وهو أمير ، قصة تبين لنا عدم اهتمام السيدة وقهرماتها بتنشئة الأمراء تنشئة قوامها التوافر عن العلم وتوجيههم وجهة صالحة في الإمام بنظم الحكم والوقوف على أحوال الدولة وعلاقاتها بغيرها من الدول ، بل على العكس من ذلك لم يأبهن أن يكون الأمير أوولى العهد متعلما متفقا ، إنما يرويه ضعيفا غير ملم بشئون الحكم ^(٤) .

(١) نخرصت : كذبت .

(٢) الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٣٧ .

(٣) حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن : النظام الإسلامية ص ١٦٠ .

(٤) على إبراهيم حسن : نساء ملوك في التاريخ الإسلامي نصيب .

وفي ذلك يقول الصولي : « وإني لأذكر يوما في إمارته وهو يقرأ على شيئا من شعره بشأنه ، وبين يديه كتب لغة وكتب وأخبار ، إذ جاء خادم من خدم جدته السيدة ، فأخذ جميع ما بين يديه من الكتب ، فجملوه في منديل كان معهم وما كلمونا بشيء ومضوا ، فرأيتهم قد وجم لذلك واغتاظ . . . ومضت ساعات أو نحو ذلك ، ثم ردوا الكتب بحالها . . . وقالت السيدة ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء ، وهذا أبوم قد رأينا كل ما نحب فيه وليس بمالم فاعمل على ذلك . . . » (١) .

ازدياد سؤكة الأزارك :

في عهد الخليفة المقتدر أيضا ، بدأت ظاهرة جديدة في العصر العباسي ، هي كثرة تولية كبار الموظفين وعزلهم ، حتى قيل إنه عين في يوم واحد تسعة عشر ناظرا للسكرية ، وأخذ من كل واحد منهم رشوة . وساءت الأحوال في عهد المقتدر واضطربت أمور الدولة من جراء السياسة التي اتبعها في تعيين وزرائه وعزلهم ، فقد ولي الوزارة في عهد إثني عشر وزيرا ، وكان لكل وزير أنباع ومحاسيب يرتفع ذكرهم وتحسن أحوالهم بتولية الوزارة ، فإذا ما عزل عزلوا .

ورغم ما عرف به المقتدر من الضعف وما كانت عليه الخلافة من تفكك ووهن ، فقد ظهرت الدولة العباسية في عهده بمظهر القوة حين علم أن رسول إمبراطور الروم في طريقه إلى بغداد لطلب الهدنة وتبادل الأسرى . فقد أنشأ لذلك داراً لاستقبال رسول الإمبراطور ، عرفت بدار الشجرة ، وفيها قيل إنها « فرشت بالفروش الجليلة ، وزينت بالآيات الجليلة ، ورتب الحجاب وخلقهاهم والحواشي على طبقاتهم ، على أبوابها ودهاليزها وممراتها ومخترقاتها وصحنها ومجالسها ،

ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة ، وبين أيديهم الجناثب على مثل هذه الصورة ^(١) . ووصف السيوطى احتفال الخليفة بالإمبراطور ، فقال : « وفي سنة ٣٠٥ هـ قدمت رسل ملك الروم بهدايا وطلبت عقد هدنة ، فعمل المقتدر موكبا عظيما ، فأقام المسكر وصفهم بالسلاح وهم مائة وستون ألفا ... وبعدهم الخدام وهم سبعة آلاف خادم ، ويلهم الحجاب وهم سبعمائة حاجب . وكانت الستور التى نصبت على حيطان دار الخلافة ثمانية ألف ستر من اللدياج ، والبسط إثنين وعشرين ألفا ، وفي الحضرة مائة سبع في السلال ... » ^(٢) . ووصف صاحب تاريخ بغداد استقبال الخليفة للإمبراطور فقال : « ووصلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس فى التاج مما يلي دجلة ، أن لبس بالثياب اللدبيقية ^(٣) المطرزة بالذهب على سرير آبنوس قد فرش بالديبى المطرز بالذهب ، وعلى رأسه الطويلة ، ومن يمينه السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة ، ومن يسرته تسعة أخرى من أنحر الجواهر وأعظمها قيمة غالبية الضوء على ضوء النهار ، وبين يديه خمسة من ولده : ثلاثة يمينه وإثنان يسرة . ومثل الرسول وترجمانه بين يدي المقتدر بالله ... ووقفا ساعة ... وناولوه المقتدر بالله من يده جواب ملك الروم ، وكان ضخما كبيرا ، فتناوله وقبله إعظاما له » . على أن المقتدر بعد أن أجاب رسول ملك الروم إلى ما طلب « سير مؤنسا الخادم ليحضر الفداء ، وجعله أميرا على كل بلد يدخل يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج عنه ، وسير معه جمعا من الجنود وأطلق لهم أرزاقا واسعة ، وانفذ معه مائة وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين ، وسار مؤنس والرسول ، وكان الفداء على يد مؤنس » .

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ١٠٠ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣ .

(٣) اللدبيقية : نسبة إلى دبيق ، بلدة فى مصر .

ومما يدل على مدى اضطراب الدولة العباسية في عهد المقتدر ، أن مؤنسًا الخادم أحد القواد خرج على الخليفة في سنة ٣١٧ هـ ، وباع هو وغيره من الأمراء محمد بن المعتضد بالخلافة ولقبوه « القاهر بالله » ، وطلب الجند أرزاقهم في الوقت الذي قامت فيه الاحتفالات بتقليد الخليفة الجديد الخلافة وحملوا المقتدر على أعناقهم وردوه إلى دار الخلافة ، وعزلوا القاهر ، فأخذ يبكي ويقول : « الله الله في نفسي » ، فاستدعاه المقتدر وقبله وقال له « يا أخى ! أنت والله لا ذنب لك ، والله لا جرى عليك منى سوء أبداً » ^(١) . غير أنه لم يمتص على عودته إلا قليلا حتى خرج عليه مؤنس مرة ثانية (سنة ٣٢٠ هـ) وحاربه بجنده من البربر ، وانتهى الأمر بقتل الخليفة . ودفن في الموضع الذي مات فيه في شوال سنة ٣٢٠ هـ .

ولى الخلافة من بعده ، أخوه « القاهر بالله » (٣٢٠ — ٣٢٢ هـ) . وفي عهده انتشرت الفتن ، وشغب عليه الجند . وعوّل كبار رجال دولته وقائده مؤنس ووزيره ابن مقله على خلعه ، فهجموا عليه وقتلوه ، ثم حبس إلى أن مات في جمادى الأول سنة ٣٣٩ هـ .

وفي عهد الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) ازداد ضعف الخلافة العباسية ، بسبب ازدياد شوكة على بن بويه في فارس والحسن بن بويه في الرى وأصبهان ، واستقل بنو حمدان بالموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر ، واستقل الإخشيد بمصر والشام ، واستقل نصر بن أحمد السامانى ، بخراسان ، وتلقب عبد الرحمن الثالث الأموى (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) بالأندلس بلقب أمير المؤمنين ، وأصبح في العالم الإسلامى ثلاث خلافات : العباسية في بغداد ، والفاطمية في بلاد المغرب ، والأموية في الأندلس .

وأهم ما يتميز به عهد الراضى ، أن علاقة الإخشيد بالخليفة العباسى ظلت ودية ، وأصبحت مصر تعترف فى الخطبة بسيادة العباسيين عليها . ولكن تبدلت صلة الوفاق التى سادت بين الإخشيد والخليفة العباسى ، بمسير رجل من رجال الدولة العباسية يدعى محمد بن رائق الحرزى إلى الشام يريد أخذ مصر . فأنار هذا العمل حنق الإخشيد حتى ألغى الدعاء للخليفة العباسى فى خطبة الجمعة ، وأمر بذكر اسم الخليفة القائم الفاطمى مكانه . وفى رمضان سنة ٣٢٨ هـ . وقعت الحرب بين الإخشيد وابن رائق ، فبعث ابن طفج بأحد رجاله ويدعى عمران بن فارس على رأس جيش كبير إلى بلاد الشام للملاقاة ، ورغم ذلك استولى ابن رائق على دمشق بعد أن هزم واليها عبد الله بن طفج ، واستولى على حصص وحلب ودخل الرملة . على أن الإخشيد استعمل مع ابن رائق الأناة والصبر حتى لا يغضب الخليفة العباسى . لذلك كتب إلى على بن أحمد العجمى نائبه فى بغداد ، يطلب إليه أن يخبر الخليفة الراضى بمسير ابن رائق ويستوضحه حقيقة الأمر ، وجاء فى حديثه : « فإن كان أمير المؤمنين قلده ، سلمت له أو يأمرنى بالقتال ، فإنى صالحته وراضيته فما رضى » ، ولما عرض ابن العجمى ذلك الأمر على الخليفة ، لم يبد رأيا فى الموضوع ، ولكنى يحكم قال : « من حارب بالسيف وهزم صاحبه ، فالعمل له » . فكتب ابن رائق يبلغ ذلك الراى إلى الإخشيد ^(١) .

أعد الإخشيد العدة لقتال ابن رائق ، فاستخاف أخاه الحسن على مصر ، وخرج بنفسه سنة ٣٢٨ هـ ، ونزل الفرما التى كانت قد اقتربت منها جيوش ابن رائق . ويظهر أنه لم يكن للإخشيد وابن رائق رغبة جدية فى القتال ، لأنه على أثر وقوع مناقشات بسيطة ، عقد الصلح بينهما على أن تكون الرملة للإخشيد وطبرية وما فى شمالها لمحمد بن رائق ، وعاد الإخشيد بعد ذلك إلى دمشق سنة ٣٢٨ هـ ، وما لبث ابن رائق أن نقض شروط الصلح ، وسار من دمشق

(١) ابن سعيّد : كتاب المغرب فى حلى المغرب ص ٢٦ — ٢٦ .

فى ذلك العام ، ميمما شطر الديار المصرية . فلما بلغ ذلك الإخشيد غضب غضبا شديداً ، وغادر البلاد على رأس جيوشه إلى الرملة ، ودار القتال بين الفريقين ، فانقصر الإخشيد أولاً فى العريش ، وعاد بن رائق منهزماً إلى دمشق ، وذهب الإخشيد إلى الرملة وبعث منها بجيش تحت قيادة أخيه الحسين ، ولكن ابن رائق هزمه هزيمة كبرى وقتل قائد الحسين ، ورغم ذلك تصافح الفريقان مرة أخرى ، وفى ذلك الصلح تعهد الإخشيد بأن يدفع لابن رائق جزية سنوية قدرها ١٤٠٠٠٠ دينار ، وأن يتقلد ابن رائق من الإخشيد ولاية الأراضى الشامية شمالى الرملة^(١) . وكان قبول الإخشيد لعقد الصلح على هذا النحو ، هو خوفه من دوام تهديد الخلافة العباسية للملكه .

إمرة الأمراء (٣٢٤ — ٣٣٤ هـ)

واختلت أمور الدولة فى أوائل عهد الراضى الذى أسند الوزارة إلى رجال لم يقوموا بأى عمل فى سبيل إصلاح شئون البلاد وإقالتها من عثرتها ، لإزدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم فى أمور الدولة ، مما دعا الخليفة الراضى إلى استمالة ابن رائق الذى كان يلى واسط والبصرة ، وسلم إليه مقاليد الحكم ولقبه أمير الأمراء ، فازدادت سلطته وعلت على مرتبة الوزير وقلده الإمارة ورئاسة الجيش ، ورد إليه تدبير أعمال الخراج والضيايع ، وفوض إليه تدبير المملكة . وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر فى الممالك ، وبطل يومئذ أمر الوزارة ، ولم يكن للوزير غير اسم الوزارة فقط . ثم تغير الخليفة الراضى على بن رائق ، وتقلد بحكم إمرة الأمراء ، ولكن ابن رائق مالبث أن عاد إلى إمرة الأمراء ودخل بغداد فى صفر سنة ٣٢٧ هـ واشتد الضعف فى عهد ولاية كل من ابن رائق وبحكم . روى الصولى فى كتابه « الأوراق » ، أن الراضى عبر عن ألمه من هذا الحال ، فقال : كأتى بالناس

١ (١) على إبراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٤٦ — ٢٥٠ .

يقولون ، أَرْضَى هذا الخليفة أن يدبر أمره عَنْدَ تَرْكِي يتحكم في المال وينفرد بالتدبير ؟ ولا يدرون أن هذا الأمر أَفْسَدَ قَبْلِي ، وَأَدْخَلَنِي فِيهِ قَوْمٌ بَغِيرُ شَهْرَتِي . ثم دبر الأمر ابن رائق فدَبَّرَهُ أَشَدَّ تَسْحِيبًا فِي بَابِ الْمَالِ مِنْهُمْ وَانْفَرَدَ بِشَرْبِهِ وَلَهْوِهِ . ولو بلغه وبلغ الذين قبله أن على فرسخ منهم فرسانا قد أَخَذُوا الْأَمْوَالَ وَاجْتَنَحَوْا الْفَنَاسَ ، فَقِيلَ لَهُمْ أَخْرِجُوا إِلَيْهِمْ فَرَسَخًا ، لَطَالَبُوا الْمَالَ وَطَالَبُوا بِالْإِسْتِحْقَاقِ . وربما أَخَذُوهُ وَلَمْ يَبْرَحُوا ، وَيَتَعَدَّى الْوَاحِدُ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ أَصْحَابِهِمْ عَلَى بَعْضِ الرِّعْيَةِ ، وَأَمَرُ فِيهِ بِأَمْرٍ فَلَا يَمْتَثِلُ وَلَا يَنْفِذُ وَلَا يَسْتَعْمَلُ : أَوْ أَكْثَرُ مَا فِيهِ أَنْ يَسْأَلَنِي كَلْبٌ مِنْ كَلَابِهِمْ فَلَا أَمْلِكُ رَدَّهُ ، وَإِنْ رَدَدْتَهُ غَضِبُوا وَيَجْمَعُوا وَتَسْكَمُوا وَكَانَ الْأَجُودُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِي كَمَا كَانَ لِمَنْ مَضَى مِنْ قَبْلِي ، وَلَسَكُنْ لَمْ يَحْرَقُوا الْقَضَاءَ بِهَذَا .

ومما يبين ما امتاز به الراضى ، تلك العبارة التى أوردها صاحب الفخرى ، حيث يقول « ختم الخلفاء فى أشياء منها : أنه آخر خليفة دُونُ له شعر ، وآخر خليفة انفرد بتدبير المُلْكِ ، وآخر خليفة خَاطَبَ على منبر يوم الجمعة ، وآخر خليفة جالس الندماء ووصل إليه معلماء ... » ^(١) قال الصولى : سئل الراضى أن يخطب يوم الجمعة ، فصعد المنبر بِسُرٍّ مِنْ مَنْ رَأَى ، فَخَضَرْتُ أَنَا وَاسْحَاقُ بْنُ الْعَتَمَدِ ، فَلَمَّا خَاطَبَ شَفَّ الْأَسْمَاعَ وَبَالَغَ فِي الْمَوْعِظَةِ » ^(٢) .

ولم تستفد الخلافة العباسية من نظام إمرة الأمراء شيئًا ، بل على العكس من ذلك ازدادت أحوالها سوءًا حتى لم يتمكن الخليفة الراضى أن يدفع أرزاق الجند أو يحصل على ما يكفيه . ولم يكن تاريخ الراضى سوى سلسلة منازعات بين رجال الدولة على الانتثار بالسلطة والنفوذ .

وكذلك كان عهد الخليفة المتقى (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ) عهد اضطراب ، فقد

(١) ابن طباطبایا : الفخرى ص ٢٦١ .

(٢) الأوراق ص ٢٣٣ .

ظهرت الفوضى خلاله بسبب قيام النزاع على منصب إمرة الأمراء ، إذ قام نزاع بين ابن رائق وأبى عبدالله البريدى صاحب الأهواز ، ثم خرج بحكم على ابن رائق وانتزع من يده إمرة الأمراء سنة ٣٢٧ هـ وظل فيها الى أن قتل سنة ٣٢٩ هـ ، ثم دخل البريدى بغداد ولحق به منافسه ابن رائق . وانهى الأمر بخروج ابن رائق ومعه الخليفة المتقى الى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل الذى قتل ابن رائق حتى لا يقف فى وجهه ولا يحول بينه وبين منصب إمرة الأمراء . وسرعان ما دخل ابن حمدان بغداد ومعه الخليفة العباسى ، وتقلد أعباء هذه الوظيفة فى مستهل شعبان سنة ٣٣٠ هـ . على أن أيام الحمدانيين (٣٣٠ - ٣٣١ هـ) لم تطل فى بغداد ، ولم تكن حال بغداد فى عهدهم بأحسن منها فى عهد من سبقهم من أمراء الأمراء ، فقد طرد منهم منها توزون التركى رئيس الشرطة فى شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ ، وطارد جيوشهم الى الموصل ، وتقلد إمرة الأمراء .

لم يدم الصفاء بين توزون والخليفة المتقى ، بسبب تأمره على توزون وعمله على صرفه: واستنجد المتقى - بعد أن انضحت نوايا توزون السيئة ازاءه - بالإخشيد أقوى ولاته فى ذلك الوقت . وسار الإخشيد إلى الشام فى سنة ٣٣٢ هـ ، ولقى الخليفة فى مدينة الرقة الواقعة على الطريق بين الشام والعراق . وفى تلك المدينة قدم الإخشيد الى المتقى عدداً من التحف والهدايا ، فقيل « إنه حمل اليه من العين والورق والكسوة والجوهر والطيب والفرش والكرام والبغال ما مبلغه مائتان وخمسون ألف دينار » عدا ما قدمه إلى أتباع الخليفة وخاصة ، مما يدل على وفاء الإخشيد ، إذ كان الخليفة فى ذلك الوقت لا يملك من الأمر شيئاً . وفى الرقة عرض الإخشيد على الخليفة البقاء معه فى الشام ، أو الذهاب الى مصر وهو الاقتراح الذى سبق أن عرضه أحمد بن طولون فى نفس هذا المكان على الخليفة المعتمد وقال له الإخشيد : « يا أمير المؤمنين ! أنا عبدك وابن عبدك ، وقد عرفت الأثرak وغدرهم وفجورهم ، فافقه فى نفسك ، وسر معى إلى الشام ومصر ، فعلى لك

وتأمن على نفسك»^(١) . فلم يقبل الخليفة ذلك العرض ، حتى لا يترك بغداد عاصمة مملكته ومقر أسرته ، ولواقيل ذلك لتغير مجرى الحوادث ولأصبح لمصر مركزا ممتاز بين الأمم الإسلامية . وسار الإخشيد بعد ذلك إلى مصر^(٢) .

رجع المتقي إلى بغداد بعد أن تعهد توزون بحمايته ، إذا ما عاد إليها ، إلا أن توزون لم توف بعهده ، فإنه قبض على الخليفة في شهر صفر سنة ٣٣٣ هـ ونهب أصحابه معسكره وأخذ الخاتم من يده^(٣) » وكحل^(٤) المتقي لله فصاح ، فأمر أصحاب الدياب^(٥) فضربوا بها ، فصاح فلم يسمع صياحه بعد أح خلع نفسه . . . فكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهرا^(٦) . ويقول المسعودي « فبكي المتقي ، وصاح النساء والخدم لصياحه ، وأدخل إلى الحضرة مسمول العينين ، وأخذ منه البردة^(٧) والقضيب^(٨) والخاتم وسلمها إلى المستكفي بالله^(٩) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٥ .

(٢) على إبراهيم حسن : مصر في المصور الوسطى ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .

(٣) حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٧٩ .

(٤) كحل : كتابة عن سئل عينه .

(٥) الدياب : جمع ديب ، وهو الطبل .

(٦) الصولي : الأوراق ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

(٧) البردة : هي بردة النبي صلى الله عليه وسلم ، التي اعتاد الخلفاء لبسها في المواكب .

وهي شملة مخططة ، وقبل كساء أسود مربع فيه صفر . وقد اختلف في وصولها الى الخلفاء : فقبل أن التي قد وهبها لكعب بن زهير حين امتدحه بقصيدته التي أولها : بنت سعاد ، ثم اشتراها معاوية بن أبي سفيان منه أو من ورثته بعشرين ألف دينار ، وقبل أن التي أعطاه أهل إبله أمانة لهم فأخذها منهم عبد الله بن خالد بن أوفى عامل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية على إبله ، وبث بها إليه ، فظلت في خزائنه حتى آلت الى أبي العباس السفاح أول خلفاء الدولة العباسية . البلاشندي : صبح الأغشى ج ٣ ص ٧٦٩ .

(٨) بقى القضيب والبردة عند خلفاء بني العباس في بغداد الى أن انتزعها السلطان سنجر السلجوقي من الخليفة المسترشد بالله ، ثم أعادها الى المقتنى بالله عند توليته الخلافة سنة ٥٣٥ هـ ، فاحتفظ بها من جاء بعده من خلفاء بني العباس حتى انقرض دولتهم سنة ٦٥٦ هـ .

القلقشندي : نفس المصدر ج ٣ ص ٢٧٠ .

(٩) مروج الذهب ج ٣ ص ٥٢٢ .

ويعد المستكني (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ) آخر خلفاء العصر العباسي الثاني ممن وقع تحت سيطرة الأتراك خلال حكمهم في بغداد واشتهر بالصلاح والتقوى وعدم شرب النبيذ . وكان - كغيره من خلفاء ذلك العصر - ألعوبة في أيدي الأتراك ، حتى أن توزون الذي أقره الخليفة في إمرة الأمراء واستبد بالسلطة دونه « ضم إليه غلاماً تركياً من غلمانه ، وذلك حتى يقف هذا الغلام على أسرار الخليفة وما يجري في دار الخلافة » . وفي متعنى الدلالة على مدى الضعف الذي كان عليه الخليفة والهوة التي انحدرت إليها الخلافة العباسية إذ ذاك . ويقول الصولي إنه « لما جلس على السرير^(١) . وبايعه الناس باقى يومه وأياما بعد ذلك ، وكل من بايعه أحلف على طاعته ونصيحته وموالاته من والاه ومعاداته من عاداه »^(٢) . وفي أوائل عهد المستكني مات توزون ، خلفه في إمرة الأمراء أبو جعفر ابن شيراز ، فلم يكن أقل عنقا من سبقوه . ولا غرو فقد أصبح في يد أمير الأمراء حبس الخليفة وخلمه وقتله ، فكان هذا تعديا على سلطة الخليفة الدينية وما لها من حرمة في النفوس . فقد اجتمعت السلطة كلها في يد أمير الأمراء ، وفوض الخليفة إليه أمر تدبير المملكة حتى لم يعد للخليفة من الأمر شيء سوى سلطته الدينية ممثلة بذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة ، ولم يكن هذا إلا لأغراض سياسية غايتها احتفاظ هؤلاء الخلفاء بمراكزهم أمام الجمهور . ولم يكن عند الخليفة من سبيل يأمن به في نفسه الأذى ، إلا هروبه من معسكر أحد الأمراء ، فكان إنقاذه تحولا عما فيه من مذلة إلى مذلة أخرى ، حتى دفعه اليأس إلى دعوة بنى بويه إلى معاونته وتخليصه ، فإذا ما وقع تحت رحمتهم صار ألعوبة في يدهم .

(١) سرير الملك أو عرش الملك : هو من رسوم الملك وآلانه ، متخذ من رخام ، وأول من اتخذ ذلك في الإسلام معاوية بن أبي سفيان ، ثم اتخذته من جاء بعده من خلفاء بني أمية وبني العباس . الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦ .
(٢) الأوراق ص ١٨٧ .

ولم تسكد فترة التنافس على إمرة الأمراء تنتهى ، حتى كان الضيق قد استحکم بأهل بغداد ، فصاروا يأكلون السكلاب والقعوط وانتشر النهب والسلب بينهم ، وأدى الجوع بهم إلى نهب الحوانيت والحصول على ما فيها من البضائع وفر كثير منهم من بغداد إلى البصرة ، واسكن أغلبهم كان يموت جوعاً من شدة الضعف والفقر . وكان من أثر التنافس على إمرة الأمراء ، أن استعان بعضهم ببعض ذوى النفوذ ، مما أدى إلى الفوضى والاضطراب ودخول معز الدولة ابن بويه سنة ٣٣٤ هـ مدينة بغداد واختفاء ابن شيرزاد أمير الأمراء . ومنذ ذلك الحين ، أصبحت الخلافة العباسية فى قبضة بنى بويه .

٢ - الخلافة العباسية فى عهد بنى بويه

$$٣٣٤ - ٤٤٧ هـ = ٩٤٦ - ١٠٥٥ م$$

— الرطب بنى بويه فى العراق :

سنة هجرية	أسماء السلاطين	سنة ميلادية
٣٢٠	معز الدولة - أبو الحسين أحمد	٩٣٢
٣٥٦	عز الدولة بختيار	٩٦٧
٣٦٧	عضد الدولة (فى فارس)	٩٧٧
٣٧٢	شرف الدولة (فى فارس)	٩٨٢
٣٧٩	بهاء الدولة أبو نصر فيروز	٩٨٩
٤٠٣	سلطان الدولة (فى فارس)	١٠١٢

ينسب بنى بويه إلى بهرام بن يزدجرد من ملوك آل ساسان ، وكان أبوه أبو شجاع بويه فقيراً معدماً من أهالى بلاد الديلم . وكان بنو بويه من الشيعة



الغالين ، ولذا كانوا لا يعترفون بحق الخليفة العباسي في السيادة على جميع العالم الإسلامي وقد عمل سلاطين بني بويه على أن يكونوا مطلقى التصرف في العراق ، ولم يتورعوا عن التمعدى . على أشخاص خلفاء العباسيين وانتقاص حقوقهم ، ولم يقل استبداد بني بويه بالسلطة في بغداد عن استبداد الأتراك حتى أصبح خلفاء العباسيين في عهدهم لا قيمة لهم^(١) .

كان أول من تولى الحكم في بغداد من بني بويه ، على بن بويه ، الذى استولى على العراق سنة ٣٣٤ هـ فى عهد الخليفة العباسى المستكفى ، ولُقّب « معز الدولة بن بويه » أحد سلاطين البويهيين الذين استحوذوا على السلطنة فى بغداد ، وقوى أمره واشتد نفوذه وخلع الخليفة المستكفى وسمل عينيه . وفى ذلك يقول السيوطى : ثم إن معز الدولة تخيل من المستكفى فدخل عليه فى جمادى الآخر سنة أربع وثلاثين (وثلاثمائة) ، فوقف - والناس وقوف على مراتبهم - فتقدم إثنان من الديلم إلى الخليفة ، فديديه إليهما ، ظناً أنهما يريدان تفجيلهما ، فحذباه من السرير حتى طرحاه إلى الأرض وجراه بعماقته ، وهجم الديلم دار الخلافة إلى الحرم ونهبوها فلم يبق فيها شيء . ومضى معز الدولة إلى منزله ، وساقوا المستكفى ماشياً إليه وخلع وسمت عيناه يومئذ ، وكانت خلافته سنة وأربعة أشهر^(٢) .

* * *

وخلف المستكفى الخليفة « الطائع » (٣٣٤ — ٣٦٣ هـ) وقدر له معز الدولة مائة دينار فى كل يوم . ويتميز عهد الطائع ، بذلك الصفاء الذى ساد بين الخلافة العباسية ومصر ، حتى تمكن كافور الإخشيدي من أن يحتفظ بمبدأ وراثته

(١) Arnold : The Caliphate, P. 68.

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٦٣ — ٣٦٤ .

العرش ، على النحو الذى وضعه الإخشيد ، وذلك بأن حصل على موافقة الخليفة المطيع العباسى على تولية الأمير أنوجور بن الأخشيد على مصر بعد أبيه ، وأصبحت مملكته تشمل مصر والشام والمدينتين المقدستين (مكة والمدينة) ، واستطاع كافور بعد ذلك أن يغم إلى حكم مصر كل بلاد سورية بما فى ذلك دمشق وحلب وأنطاكية وطرسوس والمصيصة^(١) وغيرها من المدن والثغور^(٢) . ولكن كافورا حين وجد أن مصلحته الشخصية تتعارض مع مبدأ وراثة العرش فى أسرة الإخشيد ، استغل فرصة صغر أولاد الإخشيد وتقدير الخليفة العباسى له ، وتمكن من أن يستصدر قراراً من دار الخلافة فى ٢٦ الحرم سنة ٣٥٥ هـ بتوليته على مصر وما يقع تحت سيطرتها من البلاد ، على الرغم من أنه لا يمت بأية قرابة إلى الأسرة الإخشيدية الحاكمة ، وتخطى أحمد بن على بن الإخشيد .

التسرع فى إقامة فاطمة فاطمة فى بغداد :

اتبع بويه إذا خلفاء بنى العباس ، سياسة تنطوى على الأسرة والأناية ، بل وفكر معز الدولة فى وضع حد للخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية أى فاطمية مكانها . ولكن بعض خاصته أشاروا عليه بالمدول عن هذا رأى ، وأبانوا له أن الخليفة العباسى فى بغداد ضعيف جداً ومن الممكن حبسه أو قتله متى خرج عن طاعة البويهيين ، أما خلفاء الفاطميين فإن فى استطاعتهم الاستبداد بالسلطة فى بغداد والقضاء على معز الدولة متى أرادوا^(٣) . واتضح بنو بويه بهذا رأى وعدلوا عن مسألة نقل الخلافة من العباسيين إلى الفاطميين ولو تم ذلك ، لتحقيق للعلويين أملمهم فى الخلافة ، الذى ظلوا يناضلون من أجل تحقيقه منذ قيام الخلافة الأموية قتل معز الدولة سنة ٣٦٣ هـ على يد عضد الدولة ، وذلك فى عهد الخليفة الطائع

(١) المصيصة : تقع بين أنطاكية وبلاد الروم ، بالقرب من طرسوس فى بلاد الشام .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣٢ — ٤٣٣ .

(٣) ابن الأثير : السكائل ج ٨ ص ١٦٢ .

العباسي ، فانتقلت سلطنة بني بويه في بغداد إلى عضد الدولة (٣٦٧ — ٤٣٧٢هـ) ،
 وخلع عليه الخليفة الطائع خلعة السلطنة وقلده سيفاً وعقد له لواءين أحدهما
 مفضض على رسم الأمراء والآخر مذهب على رسم ولاية اليهود . ولم يعقد هذا
 اللواء الثاني لغير عضد الدولة ، وكتب له الخليفة عهداً وقرى . بحضرته ^(١) . ولم
 يكتف عضد الدولة بذلك ، بل عمل على ذكر اسمه في الخطبة ، وحمل الخليفة على
 أن يمنحه تفويضاً كالذي يعطيه الخلفاء لولاية عهدهم . وأمر عضد الدولة بأن
 يقرأ هذا التفويض على ملا من الناس ، مع مخالفة ذلك لتقاليد الخلافة ، إذ كان
 الخليفة يعطى التفويض لولى عهده مطلقاً ، ويقول له : « هذا تفويض منحتة
 لك ، وعليك أن تعمل على مايقضى به » . لذلك اضطر الخليفة الطائع إلى أن
 يخرج لاستقبال عضد الدولة ، عند عودته إلى بغداد من إحدى رحلاته ، وهذا
 يبين لنا مدى نفوذ بني بويه في بغداد وسيطرتهم على الخليفة العباسي وأمور الدولة
 العباسية ، ويتضح ذلك جلياً من أنه حين ساءت العلاقة بين الخليفة الطائع وبين
 عضد الدولة ، أمر الأخير بحذف اسم الخليفة من الخطبة في بغداد وغيرها من
 المدن ، وظل الحال على ذلك مدة شهرين ، وأرغم الخليفة على أن يصدر أوامره
 بضرب الدبابد أمام داره ثلاث مرات في اليوم : في وقت الصبح والمغرب
 والعشاء ، مع أن ذلك كان من الأمور التي انفرد بها الخليفة دون غيره في
 بغداد ^(٢)

ويظهر أن خلفاء بغداد اعترفوا بإمامة الفاطميين ، رغم ذلك العداء المستحكم
 بين الدولتين . يدل على ذلك ، الكتاب الذي بعث به العزيز سنة ٤٣٦٥هـ إلى عضد
 الدولة سلطان بني بويه في بغداد . وفيه يقول : « من الإمام العزيز بالله إلى عضد
 الدولة الإمام ، نصير ملة الإسلام . . وبعد فإن رسولك وصل إلى حضرة أمير

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠ .

(٢) السيوطي : نفس المصدر ص ٢٧٠ .

للمؤمنين مع الرسول المنفذ إليك ، فأدى ما يحمله من إخلاصك في ولاية أمير المؤمنين ومودتك ومعرفتك بحق إمامته ، ومحبتك لآبائه الطائعين الهادين المهديين ، فسر أمير المؤمنين بما سمعه منك . ورد عضد الدولة على كتاب العزيز بكتاب يعترف فيه بفضل أهل البيت ، ويقول للخليفة : « إنه من أهل تلك النبعة الطاهرة وإنه في طاعته » ووجه الغرابة في أمر هذه المراسلات ، أن عضد الدولة أرسل خطابه هذا الذي يعترف فيه بإمامة الفاطميين بعلم الخليفة الطائع العباسي ، مما يوضح لنا عظمة الدولة الفاطمية في تلك الفترة من تاريخها وعجز العباسيين عن الوقوف أمامها .

على أن عضد الدولة — رغم قوته وضعف الخليفة — كان يظهر أمام الناس بأنه إنما يستمد نفوذه من الخليفة ويتمتع برضاه ليكتب بذلك ثقة الأهلين وطاعتهم إياه . وفي ذلك يقول السيوطي « في سنة تسع وستين (وثلاثمائة) ورد رسول العزيز صاحب مصر إلى بغداد ، وسأل عضد الدولة للطائع أن يزيد في ألقابه : تاج الملّة ، ويحدد الخلع عليه ، ويلبسه التاج ، فأجابه . وجلس الطائع على السرير ، وحوله مائة بالسيوف والزينة ، وبين يديه مصحف عثمان ، وعلى كتفه البردة ، ويده القضيّب ، وهو متقلد بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم . وضربت ستارة بعثها عضد الدولة ، وسأل أن تسكون حجاباً للطائع ، حتى لا يقع عليه أحد من الجند قبله . ودخل الأتراك والديلم وليس مع أحد منهم جديد ، ووقف الأشراف وأصحاب المراتب من الجانبين ، ثم أذن لعضد الدولة فدخل ، ثم رفعت الستارة ، وقبل عضد الدولة الأرض ، فارتاع زياد القائد لذلك ، وقال لعضد الدولة ما هذا أيها الملك ؟ أهذا هو الله ؟ فالتفت إليه وقال : هذا خليفة الله في الأرض ، ثم استمر يمشي ويقبل الأرض سبع مرات ، فالتفت الطائع إلى خالص الخادم وقال : استدنه ، فصعد عضد الدولة فقبل الأرض

مرتين ، فقال له : ادن إلى ، فدنا . وأمره فجلس على الكرسي . . . فقال له الطائع : قد رأيت أن أفرض عليك ما وكل الله إلى من أمور الرعية في شرق الأرض وغربها ، وتديرها في جميع جهاتها سوى خاصتي وأسباني ، فتقول ذلك . فقال : يعينني الله على طاعة مولانا أمير المؤمنين وخدمته ، ثم أقاض عليه الخلع وانصرف . وقد علق السيوطي على هذه العبارة بقوله « انظر إلى هذا الأمر وهو الخليفة المستضعف ، الذي لم تضعف الخلافة في زمن أحد ماضعت في زمنه ، ولا قوى أمر سلطان ما قوى أمر عضد الدولة »^(١) .

وبوفاة عضد الدولة سنة ٣٧٢ هـ ، تنابح على السلطة من بني بويه في بغداد ، ثلاثة إخوة هم : صمصام الدولة (٣٧٢ — ٣٧٦ هـ) وشرف الدولة (٣٧٦ — ٣٧٩ هـ) وبهاء الدولة (٣٧٩ — ٤٠٣ هـ) الذي انتقلت السلطة في النهاية وخلع عليه الخليفة الطائع سبع خلع وعمامة سوداء^(٢) ، ومشى الحجاب بين بين يديه ، وقرىء عليه ، ولقبه الطائع : بهاء الدولة ، وضيء للملة . إلا أنه ما لبث أن قبض سنة ٣٨٢ هـ على الخليفة الطائع ، لأنه حبس رجلا من خواصه « فجاء بهاء الدولة وقد جلس الطائع في الرواق ، متقلدا سيفاً ، فلما قرب بهاء الدولة ، قبل الأرض وجلس على كرسي ، وتقدم أصحاب بهاء الدولة فحذبوا الطائع من سريره ، وتسكأثر عليه الديلم فلفوه في كساء ، وأصعد إلى دار السلطنة وارتج البلد ، ورجع بهاء الدولة وكتب على الطائع إيمانا بخلع نفسه وأنه سلم الأمر إلى القادر بالله^(٣) .

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

(٢) كان أول من لبس العمامة السوداء هو النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم لبسها جماعة من الصحابة ، وتبعهم الخلفاء العباسيون . وهي عبارة عن عمامة مدورة من حرير بمدة قدر ذراع ترسل بين الكتفين : القلقشندی : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٦ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٢ .

كان القادر — على ما وصفه به الخطيب البغدادي — « أنه من الستر والسيادة وإدامة التهجيد بالليل وكثرة البر والصدقات »^(١) . على أن نفوذ بهاء الدولة قد ازداد في عهد الخليفة القادر (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) واستبد بالسلطة دون الخليفة ، وتعصب المذهب الشيعي دون السنة مذهب العباسيين ، وأضر كل منهما للآخر العداوة والبغضاء ، ونادى بذلك السلطان بهاء الدولة بن بويه سنة ٣٩٨ هـ في زمن الخليفة القادر . ولكن تحويل الخلافة إلى الفاطميين كان معناه القضاء على سلطان بني بويه في بغداد الذين جعلوا الخليفة العوي في أيديهم ، فعند ما تعرض نفوذهم في العراق للخطر سنة ٤٠١ هـ — حين أمر قرواش بن المقلد أمير بني عقيل الذي آلت إليه السيادة في الموصل والأنبار والمدائن والكوفة بإقامة الخطبة للخليفة الفاطمي الحاكم — سارع بهاء الدولة رغم ميوله الشيعية بإرسال جيش اضطره إلى رد الخطبة للخليفة العباسي في بغداد ، قاصداً بذلك الاحتفاظ بسلطان بني بويه في العراق^(٢) . وبذلك فشلت المحاولة الثانية التي بذلت في سبيل إقامة خطبة فاطمية في بغداد ، وكانت الأولى في عهد البويهيين أيضاً زمن معز الدولة بن بويه ، حين كان خلفاء الفاطميين لا يزالون في المغرب ولم تسكن دولتهم قد تأسست بعد في مصر .

تسهر الخلفاء العباسيين بنسب الفاطميين :

لجأ الخليفة العباسي القادر بعد تلك الحادثة — حادثة محاولة إقامة الخطبة للحاكم في بلاد الخلافة العباسية — إلى سياسة التشهير بنسب الفاطميين . ذلك أن الخليفة القادر ، أمر في ربيع الثاني سنة ٤٠٢ هـ بكتابة محضر يقدر في أنساب الخلفاء الفاطميين وعقائدهم ، على أن يقرأ في بغداد وينشر في الأمصار ،

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٧ .

(٢) حسن إبراهيم وعلي إبراهيم : النظام الإسلامية ص ٨٩ .

وجاء فيه : « وهم (أى الفاطميون) منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمي ، إخوان الكافرين ونطف الشياطين ، شهادة يتقربون بها إلى الله ومعتقدون ما أوجب الله على العلماء أن يذشروه للناس ، فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر ، وهو منصور نزار الملقب بالحاكم ، هو ومن معه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليه وعليهم اللعنة ، أدعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب وأن ذلك باطل وزور . . وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه ، كفار ، فساق ، فجار زنادقة ، عطلوا الحدود ، وسفكوا الدماء ، وسبوا الأنبياء ، ولعنوا السلف ، وادعوا الربوبية »^(١) . ويقول أبو الحسن تعليقاً على موقف الحاكم إزاء عمل الخليفة القادر أنه « لما بلغ الحاكم ذلك قامت قيامته ، وهان في أعين الناس ، لكتابة هؤلاء الأعلام في المحضر »^(٢) .

وسار الخليفة القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) عن القادر على سياسة أبيه في الطعن في نسبهم تحقيراً لهم وصرفاً للمسلمين عن أن يولوا وجوههم شطرم . واستكتب علماء بغداد سنة ٤٤١ هـ محضر يماثل المحضر الذي كتب في عهد أبيه طعنًا في الفاطميين .

إلا أن خطة الخليفة القادر والخليفة القائم في محاربة الفاطميين بسلاح الشهير بنسبهم لم يؤد إلى الغرض المقصود ، وهو إضعاف نفوذ الفاطميين وحث الخاضعين لسلطانهم على الثورة عليهم ، بل على العكس ما كان عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي ينتهى ويتولى عرش الخلافة الفاطمية المستنصر ، حتى امتد سلطان الفاطميين في الشطر الأول من خلافته ، فشمّل الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمالي إفريقية بما في ذلك مصر ، وأصبح اسمه يذاع على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً ، كما أذيع اسمه على منابر

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٩ — ٢٣٠

(٢) أبو الحسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٣٠ .

البن والحجاز والموصل ، وفي ذلك الاتساع أكبر دليل على تقلص سلطان الخليفة العباسي وعلى أن الدولة الفاطمية اتسعت على حساب العباسيين .
وعلى الجملة ، أصبح الخلفاء العباسيون في عهد بني بويه ، لا قيمة لهم ، في الوقت الذي أصبح فيه غيرهم أكثر قوة ونفوذاً ، وأصبحوا يديرون العالم الإسلامي دون أن يحفلوا بمن يدعى أنه أمير المؤمنين . وأصبح هؤلاء الخلفاء العوبة في أيدي سلاطين بني بويه يجلسونهم على العرش ويعزلونهم عنه متى شاءوا وشاءت أهواؤهم . ولم يعد للخليفة العباسي شيء في عهد سيطرة بني بويه سوى معاملته الدينية ، ممثلة بذكر اسمه في الخطبة ونقشته على السكة ، وقد احتفظ بنو بويه للخلفاء بهذين المظهرين احتفاظاً للخليفة بمركزه أمام الجمهور ، على اعتبار أنه لا يزال محتفظاً بالسلطة الروحية على رعاياه ، رغم أنه مسلوب السلطة السياسية . ومع ذلك ، فينبغي أن نذكر أن بني بويه راعوا مظاهر احترام الخليفة العباسي في الحفلات ، باعتباره الرئيس الأعلى لجماعة المسلمين ، فكان الخليفة يستقبل السفراء ويلبس بردة النبي عليه السلام ويضع أمامه مصحف عثمان توكيداً لسلطته الدينية .

٢ - الخلافة العباسية في عهد سلاطين السلاجقة

ينسب السلاجقة ، الذين استولوا على السلطة في بغداد بعد بني بويه ، إلى سلجوق بن تلقاي أحد رؤساء التركان ، وموطنه الأصلي بلاد ماوراء النهر . وقد غزا طغرل بك السلجوقي بلاد خراسان ، واستولى على الولايات الغربية للدولة الغزنوية ، كما أدخل تحت سلطانه أملاك بني بويه ، ودخل بغداد في سنة ٥٤٤٧ هـ .

ذكر اسم الخليفة الفاطمي علي منابر بغداد :

كان ضعف الخليفة العباسي أمام السلاجقة واضحاً للعيان . وبما أوضح مدى الضعف الذي وصلت إليه الخلافة العباسية في العصر الثاني ، ذلك الأمر الخطير الذي حدث إذ ذاك وهو ذكر الخليفة المستنصر الفاطمي علي منابر بغداد حاضرة العباسيين . فإن الأمير الحارث أرسلان البساسيري^(١) ، انتهز فرصة ضعف الخليفة العباسي القائم بأمر الله وانشغال طغرلبيك أول ملوك السلاجقة بفتح بعض بلاد العراق واشتباكه مع إبراهيم بنال الذي شق عصا الطاعة عليه ، ودخل البساسيري بغداد في اليوم الثامن من ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ حاملاً الرايات المستنصرية ، فحرب به أهل السكوخ وكانوا شيعيين ، وازداد نفوذهم في بغداد وأدخلوا في الأذان عبارة « حي على خير العمل » ، كما انضم أهل السنة إلى الخليفة القائم بأمر الله^(٢) .

ودار القتال بين كل من السنيين وعلى رأسهم الخليفة العباسي وبين الشيعيين تحت قيادة البساسيري . وانتهى الأمر بانتصار البساسيري وأتباعه ، وخطب يوم الجمعة ١٣ ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ على منابر بغداد للمستنصر الفاطمي بجامع المنصور . وانتهاز بعض الأهالي هذه الفرصة ونهبوا دار الخلافة العباسية .

ولما استتب الأمر للبساسيري في بغداد قبض على الوزير أبي القاسم بن المسلمة ، وقال له « مرحباً بدمر الدولة ومهلك الأمم وخراب البلاد ومبيد العباد . فقال له ابن المسلمة : « أيها الأجل ! العفو عند المقدرة » . فقال له البساسيري :

(١) هذه الذببة إلى بلدة في فارس تسمى « بسا » ، وهو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله ، مقدم الأتراك في بغداد .

(٢) علي إبراهيم حسن : مصر في العصور الوسطى ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

قد قدرت فما عفوت ، وأنت تاجر صاحب طياسان ، ولم تبق على الحریم والأموال والأطفال . فكيف أعفو عنك وأنا صاحب سيف ، وقد أخذت أموالی وعاقبت أصحابی ودرست دوری وسببتنی وأبعدتني ^(١) ، ثم أمر البساسيري بحبس الوزير أبي القاسم .

أما الخليفة ، فحمل إلى معسكره راكباً وعلى كتفه البردة وبيده سيف وعلى رأسه اللواء . ولما رأى ما حل به من الإهانة امتنع عن الطعام والشراب ، فألح عليه قریش أحد أتباع البساسيري ، حتى حمله على تناول الطعام ، وسار به إلى قلعة الحديثة حيث ظل مسجوناً بها . وعندما وصل الخليفة العباسي إلى الأنبار ، شكا البرد وبعث يطلب من واليها بعض الملابس ، فأرسل إليه جبة ولحافاً .

وسار البساسيري في حكم أهل بغداد سيرة طيبة . فقد أحسن معاملتهم وبذل الأموال للفقهاء ، وأفرد لوالدة الخليفة داراً وعين لها راتباً شهرياً ، وحبَّب إليه — بحسن سياسته وعدم تعصبه — كل من السنيين والشيعة . ولما استقر الأمر للبساسيري ، وأصبح مطلق التصرف في بغداد ، أرحل إلى المستنصر بالله يبشره بامتداد نفوذه إلى بلاد العراق ويبلغه أن اسم الخليفة الفاطمي الشيعي في مصر قد ذكر في الخطبة على منابر بغداد ، مقر الخلافة العباسية . وفي الوقت الذي كان منتظراً فيه أن يحمد المستنصر للبساسيري عمله ، فإنه لم يحبه لإجابة تنم عن تأييده لعمله ولم يمدّه بالأموال السكافية . وكان ذلك بتأثير الوزير أبي الفرج محمد ابن جعفر المغربي الذي كان يحمده على البساسيري ، فاستطاع أن يوغر صدر المستنصر عليه ويخوفه من عاقبة اتساع نفوذ البساسيري في العراق .

إلا أن البساسيري لم يقابل السياسة التي اتبعها المستنصر إزاءه بسياسة مثلها ، بل على العكس وأصل فتوحه في بلاد العراق واستولى على البصرة وواسط

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٩ .

وخطب على منابر جوامعهما باسم المستنصر الفاطمي . وظلت الخطبة تقام باسم المستنصر على منابر بغداد نحو من سنة أى أربعين أسبوعاً . واشتد نفوذ البساسيري في بغداد واتصل بالخلافة الفاطمية في مصر ، حتى أنه في أثناء السنة التي أقيمت فيها الخطبة باسم الفاطميين في بغداد ، أخذ عمارة الخليفة العباسي وعرشه وخلعته^(١) ، وأرسلها إلى المستنصر حيث حفظت في قصر الخلافة الفاطمية حتى عرضت للبيع في أثناء الشدة العظمى التي حلت بمصر في عهد ذلك الخليفة .

ومن أطراف ماروى فيما يتعلق بإقامة البساسيري الخطبة للمستنصر في بغداد ، أن مغنية علمت بتوغل البساسيري في أراضى الدولة العباسية ، يفتتحها باسم المستنصر ، فأنشدت :

يا بنى العباسى صدوا ملك الأمر معد

ملككم كان معاراً والعوارى تسترد

وطرب المستنصر لتلك الأغنية ، ووهبها أرضاً بمصر تعرف الآن بأرض الطباله ، نسبة إلى هذه السيدة التي غنت هذه الأبيات بدف في يدها . وأرض الطباله تحدد اليوم من الشمال والغرب بشارع الظاهر ، ومن الجنوب بشارع الفجالة وسكة الفجالة ، ومن الشرق بشارع الخليج المصري .

على أن الخليفة العباسي لم يقف مكتوف الأيدي إزاء ما قام به البساسيري من نشر سلطان الفاطميين في بلاد العراق ، فكتب إلى طغرل بك أول ملوك السلاجقة يطلب منه القدوم إلى بغداد وإخراج البساسيري منها ، وكان الخليفة

(١) قيل إن الخليفة العباسي لما رجع إلى داره لم يتم بعدها إلا على فراش مصلاه ولزم الصيام والقيام ، وأنه لما سجنه البساسيري كتب قصته وأنفذها إلى مكة ، فعلقت في الكعبة وفيها يشكو إلى الله فعل البساسيري ويطلب إليه أن يجازيه على بغيه وعدوانه . حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٩٢ .

بذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وقد لى طفرل بك طلبه وسار بمساكره إلى بغداد ، ففر البساسيري منها ، إلا أن طفرل بك ظفر به وقتله شرقتة سنة ٤٥١ هـ ، ثم أطلق سراح الخليفة القائم وأعادته إلى بغداد وخطب له على منابرها . وحين ذاك يصدق المثل الذى ذكرناه ، فإن الخليفة تخلص من سلطان البساسيري والفاطميين ليقع تحت سلطان السلاجقة ، ويصبح حاله تحت إشرافهم أشد هوانا ومذلة مما لو استمر سلطان البساسيري في بغداد .

حالة الخلفاء العباسيين :

على أن حالة الخلفاء العباسيين في أيام السلاجقة لم تختلف اختلافا كبيرا تحت سيطرة السلاجقة عما كانت عليه في أيام بنى بويه : فبينما كان أمراء بنى بويه يقيمون في بغداد ويجمعون كل السلطة في أيديهم ، كان نواب السلاجقة العسكريون يحكمون العراق ويستأثرون بالسلطة . ولم يكتف السلاجقة بما حل بالبساسيري ، بل عمدوا إلى استعادة نفوذ الخليفة العباسي أو على الأصح نفوذهم على الأقطار التي فقدتها الدولة العباسية ، نتيجة سياسة الفاطميين الخاصة بتوسيع رقعة إمبراطوريتهم على حساب العباسيين . وتنفيذا لتلك السياسة التي رسمها طفرل بك ، أرسل السلطان السلطان ملكشاه أول سلاطين السلاجقة في بغداد ، الجيوش إلى الشام سنة ٤٦٢ هـ ، فتمكنت من فتح الرملة وبيت المقدس ، ولكنها عجزت عن فتح دمشق ، فعادت إليها ثانية سنة ٤٦٧ هـ حيث نجحت في فتحها وحذفت اسم المستنصر من الخطبة وأحلت اسم الخليفة المقتدى العباسي محله . ولم يكتف بذلك ، بل سارت جيوش العباسيين بأمر ملكشاه إلى مصر ، وكان وزيره إذ ذاك بدر الجالى ، ولكنها هزمت فعادت ثانية إلى دمشق ، وكانت الجيوش المصرية قد احتلتها فعادت تلك الجيوش إلى مصر سنة ٤٧٠ هـ .

كان الخلفاء العباسيون يعيشون في أيام السلاجقة من إقطاعات مقرررة يديرها

عمال على رأسهم الوزير وكاتب الإنشاء كما كانت أيام بنى بويه ، ولم يكن لهم من الأمر شيء سوى ذكر اسمهم في الخطبة . ومما يدل على ضعف الخلفاء العباسيين أن الناس في بغداد قاموا في أيام الخليفة القائم « وأنكروا كثرة المغنيات والخمور ، فقطع بعضهم أوتار عود مغنية كانت عند جندي ، فنار به الجندي الذي كانت عنده فضر به ، فاجتمعت العامة ومعهم كثير من الأئمة . . . واستغاثوا إلى الخليفة ، وطالبوا هدم المواخير والحانات وتبطينها ، فوعدهم أن يكتب السلطان في ذلك » .^(١) وكان الخلفاء يقضون أوقات فراغهم في الإشراف على بناء القصور وترميمها^(٢) .

تحسين العلاقات بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة :

إلا أن معاملة السلاجقة للخلفاء كانت أفضل بكثير من معاملة بنى بويه لهم . يدل على ذلك :

١ — عامل سلاطين السلاجقة الخليفة العباسي في المناسبات المختلفة بالاحترام والإجلال اللاتقين بمقامه ، يدل على ذلك أن طغرل بك لما عاد إلى بغداد في سنة ٤٤٩ هـ ، على أثر إخضاعه الموصل ، حضر عند الخليفة القائم « لخمس بقين من ذى القعدة . . . والخليفة على سرير عال من الأرض نحو سبعة أذرع ، وعليه بردة النبي صلى الله عليه وسلم ويده القضيب الخيزران » . فقبل السلطان الأرض وقبل يده ، وأجلس على كرسي . فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : قل له إن أمير المؤمنين شاكر لسميك ، حامد لفعلك ، مستأنس بقربك ، وقد ولاك جميع ما ولاك الله من بلاده ، ورد عليك مراعاة عبادته ، فاتق الله فيما ولاك ، واهرف نعمته عليك في ذلك ، واجتهد في نشر العدل وكف الظلم وإصلاح

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٣٨ .

(٢) Le Strange: Baghdad during the Abbasid Caliphate, P.327 (٢) .

الرعية ، فقبل الأرض . وأمر الخليفة بإضافة الخلع عليه ، فقام إلى موضع لبسها فيه ، وعاد وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه ، وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب ، وأعطى العهد وخرج ^(١) .

٢ — تجلت تلك العلاقات الطيبة التي سادت بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة ، في الخلع التي كانوا يتبادلونها ، فقد كان الخليفة إذا ما ارتقى عرش الخلافة يبعث في طلب السلطان السلجوقي لأخذ البيعة وحمل الخلع السلطانية والهدايا ، كما كان السلطان السلجوقي يلتمس بعد توليه السلطنة التفويض من الخليفة العباسي .

٣ — وظهرت تلك العلاقات الطيبة جليلة من ارتباط البيتين السلجوقي والعباسي برباط المصاهرة . فقد تزوج طغرل بك (في سنة ٤٥٤ هـ) من ابنة الخليفة القائم ، وتزوج المقتدى بن القائم من ابنة السلطان ألب أرسلان (سنة ٤٦٤ هـ) ، وتزوج الخليفة المستظهر من ابنة السلطان ملكشاه (٥٠٢ هـ) وتزوج الخليفة المتقي من فاطمة بنت محمد ملكشاه وأخت السلطان محمود بن محمد ملكشاه ^(٢) .

٤ — زاد تلك العلاقات وثوقا بين البيتين العباسي والسلجوقي ، أن السلاجقة كانوا يمتنعون المذهب السني ، مذهب الخلفاء العباسيين وقيل إن السلاجقة كانوا يحترمون الخليفة العباسي ، لا لمركزه السياسي بل لأنه خليفة الله .

النزاع بين العباسيين والسلجوقيين :

على أن هذه الروابط الوثيقة بين العباسيين والسلاجقة ، لم تحل دون قيام النزاع بينهم . يدل على ذلك .

١ — أن سلاطين السلاجقة تمددوا على سلطة الخلفاء واتهكوا حرمتها .

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .

(٢) ابن الأثير ج ١ ص ١٩٨ — ١٩٩ .

فلما غضب السلطان ملكشاه على الخليفة المقتدى بسبب تدخله في شئون الحكم أمره بالخروج من بغداد والإقامة في البصرة .

٢ — واتخذ سلاطين السلاجقة لقب « ظل الله » وهو لقب كان يحتفظ به الخلفاء العباسيون لأنفسهم ، واتخذ ملكشاه لقب أمير المؤمنين ، وهو لقب لم يطلق إلا على الخلفاء فقط ^(١) .

٣ — أخذ السلاجقة من الخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٥٢٩) بردة الرسول التي كان يلبسها الخلفاء عند توليتهم الخلافة أو حضورهم الحفلات الدينية ^(٢) .

٤ — لقب ملكشاه نفسه بلقب « أمير المؤمنين » وهو اللقب الذي لم يطلق إلا على الخلفاء أنفسهم .

محاولة الخلفاء العباسيين استعادة نفوذهم :

إلا أن هذه الأعمال العدائية لم تصدر عن السلاجقة إلا في القليل النادر ، وكانت معاملة السلاجقة لخلفاء بني العباس بالحسنى ، عاملاً من عوامل إحياء الأمل في نفوسهم باعادة ما كان للخلافة العباسية من نفوذ وسلطان حتى استطاعوا في أواخر عهد السلاجقة أن يظفروا بشيء من السلطة ، وبخاصة عند ما قام النزاع بين أفراد البيت السلجوقي . يستدل على ذلك من :

١ — محاولة الخليفة المقتدى التدخل في شئون الحكم . يقول ابن خلكان : « كان للخليفة ولدان : أحدهما المستظهر بالله ، والآخر أبو الفضل جعفر ابن بنت السلطان ... وكان الخليفة قد بايع ولده المستظهر أكبر أولاده بولاية العهد ، فألزم السلطان الخليفة أن يخلفه ، ويحمل جعفرأ ولى العهد بدله ، ويسلم بغداد

(١) Camb. Med. Hist. Vol. IV. P. 307

(٢) Arnold : The Caliphate, P. 80.

إليه ويخرج هو إلى البصرة . فشق ذلك على الخليفة ، وبالف في استئزال السلطان عن هذا الرأى فلم يفعل ، وطلب المهلة عشرة أيام ليتجهز فأمله ، فقيل إن الخليفة في تلك الأيام جعل يصوم ، وإذا أفطر جلس على الرماد للإفطار ، وهو يدعو الله سبحانه وتعالى على السلطان ، فرض السلطان في تلك الأيام ومات وكفى الخليفة أمره ^(١) . وبموته احتل عرش السلطنة محمود بن ملكشاه ولقب « ناصر الدنيا والدين » ، وفي اليوم التالى مات الخليفة المقتدى .

٢ — محاولة الخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩) . إعادة ما كان خلفاء بنى العباس الأول من نفوذ وقوة . ولكنه فشل في هذا السبيل ، رغم أن السيوطى وصفه بأنه « كان ذا همة عالية وشهامة زائدة وإقدام ورأى وهيبة شديدة ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب وأحيا رسم الخلافة ونشر عظامها وشيد أركان الشريعة وطرز أكامها وباشر الحروب بنفسه ^(٢) . وقد خرج الخليفة المسترشد سنة ٥٢٠ هـ على السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وهزم قواته ، وكاد يستقل بأمور الخلافة لولا مساعدة زنكى والى البصرة للسلطان . ولما مات محمود حرض المسترشد بعض أمراء البيت السلجوقى على الخروج على السلطان الجديد ، ثم حارب زنكى وشتت جيوشه وطاردها حتى الموصل (٥٢٧ هـ) حيث حاصره ثلاثة أشهر ، ثم سار بجيشه وبصحبه سلجوق أحد أمراء البيت السلجوقى ، والتقى مع جند مسعود على مقربة من همزان ^(٣) ولكن المسترشد هزم وأسر جند مسعود وقتلوه .

وحاول الخليفة الراشد (٥٢٩ - ٥٣٠ هـ) بن المسترشد الخليفة المقتول الثأر لأبيه ، ولكن مسعود أسار إلى بغداد وحاصرها وأرغم الخليفة على الهرب

(١) وفيت الأعيان ج ٢ ص ١٦٤ .

(٢) السيوطى ج ٢ ص ١٦٤ .

(٣) ابن الأثير ج ١ ص ٢٧١ — ٢٧٢ ر ٢٨٩ .

إلى الموصل والاحتماء بماد الدين زنكى ، وإذ ذاك جمع مسعود القضاة والشهود وكتب محضراً بخلعه . ولم يلبث أن قتل الراشد على باب أصبهان وذلك فى سنة ٥٣٢ هـ ومات السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ . وبموته أفل نجم البيت السلجوقى ، فقد خلفه سلاطين قضوا وقثم فى اللهو واللعب والإدمان على شرب الخمر .

وتصادف أن كان على عرش الخلافة فى ذلك الوقت ، خليفة عباسى على جانب كبير من الشجاعة والشهامة يدعى المقتدى (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ) ، وفيه قال السيوطى أنه قليل المثل فى الأئمة ، لا يجرى فى دولته أمر وإن صغر إلا بتوقيعه ، جدد معامل الإمامة ، ومهد رسوم الخلافة ، وبأشر الأمور بنفسه ، وغزا غير مرة ، ولم ير مع سماحته ولين جانبه ورأفته بعد المعتصم خليفة فى شهامته وصراحته وشجاعته مع ما خص به من زهده وورعه وعبادته .

وكان السلطان مسعود قد تنبأ قبل وفاته بما سيكون للخليفة المقتدى من عظم الشأن فقال : « لقد اجلسنا فى الخلافة رجلا عظيما ، فالله تعالى يكفيننا شره » ^(١) . وسار السلطان مسعود فى سنة ٥٥١ إلى بغداد وحاصرها ولكنه عاد منهزماً . وكان ذلك نهاية العهد السلجوقى فى العراق .

ويمكن القول بوجه عام أن الخليفة العباسى فى العصر الثانى قد أصبح العوبة فى أيدي الأتراك وبنى بويه والسلاجقة ، يسجنونه أو يعزلونه أو يقتلونه ، وصار عاجزا عن التصرف فى شئونه . ولكنه رغم أن فقد سلطته الزمنية ، فقد تمتع بسلطته الدينية ، ممثلة فى أن يحصل أمراء المسلمين على تفويض من الخليفة يجعل سلاطنتهم شرعيا ، باعتباره خليفة للنبي صلى الله عليه وسلم . على أن الخليفة لم يكن من القوة بحيث يستطيع أن يمارض فى شئ ، بل كان يقابل هذه المطالب

بالارتياح والقبول ، على أساس أنها اعتراف بسلطته النظرية^(١) . يؤيد ذلك ما رواه السيوطي من أنه « في سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، أرسل يوسف ابن تاشفين صاحب سبتة إلى المقتدى يطلب أن يسلطه وأن يقلده ما بيده من البلاد ، فبعث إليه الخلع والأعلام والتقليد ولقبه أمير المؤمنين ، ففرح بذلك وسرقهاء المغرب »^(٢) .

وتقاسم ملك السلاجقة دول شتى تعرف باسم دول الأتابكة . وكان أقوى الدول منافسة للسلاجقة هي دولة خوارزم^(٣) إحدى دول الأتابكة^(٤) التركية . وفي عهد الخليفة المستضيء بالله العباسي (٥٦٦ — ٥٧٥ هـ) تمكن علاء الدين تكش أخو سلطان شاه بن إيل أرسلان بن أنسر ، من الاستيلاء على بلاد خوارزم والاستقلال بها ومن القضاء بعد ذلك على ملك السلاجقة بالعراق ، واتسع ملك علاء الدين تكش حتى امتد من أفاصى بلاد ما وراء النهر شرقاً إلى بلاد الري التي استولى عليها بعد قضاؤه على السلاجقة .

ولكن ملك علاء الدين في الري لم يكن ثابتاً ، فقد عوّل الخليفة الناصر لدين الله العباسي (٥٧٥ — ٦٢٢ هـ) على أن تكون له سيادة الري بعد رحيل خوارزم شاه عنها ، فأرسل إليها جيشاً استردها من عامل علاء الدين تكش ، فعاد هذا إلى الري واستردها من جند الخليفة . وبعد وفاة علاء الدين تكش ،

Arnold : The Caliphate, P. 83.

(١)

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٨١ .

(٣) أسس هذه الدولة محمد بن أنوشكين ، وكان أبوه مملوكاً لأحد أمراء البيت السلجوقي ، فنشأ نشأة طيبة وعرف بالأدب وتوفر على العلم ، كما كان على المهمة فعينه حبشي قائد بركيا روق على بلاد خوارزم ولقبه خوارزم شاه . وعوته سنة ٥٢١ هـ خلفه ابنه أنسر ، فاكتمل بحبة السلطان ورسخت أقدم هذا البيت .

(٤) الأتابكة : يهر عن صاحبها « أتابك العساكر » ، وأصله أطاك ومعناه « الولد الأمير » . وأول من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي ، حين فوض إليه المملوك سنة ٤٦٥ هـ ولقبه بمدة أتاب ، من بينها هذا اللقب .

خلفه سنة ٥٩٦ هـ ابنه قطب الدين خوارزم شاه محمد ، فطلب إلى الخليفة أن يأمر
بذكر اسمه في الخطبة بدل السلاجقة ، فرفض الخليفة ذلك ، واشتدت العداوة
بينهما حتى حذف خوارزم شاه (أى ملك خوارزم) قطب الدين محمد اسم الخليفة
من الخطبة على منابر بلاده . وقد بقي قطب الدين محمد فى الحكم إلى سنة ٦١٧ هـ
(وهى السنة التى بدأت فيها فتوح المغول) وجاء من بعده جلال الدين منكبرى
إلى سنة ٦٢٨ هـ وهو آخر شاهات هذه الأسرة .

٤ — سقوط بغداد وزوال الخلافة العباسية

كان من أثر لزيادة العداوة بين الخليفة العباسى وخوارزم شاه أن استفجد
الخليفة الناصر بالتتار أو المغول ^(١) ، ليشغل بهم خوارزم شاه حتى يأمن شره ،
ويحول بذلك دون ما قد يحدق ببلاده من خطر هجوم جيوش خوارزم شاه .
ولست هذه أول مرة استفجد فيها خلفاء العباسيين بغيرهم : فقد راحوا بنى
بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك ، وكتبوا إلى طغرل بك السلجوق لينتشلهم
من تحكم البساسيرى ، وأوفدوا الرسل إلى خوارزم شاه ليقبضهم شر السلاجقة ،
ثم استفجدوا أخيراً بالتتار لينزعوا أذى خوارزم شاه عنهم . ومن ثم فقد عاش
خلفاء العصر العباسى الثانى تحت كنف الأتراك وبنى بويه والسلاجقة وخوارزم
شاه والتتار .

(١) ظهر المغول فى عالم التاريخ حوالى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ، فى الجهات
الشمالية من بلاد الصين ، فى الأراضى التى نبتت فيها أصول قبائل الهون والترك ، وهم يتنون
إليهم بصلابة قوية . وقد اختلفت تسميتهم باختلاف المصور . ويظهر أن الشعوب التى كانت مغولا
فى الأصل واللغة ، كانت تسمى باسم « التتر » أو « التتار » ، إلا أن تلك التسمية قد غيرت
رسماً بعد جنكيزخان — وهو الثامن من سلالة مؤسسى هذه الأسرة — بكلمة « مغل »
Moghul أو Moghol فى بلاد منغوليا وفى أواسط آسيا ، وكذا فى بلاد الهند فيما بعد .
حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام بين المغول ، صحيفة الجامعة المصرية ، مايو ١٩٣٣ .
على إبراهيم حسن : دراسات فى تاريخ الممالك ص ١٠٩ .

ولم يكن الخليفة يتوقع وقت دعوته للتقار أنهم يستطيعون الوصول بسهولة إلى بلاده لبُعد الشقة ووقوف جند خوارزم شاه في سبيلهم .

وقيل إن سبب غزو التقار لبلاد خوارزم أنه في سنة ٦١٢ هـ ، أرسل جنكيزخان من قبله رسلا من كبار المسلمين الذين كانوا يقيمون في بلاده إلى خوارزم شاه ، يطلب منه عقد معاهدة بين البلدين ، وأرسل إليه هدايا نفيسة ، فأجاب خوارزم شاه طلب جنكيزخان ، وتمت المعاهدة بينهما ، وأخذ التجار يترددون على البلدين ، مما وجه أنظار التقار إلى البلاد الإسلامية .

في تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الدولة ، ظهرت بجلاء مطامع التقار ، فقد أغاروا على بخارى وسمرقند قسبة بلاد ما وراء النهر وكعبة العلماء ومعين الثروة والرخاء ، ثم استولوا على نيسابور والرى وهمذان وأذربيجان ، وغزوا جرجان وأرمينية الكبرى مرتكبين أقسى الفظائع وأشدّها هولاً ، وقضوا بذلك على دولة خوارزم وامتدت فتوحهم إلى أوربا .

وكان استعداد التقار للمحجم على بغداد ، في عهد الخليفة العباسي المستعصم (٦٤٠ — ٦٥٦ = ١٢٤٢ — ١٢٥٨ م) ، آخر خلفاء العباسيين في بغداد . وكان ضعيف الرأي ، غير ملم بأحوال دولته ، منصرفاً إلى اللهو واللعب . لذلك لم يستمع إلى نصيح وزيره مؤيد الدين بن العلقمي حين حذره بالاحتياط والاستعداد لمواجهة خطر المغول ، فلم يزد إلا استهتاراً بقوة العدو ^(١) . قال صاحب الفخرى : « كان المستعصم رجلاً خيراً متديناً ، لين الجانب سهل العريكة ، غفيف اللسان ، حمل كتاب الله تعالى . . . وكان سهل الأخلاق ، وكان خفيف الوطأة . إلا أنه كان مستضعف الرأي ، ضعيف البطش ، قليل الخبرة بأمور المملكة ، مطموعا فيه ، غير مهيب في النفوس ولا مطلع على حقائق الأمور ، وكان زمانه ينقضي

أكثره بسماع الأغاني والتفرج على المسخرة ، وفي بعض الأوقات يجلس بمخزاة السكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة ، وكان أصحابه مستولون عليه وكلهم جهال من أراذل القوم ، إلا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمى فإنه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال ، وكان مكتوف اليد مردود القول يترب العزل والقبض صباح مساء . . . » ثم يقول : « وفي آخر أيامه قويت الأراجيف بوصول عسكر المغول صحبة السلطان هولاكو ، فلم يحرك ذلك منه همزاً ، ولم ينتبه منه هممة ، ولا أحدث عنده هماً . وكان كلما سمع عن السلطان من الاحتياط والاستعداد شيء ظهر من الخليفة نقيضه من التفريط والإهمال ، ولم يكن يتصور حقيقة الحال في ذلك ، ولا يعرف هذه الدولة — يستر الله إحسانها وأعلى شأنها — حق المعرفة . وكان وزيره مؤيد الدين بن العلقمى يعرف حقيقة الحال في ذلك ، ويكاتبه بالتحذير والتنبيه ، ويشير عليه بالتيقظ والاحتياط والاستعداد ، وهو لا يزداد إلا غفولاً . وكان خواصه يوهونه أنه ليس في هذا كبير خطر ، ولا هناك محذور ، وأن الوزير إنما يعظم هذا لينفق^(١) سوقه ولتبرز إليه الأموال لتجند بها العساكر ، فيقطع منها لنفسه^(٢) .

بعد أن قضى هولاكو على طائفة الحشاشين ، أرسل إلى الخليفة المستعصم من مدينة همذان التي اتخذها مركزاً لقيادته كتاباً ينفذ فيه بالحرب ، إذا لم يقدم نفسه ويسلم حاضرة ملسكه إلى المغول ، « فوقع التعمين من ديوان الخليفة على ولد أستاذ الدار ، وهو شرف الدين عبد الله بن الجوزى ، فبعث رسولاً إلى خدمة الدراكة السلطانية بهمذان ، فلما أن وصل وسمع جوابه ، علم أنه جواب مغالطة ومدافعة ، فحينئذ وقع الشروع في قصد بغداد وبث العساكر إليها^(٣) .

(١) نفقت السلعة : غلت ورغب فيها .

(٢) الفخرى ص ٢٩٤ — ٢٩٧ .

(٣) الفخرى ص ٢٩٧ .

سار هولوكو — بعد شهرين — بجنده إلى بغداد في شهر نوفمبر عام ١٢٥٧ م (٦٥٥ هـ) في عهد كوپيلاي خان (٦٥٥ — ٦٩٣ هـ) إيلخان (إمبراطور) المغول في فارس ، وبصحبة كثير من أمراء المسلمين ، وعسكر حول منتصف الحرم سنة ٦٥٦ هـ (يناير ١٢٥٨ م) على مقربة من بغداد من ناحية الشرق . وسهل على المغول هذا الحصار ، تلك المؤامرات التي كان يدبرها الشيعة لأهل السنة داخل أسوار المدينة .

ويصف صاحب الفخرى فتح بغداد على يد التتار ، فيقول : « أجفل الناس من دجيل والإسحاق ونهر ملك ودخلوا إلى المدينة بنسائهم وأولادهم ، حتى كان الرجل أو المرأة يقذف بنفسه إلى الماء ، وكان الملاح إذا عبر أحداً في سفينة من جانب إلى جانب يأخذ أجرته سواراً من ذهب أو طرازاً من زركش أو عدة من الدنانير . فلما وصل العسكر السلطاني (أى جند هولوكو) إلى دجيل ، وهو يزيد على ثلاثين ألف فارس ، خرج إليه عسكر الخليفة حجة مقدم الجيش مجاهد الدين أيبك الدويدار ، وكان عسكراً في غاية القلة ، فالتقوا بالجانب الغربي من بغداد قريباً من البلد ، فكانت الغلبة في أول الأمر لعسكر الخليفة ، ثم كانت الكثرة للعسكر السلطاني ، فأبادهم قتلاً وأسراً . وأعانهم على ذلك ، نهر فتحوه في طول الليل ، فكثرت الوحول في طريق المنهزمين ، فلم ينج منهم إلا من رمى بنفسه في الماء أو من دخل البرية ومضى على وجهه إلى الشام . ونجا الدويدار في جمعية من عسكره ووصل إلى بغداد ، وساق باجوح حتى دخل البلد من جانبه الغربي ووقف بمساركه محاذي التاج ، وجاست عساكره خلال الديار ، وأقام محاذي التاج أياماً . وأما حال العسكر السلطاني ، فإنه في يوم الخميس رابع الحرم من سنة ٦٥٦ هـ ثارت غيرة عظيمة شرقي بغداد على درب يعقوبا بحيث عمت البلد ، فانزعج الناس من ذلك وصعدوا إلى أعالى السطوح والمناير يتشوقون ، فانكشفت الغيرة عن عساكر السلطان وخيوله ولقيفه وكراعه . وقد طبّق

وجه الأرض وأحاط ببغداد من جميع جهاتها، ثم شرعوا في استعمال أسباب الحصار، وشرع العسكر الخليفة في المدافعة والمقاومة إلى اليوم التاسع عشر من شهر الحرم، فلم يشعر الناس إلا ورايات المنقول ظاهرة على سور بغداد من برج يسمى « برج المعجمي » من ناحية باب من أبواب بغداد يقال له « باب كلواذى » وكان هذا البرج أقصر أبواب السور، وتفتح العسكر السلطاني هجوماً ودخولاً فجري من القتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ، ما يعظم سماءه جملة في الظن بتفاصيله ^(١).

وأمر المنقول الخليفة المستعصم وأودعوه هو وأسرته في معسكرهم، ثم استقر هولاء كوفي قصر المأمونية في شرق بغداد. وقد ذبح المنقول السواد الأعظم من الأهلين كما تذبح الشاة، وأضرمو النيران في المدينة، فأتلفت مسجد الخليفة وضريح موسى السكاظم ومقابر الخلفاء في الرصافة، كما خرجت معظم الشوارع والطرق والبيوت، حتى أصبحت المدينة أترأ بعد عين. واستأنفت جموع المنقول سيرها لمواصلة الفتح والنهب، فخرّبوا المساجد ليحصلوا على قبابها المذهبة، وهدموا القصور بعد أن جردوها مما بها من التحف الفارسية والصينية الفادرة، وخرّبوا المكاتب وأتلفوا الكتب التي بها إما بإحراقها أو برميها في دجلة، كما قتلوا معظم أهل المدينة دون أن يستثنوا امرأة أو طفلاً أو يعطفوا على مريض أو يقدروا عالماً. وأمر هولاء كوفي قبل رحيله بتجديد بناء مسجد الخليفة وضريح موسى السكاظم.

انتهت هذه الحوادث الحزنة بقتل الخليفة المستعصم وأولاده، وسقوط بغداد في أيدي التتار بعد أن ظلت زهاء خمسة قرون حاضرة للدولة العباسية ومركزاً للعالم الإسلامي ومهبطاً للعلماء. ولم تعد تلك المدينة الزاهرة منذ ذلك الحين حاضرة الإسلام، وإن كانت لم تزل أهم بلاد العراق العربي. وبسقوط الدولة

العباسية ، انتهت الخلافة بنظامها القديم واختل نظامها حتى أصبح في مقدرة كل أمير قوى متغلب على جهة إسلامية أن يستجيز لنفسه لقب الخلافة .

وبعد مقتل المستعصم ، خيل للمسلمين أن العالم على وشك الانحلال وأن الساعة آتية عن قريب ، وصاروا يؤولون كل ظاهرة على أنها تعبير عن سخط الله ، واتخذوها أدلة على ما سيحدث في العالم من انقلاب سيء يخلو من خليفة ، لأن الناس كانوا يرون ضرورة وجود خلافة تبارك العالم وتجعل سلطان الولاية شرعياً^(١) .

٥ - الخلافة العباسية في القاهرة والقسطنطينية

بمقتل المستعصم سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) انتهت الخلافة العباسية في بغداد ولم تقم لها قائمة حتى أحيائها بيبرس سلطان المماليك في مصر . ذلك أنه في سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) استدعى بيبرس الأمير أبا العباس أحمد الذي كان قد بايعه « قطز » في دمشق ، غير أنه لم يحضر ، وسبقه الأمير أبو القاسم أحمد إلى القاهرة بعد فراره من وجه التتار المتغلبين على بغداد . وصل أبو القاسم أحمد إلى القاهرة في ٨ رجب سنة ٦٥٩ هـ فأعد السلطان العدة لاستقباله ، وخرج للقاءه ، ومعه الوزير صاحب بهاء الدين بن حنا ، وقاضى القضاء تاج الدين بن بنت الأعز وجميع الأمراء والجند وأعيان القاهرة ومصر والمؤذنون والشهود واليهود يحمون التوراة والنصارى يحمون الإنجيل . وساروا جميعاً إلى المطرية لمقابلته ، ولما وقع نظر الظاهر بيبرس على هذا الأمير العباسي^(٢) ترجل إجلالاً ، وتقدم فعاثقه . وركب معه السلطان يتبعهما الجيش حتى وصلا إلى القلعة^(٣) . وهنا تأدب

(١) السيوطي : تاريخ : الخلفاء ص ٣٠٩ .

(٢) شعار العباسيين هو السواد .

(٣) ابن أبيك : كنز الدرر ج ٨ القسم الأول ص ٦٣ . المقرئ : السلوك ج ١ ص ٤٤٩ .

السلطان الظاهر ولم يجلس على مرتبة ولا فوق كرسي^(١) بحضرة الخليفة . وفي يوم الاثنين ١٣ رجب سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) عقد الظاهر بيبرس مجلساً في قاعة الأعمدة بالقلعة دعا إليه القضاة والعلماء والأمراء وشيخ الإسلام عز الدين ابن عبد السلام وسائر أرباب الدولة ، والعرب الذين قدموا إلى مصر مع أبي القاسم أحمد^(٢) ، وذلك لإثبات نسبه وتقرير بيعته ، لأن الخلافة قد شغرت منذ مقتل المستعصم بالله ، فسر السلطان باتصال أسبابها وتجديد أنوارها وإقامة منارها وإظهار شعارها ، لتكون ثابتة الأساس متصلة في بني العباس ، كما سبقت الوعود النبوية بأنها خالدة في هذه الدرية^(٣) .

ولما انتظم عقد المجلس جلس بيبرس بين يدي الإمام أبي القاسم أحمد ، واستدعى العربان الذين قدموا معه من بغداد ، سئلوا عنه في ذلك المجلس : هل هذا هو الإمام أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر محمد بن الناصر أحمد ؟ فأجابوا بنعم . وشهد جماعة بالاستفاضة عند القاضي تاج الدين بن الأعز بذلك . فأقر ذلك أيضاً بعض الفقهاء والقضاة ، فقبل قاضي القضاة شهاداتهم وحكم بصحة نسبه وبايعه بالخلافة . ثم قام بعد ذلك الملك الظاهر بيبرس وبايعه « على كتاب الله وسنة رسول الله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله ، وأخذ الأموال بحقها ، وصرفها في مستحقها »^(٤) ، وبايعه بعد السلطان شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، ثم الأمراء وكبار رجال الدولة ثم الناس على اختلاف طبقاتهم . وتلقب أبو القاسم أحمد بلقب « الخليفة المستنصر بالله »^(٥) .

(١) المقرئ : المخطوط ج ٢ ص ٣٠١ .

(٢) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ج ٦ القسم الثالث ص ٦٠٥ .

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٩ .

(٤) المصدر السابق ورقة ٢٩ . المقرئ : السلوك ج ١ ص ٤٥٠ .

(٥) يعد المستنصر بالله الخليفة الثامن والثلاثين من خلفاء بني العباس وصار بينه وبين العباس أربعة وعشرون أباً . ولقب بالمستنصر لقب أخيه . ولم يتفق أن لقب خليفة بلقب أخيه سواء . المقرئ : السلوك ج ١ ص ٤٥١ .

ولما تمت البيعة قلّد الخليفة المستنصر بأمره السلطان الملك الظاهر « البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار »^(١) . وكتب السلطان إلى النواب والحكام في سائر الولايات التابعة لمصر بأخذ البيعة للخليفة المستنصر بالله ، والدعاء له في خطبة الجمعة على المنابر^(٢) ، والدعاء للسلطان من بعده ، وأن تنقش السكة باسمهما .

ثم دعاه السلطان ليخطب ويعلى بالناس صلاة الجمعة . فاجتمع القضاة والعلماء وسائر الأمراء ، وخطب الخليفة أبو القاسم أحمد خطبة أثنى فيها على فضل الملك الظاهر ، الذي رد الخلافة إلى بني العباس ، استهلها بقراءة سورة الأنعام ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وترضى عن الصحابة ، وذكر شرف بني العباس ، ودعا للملك الظاهر^(٣) ، فامتدح الناس خطبة الخليفة ، وزادت عناية السلطان به .

وفي ٤ شعبان سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) ركب الخليفة والسلطان والوزير والقضاة والأمراء وكبار رجال الدولة إلى خيمة أقيمت خارج القاهرة ، وهناك ألبس الخليفة للسلطان الملك الظاهر بيبرس خلعة السلطنة . وعلى أثر ذلك ، عقد اجتماع تلا فيه نحر الدين بن لقمان - صاحب ديوان الإنشاء - تفويض الخليفة العباسي للملك الظاهر بيبرس ، وذلك تقوية لعرشه على أعدائه من أمراء المماليك ، وإثباتاً لأحقية المماليك في تولي شئون مصر ، وفي هذا التفويض اعتبر الخليفة نفسه حاكماً على أراض لم تحكمها الدولة العباسية منذ قرون ، بل ادعى لنفسه السيادة الشرعية على العالم الإسلامي . ولما فرغ نحر الدين بن لقمان من قراءة هذا التفويض سار السلطان وعليه الخلعة يتقدم موكب السلطنة ، عائداً إلى القاهرة

(١) المقرئى : المخطوط ج ٢ ص ٣٠١ .

(٢) كان أول من دعى له على المنابر مع الخليفة : عضد الدولة بن بويه في خلافة الطائفة

فاقة (٣٦٣ — ٣٨١ هـ و ٩٧٤ — ٩٩١ م) .

(٣) ابن لإياس : بدئع الزهور ج ١ ص ١٠١ .

حتى وصل إلى باب النصر ، ثم سار في طريق مفروش بالبسط يمتد من باب النصر إلى القلعة ، ومر بشوارع القاهرة الرئيسية ، وتقدم السلطان الموكب وتلاه الخليفة ، فالوزير المصاحب بهاء الدين بن حنا يحمل التقليد ، على رأسه وتبعهم الأمراء وسار الناس مشاة . وبعد أن خرج الموكب من باب زويلة ، سمح للأمراء بالركوب ، واستمر الموكب في سيره حتى وصل إلى القلعة . وهناك جلس بيبرس على عرش ملكه . وهكذا تمت مراسيم اعتلاء بيبرس على عرش السلطنة المصرية بصفة رسمية تؤيدها للصفة الشرعية التي نالها من قبل الخليفة ، فأمن بذلك جانب أعدائه ومنافسيه في الداخل والخارج . وازدهرت الخلافة العباسية في مصر ، بعد أن قضى عليها سنة ٦٥٦ هـ .

عزم السلطان بيبرس بعد ذلك على إعادة الخليفة إلى بغداد ، ولم يتضح تماما الغرض الذي كان يرمى إليه هذا السلطان من ذلك ، وكان بيبرس قد عزم على أن يرسل مع الخليفة عشرة آلاف فارس ويجهزه بالمال والسلاح لمعاونته في إعادة الخلافة العباسية وإقامة نفسه خليفة في بغداد ، وخرج السلطان مع الخليفة إلى دمشق . غير أن أحد أمراء الموصل أسر إلى السلطان أن يعدل عن هذا الرأي وقال له : « إن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازلك وأخرجك من مصر » ^(١) ، تخاف بيبرس عاقبة هذا الأمر ، ولم يجهز الخليفة إلا بثلاثمائة فارس ، سار على رأسهم إلى بلدة الرحبة الواقعة على نهر الفرات ، حيث انضم إليه أربعمائة فارس من عرب العراق الذين لجأ إليهم عقب هربه من بغداد بعد مقتل الخليفة المستعصم ، وتقدم الخليفة إلى مشهد على ، حيث التقى بأبي العباس أحمد يقود سبعمائة فارس من التركمان ، فاتفقا معا على إعادة الخلافة العباسية في بغداد ، واتجهتا نحو الحديثة الواقعة على نهر الفرات يريدان هيت حيث أحاطت بهن جنود التتار وهزموهم وقتلوا معظمهم ، ولم ينبج

منهم سوى الأمير أبي العباس أحمد ونحو الحسين فارساً^(١). أما الخليفة أبو القاسم أحمد فلم يقفوا له على أثر. ولما علم بيبرس بمقتل الخليفة المستنصر بالله تأسف غاية الأسف ، لأن ما بذله في سبيل إقامة خلافة عباسية في القاهرة « قد راح في البراد » ، على حد تعبير ابن إياس^(٢) ، إذ أنه يقتل هذا الخليفة قد فقد الأمل في استمرار قيام خلافة عباسية في مصر ، تجعل سلطانه ، وسلطان خلفائه شرعياً .

وسرعان ما تبددت هموم بيبرس وسفحت له الفرصة بقيام الخلافة العباسية في مصر في شخص أبي العباس أحمد الذي كان قد بايعه قطز في دمشق واستدعاه بيبرس عند جلوسه على العرش ، ولكن أبا قاسم أحمد كان قد سبقه إلى مصر . وأحضر السلطان أبا العباس أحمد راكباً إلى الإيوان الكبير بقلعة الجبل ، حيث أجلسه ، وجلس بجانبه ، وقرئ نسبه ولقب بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين . ثم أمر السلطان بأن يخطب باسم الخليفة واسمه على منابر مصر وأعمالها^(٣) ، وأن يقدم اسم الخليفة في الدعاء يوم الجمعة على المنابر قبل اسمه ، ورتب له ما يسكفيه هو وأولاده^(٤) . وفي يوم الجمعة ١٠ المحرم سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) خطب الخليفة وصلى بالناس بالقلعة ، ثم ألقى خطبة ثانية . وفي الخطبتين ذكر الجهاد والإمامة ، وتعرض إلى ما حدث من زوال الخلافة العباسية وفضل الظاهر بيبرس في إقامتها بعد زوالها ، وخاصة أنه رأى في تلك الآونة ضرورة استمرار قيام الخلافة العباسية بمصر ، إذ أنه لم يفكر بعد مبايعة الحاكم بأمر الله في إعادة الخلافة العباسية في بغداد كما فعل مع سلفه المستنصر بالله .

قصر بيبرس سلطان هذا الخليفة على الأمور الدينية دون سواها وضيق

(١) المقرئى : كتاب السلوك ج ١ ص ٤٦٢ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٢ .

(٣) خطب للعالم بأمر الله فيما بعد على منابر دمشق ومكة والمدينة وبيت المقدس .

(٤) ابن إياس : نفس المصدر والجزء ص ١٠٢ .

حدود سلطته حتى جعلها لا تتمدى ذكر اسمه في الخطبة في مصر والأقطار التابعة لها^(١). وقد شملت مدة خلافة الحاكم بأمر الله عهود السلاطين : بيبرس وابنيه بركة خان وسلامش ، وقلاوون وابنيه خليل والناصر محمد (في عهد سلطنته الأولى) ، وكتبغا ولاجين والناصر محمد (في عهد سلطنته الثانية) ، وظل في الخلافة حتى توفي سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) . فكانت مدة خلافته أربعين سنة ، وهو أول من دفن بمصر من الخلفاء العباسيين ، وظل الخليفة الحاكم بأمر الله مقبلاً كالسجين بالبرج الكبير في قلعة الجبل منذ سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) أى مدة ثلاثين سنة . وبقي لا يجتمع بأحد من أهل الدولة إلى أن أفرج عنه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وأعاد إليه خطبة الجمعة ، وكان قد حرم حتى من القيام بهذا الواجب^(٢) ، ثم عهد إليه بالدعوة إلى الحث على قتال التتار واستخلاص بلاد العراق من أيديهم^(٣) . وفي عهد السلطان لاجين نقل الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٦٩٦ هـ من البرج الكبير بالقلعة إلى القصر المعروف باسم « مناظر الكباش » ، التي أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب حوالى سنة ٦٤٠ هـ على جبل يشكر بجوار جامع ابن طولون وأصبحت بعده في المنازل الملوكة . وأذن له بالخروج من القصر للترفيه كيفما شاء ، كما سمح له بأن يخطب يوم الجمعة بجامع القلعة ، وسار يركب مع السلطان في المواكب ، ثم أذن له بالذهاب إلى القلعة مرة في كل شهر لينهى السلطان بحلول الشهر الجديد^(٤) .

في ١٦ جمادى الأولى سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) أوصى الخليفة الحاكم بأمر الله - بحضور القضاة - بولاية العهد من بعده لابنه أبى الربيع سليمان . وتوفى

(١) وبذلك قلل بيبرس نفوذ الخليفة الحاكم بأمر الله ، مع أنه أمر بنقش اسم الخليفة المستنصر بالله على السكة .

(٢) القرينى : السلوك ج ١ ص ٦٨٨ . السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٨ .

(٣) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٨ القسم الثالث ص ١٤٧ .

(٤) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٢ .

الحاكم بعد ذلك بيومين ، فاستشار السلطان الناصر قاضى القضاة تقي الدين ابن دقيق العيد فى أمر تولية سليمان الخلافة بعد أبيه فأفتى بصلاحيته . وعلى أثر ذلك استدعى السلطان أبا الربيع سليمان إلى القلعة وعقد مجلساً حضره القضاة والأمراء وبائع أبا ربيع بالخلافة ولقبه المستكنفى بالله ، وأمره بأن يقيم فى قصر الكبش وبأن يمنح ما كان مقررأ لوالده الحاكم من الرواتب ^(١) ، كما حدد له اختصاصاته على نحو ما كان متبعاً فى أيام أبيه . وأقام الخليفة المستكنفى بالله بمناظر الكبش حتى نقل إلى القلعة فى ٢٣ ذى القعدة سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٠ م) حيث أقام أبوه الحاكم من قبل ، ولكن الناصر حد بعد ذلك من حريته وأمر برحيله إلى مدينة قوص فى أواخر سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٦ م) ^(٢) وقيل فى سنة ٣٣٨ هـ (١٣٣٧ م) ^(٣) ، فوصل إليها هو وأولاده وسائر أفراد أسرته الذين بلغ عددهم نحو مائة نفس . وفى هذا منتهى الدلالة على أن الخليفة العباسى فى مصر كان خاضعاً لأهواء السلطان من رضا وغضب ، وتوفى الخليفة بمدينة قوص .

بموت المستكنفى بالله ، اعتلى عرش الخلافة ، الخليفة إبراهيم الذى ينتهى نسبه إلى الخليفة الحاكم بأمر الله ثانى خلفاء العباسيين فى مصر ولقبه الواثق ، وفى عهده اضمحل شأن الخلافة وانحطت قيمتها مما كانت عليه . فقد اتصف الخليفة الجديد بسوء التدبير وانصرف إلى اللهو واللعب ومخالطة السفلة من الناس ، وكان يستدين المال دون أن يرده إلى صاحبه . ^(٤) وحرّم الواثق حتى

(١) كانت هذه الرواتب عبارة عن خمسمائة دينار فى الشهر وثمانى أرباب قبح وثلاثة أرباب شعير . وفى كل يوم أربع جرايات خبز وعشرين رطلاً من اللحم ، عدا الكسوة Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٧٠١ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٢ .

(٣) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٩٤ .

(٤) حكم فى بغداد فى نهاية العصر العباسى الأول : الخليفة الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ)

= ٧٤٢ — ٧٤٧ م) بن المعتصم . ولذا فإن السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٢٢٥ =

ذكر اسمه في الخطبة لأن السلطان الناصر اتفق هو وقاضى القضاة على أن يقتصر الأمر على اسم السلطان ، وبذلك « رحل بموت المستكنى اسم الخلافة عن المنابر كأنه ماعلا ذروتها وخلا الدعاء للخلفاء من المحاريب كأنه ما قرع بابها ومروتها »^(١) . ولما دنا أجل السلطان الناصر أوصى بتحويل الخلافة إلى أحمد ابن الخليفة المستكنى بالله وندم على تولية الوائق بالله إبراهيم . ولما ولى السلطنة أبو بكر بن الناصر ، أقر وصية أبيه .

ولم يعهد الخليفة أحمد بن المستكنى بالله بالخلافة لأحد بعد موته ، فأمر الأمير شيخو ، وكان يومئذ أتابك العساكر وصاحب السلطة الفعلية في الدولة في عهد السلطان الصالح صلاح الدين صالح (٧٥٢ - ٧٥٣ هـ) - أن يجتمع القضاة والأمراء والأعيان للمشاورة فيمن يلى الخلافة . فوقع اختيارهم على أخى الخليفة أحمد المنوف واسمه أبو بكر ، فبايعوه سنة ٧٥٣ هـ ، ولقب المعتضد بالله ، وكنى أبا الفتح ، وضم إلى اختصاصاته نظر المشهد النفيسى^(٢) وكان المعتضد بالله « عارفا ، مهابا ، واسع الفكرة ، محبا لأهل الخير والهم » . وقد ظل خليفة على مصر حتى توفي سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦١ م) .

وتولى الخلافة من بعده ابنه أبى عبد الله محمد الذى تلقب « المتوكل على الله » . وقد حدث لهذا الخليفة حادث يعد الأول من نوعه في تاريخ الخلافة العباسية في مصر ، إذ عرض عليه أمراء مصر أن يضم إلى خلافته عرش

= قد أتى بمقارنة لطيفة بين الخليفةين العباسيين في بغداد والقاهرة اللذين كان يطلق عليهما هذا الاسم . ومنها فتيق أن هذا المؤرخ قد نزل بالوائى العباسى في مصر إلى الحضيض : يقول السيوطى : « أين هو صاحب هذا الاسم الذى طالما سرى رعبه في القلوب وأعيت هيبته مضلجم الجنوب ، وهيبات لا تعد من النسر التماثيل ولا الناموسة وإن طال خرطومها كالفيل ، وإنما سوق الزمان قد ينفق ما كسد والهر يحكى انتفاخا صورة الأسد » .

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٢٤ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٨ .

السلطنة ، ذلك أنه في سنة ٧٧٨ هـ (١٣٧٦ م) سافر السلطان الأشرف شعبان لحج بيت الله الحرام ومعه الخليفة المتوكل والقضاة والأمراء . وفي الطريق اتحد الأمراء ضد الأشرف وأرادوا الغدر به ، ولكنه عاد خلسة إلى القاهرة ، فلم يتمكن الأمراء من تنفيذ ما عزموه من قتله . وعلى أثر هربه استقر رأى الأمراء على عرض السلطنة على الخليفة المتوكل على الله ، وقالوا له يا أمير المؤمنين « تسلطن ونحن بين يديك » . فامتنع الخليفة من قبول السلطنة ، وقام الأمراء بذلك العرض دون أن يكونوا قد علموا بوصول المنصور على العرش^(١) . وعلى الرغم من أن هذا الحادث قد عد غريباً فإن وقوعه لم يكن مستبعداً ، لما اتصف به هذا الخليفة من جميل الصفات وحيد الخلال . وظل المتوكل على الله في منصب الخلافة إلى أن قُتل الأشرف شعبان ، وأقيم بعده المنصور على . ونظر الصفرى ذلك السلطان ، كان أينبك البدرى هو المهيمن على شئون الدولة على نحو ما كان متبعاً في عصر السلاطين الأتراك .

وكان هذا الأمير يحقد على المتوكل موقفه من خلع الأشرف شعبان وقتله وما كان من عرض السلطنة عليه من طريق بعض الأمراء ، فبعث إلى عباسى آخر اسمه زكريا وأقامه خليفة سنة ٧٧٩ هـ بغير مباينة ولا إجماع ولقبه « بالمستعصم بالله »^(٢) وأمر بنى الخليفة المتوكل إلى قوص ليبقى بها بقية حياته^(٣) كما فعل الناصر محمد مع الخليفة المستكن بالله . ولكن شفع في الخليفة بعض الأمراء لدى أينبك . فلم يرحل إلى قوص ، بل اكتفى بخلعه وبقي مقياً في داره بالقاهرة ، ثم عاود الأمراء كلامهم مع أينبك في أمر عودة الخليفة المتوكل إلى منصبه ، فعاد إليه وعُزل زكريا . وبذلك كانت مدة خلافة زكريا خمسة

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة (طبعة كايغورانيا) ج ٥ الفصل الأول ص ٢٣٣ .

السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٣٤ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٩ .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٣٤ .

عشر يوما ، أو على حد تعبير ابن إياس : « مثل سنة من النوم أو يوم أو بعض يوم » ^(١) . ولكن المتوكل مالبث أن عزل على يد برقوق مؤسس دولة المماليك البرجية سنة ٧٨٥ هـ وحبسه بقلعة الجبل ، وعقد البيعة للإمام أبي حفص عمر الواثق بالله ، فظل خليفة إلى أن توفي في ١٧ شوال سنة ٧٨٨ هـ ، وعين برقوق مكانه أخا محمد زكريا الذى ولى الخلافة مدة يسيرة فبويع ولقب « المستعصم بالله » ، واستمر فى منصبه إلى ٢ جمادى الأولى سنة ٧٩١ هـ ، وإذ ذاك ندم برقوق على ما فعل بالمتوكل وأخرجه من حبسه وأعادته إلى كرسي الخلافة وخلع زكريا . واستمر المتوكل فى الخلافة إلى أن مات سنة ٨٠٨ هـ فكانت مدة خلافته خمسة وأربعين سنة ، بما تخللها من خلع وحبس .

* * *

واستمرت الخلافة العباسية بمصر ، إلى أن فتحها العثمانيون على يد السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧ م . وقد قيل إن السلطان سليم أخذ معه الخليفة المتوكل ، آخر خلفاء العباسيين بمصر ، إلى القسطنطينية . ونزل له هذا عن الخلافة ، وسلمه شاراتها ، أى مخلفات الرسول وهى : البردة التى كان يلبسها الخلفاء العباسيون فى بغداد ، وبعض من شعر لحية النبي صلى الله عليه وسلم ، وسيف الخليفة عمر بن الخطاب .

وقد أسهب المؤرخون المعاصرون فى ذكر ما آل إليه أمر الخليفة المتوكل بعد فتح مصر ، إلا أننا لا نقف من ثنايا هذه المعلومات على أية إشارة تتضمن انتقال لقب الخلافة إلى سليم ، حتى بعد أن رحل الخليفة العباسى إلى القسطنطينية . والأدلة على ذلك :

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤١ .

١ — أنه لم يرد عن « الخليفة » أية إشارة أو ذكر في ذلك الكتاب الطويل الذى بعث به السلطان سليم إلى ابنه سليمان ، واقدى وصف فيه مدى انتصاراته التى انتهت بفتح مصر ، وأظهر سروره لفتح الحجاز والمدينتين المقدستين : مكة والمدينة ، مما جعل له الحق فى تسمية نفسه « خادماً الحرمين » ، ذلك اللقب الذى كان يتلقب به سلطان مصر من المالك لا الخليفة العباسى من القاهرة

٢ — أن سليم ورد إسمه فى الخطبة التى أقيمت له فى مساجد القاهرة ، فى اليوم الذى أحرز فيه النصر الأعظم — وهو ٢٣ يناير سنة ١٥١٧ م — مصحوباً بلقب « سلطان » . وكان هذا اللقب وحده هو الذى تكرر فى هذه الخطبة .

٣ — أن السلطان سليم لم ينقش على السكة التى ضربت باسمه لقباً آخر من الألقاب غير لقب السلطان ، كما كانت الحال بالنسبة إلى من جاء قبله أو بعده من السلاطين . على أن أحداً من العثمانيين لم يلقب نفسه على العملة بلقب خليفة أو إمام أو أمير المؤمنين .

٤ — أن سليمان لم يذكر فى مراسلاته مع أبيه سليم لقب الخلافة ، ولا أى لقب آخر يتصل به ، كما لا نجد فى رسائله إلى كبار الموظفين بعد اعتلائه العرش ، أن أباه كان خليفة بالمعنى الإسلامى القديم ، وإنما أشار إليه باعتباره سلطاناً فحسب ، فيقول : السلطان ، الخاقان ، خادماً البحرين وغيرها من الألقاب .

• — أن السلطان وجد أن لقب الخلافة قد أصبح شائع الاستعمال مبتذلاً وأن هذا اللقب كان يطلق فى ذلك العصر على صفار الأسراء ، حتى لم يعد له شىء من مظاهر التقديس والاحترام ، التى كانت له فى العصور الوسطى . وكان يعلم أن منافسه الذى كان يضمّر له الكراهة والبغضاء — وهو الشاه اسماعيل الصفوى —

قد عين أحد الخصيان أميرا على بغداد بعد استيلائه عليها سنة ١٥٠٨ م ،
وأُسند إليه منصب الخلافة ولقبه « خليفة الخلفاء » .

٦ — أن السلطان سليم وأسلافه كانوا يتمتعون منذ زمن طويل بمثل
ما كان للخلفاء من نفوذ وسلطان ، فرأى في أخذه التنازل من الخليفة المتوكل
العباسي أمرا لا معنى له ، حتى لا يكون عالة على شخص ليس له نفوذ كالخليفة
العباسي في القاهرة ، الذى فقدت الخلافة القديمة مع أسرته كل ما كان لها
من هيبة ونفوذ ، وذلك على أثر ما أصاب الخلافة من الانحطاط في غضون قرنين
ونصف قرن من الزمان ، خضعوا فيها لأهواء المالك وتقلباتهم .

وقد حذا متأخرو السلاطين العثمانيين حذو من سبقهم من السلاطين ، فلم
يحملوا بألقاب « الخليفة » و « الإمام » و « أمير المؤمنين » ، حتى أننا لا نرى
ذكرا لها في المسكاتبات الرسمية ولم نلاحظ أن سلاطين العثمانيين تلقبوا بلقب
الخلفاء ، إلا في القرن الثامن عشر الميلادى ، إذ أصبحوا يستعملون لقب الخلافة
بشكل جديد في معاملاتهم الدولية مع المسيحيين . وكان ذلك لأغراض سياسية ،
غايتهما أن يكون لم شئ من النفوذ الدينى على العالم الإسلامى ، الذى كان كثير
منه تحت سلطان الدول المسيحية . ففي معاهدة « كجوك كينارجى » ، التى
أبرمت بين السلطان عبد الحميد الأول وكترين الثانية قيصرية روسيا سنة ١٧٧٤ م ،
اقترن اسم عبد الحميد بلقب إمام وخليفة .

وإن اتخاذا سلاطين العثمانيين لقب الخلافة بالمعنى القديم — الذى يُقصد به
السيطرة على كافة المسلمين — لم يظهره إلا في القرن التاسع عشر ، وذلك في عهد
السلطان عبد الحميد الثانى . فقد ظهر هذا اللقب بصفة رسمية في دستور مدحت
باشا الصادر في ديسمبر سنة ١٧٨٦ م ، حيث تنص الفقرة الثالثة منه على أن
السلطنة العثمانية العظمى ، التى آلت إليها الخلافة الإسلامية العظمى ، سوف
(م ٣١ — التاريخ الإسلامى العام)

تؤول إلى أكبر أبناء البيت للمالك . وتنص الفقرة الرابعة على أن حضرة صاحب العظمة السلطان ، بصفته خليفة المسلمين ، قد أصبح حامى الدين الإسلامى . ولكن من المؤكد أن سلطة الخليفة العثمانى على العالم الإسلامى كانت ضعيفة ، إذ زالت فعلا وبقيت إسما .

وقد سار البيت العثمانى على نظام التوريث فى الخلافة ، فكان من المقرر أن يرث الخليفة أكبر أفراد أسرة آل عثمان سنا . ولهذا الطريقة معايها : فكثيرا ما كان ولى العهد يتعجل موت الخليفة ، فيرتكب جرما بقتله . وكثيرا ما كان الخلفاء منهم يتخلصون من إخوتهم وذوى قرباهم الأقربين ، إما خوفا منهم ، وإما لفتح طريق العرش أمام أبنائهم ، مما أدى إلى ارتكاب الجرائم وإراقة الدماء ومخالفة الشريعة .

وقد بقيت الخلافة العثمانية ضعيفة الجانب إلى أن زالت ، نهائيا فى سنة ١٩٢٤ م ، إذ رأى الأتراك أن بقاء الخليفة قد يثير حوله حركات رجعية ، وأن فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية فى الإسلام لا يتفق ونظام الخلافة ، فألغوا الخلافة فى ٢ مارس سنة ١٩٢٤ م ، على يد « مصطفى أتاتورك » رئيس الجمهورية التركية السابق . ومنذ ذلك الحين لم يجمع المسلمون أسرم على شئ بهذه الخصوص ، وأصبحوا اليوم بلا خليفة أو خلافة .

الباب الخامس

نظم الحكم والحياة الاجتماعية

في الجاهلية - في الدول العربية - في الدول العباسية

نظم الحكم^(١) هي مجموعات القوانين والمبادئ والتقاليد التي تقوم عليها الحياة في الدولة ، فمنها : النظم السياسية ، والإدارية ، والقضائية ، والحرية ، والمالية .

ويقصد بالنظام السياسي : الخلافة من حيث كونها نظاما للحكم ، ومن حيث نشأتها وارتقاؤها وضعفها . أما النظام الإداري . فيقصد به إدارة الأقاليم من حيث بيان مدى سلطة الولاة في ولاياتهم ودواوين الدولة وموظفيها ، والبريد ، والحجابه ، والكتابة ، والوزارة وعلاقتها بالهيئة العليا الحاكمة . ونعني بالنظام الحربي : الجيش والأسطول وما بلغه كل منهما من عظمة وسؤدد ، والآلات الحربية المستعملة وأثرها في القتال . أما النظام القضائي : فيبحث في القضاء والحسبة التي تعتبر وسطا بين القضاء والمظالم . ويقصد بالنظام المالي : موارد بيت المال ومصارفه ، ونظام الضرائب وطرق جبايتها .

أما الحياة الاجتماعية : فهي بيان طوائف السكان ومكانة المرأة ، والملابس والطعام والشراب ، والأعياد والمواسم والمواكب ، ومظاهر الفخامة التي تحيط بكل منها ، والرياضة والألعاب والفناء والموسيقى .

(١) للؤلؤف ، بالإشتراك مع الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن ، كتاب النظم الإسلامية (٣٨٤ صفحة) . ولئن يريد الاستزادة من موضوع « نظم الحكم » الرجوع إليه .

أولا - عند العرب قبل الإسلام

١ - نظم الحكم

حكومة القبيلة :

لم يكن في بلاد العرب قبل الإسلام حكومة جامعة ، يخضع لها سكان البلاد جميعا ، بل كانت هناك حكومات متعددة ، هي حكومات القبائل . والقبيلة أسرة كبيرة تفرغت منها عدة فروع ، تسمى البطون والأفخاذ والعشائر ، وكان رئيس حكومة القبيلة أحد أشياخها ، ويراعى في اختياره أن يكون من ذوى السن والتجربة والشجاعة وسداد الرأى والبلاء في خدمة القبيلة وأن يكون جوادا يطعم الفقراء من ماله وخاصة في الأزمات . ومن هذا ترى أن شيخ القبيلة كانت تراعى في اختياره عدة اعتبارات أدبية ، تجعل الحكم في متناول أى إنسان يتحلى بأحسن الصفات في المجتمع العربى . ويُسهل اختياره على هذا النحو أن القبيلة كانت بمثابة أسرة كبيرة ، يرتبط بعضها مع بعض برابطة النسب والدم في الغالب ، وأنها كانت تجتمع كلها في صعيد واحد في أكثر الأحوال .

وكانت حكومة القبيلة ديموقراطية ، وسلطة شيخها سلطة أبوية مشوبة بالمطف والحدب . وكان يجمع من حين إلى آخر رؤساء العشائر ، وهم الذين كان يتألف منهم شبه مجلس شيوخ القبيلة للتشاور والفصل في الأمور المهمة كإعلان الحرب أو إقرار السلم أو التى تخص نظام القبيلة . وبذلك قامت عند العرب فكرة الشورى قبل الإسلام .

ولم يكن للقبيلة قانون مكتوب تسير عليه ، بل كانت تحكم حسب « العرف » وهو مجموعة العادات والتقاليد التى اصطلح عليها القوم من قديم

الزمان . ولم تتدخل القبيلة في حرية أفرادها ، إلا إذا وقع من أحدهم ما يخشى منه على سلامة القبيلة . وفي كل ذلك تختلف القبيلة عن الدولة الحديثة .

ولم يكن عند العرب في الجاهلية سلطة تشريعية تسن لهم القوانين ، بل سادت عندهم العادات والتقاليد التي كان شيخ القبيلة يحكم بين أفرادها . وفق هذه العادات والتقاليد التي كانت تستمد إما من تجاربهم أو معتقداتهم أو ممن جاورهم من الأمم من الفرس والروم أو ممن اختلطوا بهم كاليهود والمسيحيين .

نظام القضاء :

وكان للعرب في الجاهلية ثلاثة أنواع من القضاء :

١ — الحكومة : وكان بنو سهم أصحاب الحكومة في قريش قبل الإسلام . وكانت هذه الحكومة شيئاً يشبه القضاء ، إذ كان القرشيون وغيرهم ممن يقد على مكة من العرب ، يحتكمون إلى زعماء بني سهم فيما يقع بينهم من الخصومات . ومن تولى القضاء بين العرب في الجاهلية : هاشم بن عبد مناف وأبولهب بن عبد المطلب وأكثم بن صيفي .

٢ — الاحتكام : وهو احتكام العرب إلى الكُفَّان والعرفان . والسكاهن هو الرجل الذي يعتقد أن له تابعا من الجن يطلعه على كل شيء . والعرف هو الذي يعرف الأمور عن طريق الفراسة والقرائن ، وذلك بملاحظة نبرات صوت الشخص وملاحظه حركاته عند التكلم . كذلك يحكمون بالقرعة التي أقرتها الإسلام كما كانوا يعتمدون في إثبات الواقعة على شهادة الشهود .

٣ — النظر في المظالم : كذلك أدخل العرب في الجاهلية النظام الذي عُرف

في الإسلام باسم « المنظرفي المظالم ». ويظهر أنهم اتخذوه عن الفرس ، وذلك على أثر الخلاف الذي وقع بين العاص بن وائل ورجل من زبيدة ببلاد اليمن ، اشترى منه العاص سلعة وماطله في الدفع . فلما عيل صبر الرجل جاهر بظلامته حول الكعبة بين رجال قريش . فاجتمعت قريش بدار عبد الله بن جدعان ، وتحالفوا على أن ينصروا المظلوم من الظالم ، فسمى هذا الحلف « حلف الفضول » ، وقد شهدته النبي عليه الصلاة والسلام .

سلطان شيوخ العشائر :

كان تقسيم العرب إلى قبائل ، نتيجة من نتائج البداوة التي عمت أرجاء الجزيرة العربية ، حيث كانت بعض العادات تقوم مقام القانون ^(١) .

كان كل بطن من العرب يجتمع حول رئيس ، تستند سلطته أولاً على حق اليكرية ، وكان هذا الرئيس يحمل لقب « شيخ » أو « سيد » وفي بعض الأحيان كان يتلقب « بالأمير » ، وكان هو الذي يقود جماعته في الحرب وهو الذي ينزلهم منازلهم ، ويرحلهم عنها ، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره . ولم يكن لرئيس العشيرة ولا لشييوخها وهم رؤساء بيوتها أي سلطان أو قوة حقيقية ، بل كان سلطانهم معنويًا مستمدًا من شجاعتهم وهيبتهم الشخصية وما لهم من شرف النسب ونبل الأخلاق وسعة الثروة وحكمة الرأي وكال التجربة .

ولم يعتمد شيوخ العشيرة إلى فرض أوامرهم أو إنزال العقوبات برجالها ، إذ كان كل منهم ولي نفسه وسيدها ، وله الحق في أن يقتص من يناله بسوء ^(٢) وكانت سلطة شيخ القبيلة محدودة للغاية حتى أنه لم يكن في مأمن من النار أو في

Sedillot : Histoire Generale des Arabes, Vol. I. p. 20. (١)

Nicholson : Literary History of the Arabs, P. 83. (٢)

حتى من مبدأ القصاص الفطرى أو الدية^(١) . ومن العجيب أن نجد شيخ القبيلة لا يجد من القوة المادية ما يستطيع به إنفاذ حكمه إذا ما احتكم إليه^(٢) . وكان الشيخ لا يستطيع أن يجبر أحداً - حتى أبناءه - على قبول حكمه أو نصيحته ، بل كان يستعين بفتيان^(٣) الحلى ومشیخة العشيرة .

من ذلك يتبين لنا أن سلطان شيوخ العشائر فى القبائل العربية إنما كان سلطاناً معنوياً فقط ، لأن السلطة الحقيقية كانت لا تزال بيد العشيرة ، جملة وموزعة بين أفرادها . وبذلك يمكن القول أن مشیخة العشيرة كانت فى الواقع طرازاً من الحكم الديموقراطى بالمعنى القديم^(٤) ، حيث كان شيخ القبيلة ينصب لرأى باقى الشيوخ قبل الفصل فى الأمور الهامة^(٥) .

وكان الرئيس فى الجاهلية يفصل فى الأمور التى تمس حياتها : كالقتل ، والغزو والدية ، وطلب النار . كما يقضى فى مسائل الزواج ، والطلاق ، والنزاع على الماء والكلاء .

وكان لشيخ العشيرة عدة حقوق هامة أخرى ، مثل : المربع^(٦) ، والصفایا^(٧) ،

(١) Sédillot : Histoire Generale des Arabes, Vol. I. P. 21.

(٢) الأصفهانی : الأغاني ج ٣ ص ١٩ — ٢٠ . ج ٢ ص ٢٥ — ٢٦ .

(٣) يراد « بفتيان الحلى » أو « فتيان القبيلة » : شبانها الأبطال ، فيقولون فتيان قریش وفتيان تمیم

(٤) محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية ص ١٧٧ .

(٥) Sedillot : Op. Cit. P. 21.

(٦) المربع : ربع الغنیمة التى يستولى عليها الجيش .

(٧) الصفایا : جمع صفیة ، وهى الأشياء التى كان يصطفیها الرئيس لنفسه من خيار مايقم .

والنشيطة^(١) ، والفضول^(٢) ، والنقيعة^(٣) والحكم^(٤) . قال الشاعر :

ملك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول
واجبات رؤساء العشائر :

وفرضت على رؤساء العشائر في الجاهلية واجبات من أهمها : إيواء الغريب
وحماية الحمى ، والودود عن النساء ، وإجارة الحجير ، وكان بحسب الرجل منهم أن
يستجير بقبر أب الرجل أو قبر ابنه حتى يظفر من صاحبه بحق الجوار . قال
عمير بن سلمى :

قتلنا أختانا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجبر مقابره^(٥) .

وكانت العرب في الجاهلية « تمتدح بالذب عن الجار فيقولون : فلان منيع
الجار حامى الزمار ، حتى كان فيهم من يحمى الجراد إذا نزل في جواره »^(٦) .
وكان عميد العشيرة يضطر أحيانا إلى مجازاة أحد أفرادها لخصال لا تقره عليها
نظم العشيرة وآدابها ، فيخلعه عن ذمته ويقطع صلته به^(٧) . فكانت العشائر
إذا ما خملت رجلا من رجالها ، أشهدت على ذلك في الأسواق والجمعيات
العامة ، وبذلك لا تحمل عنه جريرة ولا تطالب له بقصاص ولا تحميه من عدوان ،
فكانت كمن يحكم عليه بالإعدام .

(١) النشيطة : مأصابه الجيش في طريقه قبل أن يصل إلى مقصده .

(٢) الفضول : ما فضل ، فلم ينقسم ، واصطفى النبي صلى الله عليه وسلم سيف منبه بن
الحجاج ذا الفقار يوم بدر .

(٣) النقيعة : كان للرئيس في الجاهلية ، النقيعة . وهى يعير ينجره قبل القسمة ، فيطعمه
الناس وقد سقط في الإسلام .

(٤) الحكم : هو أن يارز الفارس فارسا قبل التفاء الجيش فقتله ويأخذ سلبه ، فالحكم

فيه إلى الرئيس

(٥) للبرد : السكامل في اللغة والأدب ص ١١٠ — ٢١١ .

(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ١٥٩ (نشر أحمد أمين) .

(٧) على عبد الواحد واى : الأسرة والمجتمع ص ١١ .

كذلك كانت العشيرة إذا أجارت رجلا ، فعلت ذلك علانية ، وكانت أحيانا تعطيه براءة بذلك ، فكانت تدفع إليه سهما كتب عليه « فلان جار فلان » كما كان يفعل بنو غنم بن عوف بن الخزرج في المدينة^(١) وكما كان يفعل أيضا بنو حنيفة بالسواقط^(٢) .

وقد كان للرجل أن يرد الجوار إذا شاء . فقد ذكر ابن هشام أن عثمان ابن مظعون لما رأى ما فيه أصحاب رسول الله من البلاء وهو يفدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة ، عز عليه ذلك ، وقال للوليد يا أبا عبد شمس ! وقت ذمتك وقد رددت جوارك ، قال ، فانطلق إلى المسجد ، فرد على جوارى علانية كما أجرتك علانية^(٣) .

وإذا لم يجد الخليج^(٤) من يبحره من رؤساء العشائر أو عمداء الأمر ، راح يجمع حوله عصابة من شذاذ القفر الخارجين عن نطاق قبائلهم من أولئك « الصعاليك » و « اللصوص » و « الذؤبان » الذين خلعتهم قبائل « رسميا » ، فتبرأت من جرائمهم وتخلصت من تبعه أعمالم^(٥) ، حتى يتمكن الخليج من أن يغير على الأحياء الهادئة ويلقى الرعب في أنحاء الجزيرة بما يقوم به من أعمال العنف والبطش . وكانت واجبات رؤساء العشائر متعددة وعلى جانب عظيم من الأهمية ، فقد كان عليهم في وقت الحرب أن يضحوا بما تملكه أيديهم في خدمة القبيلة ، وإغاثة المعوزين من أفرادها ، والحفاظة على وحدة القبيلة التي كثيرا ما عرضتها المصالح الشخصية لأعظم الأخطار^(٦) .

(١) محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية ص ١٥١ .

(٢) السواقط : من ورد الإمامة من غير أهلها .

(٣) ابن هشام : السيرة ص ٢٤٣ .

(٤) يتصف الخليم بالجرأة والبطش .

(٥) Lammens : La Berceau de l'Islam, Vol. I, PP 193—194.

(٦) Breckelmann : History of the Islamic Peoples, P. 15.

٢ - الحالة الاقتصادية

التجارة في جزيرة العرب :

تقع جزيرة العرب في موقع متوسط بين أعظم الدول وأقدم الحضارات :
ففي شمالها الشرق تقع فارس ، وفي شمالها الغربى بلاد الروم ، وفي جنوبها الغربى
بلاد الحبشة . فلموقع بلاد العرب المتوسط بين هذه الأمم الفضل في اتساع
تجارتها ، كما كان من ناحية أخرى السبب في تطلع الفاتحين لغزوها والاستيلاء
عليها . وكانت بلاد العرب ضرورية للفاتحين الذين يرغبون في امتلاك شواطئ
الفرات ، وعلى ذلك طمع فيها قديما ملوك الفرس وبابل ونيوى ومصر .

وقد مارس سكان الجزيرة العربية التجارة ، يساعدهم على ذلك : موقع
بلادهم بين أمم اشتهرت بالتجارة منذ زمن بعيد ، وكثرة الطرق التجارية التى
تخترق جزيرتهم من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب^(١) . وكان العرب
واسطة بين سكان أوربا القدماء وأهل الشرق الأقصى . ولم تقتصر تجارة العرب
على منتجات بلادهم ، بل كانت تشمل السلع التى كانوا يجلبونها من إفريقية
والهند ، وكانت النفائس كالعاج والعطور والأفاوية والحجارة الكريمة والتبر
والأرقاء هى أهم ما يتاجر به العرب^(٢) .

وكانت حركة التجارة فى المحيط الهند بين سواحل الجزيرة الشرقية والهند

Sepillot : Histoire Générale des Arabes, Vol. I. P. 26 (١)

Gustave, Le Bon : La Civilisation des Arabes, P. 89. (٢)

منظمة منذ زمن بعيد ، وتحمل السفن التوابل والمنتجات الموسمية والحيوانات النادرة من الهند إلى ساحل عمان ^(١) .

واستعان العرب بالفينيقيين زمنا طويلا لبيع سلمهم ، فكان الفينيقيون يخزنون سلع العرب في مدنها الكبيرة كمدينة صور ، ثم يبعثون بها إلى الخارج لبيعها . وتنافس العرب والبابليون في الاتجار مع الهند . فكان البابليون يصلون إلى الهند بطريق البر أو بطريق البحر ، أما العرب فكان اتصالهم الوحيد بهذا القطر الغنى عن طريق البحر فقط . ولدينا من النصوص التاريخية ما يثبت أن العرب قد خرجوا بتجارهم عن نطاق الجزيرة العربية وتعاملوا مع غيرهم من الأمم جاء في كتاب الأوائل أن عمر بن الخطاب قال : خرجت في جماعة من قريش إلى العراق في تجارة ، فلما دنون من الأرياف خرج قوم فقطعوا علينا الطريق ^(٢) .

بذلك لم تقتصر تجارة العرب على جزيرتهم فقط وإنما تعدتها إلى غيرها من البلاد ، فإن منتجات الجزيرة متعددة ، وهي ضئيلة في الشمال ، ولكن في المناطق الخصبة منها ، الكثير من الأشجار والمزروعات كالشمس والتين والعنب والقمح والدخن والبقول واللبن والألبان ^(٣) . وكانت المواصلات التجارية في جزيرة العرب عديدة ، إلا أن أهمها طريقان . أحدهما يبدأ من حضرموت ويتجه إلى عمان حيث كانت تنقل بضائع اليمن والهند إلى العراق ثم يتجه الطريق غربا إلى البادية الواقعة في شمال جزيرة العرب وينتهي به المطاف في سوريا العليا ، وثانيهما يبدأ من حضرموت ويسير مخترقا الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال حتى ينتهي عند غزة المطل على البحر الأبيض .

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, b. 24.

(٢) المكري : الأوائل (مخطوط) من ١٨ — ١٩ .

(٣) Le Bon, Gustave : La Civilisation des Arabes, P. 6.

وكانت مكة مدينة تجارية من الطراز الأول ، وذلك على الرغم من وقوعها في واد غير ذي زرع ومن تعرضها للفتح السوم ، لأن مكانها من الحرم كان يجلب إليها عدداً من شذاذ الفقر الخارجين عن نطاق قبائلهم ومن بينهم الخلفاء والفتاك والصعاليك فينفقون أموالهم التي لم يبذلوا الجهد في تحصيلها في حوانيت مكة المكتظة بالبضائع . وأنشأ القرشيون قوة عسكرية من بدو تهامة للمحافظة على جمهوريتهم التجارية .

وشغلت دول العرب القديمة ، مثل تدمر ومعين وسبأ ، المراكز الممتازة في تجارة الشرق ، حتى ذكرتهم التوراه ووصفت ثروتهم وتجارتهن . وحمل أهل تدمر إلى مصر وجنوب أوربا منذ القدم صادرات بلاد العرب والعراق والهند ، وأطنبت المصادر التاريخية في موقع تدمر العظيم على البحر الأحمر واعتبرتها مركزاً تجارياً هاماً^(١) . وكانت مملكة معين من القوة والغنى ما يفوق مملكة سبأ التي اشتهر أسرها في التاريخ . أما سبأ فلم يكن غناها وتجارته محل شك ، وذكرت التوراة أن مملكة سبأ « قدمت إلى سليمان مائة وعشرين قنطاراً ذهباً وأطيباً كثيرة وحجار كريمة ، كما كانت قوافلها العديدة التي ذهبت إلى سليمان تحمل هدايا مملكة سبأ إلى عاهل أورشليم العظيم^(٢) . ولقد حل أهل حمير محل السبئيين واستولوا على مفاتيح التجارة في الجزيرة العربية ، واستخدموا عرب الحجاز في نقل تجارتهم إلى أن تخلص أهل الحجاز منهم وصاروا هم نقلة التجارة في الجزيرة قبل البعثة .

أما القوافل التي تحمل تجارة العرب ، فقد كان طريقها مقررأ : ففي هذه المراحل الفسيحة من الصحراء الرملية مما كان رجال القوافل يجتازون ، حبت الطبيعة المسافرين بضعة أما كن مبعثرة في جدد البادية يتخذها موئلاً لراحته ، وهناك في ظلال أشجار النخيل وإلى جانب المياه العذبة التي تجري من حولها ،

J . Hell : The Arab Civilisation, P. 4. (١)

J. Hell : Op. Cit. (٢)

يستطيع التاجر ودابة حملة أن ينهلا من طيها ما أحوجهما إليه الغنت الذي لقياه^(١). وكانت القوافل التي تذهب من بلاد العرب إلى الشام ، تنزل في أسواق معروفة ، عينتها لهم الحكومة الرومانية لتحصل منهم الضرائب المفروضة على الصادرات^(٢).

وقد مارس اليهود تجارة القوافل بنشاط ، حتى أصبحت يثرب تنافس مكة نراء ، فقد كانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز ، حتى صار لهمضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد ، كأبي رافع الخيبري الذي أرسل بضاعته بواسطة القوافل إلى الشام واستورد منها الأقمشة المختلفة^(٣).

وكانت مفتاح التجارة في أيدي اليمنيين ، وعلى أيديهم كانت تنقل غلات حضرموت وظفار ومنتجات الهند إلى شمال الجزيرة العربية ، حيث كانت تنقل إلى بلاد أوروبا الجنوبية . وظل اليمنيون قابضين على ناصية التجارة حتى القرن السادس الميلادي ، عندما قام الرومانيون بمنافستهم في البحر الأحمر ، وأدت هذه المنافسة التجارية إلى سقوط سبأ على ما يقول بعض المؤرخين . على أن أهل الحجاز قد قاموا بعد السبئيين بنقل تجارة الجزيرة إلى غيرها من الممالك^(٤) ، ونشأت في مكة نفسها سوق خاصة لبيع العبيد الذين كانوا يجلبون من الحبشة واليمن وآسيا الصغرى ، وظلت السوق قائمة في مكة إلى عهد قريب ، فقد شاهده إبن رتر ، أحد الرحالة الأوربيين الذين زاروا جزيرة العرب^(٥). وبذلك صار المسكيون — ومدينتهم مكة الواقعة على الخط التجاري الكبير الممتد من جنوب الجزيرة إلى شمالها — هم وحدهم المسيطرون على شئون التجارة .

(١) محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٣٣ .

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٦ .

(٣) ولفسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٨ .

(٤) Hell : The Arab Civilisation P, 11.

(٥) E. Rutter : Holy Cities of Arabia, P. 134 .

واستفادت قریش من اشتغالها بالتجارة فوائد معنوية وأدبية : فإن كثرة أسفار القرشيين إلى الشام والحبشة ومصر وغيرها ومخالطتهم لأقوام مختلفين مثل الفرس والروم من ذوى المدنیات القديمة ، قد ساعدتهم على معرفة أحوال هذه الأمم الاجتماعية والأدبية ،^(١) كما وقفوا على العلاقات بين فارس والروم وبين اليمن والحبشة ، وألما بالحساب التجارى ، وكل ما يتعلق بالمسكايل والمقاييس^(٢).

وما يدل على توسع العرب فى المسائل الاقتصادية ، كثرة الألفاظ الدالة على المال ، فإن منها بضعة وعشرين اسما لكل منها معنى من المعانى الاقتصادية التى ترجع إلى الاستثمار وغيره . فالتلاد المال الموروث ، والركاز المال المدفون ، والتالذ المال القديم^(٣) . ويقول صاحب أسواق العرب : « لنا أن نستأنس بشيء له خطره فى الدلالة على ما شغلت التجارة من حياة العرب وأفكارهم واهتمامهم ، وذلك هو اللغة والأشعار والأمثال ، فإنها تكشف لنا إلى حد بعيد عما كان عليه القوم من عادات وأحوال . وأول ما نلاحظ فى هذا الباب ، غنى اللغة بالألفاظ التى تتعلق بالأسفار وما عليها من حط وترحال ونزول على الماء ووصف لدواب السفر وضروب سيرها . ولستنا مباليين إذا قلنا أن أكثر القصائد فى الجاهلية والإسلام يفتتحها صاحبها بذكر رحلته وما لاقى فيها هو وراحلته من التعب والشقاء والضيق والعطش والجوع ، عدا ما هناك من ألفاظ كثيرة تتعلق بالبيع والشراء والصفقة والراحة والخسارة . ولما كانت الخلافة ، لم يجد العرب لفظا يدلون به على بذل الطاعة للخليفة غير المبايعه ، فاشتقوا لهذه الحال المستجدة كلمة من كلمات التجارة التى كانت الشغل الشاغل لهم »^(٤)

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ص ٧٨ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : نفس المصدر ص ٨٠ .

(٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٣١ .

(٤) سعيد الأفغانى : أسواق العرب ص ٢٧ — ٢٨ .

ومن ذلك نرى مدى اهتمام العرب في الجاهلية بالتجارة ، ومبلغ حبهم لجمع المال واستثماره بشتى الوسائل . يقول الله تعالى (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انقضوا إليها وتركوك قائما) .

معاملات العرب التجارية :

تعامل العرب في الجاهلية بالنقود الكسروية والرومية من الدراهم^(١) والدنانير^(٢) ، وبقي هذا حالهم إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب الدرهم وجعل وزنه من الفضة أربعة عشر قيراطا^(٣) ثم ضرب دراهم أخرى جعل وزن الواحد منها إثني عشر قيراطا وكان يعصرها على صورة الدراهم الكسروية ويزيد في بعضها عبارات إسلامية مثل عبارة التوحيد أو عبارة الحمدلة .

ووجد في الجاهلية دراهم مختلفة : طبرية ، وخوارزمية ، وبغلية . فالطبرية منسوبة إلى بلدة طبرية ، والبغلية منسوبة إلى ملك يقال له رأس البغل . وكانت زنة الدرهم الطبرى ثمانية دوانيق^(٤) وقيل أربعة ، وزنة الخوارزمية أربعة دوانيق ونصف ، وزنة البغلي أربعة دوانيق وقيل ثمانية . وكان الدرهم الطبرى والدرهم البغلي ، هو غالب ما يتعامل به من أنواع الدرهم في صدر الإسلام^(٥) .

(١) الدرهم : مأخوذ من Drachme اليوناني وكان معروفا في الجاهلية مقدرا للدوايق .
(٢) الدينار : لفظ لاتيني مأخوذ من كلمة Deni أى عشرة ، والأصل فيه الدلالة على قطعة من الفضة تساوى عشرة أكسات ، والآس درهم من دراهم الروم . جرجى زبدان : تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ٩٧ .

(٣) القيراط : تعريب اللفظ اليوناني Keration (أنستاس الكرملى : النقود العربية ص ٢٨ حاشية ١) وهو نصف الدائق . إيليا الطران : مقاله في السكاكيل والأوزان ص ٣ مخطط بدار الكتب المصرية رقم ٣٤١ رياضيات بالمكتبة التيمورية) .

(٤) الدائق ، من الفارسية : دانه ، أى حبة . ويقول ابن الرقعة . أن الدقيق من حبات الشعير للتوصوف ثمان حبات وخمسة حبه (الإيضاح والتبيان في معرفة السكاكيل والميزان ص ٨) .

(٥) ابن الرقعة . الإيضاح والتبيان في معرفة السكاكيل والميزان ص ٨ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣١٢ رياضيات بالمكتبة التيمورية) .

وكان العرب في الجاهلية يتعاملون بالثاقيل^(١) ، ويتبايعون بأوزان كان أول ما عمل منها هو صنّج الثاقيل^(٢) ، فجعل الثقال ستين حبة ووزن كل حبة منها مائة حبة من حبوب الخردل البري المعتدل^(٣) الذي يعد ضبط الأوزان به أحسن من ضبطها بحب الشعير لقلة التفاوت فيه^(٤) . أما أوزان الدراهم فإنها رتبّت على أن كل سبعة مثاقيل عشرة دراهم ، وكل درهم ستون حبة ، وبذلك أصبحت كل حبة من حبوب الخردل^(٥) . وأما المسكيات ، فقد كان المألوف منه في عصر النبي عليه السلام : المد والصاع والعرق والفرق . والمد زنته رطل وثلاث بالبغدادى^(٦) ، والصاع أربعة أمداد فيكون خمسة أرطال وثلاث بالبغدادى ، والعرق ستون مداً — خمسة عشر صاعاً ، والفرق ستة عشر رطلاً ببغداديا . وأما الأردب فلم يعرفه العرب في جاهليتهم وإنما هو من مكاييل مصر ، يستدل على ذلك بما أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال الرسول : منعت العراق درهما وقفيزها ، ومنعت مصر أردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأتم^(٧) .

وألف العرب في جاهليتهم أنظمة متعددة من نظم البيع والشراء ، وظلت بعض هذه الأنظمة إلى قبيل الإسلام . ولما جاء الرسول عليه السلام نهى عن

(١) الثقال : هو درهم ودانق ونصف وهو أربعة وعشرون قباطاً وهو خمس وثلاثون حبة . الثيزى : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٦ . وهو أقدم وحدة للوزن عند العرب ، ويقال له Solidius عند الرومان . ولم يختلف الثقال في جاهلية أو إسلام .

(٢) المقرزى : شذور العقود في ذكر النقود ص ٣ .

(٣) إيليا المطران : مقالة في المسكيات والأوزان ص ٢ .

(٤) ابن الرقعة : الإيضاح والتبيان ص ٧ — ٨ .

(٥) إيليا المطران : نفس المصدر ص ٣ .

(٦) اختلفت النقلة في الرطل البغدادى : فقيل إنه مائة وثمانية وعشرون درهما ، وقيل مائة وثمانية وعشرون درهما وأربعة أسباع درهم ، وقيل مائة وثلاثون درهما .

(٧) ابن الرقعة : الإيضاح والتبيان في معرفة المسكيات والميزان ص ٩ — ١٤ .

بعضها لأنه رأى فيها غبنا للبائع أو المبتاع ، ولم تكن هذه النظم تتخذ في جميع الأسواق بل منها ما تمتاز به سوق دون سوق وجماعة دون جماعة .

الأسواق .

لم يتفق مؤرخو العرب على عدد الأسواق وتحديد أزميتها . وقد كان لما حدث في هذه الأسواق من وقائع وأحداث ، أثر ملحوظ في التاريخ العام للجزيرة العربية ، واهتم هؤلاء المؤرخون بالأسواق العامة ولم يأبهوا بالأسواق الضئيلة التي كانت تقام في القرى ، بل إن عدم الإفاضة في بحث أمر الأسواق العامة الكبرى ، فلم يذكروا عنها إلا شذرات مبعثرة .

وقد قسم صاحب « كتاب الأسواق » هذه الأسواق التي كانت تقام في الجاهلية إلى ثلاثة أقسام : أسواق خاضعة لفنود أجنبي تدار بنظم خاصة وتتضال فيها الصبغة العربية ، وأسواق أنشأها العرب أنفسهم بحكم الحاجة ، فصارت مع الزمن تمثلهم أصدق تمثيل في عاداتهم في البيع والشراء والدين والزواج والحقوق ، وأسواق ذات صبغة مختلفة لموقعها الجغرافي وهي الواقعة على البحر^(١) .

أما أسواق القسم الأول فتمثلها سوق هجر والبحرين وعمان . وتمثل أسواق القسم الثاني سوق عكاظ الذي يعتبر مرآة العرب في الجاهلية حيث لا أثر فيه للفنود الأجنبي الذي سيطر على غيره من الأسواق ، وتقع عكاظ في الجنوب الشرق من مكة على بعد عشرة أميال من الطائف وتمثل أسواق القسم الثالث : عدن وصحار ودبي . ومن أشهر الأسواق العربية الأخرى : سوق دومة الجندل^(٢) ، وسوق المشقر^(٣) ، وسوق حياشة^(٤) .

(١) سويد الأفغاني : أسواق العرب ص ١٨١ — ١٨٢ .

(٢) تقع دومة الجندول في موقع متوسط بين الشام والخليج الفارسي والمدينة على منتصف الطريق الواصل بين العقبة والبصرة تقريبا .

(٣) المشقر : حصن البحرين لعبد القيس ، وهو قريب من هجر .

(٤) حياشة : سوق كانت للعرب في تهامة .

٣ - الحياة الاجتماعية

أفراد القبيلة :

وكان أفراد القبيلة يعملون كجماعة واحدة يرحلون سويا ويقاتلون سويا ، وإذا ارتكب أحدهم جناية حملتها قبيلته ، وإذا غنم غنيمة فهي للقبيلة ينصرون أخاهم ظلما أو مظلوما وهم يد على من سواهم .

لا يسألون أخاهم حين يناديهم في النائبات على ما قال برهانا^(١) . وكان البدو يحتقرون الزراعة والتجارة والصناعة والملاحة ، ولذا اكتفوا بما تنتجه ماشيتهم : يأكلون لحومها ، ويشربون ألبانها ، ويلبسون أصوافها ، وإذا اشتد بهم الضيق أكلوا الضب والعقارب والحيات .

ولم يكن البدوى يؤمن إلا بتقليد قبيلته التي كان يعترف بها ويفخر ، وتعد وطنيته بذلك وطنية قبلية لا وطنية شعبية . وهذا الشعور بارتباطه بقبيلة يحميها وتحميها ، هو المسمى بالمصيبة ، وفي ذلك يقول المستشرق بروكلمان : « البدوى كائن فردي النزعة مفرط الأنانية ، ومع ذلك فالجميع متساوون ضمن إطار القبيلة في الحقوق والواجبات التي تنبثق عن المصيبة القبلية »^(٢) .

محنة المرأة في الجاهلية :

قد يكون في ندرة الأخبار عن المرأة في العصور السابقة للإسلام ، بعض الدلالة على ما خسرت المرأة العربية من مزية الظهور في ميدان الحياة العامة .

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١١ .

(٢) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, P. 4.

وقد يكون تغير الأحوال الاجتماعية الناشئ عن الاتصال بالأُمم والممالك المجاورة سبباً في حرمان المرأة العربية النفوذ والمزايا التي تتمتع بها أختها في العصر القديم . ولا يبنى ذلك أنها أصبحت في تلك الحقبة عديمة النفوذ ، فقد كانت تمثل دور الزوجة الصالحة والأُم الطيبة ، وظهرت أشد مانكون قوة وأكثر ما تكون حرية .

وكان احترام الرجال للنساء وبطولتهم من أجلهن قوياً . وقد انعكست صورة من الأغاني والقصص والتاريخ . ولم يقتصر ظهورها في الشعر عند الشعراء الغزليين ، على أنها موضوع للغزل ، يتفننون بها في شعر عاطفي رقيق ، بل تعدى ذلك إلى جعلها حكماً بين الشعراء . فقد روى الأصفهاني أن أمراً القيس بعد أن قتل أبوه نزل على بنى طيء وتزوج واحدة من نسائهم تعرف باسم « أم جندب » . وكان أمروء القيس معاصراً للشاعر المشهور علقمة بن عبدة ، فننازعا إمارة الشعر ، ولم يعترف أحدهما بصاحبه . واقترح علقمة أن تكون أم جندب حكماً بينهما ، ورضى أمروء القيس بذلك ، فدعتهما أم جندب لينظم كل منهما قصيدة من وزن واحد وقافية واحدة ، يصفان بها الجياد . ولما فرغا من عمل القصيدتين ، حكمت أم جندب لعلقمة على زوجها امرئ القيس ، فغضب وطلقها فتزوجت علقمة^(١) .

كان حرص المرأة العربية على شرفها واعتدادها بكرامتها في الجاهلية ، من الأمور التي استفاضت بها المصادر التي عنتت بمحوادث ذلك العصر . ذكر صاحب الأغاني أن فاطمة بنت الخرشب كانت إحدى ثلاث عرفن « بالمفجبات » وكان لها سبعة أبناء . ثلاثة يسمون « السكلة » وهم ربيع وعماره وأنس . وفي ذات يوم ، أغار جمل بن الفزارى على قبيلة بنى عبس التي تنتمي إليها فاطمة ، وأسرها . فلما ابتعد بها عن الحى وأهله ، صاحت به . أى رجل ضل حلك ، والله اثن أخذتنى فصارت هذه الأكمة التي أمانا بى وبك ، لا يكون بينك

(١) الأصفهاني : الأغاني ج ٧ ص ١٢٦ — ١٢٨ .

وبين بنى زياد صلح أبداً ، لأن الناس يقولون في هذه الحال ما شاءوا ، وحسبك من شر سماعه . قال : إني ذاهب بك حتى ترعى إبلتي . ولما أيقنت أنه ذاهب بها ، رمت بنفسها من البعير على رأسها ، فماتت خوفاً أن يخلق بينها عار منها^(١) .

وقد ظهرت في الجاهلية طبقة من النساء ، كان لهن شأن عظيم ، من بينهن الكاهنة والعرافة وربة البيت والمتنبئات^(٢) ، وفي مكة نفسها ، كان مفتاح السكبة بيد امرأة هي بنت خليل الخزاعي استودعته مدة طويلة حتى تنازلت عن ملكيته لقعى^(٣) . وفي زمن الفتح كان المفتاح في حوزة أم عثمان بن طلحة ، ولقد مانعت كثيراً في إعطائه للأنبياء صلى الله عليه وسلم^(٤) .

ولم يكن النساء يتأخرن عن مرافقة الرجال إلى الحرب . هذا الفند الزماني البطل المشهور يدخل حرب بكر وتغلب وإلى جانبيه ابنه « شيطانان » من شياطين الإنس . . . حتى إذا احتدمت المعركة تقدمت إحداها فخلعت ثيابها ووردها وسط المعركة^(٥) ، فتقتدى بها أختها وتقدم بين الصفوف ، لتثبت في رجال قبيلتها الشجاعة والإقدام ، وفي هذه الحرب ، قام عوف بن مالك البكرين ، ورفع ابنه على جمل وسيره ، ثم ضرب عرقوبي الجمل ونادى . لا يمر بي رجل من بكر بن وائل فر من القتال ، إلا ضربته بسيفي هذا^(٦) .

وقد يتبادر إلى الذهن أن النساء في العصر الجاهلي لم يكن يحفلن بملاهن ، لحالة البداوة التي كن يعشن فيها وللكثرة الحروب الطاحنة التي كانت تنشب بين

(١) الأصفهاني : الأغاني ج ١٦ ص ٢٢ .

(٢) ابن هشام : سيرة الرسول ص ١٣٢ و ٧٩٧ .

Perron : Femmes Arabes, avant et depuis L'Islamisme, P. 166 .

(٣) الأزرقي : أخبار مكة وما جاء فيها من الأثر ص ٦٢ .

(٤) صحيح مسلم ج ١ ص ٥٠٩ وج ٣ ص ٥٨٧ .

Perron : Femmes Arabes, P. 50. (٥)

(٦) الأصفهاني : نفس المصدر ج ٣٠ ص ١٣٦ — ١٣٧ .

كل قبيلة وأخرى وتستمر أعواما طويلة ، مما يؤدي بطبيعة الحال إلى إهمال شأن المرأة . ولكن المرأة العربية في هذا العصر ارتدت ضروبا من الثياب مختلفة أشكالها وفنونها ، مما أخرجته مناسج اليمن والعراق والشام وما اجتلبته من بلاد فارس وسواحل الهند . والآثار الشعرية واللغوية مفعمة بذكر ما كان النساء يتخذنه من الملابس التي تزيد في حسنهن .

ولم يقتصر لبس المرأة في الجاهلية على الملابس القطنية والصوفية ، بل لقد اتشحت بالحرير والديباج والدمقس والسندس والاستبرق والخز . قال
الشكري .

الكعب الحسفاء ترفل في الهمس وفي الحرير
ومن أزيائها مارق نسجه ودق خيطه وكانت تسميه المهمل ، أما ما كشف
حوكه فكانت تدعوه « الصفيق » و « الحصيف »^(١) . وما حيك نسجه بخيوط
من الذهب كانت تسميه « المذهب » . وفيه يقول سلمى بن ربيعة :

والبيض يرفلن كالدمى في الریط والمذهب والمصون

وقد أولعت النساء بالحلل الشفافة والثياب المطرزة بالذهب والمزينة بأنواع
النقوش . أما ما تضعه المرأة على جسدها : فالدرع وهو قميص المرأة الكبير
والجول قميص المرأة الصغيرة وهما قميصان لا أكمام لهما^(٢) . وكان للمرأة العربية
ثوب تسميه النطاق تشده إلى وسطها وترخي نصفه الأعلى على نصفه الأسفل ،
ومر فوقه البت يحيط بجسمها ويستتر جزءاً من وجهها ورأسها ، ويغلب
على هذا الثوب أن يكون أخضر اللون رقيقاً . أما أبهج وأعلى ما لبسته النساء
في هذا العصر فهو الحبرة وهي برد موشى من برود اليمن ، وقد أكثر الشعراء

(١) عبدالله عفيق : المرأة العربية في جاهليتها ج ١ ص ٢٢٥ — ١٣٢ .

(٢) Dosy : Dictionnaire des Noms des Vetements, P. 133.

من الكلام عن المرط^(١) ، ووصفوا لنا النساء وهن يمشين فيها ، فمن ذلك قول
امريء القيس في معلقته :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا على إثرنا ذيل مرط مرحل
وقد فطنت المرأة الجاهلية إلى ما تسميه أختها المتحضرة « المريلة » تصون
بها غالى ثيابها عند مزاوله عملها وكانت تسميها « المبدع » .

أقدمـة قدام نفسى وأتقى به الموت إن الصوف للخز مبدع
على أن هناك ثوبا خاصا يسمى « الإزار » وهى ملادة واسعة تغطى بها
المرأة . وقد فسر علماء اللغة كلمة « الإزار » بأنه « كل ما يستر »^(١) . ومن
الإزياء التى انتشرت عند نساء الجاهلية زى « جر الدليل » وهو إرسال ذبول
الأزياء النفيسة فى الأعياد والمآدب ، وأول من اخترع هذا الزى هى هاجر
امرأة ابراهيم عليه السلام^(٢) . ومما يدل على شيوعه ، وصف عنترة العبسى
« عبلة » وقد خرجت تجر وراءها ثوبها الحريرى .

وتظل عبلة فى الخزور تجرها وأظل فى حلق الحديد المبهـم
وقد تشبه الرجال بالنساء فى الزى وكانوا يفتخرون بإرسال ذبول أزرم
ويرون أنه من علامات السيادة والقوة . ولما بعث النبى ، حارب هذه البدعة
فى الرجال وقال « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » ، فقال
له أبو بكر « يا رسول الله إن أحدى شقى إزارى ليسترخى ، إلا أن أتماهد ذلك
منه » ، فقال له النبى « لست ممن يضعه خيلاء »^(٣) .

(١) المرط : ملادة ذات شقتين مصنوعة من الحرير .

(٢) ابن منظور : لسان العرب ج ٥ ص ٧٥ .

(٣) ابن الجوزى : الأذكياء ص ١٠ .

(٤) أبو عبيد الله البكرى : سمط اللالى ج ١ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

أما حرص النساء على التحلى ، فقد بدا فى آنذاكهن الجواهر النفيسة ، حتى كن جميعاً حاليات إلا من نكبتها الدهر فى عزيز لديها . فقد تحلين : « بالإكليل » وهو عصابة مرصعة بالجواهر تحيط به جبينها ، والقرط وهو ما علق فى أسفل الأذن ، والشنف وهو ما علق فى أعلاها ، وأنخذن للمعصم سواراً وللساعد جبرة ، وللمعصم دملجاً ، ولبسن الخاتم وهو ما له فص ، والفتح وهو ما لا فص له وذلك فى أصابع أيديهن وأرجلهن^(١) .

واشتركت المرأة فى المسائل السياسية فى ذلك العصر ، فقد عارضت هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان ، النبی والدين الجديد ، واشتركت فى غزوة أحد التى بين قريش والمسلمين ، وعمدت خلالها إلى إيذاء المدافعين عن الإسلام لأنها وزوجها أبى سفيان وابنها يزيد وأخاه معاوية لم يسلموا إلا يوم فتح مكة ، وفى هذه الواقعة مثل نساء قريش بقتلى المسلمين ، وفاقتن هند زوجة أبى سفيان ، إذ أنها جمرت بطن حمزة بن عبد المطلب عم الرسول عليه السلام بعد أن قتل وأخذت قطعة من كبده فلا كتبها فلما لم تسفها لفظتها ، وكان ذلك تشفيماً وانتقاماً من المسلمين^(٢) . على أن الباحثة نايبة أبوت تقول إنه من الصعب أن يصدق الإنسان أن هند بنت عتبة — وهى السيدة الشريفة بمكة — قد ذهبت فى الانتقام المروى عنها. مذهب البرابرة الغلاظ الأكباد ، وذهب ميور إلى أن مؤرخى السيرة قد بالغوا فى تصوير هند بهذه الصورة ، أما الأب لامنس فذكر أن حادثة تمثيلها بحمزة لم تسكن إلا من مختبرات العباسيين ويعزز ذلك ما ذكره ابن سعد صاحب الطبقات من أن تلك حملات قاسية على هند المسكينة^(٣) .

وهكذا ظفرت المرأة العربية فى الجاهلية بمكانة سامية جذيرة بها فى المجتمع

(١) الدكتور على إبراهيم حسن : نساء لمن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ١٢٥ .

(٢) على إبراهيم حسن . نفس المصدر ص ٥٦ .

(٣) نايبة أبوت : المرأة والدولة فى فجر الإسلام ص ٢٢ .

القبلي حتى أن يتكلمون ذهب إلى أن الإسلام لم يرفع منزلة المرأة وإنما مستواها الأدبي في الحضارة إلى حد عظيم^(١).

زواج الجاهلية:

الزواج رباط اجتماعي وعقد بين طرفين يترتب عليه حقوق وواجبات تختلف باختلاف الشعوب. وعرف عند العرب في الجاهلية: زواج المشاركة وزواج الأسر، وزواج المبادلة أو الشغار، والزواج بالميراث، وزواج المتعة، كما عرف نظام تعدد الزوجات.

ويقوم زواج المشاركة: حين يشترك عدة إخوة في الزواج بامرأة واحدة، أو حين تقترن المرأة بعدد عديد من الرجال لا تجمعهم صلة القرابة. ويُعرف النوع الأول باسم زواج المشاركة الأخوي، والنوع الثاني باسم زواج المشاركة غير الأخوي^(٢). وقد أخذت بعض قبائل العرب في الجاهلية بزواج المشاركة حتى ظهور الإسلام، ولكن لم يكن يصح أن يزيد عدد الرجال عن عشرة^(٣)، وربما كان هذا النوع من الزواج مقصوراً على بعض القبائل ممن كانوا يمارسون وأد البنات في جزيرة العرب أو ممن كانت لهم ظروف اقتصادية خاصة، وهذه العادة قد تكون دخيلة على العرب إما من إفريقية أو عن طريق الفرس زمن حكمهم بلاد العرب^(٤).

ووجد نوع آخر من الزواج عند عرب الجاهلية هو زواج الأسر، وكان أسر النساء من العادات الشائعة إذ ذاك، وكان الرجل العربي يخشى أن تتعرض

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, P. 90.

(٢) Smith, R : Kinship and Marriage in Arabia, P. 158.

(٣) على عبد الواحد وافي : الأسرة والمجتمع ص ٧٩.

(٤) محمد محمود جمه : النظام الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب ص ٢٧.

نساء للسي ، وقد أطلق على المرأة المأخوذة باسم « النزيلة » أى التى انتزعت من أهلها كرها ، وتعتبر ملكا خاصا لسيدها إن شاء تزوجها أو زوجها أو باعها بيع العبيد ، وقد ترجع عادة زواج الأمر إلى كراهية الزواج من الأهل وذوى القرى مخافة أن ينتج ذلك نسلا ضعيف الجسم والعقل . يقول الشاعر :

تجاوزت بنت العم وهى حبيبة مخافة أن يضوى على سليلي
وكان الزواج بالأمر مرغوبا لأنه زواج لامهر له ولأن العرب كانوا يعتقدون
أن أبناء السبايا من خيرة الفتيان ، وظل معمولوا به إلى ظهور الإسلام ، ولم يكن
معناه إذلال المرأة كما قد يقبدر إلى ذهن :

ما زادها فينا السباء مذلة ولا كلفت خبرا ولا طبخت قدرا
ولكننا خلطناها بخير نساءنا فجاءت بهم بيضاء وجوههم زهرا
أما زواج المبادلة فكان قائما على أساس أن يزوج الرجل ابنته أو أخته
على أن يزوجه هو الآخر ابنته أو أخته وكان يحدث عادة إذا تعذر على الرجل أن
يتزوج بأسرة من قبيلته أو قبيلة خارجية لأسباب اقتصادية كارتفاع مهرها
أم نحو ذلك ، ولا يتم هذا النوع من الزواج عادة إلا بين الأمر المتساوية
في الحسب والنسب^(١) ويعرف ذلك الزواج أيضا باسم « زواج الشعار » ،
بدليل ما كان يقوله الرجل للرجل فى الجاهلية : شاغرى ، يقصد زوجنى أختك
أو ابنتك أو من تلى أمرها حتى أزوجك أختى أو من ألى أمرها ولا يكون
بيننا مهر .

وكانت الفتاة عند عرب الجاهلية تعطى لمن يقدر ثمنًا عاليًا ، وعدوا من
الشرف ألا تعطى المرأة إلا للكفاء ، حتى قال قيس بن زهير : إن لم تجدوا

(١) على عبد الواحد وافي : الأسرة والمجتمع ص ٣٥ .

الأكفاء لبفاتسكم ، فخير أزواجهن القبور^(١) . وكان المهر هو ثمن الشراء ، ولذلك عرف هذا الزواج باسم « الزواج بالشراء » . ويدل هذا النوع على السيادة المطلقة إذ فيه تفقد المرأة حقها في الطلاق وتهجر قبيلتها وتتبع زوجها إلى داره وقبيلته ، ولذا اقترح بعض المؤرخين أن يطلق عليه اسم « زواج السيادة »^(٢) . على أن هذا الزواج القائم على المهر أو الشراء ظل شائعا في الجاهلية إلى قبيل ظهور الإسلام ، فأبدل بالصداق وهو الهبة التي تعطى للمرأة نفسها ، بخلاف المهر فكان هو المال الذي يعطى لوالد المرأة أو أهلها عوضا لهم عن ذهابهم إلى عشيرة زوجها .

أما « الزواج بالميراث » فكان يحدث حيث كان الرجل يرث أرملة أخيه بعد موته أو يرثها أقرب الرجال إلى زوجها^(٣) . وقد نجمت عادة الزواج بالميراث لتصور الزواج كعقد بين الجماعات لا بين الأفراد ، وبذلك فإن العقد متى انفصمت عروته بموت الزوج وجب على أهل المتوفى البحث لأرملته عن زوج غيره من عشيرة زوجها السابق . وكان العامل الأساسي في هذا النوع من الزواج هو الاحتفاظ بالثروة داخل الأسرة والعشيرة ولضمان استقرار الأسرة والحفاظة على أموال الأسلاف في داخلها^(٤) .

وعرف في الجاهلية « زواج المتعة » وهو أن يتزوج الرجل المرأة إلى أجل مسمى ، على ألا ميراث بينهما ويعطيها ما اتفقا عليه ، فإذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل . وقد فسخ الإسلام هذا النوع من الزواج^(٥) . ونشأ في الجاهلية ، نظام « تعدد الزوجات » وساعد على زيادة النسل وحل مشكلة العقم الذي قد ينشأ في حالة الزواج الفردي ، وقد يرجع وجود

(١) محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية ص ٤٤ .

(٢) Smith : Kinship and Marriage in Early Arabia, P. 75.

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ج ٥ ص ٩٤ .

(٤) محمد محمود جمعة : نفس المصدر ص ٦٠ - ٦٢ .

(٥) القرطبي : نفس المصدر والجزء ص ١٣٢ .

هذا النظام إلى كثرة الحروب التي استمر لظاها بين القبائل العربية إذ ذاك ،
وذهبت بالعدد الكبير من الرجال مما أخل بالتوازن بين عدد الذكور والإناث
في القبيلة الواحدة وجعل الكثرة العددية في جانب الإناث . وعلى الرغم من
أن وجود هذا النظام لم يكن دليلاً على انحطاط المرأة فكثيراً ما كانت الزوجة
في ذلك العصر تشتط على زوجها أن لا يقترب منها . ولما جاء الإسلام تقبل
هذه الحياة الزوجية ولكنه جعلها متكافئة مع مبادئه ووضع لها بعض القيود
التي تجعلها صيغة للغاية ^(١) .

وأد البنات في الجاهلية :

عادة وأد البنات عند العرب في الجاهلية ، من أشد وأشنع عاداتهم الاجتماعية
المستهجنة . وهي أن يعمد الرجل إلى وليدته وقد بدأت تستقبل الوجود ، فيقذفها
في حفرة من الأرض ويهيل التراب على جسمها ثم يدفنها في غمرة الموت بين
طيات الأرض .

ولم تسكن عادة وأد البنات متبعة عند جميع العرب في الجاهلية بل كانت
مقصورة على بعض قبائل من ربيعة وكندة وطىء وتميم . وكان الزوج يحفر
بجوار الموضع الذي اختير لولادة الأم حفرة عميقة ، فإذا ظهر أن المولود أنثى ،
قذف بها خفية بعد ولادتها وهيل عليها التراب . وكان بعضهم يلجأ إلى وأد بناته
في أمكنة خاصة بعيدة عن المنازل ، وأشهر مكان كان يجري فيه الوأد هو جبل
أبي دلامة . ولقد تنبه الإصلاح إلى بشاعة هذا العمل ، فنهض كثير من ساداتهم
إلى محاربته والتخفيف من آثاره ، بما بذلوا من مال جم وسعى حميد ، وكان
من هؤلاء صعصعة جد الفرزدق ، فقد كان يشتري البنات ويفديهن من
القتل ^(٢) وكذلك زيد بن ممر بن نفيل ^(٣) .

(١) محمد محمود جمه . النظم السياسية والاجتماعية ص ٧٤ .

(٢) الألبشهي : المستطرف في كل فن مستظرف ج ٢ ص ٩٦ .

(٣) عبد الله عفيفي : المرأة العربية في جاهليتها ص ٥٠ .

واختلف الباحثون في العوامل التي حملت هذه العشائر على اتباع هذا النظام وانقسموا إلى فريقين : فريق يملأه بالفقر ، وآخر يتلصق بأسبابه فيما جعل عليه العربي من شدة حرصه على صيانة عرضه . فقد قيل إن عادة وأد البنات أحياء في الجاهلية ، ترجع إلى المجاعات الكثيرة التي كثيراً ما تعصيب بلاد العرب نظراً لقلة سقوط الأمطار وإلى محافظة موهومة على الشرف ، إذ كانوا يخشون أن يجابن لهم العار إذا سبين في حرب^(١) . كما أن حياة الشظف التي كانت تمنحها الدهاء من العرب بسبب جذب أرضهم وضالة دخلهم ، هي السبب الذي اضطرت من أجله هذه القبائل إلى وأد البنات .

على أنه من الثابت أن نظام الوأد لم يكن معمولاً به في الطبقات الفقيرة وحدها ، بل كان عاماً عند الفقراء والأغنياء في العشائر التي أخذت به . وحدث التاريخ عن بعض من وأدوا بناتهم في العصر الجاهلي ، وذكر من بينهم عدداً من عليقة القوم ومنهم عمر بن الخطاب نفسه . هذا إلى أن قصر الوأد في العشائر السالفة الذكر على البنات دون البنين ، دليلاً على أن الدافع إليه شيء آخر غير الفقر . إذ لو كان الفقر هو الدافع إليه للاحق جميع الأولاد بدون تمييز بين الذكور والإناث . ولم يرد مطلقاً ذكر للفقر في أي آية من الآيات الكريمة التي نزلت في وأد البنات . أما الآيات التي ورد فيها قتل الأولاد مقرونة بخشية الإملاق والتي يزعم أصحاب هذا المذهب أنها تؤيد وجهة نظرهم ، فهي لا تتحدث عن النظام الذي نحن بصددده ، بل تتحدث عن نظام آخر كان متبعاً عند بعض عشائر العرب ، وهو قتل الأولاد على الإطلاق بدون تمييز بين ذكورهم وإناثهم تحت تأثير الفقر وعدم القدرة على تربيتهم^(٢) .

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, P. 09.

(٢) على عبد الواحد وافي : وأد البنات عند العرب في الجاهلية — عوامله الصحيحة وموقف الإسلام منه . بحث مستخرج من مجلة الرسالة ، المعداد ٤٠٠ ، ٣ مارس ١٩٤١ .

وقيل إن نظام الواد يرجع إلى المحافظة على الشرف بصيانة الأعراض واتقاء ما يحتمل أن يصيب الفتاة من مكروه . ويروى أنصار هذا المذهب قصة يدعون أن حوادثها كانت السبب الأول في توجيه العشائر العربية هذا الاتجاه . فهم يرون أن عظماء العرب يدعى قيس بن عاصم قد سبيت ابنته في غارة شقتها عشيرة معادية على عشيرته ، ثم عقد بين العشيرتين صلح كان من شروطه أن ترد السبايا في مقابل فدية مالية . غير أن ابنة قيس آثرت البقاء عند من وقعت في يده ، ولم تقبل الرجوع إلى أبيها وعشيرتها . فألقى أبوها على نفسه ليثدن كل بنت تولد له ، وسارت عشيرته على سنته ، واقتدى بها بعض العشائر الأخرى . على أن هذه القصة تبدو عليها علامات الاختلاق وأمازات الأساطير : فإن قيساً هذا قد شهد الإسلام ومات حوالى السنة الماشرة بعد الهجرة ، فلا يعقل أن يكون هو الذى قد سن نظام الواد عقب حادث وقع لبنت كبيرة له . فإنه يترتب على ذلك أن نظام الواد لم يظهر إلا قبيل الإسلام ببضع سنين مع أنه سابق لبعثة الرسول بمئذ طويل وكان على وشك الانقراض قبيل الإسلام ، كذلك لم ترد إشارة ما للسبب من هذا القبيل فى أى آية من الآيات الخاصة بالواد ، ولو كان هذا السبب هو الباعث الحقيقى عليه لعنى القرآن بإظهاره وتبليغه^(١) .

أنواع التسلية عند العرب :

شغل العرب فى الجاهلية أوقات فراغهم ببعض ضروب التسلية : كالصيد وسباق الخيل . ولعب الكرة والأل والجماح ، والمدحاة والأرجوحة ، والخذروف ووضاح ، وولعوا بلعب الميسر وكان لهم فيه باع طويل . وهذه الألعاب عرفها العرب فى جاهليتهم . وظل بعضهم يمارسها فى جزيرة العرب حتى بعد ظهور الإسلام^(٢) .

(١) على عبد الواحد واق : وأد البنات عند العرب فى الجاهلية مجلة الرسالة العدد ٤٠ ؛

١ - الصيد وسباق الخيل .

كلف العرب بالصيد ، وأضحى من أنواع تسليتهم المفضلة ، فقد كانت الطبيعة البشرية مهينة له تماماً . ولا مرء أن الصيد كان يرمى قبل كل شيء إلى : تعويد العرب القروسية ، وإدمانهم للرمى بالنشاب ، والضرب بالسيف والدبوس ، واعتياد القتل والسلطنة ، وتقابل المبالاة بإراقة الدماء وغضب النفوس^(١) .

أما السباق ، فقد كان من الأمور التي ألفها العرب في جاهليتهم ، وكانت إحدى حليباته داعياً لحرب ضروس بين عبس وذبيان ، هي حرب داحس والغبراء ويقول ابن عبد ربه : « إن العرب كانت تراهن في السباق على شيء معلوم » فكان الرجل يراهن صاحبه في المسابقة ، هذا رهناً وهذا رهناً . فأيهما سبق فرسه أخذ رهنه ورهن صاحبه » ثم يقول « وهذا القمار المنهى عنه ، فإن كان الرهن من أحدهما بشيء مسمى على أنه إن سبق لم يكن له شيء ، وإن سبقه صاحبه أخذ الرهن فهذا حلال لأن الرهن إنما هو من أحدهما دون الآخر ، وكذلك إن جعل كل واحد منهما رهناً وأدخل بينهما محملاً وهو فرس ثالث يكون مع الأولين ، ويسمى أيضاً الدخيل ولا يجعل لصاحب الثالث شيء ، ثم يرسلون الأفراس الثلاثة فإن سبق أحد الأولين أخذ عنه رهن صاحبه فكان طيباً ، وإن سبق الدخيل أخذ الرهنيين جميعاً ، وإن سبق هو لم يكن عليه شيء... ولا يكون الدخيل إلا جواداً رائعاً لا يأمن أن يسبقهما وإلا فهذا قمار لأنهما كأنهما لم يدخل بينهما محملاً^(٢) .

٢ - لعبة الكرة :

كان لعب الكرة ، من أنواع التسلية عند العرب في الجاهلية ، وكانوا يتدافعون الكرة بالصوالة . والقلة والمقل وهما عودان يلعب بهما الصبيان ،

(١) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ص ٥٤ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٢٠٧ (نشر أحمد أمين) .

فيرمى الصبي بالقلة في الهواء ، ثم يضربها بمقل في يده وهي خشبة طولها ذراع فتستمر القلة في حركتها ، وإذا وقعت كان طرفاها مجافيين للأرض ، فيضرب أحد طرفيها فتستدير وترتفع ، ثم يعترضهما بالمقل فيضربها في الهواء فتستمر ماضية^(١) .

روى الفاكهى أن عمر بن الخطاب قدم مكة ، فرأى السكرك تُعاب به ، فقال : لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرك ما أقررتك ، لعب قديم كان أهل مكة يلعبون به ، ولم يزل كذلك حتى كانت سنة عشر ومائتين : وأن أهل مكة كانوا يلعبون به في كل عيد ، وكان لسكل حارة من حارات مكة كرك يعرف به يجتمعون له ويلعبون به ، ويذهب الناس فينظرون في تلك المواضع ، ثم قال الفاكهى : قدم رجل من أهل مكة ، فقال له عليّ : كيف تركت قريشاً والناس بمكة ، فقال : تركت فتيان قريش يلعبون بالكرة بين الصفا والمروة .

٣ — والأل والجَمَاح :

قال امرؤ القيس :

لَمَنْ زُخْلُوقَةٌ زُلُّ بِهَا الْعَيْنَانِ تَنْهَلُ

يَنَادِي الْآخِرَ الْأُلُّ أَلَا حُلُوا أَلَا حُلُوا

وقال الفضل في قول امرئ القيس : أَلَا حُلُوا ، أن هذا معنى لعبة للصبيان ، يجتمعون فيأخذون خشية ، ويضعونها على قوزٍ من رمل ، ثم يجلس على أحد طرفيها جماعة وعلى الآخر جماعة ، فأى الجماعتين كانت أرزن ارتفعت الأخرى فينادون أصحاب الطرف الآخر : أَلَا حُلُوا ، أى خففوا

(١) ابن سيدة : النخمس ج ١٣ س ١٧ و ١٩ .

من عددكم حتى نساويكم في التعديل . وهذه هي التي تسميها العرب : الذوداة والزخوفة^(١) .

والجُمّاح تمرّة تجعل رأس خشبة يلعب بها الصبيان ، وقيل إنها سهم صغير بلا نصل مدور الرأس يتعلم به الصبيان الرمي ، وقد يرمى به الطائر فيلقيه ولا يقتله حتى يأخذه راميه .

٤ — المذحاة والأرجوحة :

الدّخو هو رمي اللاعب بالحجر والجور ونحوها ، والمذحاة خشبة يدحى بها الصبي فتمر على وجه الأرض لا تأتي على شيء الا اجتمعتته . وفي حديث أبي رافع : كنت ألاعب الحسن والحسين رضوان الله عليهما بالمذحاحي وهي أحجار أمثال القرصة كانوا يحفرون حفرة ويدحون فيها بقلك الأحجار ، فإن وقع الحجر فيها غلب صاحبها وإن لم يقع غلب .

أما الأرجوحة فهي خشبة تؤخذ فيوضع وسطها على تل ، ثم يجلس غلام على أحد طرفيها وغلام آخر على الطرف الثاني ، فترجع الخشبة بهما ، ويتحركان فيميل أحدهما بصاحبه الآخر . ويقال للحبل الذي يرتج به : الرجاجة والنواعة والنوطة والطواخة^(٢) .

٥ — الخذروف ووضاح .

الخذروف هو شيء يدوره الصبي بخيط في يده ، فيسمع له دوى ، وقيل إنه عود أو قصب مشقوقة يفرض في وسطه ، ثم يشد بخيط ، فإذا امر ، دار وسمع له حفيف ، وهو من ألعاب الصبيان ، المعروفة باسم النمار .

ووضاح هي لعبة صبيان الأعراب ، يعمدون إلى عظم أبيض فيرمونه

(١) أحمد عيسى : ألعاب الصبيان عند العرب ص ٥٨١ . بحث مستخرج من مجلة مجموع

فؤاد الأول للغة العربية ، الجزء الرابع ، ١٩٣٧ .

(٢) أحمد عيسى : ألعاب الصبيان عند العرب ص ٥٨١ .

فى ظلمة الليل ثم يتفرون فى طلبه ، فمن وجده منهم ، فله الغلبة . وفى حديث المبعث أن النبى عليه السلام كان يلعب وهو صغير مع الغلمان بمظم وضاح^(١) . ولقد عرف صبيان العرب عدة ألعاب ، أخرى ، مثل : الجَمَرى^(٢) . وَحِى جُمَل^(٣) والمِخْرَاق^(٤) والأنبُوءة^(٥) وغيرها من الألعاب^(٦) .

٦ — لعب الميسر .

كان الميسر ، من ألعاب العرب المفضلة التى مارسوها طوال جاهليتهم ، حتى حذقوا لعبه ، وكان لم فيه باع طويل . وهى تلك اللعبة المستهجنة التى نهى الإسلام عنها بعد أن سطع نوره فوق الجزيرة العربية . قال الفيروز أبادى : الميسر اللامب بالقдах ... أو هو الجزور التى كانوا يتقامرون عليها أو الزرد أو كل قار^(٧) ، وقد يقال للقдах الأزلام ، واحدا زُلم وزُلم ، وهى سهام كانوا يقتسمون بها فى الجاهلية . يقوم الجوهرى : الأزلام كانت لقريش فى الجاهلية ، مكتوب عليها أمر ونهى وافعل ولا تفعل ، وقد زُلمت^(٨) ووضعت فى السكبة ، يقوم بها سدنة البيت ، فإذا أراد رجل سفراً أو « زواجا » أتى السادن وقال : أخرج لى زلما ، فيخرج وينظر إليه ، فإذا خرج قدح الأمر مضى على ما عزم إليه ، وإن خرج قدم النهى قعد عما أراد^(٩) .

(١) أحمد عيسى : ألعاب الصبيان عند العرب .

(٢) تعرف هذه اللعبة عند صبيان العامة الآن فى مصر باسم « مقعد السلطان » .

(٣) هى لعبة معروفة الآن عند العامة ، حيث يضع الصبي رأسه على الأرض ثم ينقلب

على الظهر .

(٤) مندبل أو نحوه يلوى ، فيضرب به أو يلف فيفزع به .

(٥) كان الصبيان يحفرون حفيراً ويدفنون فيه شيئاً ، فن استخرجه فقد غلب .

(٦) أحمد عيسى : نفس المصدر .

(٧) البقاعى : لعب العرب بالميسر فى الجاهلية الأولى ص ٢٩ — ٣٠ .

(٨) زلت : سويت .

(٩) الزبىدى : نشوة الارتياح فى بيان حقيقة الميسر والقдах . ص ٤٤ .

وعما هو جدير بالذكر ، أن العرب في الشتاء ، عند شدة البرد وتعذر القوات على أهل الضُر والمسكنة ، كانوا يتقمارون بالقداح على الإبل ثم يجعلون لحومها للفقراء منهم وذوى الحاجة . وفي ذلك يقول الأعشى :

المطعمو الضيف إذا ما شقوا والجاعلون القوت على الياسر^(١)

ثانياً — من ظهور الإسلام إلى سقوط الأمويين

١ — النظام السيامي

حكومة الرسول :

في القرن السابع الميلادي ، ظهر الدين الإسلامي الحنيف في شبه جزيرة العرب ، على يد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وقد قام النبي بالدعوة إلى الدين الجديد سرّاً وجهرّاً ، ونزل عليه القرآن مشتملاً على الشرائع التي فرضت على المسلمين ، فكانت مهمة النبي من هذه الفاحية مهمة القائم بالتشريع ، يفهم الناس معنى القرآن ، ويشرح لهم ما غمض عليهم منه بأحاديثه النبوية ، ومن ذلك الحين أصبح القرآن والأحاديث دستور المسلمين .

وكان لظهور سيدنا محمد أثره السياسي كذلك ، فقد نجح في تكوين أمة واحدة تخضع لحكومة واحدة ، بعد أن كانت القبيلة هي الوحدة السياسية التي قام عليها المجتمع العربي قبل الإسلام . وقام الرسول بالإشراف على تلك الأمة خير قيام ، فوضع الأسس العامة لسياسة الدولة الجديدة ، وشرع لها القوانين . وتلك كانت مهمة شاقة ، إذ لم يكن العرب قبل الإسلام يسيرون على قانون خاص .

كانت حكومة الرسول حكومة دينية ، تعتمد إلى حد كبير على اعتقاد الناس

(١) الياسر : هو الذي يلى قسمة جزور الميسر ، وجمعه أيسار .

أن النبي إنما يصدر في أحكامه وتصرفاته عن وحى الله وأمره . وكانت هذه الحكومة تقوم على أساس إحلال الوحدة الدينية محل الشعور القبلى ، مما سهل على القبائل المختلفة طاعته والانضمام تحت لوائه .

ولكن بجانب ذلك ، كانت كل مظاهر الحكومة السياسية في يد النبي : فكان يقود الجيوش ، ويفصل في الخصومات ، ويمجى الأموال . وفي كل الأمور التي لم يتعرض لها الوحي ، كان النبي — على مثال شيخ القبيلة — يستشير كبار المهاجرين والأنصار ، من أمثال أبي بكر وعمر وعلى ، وكان يقول : أشيروا على الناس ، أما المسائل التي نزل بها الوحي فلم يكن للنبي ولا أصحابه رأى فيها .

انتخاب الخلفاء الراشدين :

تعد خلافة^(١) الخلفاء الراشدين ، شورية انتخابية : ففي انتخاب أبي بكر ، رشح الأنصار سعداً ورشح أبو بكر أبا عبيدة وعمر ، وسارع عمر إلى مبايعة أبي بكر فبايعه^(٢) الحاضرون ، وأقر هذه البيعة عامة المسلمين ، وحضر الاجتماع أكثرية الصحابة بصرف النظر عن كونهم أنصاراً أو مهاجرين . وفي انتخاب عمر لم يستبد أبو بكر برأيه ، ولم يرغم جماعة المسلمين على قبول خلافة عمر ، بل استشار الصحابة فيه ، فأجمعوا على حسن هذا الاختيار ، وأعطت هذه السفة التي سنّها أبو بكر من الشورى وعدم التوريث ، الحرية للخليفة في انتخاب من يخلفه من غير قيد ولا شرط . وطريقة انتخاب عثمان أقرب إلى الشورى ، فقد تعدد المرشحون للخلافة ، وكان المجتمعون في مسجد المدينة من الصحابة وغيرهم أثر كبير في توجيه الانتخاب وحصر الخلافة في واحد من اثنين وهما : عثمان وعلى .

(١) الخلافة : مصدر « خلف » يقال خلفه ، وكان خليفته وبق بعده ، والخليفة السلطان الأعظم ، والجمع خلائف وخلفاء ، وهو نظام من أنظمة الحكم ، خاص بالإسلام .
(٢) البيعة مصدر باع ، لأنها تشبه فعل البائع والمشتري ، وهى العهد على طاعة الخليفة ومعاheadته على التسليم له بالنظر في أمور المسلمين .

وبايع على أهل المدينة ، فصار خليفة بمقتضى هذه البيعة ، وإن لم يبايعه جمهور المسلمين فقد بايعته الأكثرية . وبذلك لم يتم انتخاب على على الصورة التي تم بها انتخاب سبقة من الخلفاء : فقد انتخب أبو بكر عن رضى من الصحابة الذين اجتمعوا بالمدينة وإن كانوا قد اختلفوا فى بادىء الأمر ، وبعد وفاة أبي بكر لم يكن ثمة اختلاف فى رأى لأنه قد عهد عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته . ولما توفى عمر انتخب عثمان على أساس قانون الشورى الذى سنه عمر .

وكانت سلطة الخلفاء الراشدين مطلقة ، فلم تسكن هناك حدود مرسومة تحدد واجباتهم بالدقة . والواقع أن سلطة الخليفة كانت تحدد بوجه عام بالشرع ورضاء الأمة ، فإذا لم يحكم حسب حدود الشرع ، سقط حقه فى الخلافة ووجب عزله على يد أهل الحق والعدل فى الأمة التى ولته . ويبين لنا التاريخ أن كل خليفة من الخلفاء الراشدين كان يتوخى أن يحكم وفق الحدود الشرعية ، إذا استثنينا عثمان بن عفان الذى رماء أعداؤه بأنه يقرب الأصهار ويكثر الأموال ولا يحكم بالعدل . ويمكن القول أن الخلافة الحقيقية المستوفاة لشرط الشرعية لم تعد عهد الخلفاء الراشدين .

مميزات الخلافة الأموية :

صحح تحول الخلافة من الخلفاء الراشدين إلى الأمويين ، عدة مظاهر ليست من مقتضيات الخلافة ، كمظاهر الأهبة والجبروت . وكان معاوية يرمى إلى جعل الخلافة ملكا ، وليس أدل على ذلك من قوله : « أنا أول الملوك » ، وابتدع فى الدولة أشياء لم يسبقه إليها أحد ، ومنها أنه :

١ — اتخذ السرير^(١) أو « العرش » ، وهو مألوف عند الأعاجم ، واعتذر إلى الناس بأنه قد سمن واحتاج إليه ، ويعد السرير من شارات الملك .

(١) السرير : هو أعواد مرتفعة عن الناس ، بحيث يكون الملك ظاهرا .

٢ — اتخذ المقصورة في المسجد ، بعد كان الخليفة يصلى مع الناس ولا ينفرد
دونهم ، فأصبح معاوية ومن جاء بعده يترفعون على مخالطة رعيّتهم ، واعتذر
معاوية عن ذلك بأنه اتخذها بعد حادثة الخوارج الذين أرادوا اغتياله .

٣ — سن سنة الجلوس أثناء الخطبة ، بعد أن كان النبی عليه السلام
والخلفاء الراشدين من بعده إذا خطبوا الناس خطبهم وهم وقوف .

٤ — أحاط نفسه بحرس خاص ، وبذلك ظهرت في الخليفة صفة الحاكم
السياسي ، وأصبحت الخلافة الأموية ذات نزعة سياسية بجانب صفتها الدينية .

٥ — عمل معاوية على تلافى الاختلاف بين المسلمين عند انتخاب الخلفاء ،
بأن عهد بالخلافة من بعده لابنه يزيد ، وأوجد بذلك لأول مرة في التاريخ
الإسلامي نظام ولاية العهد . واستعمل معاوية في أخذ البيعة لابنه يزيد كل أنواع
الحيل والدهاء وخالف شروط الخلافة وانتقل بها من خلافة شورية انتخابية
إلى ملكية وراثية ، وتحولت الخلافة إلى ملك آكل إلى صاحبه بقوة السيف
السياسة والكيّد^(١) .

وكان للوسط والبيئة أثر في هذه المظاهر التي تجنب إلى الملك ، فقد كان
معاوية يحكم الشام على حدود الدولة البيزنطية التي ألقت الترف والأبهة . وعندما
توجه عمر إلى الشام سنة ١٦ هـ لقيه معاوية في حرسه وخيله ، فدهش عمر لذلك
وقال : أكسروية يا معاوية ؟ فقال : إننا بإزاء قوم يجب أن نتباهى أمامهم
حتى يكونوا هائبين .

(١) حسن إبراهيم وعلي إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٥٠ — ٥١ .

٢ - النظام الإداري

الدواوين :

بعد أن توالى الفتوح الإسلامية وأثرت الدولة العربية بما ملكته من كنوز
الفرس ، رأى عمر بن الخطاب توزيع هذه الأموال على المسلمين . ولذا دَوَّن
الدواوين^(١) : فأنشأ ديوان الجند لكتابة أسماء الجند وما يخص كلا منهم من
المعطاء ، وجعل لكل واحد من المسلمين عطاء ، مراعيًا في ذلك السَّبق إلى
الإسلام ونصرة الرسول ، ورتب الناس طبقات مبتدئين بالعباس عم النبي صلى الله
عليه وسلم ثم بنى هاشم ثم بنى بعدهم ، وأنشأ بعد ذلك ديوان الخراج والجباية
لتدوين ما يرد إلى بيت المال .

وكان سبب تدوين عمر للدواوين ، أن أبا هريرة قدم على عمر من البحرين
ومعه مال ، فقال عمر ماذا جئت به ؟ قال : خمسمائة ألف درهم . فقال عمر :
أتدري ما تقول ، قال : نعم : مئة ألف درهم ، ومئة ألف درهم ، ومئة درهم ،
ومئة ألف درهم ومئة ألف درهم . فقال عمر : أطيب هو^(٢) ؟ قال : لا أدري .
وضعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ! قد جاءنا مال كثير ،
فإن شئتم نعهده عدا ، فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين قد رأيت هؤلاء
الأعاجم يدوتون ديوانًا لهم ، فقال : دوتوا الدواوين^(٣) .

وفي عهد بنى أمية ، كانت دواوين الدولة العربية هي :

١ - ديوان الخراج : ولصاحبه الإشراف على جباية الخراج وطرق إنفاقه .

(١) الدواوين : مفرد ما ديوان ، وهي كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر ، وأطلق
الديوان من باب المجاز على المكان الذي يحفظ فيه الديوان .

(٢) يريد : أحلال هو !

(٣) الجهشيارى : الوزراء والسكران ص ١١ - ١٢ .

٢ - ديوان الرسائل : وكان لصاحبه الإشراف على الرسائل التي ترد من الولاة .

٣ - ديوان المستغلات أو الإيرادات المتنوعة .

٤ - ديوان الخاتم : وقد أنشأ معاوية بن أبي سفيان ، وهو أكبر دواوين الحكومة ، وكان فيه نواب مهنتهم نسخ أوامر الخليفة وإيداعها هذا الديوان ، بعد أن تحرم بخيط وتختتم بالشمع بخاتم هذا الديوان ، كما هو الحال اليوم في قلم السجلات . وما زال ديوان الخاتم معدودا من الدواوين الكبرى من خلافة معاوية إلى أواسط الدولة العباسية ، ثم ألغى لتحول الأعمال إلى الوزارة والسلطين وغيرهم . يقول الجهمشياري « وكان للأكامرة أربعة خواتيم : فكان على خاتم الحرب والشرطة الأناة ، وعلى خاتم الخوارج والعمارة التأييد ، وعلى خاتم البريد الوحاء (العجلة والإسراع) ، وعلى خاتم المظالم العدل »^(١) .

• - ديوان الطراز^(٢) : اقتدى المسلمون بالأكامرة والقيصرية ، فاتخذوا الطراز عن الروم ، ولكنهم لم يستحسنوا اتخاذ الصور لتحريمها في الإسلام ، بل استعاضوا عنها بكتابة أسمائهم وكلمات أخرى تجرى مجرى الفأل والدعاء . وارتقى نظام الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) ، فقد كانت السجلات في أوائل هذه تكتب باليونانية في الشام ، وبالفارسية في فارس ، فأمر بتعريبها . وكان لتعريب الدواوين أثر عظيم ، فقد أصبحت لغة الدواوين هي اللغة العربية ، مما ساعد على تقلص نفوذ أهل الذمة والمسلمين من غير العرب ، بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدي المسلمين من العرب ، وأصبحت اللغة العربية لغة التدوين ، فنقل إليها كثير من الاصطلاحات الفارسية والرومية ،

(١) الجهمشياري : الوزراء والكتاب ص ٣ .

(٢) هو أن ترسم أسماء الملوك والسلطين أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج . مقدمة ابن خلدون .

وأبتدأت من ذلك الوقت تظهر طبقة الكتاب ، ونقل الحجاج بن يوسف الثقفي لما ولى بلاد العراق دواوينها من الفارسية إلى العربية^(١) . وقد ظلت الدواوين تدون باليونانية في مصر إلى أن انتقلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك ، فسار على سياسة أبيه في تعريب الدواوين ، وحول ديوان خراجها إلى العربية ، وقام بتنفيذ هذه السياسة وإليه على مصر عبد الله بن عبد الملك ابن مروان وذلك سنة ٨٧ هـ .

وقرر عبد الملك بن مروان سنة ٧٣ هـ سك عمله عربية إسلامية بعد أن كان العرب إلى ذلك الوقت يتعاملون بالدنانير البيزنطية والدرهم الفارسية ، وبنى داراً لضرب النقود في دمشق ، وأمر بسحب العملة المستعملة في جميع أنحاء الدولة وضرب بدلها عملة جديدة مصنوعة من الذهب والفضة ونقشت عليها بعض الآيات القرآنية . ولما رأى الروم أن الأموال التي تؤدي إليهم قد كتبت عليها بعض الآيات القرآنية ، استاءوا من ذلك واعتبروه إهانة لهم ، مما أدى وقوع الحرب بين العرب والروم .

الكتابة :

كان من أكبر أعوان الخليفة بعد الوزير ، هو الكاتب . وقد كان السواد الأعظم من العرب لا يعرف القراءة والكتابة ، وكان الخليفة يختار كاتبه من بين الذين يجيدون الخط ، ومن يعبرون عن رؤية بأبلغ العبارات . وأفصحها ، وعرف من الكتاب في صدر الإسلام من الصحابة : عمر بن الخطاب وعلى ابن أبي طالب وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان ، وهؤلاء كتبوا للنبي وعلى عليه السلام القرآن وحرروا الكتب التي أرسلها إلى الملوك والأمراء . ومن كتاب

(١) الجهمشيارى : الكتاب والوزراء ص ٣٨ .

الرسول كذلك : عثمان بن عفان وسميد بن العاص والمغيرة بن شعبة^(١) ، ولما ولي بكر الخلافة اتخذ عثمان بن عفان كاتباً له ، كما اتخذ عمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم كتاباً له . وفي عهد خلافة عثمان كان مروان بن الحكم من أبرز الكتاب ، وصار عبد الله بن الأرقم كاتباً له ، وفي عهد خلافة عثمان كان مروان بن الحكم من أبرز الكتاب ، وصار عبد الله بن أبي رافع لعل بن أبي طالب ، وهو الذي قال له الخليفة : يا عبد الله ! ألق^(٢) دواتك ، وأطل شباه^(٣) قلحك ، وفرج بين السطور وقرمط^(٤) بين الحروف^(٥) .

ولما انتقلت الخلافة إلى بني أمية ، تعدد الكتاب ، لتعدد مصالح الدولة ومن ثم أصبح الكتاب خمسة : كاتب الرسائل ، وكاتب الخراج ، وكاتب الجند ، وكاتب الشرطة ، وكاتب القاضى . وأهم هؤلاء فى الرتبة : كاتب الرسائل . وكان الخلفاء لا يولون هذا المنصب إلا أقرباءهم وخاصتهم ، وظلوا على ذلك إلى أيام العباسيين^(٦) .

الحجابه :

الحجابه موظف كبير يشبه كبير الأمناء أيامنا ، وكان يشغل منصباً سامياً فى البلاط ، ومهنته إدخال الناس على الخليفة ، مراعيًا فى ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم . ولم توجد هذه الوظيفة فى عهد الخلفاء الراشدين ، لأنهم كانوا يسمحون للناس بالدخول عليهم دون حجابه .

ولما انتقل الحكم إلى بني أمية ، اتخذ معاوية بن أبي سفيان ومن جاء بعده

(١) الجهميارى : كتاب الكتاب والوزارة ص ١٢ — ١٤ .

(٢) أصلح موادها .

(٣) سنة .

(٤) راعى الدقة فى الكتابة ودقق بين الحروف .

(٥) الجهميارى : نفس المصدر ص ٢٣ .

(٦) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلامى السياسى ج ١ ص ٣٤٩ .

من الخلفاء ، الحجاب ، بعد تأمر الخوارج على حياة على ومعاوية وعمر بن العاص ، خوفاً على أنفسهم وتلافياً لازدحامهم على أبوابهم وشغلهم عن النظر في مهام الدولة^(١) . ولكنهم كانوا يبيحون الدخول لثلاثة في أى وقت شاء : للمؤذن للصلاة ، وصاحب البريد ، وصاحب الطعام . قال عبد الملك بن مروان لحاجبه : قد وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة : المؤذن للصلاة فإنه داعى الله ، وصاحب البريد فأمر ما جاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسد^(٢) وقال لأخيه عبد العزيز بن مروان واليه على مصر : انظر حاجبك ، فليكن من خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك ، ولا يقف أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتسكون أنت الذى تأذن أو ترده^(٣) .

(١)
البريد :

يرجع نظام البريد إلى أيام أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، على أن مقاديره أو مسافاته لم تسكن ثابتة بل كانت متفاوتة . وكان معاوية بن أبي سفيان أول من أدخل نظام البريد في الإسلام ، أخذه عن الروم أثناء حكمهم في الشام ، ولما تولى عبد الملك بن مروان خلافة الأمويين أدخل على البريد عدة تحسينات حتى أصبح أداة هامة في إدارة شئون الدولة .

(١) حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص ١٨٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٧ .

(٣) ابن طباطبا : الفخرى ص ١١٥ .

(٤) البريد في الاصطلاح : هو أن يجعل خيل مضمرات في عدة أماكن ، فإذا وصل صاحب الخبر السريع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ، ركب غيره فرساً مستريحاً ، وكذلك في المسكن الآخر حتى يصل بسرعة . وأما معناه اللغوي : فهو مسافة معلومة مقدرة بإحدى عشر ميلاً . ابن طباطبا الفخرى ص ١٠١ — ١٠٢ .

٣ - النظام القضائي

(١) القضاء في عهد الرسول :

لم يكن للمسلمين في عهد الرسول قاض سوام ، لقلة عدد القضايا المرفوعة إليه وضيق رقعة الدولة . وكان يحكم بين الناس على أساس أحكام القرآن ، فيحضر للتخاصمان إليه مختارين ، فيسمع كلام كل منهما . وكانت طرق الإثبات عنده البيّنة^(١) ، واليمين وشهادة الشهود ، والكتابة والقراءة والقرعة . ثم أذن عليه السلام لبعض أصحابه بفض الخصومات طبقاً : للكتاب وهو أحكام القرآن ، والسنة وهي ما صدر عن النبي من قول أو فعل . وكان الحبس في عهد الرسول لا يتعدى منع المتهم من الاختلاط بغيره ، وذلك بوضعه في بيت أو مسجد وملازمة الخصم أو من ينبيه عنه ، له .

في عهد الخلفاء الراشدين :

وسار أبو بكر سيرة النبي عليه السلام واهتدى بهديه وترسم خطواته وفعاله وقد أسند أبو بكر القضاء إلى عمر بن الخطاب ، فظل سنتين لا يأتيه متخاصمان ، لما عرف عنه من الشدة والحزم . على أن عمر لم يطلق عليه لقب قاض طوال خلافة أبي بكر .

ولما ولي عمر بن الخطاب الخلافة واتسع نطاق الدولة ، وكل أمر القضاء إلى أشخاص سمو « قضاة » وبذلك كان عمر أول من عين القضاة في الولايات الإسلامية ، فولى : أبا الدراء قضاء المدينة . وشريحاً بن الحارث الكندي قضاء الكوفة . وأبا موسى الأشعري قضاء البصرة ، وعثمان بن قيس بن أبي العاص

(١) البيّنة في الشرع : اسم لما يبين الحق ويظهره ، بمعنى أن المدعى ملزم بإظهار ما يبين صحة دعواه ، فإذا ظهر صدقة بإحدى الطرق ، حكم له .

قضاء مصر ، وجعل قضاء الشام مستقلاً . وسن عمر لهؤلاء القضاء دستورا يسرون على هديه في الأحكام ، ويعتبر الكتاب الذى تضمنه أساساً للقضاء في الإسلام^(١) ، وبعث عمر بهذا الدستور إلى أبى موسى الأشعرى وغيره من القضاة .

وكان القضاء يعينون من قبل الخليفة ، ويراعى في اختيارهم : غزارة العلم ، والتقوى ، والورع ، والعدل ، والذكاء . ولذا كانت القاضى في عهد الخلفاء الراشدين مستقلاً ، محترم الجانب . وكان اختيار القضاء في الولايات يفوض أحيانا إلى ولاية الأمصار^(٢) ، وأصبح الاجتهاد^(٣) مبدأً يعتد به في الأحكام القضائية . ولم يكن للقضاء كاتب أو سجل تدون فيه الأحكام ، لأنها كانت تنفذ على أثر صدورها ، ويقوم القاضى مجلس للحكم في منزله ، ثم أصبح يعقد جلساته في المسجد .

فى عهد بنى أمية :

وفى عهد الأمويين ، كان القاضى يحكم بما يوحىه إليه اجتهاده ، إذ لم تكن المذاهب الأربعة التى تقيد بها القضاء فيما بعد قد ظهرت ، فكان القاضى يرجع إلى الكتاب والسنة للفصل فى الخصومات . ولم يكن القاضى فى ذلك العصر متأثراً بالسياسة . فقد كان القضاء مستقلاً فى أحكامهم لا يتأثرون بميول الدولة الحاكمة ، وكانوا مطلقى التصرف وكلتهم نافذة على الولاية وعمال الخراج .

وكان القضاء من خيرة الناس ، شريفي النفوس ، موفورى السكرامة ،

(١) يوجد نص هذا الكتاب فى كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ ج ٢ ص ٢٣ .

(٢) يقصد بالأنصار : الأقطار الإسلامية .

(٣) الاجتهاد : هو اتفاق مجتهدى الأمة على حكم شرعى لم يكن قد صدر فيه نص من القرآن أو السنة .

يخشون الله ، ويحكمون بين الناس بالعدل . وكان الخلفاء بالمرصاد لمن شذ منهم عن الطريق السوى ، فقد أمر الخليفة هشام بن عبد الملك بصرف يحيى ابن ميمون الحضرمي عن قضاء مصر لأنه لم ينصف يثيا احتكم إليه . ومن قول عمر بن عبد العزيز ، نبيين الشروط التي كان يجب أن تتوافر في القاضي : « إذا كان في القاضي خمس خصال فقد كمل : علم بما كان قبلة ، ونزاهة عن الطمع ، وحلم على الخصم ، واقتداء بالأئمة ، ومشاركة أهل العلم والرأى » .

وظهرت الحاجة في ذلك العصر إلى وجود سجلات تدون فيها الأحكام التي يصدرها القضاء ، ولم يعرف هذا في عهد الخلفاء الراشدين ، إلا أن تناكر الخصوم أدى إلى إيجاد هذه السجلات .

مرتبات القضاة :

كان عمر بن الخطاب أول من خصص راتبا للقاضي : ففرض للقاضي سليمان بن ربيعة خمسمائة درهم في كل شهر ، وجعل لشریح قاضي البصرة مائة درهم ومؤنته من الحنطة . واستمرت رواتب القضاة على هذا النحو زمن الخلفاء الراشدين ، ثم ارتفعت رواتب القضاة في عصر الأمويين ، تبعا لزيادة موارد الدولة . وكان راتب القاضي يزيد إذا أسندت إليه أعمال أخرى : فقد كان عبد الرحمن بن حنبل قاضي مصر في ولاية عبد العزيز بن مروان يتقاضى مائتي دينار^(١) على القضاء ، ومائتي دينار على القصص ، ومثلها على بيت المال ، كما كان عطاؤه مائتي دينار ، وجائزته كذلك ، فكان يأخذ ألف دينار في السنة . ولكن معظم القضاة في زمن عمر بن عبد العزيز لم يتناولوا راتبا أصلا ، لأنه رأى أن القاضي لا يجوز له أن يتناول راتبا مقابل قيامه بهذه الخدمة الدينية . وبلغ راتب القاضي في زمن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية عشرة دنانير في الشهر ،

(١) الدينار = ١٥٥ قرشا تقريبا .

كما ثبت من براءة وجدت في ديوان مروان كانت قد صدرت إلى خازن بيت المال بإعطاء عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه الشهري في ربيع الأول سنة ١٣١ هـ.

(ب) ديوان المظالم :

لم يجلس للمظالم أحد من الخلفاء الراشدين ، لأن الوازع الديني في عهدهم كان له سلطان على نفوس المسلمين الذين كانوا يجدون من أنفسهم زاجرا يمنعهم عن الظلم والاستهتار بحق الناس . غير أن علي بن أبي طالب اضطر إلى النظر في المظالم في عهد خلافته ، ولكنه لم يعين لذلك يوما معيناً ولا زمناً محدداً ، بل كان ينظر في شكايته من يأتيه من المظالمين ويعمل على نصافه .

ولكن تطور الأحوال وتغير طباع الناس واتساع الملك في أيام بني أمية ، دفع بعض خلفائها إلى تخصيص يوم للنظر في مظالم رعاياهم وأول من فعل ذلك ، عبد الملك بن مروان ، الذي كان يستعين بقاضيه ابن إدريس الأزدي فيما أشكل عليه ، فكان ابن إدريس هو المباشر وعبد الملك هو الأمر ، وقد أفرد يوما يتفصح فيه قصص المظالمين^(١) .

وديوان المظالم هيئة قضائية عالية ، تشبه محكمة الاستئناف في الوقت الحاضر ، ولذلك كانت سلطة صاحب المظالم ، أعلى بكثير من سلطة القاضي . قال ابن خلدون عن ولاية المظالم : « وهى ولاية متميزة من سطوة السلطة ونصفة القضاء ، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة ، تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدين ، وإليها النظر في البيّنات والتقارير ، واعتماد الأمارات والقرائن ، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق ، وحمل الخصم على الصلح ، واستحلاف الشهود ، وذلك أوسع من سلطة القاضي » .

(١) حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٣٥٢ — ٣٥٣ .

وكان من اختصاص هذه الهيئة ، أن تنظر في ظلمات الشعب ، وقد تكون هذه الظلمات من قضاة لم ينصفوا المتقاضين ، أو من ولاية استبدوا بالأمر وظلموا رعاياهم ، أو من حياة أموال حادوا عن الطريق المستقيم ، أو من أبناء الخلفاء أو أهل الجاه وأصحاب النفوذ ممن اغتالوا أموال الناس وأملا بهم ظلماً وعدواناً ، أو ماشابه ذلك من الشكاوى التي ربما لا يستطيع القضاة تنفيذ أحكامهم فيها . ولم يقتصر اختصاص صاحب المظالم على النظر في تظلم أصحاب الأرزاق إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها لهم ، وتنفيذ ما يعجز القاضي عن تنفيذه من الأحكام ومراعاة إقامة العبادات كاللحج والأعياد والجمع والجهاد^(١) . ولهذا كانت تسند رئاسة ديوان المظالم لرجل جليل القدر كثير الورع يعرف باسم « قاضي المظالم » .

وكانت محكمة المظالم تعقد برئاسة الخليفة أو والى أو من ينوب عن أحدهما . وكان صاحب المظالم يمين يوماً يقصده فيه المتظلمون ، إذا كان من الموظفين ، ليتفرغ لأعماله الأخرى ، أما إذا انفرد بالمظالم ، نظر فيها طوال أيام الأسبوع . وكانت المحكمة تعقد في المسجد ، ويحاط صاحبها بخمس جماعات ، لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم ، وهم :

١ — الحماة والأعوان : وكانوا من القوة ، بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى العنف ، أو يحاول الفرار من وجه القضاء .

٢ — الحكام : ومهمتهم الإحاطة بما يصدر من الأحكام رد الحقوق إلى أصحابها ، والعلم بما يجرى بين الخصوم : فيملكون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين ، وكانت القضاة يستفيدون من وراء حضورهم هذه الجلسات إذا كانوا يستطيعون تطبيق الأحكام على ما يعرض أمامهم من القضايا في جلساتهم .

٣ - الفقهاء . وكان يرجع إليهم صاحب المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية .

٤ - الكتّاب : يقومون بتدوين أقوال الخصوم ، وإثبات ما لهم وما عليهم من الحق .

٥ - الشهود : ومهمتهم إثبات ما يعرفونه عن الخصوم ، والشهادة على أن ما أصدر القاضى من الأحكام لا ينافى الحق والعدل .

(ح) الشرطة :

وبجانب هذه السلطة القضائية ، الممثلة فى القضاء وصاحب المظالم ، كانت توجد سلطة أخرى تتمثل فى صاحب الشرطة .

والمقصود بالشرطة ، الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو والى ، فى استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين ، وما إلى ذلك من الأعمال التى تسكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم . وكان عمر بن الخطاب أول من أدخل نظام العسس فى الليل ، وفى عهد على بن أبى طالب نظمت الشرطة وأسندت إلى رجال من عالية القوم ومن أهل العصبية والقوة .

وكانت الشرطة تابعة للقضاء فى أول الأمر ، وتقوم على تنفيذ الأحكام القضائية ، وتمهيد الطريق لإقامة الأدلة على المتهم لإثبات الجريمة . وكان بعض القضاة يجمع بين ولايتى القضاء والشرطة .

(ز) الحسبة :

كان من واجب الخليفة أن يعاقب من يحدون عن مبدأ الرفق بالحيوان ، ويتسببون فى تعطيل حركة المرور ، سواء كان التعطيل بإقامة بناء على الطريق ،

أو بمجرد الجلوس فيه . وهذه الأعمال التي تهم الجمهور ، ويقوم بها في عصرنا جمعية الرفق بالحيوان ورجال الشرطة وغيرهم من الهيئات ، كان يقوم بها الخليفة في أول الأمر ، ثم صارت من واجب القاضي ، فلما كثرت وتنوعت عين لقيام بها موظف خاص يسمى « والى الحسبة » .

وكان والى الحسبة يعرف عند المتأخرين باسم « المحتسب » . وهو الذي ينظر في الأمور التي تتعلق بالنظام العام ، كما كان يقضى في الجنايات التي يستدعي الفصل فيها السرعة ، حتى أن القضاء والحسبة كانا يسندان في بعض الأحيان إلى رجل واحد ، مع ما بين العاملين من التباين : فعمل القاضي مبنى على التحقيق والأناة في الحكم ، وعمل المحتسب مبنى على الشدة والسرعة في الفصل^(١) .

والحسبة منصب ديني يتصل بالقضاء . ومما يذكر عن عمر بن الخطاب أن بعضهم رآه يضرب حمالا ويقول : حَمَلت جِلك مالا يطيق ، وأن بعضهم رآه يضرب التجار إذا اجتمعوا على الطعام (يقصد به القمح) بالسوق حتى يبعدم عن طريق المارة ويقول : لا تقطعوا علينا سابلتنا ، وأنه دخل السوق وهو راكب فرأى دكانا قد أحدث فكسره . وبذلك كان عمر أول من أدخل هذا النظام عند ما استعمل عبد الله بن عتبة على السوق . قال ابن القيم في كتاب « الطرق الحكيمة » : وأما الحكم بين الناس فيما لا يتوقف على الدعوى ، فهو المسمى بالحسبة ، والمتولى له والى الحسبة . وقد جرت العادة بإفراد هذا النوع بولاية خاصة .

وكانت مهمة المحتسب الإشراف على نظام الأسواق . فكان له نواب يطوفون فيها : فيفتشون الفنادق العامة ، ويشرفون على السقاين للتحقق من تعطيهم القرب ولبسهم السراويل ، كما كان يحول دون بروز الحوانيت حتى

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٧١ — ٧٢ .

لا تعوق نظام المرور ، وكان له أن يمنع الناس من حمل ما زاد على طاقتهم ، أو تحميل الحيوانات أو السفن أكثر مما ينبغي ، وكان له أن يشرف على نظافة الشوارع والأزقة ، ويحكم بهدم المباني المتداعية وإزالة أنقاضها ، ومنع معلمى الكتائب من ضرب الأولاد ضرباً مبرحاً ، كما كان المحتسب يكشف عن صحة الموازين والمكاييل .

وارتقى نظام الحسبة فى الإسلام رقيماً كبيراً ، وكان ينال قسطاً وافراً من عناية الخلفاء والفقهاء ، فعملوا على توسيع دائرة المحتسب ، حتى جعلوها تشمل : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والنظر فى مراعاة أحكام الشرع ، والإشراف على المساجد لتحقيق من إقامة الصلاة فى مياعدها وأن الأئمة يؤدّون أعمالهم وفق الأوامر الشرعية .

٤ — النظام الحربى

الجيش : نظام الجيش :

لم يكن للعرب فى الجاهلية نظام خاص للجند ، لأنهم كانوا على حالة البداوة الأولى ، فكان رجال القبيلة يذهبون للقتال مشاة وفرساناً إذا دعا داع حاملين أسلحتهم المعروفة فى ذلك الوقت وهى : السيف والرمح والقوس ، فإذا ما انتهى القتال عادوا إلى مساكنهم وانصرفوا إلى أعمالهم .

ولما جاء الإسلام ، بدأ العرب يقاتلون فى سبيل نشره بالغزو والفتح ، وكان عمر بن الخطاب أول من جعل الجند فئة مخصوصة ، وأنشأ ديوان الجند للإشراف عليهم بتقييد أسمائهم ومقدار أرزاقهم وإحصاء أعمالهم ، وكان القتال فى عهد عمر قائماً على العاطفة الدينية والرغبة فى نشر الإسلام فى كثير من الأقطار . ولما تمكنت جيوش المسلمين من فتح العراق والشام وفلسطين ومصر ، أقام الجنود فى هذه الأمصار فى معسكرات خاصة بهم ،

واشتغلوا بالزراعة . وعسداً إلى تكوين الثروة وامتلاك العقارات الثابتة ، وبذا فترت الروح العسكرية ، ففطن عمر إلى هذا الخطر وأمرهم بأن ينصرفوا إلى الجهاد وضمن لهم أرزاقهم . وإليه يرجع الفضل في إقامة الحصون والمسكرات الدائمة لراحة الجنود ، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل ولا يرتاحون أثناء الطريق إلا في أكواخ مصنوعة من سعف النخل ، ومن ثم أنشئت العواصم وأقيمت الحاميات في عدة أماكن لصد هجمات الأعداء المفاجئة . وكان عدد جنود العرب عند فتحهم حصن نابليون يتراوح بين ١٢ر٠٠٠ و ١٦ر٠٠٠ ، ولما حدثت الفتنة التي أدت إلى انقسام المسلمين على أنفسهم في عهد عثمان ، أصبح القتال في سبيل الدفاع عن الرأي الذي يراه كل مسلم صالحاً لاستقامة الأمور في ذلك الوقت وليس في سبيل نشر الدين كما كان الحال في عهد أبي بكر وعمر .

وبلغ عدد رجال الجيش في عهد معاوية بن أبي سفيان أربعين ألفاً ، من الجنود المرتزقة والمتطوعة . وأدخل عبد الملك بن مروان نظام التجنيد الإجباري ، وكان الجيش في عهده من العناصر العربي ، ولما ملك الأمويين شمال إفريقيا وبلاد الأندلس استعانوا بالبربر في الجيش .

أسلحة الجيش :

كان الجيش يتألف من الفرسان ويتسلحون بالدرع والسيوف والرماح ، ومن الرجلة وأسلحتهم الحراب والأقواس والسهام . وكان الفرسان يلبسون الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب والحلابة بريش الفسور ، بينما يرتدي الرجلة أقبية قصيرة متدلّية إلى تحت الركبة وسراويل ونعالا وكانوا يقفون في صفوف متراصة يتقدمهم حاملو الرماح لصد هجمات الفرسان .

وكان العرب يجيدون استعمال الأقواس والرمي بالنبال . وكان الرسول أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق ، وهو أداة ترمى بها الحجارة على الأعداء ،

واستعمله لأول مرة في قتال الطائف^(١) . وكذلك سَير الرسول إليهم الدبابات وهي من آلات الحرب ، يدخل المحاربون في جوفها إلى جدار الحصن فينبقونه وهم في داخلها ، يحسبهم سقفها وجوانبها من العدو ، واستعمل الرسول الضُّبور ليتقي بها المسلمون النبل الموجه إليهم من علي وهي بمنزلة السيارات المدرعة اليوم^(٢) .

ويرجع السبب في تفوق العرب على أعدائهم : إلى أسلحتهم التي استعملوها ، وإلى ما امتازوا بها من النشاط ، والخفة ، وسرعة الحركة ، والمثابرة ، والصبر على تحمل الشدائد ، والحماس ، وبذل النفس في نصرة الرين .

إمرة الجيش :

كان الرسول عليه السلام قائد جيوش المسلمين ، ومن بعده أسندت قيادة الجيش إلى الخلفاء الراشدين . ولما تعددت الجيوش المقاتلة في البلدان المختلفة ، اختار الخليفة لقيادتها قواداً عرفوا بالشجاعة والنجدة والإقدام واشتهروا بالذكاء وحسن التدبير ، وإذا اجتمع أكثر من قائد واحد في مكان واحد ، عين الخليفة أحدهم للصلاة بالناس فيصبح هذا القائد بمثابة قائد القواد . ومتى انتهى الفتح ووقف القتال ، أصبحت مهمة هؤلاء القواد مقصورة على النظر في أمر الجند وتدريبهم وتحسين معداتهم وأسلحتهم .

وكان ديوان الجند الذي استحدثه عمر بن الخطاب أكبر مساعد على تحسين نظام الجند وضبطه في الإسلام . وأخذ المسلمون أيام النبي يقفون للقتال صفوفاً كما كانوا يفعلون في الصلاة ، ثم يسرون للملاقاة العدو متضامنين ، ليس لأحدهم منهم

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٢٠٢ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ١٨٢ .

أن يتقدم من الصف أو يتأخر عنه ، عملاً بقول الله تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص)^(١) .

البحرية :

لما فتح العرب بلاد الشام ، شاهدوا سفن الروم فتطلعت نفوسهم إلى مجارة أعدائهم وركوب البحر مثلهم ، وألح معاوية بن سفيان على عمر بن الخطاب أن يأذن له بغزو بلاد الروم بحراً لقربها منه ، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص وإلى مصر يسأله أن يصف البحر ، فكتب إليه عمرو يقول : « يا أمير المؤمنين ! أنى رأيت البحر خلقاً كبيراً ، يركبه خلق صغير ، إن ركن خرق القلوب ، وإن تحرك أزاع العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق وإن نجا برق » . فلما جاء الكتاب إلى عمر ، كتب إلى معاوية يقول « لا ، والذي بعث محمداً بالحق ، لا أحمل فيه مسلماً أبداً » . ومما يدلنا على مبلغ كره العرب لركوب البحر ، أن عمراً بعد أن تم له فتح مصر ، أرسل إلى عمر بن الخطاب ، يستأذنه في اتخاذ الأسكندرية حاضرة لولايته ، فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! إذا جرى النيل ، فكتب إلى عمرو : إني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حين أقدم عليكم قدمت ، وأشار عليه باتخاذ مدينة أخرى غير الأسكندرية .

ويرجع الفضل إلى عثمان بن عفان في إنشاء أول أسطول إسلامي للدولة العربية ، فقد أذن لمعاوية بن أبي سفيان في غزو الروم بحراً ، على ألا يحمل أحداً على ركوب البحر كرها ، بل يجعل الأمر اختيارياً ، ونجح معاوية في غرضه ،

(١) آية ٤ ، سورة الصف .

فدشجع المسلمون وأقدموا على ركوب البحر وتفوقوا على الروم وغيرهم . وكثر عدد السفن وأتقن تسليحها ، وكان لهذه القوة البحرية أكبر الأثر في اتساع رقعة الدولة الإسلامية .

وعنى معاوية بعد أن تولى الخلافة بإنشاء السفن الحربية ، ورتب « الشوانى » و « الصوائف » ، بما يكفل استمرار الحرب بينه وبين الدولة البيزنطية شتاءً وصيفاً . واستمرت البحرية الإسلامية في عظمتها طوال العصر الأموى ، حتى بدأت الدولة الإسلامية في الشرق والغرب في الانحطاط ، وإذ ذاك بدأت القوة البحرية في الضعف .

إسرة الأسطول :

اهتم العرب بإنشاء الأساطيل ، وأصبح وجود بحرية إسلامية لصيانة الموانئ ومنازلة الأعداء أمراً ضرورياً . وبُنيت السفن في معظم الموانئ البحرية السورية والمصرية . وكانت السفن العربية أضخم من البيزنطية ولو أنها كانت في الغالب أقل منها سرعة ، ولقيت التجارة البحرية تشجيعاً كبيراً ، فقد كان بكل مرفأ منارة تدعى « الخشب » . ولم يكن الأسطول مؤلفاً من السفائن التي ابتنتها الحكومة للمهام الحربية فحسب ، وإنما كان لازماً على كل مقاطعة أو ثغر ، تقديم عدد خاص من السفن إذا ما طلب منها ذلك . وكان لكل سفينة حربية قائد (أو مقدم) له القيادة في كل ما يختص بسفينته في البحر ، ومهمته تدريب الجند وتجهيز الحملات . وكان قائد الأسطول يدعى أمير المساء أو أمير البحر^(١) . ويدين العرب للبيزنطيين بفضل تعليمهم الفنون البحرية ، واسكن العرب الذين فطروا على الشجاعة وحب المغامرة ما لبثوا أن أصبحوا أساتذة أوروبا ، حتى أن بعض الاصطلاحات البحرية المستعملة في أوروبا تحتفظ بعريبتها إلى اليوم ، ولا تزال كثير من الاصطلاحات العربية البحرية شائعة على أسنة البحارة في جنوب أوروبا^(٢) .

(١) حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية من ٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٢) Von Kremer : Orient under the Caliphs, P. 356.

٥ - النظام المالى

كان بيت المال عند العرب بعد الإسلام بمثابة وزارة المالية فى وقتنا هذا : ففيه بيان شامل بمصادر الإيرادات المختلفة وبيان آخر بمصروفات الدولة بجميع أنواعها . ولم تكن الإيرادات كلها نقداً ، بل كان بعضها نوعاً (أى من أنواع المحصولات) كالأقمشة والغلال والأسلحة . وكان لبيت المال نصيب فى الفى والغنينة ، وإليه ترد ضريبة الخراج والجزية والعشور والزكاة وما شاكل ذلك . وكان بيت المال يسمى « الديوان السامى » لأنه أصل الدواوين ومرجعها ، وهو عبارة عن عدة بيوت تحفظ فيها أنواع الإيرادات ، يودع كل نوع فى بيت خاص : فكان هناك ديوان الخزانة للقماش ، وديوان خزائن السلاح والذخائر . ومن إيرادات بيت المال ، تصرف أرزاق الجند والقضاة والولاة ، وتشتري الأسلحة والذخائر ، وتنفذ المشروعات العامة المفيدة مثل كرى الأنهار وإصلاح مجاريها وحفر الترعى .

وأهم موارد بيت المال : الخراج ، والجزية ، والعشور ، والزكاة ، والفى ، والغنينة .

موارد بيت المال : (١) الخراج

كلمة « الخراج » فى معناها ثلاث ضرائب : ضريبة الأرض الخراجية ، والجزية ، والعشور . وخراج الأرض عبارة عن الضريبة التى كان يجبها المسلمون على الأرض التى كانوا يستولون عليها عنوة أو صلحا وتبقى فى يد أهلها^(١) .

وكان الخراج : إما شيئاً مقدراً من مال أو غلة كما صنع عمر بن الخطاب

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٣١ .

في أرض السواد بعد فتحها . وقد بلغت ضريبة الفدان المنزرع قبحاً في هذه الأراضي في عهده أربعة عشر درهما ، وإما حصة معينة مما خرج من الأرض وهذا ما يسمى بالمعاملة أو المزارعة ، كما عامل النبي صلى الله عليه وسلم ، أهل خيبر على أساس تقديم نصف ما يخرج من الأرض قليلاً أو كثيراً .

ولم يكن مقدار الخراج معروفاً تماماً في عهد الخلفاء الراشدين ، واختلف مؤرخو العرب في تقديره : فقصره بعضهم على جزية الرؤوس التي كانت على أهل الذمة ، وقصره البعض الآخر على ضريبة الأرض ، وجمع آخرون بين الضريبتين ، وربما أدخلوا في حسابهم كذلك العشور ونحوها . كذلك لم يكن مقدار الخراج ثابتاً ، فقد كانت ضريبة الأرض ، تقل وتكثر حسب التعمير وتحسين وسائل الري ، كما أن جزية الرؤس كانت تتناقص بتوالي دخول أهل الولايات الإسلامية في الإسلام . وكان الخلفاء يعمنون في العادة عمالاً مستقلين عن الولاية والقواد للقيام بحماية الخراج ، فيدفعون منه أرزاق الجند وما تحتاج إليه المرافق العامة من ضروب الإصلاح ، ويرسلون الباقي إلى بيت المال ليصرف فيما يخص له .

وكان عهد الخلفاء الراشدين عهد عدل وتسامح ، لم يشتد فيه الولاية في جمع الضرائب . إلا أن بعض الجبابرة كانوا يسيئون استعمال سلطتهم ويهتقون الناس ، فكان حسن اختيارهم وفرض الرقابة على أعمالهم أمراً ضرورياً .

وكان الخلفاء يشرفون بأنفسهم على جباية الخراج ويحاسبون الولاية وعمال الخراج حساباً عسيراً . ومن عمر بن الخطاب لذلك نظاماً ، يقضى بعمل إحصاء دقيق لثروة الولاية قبل توليتهم ، ثم إلزامهم عند اعتزالهم أعمالهم بدفع نصف الأموال التي جمعوها لأنفسهم في أثناء ولايتهم ، تبين له أن رواتبهم لا تسمح لهم بادخار هذه الأموال كلها . على أن الولاية وعمال الخراج استطاعوا برغم ذلك جمع الثروات الضخمة ، واحتالوا لذلك بوضع الأموال التي كانوا يجمعونها

أمانة عند أصدقائهم أو ذوى قربانهم^(١) . أما الأمويون فقد سنوا نظاماً دقيقاً للإشراف على جباية تلك الأموال : ففي عهد عبد الملك بن مروان كان يعمل تحقيق مع الجباة وموظفي الخراج عند اعتزالهم أعمالهم الإدارية ، وكانوا يعذبون أحياناً حتى يقرروا بأسماء من أودعوا عندهم ودائعهم وأموالهم ، ويردوا إلى بيت المال ما أخذوه من الأموال .

وكانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج ، وهى : نظام المحاسبة ، ونظام المقاسمة ، ونظام الالتزام .

ويقضى نظام المحاسبة : بأن تجبى الضريبة بالنسبة لمساحة الأرض أو مقدار غلتها ، وكانت هذه الضريبة نقداً أو نوعاً ، أو نقداً ونوعاً معاً وهى عبارة عن مقادير معينة من المال والغلة ، تجبى كل عام على أساس مساحة كل قطعة من الأرض ، بحسب نوع غلة الأرض .

أما نظام المقاسمة : فيقضى بتخصيص مقدار من المحصول يؤدي لبيت المال . بمعنى أن يقدر لذلك ثلث المحصول أو رבעه وهكذا ، كما يفعل بعض أصحاب الأراضي الزراعية فى مصر الآن عند تأجير أطيانهم للفلاحين ، حيث يؤجر الفدان نظير استيلاء مالكة على نصف محصوله أو ثلثه . واتباع بعض الخلفاء طريقة المقاسمة . وهذه الطريقة ، وإن كانت أقرب إلى صالح الفريقين ، إلا أنها متعبة مرعبة للحكومات .

أما نظام الالتزام : فهو أن يتمهد شخص من ذوى الفنى والنفوذ ، بدفع مال سنة عن خراج إقليم من الأقاليم أو خراج إحدى المدن أو القرى ، ويقوم هو بجمع الخراج بنفسه من هذه الجهة . وكان السكثيرون يتنافسون فى الحصول على هذا الامتياز ، وقد تحدث مزايده بين المتنافسين ، فيحصل على الالتزام

(١) حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٢٨٧ .

أكثرهم عطاء . وفي هذه الطريقة ضمان كاف في تحصيل الضرائب ، وبطريقة عاجلة . وكان الصحابة في صدر الإسلام يكرهون طريقة الالتزام هذه ، وينهون عن اتباعها . غير أنه بمضى الزمن وتطور الأحوال ، واختلاط العرب بالرومان لجأوا إلى اتباعها بعد أن اقتبسوها منهم ، لأنها كانت شائعة في الدولة الرومانية . وهذا النظام قديم ، يرجع إلى اليونان ، ولم يلبث العرب أن أدخلوا نظام الالتزام في القضاء والحسبة والشرطة .

على أن نظام الإقطاع^(١) لم يخل من العيوب ، إذ أن المقطع أو الملتزم يعمل على الإثراء وجمع الأموال الضخمة ولا يتردد في إرهاب الأهالي وإثقالهم بأنواع الضرائب المختلفة ، ليستطيع أن يؤدي إلى الحكومة ما عليه من مال الخراج ، ويحفظ ما زاد لنفسه ، والأهالي من ذلك مغلوبون على أمرهم ، قلما تصل شكاياتهم إلى السلطة المركزية .

(ب) الجزية

والجزية مبلغ معين من المال ، يوضع على الرؤوس ، ويسقط بالإسلام ، وثبتت الجزية بنص القرآن في قوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)^(٢) . والفرق بين الجزية والخراج : أن الخراج يجبي على الأرض ، ولا يسقط بالإسلام ، وثبت بالاجتهاد . وليست الجزية من مستحدثات الإسلام ، بل هي قديمة ، فرضها الإغريق على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد نظير حمايتهم من

(١) يقال اقتطع طائفة من الشيء أخذها ، وأقطعت ليأها أذن أن يقطعه ليأها . والإقطاعية طائفة من أرض الخراج يقطعها الجند فتجعل لهم غلتها رزقا .

(٢) آية ٢٩ سورة التوبة .

الفينيقيين ، كما وضع الرومان والفرس الجزية على بعض رعايا الدول التي أخضعوها ، وكانت سبعة أمثال الجزية التي وضعتها المسلمون ، والظاهر أن العرب أخذوا هذا النظام عن الفرس .

وكانت الجزية في أيام النبي وأبي بكر غير محدودة ، فكان أمر تقديرها متروكا لهما ، حسب ما يراه كل منهما من ظروف الأحوال ، أو بالتراضى مع أهل الجزية . ولما كثرت الفتوحات الإسلامية في عهد عمر رأى تحديد قيمتها ، وكتب إلى أمراء الجند بما قرره في ذلك ، وساروا على طريقة التحديد ، غير أن القيمة تغيرت ، وقدرت حسب درجات الناس ومقدرتهم ، فجمعت في السنة :

(١) ٤٨ درهما تفرض على الأغنياء .

(٢) ٢٤ درهما تفرض على متوسطى الحال .

(٣) ١٢ درهما تفرض على الفقراء الذين يستطيعون الكسب .

وفي مصر ، فرض عمرو بن العاص دينارين في كل سنة على كل رجل من أهل القذة ، واستثنى من ذلك النساء والصبيان والشيوخ .

وكانت الجزية لا تؤخذ من مسكين يتصدق عليه ، ولا من لا قدرة له على العمل ، ولا من الأعمى أو المقعد أو المجنون وغيرهم من ذوى العاهات ولا من المترهبين في الأديرة إلا إذا كانوا من الأغنياء^(١) ، ولا تجوز إلا على الرجال الأحرار العقلاء ، ولا تجب على امرأة أو صبي ، ولا تقبل الجزية من عبدة الأوثان من العرب ولا من المرتدين فأولئك كانوا يخبرون بين الاسلام والسيف ، والحكمة في ذلك الرغبة في توحيد الأمة العربية .

وقد فرضت الجزية على القميين ، في مقابل فرض الزكاة على المسلمين ،

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٦٩ — ٧٢ .

حتى بتكافؤ الفريقان : لأن الدمييين والمسلمين رعية للدولة واحدة ، وينتفعون بمرافق الدولة بنسبة واحدة . لذلك أوجب الله الجزية للمسلمين ، نظير قيامهم بالدفاع عن الدمييين وحمايتهم في الأقاليم الإسلامية التي يقيمون فيها . وفرضت الجزية على أهل الذمة ، نظير إعفائهم من القتال في جيوش المسلمين ثم حمايتهم من الأعداء والدفاع عنهم وعن أملاكهم ومنحهم حرية العبادة .

(ج) العشور والزكاة :

أما العشور فهي ضريبة تفرض على السفن التي تمر ببعض الثغور وكذلك على التجارة عند مرورها من إقليم إلى إقليم ، وقيمتها عشر حمولة السفن وثمن المتاجر ، وهي تشبه الضرائب الجركية في الوقت الحاضر . وأول من فرض العشور عمر بن الخطاب .

والزكاة^(١) والصدقة شيء واحد ، وهي المال الذي يؤخذ من أغنياء المسلمين ويوزع على فقرائهم ، وكانت تجبي من المسلمين في كل سنة ، ولها في مركز الخلافة ديوان خاص ، وله فروع في الجهات المختلفة . وقد خص الله سبحانه وتعالى بعض الناس بالأموال دون بعض نعمة منه عليهم ، وجعل شكر ذلك منهم إخراج سهم يؤدونه إلى من لا مال له ، نياية عنه سبحانه فيما ضمنه بقوله : (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها)^(٢) . وقد سميت الزكاة بهذا الاسم ، لأن إخراج شيء من مال الإنسان والتصدق به كفيل بتنمية هذا المال وإنزال البركة فيه ، ولأن إخراج شيء من المال يطهره ، ويبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد من الفقراء ، ويذهب عن نفس صاحبه الشح والأثرة ، قال تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)^(٣) . وكانت أموال الزكاة توزع على ثمانية

(١) من أزكى الشيء ، يزكيه إذا ناعه ، أو من زكاه تزكية إذا طهره .

(٢) آية ٦ سورة هود .

(٣) آية ١٠٣ سورة التوبة .

أصناف من الناس وهم الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ^(١) ، والعاملين عليها ^(٢) ، والمؤلفة قلوبهم ^(٣) ، وفي الرقاب ^(٤) ، والغارمين ^(٥) ، وفي سبيل الله ^(٦) ، وابن السبيل ^(٧) فريضة من الله والله عليم حكيم) ^(٨) .

ويلاحظ أن ما خص الفقراء والمساكين من صدقة مدينة ما ، وجب توزيعه على أهل هذه المدينة نفسها ، ولا يجوز توزيعه على أهل مدينة أخرى ، وللخليفة أن يتصرف في الباقي كما يرى ، ولكن في حدود الوجوه التي أوضحها .

(٥) الفئ ، والغنيمة :

والفئ ^(٩) هو كل مال وصل من المشركين للمسلمين عنوة من غير قتال ، ولا بإيجاف ^(١٠) خيل ولا ركاب ^(١١) ، فهو كال الهدنة والجزية والخراج . وخمس الفئ يقسم على خمسة أسهم : سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق منه على نفسه

(١) اختلف علماء اللغة وأصل الفقه في الفرق بين الفقير والمساكين ، وفي حد الفقر الذي تجوز معه الأخذ من الصدقة .

(٢) العاملون عليها : هم السعاة والجباء الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة .

(٣) المؤلفة قلوبهم : هم قوم كانوا في صدر الإسلام ممن يظهرون الإسلام ، ويتألفون بدفع سهم من الصدقة لإلهم لضف يقينهم ، وقد انقطع هذا الصنف بعد توطيد دعائم الإسلام .

(٤) الرقاب : الرقية تعتق وولائها للمسلمين .

(٥) الغارمون : هم الذين ركبهم الدين ، وليس عندهم ما يوفونه به .

(٦) المراد بقوله تعالى : (في سبيل الله) الغزاة موضع الرباط ، يطون ما ينفقون في غزوه سواء كانوا فقراء أم أغنياء .

(٧) المراد بقوله تعالى (ابن السبيل) : الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ومستقره وماله ، فإنه يعطى من الصدقة وإن كان غنيا في بلده .

(٨) آية ٦٠ سورة التوبة .

(٩) الفئ : من فاء بفتح ، إذا جمع .

(١٠) الإيجاف : سرعه السير .

(١١) والركاب : الإبل التي يسافر عليها ، لا واحد لها من لفظها أى في تحصيله خيلا ولا إبلا ، بل حصل بلا قتال .

وأزواجه ويصرفه في مصالحه ومصالح المسلمين ، وقد سقط بموته صلى الله عليه وسلم .
أما أربعة أخماس الخمس : فسهم لذوى القربى ، والمراد بهم قريى الرسول ،
واختلف فيهم فقيل : إنهم قريش كلها ، وقيل بنو هاشم خاصة . وسهم لليتامى ،
وسهم للمساكين . وسهم لابن السبيل عملاً بقوله تعالى : (ما أفاء الله على رسوله
من أهل القري ، فله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)^(١)
وبقوله صلى الله عليه وسلم : « مالى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس ، والخمس مردود
عليكم » . وكانت أربعة أخماس النية الباقية تقسم في صدر الإسلام بين الجند
في الأعمال الحربية لشراء الأسلحة وغيرها من معدات الحرب حتى دون عمر
الدواوين وقدر أرزاق الجند .

وإذا جمعت « الغنائم »^(٢) لم تقسم حتى تنجلي الحرب ، ليعلم بانجلائها تحقق
الظفر واستقرار الملك ، ولئلا يتشاغل المقاتلة بها فيهزموا ، كما حصل لأصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد . فإذا انجلى الحرب كان تعجيل
قسمتها في دار الحرب ، وجواز تأخيرها إلى دار الإسلام بحسب ما يراه أمير
الجيوش من الإصلاح^(٣) . ويبدأ الإمام بإخراج الخمس من جميع الغنيمة ،
فيقسمه بين أهل الخمس على خمسة أسهم وهم من ذكروا في قوله تعالى : (واعلموا
أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذوى القربى واليتامى والمساكين
وابن السبيل)^(٤) ثم أربعة الأخماس ملك للقائمين ، غير أن الإمام إن رأى أن
يمن الأسرى بالإطلاق فعل ، وبطلت حقوق القائمين فيهم ، وللإمام أن يقتل
جميع الأسرى ، وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم كسهم القائمين ،
حضر أو غاب ، وسهم الصفي يصطفي سيفاً أو خادماً أو دابة^(٥) .

(١) آية ٦ سورة الحشر .

(٢) الغنيمة في اللغة : ما يناله الرجل والجماعة بسعى .

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ج ٤ ص ٣٤ ، وما بعدها .

(٤) آية ٤١ سورة الأنفال .

(٥) حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظام الإسلامية ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

نظام الضرائب في عهد الأمويين :

كان عهد الخلفاء الراشدين والأمويين عهد عدل وتسامح ، لم يشهد الولاة فيه في جمع الجزية إلا قليلا . على أن الضرائب قد زادت في عهد بني أمية عما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين ، إذ لم يتبع الخلفاء الأمويون القواعد التي قررها أسلافهم ، بل تجاوزوا حدود الضرائب التي فرضوها . وقد كتب معاوية إلى وردان عامله على مصر : أن زد على كل امرئ من القبط قيراطا ، فكتب إليه وردان : كيف أزيد عليهم وفي عهدهم ألا يزداد عليهم ؟ وفي عهد عبد الملك عمل إحصاء جديد للسكان عامة وكلف كل شخص يسد ما فرض عليه الضريبة ، وزادت جزية كل شخص ثلاثة دنانير عما كانت عليه من قبل^(١) ، وفي العراق زادت الضرائب الاستثنائية ، مع ما كان يثقل الأهالي من الضرائب المقررة . وكان يعمل تحقيق دقيق مع الجباة عند اعتزالهم أعمالهم الإدارية ، وكانوا يرغبون على رد ما سلبوه من الأموال^(٢) . وذلك لأنه لم يكن الرؤساء وحدهم هم الذين يثرون على حساب بيت المال ، بل كانت هناك طائفة من صفار الموظفين لا هم لها إلا الإنزاع من أموال الدولة ، ولم تسكن إمرة إحدى الولايات إذ ذاك سوى وسيلة للحصول على الثروة وجمع المال . وكان من أثر تلك الصعوبات التي اعترضت الحكومة في سبيل استرداد تلك الأموال . أن فكر عبيد الله بن زياد وإلى العراق ، في أن يستبدل بأولئك العمال من العرب غيرهم من الفرس ، ومن ذلك الحين كان يعهد إلى الدهاقين^(٣) بمجباة الخراج ، لأنهم كانوا « أبصر بالجباية ، وأوفى بالأمانة » .

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٤٣ .

(٢) فان فلوتن : السيادة العربية ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن ص ٢٧ — ٣٣ .

(٣) هم كبار ملاك الأرض .

ولم يطعم الخلفاء في كثرة المال إلا في أواخر بني أمية ، فإنه في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ) اشتط أسامة بن زيد صاحب الخراج في جمع المال حتى جبي إثني عشر ألف دينار^(١) . فلما تولى عمر بن عبد العزيز ، بعث إليه واليه في مصر أيوب بن شرحبيل الأصبغي^(٢) يشكو كثرة دخول الناس في الإسلام ، ويذكر له أثر ذلك في الخراج ، فبعث يستأذنه في فرض الجزية على من أسلم ، فرد عليه عمر بكلمته الخالدة : قَبِّحَ اللَّهُ رَأْيَكَ ! إِنْ اللَّهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا هَادِيًا وَلَمْ يَبْعَثْه جَائِيًا ، فَضَعُجُ الجزية عَنِ اسْمٍ ، وَلَعُمْرَى لَعُمْرَى أَشَقَى مِنْ أَنْ يَدْخُلَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى يَدَيْهِ . وقد أمر عمر بن عبد العزيز بجباة الخراج ألا يأخذوا من الأهالي من الدراهم ما زاد وزنه على أربعة عشر قيراطا ، وهو ما أمر به عمر بن الخطاب . ورأى أن العمال كانوا يأخذون دراهم أنقل وزنا من تلك الدراهم التي فرضها عمر بن الخطاب ، مما كان يزيد مقدار الضرائب التي كان يدفعها الأهالي ، وكانوا يدفعون : عدا الضرائب المقررة ، نفقات سك النقود وضربها ، ونفقات العقود الرسمية ، ومرتببات عمال الإدارة .

مصارف بيت المال :

كان المال الذي يأتي من الموارد المتقدمة ، ينفق على مصالح الدولة على النحو الآتي :

١ — دفع أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين . ولا يصرف للولاة والقضاة شيء من أموال الصدقة ، وكانت زيادة رزق الوالي أو القاضي من حق الخليفة .

٢ — دفع أعطيات الجند ، وهي رواتبهم التي يستولون عليها في أوقات معينة من العام . وكانت في أيام الرسول عليه السلام غير محدودة ولا معينة ، وإنما كانوا يأخذون من أربعة أخماس الغنيمة ، وما يرد من خراج

(١) المقرئى : المخطوط ج ١ ص ٩٩ .

(٢) قيل إنه حيان بن شريح : خطط المقرئى .

الأرض التي بقيت في أيدي أهلها كما كانت تقسم بينهم بالسوية . ولما ولي أبو بكر سوى بينهم في العطاء قائلا : هذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة . ولكن عمر بن الخطاب جعل العطاء بحسب السبق إلى الاسلام ، فكان : لأزواج الرسول ولعمه العباس ١٠٠٠٠ درهم إلا عائشة فقد أعطاها ١٢٠٠٠ لمكانتها ومكانة أبيها من الرسول ^(١) ، ولبن شهاب بدر والحسن والحسين ٥٠٠ درهم ، ولبن كان إسلامه كإسلام أهل بدر لم يشهدوها ٤٠٠٠ درهم ، ولعبد الله بن عمر ولبعض أبناء المهاجرين والأنصار ٣٠٠٠ درهم ، ولأبناء المهاجرين والأنصار ٢٠٠٠ درهم ، ولأهل مكة ٨٠٠ درهم ، ولسائر الناس مبالغ تتراوح بين ٤٠٠ و ٣٠٠ درهم ، ولنساء المهاجرين والأنصار مبالغ تتراوح بين ٢٠٠ ر ٣٠٠ ر ٤٠٠ ر ٦٠٠ درهم ، ولأمراء الجيوش ٧٠٠٠ ر ٨٠٠٠ ر ٩٠٠٠ درهم بحسب الأعمال التي يقومون بها ، فضلا عما كان يدفع لنسائهم وأولادهم وما فرض لكل منهم من الخنطة وهو ما يخرج عن مساحة جريبين ^(٢) . وظلت أعطيات الجند على هذا النحو أيام الخلفاء الراشدين ، ولكن في عهد الأمويين زاد معاوية أعطيات جنده ، وذلك رغبة منه في استرضاء العرب في بدء قيام دولته ، ولكن بعد أن توطدت دعائم الدولة الأموية أنقص خلفاؤها المبلغ الذي كان يصرف على تلك الأعطيات إلى أقل من النصف .

٣ — حفر الترغ وكرى الأنهار وإصلاح مجاريها وخاصة المجارى التي كانت تأخذ من الأنهار الضخمة كدجلة والفرات لتوصيل الماء إلى الأراضي البعيدة ، وكذلك الاتفاق على المعدات الحربية وعلى ما يلزم المسجونين وأمرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ، وغير ذلك مما يستلزمه بذل العطايا والمنح للأبدان والعلماء ^(٣) .

(١) بدر الدين بن جماعة : تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام . المجلد ٧ ص ٣٨٤ ،

من مجلة Islamica ، سنة ١٩٣٤

(٢) الحرب من الأرض والطعام : مقدار معلوم ، وقيل إنه ثلاثة آلاف وسبعمائة ذراع ، وقيل إنه عشرة آلاف ذراع .

(٣) للماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٩٤ — ١٩٦ .

(٣٥ م — التاريخ الإسلامى العام)

الحياة الاجتماعية

طبقات الشعب :

كان ظهور الإسلام في الجزيرة العربية وانتشاره منها إلى أمم الأرض المختلفة ، أعظم انقلاب شاهده القرن الأول الهجري ، وكان من نتائجه انقلاب اجتماعي آخر لا يقل عنه خطورة ، ونعني به المساواة التامة بين معتنقي الدين الجديد .

كانت المساواة بين الناس ، مبدأ من أهم مبادئ الحكومة الإسلامية الأولى التي أنشأها النبي عليه السلام ، يوم دخوله المدينة المنورة واستقر بها زعيماً للأوس والخزرج ومن هاجر إليهم من قريش . وكانت الحكومة عربية خالصة في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ، ونظر الأمويون إلى غير العرب من أهالي الأقطار المفتوحة نظرة السيد للمسود برغم اعتناقهم الإسلام ، وهؤلاء اصطلاح على إطلاق كلمة موالى عليهم ، أما الذين رفضوا اعتناق الدين من الفصاري واليهود فهم أهل الذمة وكانت لهم الحرية التامة في إقامة شعائر دينهم بشرط أن يدفعوا الجزية للمسلمين .

وقد حرم على « المولى » بعض الحقوق والامتيازات التي تتمتع بها إخوانهم العرب مما أثار روح القومية في نفوسهم ، فثاروا على الحكم الأموي ، وانهزوا الفرص كلما لاحت لهم للقضاء على الدولة الأموية^(١) : فانضموا إلى عبد الله بن الزبير الخارج على الدولة وأيدوه في مطالبته بالخلافة ، واشتركوا في ثورة المختار

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٤٠٨ .

التي يراها البعض أول حركة قوية استغلها الموالى لسكى ينتقموا لأنفسهم ويحققوا
مآربهم بإرجاع السيادة القومية لهم وتحطيم السيادة العربية^(١) . كذلك اشترك
الموالى في ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج والدولة الأموية ، وكانت هذه الثورة
ذات أثر كبير في إضعاف الحكومة القائمة ، وهى وإن فشلت فى النهاية فى القضاء
على ابن الأشعث ، إلا أنها أيقظت الآمال فى نفوس الأحزاب المعارضة ،
فاستسلموا للهدوء حيناً من الدهر ريثما تحين لهم الفرصة المناسبة^(٢) .

هذا إلى أن العنصر العربى نفسه لم يكن متحد الكلمة بسبب اشتغال
العصبية القبلية التى حاول الإسلام القضاء عليها ، وكان تغاقم روح العصبية
فى خراسان خاصة من أهم العوامل التى ساعدت على نجاح الدعوة العباسية على
أيدى الموالى الذين سخطوا على الحكم العربى ، كما ساعد اشتغال العصبية
فى الأندلس على قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن الداخل الأموى فى هذه
البلاد^(٣) .

ولم يختلف الحال مع أهل هذه البلاد التى فتحها العرب ، كالشام ومصر
والعراق ، فمنهم من أسلم عقب الفتح الإسلامى . وهؤلاء أصبحوا يتمتعون بما
يتمتع به المسلمون . أما أهل الذمة فقد فرضت عليهم الجزية كفاء حمايتهم
وتأمينهم على نفوسهم وأولادهم وأموالهم ، على أن ترفع عنهم الجزية متى أسلموا .
وقد أحسن العرب معاملة أهل الذمة فى الشام ومصر وبلاد الأندلس ، فسمحوا
لهم بمزاولة التجارة وشتى الحرف التى يجيدونها .

(١) النجار : الموالى فى العصر الأموى ص ١٠٧ .

(٢) النجار : نفس المصدر ص ١١١ — ١١٢ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السامى ج ١ ص ٤٠٨ .

المرأة :

١ ميزوغ شمس الإسلام ، أخذت المرأة العربية تنعم بمطلع عهد سعيد . ذلك أن الإسلام حبا المرأة بالكثير من التقدير ، وأعلى من مركزها ، ورفعها إلى المكانة السامية الجديرة بها في المجتمع ، كذلك أحاط المرأة بسياس من الحماية ، وكفل لها حياة راضية مرضية .

وقد حرصت المرأة العربية على بساطتها البدوية ، وعلى الحرية التي درجت عليها أيام الجاهلية ، برغم انتشار اللهو والترف في عهد الأمويين ، لذلك لا نعجب إذا افتخر الآباء بأسماء بناتهم ، فكان الرجل لا يتحرج عن أن يكنى بابنته ، فينادى بأبي ليلى وأبي بئينة ، وكانت نساء العرب يستقبلن الرجال ويتحدثن إليهم كما كن يعرفن قيمة أنفسهن ، فكان المجتمع يقدرهن أحسن تقدير .

ومن اشتهر من نساء ذلك العهد ، عائشة أم المؤمنين التي ضربت بسهم وافر في الفقه والحديث ، حتى كان الأئمة يقولون عنها : حدثني الصديقة بنت الصديق البريئة^(١) ، والسيدة سكينة بنت الحسين وهي من أبرز نساء العرب اللاتي حزن قصب السبق في العلم والمعرفة في ميدان الأدب والشعر^(٢) ، وهاتكة بنت يزيد ، وقاطمة بنت عبد الملك ، وعائشة بنت طلحة ، وزينب بنت موسى الجمحية ، وأم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك التي اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة .

ومما رواه المؤرخون عن شهرات ذلك العصر ، وبخاصة أحاديثهن في مجالسهن ومواقبهن إذا سرن إلى حج وصدائهن إذا تزوجن وحديثهن في الزواج ممن يشأن ، نلمس علو مكانة المرأة العربية في هذا العصر من عصور الإسلام .

خطب عمر بن الخطاب ، أم كلثوم أخت عائشة أم المؤمنين وكانت صغيرة ،

(١) على إبراهيم حسن : نساء لعن في التاريخ الإسلامي نصيب من ٣٤ .

(٢) على إبراهيم حسن : نفس المصدر من ٦٦ .

فأرسل إلى عائشة في ذلك ، فلما ذكرت ذلك عائشة لأُم كلثوم قالت لها :
لا حاجة لي فيه ، فقالت عائشة : أرغبين عن أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم إنه خشن
العيش شديد على النساء^(١) . وكانت عائشة بنت طلحة لا تستر وجهها من أحد ،
فمات بها زوجها مصعب بن الزبير في ذلك ، فقالت : إن الله تبارك وتعالى وسمي
بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلي عليهم فما كنت لأستره ، والله
ما في وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد^(٢) .

أما عن صداق النساء الكريمات في ذلك العهد ، فحدث عنه ولا حرج ،
فقد روى الرواة أن مصعباً بن الزبير لما تزوج عائشة بنت طلحة بعد وفاة زوجها
الأول ، أمهرها خمسمائة ألف درهم وأهدى لها مثل ذلك^(٣) . ولما تزوج مصعب
من سكينه بنت الحسين أمهرها ألف ألف درهم ، فقال أحد الشعراء :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة من ناصح لك لا يريد خداعاً
مهر الفتاة بألف ألف كامل وتبيت سادات الجنود جميعاً
لو لأبي حفص أقول مقاتلي وأبث ما أبثتكم لارتاعاً

فلما سمع عبد الله بن الزبير ذلك ، قال : صدق والله ، لو تقال هذه المقالة
لأبي حفص ، لارتاع من تزويج امرأة على ألف ألف ، ثم عزله عن البصرة^(٤) .
ولم تغفل المرأة العربية في ذلك العصر نصيبها من الدنيا ، فنراها تبتكر وتتفنن
في ملابسها وزينها وحليها ، مما صار في كثير من الأحوال نماذج تحتذى وأمثلة
يقفدى بها وطابعا ذائع الانتشار^(٥) . وما يشير أيضاً إلى مكانة المرأة ، أنها

(١) ابن عبد ربه . العقد الفريد ج ٣ ص ٣٧٥ .

(٢) الأصفهاني : الأغاني ج ١ ص ٥٤ .

(٣) الأصفهاني : نفس المصدر ج ١٠ ص ٦٥ .

(٤) الأصفهاني : نفس المصدر ج ١٤ ص ١٦٨ — ١٧١ .

(٥) راجع ما كتبناه عن ملابس المرأة في العصر الأموي ، في كتابنا « نساء لمن »

في التاريخ الإسلامي نصيب ٢ ص ١٢٨ — ١٣٠ .

لم تكن تفكر التشبيب بها ، ولا تتأثر أو تنفض إذا ذكرها الشعراء ، بل كان من النساء الشريقات كأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك ، من كن يرغبن في أن يذكرن في شعر الشعراء . وفي حديث عبد الله بن الزبير مع أمه أسماء بنت أبي بكر واستشارته لها ونصيحتها له حين سار الحجاج إلى مكة وحاصرها وضرب الكعبة بالجنانق ، ما يدل على بسالة نساء العرب وشهامتهن في ذلك العصر .

الفناء والموسيقى :

كانت العرب في جاهليتها تعرف الفناء ، ولم يكن هذا الفناء — على ما يظهر واسع الانتشار في أنحاء الجزيرة العربية ، بل اقتصرت حفلاته على بعض المدن ، كالمدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة . ولما دان العرب بالإسلام واحتلت جيوشهم بلاد فارس والروم وشمالي إفريقية ، ناشرين دينهم الجديد ، اتصل العرب الفاتحون بسكان هذه الأقاليم ، فتعلموا منهم الفناء الجزأ المؤلف بالفارسية والرومية ، وغنوا بالعيدان والطناير والمعازف والمزامير^(١) .

وكان أول من غنى في الإسلام الفناء الرقيق ، طويس ، وهذا علم ابن سريج والدلال ونومة الضحى^(٢) . واختلف الفناء في العهد الأموي عما ألفه العرب أيام جاهليتهم ، إذ أصبح فناً منظماً له رجاله وأصحابه ومعلموه ، وملك هذا الفن الجديد على شباب العرب قلوبهم وعقولهم ، فاتخذوا له أندية خاصة ، يذهب إليها مغنون أخصاء يطربون الحضور من الرجال والنساء .

ولقد ازدهر الفناء في العهد الأموي ازدهاراً عظيماً ، حتى حفلت كتب الأدب والتاريخ بذكر أخبار المغنين كابن سريج وحنين الحيري ، ومن المغنيات جميلة وعزة الميلاء وقد اتخذت كلتاها المدينة مقاما لإقامة حفلاتهما الغنائية ،

(١) ابن رشيق : العمدة ج ٢ ص ٢٤١ .

(٢) ابن عبد ربه : المعقد الفريد ج ٣ ص ٢٤١ .

وصارت حباية ورفيقتها سلامة أشهر المغنيات في العصر الأموي قاطبة وكان لها شأن كبير عند الخليفة يزيد بن عبد الملك .

وأصبح الحجاز إبان العصر الأموي هو موطن الغناء ، ومنه انتشر إلى الشام والعراق ، ويرجع السبب في ازدهار الغناء إلى إقبال خلفاء بني أمية عليه ، واستحضرهم المغنين من الحجاز لإقامة حفلات الغناء في دمشق . وقد أثر هذا الغناء في نفوس فتيان العرب من أهل هذا العصر ، فرقى من طباعهم ولطف من مزاجهم ، ودفع بعضهم إلى اللهو والبعث ، كما شارك الخلفاء الأمويون المتأخرون عامة الناس في هذا الضرب من اللهو ، حتى لقد ذهب الجاحظ إلى القول بأن بعض خلفاء بني أمية « لم يكونوا يتحاشون أن يرقصوا ، ويتجردوا »^(١) .

الطعام :

كانت العرب لا تعرف كثرة الألوان في أطعمتهم ، إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح^(٢) ، ولما يعرف البدوي رفاة العيش والنعيم من الطعام ، والإبل عندهم أفضل الذبائح ، ولأهل البدو اللبأ والسلاء والجراد والكأمة ، والخبز في الرائب والتمر بالزبد ، والخلاصة ، والحيس ، والوطيئة^(٣) .

وكان العرب يراعون قواعد الصحة ، فلا يدخلون الطعام على الطعام ، ولا يسرفون في الأكل ، كما كانوا يفسلون أيديهم قبل الطعام وبعده . ولما خالط العرب الأمم الأخرى عقب الفتوح الإسلامية ، تغيرت أطعمتهم وتعددت ألوانها ، واستحدثوا فيها طرقا غير طرق الأولى^(٤) ، فصاروا يأكلون الأوز والدجاج والفالودج والخشاف واللوزنيج في العهد الأموي ، كما حليت موائد الخلفاء الأمويين بأطياب الطعام والشراب .

(١) الجاحظ : التاج ص ٣٣ .

(٢) الأشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ج ١ ص ١٦٢ .

(٣) محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ١ ص ١٢٨ .

(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٤١٧ .

وروى أن مائد سليمان بن عبد الملك كانت غنية بألوان الطعام ، فنزل عليه مرة أعرابي ، فلما أتى بالقالودج جعل يسرع فيه ، فقال سليمان : أتدرى ما تأكل يا أعرابي ؟ فقال : بلى يا أمير المؤمنين ! إني لأجد ريقا هنيا ومزردا ليئا ، وأظنه الصراط المستقيم الذى ذكره الله فى كتابه^(١) . وقد اشتهر سليمان بن عبد الملك ، بحبه للطعام وتفنته فى اختيار ألوانه حتى قيل إن الطاهى كان إذا أتاه بشواء ، لا يصبر حتى يبرد فيتلقاه بأكله^(٢) .

أنواع النسلية :

تعددت ضروب القهوه عند العرب فى الجاهلية ، وظل بعضها يمارس بعد الإسلام كالصيد وسباق الخيل . أما الصيد فقد ولع به بعض شباب الأشراف فى العصر الأموى ، وشاركهم فيه بعض خلفاء بنى أمية ، كيزيد بن معاوية الذى كان من أشد الأمويين كلفا بكلابها ، فكان يقيم على كل كلب من كلاب صيده عبداً يتعهدده ويقوم على خدمته ، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه^(٣) . وكان الصيد من أحب ألعاب الشباب .

أما السباق ، فكان من الألعاب التى ألفها العرب فى الجاهلية وازداد به بعد الإسلام ، حتى قيل إن هشاما بن عبد الملك أقام حلبه سباق اجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس . وظهرت هواية جمع الخيل فى العصر الأموى ، وبخاصة بين الخلفاء وأشراف ذلك العهد ، وقد بلغ التنافس أشده بين كبار الأشراف على اقتناء الخيول الجيدة ، ويشهد على ذلك اهتمامهم الزائد وكلفهم الشديد بتربية الخيل والعناية بها .

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ١٢٧ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ١٠٩ — ١١٠ ، طبعة الأستاذ على الجارم .

(٣) ابن طباطبا : نفس المصدر ص ٥٤ .

ثالثا - في العصر العباسي

١ - النظام السياسي

تأثر نظام الخلافة بانتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين . فمن الوجهة النظرية ، أصبح العباسيون يعتقدون أن الخلافة حق شرعي لهم ، ورثوه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا من العوامل التي ساعدت على إطالة عمر دولتهم ، فظلت في الحكم أكثر من خمسمائة سنة . وقد خطب أبو العباس السفاح ، بعد أن أخذت له البيعة في مسجد الخلافة ، خطبة أشار فيها إلى أن الخلافة حق شرعي لأسرته ، كما نوه بفضل آل سيدنا محمد ، وحمل على الأمويين لاغتصابهم الخلافة منهم .

أما من الناحية العملية ، فقد تطور نظام الخلافة بقيام الدولة العباسية ، لأن تلك الدولة قامت على اكتاف الفرس الذين سخطوا على الأمويين لعدم مساواتهم بالعرب في الحقوق السياسية والاجتماعية ، مع منافاة ذلك لمبدأ المساواة الذي أقره الإسلام .

وكان من أثر ميل الخلفاء العباسيين للفرس ، أن أصبح نظام الخلافة مماثلا لما كان عليه في بلاد الفرس أيام آل ساسان . وكما اتخذ أكاسرة الفرس الوزراء والسيافين واحتجبوا عن رعيتهم مبالغة منهم في العظمة والجبروت ، كذلك صار الشأن في الدولة العباسية ، فأصبح الخليفة لا يخاطب الناس إلا من وراء حجاب ، واتخذ وزيرا وسيافا ، وأحاط شخصه بالقداسة والرهبة ، وعاش مديشة الأكاسرة ، وظهرت الأزياء الفارسية ، واحتفل بالأعياد الفارسية القديمة .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل اعتقد الخلفاء العباسيون أنهم يحكمون

بتفويض من الله لا من الشعب ، لأن الخلافة العباسية أوجدها الفرس الذين يقولون بنظرية المليك المقدس ، بمعنى أن كل رجل لا ينتسب إلى البيت المالك ويتولى الملك يعتبر مقتصباً لحق غيره . وتتجلى هذه الظاهرة من العبارة التي قالها أبو جعفر المنصور : « إنما أنا سلطان الله في أرضه » . وهذا يخالف ما كانت عليه الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين الذين استمدوا سلطانهم من الشعب ، ولا أدل على ذلك من قول أبي بكر عقب توليته الخلافة : « أيها الناس ! إني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ... » ، وقول عمر بن عبد العزيز : « لست بخير من أحدكم ، ولكني أنقاسكم حملاً » . ولذا ظل الخليفة في العصر العباسي مصدر كل قوة ومرجع جميع الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة .

كذلك كان الخلفاء العباسيون يرتدون بردة النبي ، عند توليتهم الخلافة وفي الحفلات الدينية ، على اعتبار أنهم ينوبون عنه في حكم المسلمين .

وتلقب الخلفاء العباسيون بلقب « إمام » توكيداً للمعنى الديني في خلافة العباسيين ، أي أنهم أصبحوا أئمة الناس ، بعد أن كان ذلك اللقب لا يطلق في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين إلا على من يؤم الناس في الصلاة ، بينما كان الشيعة يطلقونه على أفراد البيت الملوئ الذين يعتقدون بأحقيتهم في الخلافة .

واستبد الخلفاء العباسيون بالسلطة : ففسدوا على أرواح الرعية ، وتبعوا أعداءهم من الأمويين والعلويين في قسوة وغلظة ولم يلبثوا أن غدروا بهم بعد أن آمنوهم . على أنه مما يخفف من حدة أعمال العنف التي ارتكبوها أنها كانت محصورة في دائرة الملك ، وفيما عدا ذلك كانوا أحسن الناس حكماً ، فأدخلوا كثيراً من الإصلاحات في دولتهم ، كما بذلوا كثيراً من الجهد للعمل على ترقية شعوبهم .

أما في العصر العباسي الثاني ، فقد أصبحت الخلافة العباسية منفصلة ، وأصبح الخلفاء مسلوبي السلطة لازدياد نفوذ الأتراك في الدولة واستحواذ سلاطين بني بويه أولا وسلاطين السلاجقة من بعدهم على بغداد . يقول الفخري : « إن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة في أيديهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه وإن شاءوا قتلوه » . أما بنو بويه فلم يقنعوا بأخذ السلطة من الخلفاء العباسيين فحسب ، بل شاركوا الخلافة في امتيازاتها الأخيرة : في الخطبة والسكة .

على أن ضعف الخلافة العباسية في عهد بني بويه ، لا يرجع إلى ضعف الخلفاء أنفسهم فحسب ، بل يرجع كذلك إلى تلقيهم سلاطين بني بويه بتلك الألقاب الضخمة التي رفعت شأنهم وقلت من هيبة الخلفاء . مثل : تاج الله وضياء الملك وغيث الأمة وغيرها ، وتلقب محمود الغزنوي بألقاب السلطان ويمين الدولة ويمين الملة ، وتلقب السلطان المعظم مالك الأمم ، وعدل عنه ولقب نفسه مالك الدولة^(١) .

وظل الخلفاء العباسيون في العصر العباسي يلقبون بلقب أمير المؤمنين ، وكان الخليفة في نظر الناس إذ ذاك « ظل الله الممدود بينه وبين خلقه » . وعلى الرغم من ضعف الخلافة ، فقد استمر الخلفاء يولون العهد أبناءهم ، وكانوا يهتمون بأن يتم تولية أبنائهم المهود في احتفال رائع .

ويتضح لنا مدى ما وصلت إليه الخلافة العباسية من ضعف ووهن ، من أن بني بويه كانوا يودون تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين ، ولولا خوفهم من ضياع نفوذهم لما تورعوا عن ذلك . كما أن الخليفة المطيع عبر

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٤٢٨ .

عن شعوره بما وصلت إليه الخلافة من ضعف وعما يحيش في نفسه من ألم ، بهذه العبارة التي خاطب بها بنو بويه : ليس لي منها إلا القوت القاصر عن كفاي ... وأنما لكم مني هذا الاسم الذي يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم ، فإن أحببتم أن أعزل عن هذا المقدار أيضاً تركتكم والأمر كله ^(١) .

ووصف البيروني موقف الخلفاء العباسيين من بني بويه في هذه العبارة : وإن الدولة والملك قد انتقل في آخر أيام المتقي وأول أيام المستكفي من آل العباس إلى آل بويه ، والذي بقي في أيدي أولاد العباسية إنما هو أمر ديني اعتقادي لا ملك دنيوي ^(٢) .

٢ - النظام الإداري

الإمارة على البلدان :

لم يكن ولاية العباسيين ، على الأمصار التابعة للدولة ، من الشخصيات البارزة بعكس ولاية الأمويين كزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف ، واقتصرت عمل الوالي على الصلاة وقيادة الجند ، بمد أن اشتد نفوذ صاحب المال وصاحب البريد والقاضي .

وقد وضع المنصور النظام السياسي الذي سارت عليه الدولة العباسية ، وهو على النحو الذي كان يحكم به آل ساسان قبلهم . وظل نظام الحكم في الدولة العباسية استبدادياً منذ قيام الدولة إلى عهد الرشيد ، فقد كان الخليفة هو مصدر كل قوة ومرجع كل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة . وأصبح الوزير مساعد الخليفة الأمين ، ولكن ظهر بتوالي الأيام مدى إرهاب الوزير بهذا المنصب الخطير ،

(١) مسكوية : تجارب الأمم ج ١ ص ٣٠٨ - ٣٠٨ .

(٢) البيروني : الآثار الباقية عن القرون الخالية ص ١٣١ .

بما أدى إلى تعيين موظفين يعاونونه في الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها .

وكان الخليفة يختار بنفسه ولاية الأقاليم ، ولكن سلطاتهم كانت ضئيلة ، فلم يكن يترك العامل في ولايته إلى زمن طويل ، وإذا ما عزل عن منصبه طلب إليه أن يقدم بياناً مفصلاً عن شئون ولايته ، وكان أقل شك في بيانه كافيًا لمصادرة أملاكه جميعًا . ولم تكن سلطة الوالي في عهد المنصور أكثر من سلطة صورية ، ومع ذلك فقد اكتسب بعض الولاة امتيازات خاصة ، حيث كانوا يقطعون هذه الولايات نظير اعترافهم بالسيادة للخليفة وتقديم بعض المساعدات المادية ^(١) . يقول الأستاذ كرد علي « لم يبتدع المعتصم ولا ابنه الواثق شيئاً جديداً في الإدارة . لم يعرفه المأمون والرشيد ، بل عاشا وعاشت الخلافة العباسية بعد ذلك بالأساس الذي وضعه المنصور . ولم يكن لها بعد منتصف القرن الثالث الهجري تلك الروعة التي كانت لها في عهد الخلفاء الأول ، وقل بعد المأمون ، الخلفاء الفادرون بذكائهم وتجاربهم ، فأصبحت الخلافة بعد عظمائها بفتور وأعمالهم بقلة الرواء والاتساق ، ومن أهم الدواعي إلى هذا الانحطاط فساد الإدارة واختلال أحوال القضاء ، فنشأ عن ذلك شرهة نفوس العمال والوزراء وإضاعة الحقوق » ^(٢) .

وكان على رأس كل مصلحة في الولايات الكبيرة ، عامل مهمته موافاة الخليفة بجميع الشئون الهامة ، بل والإشراف على أعمال الوالي ، كما كان مندوباً أولته الحكومة المركزية ثقتها . وعلى الرغم من ذلك ، فقد بدأ الولاة يستقلون بولاياتهم الكبيرة ، ويولون من قبلهم الولاة ، حتى أن مقاليد الأمور في حاضرة الدولة نفسها سرعان ما خرجت من أيدي الخلفاء ^(٣) .

(١) حسن إبراهيم وعلي إبراهيم . النظم الإسلامية من ٢٠٤ — ٢٠٧ .

(٢) محمد كرد علي : الإدارة المصرية في عز العرب من ١٦٧ .

(٣) حسن إبراهيم وعلي إبراهيم : النظم الإسلامية من ٢٠٤ — ٢٠٧ .

ومن وصف ابن الأثير لحالة الدولة العباسية في عهد الراضى (٣٢٣ - ٣٢٩) ، نقف على أسماء الولايات التى كانت تتألف منها هذه الدولة المتداعية واستبداد كثير من الولايات واستقلالها عن الدولة ، فهو يقول : « لم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها ، والحكم فى جميعها لابن رائق وليس للخليفة حكم : فكانت البصرة وخوزستان ، وفارس وكرمان ، والرى والجل وأصبهان ، الموصل وديار بكر ومصر والشام ، والمغرب وإفريقية ، والأندلس وخراسان وما وراء النهر ، وطبرستان وجرجان والبحرين واليمامة » (١) ، وكلها تحت سيطرة ولاية مستقلين .

الوزارة :

لم تسكن الوزارة (٢) معروفة فى الدول الإسلامية قبل عصر العباسيين . ويذكر صاحب الفخرى عن تاريخ الوزارة أنه « لم تتمهد قواعدها وتقرر قوانينها إلا فى دولة للعباسيين ، فأما قبل ذلك فلم تلك مقننة القواعد ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أن استشار ذوى الحجب والآراء الصائبة ، فشكل منهم يجرى مجرى الوزير ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة ، وسمى الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً » (٣) .

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١١٢ - ١١٣ .

(٢) كانت « الوزارة » موجودة قبل الإسلام بزمان طويل ، عرفها المصريون القدماء وبنو إسرائيل والفرس وغيرهم . وكان الأعوان المقربون للرسول عليه السلام وللخلفاء الراشدين والأمويين يعملون عمل الوزير ، ولكن لم يطلق عليهم هذا الاسم . والوزر هو الثقل : لأن الوزير يحمل أعباء الحكومة . أو من الوزر وهو اللجأ والمعصم بمعنى أنه يلجأ إليه ويرجع إلى رأيه وتدييره .

(٣) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٣٦ - ١٣٧ .

وكان أول وزير في العصر العباسي هو أبو سلمة الخلال الذي كان يلقب بوزير آل محمد ثم اغتيل على يد السفاح ، واستوزر بعده أبا الجهم ثاني وزراء الدولة العباسية ، ثم استوزر السفاح خالد بن برمك جد البرامكة الذين نبغوا في ذلك الوقت وعظم شأنهم إلى أن انقضت سطوتهم في أيام الرشيد .

وإذا ما رشح شخص للوزارة ، أرسل إليه الخليفة اثنين من الأمراء يحملان كتاب الخليفة إليه ، فيسير إلى دار الخلافة ثم يمثل بين يدي الخليفة ثم ينصرف إلى حجرة أخرى ليرتدى لباس التشریف ، ثم يمثل به أمام الخليفة فيقبل يده وينصرف ، فإذا بلغ الباب ألقي حصانا مزينا في انتظاره فيمتهطيه ويذهب به إلى دار الوزارة وقد سبقه كبار الموظفين والقواد ورجال البلاط وحجاب القصر والموالي ، فإذا وصل ترجل وسط مظاہر الاحتفال ثم يقرأ سجل تعيينه .

وكانت حكومة الخليفة تعرف باسم « ديوان العزيز » ، وكان الوزير أو بعبارة أدق رئيس الوزراء يشرف على هذا الديوان ، ويلقب بلقب وزير ديوان العزيز . وكان رؤساء الدواوين المختلفة يلقبون أحيانا بالوزير ولكنهم كانوا على الدوام تابعين لهذا الوزير الذي كان على رأس الحكومة .

وانقسمت الوزارة في عهد العباسيين إلى قسمين :

١ - وزارة التنفيذ : وهي التي تكون فيها مهمة الوزير تنفيذ أوامر الخليفة وعدم التصرف في شئون الدولة من تلقاء نفسه ، بل كان يعرض أمور الدولة على الخليفة ويتلقى أوامره فيها ، ولم يكن الوزير إلا سيطرا بين الخليفة وورعيته ^(١) .

(١) ابن طباطبا . الفخرى في الآداب السلطانية ص ١٠١ .

٢ - وزارة التفويض : وهي أن يعهد الخليفة بالوزارة إلى رجل ، يفوض إليه النظر في أمور الدولة والتصرف في شئونها دون الرجوع إليه ، ولم يبق للخليفة بعد ذلك إلا ولاية العهد وسلطة عزل من يوليهم الوزير .

وكان الوزير في الدولة العباسية واسطة بين الخليفة والرعية ، وعليه تنفيذ رغبات الخليفة وأوامره وإصدار النصح إذا ما استأنس برأيه في أمر من أمور الدولة ، والمحافظة على سمعة الخليفة عند رعيته . ومن هنا نقف على مبالغ ضعف الوزير أيام الخلفاء العباسيين في العصر العباسي الأول ، كما نقف على خطورة مركز الوزراء إذ كانوا معرضين للقتل إذا ما تغير عليهم الخليفة ، على رغم ما كان يظهر به الوزير في عيون الناس من هيبة ونبل .

وكان الوزراء في العصر العباسي الأول ، يخافون على أنفسهم من بطش الخلفاء بهم ، فكان كل منهم يتجنب أن يسمى وزيراً بعد أن مات أبو الجهم وزير السفاح على يد المنصور ، لأن المنصور كان يحقد عليه ، فلما أحس أبو الجهم بالسهم ، قام لينصرف ، فقال له المنصور : إلى أين ؟ قال : إلى حيث بعثني بأمر المؤمنين . واستوزر المنصور بعد خالد البرمكي ، أبا أيوب المورياني وكان من أهل موريان^(١) ، اشتراه المنصور صبياً قبل أن يلى الخلافة فتقفه وعلمه ، واتفق أن أرسله مرة إلى أخيه السفاح ومعه هدية له ، فلما رآه أعجب بهيئته وفصاحته ، فأبقى عنده وأعتقه وجعله من أخص رجاله المقربين إليه وأدر إليه عطاءه وصلاته ، وظل على ذلك حتى ولي المنصور الخلافة ، فقلده الوزارة وكان مصيره القتل . وبعد قتل هذا الوزير استوزر المنصور ، الربيع بن يونس ، وكان نبيلاً حازماً عاقلاً ، فطنا خبيراً بالأمور الحسائية ، لما بشئون الدولة ، محباً لفعل الخير ، عارفاً بأداب الملوك . رأى المنصور يوماً في بستانه شجيرة من شجر يسمى الخلاف ، فلم يدر ما هي ، فقال : ياربيع ! ما هذه الشجرة ؟ فقال الربيع : إجماع ووفاق ، وكره أن يقال خلاف . ولم يزل

(١) قرية من نواحي خوزستان .

الربيع متقلداً منصب الوزارة إلى أن مات المنصور ، فقام الربيع بأخذ البيعة للمهدى بن المنصور ، وظل على ذلك إلى أن قتله الهادى فى خلافته . وبلغ نفوذ الوزير منتهاه فى عهد هارون الرشيد حين قال لوزيره يحيى بن خالد البرمكى : « قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنق إليك ، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب » . وفى عهد ابنه جعفر بن خالد بن برمك ، قبض البرامكة على أزمة الحكم وصار بيدهم الدخل والخرج ، واشتد نفوذ البرامكة حتى انصرف الناس إليهم ونظموا القصائد الرائعة فى مدحهم والتقى بكرمهم وجودهم الذى أصبح مضرب الأمثال ، وكان كل ذلك مدعاة لـ كبتهم المعروفة .

على أن ضعف الخلافة فى العصر العباسى الثانى ، أدى إلى ازدياد نفوذ الوزراء واشتداد المنافسة على الوزارة ، ومن ثم تفشى الدس وانقشرت الرشوة ابتغاء الوصول إلى كرسي الوزارة . واشتهر من وزراء العصر العباسى فى عهد المقتدر (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) عبد الله بن يحيى بن خاقان ، وعبيد الله بن سليمان بن وهب ، والقاسم بن عبيد الله . وظهر من الوزراء فى عهد المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠) أبو الحسن على بن محمد بن الفرات سنة ٢٩٦ هـ ، وكان لبني الفرات ما كان للبرامكة وبني وهب من الشهرة فى العصر العباسى ، وفيهم يقول صاحب الفخرى : « وبنو الفرات من أجل الناس فضلاً وكرماً ونبلاً ووقاراً ومروءة » ^(١) . ومن أشهر وزراء المقتدر : الوزير المصلح على بن عيسى ، وكان من كبار الكتاب . اشتهر بالورع والزهد ، وفيه يقول الصولى : « ما أعلم أنه وزر لبني العباس وزير يشبه على بن عيسى فى زهده وعفته وحفظه للقرآن وعلمه بمعانيه وكتابته وحسابته وصدقاته ومبراته » : وخلفه فى الوزارة حامد بن العباس ، وكان كريماً موفقاً فى استخراج الأموال واضطربت أمور الدولة العباسية فى عهد المقتدر ، بسبب هذه السياسة التى اتبعها فى تعيين وزرائه وعزلهم ، حتى تقلد الوزارة

(١) الفخرى ص ٣٣١ ، ٣٣٣ .

في عهده نحو اثني عشر وزيراً ، عزل بعضهم مراراً ، كما أنه اعتمد على وزراء ضعاف كآبي علي محمد بن مقله الذي تدخل في أعمال الدواوين تدخلات شائناً ابتغاء زيادة ثروته . وعجز الوزراء في عهد الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) عن إدارة الدولة بسبب ازدياد نفوذ القواد ، واضطر هذا الخليفة إلى تقليد بن رائق شئون الدولة كافة وتلقيه « أمير الأمراء » ، ولم يبق للوزراء شيء من النفوذ ، واقتصرت أعمالهم على الحضور إلى دار الخلافة في أيام المواكب مرتدين السواد ، متقلدين السيوف والمناطق وغيرها من شعار الوزارة ، وأصبح تعيين الوزراء وعزلهم بيد أمير الأمراء .

ولما استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ ، قضوا على نفوذ الخلفاء ، وزال نفوذ الوزراء ، لأن بنى بويه حلوا محلهم . ويقول صاحب الفخرى : « اضطربت أحوال الخلافة ، ولم يبق لها رونق ولا وزارة ، وصارت الوزارة من جهتهم والأعمال إليهم » ^(١) . واتخذ بنو بويه لأنفسهم وزراء استعانوا بهم في إدارة شئون الدولة ، ومن أشهر وزراء بغداد في عهد سيطرة بنى بويه أبو الفضل بن العميد والصاحب إسماعيل بن عباد .

الدواوين :

كانت أهم دواوين الحكومة المباسية هي : ديوان القدية ، وديوان الجند ، وديوان الموالى والفلان لتسجيل فيه أسماء موالى الخليفة وعبيده ، وديوان البريد ، وديوان النظر في المظالم ، وديوان الأحداث والشرطة ، وديوان العطاء ، وديوان المنح أو المقاضاة ، وديوان الأكرية للإشراف على القنوت والترع والجسور وشئون الري ، وديوان الخراج ومهمته جمع ضرائب بلاد العراق وتقديم حساب للضرائب في الأقاليم الأخرى وجمع الضرائب النوعية المسماة بالمعادن ، وديوان

الرسائل ومهمته إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة ، وديوان الأزمة والزام ويشبه ديوان المحاسبة اليوم وأوجده الخليفة المهدي ويقصد به أن الدواوين تجمع لرجل يضبطها بزام يكون له على كل ديوان .

واستمر نظام الدواوين في العصر العباسي قائما على هذا النحو ، إلى أن ولى الخلافة المعتضد (٢٧٩ هـ) ، فضم كل دواوين الدولة بعضها إلى بعض ، وكون منها ديوانا واحدا وأطلق عليه « ديوان الدار » أو « الدار الكبير » . وبلغ نظام الدواوين في عهده حد الكمال ، ويقوم هلال الصابي : « وسمعت مشايخ الكتّاب يقولون إنه لم يجتمع في زمن من الأزمنة خليفة ووزير وصاحب ديوان وأمير جيش مثل المعتضد بالله »^(١) . وقسم المعتضد الديوان أقساما ثلاثة : ديوان المشرق ، وديوان المغرب ، وديوان السواد (يعني العراق) ويتولى الوزير ولايته بنفسه . وفي القرن الرابع الهجري ، كانت إدارة الدولة تنقسم إلى ما يشبه وزارتين : إحداهما لداخلية وهي ديوان الأصول ، والأخرى للمالية وهي ديوان الأزمة . وكان كل ديوان كبير ينقسم أقساما كثيرة ، تسمى دواوين أيضا ، لأنه كان لكل ناحية ديوانها . ولم تصل الإدارة في الدولة العباسية إلى تعيين الحدود الفاصلة بين الدواوين بدقة ، وكان أصحاب هذه الدواوين على ثلاث طبقات : الطبقة الأولى ، والطبقة الثانية ، والطبقة الثالثة^(٢) .

المكتبات :

كان مركز الكتّاب لا يقل عن مركز الوزير ، فقد كان يرأس ديوان الرسائل الذي يعد من أهم وأخطر دواوين الدولة العباسية . ومهمة صاحبه :

(١) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ١٨٩ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٤٥٦ .

إذاعة المراسيم والبراءات ، وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة ، ومراجعة الرسائل السياسية ووضعها في الصيغة النهائية وختمها بخاتمها . كذلك كان يتولى مكاتبة الأمراء والملوك عن الخليفة ، وكان الوزير يتولى ذلك أحيانا ، وكثيرا ما كان يتولى الخليفة ذلك بنفسه ، فقد أثر عن المنصور العباسي أنه لما جاءه كتاب محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي م كتابه أن يجيبه ، فقال المنصور : لا بل أنا أجيبه ، إذا تقارعنا على الأحساب فدعني وإياه . كما كان الكاتب يجلس مع الخليفة في مجلس القضاء ، للنظر في المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة ويتسلم الشاكي أو المدعى صورة من الحكم وتحفظ الصورة الأصلية في دار السجلات .

وكان الخلفاء يختارون كتابهم من رجال الأدب ومن أعرق الأسر ، ممن عرفوا بسعة العلم ورصانة الأسلوب ، لحرصهم على أن تدون الرسائل بأسلوب شائق بليغ . واشتهر من الكتاب في العصر العباسي الأول : يحيى بن خالد البرمكي والفضل بن الربيع في عهد هارون الرشيد ، والفضل والحسن ابن سهل وأحمد بن يونس في عهد المأمون ، والحسن بن وهب وأحمد بن المدبر في عهد المعتصم والواثق^(١) . وفي العصر العباسي الثاني ، اشتهر محمد بن عبد الملك الزيات وكان يلي ديوان الرسائل في عهد الواثق وهو الذي كتب البيعة بولاية المتوكل المهدي .

وكثيرا ما كانت الكتابة سبيلا إلى الوزارة : واتخذ بعض الخلفاء من الكتاب قوادا يعتمدون عليهم في الفزوات . ولم يكن اتخاذ الكتاب مقصورا على الخلفاء وحدهم ، بل كان الأمراء وسلاطين بويه وعمال الأقاليم يتخذون كتابا يعاونونهم في الإدارة : فقد كان الكوفي كاتباً لبجكم الذي تقلد إمرة الأمراء

(١) حسن إبراهيم وعلي إبراهيم : النظام الإسلامية س ١٨٠ — ١٨١ .

في عهد كل من الراضى والمتقى ، وكان أبو جعفر شيرزاد كاتباً لتوزون الذى تقلد
وظيفة أمير الأمراء في عهد المتقى ^(١) . وكان ملوك الفرس يسمون كتاب
الرسائل : تراجمة الملوك . وكانوا يقولون لهم : لاتحملكم الرغبة في تخفيف الكلام
على حذف معانيه وترك ترتيبه والإبلاغ فيه وتوهين حججه ^(٢) .
الحجاجة :

اتخذ العباسيون الحجاب ، وصار بين الناس وبين الخليفة داران : دار
الخاصة ودار العامة ، يقابل كل طائفة في مكان معين . يقول ابن خلدون :
« هذا القرب كان مخصوصاً في الدولة العباسية بمن تحجب السلطان عن العامة ،
ويطلق بابه دونهم أو يفتح له على قدره في مواقفه ، وكانت هذه منزلة يومئذ
عن الخطط مدروسة لها ، إذ الوزير متصرف فيها بما يراه » ^(٣) . ومن أبرز
حجاب العصر العباسى الأول : الفضل بن الربيع القدى أوقع بالبرامكة عند الرشيد
وكان له أثر في إحداث الخلافة بين الأمين وأخيه المأمون .

وتطور نظام الحجابة في العصر العباسى الثانى ، فاتخذ حجاباً ثالثاً أشد من
الأولين . ولم تقتصر مهمة الحاجب في ذلك العصر على حراسة الخليفة ومنع
الناس من الاتصال به ، بل تعداه إلى التدخل في أهم شئون الدولة حتى استبعد
بعضهم بها دون الوزراء . وكان أصحاب الدواوين يرجعون إليهم في المسائل
المتعلقة بدواوينهم ولا يفصلون فيها إلا بعد الرجوع إليهم . وكثيراً ما كان
الحاجب يصبح هدفاً لدسائس الوزير إذا زاد نفوذه وعظم استبداده بأمور لدولة ،
ومن أحسن الأمثلة على ذلك تدبير الوزير أبى على بن مقلدة مؤامرة انتهت
بالقبض على محمد بن ياقوت الحاجب ^(٤) .

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٤٤٩ .

(٢) الجهمشيارى . كتاب الوزراء والسكرتار ص ٣ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٤) راجع تفاصيل هذه المؤامرة في ابن مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ١

ص ٣١٨ — ٣١٩ .

البريد :

كان ديوان البريد في مدينة بغداد ، وهو يشبه مصلحة البريد الآن ، وكان مزوداً بمحطات على طول الطريق . وقد ظل الحمام الزاجل يستخدم في نقل الرسائل حتى ولى الخلافة المعتصم . وكان البريد خاصاً بأعمال الدولة وليس لنقل رسائل الجمهور ، ومن ثم كانت مصلحة البريد من مصالح الدولة الخاصة .

وكانت مهمة صاحب البريد أول الأمر هي توصيل الأخبار إلى الخليفة من عماله في الأقاليم ، ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عيناً للخليفة ينقل أوامره إلى ولاته ، كما ينقل أخبار ولاته إليه . واستخدم المنصور ولاية البريد عيوناً له وعوناً في الإشراف على أمور دولته ، ووقف بواسطتهم على أعمال الولاية وعلى ما يصدره القضاة من الأحكام وعلى ما يرد لبيت المال من الأموال ، كما كانوا يوافقونه بأسعار الحاجيات من قحح وحبوب وأدم وما كولات . وكان عماله يوافقونه بذلك مرتين في كل يوم ، فإذا صلى المغرب وافوه بمحدث طول النهار وإذا صلى الصبح كتبوا إليه بما جرى في الليل من الأمور ، وبهذا كان يقف على كل ما يحدث في الولايات الإسلامية . وكان بذلك شديد الاتصال بولاته ، فيقف القاضي عند حده إذا ظلم ، ويرجع السعر إلى حالته إذا غلا وإن رأى تقصيراً من أحد ولاته ويخبره ولامه وعزله عن عمله .

وفي العصر العباسي الثاني ، اهتم الخليفة بشئون البريد ، فكان الخلفاء العباسيون يكتبون لصاحب البريد عهداً عند توليته ، ويرسمون له فيه الطريقة التي يجب أن يسير عليها . فقد ذكر قدامة بن جعفر أنه يجب على صاحب البريد « أن يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما جرى عليه أمرهم ، ويتبع ذلك شافياً ، ويستشفه استشفافاً بليفاً^(١) وينهيه على حقه وصدقه . . . وأن يعرف

(١) أي يبذل أقصى الجهد ، للوقوف على حقيقة أمره .

حال عمارة البلاد وما هي عليه من السكال والاختلال . وما يجرى في أمور الرعية فيما يعاملون به من الإنصاف والجور والرفق والعسف ، فيكتب به مشروحاً . . . وأن يعرف ما عليه الحسكام في حكمهم وسيرم وسائر مذهبهم وطرائقهم . . . وأن يعرف حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق ، ويكتب بذلك على حقه وصدقه ^(١) . ولم يقتصر عمل صاحب البريد على ذلك ، بل كثيراً ما كان ينقل أيضاً إلى الخليفة الأخبار الطريقة .

ولما استبد بنو بويه بالسلطة ، اهتموا بشئون البريد اهتماماً بالغاً ، حتى أنه لم يعد يخفى عليهم شيء من أمور الدولة « فلم يخف عندهم أخبار الأقاليم والأداني ، وحال الطائع والعاصي » ^(٢) . وبلغ نظام البريد في عهد بني بويه مبلغاً عظيماً من الدقة والسرعة . وكانت الدولة توقع أشد المقوبة بكل من يتوانى في أداء واجبه من موظفي البريد . كما كانت المراسلات البريدية تفوض في حضرة السلطان ، فيأخذ منها الرسائل الهامة ، ويرسل سائر الرسائل إلى ديوان البريد ، فتوزع على أربابها . وكان لبنى بويه أثر في ترقية البريد ، وأدخل معز الدولة نظام السعاة وكان يقال لهم الفيوج ، واعتمد الخلفاء العباسيون في العصر الثاني كذلك على حمام الزاجل في نقل الرسائل .

٣ - النظام القضائي

في العصر العباسي ، ضعفت روح الاجتهاد في الأحكام لظهور المذاهب الأربعة ، وأصبح القاضي إذ ذاك ملزماً بأن يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب : ففي العراق كان القاضي يحكم وفق مذهب أبي حنيفة . وفي الشام والمغرب وفق مذهب

(١) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة أبي رييدة ج ١

ص ١٢٩ .

(٢) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٢ .

مالك ، وفي مصر وفق المذهب الشافعي . وإذا تقدم متخصصان على غير المذهب الشائع في بلد من البلاد ، أناب القاضي عنه قاضيا يدين بمقائد مذهب المتخصصين . وتأثر القضاء كذلك بالسياسة ، لرغبة الخلفاء العباسيين في إكساب أعمالهم صبغة شرعية ، حتى امتنع كثير من الفقهاء عن تولى القضاء خشية حملهم على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية ، ولهذا السبب اعتذر أبو حنيفة النعمان عن تولى منصب القضاء في عهد أبي جعفر المنصور^(١) . ورغم هذا ، نقض الخلفاء العباسيون العهد مع بعض القواد والعلويين بعد أن أعطوهم الأمان ، وذلك عن طريق فتاوى القضاء : فقد تسلم ابن هبيرة من أبي جعفر المنصور كتاباً يحمل إمضاء الخليفة السفاح يعطيه فيه الأمان ولكن لم تمض أيام حتى قتل ابن هبيرة ، وغدر المنصور بعمه عبد الله بن علي وأبي مسلم الخراساني ، وكتب الرشيد بخطه أماناً ليحيى بن عبد الله أخى محمد النفس الزكية وكان قد ثار في بلاد الديلم ولكنه لم يلبث أن حبس ونقض الأمان .

وكان « قاضي القضاة » في العصر العباسي يقيم في بغداد ، وأول من لقب بهذا اللقب هو أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب كتاب الخراج وذلك في عهد هارون الرشيد . وأصبح في كل ولاية قضاة ينوبون عنه ، فصار يولى أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، ينظر كل منهم في النزاع الذي يقوم بين من يدينون بمقائد مذهبه . وصار اختصاص القاضي : النظر في الخصومات المدنية والجنائية ، والفصل في الدعاوى والأوقاف ، وتنصيب الأوصياء ، وقد تضاف إليه الشرطة والمظالم والحسبة ودار الضرب وبيت المال^(٢) .

وكان القاضي في مصر في عهد الدولة العباسية يتقاضى ٣٠ ديناراً ، وتقاضى

(١) جزجى زيدان : التمدن الإسلامى ج ٢ ص ١٨٥ — ١٨٦ .

(٢) حسن إبراهيم وعلي إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٣٣٦ .

القاضي ابن لهيعة مثل هذه الراتب ، وفي زمن المأمون كان عيسى بن المنكدر قاضي مصر يتقاضى ٢٧٠ ديناراً في الشهر .

وبعد أن كان الالتزام مقصوراً على الخراج ، بمعنى أن تعهد الدولة بالخراج إلى أشخاص يحبونه على أن يؤديوا لبيت المال مبلغاً معيناً ، تعدى هذا النظام إلى القضاء على أن يؤدي لبيت المال أيضاً مبلغاً مقابل ما يجنيه من رسوم القضايا وقد ألزم عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب لمعز الدولة بن بويه على ٢٠٠٠٠٠ درهم في السنة عن قضاء بغداد ، ولكن الخليفة المطيع لم يوافق على تقليد هذا القاضي ، وفيه يقول ابن الأثير : « وهو أول من ضمن القضاء ، وكان ذلك أيام معز الدولة ، ولم يسمع بذلك قبله ، فلم يأذن له الخليفة المطيع بالله بالدخول عليه ، وأمر بأن لا يحضر الموكب لما ارتكبه من ضمان القضاء ^(١) » .

على أن كثيراً من القضاة نزهوا أنفسهم عن هذه العيوب ، حتى أنهم كانوا يقبلون هذا المنصب بعد تردد وبعد أن يشترطوا شروطاً تكفل استقلالهم ، وتحفظ لهم هيبتهم وكرامتهم ^(٢) . فإن الخليفة المطيع (٣٣٤ — ٣٦٣ هـ) « قد قضى أبا الحسن محمد بن شيبان الهاشمي بعد تمتع ، وشروط لنفسه شروطاً منها : ألا يرتزق على القضاء ، ولا يشفع إليه فيما يخالف الشرع ، وقرر لسكرانه في كل شهر ثلثمائة درهم ، ولحاجبه مائة وخمسين ، وللعارض على بابه مائة ، ولخازن ديوان الحكم والأعوان ستمائة » .

وكتب الخليفة لابن شيبان عهداً بتوليته القضاء ، بين فيه الأقطار التي سمح له ببسط نفوذه القضائي عليها ، فهو يقول : « هذا ما عهد به المطيع لله أمير المؤمنين إلى محمد بن صالح الهاشمي ، حين دعاه إلى ما يتولاه من القضاء ، بين أهل

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٣ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٤٩٤ .

مدينة المنصور والمدينة الشرقية من الجانب الشرقى والجانب الغربى ، والكوفة
وواسط ، وطريق الفرات ودجلة ، وطريق خراسان وحلوان ، وديار مصر وديار
يكر ، والموصل والحرمين واليمن ودمشق وحمص ، وجند قنسرين والعواصم ،
ومصر والإسكندرية ، وجند فلسطين والأردن .

ولا يكتفى المطيع فى عهده للقاضى بذكر ذلك ، بل وضح الاختصاصات
التي تسمح له بمباشرتها ، فهو ينص على أنه يتولى : « قضاء القضاة ، وتصفح أعمال
الحكام ، والاستشراف على ما يجرى عليه أمر الأحكام من سائر النواحي
والأمصار » .

زاد الخليفة على ذلك ، أن رسم للقاضى الحدود التي يتوخاها عند إصدار
أحكامه ، وهي على ما ورد فى هذا العهد : « كتاب الله صلى الله عليه وسلم منارا
يقصده ومثالا يتبعه ، وأن الإجماع ، وأن يقتدى بالأئمة الراشدين ، وأن يعمل
اجتهاده فيما لا يوجد فيه كتاب ولا سنة ولا إجماع » . ونصحه فى عهده إليه
بالمساواة التامة بين الخصوم ، فينص على « أن يسوى بين الخصمين إذا تقدما
إليه ، فى لحظة (نظرتة) ولفظه ، ويوفى كلا منهما عن إنصافه وعدله ، حتى يأمن
الضعيف حيفه ويأس القوى من ميله » ^(١) .

٤ — النظام الحربى

عناصر الجند :

كان يقالف جيش العباسيين من : الجنود النظامية ، والجنود للمتوعة من
البدو وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا فى الحروب مدفوعين بعوامل
مادية أو دينية . وبلغ راتب الجندى أيام قوة العباسيين عشرين درهما ^(٢) . وكان

(١) ورد هذا العهد كاملا فى السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

(٢) الدرهم = ٤ قروش تقريبا .

تقسيم الجند تابعاً لجنسية أفرادهم : فمنهم الحربية وكانوا من جند العرب وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرمح ، والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين وليس من عجب إذا تغفل نفوذهم في جسم الدولة التي قامت على أكتافهم .

وبانقضاء العصر العباسي الأول ، دخل في الجيوش العباسية عنصر الأتراك الذي آل إليه النفوذ ، وهو عنصر جديد كثرن القسم الرابع من الجيش العباسي . ذلك أنه لما ولي المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ ، رأى أن دولته لا بد أن يقوم بحراستها جيش قوى ، فاستكثر من الأتراك لأن أمه كانت تركية وكانوا يجلبون من بلاد ما وراء النهر ، وولاهم حراسة قصره وأسند إليهم أعلى المناصب وقلدهم الولايات الكبيرة وآثرهم على الفرس والعرب في كل شيء . واشتد خطرهم ، فأذوا الأهليين لما كانوا يرتكبونه من الفساد والعنف وعدم الاكتراث بالصبيان والضعفاء الذين كانوا يدوسونهم بخيولهم في الأسواق والطرقات مما أثار غضب العامة وحققهم ، فعمل المعتصم على تلافى هذا الشر وبني مدينة سامرا شرق دجلة واتخذها حاضرة لدولته .

ولقد استفحل خطر هؤلاء الأتراك ، وإن كان قوة شكيمة المعتصم اضطرت هؤلاء الأتراك إلى التزام حدودهم ، فلما ولي الخلافة بعده ابنه الواثق أخذ هؤلاء الأتراك يتدخلون في أمور الدولة حتى أصبح الخليفة مكتوف الأيدي مسلوب السلطة . ولما ولي المتوكل الخلافة حاول أن يكف يدهم فقتلوه ، وصار ابنه المنصور الذي اشترك معهم في قتل أبيه طوع ببنائهم ، وأصبحت الدرلة العباسية ميدانا للقوض والدسائس ، وغدا في أيدي هؤلاء الأتراك أمر تولية الخليفة وعزله أو حبسه وقتله ، وبما زاد الحالة سوءا وقوع التنافس والتشاحن بين القواد . وقد أثار اشتراك الجند العربي في الفتن والثورات التي قامت زمن الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وانحيازهم إلى فريق دون آخر في مجرى الحوادث أيما تأثير . ولم يقتصر الخلفاء العباسيون على استخدام عناصر العرب والفرس

والأتراك في جيوشهم : فإن الخليفة المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) اصطنع المغاربة
والفراعنة دون الأتراك ، واستعان الخليفة الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ)
بالقرامطة وأدخلهم في صفوف جيشه . ولما استبد بنو بويه بالنفوذ في الدولة
العباسية منذ سنة ٣٣٤ هـ ، تألف الجيش من الديلم والأتراك والعرب والأكراد
والفراعنة والمغاربة وغيرهم من المرتزقة .

أشهر القواد :

وكان من أكبر القواد المعروفين في أول عهد الدولة العباسية : أبو مسلم
الخراسانى وكان تحت إمرته جند المشرق الخراسانية ، وعبد الله بن على العباسى
وكان على جند المغرب وأكثرها عربى من بلاد الجزيرة والشام . فلما خرج
عبد الله بن على على المنصور وانتصر عليه أبو مسلم الخراسانى بجنده ، كان هذا
الانتصار انتصاراً للفرس على العرب ، ومن ثم رجحت كفة الخراسانيين
في الجيش .

بيد أن المنصور خشى شر أبى مسلم وشر جنده فقتل عليه ، ورأى عدم
الاعتماد على الخراسانيين لأن العصبية كانت لا تزال في قوتها . فاصطنع كثيرين
من العرب وسلمهم قيادة جنده ، كما استعان ببعض أهل بيته ومن أعظمهم عيسى
ابن موسى الذى انتصر على محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن العلوى الملقب
بالنفس الزكية وأخيه إبراهيم .

وقد ظهر من قواد العرب معن بن زائدة الشيبانى ، وكان من قواد الأمويين ،
واشتغل تحت إمرة يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق وحارب معه في واسط ، ولما
سلم ابن هبيرة اختفى معن حتى كان يوم الماشمية الذى ثار فيه الراوندية على
المنصور ، فظهر معن وقاتل عن الخليفة وهو ملثم ، وأوقع برجال هذه الطائفة ،
ثم كشف للخليفة عن نفسه ، فأمنه ووصله بعشرة آلاف درهم وسماه « أسد
الرجال وولاه بلاد اليمن ثم سجستان ، فبقى فيها حتى قتله الخوارج سنة ١٥١ هـ .

ومن أعظم قواد المنصور عمرو بن العلاء، وقد وجهه المنصور سنة ١٤١ هـ لإخضاع أهل طبرستان وكانوا قد خرجوا عليه فنازلهم ابن العلاء طويلاً وفتح بلادهم من جديد، ولم يزل ممتعاً بمطعم المنصور وابنه المهدي حتى مات في خلافة المهدي.

تنظيم الجيش :

كان الخليفة العباسي يرغب دوماً أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه لابساً خوذته، فكانت تصف الجنود أمامه في ثلاثة أقسام : عرب الشمال (مصر) ، وعرب الجنوب (اليمن) والخراسانيون^(١). ولما ولي المتوكل الخلافة، أمر الجنود بتغيير زيهم القديم والبسهم أكسية رمادية وأمرهم ألا يحملوا السيوف على أعناقهم بل يضعونها في مناطق حول وسطهم.

وقد وجد نظام الجاسوسية عند العباسيين، واستخدموا في ذلك الرجال والنساء الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة، متفكرين في أزياء التجار والأطباء وغيرهم لجمع الأخبار إلى دولتهم.

ولكني يحكى العرب أنفسهم من غارات الإغريق، أقاموا الحصون (أو الثغور) على تخوم دولتهم، وهذا ضرب من الفنون الحربية التي تدل على نشاط العرب وولاهم بالحروب ونبوغهم.

وكانت حدود سورية المواجهة لآسيا الصغرى، مصدر الخطر بالنسبة إلى العرب، وكانت هذه الثغور وهي : طرس-سوس، وأذنة، والمصيصة، ومرعش، وملطية، تقع طورا في أيدي العرب وطورا في أيدي الروم. ولما استولى المنصور على هذه الثغور حصنها وأحكم بناءها من جديد، وأنشأ

(١) حسن إبراهيم وعلي إبراهيم : النظام الإسلامية من ٢٣٢ — ٢٣٥ .

هارون الرشيد فى خلافته ولاية جديدة سميت ولاية الثفور وجعل لها نظاماً عسكرياً خاصاً وأقام فيها المعاقل ، كما أمدّها بحاميات دائمة ومنح الجند علاوة على أرزاقهم أرضاً قاموا بعميرها وزراعتها هم وأسرّاتهم . فازدهرت هذه الثفور على الرغم من الحروب المتواصلة ، وأصبحت أحوالهم فى يسرّ ورخاء إلى أيام الواثق ثم أخذت بعد ذلك فى الأفول . وطالما كان العلماء والشعراء الذين يؤثرون حياة الراحة والدعة يلجأون إلى هذه الثفور للتفرغ للبحث والدرس .

وفى عهد الأمويين والعباسيين ، اختلط العرب كثيراً بالفرس وأخذوا عنهم نظام التعبئة أى تقسيم الجيش إلى كتائب : تكون إحداها فى الوسط تحت إمرة القائد العام وتسمى « قلب الجيش » ، وتوضع واحدة على يمينها وتسمى « الميمنة » ، وأخرى إلى يسارها تسمى « الميسرة » ، ثم تكون أمامها كتيبة تسمى « ساقة الجيش » . ولذلك تركوا نظام الصفوف ، وبعد تقدمهم فى المدنية تفننوا فى طرق تعبئة الجيوش . وكان القواد يحافظون على حسن سلوك الجند ، ويشددون العقاب على كل من يعيث بالنظام أو يتعرض لأهالى البلاد المفتوحة بسوء . ومما ساعد على حسن سلوكهم تحريم الخمر ، كما كان الجندى لا يملك أكثر من أربعة أشهر إذا كان بعيداً عن أسرته . وكان الجند يكبرون ويتلون الآيات القرآنية أثناء سيرهم للأفزو والجهاد وفى أثناء المعارك الحربية ، كما كانوا يدقون الطبول ويقرعون الصنوج لبث الحماس فى نفوسهم واتصفوا بالتفانى فى القتال لاعتقادهم بأن من يموت فى سبيل الله يكون مصيره الجنة .

٥ - النظام المالي

عنى الخلفاء العباسيون بشئون الزراعة والتخفيف عنهم : فألقى الخليفة المنصور الضريبة النقدية التى كانت تفرض على الحنفلة والشوفان وأحل محلها ضريبة نوعية فرضت بنسبة خاصة من المحصول مع بقاء الضريبة النقدية على النخيل والفواكه وأشباهاها ولكن الخليفة المهدى ما لبث أن همم النظام الذى أدخله المنصور وجعل الضرائب تجبى دواما بالنسبة للمحصول لما رآه من اشتطاط الحياة فى جمع الضرائب النقدية ، على أن يقدم زراعى الأراضى الممتازة الخصب نصف أراضيهم ، وفى حالة صعوبة ربيها يدفعون ثلث غلتها أو ربعها أو خمسها تبعاً لحالة الأرض ، ولكن غلة الكروم والبساتين والنخيل تقوم بالمال ويدفع عنها النصف أو الثلث . وفى عهد المأمون العباسى خضعت ضريبة الأرض مرة أخرى ، فأصبح يجبى الخمسان بدلا من النصف حتى على أكثر الأرض إنتاجا . وفى العراق والجزيرة وفارس ، حيث كثرت عدد كبار الملاك والمزارعين ، كانت تدفع ضرائب محددة ، على النحو الذى حددته شروط الصالح التى عقدت وقت فتح هذه الأقطار ولم يكن من الممكن تغيير النظام الذى حددته المعاهدات ، وأصبح هؤلاء الملاك بذلك فى مأمن من كل اغتصاب ، وتمتع أهالى شمال فارس وخراسان بنفس هذه الامتيازات . ويسمى نظام دفع الضرائب بنسبة خاصة من المحصول باسم نظام المقاسمة ، تمييزاً له عن نظام المحاسبة الذى كان متبعاً ويقضى بأن تجبى الضريبة بالنسبة لمساحة الأرض .

وفى عهود البسر والخصب ، زاد مقدار دخل الدولة العباسية زيادة كبيرة . وكانت خزائن العباسيين تفيض بالأموال التى كانت تجبى من الضرائب ، حتى بلغت فى أيام هارون الرشيد ما يقرب من إثنين وأربعين مليون دينار ، هذا الضريبة المينية التى تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب ، وقيل إن الرشيد كان يستلقى على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول : اذهبى

وانظري حيث شئت ، فسيأتني خراجك . وبلغت نفقة لأمنون ستة آلاف دينار كل يوم أى ٢١٩٠٠٠ دينار فى السنة . وفى العهد التى سادها الجذب والعسر ، أعفيت بعض الأراضى من دفع الضرائب ، كما حدث حين تجاوز الخليفة المعتضد عن ربع الضريبة .

وقد ناط هارون الرشيد بالقاضى أبى يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة النعمان ، أن يضع كتابا يبين فيه الطريقة المثلى لتنظيم جباية الخراج وغيره من الموارد ، فوضعه وسماه « كتاب الخراج » . وفيه تناول الكلام على موارد بيت المال ، وطرق جبايتها ، والواجبات التى يقوم بها بيت المال ، وقسم موارد الدولة إلى ثلاثة أقسام : خمس غنائم الحرب ، والصدقات ، والخراج . ويدخل تحت الخراج ما يسمى وظيفة الأرض الخراجية ، ثم جزية أهل القمة ، والعشور وقد حدثت فى عهد عمر بن الخطاب ولم يرد لها ذكر فى القرآن الكريم . وحد أرض الخراج : كل أرض من أراضى الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الإمام وأبقاها بأيدي أهلها أو صالحهم عليها وصيرهم ذمة ، ويخرج من ذلك أنواع من الأرض لا يوضع عليها الخراج وإنما تكون أرضا عشرية : وهى كل أرض للعرب غير بنى تغلب ، وكل أرض الأعاجم أسلم عليها أهلها طوعا ، وكذلك كل أرض من أراضى الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الإمام بين الفاتحين .

وسار خلفاء العباسيين على نظام إقطاع بعض أعيان دولتهم ، قطائع من الأرض يعمرونها ويسكنونها مكافأة لهم على ما قدموه من خدمات جليلة . وسرعان ما عمرت هذه القطائع واتسع نطاقها وازدهمت بالسكان ، وأصبحت كل قطيعة تعرف باسم الرجل أو الطائفة التى تسكنها : ومن بينها قطيعة العباس ابن محمد بن عبد الله بن العباس ، وقطيعة الربيع بن يونس وكان بها تجار خراسان من البزازين (بائى الثياب) ، وقطيعة صالح بن المنصور . وظهر ذلك

النظام جلياً في عهد المنصور العباسي ، فكان كبار رجال الدولة يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من المال عدا الهدايا والطرف ، كما كان متبعاً في نظام الإقطاع الذي شمل أوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين وسار عليه الخلفاء العباسيون من بعد المنصور : فولى الرشيد مصر صلاتها وخراجها لعبد الملك بن صالح ، وولى المأمون هذه البلاد على هذا النحو الإقطاعي لعبد الله بن طاهر بن الحسين ، وحذا المقتسم حذو الرشيد والمأمون في تلك السياسة فولى أشناس التركي مصر (٢١٩ — ٢٢٩ هـ) وقلد الواثق ولاية هذه البلاد لإيتاخ (٢٣٠ — ٢٣٥ هـ) ، وساد هذا النظام حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية .

على أن دخل الدولة العباسية قد أخذ ينقص شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أقل من جزء من واحد وعشرين جزءاً مما كان عليه في عهد هارون الرشيد ، وأصبحت الحروب عبثاً ثقيلاً لا يحتمل ، مما أنك قوى الدولة بعد أن بلغ ماحل إلى الرشيد في كل سنة نحواً من خمسمائة ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف دينار من الذهب .

وكان المال الذي يأتي من المواد المتقدمة ، ينفق على مصالح الدولة فتدفع منه : أرزاق القضاة والولاة وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين وتدفع منه أعطيات الجند أي رواتبهم التي يستولون عليها في أوقات معينة من العام ، كما ينفق منها على كرى الأنهار وإصلاح مجاريها والترع التي تأخذ من الأنهار الكبيرة كدجلة والفرات لتوصيل الماء إلى الأراضي البعيدة ، وحفر الترع للزراعة والنفقة على المسجونين وأمري المشركين من مأكل ومشرب وملبس ، والمعدات الحربية والعطايا والمنح التي يمنحها الأدباء والعلماء .

وكانت الجزية التي تؤخذ من أهل الذمة من أهم مصادر بيت المال ،
(م ٣٧ — التاريخ الإسلامي العام)

وقد قسم أهل الزمة طبقات : طبقة دنيا ويدفع الشخص منها ١٢ درهما في السنة ، ووسطى ويدفع ٢٤ درهما ، وعليا ويدفع ٤٨ درهما « ولا تؤخذ الجزية من النساء ، ولا ممن لم يبلغ الحلم ، ولا من ذى سن عالية ، ولا من ذى عاهة بادية ، ولا من فقير معدم ، ولا من راهب متبتل ، ويعطى لمن دفع الجزية براءة تثبت أداءه لها ^(١) . ومن مصادر بيت المال : ما يؤخذ من تركة من يموت دون أن يترك وارثا له حيث يؤول ميراثه إلى بيت المال ، وكان هذا مقصوراً على المسلمين . ولذلك أصدر الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) في سنة ٣١١ هـ كتاباً يأمر فيه برد من يموت من أهل الزمة دون وارث إلى أهل ملته لا إلى بيت المال ، وأنشئ لهذه التركات في عهد المعتمد (٣٥٦ - ٣٧٩) ديوان أطلق عليه « ديوان الموارث » ^(٢) . وكانت مصادرات الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة ، مصدرراً من مصادر بيت المال كذلك ^(٣) .

الحياة الاجتماعية

طوائف السطوة :

كان يقيم بين المسلمين ببلاد الدولة العباسية عدد كبير من أهل الزمة . وقد أوجدت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغى أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى ، نوعاً من التسامح . وما يدل على تسامح الخلفاء العباسيين الديني مع غير المسلمين ، أن الحكومة الإسلامية لم تتدخل في الشعائر الحكومية الدينية لأهل الزمة . وكانت الأديرة منتشرة في كل أجزاء بغداد ، يقيم فيها النصارى واليهود حيث يمارسون شعائهم في أمن وطمانينة . بل أكثر من

(١) آدم مئز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٧٤ - ٧٨ .

(٢) هلال الصابي : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ٢٤٦ - ٢٤٩ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٤٨١ .

ذلك أن بعض الخلفاء العباسيين كانوا يحضرون مواكب أهل الذمة واشتركوا في إحياء أعيادهم ومواسمهم ، ولم يكن يوجد في المدن الإسلامية أحياء رسمية مخصصة للنصارى أو اليهود بحيث لا يتعدونها وإن آثر أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين ، وقد ألزمهم بعض الخلفاء اتخاذ ملابس خاصة يعرفون بها ، كما منعهم البعض الآخر من تعلية بيوتهم على أبنية المسلمين ، ولم يتصاهر المسلمون مع غير المسلمين ، ولم يكن يجوز للمسيحي أن يتهود ولا لليهودى أن يثنصر ، واقتصر الدين على الدخول في الإسلام ، ولم يكن النصراني يرث اليهودى ، ولا اليهودى يرث النصراني ، كما لم يكن اليهودى أو النصراني يرث المسلم ، ولا المسلم يرث غير المسلم يهودياً أو نصرانياً ^(١) . وقد أصدر الخليفة المقتدر (كتاباً في المواريث أمر فيه بأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً ، إلى أهل ملته ، على حين أن تركة المسلم ترد إلى بيت المال .

واعتمد الخلفاء العباسيون على الفرس دون العرب ، مما كان من عوامل نقيمتهم على العباسيين وثوراتهم عليهم . ولما ولى المعتصم الخلافة ، ظهر العنصر التركي الذى استأثر بالنفوذ دون الفرس والعرب ، على أن بعض الخلفاء العباسيين في العصر الثانى ، أدركوا خطر الأتراك فاستعانوا بالمغاربة والفراعنة ، وغيرهم من الجنود المرتزقة كالأكراد والفرامطة . ولما انتقلت السلطة في بغداد إلى بنى بويه ، قامت المنافسة بين الأتراك والديلم الذين كان البويهيون ينقسمون إليهم ، وأصبح الديلم خطراً يهدد كيان الدولة العباسية ، وانقسم المسلمون في هذا العصر إلى شيع وطوائف : فهناك السنيون وكانوا يكونون الغالبية العظمى من السكان ويتمتعون بقسط وافر من الحرية في عهد نفوذ الأتراك وعهد إمرة الأمراء ، وهناك الشيعة وقد قاسوا كثيراً من الحزن في هذا العهد حتى استولى بنو بويه على العراق فتمتعوا بالطمأنينة في

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٣٠٦ .

ظلمهم ، ومن ثم قامت المنازعات بين السنيين والشيعة .

وكان اتخاذ الرقيق منقشراً في العصر العباسي ، ومن أكبر أسواقه سمرقند ، وكانت بيئة صالحة لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ماوراء النهر . ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة امتهان وازدراء ، بدليل أن كثيراً منهم كانت أمهاتهم من الرقيق ، وقد أولع الخلفاء باتخاذ الإماء من غير العرب ، لأنهن كن في الغالب أوفر جمالا ، وجرت العادة على ألا يرى الرجل من يريد التزوج رؤية تامة إلا إذا كانت من الحرائر إلا في حدود ما يسمح به الشرع الإسلامي ، بخلاف الأمة فقد كان يستطيع أن يراها ويعرف طباعها وأخلاقها بحكم مخالطتها قبل أن يقدم على الاقتران بها ، وكثيراً ما كان أبناء الجوارى أحب إلى آبائهم من أبناء الحرائر ، ولم يكن ثمة فرق في التوريث بين أبناء الحرائر والإماء ، وكان كثير من الخلفاء العباسيين من أمهات أولاد : فكانت أم المأمون فارسية ، وأم المعتصم تركية ، وشجاع أم المتوكل خوارزمية ، وأم المقتدر رومية وكذا كانت أم الخليفة المستكفي ، وكانت أم المطيع صقلية .

المرأة :

كان للمرأة في عهد الدولة العباسية القدر المثل في الميادين الاجتماعية والسياسية ، فقد كانت امرأة مثالية ، لها وزنها وقدرها في توجيه المسائل العامة ، ومن أبرز الشخصيات النسائية في بغداد في العصر العباسي : الخيزران وزبيدة والعباسة وقبيصة والسيدة .

تدخل نساء بغداد في شئون الدولة العباسية ، كالخيزران ، التي كانت كثيراً ما تسأل ابنها المهدي ليقضي حاجات المترددين على بيتها من المسلمين .

غير أن شدة غيرة الهادي على النساء ، حملته على أن يضع حداً لتدخلها في أمور دولته ، فقال لها مهدداً متوعداً حين سأله ذات مرة في قضاء مسألة لم يجد إلى قضائها سبيلاً : « لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو خاصتى أو من خدعى ، لأضربن عنقه ولأقبضن ماله » . ولما أحس الهادي بدنو أجله بحث يطلب أمه الخيزران ، فحضرت إليه وخاطبها بقوله : « أنا هالك في هذه الليلة ، وفيها يلى أخى هارون ، وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيته عن أخرى مما أوجبتة سياسة الملك لاموجبات الشرع من برك ، ولم أكن بك عاقاً ، بل كنت لك صائناً وبراً واصلاً » .

وهذه السيدة زبيدة ، زوجة الخليفة هارون وأم الأمين ، تمتعت بقسط وافر من الحرية وتدخلت في شئون الدولة ، حتى أن الأمين بن هارون الرشيد ولى الخلافة بتأثير أمه زبيدة ، إذ عدل الرشيد عن عزمه في تولية ابنه المأمون من بعده باعتباره أكبر أولاده سنّاً وبايع الأمين .

ولعل من أبرز النساء اللاتي ظهرن في العصر العباسى وأوسعن شهره وأظهرهن شخصية ، العباسة ابنة المهدي وأخت الرشيد ، فقد قيل إن الرشيد كان يعمل بمشورة أخته ، وكانت ذات ثقافة عالية وذكاء نادر ، حلوة الحديث لطيفة المعشر ، وكانت تحضر دائماً مجلس الرشيد ^(١) .

وتمثل بوران ابنة الوزير الحسن بن سهل وزوجة المأمون ، حياة الترف والنعيم التي عاشتها بعض نساء بغداد في العصر العباسى ، وكانت من أجمل نساء بغداد وأغرزهن علماً وأوفرهن أدباً ، وبذل الحسن بن سهل في زفاف ابنته للمأمون كثيراً من الأموال .

ومن نساء العصر العباسى الثانى ، من كانت لهن البسطة على أولادهن من الخلفاء ، حتى كن يشرفن على شئون الدولة ويشتركن في تدبير أمور

(١) على إبراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الإسلامى نصيب ص ٨٦ .

الحكم ، وكان لمن أكبر الأثر في سير الحوادث في بغداد ، ومن أبرزهن : « قُبَيْحَة » أم الخليفة المعتز بن المتوكل ، التي تسببت في قتل الخليفة المعزول المستعين ، وكان قد أخرج إلى بلدة واسط ، وذلك خوفا على حياة ولدها من أن تمتد إليها يد الأعداء إذا ظل المستعين على قيد الحياة .

وقد ظهر تدخل النساء جليا في شئون الدولة في عهد الخليفة المقتدر ، يقول صاحب الفخرى « واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخطيط كثير ، لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه ، فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول بلذته »^(١) . فقد أصبح الأمر والنهي بيد أمه « السيدة » ، وبلغ من عظم نفوذها أنها كانت إذا غضبت هي أو قهرماتها على وزير ، أقيل من منصبه : كما حدث لعلي بن عيسى ، فقد أمرت بالقبض عليه بسبب سوء استقبال حاجبه لقهرماتها ، وليس هذا كل ما كان للسيدة من نفوذ ، بل أن سلطتها تمتد حدود ذلك فعميت قهرماتها « نومال » رئيسة للمظالم .

ولم تعمل مجالس النساء المثقفات إلا في عهد الخليفة المتوكل رغم أن نجم « فضل » الشاعر المشهور قد تآلق في عهد هذا الخليفة .

الملابس :

تطور الزي في الدولة العباسية عما كان عليه الحال قبل قيامها ، وذلك لظهور الأزياء الفارسية في البلاط العباسي ، وقد قرر أبو جعفر المنصور بأن تلبس بصفة رسمية القبعات السوداء الطويلة المخروطة الشكل ، ويطلق عليها اسم القلانس .

وأدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب ، وغدا خلعا على الناس من

(١) الفخرى ص ٢٣٥ .

حق الخليفة ، يقبين ذلك من العملة التي ضربت في عهد الخليفة المتوكل ، حيث تظهر صورته مرتدياً ملابس فارسية . ولما تولى المستعين الخلافة (٢٤٨ — ٢٥٢) صفر القلانس ، بعد أن كانت طوالا ، وأدخل لبس الأكام الواسعة التي لم تكن تعرف من قبل ، فجعل عرضها نحو ثلاثة أشبار ، وكانت هذه الأكام تقوم مقام الجيوب يحفظ فيها الإنسان كل ما يرغب في حفظه ، فكان الكاتب يحفظ فيها الرقعة لعرضها ، والقاضى يضع فيها الكراساة التي يقرأ منها الخطبة يوم الجمعة .

أما الملابس العادية للطبقة الراقية في العصر العباسى ، فكانت تشتمل على سروالة فضفاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة . وتشتمل ملابس العامة على إزار وقميص وسترة طويلة وحزام وينتعلون الأحذية والنعال .

وكان رجال الدولة يتميزون بملابسهم : فيلبس الكتائب الدرعات وهى ثياب مشقوفة من الصدر ، ويرتدى العلماء الطيالة ، أما القواد فيلبسون الأقبية الفارسية القصيرة . وكان من المستحسن لبس الثياب البيضاء ، وفى القرن الرابع الهجرى كانوا يرون أنه لا يجوز للرجال لبس الثياب ذات الألوان إلا فى بيوتهم ، على حين أنهم أجازوا لبسها للنساء .

وقد اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء للرأس منضداً بالجواهر محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة ، ويمزى ابتكار هذا الغطاء إلى « علية » أخت الرشيد . وكانت نساء الطبقة الوسطى يزين رءوسهن بحلية مسطحة من الذهب ويلقفن حولها عصاية منضدة بالؤلؤ والزمرد ، كذلك كن يلبسن الخلاخل فى أرجلهن والأساور فى معاصمهن وأزنادهن ، ولم يكن يحل فن التجميل ، ومن الجلى أنهن أخذنه عن الفارسيات . ويمزى إلى السيدة زبيدة اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر ، وكانت فوق ذلك تسرف فى شراء ملابسها وتزينتها ، فقد اتخذت ثوبا من الوشى الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار .

الطعام والشراب :

بلغ من تفنن العباسيين في الطهي وإمراهم في الإنفاق عليه ، أن بعضهم كان يشتري مقادير كبيرة من السمك لتقديم أسنقه على المائدة ، كلون من ألوان الطعام الشهية . فإن إبراهيم بن المهدي لما استضاف الرشيد في الرقة ، قدم له لونا من الطعام ، فاستصغر القطع ، وقال لم صغر طبأحك تقطيع السمك . فرد عليه إبراهيم بقوله : يا أمير المؤمنين ! هذه السنة السمك ، وأخبره إبراهيم أنه كلفها أكثر من ألف درهم ، فاستكثر الرشيد هذا المبلغ . وبلغت نفقة المأمون في اليوم على مطابخه مبلغاً كبيراً ، واعتاد أهل بغداد جلب ألوان الطعام كالسمك والحبوب والخبز من فارس وعمان والمهند ، ولم يسمح الخلفاء العباسيون بتناول النبيذ على موائدهم ، على الرغم من أنهم كانوا يشربونه أحيانا ^(١) .

الألعاب :

ذاعت في العصر العباسي هذه ألعاب ، مثل لعب الشطرنج ، والنرد ، وسباق الخيل ، والصيد ، ومن بين الخلفاء الذين أقبلوا على لعبة الشطرنج ، الخليفة المأمون بعد قدومه من خراسان إلى بغداد والخليفة المعتضد الذي اشتهر في عهده نوع من الشطرنج يسمى الجوارحية أو اللعب بالجوارح لأن حواس الإنسان تعمل أثناء لعبها ، وانتشرت بين الناس لعبة النرد وكان يلعب بثلاثين حجرأ وفصين على رقعة بها اثنا عشر وأربعة وعشرين منزلاً .

(١) القريري : المخطوط ج ١ ص ١٨٠ .

أما سباق الخيل ، فكان يعد تسلية الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة في العصر العباسي ، وقد أباح الخلفاء هذه الرياضة بشرط ألا تلعب طلباً للمال . وكلف بعض الخلفاء بالصيد ، فقد حرص المهدي على القيام برحلات صيد منظمة ، وبين يديه فرسان من الحراس يتقلدون سيوفهم .

ومن الألعاب التي كان يتسلى بها أهل بغداد ، اللعب بالخيال ، فقد كان في بغداد رجل يعرف بابن المغازلي ، يقف على الطريق ويقص على الناس الأخبار والنوادر المضحكة ، ويقدم على اختلاف طوائفهم ، وقد سمع الخليفة المتعصّد بنوادره ، فأمر بإحضاره بين يديه ، ليقصها عليه ، فأعجب بها وأجزل له العطاء ^(١) .

الأعياد والمواسم والمواكب :

احتفل خلفاء بغداد بعيدى الفطر والأضحى احتفالاً باهراً ، كما حرصوا منذ بداية القرن الرابع الهجري على الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ، واحتفلوا بيوم النوروز وهو أول أيام السنة عند الفرس وأحد مواسمهم القديمة وكان المسلمون قد أبطلوا الاحتفال بهذا العيد في بلاد الفرس بعد الفتح الإسلامي ، غير أنه عاد في الصدر الأول من أيام العباسيين ، وكان الناس يتبادلون فيه الهدايا ^(٢) .

وكذلك الحال في عيد المهرجان ، وهو أول أيام الشتاء ، فكان الناس يتهادون فيه ، وقد جرت العادة أن يخلف الخلفاء في هذا العيد ملابس الشتاء على القواد وكبار رجال الدولة . وكان اليوم الخامس من المهرجان من أعظم أيام الفرس ويسمونه رام روز . واهتم الفرس كذلك بعيد الرام ، ويقع في اليوم الحادى والعشرين من المهرجان ^(٣) .

(١) السعوى : مروج الذهب ج ٣ ص ٥٣٥ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٣٣٨ .

(٣) Browne : Literary History of Persia, Vol. 1. pp. 114, 256, 475

وبذلك احتفل العباسيون بأعياد الفرس وخاصة : النوروز والمهرجان والرام ، وأصبحت من أهم الأعياد الرسمية في الدولة العباسية .

وفي أيام الجمع والأعياد في العصر العباسي ، كان يسير في مقدمة موكب الخليفة : الناس على اختلاف طبقاتهم حاملين الأعلام ، ثم أمراء البيت العباسي على الخيول المطهمة ، ثم الخليفة لا بسا القباء الأسود وعليه قلنسوة طويلة مزينة بجمهرة ومتمنطقا بمنطقة مرصمة بالجواهر ومتشحا بعباءة سوداء ، وبين يديه كبار جال الدولة^(١) . ومن أعظم مواكب العباسيين ، عدا موكب الخليفة ، موكب الحج حيث يجتمع في بغداد الحجاج من مختلف الأمصار الإسلامية الشرقية .

مجالس الغناء والموسيقى في بغداد :

بدأت الدولة العباسية على يدى السفاح ثم أبى جعفر المنصور ، والمهد عهد فتن وتنازع وتشيع وتحزب ، فطبع المنصور نفسه على اليقظة والسهو ، ولا شك أن خليفة مثل هذا جبل على الحرص وتنكب أسباب الشك ، يخفو الطرب ويصرف نفسه عن الاشتغال بالملاهي ، حتى لا يجد أعداؤه المتربصون به سبيلا إلى اقتحام ملكه . وكان اتصافه بالبخل واشتهاره به ، من الأسباب التي باعدت بينه وبين شعراء عصره حتى خرج الشعراء في أيامه من الحضرة إلى غير وجهة . وذكر صاحب المقد الفريد أن حاجب المنصور قال : إن الشعراء ببابك وهم كثيرون ، طالأت أيامهم ونفذت نفقاتهم ، والغناء يطلب البذخ والترف ، فلم يكن في عهد المنصور قبس من الأمل في الارتقاء ، وكان المنصور ورعا يعير آل الزبير بحبهم للغناء ، وقد سمع ذات يوم ضرب طنبور في داره ، فكسره على صاحبه ، ولم يسمح بالغناء إلا بعد إنشائه بغداد التي كانت فيما بعد موئل الفن

(١) سيد أمير على مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٦ — ٣٨٧ .

وكعبة الفناء ، بيد أنه يجدر ألا تنسى أن العرب في خلافة المنصور ، عربوا كتابا لبطليموس في الألحان الثمانية ، كان له في الموسيقى إذ ذاك شأن كبير .

ولم تعدم الدولة العباسية فيما بعد خلفاء من أمثال المنصور في إقبالهم على الفناء وزهدهم في سماع الموسيقى ، كما فعل المأمون بعد عودته من خراسان ، فقد وجد القوضى ضاربة أطناها ، فأمر بمنع الفناء ، ولكن ذلك كان إلى حين ، وريثا صفا له الزمان واتسقت الأمور ، ثم ما لبث أن أغرق في اللهو حتى صار يسمر عنده كل ليلة إسحق الموصلي وإبراهيم بن المهدي ، وكان يقول لهما : بكرا على قد اشتقنا إلى الصبح^(١) ، وتشبه الخليفة المهدي العباسي بعمر بن عبد العزيز في ورعه وتقواه ، فلما ولي الخلافة سنة ٢٥٥ هـ أمر بتحريم الطرب .

على أنه فيما عدا هؤلاء ، ترى الخلفاء العباسيين قد أقبلوا على الفناء ، وشارك الخلفاء في ذلك الأمراء والعامة ، وأخذ الخلفاء يقدقون الهبات والمدايا على المغنين ، وساعدهم على ذلك ، تلك الثروة التي حفلت بها بغداد . وأكثر من ذلك أن كثيراً من الخلفاء العباسيين اشتغلوا بصناعة الألحان وبرزوا فيها وذاعت لهم أنغام رائعة ، ومن أشهرهم المهدي بن المنصور الذي كان قصره مجمع للموسيقيين ، ومنهم الواثق والمنتصر والمعتمد والمتعضد . وكان أول من دونت صنعتهم في الفناء من أبناء الخلفاء : إبراهيم بن المهدي ، وأخته عليّة وأبو عيسى بن الرشيد ، وعبد الله بن موسى الهادي ، وعبد الله ابن محمد الأمين ، وعيسى بن المتوكل ، وعبد الله بن المعتز . وحفلت دور البرامكة بالجوارى المغنيات ، ويقال إنهم الذين كانوا يعلمونهن الفناء .

ولم تكن عناية بعض الخلفاء العباسيين في بغداد برجال الأدب والشعراء ،

(١) الصبح : الحمر التي تشرب صباحاً ، أما الغبوق فهي الحمر التي تشرب في المساء .

أقل من عنايتهم برجال الفن الجميل من المطربين والمغنين والموسيقيين ، فقد كان كل منهم معطاء للأموال ، حتى كان يندق على هؤلاء جميعا الهبات ، بما حبيه إليهم ، واتصف الخلفاء بحب الفنون والإقبال على تشجيعها والأخذ بنواصر أصحابها .

وقد جرت عادة بعض الخلفاء العباسيين على الظهور في مجالس الغناء مثل المهدي والهادي ، ولكن السفاح والمنصور لم يظهر قط فيها على الرغم من محبتهم الغناء والطرب له . وفاق هارون الرشيد الخلفاء في ولوعه بالغناء والموسيقى وإجزاله العطاء للمغنين والموسيقيين ، وهو أول من جعل المغنين مراتب وطبقات ، كان آخرها طبقة المضحكين وأهل الهزل والفكاهات . ولم يكن بينها رغم ذلك — على حد قول الجاحظ — « خسيس الأصل ولا وضعيه ولا ناقص الجوارح ولا فاحش القول ولا مجهول الأبوين ولا ابن صناعة دينية » . على أنه إذا أظهر أحد المغنين براعة في فنه ، أمر الخليفة بترقيته إلى الرتبة التي تلو رتبته . فإن برصوما الزامر أعجب الرشيد ، فأمره صاحب الستارة أن يؤمر على غناء ابن جامع المغنى المشهور ، فرفض ذلك برصوم ، وقال : إن كنت أزمرك على الطبقة العالية رفعت إليها ، فإما أن أكون في الطبقة الثانية وأزمرك على الأولى فلا أقبل ، فقال الرشيد لصاحب الستارة : إرفعه إلى الطبقة الأولى ^(١) .

ولم يجتمع على باب خليفة من المغنين والموسيقيين ، ما اجتمع على باب الرشيد . ومن نبغ منهم في عهده منصور زلزل الذى اشتهر بحسن الضرب على العود . حتى قيل إنه كان إذا جسه لم يملك أحد نفسه حتى يطرب ، وذاعت شهرة المغنى مسكين المدنى الذى فاق فى الغناء ابن جامع أشهر معنى عصره ، فقد غنى ابن جامع يوما فى مجلس الرشيد فلم يطرب الخليفة ، وإذا

(١) الجاحظ : كتاب التاج من ٣٨ .

ذاك قال صاحب الستارة لمسكين : بأمر أمير المؤمنين إن كنت تحسن هذا الصوت أن تغنى ، فاندفع فى الغناء وأعجب به الرشيد وطلب إليه أن يعيد على مسامعه ما غناه فأعاده بقوة ونشاط ، فقال له الخليفة : أحسنت وأجملت .

وحظى إبراهيم الموصلى وابنه إسحق برضاء الخلفاء العباسيين ، وكانا من رجال الأدب ، ولكن الغناء قد غلب عليهما بما وضعاه من الألحان ، وقد أبدع إبراهيم فى تنسيقها ، حتى توهم أن الأرواح هى التى تعلمه الصوت^(١) . ولم يقتصر مجلس الغناء على الخلفاء وحدهم بل جازاهم فى ذلك المفضل الأمراء والوزراء وسائر رجال الدولة ، وكان المغنون يلبسون « الثياب المطبوعة » ، وكانوا إذا جلسوا فى تلك المجالس لبسوا الثياب الحمر والصفرة والخضرة ، ثم جلسوا يشربون ودارت الكاسات ، ولم تخل تلك المجالس من النوادر والطوائف التى تملؤها بهجة ومرورا . وكما ارتفع شأن الغناء ، ازدهرت الموسيقى ، وكثيراً ما اشتركت الأميرات وسيدات الطبقة الراقية فى بغداد فى رحلات موسيقية خاصة^(٢) .

وحفلت مجالس الغناء بالأدباء والمغنين ، وأجزل لهم هارون العطاء مما جذبهم إليه . واشتهر من بينهم المغنى زرياب ، الذى أنجب حمدونة وعليه ، فتعلمتا الغناء على يدي أبيهما وأصبحتا من شهيرات المغنيات .

كان زرياب ، والد حمدونة وعليه ، مولى الخليفة المهدي العباسى ، فارسي الأصل وكان شاعراً مطبوعاً وأديباً ملماً بعلوم النجوم وأخلاق الشعوب وطبائعها وسير الملوك ، حافظ لكثير من الحكم والأمثال ، كما كان فصيحاً حلو الحديث حسن الصوت ، تعلم الغناء على إسحق الموصلى وتفوق عليه دون أن يشعر بذلك

(١) الأغاني ج ٢ ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٣١٥ .

وقد طلب هارون الرشيد من إسحق أن يأتي له بمغني غريب قد حذق الغناء ، وإن لم يكن قد اشتهر في هذا الفن ، فذكر له تلميذه زرياب ، فلما كلفه الرشيد أعرب عن نفسه بأحسن منطلق وأوجز خطاب ، وسأله عن معرفته بالغناء : نعم ! أحسن منه ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه مما لا يحسن إلا عندك ، فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك ، فأمره الرشيد بالغناء ، فجلس ثم اندفع فغناه :

يا أيها الملك الميمون طائرهم هارون راح إليك الناس وابتكروا
فأتم النبوة ، وطار الرشيد طرباً وأنب إسحق على كتمانته أمر زرياب عنه .
فسقط في يد إسحق وخلا بزرياب وقال : يا على ! إن الحسد أقدم الأدواء وأدواها
والدنيا فتاكة ، والشركة في الصناعة عداوة ولا حيلة في حسمها ، فتخير في ثنتين
لا بد لك منهما : أن تذهب عنى في الأرض العريضة لا أسمع عنك خبراً ، وأما
أن تقيم على كرهى ورغى مستهدفاً إلى . فاختر زرياب الرحيل ، ورحل أولاً
إلى المغرب ومنها إلى الأندلس في خلافة عبد الرحمن الأوسط ، الذى أحب
زرياب حباً شديداً وقدمه على جميع المفاين^(١) .

تلك هى حياة زرياب الأولى ، وقد ورثه أولاده فى الغناء وكانوا ثمانية
ذكور وبنين هما علية وحمدونة ، وقد تعلموا جميعاً الغناء ومارسوا صناعة الغناء ،
وأصبحت أسرته كلها تحترف هذا الفن . وتزوجت علية بنت زرياب من الوزير
هشام بن عبد العزيز ، أما حمدونة فقد تفوقت فى فن الغناء على أختها علية ،
وتقدمت فى السن ، حتى لم يبق من بيت زرياب على قيد الحياة سواها ، وأخذ
عنها الغناء على أصوله التى وضعها والدها .

ويرجع الفضل إلى زرياب فى تعليم الجوارى الغناء فقد كانت له جوار أدهن

(١) المرقى : تقع الطيب ج ٢ ص ٧٠٠ — ٧٠١ .

وعلمهن الفناء على العود . ومن أشهرهن غزلان وهنيدة اللتين كانتا تأخذان عودها بمجرد أن يهب زرياب من نومه ويأخذ هو عوده ، ثم يكتب الشعر ويعود إلى مضجعه . ومن بين هؤلاء الجوارى ، اشتهرت هنيذ بفطرها ، وقد أعجب بها الخليفة عبد الرحمن الأوسط فأهداها زرياب إليه ، وأصبحت من محظياته المقربات .

وكان خلفاء العصر العباسي الثاني يجالس للطرب والفناء يحضرها الشعراء والأدباء والمغنون والموسيقيون والملهون ، فقد جمع مجلس المتوكل أول خلفاء هذا العصر مرة بين الشعراء والأدباء والملهين ، وفرح في ذلك اليوم فرحاً شديداً وسروراً لم يرمثه ، وزاد في تسكرمة الشعراء وأجزل لهم العطاء .

وكان الخليفة المعتمد مشغوقاً بالطرب والفناء والموسيقى ، سأل مرة عبد الله بن خرداذبة والد أبي قاسم عبيد الله الجعفي المشهور صاحب كتاب « المسالك والممالك » ، عن نشأة الموسيقى والفناء وما طرأ عليهما من تغيير . فأجاد في وصفها في البلاد الإسلامية منذ أقدم العصور ، فسر المعتمد وقال له : قد قلت فأحسن ، ووصفت فأطنبت ، وأقت في هذا اليوم سوقاً للفناء وعيداً لأنواع الملاحى ، ثم سأله المعتمد عن أنواع الطرب ، فقال على ثلاثة أوجه : طرب محرك ينعش النفس ودواعي الشيم (السكرم) عند السماع ، وطرب شجن وحزن لا سيما إذا كان الشعر في وصف أيام الشباب والشوق إلى الأوطان والمرئى لمن عدم من الأحباب ، وطرب يكون في صفاء النفس ولطافة الحس . وسأله المعتمد : فما منزلة الإيقاع وفنون النغم ، قال إن منزلة الإيقاع من الفناء منزلة العروض من الشعر ^(١) ، « يقول السعدي : ففرح المعتمد في هذا اليوم وخلع على ابن خرداذبة وعلى من حضره من ندمائه ، وفضله عليهم ، وكان يوم لهو وسرور »

وكان الخليفة العباسي في العصر الثاني يهتم بمجالس الطرب ، فقد تملك
الراضى المم لا استبداد بحكم بأمور الدولة وسكة النقود باسمه ، ولكنه أزال عن
نفسه المم وتمثل بقول المأمون :

صل الندمان يوم المهرجان بضاف من معتقة الدنان
بكأس خسروانى عتيق فإن العيد عيد خسروان^(١)

وتعدت مجالس الغناء والطرب ، من الخلفاء إلى الأمراء وكبار رجال الدولة .
ويرجع انتشار الغناء إذ ذاك إلى كثرة الجوارى ، وكان معظم القيان اللاتى يحترفن
الغناء فى أوائل القرن الرابع الهجرى من الجوارى ، وقليل منهن من الحرائر^(٢) .
وفى سنة ٤٢١ هـ أمر الخليفة القاهر بتعريم القيان والخر ، وقبض على المغنيين
وكسر آلات اللهو كما فعل الحفابلة فى أوائل هذا القرن ، وأمر ببيع المغنيات
من الجوارى ، مع أن هذا الخليفة كان مولماً بالشراب وسماع المغنيات .

(١) السموذى : مروج الذهب ج ٢ ص ٥٢٩ — ٥٣٠ .

(٢) متر : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢٦٦ .

مصادر الكتاب

مرتبة حسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين

أولا — مصادر عربية مخطوطة

إيليا المطران :

« مقالة في المكيال والأوزان »

مخطوط بالمكتبة التيمورية بدار الكتب رقم ٣٤١ رياضيات .

ابن الرفعة : أبو العباس نجم الدين أحمد بن محمد بن علي

« الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان »

مخطوط بالمكتبة التيمورية بدار الكتب رقم ٣١٢ رياضيات .

ابن الضياء المكي : أبو التقى محمد بهاء الدين بن الضياء المكي العمري .

« تاريخ مكة المشرفة »

مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٧٠ تاريخ .

المبيدي : أبو علي محمد

« اصول الأحساب وفصول الأنساب »

مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٩ تاريخ .

المجيمي : حسن بن علي

« إهداء الطائف من أخبار الطائف »

مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٧ تاريخ .

ابن عراق : علي بن محمد

« نشر الطائف في قطر الطائف »

مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٣٣ تاريخ .

المسكري : أبو هلال الحسين علي المسكري

« الأوائل » . مخطوط بدار الكتب رقم ٢٧٧٣ تاريخ
ابن قدامة المقدسي (٦٢٠ هـ) : أبو محمد عبد الله بن عبد الله بن أحمد
« الاستبصار في أنساب الأنصار » مخطوط بدار الكتب ٤٣٩
النهرواني (٩٨٨ هـ) قطب الدين محمد بن أحمد المكي
« الإعلام بأعلام بيت الله الحرام » مخطوط بدار الكتب رقم ٨٤٧ تاريخ

مؤلفه غير معلوم

« خلاصة السيرة الجامعة لمعجائب أخبار ملوك التباينة » .
شرح لم يعلم مؤلفه ، على القصيدة الحميرية ، لأبي الحسن نشوان بن
سعيد الحميري

ثانياً — مصادر عربية منشورة

الأبشيبي : شهاب الدين أحمد .

« المستطرف في كل فن مستظرف » جزءان

أبكار يوس الأرمني :

« نهاية الأرب في أخبار العرب » (مرسيليا ١٨٥٢ م)

ابن الأثير : (٦٣٠ هـ = ١٢٣٨ م) علي بن أحمد بن أبي الكرم

« الكامل في التاريخ » ١٢ جزء (بولاق ١٢٧٤ هـ)

« أسد الغابة في معرفة الصحابة » ٥ أجزاء (القاهرة ١٢٨٥ هـ)

أحمد أمين :

« فجر الإسلام » (القاهرة ١٩٢٨)

« نحي الإسلام » ٣ أجزاء (القاهرة ١٩٣٣ - ١٩٣٦)

« عكاظ والمربد » (بحث مجلة كلية الآداب ، مايو ١٩٣٣)

« الفتوة في الإسلام » ، (بحث في مجلة كلية الآداب ، مايو ١٩٤١) .

« الصعلكة والفتوة في الإسلام » - سلسلة إقرأ رقم ١١١

أحمد عيسى :

« ألعاب الصبيان عند العرب » ، بحث مجلة مجمع اللغة العربية ،

١٩٣٧ ، ٢٥ .

« تاريخ البيمارستانات في الإسلام (القاهرة ١٩٣٩) م .

الأزرقى : الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد

« أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار » جزان

(المطبعة المأجدية بمكة ١٣٥٢ هـ ، نشر الأستاذ رشدي الصالح)

إسرائيل ولفنسون :

تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام (القاهرة ١٩٢٧ م)

أحمد داغر :

« حضارة العرب » (القاهرة ١٩١٨ م)

إسماعيل أحمد آدم :

« علم الأنساب العربية » (القاهرة ١٩٣٨ م)

الاصطخري : أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفارسي

« مسالك المالك » (ليدن ١٨٧٣ هـ)

الأصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين

« الأغاني » (بولاق ١٣٨٥ هـ) ، والجزء ٢١ ، طبع ليدن سنة ١٣٠٥ هـ

والأجزاء التي نشرتها دار الكتب منذ سنة ١٩٢٧ م

الألوسي : السيد محمود شكري

« بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » ٣ أجزاء سنة ١٩٢٤ م

البلاذري (٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م) : أحمد بن يحيى بن جابر .

« فتوح البلدان » (القاهرة ١٣١٨ م)

البغدادي : أبو الفوز محمد أمين

« سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب » (بمباي ، ١٢٩٦ هـ)

البغدادي : عبد القادر بن عمر

« خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب » (بولاق ، ١٢٩٩ هـ)

البقاعي : برهان الدين :

« لعب العرب بالميسر في الجاهلية الأولى » (ليدن ١٣٠٣ هـ) .

البكري : عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عمر :

« معجم ما استعجم » أربعة أجزاء تحقيق الأستاذ مصطفي السقا —

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

بندلي سليبا الجوزي

« الأمومة عند العرب » ، (طبع كازان ١٩٠٢) وهو ترجمة كتاب

Wilken : Das Matriarchet bei den Alten Arabern, 1884,

البيروني : أبو الريحان محمد أحمد الخوارزمي

« الآثار الباقية عن القرون الخالية » لبيسك ١٨٧٨ م)

التبريزي : أبو زكريا يحيى بن علي محمد بن بسطام .

« شرح أشعار الحماسة »

نشر الأستاذ فريتاغ Freytag ، طبع Bonnae ، ١٨٢٨ م

الثعالبي النيسابوري : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل

« غرر أخبار ملوك الفرس ومصريهم » (باريس ١٩٠٠)

الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد

« لطائف المعارف » (ليدن ١٨٦٧) نشر الأستاذ جونج Jong

جورجي زيدان

« تاريخ آداب اللغة العربية » (القاهرة ١٩١١ م)

« أنساب العرب القدماء » (القاهرة ١٩٢١ م)

« تاريخ التمدن الإسلامي » • أجزاء (القاهرة ١٩٣١ م)

« تاريخ العرب قبل الإسلام » (القاهرة ١٩٢٢ م)

ابن الجوزى (٥٩٧ هـ) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد

« سيرة عمر بن الخطاب »

الجهشياري (٣٣١ هـ) أبو عبد الله محمد بن عبدوس :

« كتاب الوزراء والكتاب » (القاهرة ١٩٣٨).

نشره الأستاذة مصطفى السقا وإبراهيم الإيباري وعبد الحفيظ شلبي

الجاحظ (٢٥٥ هـ = ٨٦٩ م) : أبو عثمان عمرو بن بحر

« كتاب التاج في أخلاق الملوك » .

حققه المرحوم الأستاذ أحمد زكي (القاهرة ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤ م)

ابن حجر العسقلاني (٨٥٣ هـ) شهاب الدين بن علي

« الإصابة في تمييز الصحابة » (القاهرة ١٩٢٣ م)

حسن إبراهيم حسن

« السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية » تأليف

فان فلوطن (ترجمة إلى العربية)

« الدعوة إلى الإسلام » تأليف توماس أرنولد (ترجمة إلى العربية ١٩٤٧)

« تاريخ الإسلام السياسي » الأجزاء : ٣٢١ (القاهرة ١٩٤٥-١٩٤٨)

ابن عبد الحكم (٣٥٣ هـ) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله

« فتوح مصر والمغرب »

ابن أبي الحديد (٤٠٤ هـ) الشريف الرضي محمد بن أبي أحمد الحسيني

« كتاب شرح نهج البلاغة » ٤ مجلدات (القاهرة ١٣٢٩ هـ)

الخلعي (١٠٤٤ هـ) . علي بن برهان الدين إبراهيم بن أحمد

« إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون » .

ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن أحمد .

« المسالك والممالك » . (ليدن ١٣٠٦ هـ) .

الخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ) : الحافظ أبو بكر أحمد بن علي

« تاريخ بغداد أو مدينة السلام » ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٤٩ = ١٩٣٦ م)

ابن خلدون (٨٠٨ هـ) : عبد الرحمن بن محمد بن محمد جابر .

« المعبر وديوان المبتدأ والخبر » ٧ أجزاء (القاهرة ١٣٨٤ هـ)

« المقدمة » (بيروت ١٩٠٠ م)

ابن خلكان : شمس الدين أبو المباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر

« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » . جزءان (بولاق ١٢٨٣ هـ)

والمطبعة البغية بمصر ١٢١٠ هـ)

ترجمه إلى الإنجليزية De Slane - (باريس ١٨٤٢ - ١٨٤٨)

ابن دريد : أبو محمد بن الحسر الأزدي .

« الاشتقاق » طبع جوتنجن Gotingen ، ١٨٥٤ م

دحلان : أحمد زيني

« السيرة النبوية والآثار الحمديّة »

(على هامش السيرة الحلبية) - القاهرة ١٣٢٠ هـ

الدميري : كال الدين .

« حياة الحيوان » (القاهرة ١٣٠٥ هـ)

الديار بكري (٩٦٦ هـ) : حسين بن محمد بن الحسن .

« الحميس في أحوال أنفس نفيس » ، جزءان (القاهرة ١٨٢٣ هـ)

رشاد أبو السعود ، وعبد المجيد هديس

« مختصر تاريخ العرب القديم » (طبعة الشام ١٢٩٠ م) .

الزبيدي : أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني .

« نشوة الارتياح في بيان حقيقة الميسر والقдах » (ليدن ١٣٠٣ هـ)
زكى محمد حسن :

« مصر والحضارة الإسلامية » (الرسالة ١٥ من سلسلة الثقافة العسكرية
التي تصدرها إدارة الشؤون العامة في وزارة الحربية) .
« الرحالة المسلمون في المصور الوسطى » (القاهرة ١٩٤٥) .
« دراسات في مناهج البحث والمراجع في التاريخ الإسلامى » .
(مجلة كلية الآداب ، مايو ١٩٥٠) .

الزنجشبرى : محمود بن عمر .

« الكشف عن حقائق التنزيل » (كلكتا ١٨٥٦ م)

ابن سعيد : على بن موسى المغربي

« كتاب المغرب في حلى المغرب » (ليدن ١٩١٨ — ١١٩٩ م)

ابن سعد (٢٣٠ هـ) : محمد .

« كتاب الطبقات الكبير » ٨ أجزاء (ليدن ١٣٢٢ هـ) .

السيوطى (٩١١ هـ) الحافظ جلال الدين عبد الرحمن

« تاريخ الخلفاء » (١٣٥١ هـ) .

سيد أمير على :

« مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى » .

ترجمه من الانجليزية الأستاذ رياض رافت (القاهرة ١٩٣٨ م)

سعيد الأفغانى :

« أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام » (دمشق ١٩٣٧ م) .

المسمودى (٩١١ هـ) : أبو الحسن على بن عبد الله بن أحمد .

« وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى » (القاهرة ١٢١٦ هـ) .

المسبلى : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخنمى .

« الروض الأنف » جزءان (القاهرة ١٩١٤ م)

ابن سيدة : أبو الحسن على بن اسماعيل

« المخصص » (القاهرة ١٣٢١ هـ) :

سيدة اسماعيل كاشف :

« مصر في فجر الإسلام » (القاهرة ١٩٤٧) .

« مصر في عصر الإخشيديين » (القاهرة ١٩٥٠) .

الشهر ستاني : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم .

« الملل والنحل » ، (لندن ١٨٤٦)

الشيذري : عبد الرحمن بن نصر .

« نهاية الرتبة في طلب الحسبة » نشر الدكتور الباز العريفي :

(القاهرة ١٩٤٦) .

ابن طباطبا : محمد بن طباطبا ، المعروف بابن الطقطقي .

« الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية » (القاهرة ١٩٢٣)

الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير .

« تاريخ الرسل والملوك » نسخة في ثمانية عشر مجلداً ، طبع مطبعة بريل

بمدينة ليدن من سنة ١٨٧٩ إلى سنة ١٨٩٨ م .

الطرطوشي : محمد بن الوليد الفهري .

« سراج الملوك » (القاهرة ١٢٩٩ هـ) .

طه حسين :

« الفتنة الكبرى — عثمان » (القاهرة ١٩٤٨ م) .

« علي وبنوه » (القاهرة ١٩٥٣) .

طيفور (٢٣٠ هـ = ٨٩٣ — ٨٩٤ م : أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر

« تاريخ بغداد » (ليبسك ١٩٠٨ م)

عبد الحميد العبادي :

« صور من التاريخ الإسلامي ، العصر العربي » (الأسكندرية ١٩٤٨)

« أحاييش قريش — هل كانوا عربا أو حبشا ؟ » بحث في مجلة كلية

الآداب ، مايو ١٩٣٣ .

ابن عبد ربه : أبو عمر أحمد بن محمد عبد ربه الأندلسي

« العقد الفريد »

نشره الأساتذة : أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري

(القاهرة ١٩٤٠)

« بلوغ الأرب في مآثر العرب » مطبعة الصفا في لبنان ١٣١٩ هـ

العمرى : ابن فضل الله

« مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » (القاهرة ١٩٢٤)

على إبراهيم حسن :

« النظم الإسلامية » (القاهرة ١٩٣٩)

« نساء لمن في التاريخ الإسلامي نصيب » (القاهرة ١٩٥٠)

« مصر في العصور الوسطى » (القاهرة ١٩٥١)

على عبد الواحد وافي :

« الأسرة والجمتمع » (القاهرة ١٩٤٥)

« وأد البنات عند العرب في الجاهلية ، عوائله الصحيحة وموقف

الإسلام منه » (مجلة « الرسالة العدد ٤٠٠ ، مارس ١٩٤١)

فارس بن يوسف الشدياق :

« الساق على الساق فيما هو الفاريق ، أو أيام وشهور وأعوام في عجم
العرب والأعجام » (باريس ١٩٥٥ م) .

أبو الفداء : إسماعيل بن ، عماد الدين صاحب حماة .

« المختصر في أخبار البشر » ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ

والقاهرة ١٣١٥ هـ) .

ابن قتيبة الدينوري : أبو محمد عبد الله بن مسلم .

« المعارف » (القاهرة ١٩٣٤)

« اليسر والقдах » (القاهرة ١٣٤٢ م)

قدورة : زاهية .

« عائشة أم المؤمنين » (القاهرة ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م)

« الجامع لأحكام القرآن » (القاهرة ١٩٣٧)

القلقشندي : أبو العباس أحمد

« صبح الأعشى في صناعة الانشاء » ١٤ جزءا (القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩)

الكاساني الحنفي :

« بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع » ج ٢ (القاهرة ١٣٢٧ هـ)

الكرملی — الأب أنستاس مارى الكرملى

« النقود العربية وعلم النميات » (القاهرة ١٩٢٩)

ابن السكلى : أبو للنذر هشام بن أبى النصر محمد بن السائب

« الأصنام » (بولاق ١٣٣٢ هـ) .

الكندى (٨٣٥٠) : أبو عمر محمد بن يوسف

« كتاب ولاية مصر »

نشره روفن جست باسم « كتاب الولاية وكتاب القضاة » لندن ١٩١٧ م)

الماوردي (٨٤٥٠ = ١٠٥٧ م) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب المصري
« الأحكام السلطانية » (القاهرة ١٢٩٨ هـ ولندن ١٩٠١ م)

متز: آدم

« الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » .

ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو رييدة

السعودي (٨٣٤٦) : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي .

« مروج الذهب ومعادن الجوهر » جزآن (القاهرة ١٣٠٣ هـ)

مصطفى بدر :

حفنة الإسلام الكبرى — سقوط بغداد

أبو المحاسن (٨٨٧٤) جمال الدين يوسف بن تغري بردي

« النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » (القاهرة ١٩٣٠ — ١٩٤٨)

المقري (١٠٤١ هـ = ١٦٣٣ م) : شهاب الدين أحمد بن محمد

« نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب » .

٤ أجزاء (بولاقي ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢ م)

مسكويه (٨٤٢١)

« تجارب الأمم وتعاقب الأمم » ٣ مجلدات ، عني بتصحيحها

أمديروز Amedroz (القاهرة ١٢٣٢ هـ = ١٩١٤ م)

المبرد : أبو العباس محمد

« البكامل في الأدب » جزآن (القاهرة ١٢٢٤ هـ)

محمد جمال الدين سرور :

« قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد صلى الله عليه وسلم »

(القاهرة ١٩٥٢)

محمد الحضري :

« تاريخ الأمم الإسلامية » ٣ أجزاء

محمد عبد المعيد خان

« الأسير العربية قبل الإسلام » (القاهرة ١٩٣٧ م)

مولاي محمد علي :

« محمد رسول » (القاهرة ١٩٤٨)

ترجمه إلى العربية الأستاذ مصطفى فهمي والأستاذ سميد جودة السحار

محمد كرد علي :

« الإسلام والحضارة العربية » جزآن (القاهرة ٩٣٤ — ١٩٣٦ م)

محمد نعمان الجارم :

« أديان العرب في الجاهلية » جزآن (القاهرة ١٩٢٣)

محمد لييب البقنوني

« الرحلة الحجازية » طبعة ثانية ، ١٣٢٩ هـ

المرزوقي : أبو علي الأصمغاني

« الأزمنة والأمكنة » ، طبع مجلس دائرة المعارف بالهند ١٣٣٢ هـ

المقريزي . تقي الدين أبو محمد أحمد بن علي

« النزاع والتخادم فيما بين أمية وهاشم » (ليدن ١٨٨٨) م

« شذور المقود في ذكر النقود » (المطبعة الحيدرية في النجف ١٣٥٦ هـ)

ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم

« لسان العرب » (بولاق ١٣٠٢ — ١٣٠٧ هـ)

نايية أبوت :

« المرأة والدولة في فجر الإسلام »

بحث ترجمه الأستاذ محمد عبد الغنى حسن المجلة الأمريكية للغات
السامية وآدابها .

التبجيزى : إسحاق إبراهيم بن عبد الله

« إيمان العرب في الجاهلية » (القاهرة ١٣٤٣ هـ)

ابن النديم : (٣٨٣ = ٩٩٣) محمد بن اسحق

« الفهرست » جزءان (ليبسك ١٨٧١ م)

النووى (٦٧٦ هـ = ١٢٧٧) . أبوزكريا محيى الدين بن شرف

« تهذيب الأسماء واللغات » جزءان (القاهرة)

ابن هشام : عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى

« سيرة رسول الله » طبع جوتنجن ، ١٢٧٦ هـ - ١٧٦٢ م

الهمداني : أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب

« الإكليل » ج ٨ نشرة الأب أنستاس مارى الكرملى (بغداد ١٩٤١)

أبو هلال الصابى . (٤٤٨ هـ = ١٥٠٦ م)

« كتاب تحفة الأسراء فى تاريخ الوزراء » طبعة هـ . ف . أمدرود

هنرى لامنس :

« الأحابيش والنظام العسكرية فى مكة زمن الهجرة » (بحث فى مجلة

المشرق الكاثوليكية ، ١٩٣٦)

« الحجارة المؤلفة ومظاهر عبادتها عند العرب الجاهلية » (بحث [

فى مجلة المشرق ، ١٩٢٨)

الواقدي (٢٠٧ هـ) : أبو عبد الله محمد بن عمر

« فتوح الشام » (القاهرة ١٣٠٢ هـ)

وسقفلا : فردنند

« تواريخ مكة المشرفة » ، (مدينة غتقة ، ١٢٨٥ هـ)

وهب بن منبه :

« تاريخ ملوك حمير »

لويس شيخو

« النصرانية وآدابها بين حرب الجاهلية » (بيروت ، ١٩١٢)

ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله الحوي

« معجم البلدان »

اليقوني . أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب المعروف بابن واضح .

« تاريخ اليقوني » ٣ أجزاء (النجف ١٣٥٧ هـ)

يوسف رزق الله غنيمية :

« الحيرة - المدينة والمملكة العربية » (بغداد ، ١٩٣٦ م)

« نزعة المشتاق في تاريخ يهود العراق » ، بغداد (١٩٢٤ م)

أبو يوسف (١٩٢ هـ = ٧٠٧ م) : يعقوب بن إبراهيم

« كتاب الخراج » (بولاقي ١٣٠٢ هـ والمطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦ هـ)

ثالثاً - مصادر أوروبية

Ameer : Sayed Ali.

A Short History of the Saracens. (London, 1939)

Brockelman : Carle.

History of the Islamic Peoples. (London, Rutledge & Paul, 1949).

Browne : E. G.

A Literary History of Persia (2 Vols. London 1902—1903).

Burckhardt : J. J.

1. Travels in Arabia. (London, 1819)

2. Arabic Proverbs (2 nd. ed. London, 1875)

Burton : R. F.

Personal Narrative of a Pilgrimage to Al-Madinah and Meccah. (2 Vols. London, 1898)

Causssin de Perceval ;

Essai sur L'Histoire des Arabes avant l'Islamisme.

(3 Vols. Paris 1847—1848)

Doughty : C. M.

Travels in Arabia Deserta. (2 Vols. Cambridge, 1888)

Dozy : R.

Supplément aux Dictionnaire detaille des noms des Vêtements chez les Arabes. (Paris, 1845)

Encyclopædia of Islam. (London and Leyden, 1913—193)

Freeman : E. A.

The History and Conquests of the Saracens (London 1876).

Fresnel : E.

Lettres sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme,
(Paris, 1836)

Gibb : H. A. R.

Arabic Literature. (London, 1928)

Gibbon : E

History of the Decline and Fall of the Roman Empire, 7 Vols.

Gilman : Arthur

The Saracens from the Earliest times to the Fall of Baghdad.

Hell, Joseph

Die Kultur der Araber. translated from the German by Khuda Bukhsh under the title «The Arab Civilisation» (London, 1926)

Hitti, ph.

History of the Arabs, (London 1927)

Hogarth : N. G.:

The penetration of Arabia. (London, 1905)

Arabia. (Oxford 1922)

Huart, élément :

Histoire de Arabes. 2 Vols. (Paris. 1912—1913).

Kierman : R. H.

The Unveiling of Arabia. (London, 1937)

King : L. W.

A History of Babylon from the Foundation of the Monarchy to the Persian Conquest (London. 1919).

Lammens : Henry.

1. Le Berceau de L'Islam. (Romae 1914)

2. La Cité Arabe de Taif à la Veille de L'Hégire. (Beyrouth 1922) (Méanges de L'Université Saint-Joseph, Beyrouth, tome VII)

3. Fatima et les Filles de Mahomet (Romae. 1912)

4. Mahomet fut-il Sincère ?

(Extrait des «Recherches de Science Religieuse» Nos 1. (Let 2. Paris, 1911)

5. Les Ahabis et l'Organisation Militaire de la Mecque au siècle de L'Hégire.

(Journal Asiatique, onzième série, tome VIII, 1916)

6. La Republique Marchande de la Mecque vers L'an 600 de notre ère. (Extrait du Bulletin de L'institut Egyptien 5 serie)

7 La Mecque à la veille de L'Hegire.
(Mélanges de L'Université Sait - Joseph, Beyrouth, tome IX)

Le Strange : Guy

1. Baghdad during the Abbasid Caliphate (Oxford. 1924).
2. A Greek Embassy to Baghdad 'in 917 A D. (J. R. A. S.).

Lane-Poole, S.

The Muhammadan Dynasties (Paris 1905)

Levy : R.

Persian Literature. (London 1923)

Lyall, ch.

Ancient Arabian Poetry (London. 1930)

Margoliouth

1. Mohamed and the Rise of Islam. (London & New York)
2. The Relations between Arabs Israelites prior to the Rise of Islam. (London 1924)

Muir, W.

1. Life of Mahomet. 4 Vols (London. 1858—1861)
2. The Caliphate, its Rise, Decline and Fall, (Oxford, 1902)

Nicholson, Reynold

A Literary History of the Arabs. (London, 1907)

Noldeke, th.

1. Sketches from Eastern History Translated by J. S. Black. (London, 1892)
2. The Scope and Influence of Arabic History (The Historians' History, of the World Vol. 8. London, 1908)

O L'earry de Lacy.

Arabia before Muhammad. (London, 1927)

Perron, M.

Femmes Arabes avant et depuis L'Islamisme. (Paris, 1858
Robertson Smith.

1. Kinship and Marriage in Early Arabia. (2nd édition,
London, 1903.)

2. Lectures on the Religion of the Semites. (London, 1894)
Rutter, Eldon.

Holy Cities of Arabia. (London 1949)

Sedillot, L. A.

Histoire Generale des Arabes : leur Empire, leur Civilisation,
leurs écoles philosophiques, scientifique et littéraires.
(Deuxieme édition. 2 Vols. Paris 1877)

Sykes, Percy

A History of Persia. 2 Vols. (London, 1915 - 1921).

Thomas : B

The Arabs. (London 1937).

Von Kremer

Orient under the Caliphs, 2 Vols,
translanted by khuda Bukhsh (Calcutta, 1920 - 1927).

Zaki M. Hasan

Les Tulunides, (Paris, 1933).

كتب المؤلف

صفحة

٣٨٤

١ - النظم الإسلامية [الطبعة الثالثة ١٩٦٢]

بالاشتراك مع الدكتور حسن إبراهيم حسن مدير جامعة أسيوط السابق .
يبحث في نظام الخلافة ، والوزارة ، والكتابة ، والحجابة ، وسلطة
الولاة ، ودواوين الحكومة ، والجيش ، والبحرية ، ومصارف بيت
المال ، ونظام القضاء . ترجمه مولاي عليم الله خان صاحب صديق إلى اللغة
الأوردية ، لغة بلاد الهند الرسمية ، ونشرته ندوة المصنفين في دلهي .

٢ - نساء العرب في التاريخ الإسلامي نصيب [الطبعة الثانية ١٩٦٣] ١٤٨

يبحث في تاريخ النساء في الدولة العربية ، والدولة العباسية ، ومصر
الإسلامية الوسيطة ، ويتناول ملابس المرأة في الإسلام .

٢٧٨

٣ - سيرة القاهرة [الطبعة الثانية ١٩٥١]

بالاشتراك مع الدكتور حسن إبراهيم حسن والأستاذ ادوار حلم ، ترجم
من الانجليزية إلى العربية عن Lane-Poole : The Story of Cairo

١٢٨

٤ - جواهر الصقلي [الطبعة الثانية ١٩٦٣]

يبحث في حياة جواهر قائد المزددين الله الفاطمي ، والدور الذي قام به للمعز
في تاريخ مصر .

تابع كتب المؤلف

صفحة

٥ - مصر في العصور الوسطى [الطبعة الخامسة ١٩٦٣] ٥٦٠

من الفتح العربي إلى الفتح العثماني

يبحث في تاريخ مصر من الفتح العربي إلى الفتح العثماني . ويشمل عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين في مصر ، وعهود دول : الفولوليين ، والإخشيديين ، والفاطميين ، والأيوبيين ، والمماليك ، وذلك فيما يتعلق : بالتاريخ السياسي ، والعلاقات الخارجية ، ونظم الحكم ، والملفات ، والحالة الاقتصادية ، والحالة الاجتماعية .

٦ - دراسات في تاريخ المماليك البحرية [الطبعة الثالثة ١٩٦٣] ٤١٦

يبحث في مميزات الدولة ، وسلطنة المماليك قبل الناصر محمد وفي عهده وعهود أبنائه وحفدته ، والسياسة الخارجية ، ومبدأ الوراثة ، وألقاب السلطان ، ووظائفه ، والبيوت السلطانية ومديريها ، والحرس السلطاني داخل القصر وفي المواكب ، ونظام خلافة العباسية في القاهرة ، وهواوين الحكومة المملوكية ، وكبار الموظفين الإداريين ، والجيش المملوكي ، والقضاء والمظالم والحسبة ، والحالة المالية والاقتصادية ، والحالة الاجتماعية .

٧ - استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ [الطبعة الثانية ١٩٦٣] ٢٠٤

يبحث في طرق البحث التاريخي ، ومصادر الآثار ، ودواوين الشعراء ، ومصادر الرحالة والجغرافيين ، والمخطوطات ، ومصادر الأقدمين المنشورة

٨ - التاريخ الإسلامي العام [الطبعة الثالثة ١٩٦٣] ٦١٢

يبحث في تاريخ الجاهلية ، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة الأموية ، والعصر العباسي ، ونظم الحكم في الجاهلية والدولة العربية والدولة العباسية .

الناشر : مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي بالقاهرة